

چورچ ر. ر. مارتن

أغنية الجليد والنار

الكتاب الخامس

رقصة مع التنانين

الجزء الأول

الكتاب: رقصة مع التنانين I (الكتاب الخامس من أغنيّة الجليد والنّار) / رواية
المؤلف: جورج ر. ر. مارتن
ترجمة: هشام فهمي
عدد الصفحات: 656 صفحة
التقييم الدولي: 978-614-472-116-2
الطبعة الأولى: 2020

هذه ترجمة مرخصة لكتاب:


A Dance With Dragons by George R. R. Martin

A Dance With Dragons copyright © 2011 by George R.R. Martin

Published by agreement with The Lotts Agency Ltd.

جميع حقوق النسخة العربية محفوظة لدار التنوير ©

الناشر

 دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية قاسم فارس (سارة بنما) - الطابق السفلي

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة - 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

تنفيذ طباعي: ديمويرس - لبنان / هاتف: +961 5 472669 +961 5 472694

بريد إلكتروني: kansopress@yahoo.com / kansopress@gmail.com

چورچ ر. ر. مارتن

أغنية الجليد والنار

الكتاب الخامس

رقصة مع التنانين

الجزء الأول

ترجمة: هشام فهمي



هذا الكتاب مُهدى إلى معجبيّ
إلى لودي، وتريبلا، وستيجو، وپود، وكارس، وياجز، وإكس راى ومستر
إكس، وكايت، وشاتايا، ومورمونت، وميتش، وچايمي، وفانسا، ورو،
إلى ستوبي، ولويز، وأجراڤين، وورت، ومالت، وچو، وماوس، وتيليسان،
وبلاكفاير، وبرون ستون، وكايوتيز دوتر،
وإلى بقيّة الرّجال المجانين والنّساء الصّاريات في أخوة اللا رايات
إلى سحرة مواقعى الإلكترونيّة
إليو وليندا، سيّد وسيّدّة «westeros.org»،
وينتر وفابيو، مؤسّسى «winteriscoming.net»،
وجييز، مؤسّس «dragonstone.com»، الذي بدأ كلّ شيء
إلى رجال ونساء آشاي في إسپانيا
الذين غنّوا لنا عن دُبّ وفتاة حسناء،
والمعجبين الرّائعين في إيطاليا
الذين سقوني الكثير جدًّا من النّبذ،
وإلى قرّائي في فنلندا وألمانيا والبرازيل والبرتغال وفرنسا وهولندا
وكلّ البلدان البعيدة الأخرى التي انتظرتم فيها هذه الرّقصة
وإلى جميع الأصدقاء والمعجبين الذين سألتقيهم
شُكرًا على صبركم

ملاحظة بسيطة على التسلسل الزمني للأحداث

فترة طويلة مرّت بين الكتاب السابق والحالي، أعرفُ هذا، ولذا فقد تكون هناك حاجة إلى تذكيرة.

الكتاب الذي بين يديك الآن هو الجزء الخامس من «أغنية الجليد والنار». الجزء الرابع كان «وليمة للغربان»، إلا أن الجزء الحالي لا يتلوه في الأحداث بالمعنى التقليدي، وإنما يتزامن معه.

يُواصل «رقصة» و«وليمة» كلاهما القصة مباشرةً من حيث انتهى الجزء الثالث من السلسلة، الذي حمل عنوان «عاصفة السيوف»، لكن لما كان «وليمة» قد ركّز على الأحداث في (كينجز لاندنج) وما حولها وفي (جزر الحديد) و(دورن)، فإن «رقصة» يأخذنا شمالاً إلى (القلعة السوداء) و(الجدار) -وما وراءه- وعبر (البحر الضيق) إلى (بنتوس) و(خليج النحاسين)، لمتابعة حكايات تيريون لابستر وچون سنو ودينيس تارجارين، وجميع الشخصيات الأخرى التي لم ترها في الجزء السابق. إذن، بدلاً من أن تكونا متتاليتين، فالرّوايتان بالأحرى متوازيتان، مقسومتان جغرافياً لا زمنياً. ولكن حتى نقطة معينة.

«رقصة مع التنانين» كتاب أكبر من «وليمة للغربان»، ويغطي فترةً زمنيةً أطول، وعليه فستلاحظ في النصف الثاني من هذا الجزء ظهور عددٍ من شخصيات وجهة النظر في «وليمة للغربان» من جديد، وهو ما يعني ما تحسبه بالضبط؛ أن الحكاية تجاوزت الإطار الزمني لـ«وليمة»، وعادَ النهيران يتدفقان في مجرى واحد.

الرّواية التالية «رياح الشتاء»، حيث أملُ أن يُعاود الجميع الارتجاع معاً

من جديد...

چورچ ر. ر. مارتن

إبريل/نيسان 2011





وراء الجدار

- ◆ قلعة
- ◆ أطلال قلعة

أرض الشتاء السرمدي
(غير مرسومة)

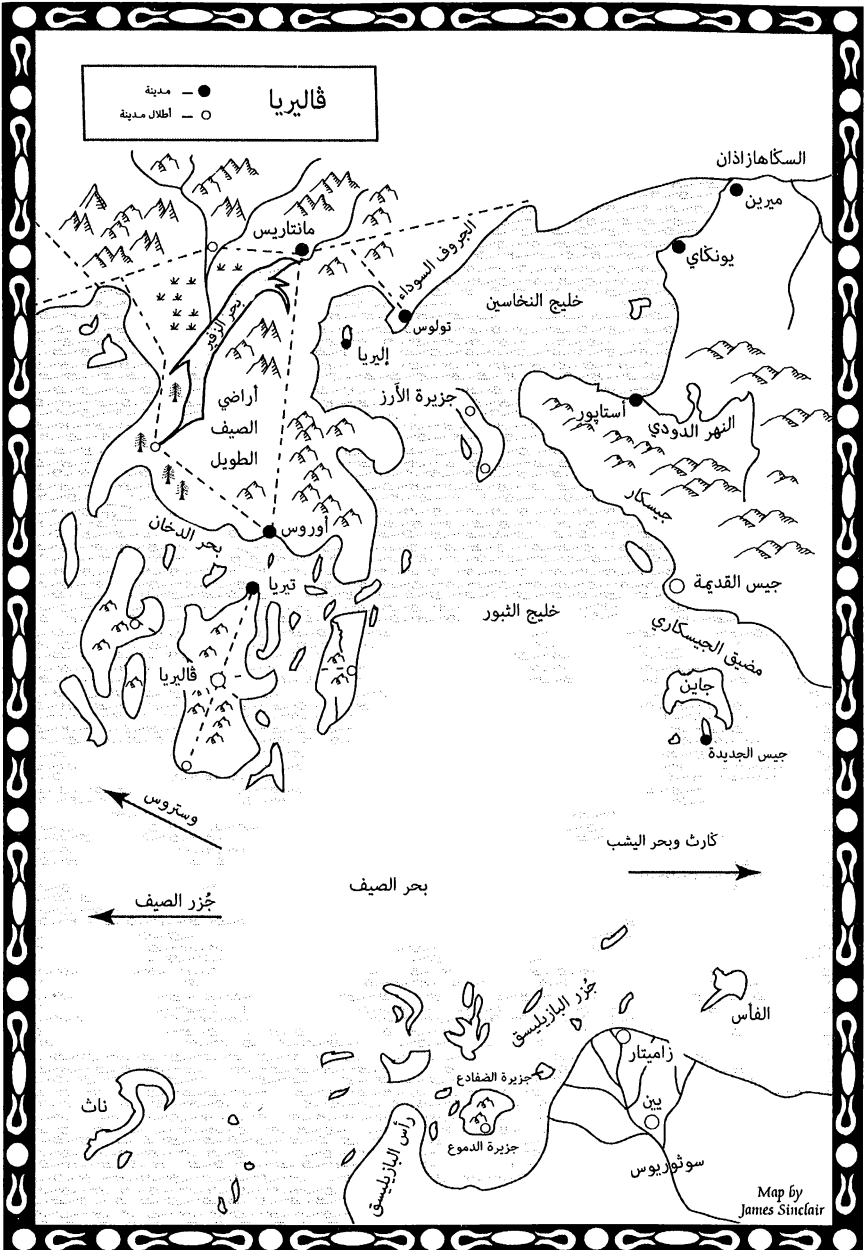
معاقل حرس الليل

- 1 - القلعة الغربية عند الجسر
- 2 - برج الظلال
- 3 - منصة الحرس
- 4 - الحارس الرمادي
- 5 - الباب الحجري
- 6 - تل الصقيع
- 7 - باب الجليد
- 8 - قلعة الليل
- 9 - البحيرة العميقة
- 10 - بوابة المملكة
- 11 - القلعة السوداء
- 12 - درع البلوط
- 13 - قلعة الغابة عند البركة
- 14 - بهو السمور
- 15 - بوابة الضريب
- 16 - الرابية الطويلة
- 17 - المشاعل
- 18 - الحارس الأخضر
- 19 - القلعة الشرقية على البحر



المدن الحرّة







تمهيد

كانت رائحة البشر الزّئخة تُفعم اللّيل.
توقّف الوازج تحت شجرة يتشّم الهواء وقد برقشت الظلال فروه
البنّي الرّمادي، وبلغته رائحة البشر محمولةً على تنهيدة من الرّيح المشبّعة
بالصّنوبر، تغطي على روائح مختلفة أضعف تُحدّثه عن الثّعالب والأرانب
البرّيّة والفقعات والوعول، وحتى الدّئاب. يعلم الوازج أن تلك أيضًا روائح
بشريّة، روائح جلودٍ قديمة ماتت وبلّت، تكاد تُغرّقها الرّوائح الأخرى الأقوى
للدمّ والدّخان والعفن. وحده الإنسان يُجرّد الدّواب الأخرى من جلدها
ويرتدي فروتها وسّعرها.

على عكس الدّئاب، لا يخاف الأوراج البشر. تلوّى المقت والجوع في
معدته، وأطلق زمجرة خفيضة يُنادي أخاه الأعور وأخته الصّغيرة الماكرة،
وإذ ركض بين الأشجار اندفع رفيفاه في القطيع بسرعة في أعقابه. هما
كذلك شمّا الرّائحة، وبينما يركض كان بإمكانه أن يرى بأعينهما أيضًا، ولمح
نفسه متقدّمًا عليهما. خرجت أنفاس أفراد القطيع بيضاء دافئة من بين فكوك
رماديّة طويلة، وقد تكوّن بين كفوفهم جليد بصلاية الحجر، لكن الصّيد بدأ،
والفرائس أمامهم. طعام، لحم.

الإنسان مخلوق واهن عندما يكون بمفرده. صحيح أنه كبير قويّ ثاقب
البصر، لكنه ثقيل السّمع ويصمُّ أنفه عن الرّوائح، في حين أن الغزال والإلكة
وحتى الأرنب البرّي أسرع، والدّب والخنزير البرّي أشرس في القتال. أمّا
البشر الذين يتحرّكون في قطعان فيمثّلون خطرًا. مع دنوّ الدّئاب من الفرائس
سمّع الوازج جزوًا ينوح، وقشرة ثلوج اللّيلة الماضية تتكسّر تحت أقدام

بشريّة خرقاء، وخشخشة الجلود الصُّلبة والمخالب الرّماديّة الطويلة التي يحملها الإنسان.

وهمس صوت في داخله: سيوف، حراب.

كانت أسنان من الجليد قد نبتت للأشجار، تُزْمَجِر لهم من الفروع البنيّة الجرداء بالأعلى. اندفع الأعور يخترق سباح الشجيرات الصّغيرة نائراً الثلج، وتبعه رفيقاه في القطيع. صعدوا تلاً ثم نزلوا المنحدر من النّاحية الأخرى، إلى أن انفتحت أمامهم الغابة وبان لهم البشر. إحداهم أنثى، والحزمة الملفوفة بالفرو التي تقبض عليها جزوها. همس الصّوت: دعها للنّهاية. الذكور همّ الخظر. أخذ بعضهم يزعق في بعض كما يفعل البشر، لكن الوازج شمّ رائحة خوفهم. كان أحدهم يحمل ناباً خشبيّاً يُناهِزه طولاً، وقد رماهم به، لكن يده كانت ترتجف، وطار النّاب بعيداً.

ثم انقضّ عليهم القطيع.

أسقط أخوه الأعور رامي النّاب على ظهره فوق كومة من الثلج ومزّق حلّقه وهو يُقاومه، فيما تسللت أخته من وراء الذكور الآخر وهاجمته من المؤخّرة، وهكذا تركاله الأنثى وجرّوها.

هي أيضاً كانت تحمل ناباً صغيراً مصنوعاً من العظم، إلّا أنها أوقعته حين انغلق فكاً الوازج على ساقها، وإذ سقطت طوّقت جزوها المزعج بكلتا ذراعيها. تحت الفرو الذي ترتديه وجد الأنثى جليداً على عظم، وإن امتلاًّ ضرعاها باللبن، أمّا أشهى لحم فكان لحم الجرو، وقد احتفظ الوازج بأفضل القطع لأخيه.

وحول الجثث اصطبغ الثلج المتجلّد بالوردي والأحمر إذ ملأ أفراد القطيع بطونهم.

وعلى بُعد فراسخ، في كوخ من حُجْرة واحدة من الطّين والقش، سقفه النّجيل مزوّد بفتحة تهوية وأرضيّته من التّربة الصُّلبة، أخذ فأرامير يرتجف ويسعلّ ويلعق شفّتيه، عيناه محمّرتان، وشفّتا مشقّقتان، وحلّقه جاف يشعل عطشاً، لكن مذاق الدّم والدهن ملأ فمه، وإن صرخَ بطنه المنتفخ في الآن نفسه طالباً الغذاء. قال لنفسه متذكّراً پمپ: لحم طفل، لحم بشري. هل بلغ به الانحطاط أن يشتهي لحم البشر؟ يكاد يسمع هاجون يقول له مزمجراً:

«للإنسان أن يأكل لحم البهيمة والبهيمة لحم الإنسان، أمّا أكل الإنسان لحم الإنسان ففاحشة».

فاحشة. لطالما كانت هذه كلمة هاجون المفضّلة. فاحشة، فاحشة، فاحشة. أكل لحم الإنسان فاحشة، الجماع مع الذّئب وأنت ذئب فاحشة، وأن تحتلّ جسد إنسانٍ آخر فتلك أبشع الفواحش قاطبةً. هاجون كان ضعيفاً، يخشى ما في نفسه من قوّة، وماتٌ وحيداً باكيّاً حين انتزعتُ منه حياته الثّانية. لقد التهمَ فارامير قلبه بنفسه. علّمني الكثير والكثير، وآخِر ما تعلّمته منه كان مذاق اللحم البشري.

على أن ذلك كان وهو ذئب. إنه لم يأكل لحم إنسانٍ بأَسنانٍ بشريّةٍ قطُّ، لكنه لن يرضنَّ على قطيعه بالوليمة. مثله، الذّئاب في أشدّ الحاجة إلى الطّعام، وتُعاني الهزال والبرد والجوع، والفرائس... رجلاً وامرأة ورضيع في أحضان أمّه، يفرّون من الهزيمة إلى الموت. كانوا سيهلكون قريباً على كل حال، سواء أَمِن التّعرّض للأجواء أم الجوع. هذه الطّريقة أفضل وأسرع. إنها رحمة.

بصوتٍ عالٍ كرّر: «رحمة». حلّقه جافٌ تماماً، ولو أنه سرّ لسمع صوتٍ بشري، حتى إذا كان صوته هو. في الهواء رائحة الرّطوبة والعفن، والأرض باردة صلبة، وناره تُصدر دُخاناً أكثر من الحرارة. دنا من اللّهب قدر ما يجرؤ فيما يتبادل السُّعال والرّجفة اجتياحه وينبض جانبه ألماً حيث انفتح جرحه، وقد أغرقت الدّماء سراويله حتى الرّكبة وجفّت مستحيلّة إلى قشرةٍ بيّنة يابسة. هذا ما حدّرتّه منه نيسل قائلة: «لقد خيّطته قدر المستطاع، لكن عليك أن تستريح وتتركه يلتئم وإلا انفتح ثانية».

كانت نيسل آخر رفاقه، زوجة حربة⁽¹⁾ قاسية كجذرٍ قديم، ووجهها الذي لوّحته الرّيح مليءً بالبثور والتّجاعيد. هجرهما الآخرون على الطّريق، واحداً تلو الآخر تخلفوا عنهما أو تقدّموا عليهما عائدين إلى قُراهم القديمة أو متوجّهين إلى (النّهر اللّبني) أو (هاردهوم)، أو إلى ميتةٍ وحيدة في الغابة. لا يدري فارامير، ولا يقوى على الاهتمام. كان عليّ أن آخذ واحداً منهم

(1) الاسم الذي يُطلقه الهمج على نساءهم المُحاربات. (المُترجم).

والفرصة سانحة؛ أحد التوأمين، أو الرجل الكبير ذا الندوب في وجهه، أو الشاب ذا الشعر الأحمر. لكنه خاف، فربما كان أحد الآخرين ليُدرك ما يحدث، وعندئذ كانوا سينقلبون عليه ويقتلونه. ثم إن كلام هاجون ما انفك يُلاحقه، وهكذا ضاعت الفرصة.

بعد المعركة تقدّم آلاف منهم قاطعين الغابة بمشقة، يُقاسون الجوع والخوف في فرارهم من المقتلة التي حلت بهم عند (الجدار). بعضهم تكلم عن العودة إلى البيوت التي هجروها، وبعضهم عن سنّ هجمة ثانية على البوابة، إلا أن أكثرهم مضى تائها لا يدري أين يذهب أو ماذا يفعل. لقد فرّوا من الغربان ذوي المعاطف السوداء والفرسان المدرّعين بالفولاذ الرّمادي، لكن أعداء أقسى يتصيّدونهم الآن، وكلّ يوم يُخلفون مزيدًا من الجثث في أعقابهم. منهم من مات جوعًا ومن مات بردًا ومن مات مرضًا، ومنهم آخرون قتلهم من كانوا إخوتهم في السلاح عندما زحفوا جنوبًا مع مانس رايدر، ملك ما وراء الجدار.

وقال بعض النّاجين لبعض بنبرات يائسة: سقط مانس، أُسر مانس، مات مانس، وبينما تخطيط ثيسل جرحه قالت له: «هارما ماتت، ومانس أسير، والباقون هربوا وتركونا. تورموند والبكاء وست جلود، كل أولئك المُغيرين الشّجعان، أين هم الآن؟».

حينها أدرك فارامير أنها لم تتعرّفه. ولم تتعرّفني؟ إنه لا يبدو كرجل عظيم في غياب وحوشه. كنتُ فارامير ست جلود الذي شارك مانس رايدر طعامه وشرابه. فارامير هو الاسم الذي أطلقه على نفسه في سنّ العاشرة. اسم يليق بلورد، اسم للأعاني، اسم قويّ مهيب. وعلى الرغم من ذلك فرّ من الغربان كالأرنب المذعور. اللورد فارامير الرّهب أصابه الجبن، لكنه لم يحتمل أن تعرف هي ذلك، فقال للزوجة الحربة إن اسمه هاجون، وبعدها تساءل لمّ خرج هذا الاسم تحديداً من بين شفّتيه دونًا عن كلّ الأسماء الأخرى التي كان بإمكانه أن يختارها. أكلتُ قلبه وشربتُ دمه، ولا يزال يُطارِدني.

ذات يوم في أثناء فرارهم جاءهم خيال يُهرو ل قاطعًا الغابة بحصانٍ أبيض أعرج، يصيح فيهم أن يتجهوا جميعًا إلى (النهر اللبني)، وأن البكاء يجمع

المُحاربين من أجل عبور (جسر الجماجم) والاستيلاء على (بُرج الظلال)، فتبعه كثيرون لكن أكثرهم لم يفعل. بعدها تنقل مُحارب قاسي الملامح يرتدي الفرو المزين بالكهرمان من بؤرة نار إلى أخرى يحث جميع الناجين على التوجُّه شمالاً واللجوء إلى وادي الثنَّيين. لم يدرك فارامير قط لماذا حسب الرَّجل أنهم سيكونون آمنين في المنطقة التي هرب منها الثنَّيون أنفسهم، لكن مئات تبعوه، في حين ذهب مئات غيرهم مع ساحرة الغابات التي رأت في رؤيا أسطولاً من السفن الآتية لحمل شعب الأحرار جنوباً. صاحت الأمُّ خُلد: «علينا أن نسعى إلى البحر»، واتَّجه أتباعها معها شرقاً.

لو أن فارامير أقوى لكان معهم، لكن البحر كثيب بارد بعيد، وهو يعرف أنه لن يعيش حتى يراه أبداً. لقد ماتت تسع مرَّات والآن يُحتضِر، وستكون هذه ميته الحقيقية. معطف من فرو السَّنَاجب، طعنتي من أجل معطفٍ من فرو السَّنَاجب.

كانت صاحبه ميته، تهشمت مؤخِّرة رأسها وتحولت إلى كتلةٍ من العجين الأحمر المرَّقَط بقطع العظم المكسور، لكن معطفها بدا ثقيلًا سميكاً. كان الثلج يسقط، وفارامير فقد معاطفه كلَّها عند (الجدار). الجلود التي ينام تحتها، وثيابه الداخِليَّة الصُّوف، وحذاؤه المصنوع من جلد الخراف، وقفازاه المبطَّنان بالفرو، ومخزونه من البتِّع⁽¹⁾ ومؤونته من الأطعمة... كلُّ هذا فقده وتركه وراءه. احترقت ومثُّ ثم هربتُ متتاباً بجنون الألم والرُّعب. ما زالت الذِّكري تُشعره بالخزي، لكنه لم يكن وحده. آخرون غيره هربوا أيضاً، مئات منهم، آلاف. خسرتنا المعركة، جاء الفُرسان بفو لادهم لا يفهرون، يقتلون كلَّ من ظلَّ يُقاتل. كان إمَّا الهرب وإمَّا الموت.

على أن الهرب من الموت ليس بتلك السُّهولة، وهكذا حين صادف فارامير المرأة الميته في الغاية انحنى يخلع معطفها، ولم ير الصَّبي حتى انقُص من مكمنه ليغمد السكِّين العظمي الطويل في جانبه ويتنزع المعطف من يديه المُطبقتين عليه. لاحقاً، بعد أن فرَّ الصَّبي، أخبرته ثيسل: «أمُّه. كان معطف أمُّه، ولَمَّا رآك تسرقها...».

(1) البتِّع هو نبيذ العسل. (المُترجم).

قال فارامير جافلاً إذ ثَقَبَتِ الإبرة العظمية نسيج لحمه: «كانت ميتةً. أحدهم هَشَمَ رأسها، غُرَابَ ما».

أغلقت الشَّقَّ في جانبه بإبرتها قائلَةً: «لم يكن غُرَابًا، بل ذوو الحوافر. لقد رأيتهم. قوم همجيون، ومن تبقى ليرَوْضهم؟».

لا أحد. إذامات مانس فشعب الأحرار هالك لا محالة. الثَّيِّون والعمالقة وذوو الحوافر، وأهل الكهوف بأسنانهم المدببة، وقوم السَّاحل الغربي بعبراتهم المصنوعة من العظام... كل هؤلاء سيهلكون أيضًا. حتى الغُربان هالكون. ربما لم يُدركوا ذلك بعد، لكن هؤلاء الأوغاد ذوي المعاطف السوداء سيلقون نحبهم مع البقية. إن العدو قادم.

تردَّد صوت هاجون الخشن في عقله قائلاً: «ستموت مرارًا يا فتى، وستتألم كلَّ مرَّة... لكن حين يأتي موتك الحقيقي ستحيا ثانية. يقولون إن الحياة الثانية أبسط وأحلى».

عمَّا قريب سيعلم فارامير ست جلود حقيقة ذلك. إنه يذوق ميتته الحقيقية في الدُّخان اللاذع في الهواء، ويشعرُ بها في السُّخونة تحت أصابعه حين يدسُّ يده تحت ثيابه يتحسَّس جرحه. البرودة متغلغلة فيه حتى النُّخاع، وهذه المرَّة سيكون البرد قاتله.

أجر ميتة له كانت بالنَّار. احترقت. في البداية، في خضمِّ ارتبأكه، حسب أن رامياً ما على قَمَّة (الجدار) أصابه بسهمٍ مشتعل... لكن النَّار اضطربت في داخله تلتهمه التهامًا، والألم...

قبلها مات فارامير تسع مرَّات، منها مرَّة برزخة حربة، ومرَّة بأسنان دُبِّ مزَّقت حلقه، ومرَّة في بركة من الدَّم إذ وضع جرحًا ميتًا. أول مرَّة مات كان في السادسة من عُمره، عندما شجَّت فأس أبيه جمجمته، لكن حتى ذلك لم يُدانِ عذاب النَّيران التي اشتعلت في أحشائه وطقطقت آتيةً على جناحيه وافتترسته افتراسًا، ولمَّا حاول الطَّيران هاربًا منها أجَّج هلعه اللهب ولظَّاه. في لحظة كان محلَّقًا أعلى (الجدار)، تلاحظ عيناه النَّسريَّتان حركة الرِّجال بالأسفل، ثم أحالت النَّار قلبه إلى جذوة مسوَّدة وردَّت روحه الصَّارخة إلى جسده، ولفترة قصيرة جنَّ جنونه. الذُّكري المحضة كفيلة بجعله يرتعد.

كان هذا حين لاحظ أن ناره انطفأت.

لم يَبْقَ إِلَّا كومة من الحطب المتفحّم ويضع جمار تنوهج وسط الرماد. ما زال هناك دُخان، تحتاج إلى حطب فقط. مقاومًا الألم، كزّ فارامير على أسنانه حتى صرّت، وزحف إلى كومة الفروع المكسورة التي جمعتها ئيسل قبل ذهابها إلى الصّيد، وألقى بعض الأعواد فوق الرماد قائلاً لها بصوت مبحوح: «اشتعلي، احترقي»، ثم إنه نفخ في الجمار وردّد دعاءً صامتاً لآلهة الغابات والتلال والحقول التي ليست لها أسماء.

ولم تُجِب الآلهة، وحتى الدُخان كفّ عن الانبعاث بعد قليل، وبدأ الكوخ الصّغير يزداد برودةً بالفعل. ليس مع فارامير صوّان أو صُوفان أو مادّة جافّة، ولن يستطيع وحده إشعال النّار ثانيةً أبداً. نادى بصوتٍ أجش يحفه الألم: «ئيسل. ئيسل!».

ذفنها مدبّب وأنفها مفلطح، وعلى وجنتها شامة تنبت منها أربع شعراتٍ داكنة. وجه قبيح قاس، لكن فارامير مستعدٌّ لبذل الكثير كي يراه في مدخل الكوخ الآن. كان عليّ أن أخذها قبل أن تُغادر. كم مرّة على غيابها؟ يومان؟ ثلاثة؟ لا يدري بالضبط، فالكوخ مظلم من الدّاخل، كما أنه غاب عن الوعي واستيقظ مراراً دون أن يعلم يقيناً أبداً إن كان الوقت ليلاً أم نهاراً بالخارج. قالت له: «انتظر، سأعودُ بطعام»، وكالأحمق انتظر، يحلم بها جون ويمپ وكلّ الأذى الذي ارتكبه في حياته الطويلة، لكن أياماً وليالي مرّت ولم ترجع ئيسل. ولن ترجع. تساءل فارامير إن كان قد أفسى لها هويته. هل تبيّنت ما يُفكّر فيه بمجرد النّظر إليه أم أنه تمتّم بشيء ما في حلمه المحموم؟

سمع هاجون يقول: فاحشة. كأنه هنا بالفعل، في هذه الحجرة، وقد قال له فارامير: «إنها مجرد زوجة حربة قبيحة. أنا رجل عظيم، أنا فارامير، الوازع، مبدّل الجلد. ليس صواباً أن تعيش هي وأموت». لم يردّ أحد، ليس في المكان أحد. ئيسل غائبة، تخلّت عنه مثلها مثل كلّ الآخرين.

أمّه نفسها تخلّت عنه أيضاً. بكّت يمپ، لكنها لم تبكي قطّ. في الصّباح الذي شدّه فيه أبوه من الفِراش ليُسلمه إلى هاجون أشاحت بوجهها عنه، وقد راح يصرخ ويركل وهو يُجرّ إلى الغابة، إلى أن صفعه أبوه وأمره بالصّمت، وحين ألقاه عند قدمي هاجون لم يقل إلّا: «مكانك مع نوعك».

فكّر فارامير مرتجفاً: لم يكن مخطئاً. هاجون علّمني أشياء كثيرةً جدّاً،

عَلَّمَنِي صَيْدَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْأَسْمَاكِ، وَعَلَّمَنِي الْجَزَارَةَ وَنَزَعَ الشُّوكَ مِنَ السَّمَكِ، وَكَيْفَ أَجْدُ طَرِيقِي فِي الْغَابَةِ. وَعَلَّمَنِي أَسَالِيبَ الْأَوْرَاجِ وَأَسْرَارَ مَبْدِئِ الْجِلْدَةِ، رَغِمَ أَنْ مَوْهَبَتِي كَانَتْ أَقْوَى مِنْ مَوْهَبَتِهِ.

بعد أعوام حاول العثور على أبويه ليُخبرهما أن صغيرهما لم يمسى العظيم فارامير ست جلود، لكن كليهما كان قد مات وأحرق. ذهب إلى الأشجار والأنهار، إلى الصُخور والأرض، ذهب إلى التربة والرَّمَاد. هذا ما قالته ساحرة الغابات لأمه يوم موت يَمِ. أمّا لم يلم يريغب في أن يصير حفنة من الثرى. كان الصبي يحلم بيوم يُعني فيه الشعراء عن مآثره وتقبله الحسنات، وهكذا وعد لم نفسه قائلًا: حين أكبر سأصبح ملك ما وراء الجدار. لم يصبح ملكًا قط، لكنه اقترب. فارامير ست جلود اسم هابه الناس. كان يذهب إلى المعركة راكبًا على ظهر دبة ثلوج تبلغ الثلاثة عشر قدمًا طولًا، ويسيطر على ثلاثة ذئاب وقط ظل⁽¹⁾، ويجلس إلى يمين مانس رايدر. مانس هو من أتى بي إلى هذا المكان. لم يكن عليّ أن أصغي إليه. كان حريًا بي أن أتلبس دُبِّي وأمزقه إربًا إربًا.

قبل مانس كان فارامير ست جلود يُعدّد -نوعًا- من اللوردات، وقد أقام بمفرده في قاعة مبنية من الأخشاب والطحالب والطين كانت ملكًا لهاجون من قبل، تُرافقه حيواناته وتقدّم له دسّته من القرى البيعة بالخبز والملح وخمر التفاح، وتزوّده بالفواكه من بساتينها والخضراوات من حدائقها. أمّا اللحم فكان يحصل عليها بنفسه، ومتى انتهى امرأة أرسل قطه يمشي وراءها، وبإذعانٍ تتبعه الفتاة التي اختارها أيًا كانت إلى الفراش. بعضهن كن يأتينه باقيات، لكنهن أتين دومًا، وتعود فارامير أن يُعطينه نطفته ويأخذ خصلة من شعرهن يتذكّرن بها قبل أن يصرفهن. من حين إلى آخر كان بطل قرية ما يأتي حاملًا حربته ليقتل الحيواني ويُقتد أختًا أو حبيبة أو ابنة. هؤلاء كان يقتلهم، لكنه لم يؤذ امرأة قط، بل إنه بارك بعضهن بالأطفال كذلك. ضعفاء مخلوقات صغيرة تافهة مثل لم، ولا أحد منها يتمتع بالموهبة.

ساقه الخوف إلى النهوض مترنحًا. أمسك فارامير جانبه ليوقف الدم

(1) قَطَط الظل اسم يُطلق على نوع من الأسود الجبلية في عالم الرواية. (المترجم).

النَّازف من جرحه، وذهبَ يتمايل إلى الباب وأزاحَ قطعةَ الجِلد البالية التي تُغَطِّيهِ ليجد نفسه في مواجهة حائِطٍ من البياض. ثلج. لا عجب أن الظلام والذَّحان تزايدَا بشدَّةٍ في الدَّاخِل. الثلوج المتساقطة دفنت الكوخ.

حين دفعه فارامير تفتت الثلج الذي لا يزال طرياً مبتلاً وسقط، وبالخارج كان الليل أبيض كالصَّبْغ، يتراقص السَّحاب الباهت الخفيف في حضرة القمر الفضي، في حين تتفرَّج ألف نجمةٍ ببرود. رأى الأشكال المحدبة لأكوخ أخرى مدفونة تحت أكوام الثلج، ووراءها الظلُّ الشَّاحِب لشجرة وبيروودٍ مدرَّعة بالجليد. إلى الجنوب والغرب التلال تيه أبيض شاسع لا يتحرَّك فيه إلا ثلوج تذروها الرِّيح. متسائلاً عن المسافة التي ابتعدتها نادى فارامير بضعف: «ثيسل، ثيسل، يا امرأة، أين أنتِ؟».

ومن بعيدٍ أطلقَ ذئبٌ عواءه.

وارتعد فارامير الذي يعرف هذا العواء تماماً كما كان كَمِپ يعرف صوت أمه. الأعور. إنه أكبر الثلاثة سناً وحجماً وأشرسهم. أخوه المتربِّص أرشق وأصغر وأسرع، وأختهم الماكرة أكثر دهاءً، لكن الاثنين يخشيان الأعور، فالذئب العجوز لا يعرف الخوف، عنيد، مفترس.

في غمرة الألم الذي التهمه مع موت النَّسر فقدَ فارامير السَّيطرة على حيواناته. قَطَّ الظلُّ انطلقَ هارباً في الغابة، في حين انقلبت دُبَّة الثلوج على من حولها، ممزَّقةً بمخالبتها أربعة رجالٍ قبل أن تُسقطها حربة، وكانت لتفتك بفارامير نفسه لو وجدته في متناول يديها. لقد كرهته تلك الدُّبَّة، ومتى ارتدى جلدتها أو امتطاها ثارت ثائرتها.

أمَّا ذئابه...

إخوتي، قطيحي. ليالٍ باردة عديدة نامَ فيها مع ذئابه، وقد تكومت أجسامها المشعثة حوله تُدْفئه. حين أموتُ ستلتهم لحمي وتترك عظمي فقط يُحيي ذوبان الربيع. فكرة مريحة على نحوٍ عجيب. كثيراً ما تبحث ذئابه له عن المأكَل في أثناء تجوالهم، ويبدو من اللائق تماماً أن يُطعمها في النهاية، ولربما يبدأ حياته الثانية بالقبض من لحم نفسه الدافئ الميت.

الكلاب أسهل حيواناتٍ يُمكن تكوين رباطٍ معها، ذلك أنها تحيا على مقربةٍ شديدة من البَشَر حتى إنها تكاد تكون بشريَّة. تلبس الكلاب أشبه بانتعال

حذاءٍ قديم طَرَى طول الاستخدامِ جِلده، وكما الحذاء المشكّل لقبول القدم فالكلب مفطور على قبول الطّوق، حتى إذا كان طَوْقًا لا تراه عين إنسان. على أن الذئاب أصعب، إذ يستطيع الإنسان أن يُصادق ذئبًا، أو حتى يكسر إرادته، لكن لا أحد يستطيع أن يُروّض ذئبًا حقًا. كثيرًا ما كان هاجون يُردّد: «الذئاب مثل النساء، تزوّج مدى الحياة. عندما تتخذ لنفسك ذئبًا فهذا زواج، يُصبح الذئب جزءًا منك منذ ذلك اليوم فصاعدًا وتُصبح جزءًا منه. كلاكما سيتغيّر». لكن الصياد أعلن أن من الخير ترك الحيوانات الأخرى وشأنها. القِطط مغرورة قاسية ومستعدة دومًا للانقلاب عليك. والإلكات والغزلان فرائس، إذا ارتدّيت جلدتها طويلًا فستمكنك منك الجبن حتى لو كنت أشجع الرجال. والخنازير البريّة والدّبة والغُريات وبنات عرس... تلك الحيوانات لم يكن هاجون يقبلها من الأصل. «بعض الجلود لست ترغب في ارتدائه أبدًا يا فتى، فلن يروقك ما ستصيره». وحسب كلامه فالطّيور هي الأسوأ، «فليس للبشر أن يرتفعوا عن الأرض. اقض وقتًا أطول من اللازم بين السحاب ولن تُريد الهبوط ثانيةً أبدًا. إنني أعرفُ مُبدلي جِلدة جَرَبوا الصُّقور والبوم والغدبان، وحتى في جلودهم هم يجلسون بذهنٍ شارد يتطلّعون إلى زُرقة السّماء اللّعيّنة».

غير أن هذا ليس رأي جميع مُبدلي الجِلدة. ذات مرّة، عندما كان كمپ في العاشرة، أخذَه هاجون إلى اجتماع لهم، وكان الأوراج الأكثر عددًا في تلك الجماعة، إخوة الذئاب، لكن الصّبي وجدّ الآخرين أغرب وأكثر جاذبيّة. بوروك الذي يُشبهه للغاية خنزيره البرّي حتى إنه يفتقر فقط إلي النّابّين، وأوريل بنسره، وبرابار بقِطّة الظلّ (ولحظة أن رأهما كمپ أرادَ قِطّ ظلّ لنفسه)، وامرأة الماعز جريسلا...

لكن أحدًا منهم لم يكن بقوّة فارامير ست جلود، ولا حتى هاجون الطّويل العابس بيديه الصّلبتين كالحجر. مات الصياد باكيًا بعد أن أخذَ منه فارامير ذئبه الأشهب، طاردًا إياه من داخله ليَتخذه لنفسه. لا حياة ثانية لك أيها الشّيخ. آنذاك كان يُسمّى نفسه فارامير ثلاث جلود، وقد كان الأشهب بمثابة الجِلدة الرّابعة، لكن الذئب العجوز كان واهنًا وتساقطت أسنانه كلّها تقريبًا، وسرعان ما تبعَ هاجون إلى الممات.

باستطاعة فارامير أن يأخذ أيَّ حيوانٍ يشاء ويخضعه لإرادته ويجعل جسمه له، كلبًا كان أو ذئبًا، غُريرًا أو دُبًّا...
ثيسل.

كان هاجون ليقول إنها فاحشة، ألعن الخطايا على الإطلاق، لكن هاجون ماتَ والتُّهَمَ واحترقَ. وكان مانس ليلعنه أيضًا، لكن مانس سقطَ قتيلاً أو أسيرًا. لا أحد سيعلم أبدًا. سأكونُ الزَّوْجَةَ الحربية ثيسل، وسيموتُ فارامير ست جلود. يتوقَّع أن موهبتُه ستموت معه، وسيفقد ذنابه ويقضي ما تبقى من حياته امرأةً نحيلةً ذاتِ ثبور... لكنه سيعيش. إذا عادت، إذا كنتُ بالقوَّة الكافية لأخذها.

اجتاحته موجة من الدُّوار، ووجدَ نفسه على رُكبتيه وقد اندفنت يداه في كومة ثلج. أخذَ مِلءَ قبضةٍ من الثلج وملأَ به فمه وفرَّكه في لحيته وعلى شفثيه المشققتين ممتصًّا ما يسيل، وكان الماء باردًا لدرجة أنه أجبَرَ نفسه بالكاد على الابتلاع، ومرَّةً أخرى أدرك ارتفاع حرارته الشَّدِيد.

لم يُزده الثلج الذَّائب إلاَّ جوعًا. إن معدته تشتهي الطَّعام لا الماء. كانت الثلوج قد توقفت عن السَّقُوط، لكن الرِّيح تشتدُّ مألثةً الهواء بالبلُّور، تجلد وجهه وهو يتقدَّم بصعوبةٍ بين أكوام الثلج، والجرح في جانبه ينفُتِح وينغلق من جديد، وأنفاسه تصنع سحابةً بيضاءً مهترئةً. حين بلغَ شجرة الويروود وجدَ عُصنًا ساقطًا بالطول الكافي لاستخدامه كعُكَّاز، وقد اتَّكأ عليه وتوجَّه مترنِّحًا صوب أقرب الأكواخ. ربما نسيَ أهل القرية شيئًا عند فرارهم... جوالًا من التُّفَّاح أو القليل من اللحم المجفف أو أيَّ شيء يُبقيه حيًّا حتى عودة ثيسل. كان على وشك الوصول إلى الكوخ حين انكسر العُكَّاز تحت ثقله، وتداعت ساقاه من تحته.

لا يدري فارامير كم ظلَّ منظرًا هناك فيما يتشرَّب الثلج حُمرة دمائه. ستدفني الثلوج. سيُدركه الموت في سلام. يقولون إنك تَشعُرُ بالدَّفءِ قُربَ النِّهاية، بالدَّفءِ والنَّعاس. سيكون جميلًا أن يَشعُرُ بالدَّفءِ ثانيةً، وإن أجزئه أن يُفكِّرَ أنه لن يرى الأراضي الخضراء أبدًا، الأراضي الدَّفِيئة وراء (الجِدَار) التي اعتادَ مانس الغناء عنها. أمَّا هاجون فاعتادَ أن يقول: «العالم وراء (الجِدَار)

ليس لنوعنا. الأحرار يخشون مُبدلي الجِلدة، لكنهم يُكرِّموننا كذلك. جنوب (الجِدَار) يُطارِدنا الرُّعْع ويذبحوننا كالخنازير».

فَكَرَّ قَارَامِير: لقد حذرتني، لكنك أخذتني إلى (القلعة الشَّرْقِيَّة) أيضًا. مؤكَّد أنه لم يكن قد تجاوزَ العاشرة في ذلك الحين. قايضُ هاجون دستة من العقود الكهرمان ومزليجة تكوِّمت عليها عاليًا الجلود بسبِّت قرب من النِّبِّد وقالب من الملح ومرجل نحاس. (القلعة الشَّرْقِيَّة) مكان أفضل للتجارة من (القلعة السوداء)، فهناك ترسو السفن المحمَّلة بالبضائع من الأراضي الأسطوريَّة وراء البحر. عرفَ الغُربان هاجون كصيَّادٍ وصديقٍ لحرس الليل، ورَحِّبوا بالأخبار التي يأتي بها عن الحياة وراء جِدَارهم، وكان بعضهم يعلم أنه مُبدِّل جِلدة أيضًا، لكن أحدًا منهم لم يتكلَّم عن ذلك. هناك في (القلعة الشَّرْقِيَّة) على البحر بدأ الصَّيبي الذي كانه يحلِّم بدفء الجنوب.

شعرَ قَارَامِير بُندف الثلج تذوب علي جبهته. ليس هذا بسوء الاحتراق. فلائم ولا أصحو أبدأ، فلابدأ حياتي الثانية. ذئابه قريبة الآن، إنه يشعُر بها. سيترك هذا الجسد الواهن ويتوحَّد معها، يصطاد آناء الليل ويعوي في وجه القمر. سيصير الوازج ذئبًا حقيقيًّا. ولكن أيُّ ذئب؟

ليس الماكرة. كان هاجون ليقول إنها فاحشة، لكن الحقيقة أن قَارَامِير كثيرًا ما تلبَّسها فيما يمتطيها الأعور، غير أنه لا يرغب في قضاء بقية حياته كأنتى ذئب إلا إذا لم يجد خيارًا آخر. قد يُناسبه المتربِّص أكثر، الذَّكر الأصغر... مع أن الأعور أكبر حجمًا وأضرى، والأعور هو من يأخذ الماكرة متى عانت الاحترار.

قبل موته بأسابيع قليلة أخبره هاجون: «يقولون إنك تنسى. حين يموت جسد الإنسان تظل روحه حيَّة في الحيوان، لكن كلَّ يوم تخبو ذاكرته، ويضعفُ الوازج في الحيوان ويقوى الذَّئب، حتى لا يتبقى شيء من الإنسان ولا يبقى إلا الحيوان».

يعلم قَارَامِير حقيقة هذا. عندما أخذ النَّسر الذي كان لأورل شعرَ مُبدِّل الجِلدة الآخر يثور لوجوده. أورل قتله الغُراب المارق چون سنو، وكانت كراهيته لقاتله عاتية لدرجة أن قَارَامِير وجد نفسه يكره الفئى الحيواني بدوره.

لقد أدرك حقيقة سنو لحظة أن رأى ذلك الذئب الرهيب⁽¹⁾ الأبيض الكبير يتحرك بصمتٍ إلى جانبه، فمُبدل الجلد يستطيع دومًا الإحساس بمُبدل جِلدِةٍ آخر. كان عليّ مانس أن يدعني آخذُ الذئب الرهيب. لكانت حياة ثانيةً تليق بملك. لا يشك في مقدرته على فعلها. صحيحٌ أن موهبة سنو قويّة، لكن الشّاب لم يتعلّم مفاتيحها، وما برح يُقاوم طبيعته بدلًا من أن يعتزّ بها.

رأى فارامير عينيّ الويروود الحمر اوين تُحدّقان إليه من الجذع الأبيض. الآلهة تزني. اقشعرّ جلده. لقد اقتترف أفعالاً سيئةً، أفعالاً شنيعةً، سرق وقتل واغصب، أكل اللحم البشري وولغ في دماء المحتضرين الحارّة القانية وهي تنشق من حلوقهم الممزّقة، تربّص بالأعداء في أنحاء الغابة وداهمهم وهم نيام وانتزع أحشاءهم من بطونهم وبعثرها على الأرض الموحلة. وما أحلى مذاق لحمهم. قال بهمسةً مبسوطة: «الحيوان فعلها لا أنا. إنها الموهبة التي منحتني إياها».

لم تُجر الآلهة جوابًا. تكثّفت أنفاسه كالغيم الشّاحب في الهواء، وشعرَ بالجليد يتكوّن في لحيته، وأغلق فارامير ست جلود عينيه.

ورأى حُلمًا قديمًا عن كوخ على البحر، وثلاثة كلابٍ تننُّ، ودموع امرأة.

يَمِمْ. تبكي يَمِمْ، لكنها لم تبكي قط.

وُلِدَ لَمِمْ قبل موعده المناسب بشهر، وكان مريضًا أكثر الوقت حتى إن أحدًا لم يتوقع أن يعيش. انتظرت أمّه حتى شارف على بلوغ الرابعة لتُطلق عليه اسمًا فعليًا، ولكن بلا طائل، إذ تعوّدت القرية كلها دعوته بلَمِمْ بالفعل، الاسم الذي أطلقتته عليه أخته معها وهو ما يزال في بطن أمّه. أطلقت معها على يَمِمْ اسمه أيضًا، إلا أن أختها لَمِمْ الصّغير وُلِدَ في موعده المناسب، وكان كبيرًا متورّدًا قويًا، يمتصّ اللبن بشراهةٍ من ثدي أمّه. كانت ستُطلق عليه اسم أبيها. لكن يَمِمْ مات، مات وهو في الثّانية وأنا في السّادسة، قبل ثلاثة أيام من يوم ميلاده.

وقالت ساحرة الغابات لأُمّه الباكية: «صغيرك مع الآلهة الآن. لن يتألّم

(1) الذئب الرهيب حيوان حقيقي منقرض كان يقطن الأمريكتين قبل عشرة آلاف سنة. (المترجم).

ثانيةً أبداً، لن يجوع، لن يبكي. لقد أخذته الآلهة إلى الأرض والأشجار. الآلهة في كل مكان حولنا، في الصُخور والنُهيرات، في الطير والحيوانات، وصغيرِكِ بِمِمْ ذهبٌ ينضمُّ إليها. سيكون العالم وكل ما فيه».

نفذت كلمات العجوز في لمِمْ كالسكّين. بِمِمْ يري، إنه يرُاقبني، إنه يعلم. ما كان بإمكان لمِمْ الاختباء منه، أن يستتر وراء تنورة أمّه أو يهرب بالكلاب من غضبة أبيه. الكلاب. لوپتيل وسنيف وأبو زمجرة. كانت كلاباً طيبةً، كانت صديقتي.

حين عثر أبوه على الكلاب تتشمّم حول جثةٍ بِمِمْ لم يجد سبيلاً لمعرفة الفاعل، وهكذا أعدم ثلاثتها بفأسه. ارتعشت يده بشدّة لدرجة أن إخراس سنيف تطلّب ضربتين وأبي زمجرة أربعاً. علقت رائحة الدّم الثّقيلة في الهواء، وكان للأصوات التي أصدرها الكلبان المحتضران وقع شنيع، ومع ذلك جاء لوپتيل عندما ناداه أبوه. كان أكبر الكلاب سنّاً، وقد تغلب تدريبه على رُعبه، وحين تلبّسه لمِمْ كان الأوان قد فات بالفعل.

حاول أن يقول: لا يا أبي، أرجوك، لكن الكلاب لا تتكلّم لغة البشر، ولم يخرُج منه إلّا أنين يُثير الشفقة. هوت الفأس على جمجمة الكلب العجوز، وداخل الكوخ أطلق الصّبي صرخةً. هكذا عرف. وبعد يومين جرّه أبوه إلى الغابة حاملاً فأسه، وهو ما جعل لمِمْ يحسب أنه سيقتله كما قتل الكلاب، لكنه أعطاه لهاجون بدلاً من ذلك.

استيقظ فأرامير فجأةً وبُغفٍ وجسده كله يهتّز، يصرُخ فيه صوت: «انهض، انهض. يجب أن نرحل. إنهم بالمئات». كان الثلج قد كساه بدثار أبيض جامد. يا للبرودة. حين حاول الحركة وجدّ يده ملتصقة بالأرض، ولمّا انتزعها ترك من جلدها قطعةً على الثلج. عادت تصرُخ: «انهض. إنهم قادمون».

لقد عادت تُيسل، والآن تُمسكه من كتفه وتهزه وتزرق في وجهه، وشمّ فأرامير رائحة أنفاسها وشعرَ بدفئها على وجنتين خدرهما البرد. الآن، افعلها الآن أو مُت.

استجمع كل ما تبقى فيه من قوّة، ووثبَ خارجاً من جلده واقتحمها. وقوّست تُيسل ظهرها وصرخت.

فاحشة. من قالها؟ هي أم هو أم هاجون؟ لم يعرف الإجابة قطّ. تهاوى

جسده القديم على كومة الثلج مع ارتخاء أصابعها، وتلوت الزوجة الحربة بعنفٍ صارخة. اعتادَ قَطُّ الظلُّ أن يُقاومه بشراسة، وأصابَ الجنون دُبة الثلوج فترةً فراحت تُهاجمُ الشجرَ والصُّخورَ والهواءَ، لكن هذا أسوأ. سمعَ فيها يصيح: «اخرُجْ، اخرج!»، وترنحَ جسدها وسقطَ ثم عادَ ينهضُ، وراحت يداها تضربان الهواءَ، والتوت ساقاها في هذا الاتجاهِ وذلك في رقصَةٍ مريعة إذ صارت روحها روحه على الجسد. عبتَ مِلءُ منها من الهواءِ البارد، ونالَ فاراميرِ نصفِ لحظةٍ تمتعَ خلالها بمذاقه وبقوةِ هذا الجسدِ الشاب، قبل أن تطبقَ أسنانها وتملاً فمه بالدماء. ثم إنها رفعتَ يديها إلى وجهه، فحاولَ أن يدفعهما إلى أسفلٍ ثانيةً، لكن اليدين رفضتا الطاعة، وبأظفارها أخذتَ تخمشَ عينيه، وإذ غرقَ في الدَّمِ والألمِ والجنون قال لنفسه متذكراً: فاحشة، ولما حاولَ الصُّراخَ بصقتَ لسانهما.

مادَ به العالم الأبيض وتلاشى، وللحظةٍ شعرَ كأنه داخلُ شجرة الويرود، ينظرُ عبرَ عينين حمراوين منحوتتين فيما يرتعش رجل محتضر على الأرض بضعفٍ وترقصُ امرأة مجنونة رقصَةً داميةً عمياء تحت القمر، تذرِفُ دموعاً حمراء وتُمزقُ ثيابها. ثم اختفى كلاهما، ووجدَ نفسه يرتفع، يذوب، محمولة روحه على ريحٍ باردة. إنه في الثلج وفي السحب، إنه عصفور وسنجاب وسنديانة. حلقتَ بومة ذات قرنين بصمتٍ بين الأشجار مطاردةً أرنباً برياً، وكان فارامير داخل البومة، داخل الأرنب، داخل الأشجار. في الأعماق تحت الأرض المتجمدة تنخرُ ديدان الأرض العمياء في الظلام، وكان هو الديدان أيضاً. منتشياً فكَرَّ: أنا الغابة وكلُّ ما فيها. حلقتَ غدبان مئة ونبعتَ إذ شعرتَ بمروره، وبصخبٍ صاحتَ إلكة عظيمة مزعجةً الطفلين المتشبهين بظُهرها، ورفعَ ذئب رهيب نائم رأسه يزوم في الهواء الخالي.

وقبل الخفقة التَّالية لقلوب كلِّ تلك المخلوقات واصلَ هو طريقه بحثاً عن قلبه، عن الأعور والماكرة والمتربِّص، عن قطيعه، وقال لنفسه إن ذئابه ستقبله.

وكان هذا آخر ما جالَ بباله كإنسان.

أتى الموت الحقيقي بغتةً. شعرَ بصدمةٍ من البرد كأنه أُلقيَ في مياه بحيرة متجمدة، ثم إذا به يركضُ على ثلوجٍ يُنيرها القمر وعلى مقربةٍ من ورائه رفيقاه

في القطيع. نصف العالم مظلم، وهكذا علم أنه في داخل الأعور. عوى،
وردد المتربص والماكرة العواء.

توقفت الذئاب حين بلغت قمة التل. قال لنفسه متذكراً: ثيسل، وأحس
جزء منه بالحزن على ما فقده وجزء آخر لما فعله.

كان العالم قد استحال إلى جليد بالأسفل، ترحف أصابع من الصقيع بتؤدة
على شجرة الويروود، يسعى بعضها للإمساك ببعض، والقربة الخالية لم تعد
خالية. الآن تسري ظلال زرقاء الأعين بين أكوام الثلوج، بعضها يرتدي البني
وبعضها الأسود وبعضها عار، وقد ابيضت بشرتها جميعاً كالثلج، وثمة ريح
تتنهد بين التلال محملة برائحة الظلال، رائحة اللحم الميت والدم الجاف
والجلد المعقب بالعفن والتانة والبول. زمجرت الماكرة وكشرت عن أنيابها
وقد انتفش فروها. ليسوا بشراً، ليسوا فرائس، ليس هؤلاء.

الأشياء بالأسفل تتحرك، لكنها ليست حية. واحداً تلو الآخر رفعت
رؤوسها نحو ثلاثة الذئاب فوق التل، وآخر الناظرين الشيء الذي كان ثيسل.
كانت ترتدي الصوف والفرو والجلد، وفوق كل هذا معطف من الصقيع
يُطقطق حين تتحرك ويلتمع في ضوء القمر، ومن أناملها تتدلى كتل جليد
وردية باهتة، عشرة سكاكين طويلة من الدماء المتجمدة... وفي الحفرتين
اللتين احتلتهما عيناها من قبل ضوء أزرق شاحب يتذبذب، يُضفي على
ملامحها الخشنة جمالاً عجبياً لم تعرفه في حياتها قط.

إنها تراني.



تيريون

لم ينقطع عن الشرب طوال طريقه عبر (البحر الضيق).
السَّفِينَة صغيرة، وقمرته أصغر، لكن الرِّبَّان لا يسمح له بالصُّعود إلى السُّطح. هَيَّجَت الأرض المتأرجحة تحت قدميه معدته، وكان مذاق الطَّعام المقزَّر أشنع حين تقيَّاه. ولكن ما حاجته إلى اللُّحم المملَّح والجُبنة الجامدة والخبز المليء بالدُّود وثمة نبيذ يُغذِّيه؟ نبيذه أحمر وحامض، قويٌّ للغاية، وأحيانًا يتقيَّاه أيضًا، إلا أن هناك المزيد دومًا.

تمتَم في ظلام قمرته: «العالم مليء بالنَّبيذ». لم يكن أبوه يحترم السكَّيرين على الإطلاق، ولكن فيمَّ يهيمُّ هذا؟ لقد ماتَ أبوه، هو قتله. سهم في البطن يا سيِّدي، وكل لك أنت. لو كنتُ أبيع في استخدام النشائية لغرسته في ذلك القضيبي الذي خلَّفنتني به أيها الوغد الملعون.

في بطن السَّفِينَة لآليل أو نهار. يُحدِّد تيريون الوقت بمجيء وذهاب عامل القمرة الذي يأتيه بوجبات لا يأكلها. دائمًا يجلب الصَّبي دلوا وفرشاة أيضًا للتنظيف. في مرَّة قال له تيريون وهو يخلع سداة قربة: «أهذا نبيذ دورني؟ يُدكِّرني بشعبانٍ معيَّن عرفته. كان شخصًا لطيف المعشر، إلى أن سقط عليه جبل».

لم يُجبه عامل القمرة. صبيٌّ قبيح هو، وإن كان بالتأكيد أوسم من قزم معيَّن بنصف أنفٍ ونديَّة من العين إلى الذَّقن. بينما يحك الأرض سأله تيريون: «هل أسأتُ إليك؟ أنت مأمور بعدم الكلام معي أم أن قزمًا تحرَّش بأمك؟». لم يتلق جوابًا عن هذا أيضًا، فقال: «إلى أين نبحر؟ أخبرني بهذا». جايمي ذكر المُدن الحُرَّة، لكنه لم يقل أيُّ واحدة. «(برافوس)؟ (تايروش)؟

(مير)؟». يُحبّد تيريون أن يذهب إلى (دورن). مارسلا أكبر من تومن، والعرش الحديدي لها بحسب القانون الدورني. سأساعدها على الحصول على حقوقها كما اقترح الأمير أوبرين.

لكن الأمير أوبرين مات، حطمت قبضة السير جريجور كليجانين المدرعة رأسه تحطيمًا، ودون أن يكون الأفعوان الأحمر موجودًا يُوعز إليه، فهل يُجازف دوران مارتل بمؤامرة محفوفة بالمخاطر كذلك؟ قد يُقيّدني بالسلاسل بدلًا من ذلك ويُعيّدني إلى أُختي الجميلة. لعلّ (الجدار) أسلم. اللدب العجوز مورمونت قال إن حرس الليل محتاجون إلى رجالٍ مثل تيريون. ولكن ربما مات مورمونت، وسلينت هو القائد الآن. لا بُدّ أن ابن الجزار لم ينسَ من أرسله إلى (الجدار). هل أريدُ حقًا قضاء ما تبقى من حياتي في أكل اللحم المملح والثريد مع القتلة واللصوص؟ مع أن ما تبقى من حياته لن يطول، وهو ما سيحرص عليه چانوس سلينت.

بلبل عامل القمرة الفرشاة وأخذ يحكّ الأرض بهمة، وسأله القزم: «هل زُرت بيوت الهوى في (ليس)؟ أألى هناك تذهب العاهرات؟». لم يستطع تيريون أن يتذكّر معنى العاهرة بالثاليرية، وعلى كلِّ حالٍ فات أوان التساؤل، إذ ألقى الصّبي الفرشاة في الدلو وخرج.

النبيد شوش ذهني. لقد تعلم الثاليرية الفصحى في صغره على يد المايستر، ولو أن ما يتحدّثونه في المُدن الحرة... إنها ليست لكنة واحدة، وإنما بالأحرى تسع لكيناتٍ مختلفة في طريقها إلى أن تُصبح لغاتٍ منفصلة. يعرف تيريون القليل من البرافوسية ونزرا يسيرًا من المايرية، وفي (تايروش) من شأنه أن يلعن الآلهة ويتهم أحدهم بالغش ويطلب كوبًا من الميزر⁽¹⁾، وهذا بفضل مرتزق عرفه من قبل في (الصخرة). على الأقلّ يتحدّثون اللغة العامية في (دورن). على نسق الطعام الدورني والقانون الدورني، الكلام الدورني متبلّ بنكهات (الروين)، ولكن باستطاعة المرء أن يفهمه. (دورن)، نعم، (دورن) لي. عاد إلى سريره متشبّثًا بالفكرة كطفل بدُميته.

لم يأت النوم تيريون لانستر بسهولة قط، وعلى متن هذه السفينة قلّمًا يأتي، مع أنه ينجح بين الحين والآخر في شرب نبيدٍ يكفي لتغيبه عن الوعي

(1) الميزر نوع من البيرة يستغرق فترة أقصر حتى يختمر ومذاقه غير مُر. (المترجم).

فترة. على الأقل لا يحلم، فقد حلم بما فيه الكفاية في حياته التأففة. وما حلمتُ به تُرْهات؛ الحُب والعدالة والصدّاقة والمجد. كأني أحلمُ بأن أكون طويلًا. يعرف تيريون الآن أن كلَّ هذا ليس في متناوله، لكنه يجهل أين تذهب العاهرات.

قال أبوه: «أينما تذهب العاهرات». كلماته الأخيرة، وبإلها من كلمات. أصدرت النُشَابِيَّة صوتًا وترّيًا، وارتدَّ اللورد تاويين جالسًا من جديد، ووجد تيريون لانستر نفسه يمشي متميلاً في الظلام وإلى جواره فارس. لا بُدَّ أنه عادَ ينزل في البئر، نزلَ ممتين وثلاثين درجةً إلى حيث تتوهج الجمار البرتقاليَّة في فم تين حديدي، لكنه لا يذكر شيئًا من هذا، بل فقط صوت النُشَابِيَّة والرَّائحة التنتنة التي خرجت من أبيه إذ ارتخت أحشاؤه. حتى في الموت وجدَّ وسيلةً للتبرُّز عليّ.

رافقه فارس عبر الأنفاق، لكنهما لم يلفظا حرفًا حتى خرجا على ضفَّة (النَّهر الأسود)، حيث حَقَّق تيريون نصرًا مبيِّنًا وفقدَ أنفًا. عندها التفت القزم إلى الخصيِّ قائلاً: «قتلتُ أبي». قالها بالنبرة نفسها التي قد يقول بها أحدهم: «خبطتُ إصبع قدمي».

كان وليُّ الهامسين متنكرًا في هيئة أحد الإخوة الشحّاذين، يرتدي ثوبًا من الخيش البني المتآكل، له قلنسوة أخفت وجنتيه السّميّتين النَّاعمتين ورأسه الأصلع المستدير. قال مؤنّبًا: «ما كان يجب أن تصعد ذلك السُّلم».

- «أينما تذهب العاهرات». لقد حذّر تيريون أباه من قول تلك الكلمة. لو لم أطلق السهم لرأى أن تهديداتي فارغة، لأخذ النُشَابِيَّة من يدي كما أخذ تايشا من بين ذراعي من قبل. كان ينهض حين قتلته.

اعترف لفارس قائلاً: «قتلتُ شيًا أيضًا».

- «كنت تعرف حقيقتها».

- «نعم، لكنني لم أعرف حقيقته».

أطلق فارس ضحكةً مكتومةً، وردّ: «والآن تعرف».

كان عليّ أن أقتل الخصيِّ أيضًا. مزيد من الدّماء على يديه، وماذا في هذا؟ لا يدري ما الذي جعله يُحجِم عن طعنه بخنجره. ليس الامتنان. أي نعم أنقذه فارس من سيف الجلاد، ولكن فقط لأنّ چايمي أجبره. چايمي...

لا، الأفضل ألا أفكر في چايبي.

بدلاً من ذلك وجدّ قربةً جديدةً ومصّ منها كأنها ثدي امرأة، ليسيل النبيذ الأحمر الحامض على ذقنه ويتغلغل في سترته المتسخة، الشّرة ذاتها التي كان يرتديها في زنانه. تأرجحت الأرض تحت قدميه، ولما حاول القيام ارتفعت إلى الجانب وألقت ليرطم بقوة بالحائط. عاصفة، وإلّا فأنا أكثر سُكراً مما حسبت. تقياً النبيذ وتمدّد فيه فترةً متسائلاً إن كانت السفينة ستغرق. أهذا انتقامك يا أبت؟ هل نصّبك (الأب في الأعلى) يدّاه؟ قال والريّح تعوي في الخارج: «هذا جزء قاتل الأقربين». لا يبدو من العدل أن يغرق عامل القمره والرّبّان وسائر الطّاقم لأجل شيء فعله هو، لكن منذ متى والآلهة عادلة؟ وفي تلك اللحظة تقريباً ابتلعه الظلام.

حين عاد يتحرّك أحسّ برأسه يكاد ينفجر وبالسّفينة تدور من حوله في حلقاتٍ تدوّخ، على الرغم من أن الرّبّان كان يقول بإصرارٍ إنهم رسوا. قال له تيريون أن يصمّت، وركل بوهنٍ محاولاً التملّص إذ دسّه بحارٍ أصلع ضخم تحت ذراعه وحمله إلى المخزن، حيث ينتظره برميل نبيذ فارغ، برميل صغير قصير ضيق حتى بالنسبة إلى قزم. بال تيريون على نفسه وهو يُقاوم، وبلا طائل، وهكذا حُسِرَ على وجهه في البرميل وقد انضغطت ركبته على أذنيه، واستحكته جدعة أنفه على نحوٍ شنيع، لكن ذراعيه كانتا مثبتتين تماماً ولا يستطيع أن يمدّ يده ليحكّها. فكّر وهم يُغلقون الغطاء بالمسامير: هودج يليق برجل في مقامي المكين. سمع أصواتاً تزعق فيما رُفِعَ البرميل، وصدمت كل رجةٍ رأسه بالقاع، وراح العالم يدور ويدور والبرميل يتدحرج إلى أسفل، قبل أن يتوقّف بارطام جعله يُريد أن يصرخ، ثم اصطدم برميل آخر ببرميله، وعصّ تيريون لسانه.

كانت هذه أطول رحلةٍ في حياته على الإطلاق، مع أنها دامت نصف ساعةٍ على الأكثر. رُفِعَ تيريون وأنزل ودُحرج ورُصّ وقُلب وعُدلّ وعادَ يُدحرج، وعبر الألواح الخشبيّة سمع رجلاً يتصايحون، وفي مرّةٍ حصاناً يصهل على مقربة. بدأت ساقاه ناقصتا النمو تشنجان، وسرعان ما ألتاه بشدّة أنسته ضرب المطارق في رأسه.

انتهت الرّحلة كما بدأت، بدحرجةٍ أخرى دوّرت رأسه ورجّت بدنه، ومن

الخارج سمع أصواتًا غريبةً تتكلم بلُغةٍ يجهلها. بدأ أحدهم يدقُّ على رأس البرميل، وانفتح الغطاء فجأةً ليتدفق الصَّوء إلى الدَّاخِلِ ومعه الهواء الفاتر. شهقَ تيريون بشراهةٍ وحاولَ الوقوف، لكنه لم ينجح إلا في إسقاط البرميل على جانبه وسكب نفسه على الأرض الترابيَّة الصُّلبة.

فوقه وقفَ رجلٌ شديد البدانة له لحية صفراء متشعَّبة، يحمل مطرقةً خشبيَّةً وإزميلًا من الحديد، ويصلح المعطف المنزلي الهائل الذي يرتديه لأن يكون سُرادقًا في دورة مباريات، لكن حزامه المربوط بغير إحكام انحلَّ كاشفًا عن بطن أبيض ضخم وثديين ثقيلين يتهدَّلان كجوالين من الشحم مغطَّين بالشعر الأصفر الخشن. ذكَّر منظره تيريون ببقرة بحرٍ ميتة جرفها التيار ذات يوم إلى الكهوف أسفل (كاسترلي روك).

نظرَ البدین إلى أسفل وابتسم، وبعمامةٍ (وستروس) قال: «قزم سكران».

- «بقرة بحر متعفنة». كان فم تيريون مليئًا باللحم، وقد بصقه عند قدمي البدین. أدركَ أنهما في قبوٍ طويل معتم له سقف مقنطرٌ ويُبَعِّع النُّطرون جدرانَه، وقد أحاطتَ بهما براميل وبراميل من النبيذ والمِرز، شراب يكفي قزمًا ظمآن طوال الليل. أو طوال عُمر.

- «أنت وقح. أحبُّ هذا في الأقسام». حين ضحك البدین تَهزَّز لحمه بقوَّة جعلت تيريون يخشى أن يقع عليه ويسحقه. «أنت جائع يا صديقي الصَّغير؟ أو متعب؟».

بصعوبةٍ جلسَ تيريون على رُكبتيه مجيبًا: «عطشان، ومتسخ». تشمَّ البدین، ثم قال: «الحمام أولًا إذن، ثم الطَّعام وفراش لِن، اتَّفقتنا؟ سيحرص خدمي على كلِّ شيء»، ثم وضع مضيفه المطرقة والإزميل جانبًا، وأردف: «منزلي منزلك. أيُّ صديقٍ لصديقي وراء البحر صديقٍ لإليروي موباتيس، نعم».

أيُّ صديقٍ لغارس العنكبوت ليس شخصًا أثقُّ به على الإطلاق. على أن البدین أوفى بالحمام الموعود، وما إن نزلَ تيريون في المياه الساخنة وأسبل جفنيه حتى غاب في نوم عميق. استيقظَ في فراشٍ محشو بريش الإوز، بالغ اللين حتى إنه شعر كأن سحابةً ابتلعتَه. أحسَّ بلسانه خشنًا وحلقه جافًا تمامًا، لكنه وجد قضيبه منتصبًا كعودٍ

من الحديد، فندحرَج نازلاً من الفراش ووجدَ وعاء فضلات وشرعَ يملأه مطلقاً أنين لذة.

الغرفة معتمة، لكن خطوطاً صفراء من ضوء الشمس تلوح من بين خصائص النافذة. نفصّ تيريون آخر قطرات البول، ثم سارَ على البُسط المايريّة المزركشة الناعمة كعُشب الرّبيع النَّصر، وبحركةٍ خرقاء تسلق المقعد المجاور للنافذة ودفعَ مصراعها ليرى أين أرسله فأرس والآلهة.

تحت النافذة تقف ستُّ أشجار كرز حراسةً حول مسبح من الرُّخام، فروعها الرّفيعة بنية جرداء، وعلى الماء يقف فتى عار متخذاً وضِع النزال وفي يده سيف مُبارزي البراؤ، يبدو رشيقيًا وسيماً، ولا تتعدى سنه السادسة عشرة، وله شعر أشقر مفروديمسُ كنفه. بدا حيّاً للغاية حتى إن لحظاتٍ طويلة مرّت قبل أن يدرك القزم أن الفتى منحوت من الرُّخام الملوّن، وإن التمع سيفه كالفولاذ الحقيقي.

على الناحية الأخرى من المسبح يرتفع سور من القرميد يبلغ الاثني عشر قدماً طولاً، وعلى قمته خوازيق من الحديد، ووراء السور المدينة. حول خليج يتلاطم بحر من سقوف المنازل المبلّطة، ورأى تيريون أبراجاً مربّعة من القرميد، ومعبداً أحمر عظيمًا، وإيواناً بعيداً على قمةٍ تَل، وبعيداً تتلألاً أشعة الشمس على صفحة مياهٍ عميقة. عبر الخليج تحرك قوارب الصّيد وقلوعها تُرفرف في الرّيح، كما رأى صواري سُفن أكبر بارزةً بطول الساحل. مؤكّد أن إحداها متّجهة إلى (دورن) أو (القلعة الشّرفيّة). لكن لا سبيل لديه لدفع ثمن رحلته، وهو ليس مخلوقاً للعمل على مجذاف. على ما أظنّ قد يُمكنني الانضمام إلى الطّاقم كعامل قمرية، وأدفعُ تكلفة الرّحلة بترك الطّاقم ينكحني طوال الطّريق عبر (البحر الضيّق).

تساءلَ أين هو. حتى الهواء رائحته مختلفة هنا. الرّيح الخريفية الباردة معطرة بتوابل غريبة، وقد تناهى إلى مسامعه من فوق السور صياح خافت يأتي من الشّوارع بلُغية أشبه بالغاليريّة، وإن لم يستطع أن يميّز إلا كلمة أو اثنتين من كلِّ خمس. ليست (برافوس)، ولا (تايروش). علاوةً على أن هذه الفروع العارية والبرودة في الجوّ تنقُص احتمالات (ليس) و(مير) و(فولانتيس) أيضاً. عندما سمعَ تيريون الباب يُفتَح من خلفه التفتَ يُوَاجِه مضيفه البدين قائلاً:

«هذه (بتتوس)، أليس كذلك؟».

- «بالصَّبْط. وأين غيرها؟».

(بتتوس). حسن، إنها ليست (كينجز لاندينج) على الأقل. سمعَ نفسه يسأل: «أين تذهب العاهرات؟».

- «العاهرات موجودات في المواخير هنا، تمامًا كما في (وستروس). لكنك لن تحتاج إلى أمثالهن يا صديقي الصَّغير. اختر من خادماتي. لن تجرؤ أيهن على الرَّفض».

بلا مواربة سأله القزم: «أهن أَمات؟».

ملسَ البدين على إحدى شُعبٍ لحيته الصَّفراء المزيَّنة -وهي الحركة التي وجدها تيريون في غاية القُبْح- وقال: «النَّخاسة محرمة في (بتتوس) بحُكم شروط المعاهدة التي فرضها البرافوسيون علينا قبل مئة عام، لكنهن لن يَرفضنك رغم ذلك»، وبثقل انحنى إليريون نصف انحناءٍ متابعًا: «لكن على صديقي الصَّغير أن يعذُرني الآن. إن لي شرف أن أكون من ماچسترات هذه المدينة العظيمة، والأمر استدعانا للاجتماع»، وابتسم كاشفًا عن فم مليء بالأسنان المصفرَّة المعوجَّة، وأضاف: «استكشِف الإيوان والحدائق كما تُريد، لكن إياك والخروج وراء الأسوار.. الأفضل ألا يعلم أحد أنك كنت هنا».

- «كنتُ؟ وهل ذهبتُ إلى مكانٍ ما؟».

- «سنجد وقتًا يكفي للكلام عن هذا في المساء. أنا وصديقي الصَّغير سنأكل ونشرب ونرسم خططًا عظيمة، أليس كذلك؟».

أجاب تيريون: «بلى يا صديقي السَّمين». يُريد أن يستغلَّني لمنفعته. لا يعرف أمراء المُدن الحُرَّة التُّجَّار إلا المنفعة. إنهم «جنود التَّوابل ولوردات الجُبنة» كما اعتاد السيِّد والده أن يصفهم بازدراء. إذا بزغ فجر يوم ووجد إليريو موباتيس في قزم ميت مكسبًا أكبر من قزم حي، فسيجد تيريون نفسه مشحونًا في برمبل نبيذٍ آخر مع حلول الغسق. خيرٌ لي أن أرحل قبل أن يأتي ذلك اليوم. لا شك لديه في مجيء ذلك اليوم، فسرسي لن تنساه، وحتى چايمي قد يستاء حين يجد أباهم بسهم مغروس في بطنه.

كانت رياح خفيفة تُموِّج مياه المَسبِح حول المُبارز العاري بالأسفل.

ذَكَرَهُ المشهد بتايشا حين كانت تُدَاعِبُ شَعْرَهُ خلال ربيع زواجهما الزائف، قبل أن يُسَاعِدَ حَرَسَ أَبِيهِ عَلَى اغْتِصَابِهَا. فِي أَثْنَاءِ هَرُوبِهِ فَكَّرَ فِي هَوَاءِ الحَرَسِ مَحَاوِلًا تَذَكَّرُ عِدَدَهُمْ. المَفْتَرَضُ أَن يَتَذَكَّرَ شَيْئًا كَهَذَا، لَكِن لَّا. دِسْتَةُ؟ عَشْرُونَ؟ مِثَّةٌ؟ لَّا يَدْرِي. كَانُوا جَمِيعًا رَجَالًا نَاصِجِينَ، طَوَالًا وَأَقْوِيَاءَ... وَلَوْ أَن كُلَّ الرَّجَالِ طَوَالٍ بِالنَّسْبَةِ إِلَى قِزَمٍ فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ مِنَ العُمُرِ. تَابِشَا عَرَفَتْ عِدَدَهُمْ. كُلٌّ مِنْهُم نَقَدَهَا أَيْلًا فَضِيًّا، فَمَا كَانَ عَلَيْهَا إِلَّا أَن تُحْصِيَ قِطْعَ العَمَلَةِ. قِطْعَةُ فَضِيَّةٍ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُم وَوَاحِدَةٌ ذَهَبِيَّةٌ مِنِّي. أَصَرَ أَبُوهُ عَلَى أَن يَدْفَعَ تِيرِيُونَ لَهَا أَيْضًا. اللَانِسْتَرُ يُسَدِّدُ دِيُونَهُ دَائِمًا.

مَرَّةً أُخْرَى سَمِعَ اللُورْدُ تَابِيُونَ يَقُولُ: «أَيْنَمَا تَذْهَبِ العَاهِرَاتُ»، وَمَرَّةً أُخْرَى أَصْدَرَ القُوسَ صَوْتَهُ الوَتْرِي.

الْمَاجِسْتَرُ دَعَاهُ إِلَى اسْتِكْشَافِ الإِيوَانِ، وَهَكَذَا وَجَدَ ثِيَابًا نَظِيفَةً فِي صَنْدُوقٍ مِنْ خَشَبِ الأَرَزِ المَطْعَمِ بِاللَّازُورْدِ وَعِرْقِ اللُّلُؤِ، وَإِن أَدْرَكَ وَهُوَ يَرْتَدِيهَا بِصُعُوبَةٍ أَن الثِّيَابَ مَفْصَلَةً لَصَبِيٍّ صَغِيرِ الحِجْمِ. الأَقْمِشَةُ فَخْمَةٌ بِمَا فِيهِ الكِفَايَةُ، وَإِن كَانَتْ رَائِحَتُهَا زَنْخَةٌ بِعِضِّ الشَّيْءِ، لَكِن السَّاقِينَ أَطُولُ مِنَ اللَّازِمِ وَالدَّرَاعِينَ أَقْصَرُ مِنَ اللَّازِمِ، وَثَمَّةٌ طُوقَ كَانَ لِيَسُودَ وَجْهَهُ حَتَّى يُحَاكِي وَجْهَ چُوفَرِي لَوْ اسْتَطَاعَ بِوَسِيلَةٍ مَا أَن يُوثِقَهُ، كَمَا أَن العُثَّ قَضَمَ مِنْهَا أَيْضًا. عَلَى الأَقْلِ لَيْسَتْ رَائِحَتُهَا فِي ٤.

بَدَأَ تِيرِيُونَ الاسْتِكْشَافَ بِالمَطْبِخِ، حَيْثُ رَاقِبَتَهُ امْرَأَتَانِ سَمِيَتَانِ وَمُسَاعِدَ طَبَّاحٍ بِحَذَرٍ إِذ رَاحَ يَلْتَهُمُ الجُبْنَةُ وَالحَبْزُ وَالتَّيْنُ. قَالَ مَنحَنِيًا: «طَابَ صَبَاحِكُمَا أَيَّتُهَا السَيِّدَتَانِ الحَسَنَاوَانِ. هَلْ تَعْلَمَانِ أَيْنَ تَذْهَبِ العَاهِرَاتُ؟»، وَلَمَّا لَمْ تَرَدًّا أَعَادَ السُّؤَالَ بِالقَالِيبِيَّةِ الفُصْحَى، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ «مَحْظِيَّةٌ» بَدَلًا مِنْ «عَاهِرَةٌ»، وَهَذِهِ المَرَّةَ هَزَّتِ الطَّاهِيَةُ الأَصْغَرَ وَالأَسْمَنَ كَتِفَيْهَا.

تَسَاءَلَ مَاذَا قَدْ تَفْعَلَانِ إِذَا أَخَذَهُمَا بِالْيَدِ وَجَرَّهُمَا إِلَى عُرْفَةِ نَوْمِهِ. لَنْ تَجْرُؤَ أَيُّهُنَّ عَلَى الرَّفْضِ. هَكَذَا زَعَمَ إِيْرِيُو، وَلَكِن بِشَكْلِ مَا لَّا يَحْسَبُ تِيرِيُونَ أَنَّهُ قَصَدَ هَاتَيْنِ الاثْنَتَيْنِ. أَصْغَرُهُمَا عَجُوزٌ بِمَا يَكْفِي لَأَنَّ تَكُونَ أُمَّهُ، وَالأُخْرَى أُمُّهَا هِيَ عَلَى الأَرْجَحِ، وَكِلْتَاهُمَا تُنَاهِزُ إِيْرِيُو بِدَانَةٍ، وَلَهُمَا أَثْدَاءُ أَكْبَرَ مِنْ رَأْسِهِ. يُمَكِّنِي أَن أَخْتَقَ نَفْسِي بِاللَّحْمِ. ثَمَّةٌ طَرَائِقُ أَسْوَأُ لِلْمَوْتِ؛ الطَّرِيقَةُ الَّتِي مَاتَ بِهَا السَيِّدُ وَالدَّهْ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ. كَانَ عَلَيَّ أَن أَجْعَلَهُ يَتَبَرَّزُ القَلِيلَ مِنْ

الذهب قبل أن يلفظ آخر أنفاسه. ربما بخل اللورد تايوين بالرّضا والعاطفة، لكنه لطالما كان سخياً حين يتعلّق الأمر بالمال. أكثر إثارةً للشّفقة من قزم بلا أنفٍ قزم بلا أنفٍ ولا ذهب.

ترك تيريون المرأتين السّمتين لأرغفتها وقدورهما، وذهب يبحث عن القبو الذي صبّه فيه إيريون من البرميل ليلة البارحة. لم يكن العثور عليه صعباً، وهناك وجد خموراً تكفي لإبقائه سكران مئة عام كاملة؛ نبيذاً أحمر حلواً من (المرعى)، ونبيذاً أحمر حامضاً من (دورن)، ونبيذاً كهربائياً شاحباً من (پنتوس)، ورحيق (مير) الأخضر، وستين برميلاً من نبيذ (الكرمة) الذهبية، وكذا خموراً من الشرق الأسطوري، من (كارث) و(بي تي) و(أشاي) الواقعة عند (بلاد الظل). في النهاية انتقى تيريون برميلاً من النبيذ القوي، مكتوباً عليه أنه من المخزون الخاص باللورد رونسفورد رداوين، وهو جد سيّد (الكرمة) الحالي. وجد مذاقه مستساغاً ثقيلًا على اللسان، ولونه الأرجواني الدّاكن للغاية يكاد يبدو أسود في إضاءة القبو المعتمة. ملأ تيريون كوباً ثم إبريقاً على سبيل الاستزادة، وحملهما إلى الحدائق بالأعلى ليشرب تحت أشجار الكرز التي رآها.

ولكن تصادف أنه خرج من الباب الخطأ ولم يجد المسيح الذي رآه من نافذته. لم يهتمّ، فالحدائق الممتدة وراء الإيوان تسرّ النفس بدورها، كما أنها أوسع كثيراً، وهكذا تجوّل في أنحاءها بعض الوقت وهو يشرب. الأسوار كفيلة بجعل أيّ قلعة فعلية تبدو كالأطلال، وقد بدت الخوازيق الحديد التي تُزيّنُها من أعلى عاريةً على نحوٍ غريب دون رؤوس تحلّيها. تخيل تيريون منظر رأس أخته هناك بالأعلى، في شعرها الذهبي القطران، والذباب يثرّ داخلاً فيها وخارجاً منه. نعم، ولا بُدّ أن يكون الخازوق المجاور لها لچايمي. يجب ألا يأتي أحد بين أخي وأختي.

قد يتمكن من تسلق ذلك السور باستخدام حبل وخطاف. إن ذراعيه قويتان ووزنه ليس ثقيلًا، ويفترض أن يستطيع العبور إلى الجانب الآخر إذا لم يُخوزق نفسه. سأبحث عن حبل غداً.

خلال تجواله رأى البوابات؛ المدخل الرئيس بمبناه الخاص، وبوابة جانبية عند أوجرة الكلاب، وبوابة حديقة تُخفيها فروع اللباب الشاحب المتشابكة.

وجدَ البوابة الأخيرة مغلقةً بالسلاسل، والأخريين تحت الحراسة. الحُرَّاس ممتثلون ووجوههم ملساء كمؤخرات الرُّضَع، ويعتمر كلُّ منهم خوذةً مدبَّبةً من البرونز. يعرف تيريون المخصَّين حين يراهم، ويعرف نوعهم بالسُّمعة. يُقال إنهم لا يخافون شيئاً ولا يشعرون بالألم، ومخلصون لساداتهم حتى الموت. سيفيدني كثيراً أن يكون بضع مئاتٍ منهم تحت إمرتي. مؤسفٌ أنني لم أفكر في هذا قبل أن أصبح متسوِّلاً.

قطع شُرْفَةٌ ذات أعمدةٍ ومرٍّ من تحت قنطرةٍ مدبَّبة، ووجدَ نفسه في باحةٍ مفروشة بالبلاط، حيث وقفت امرأة تغسل الملابس عند بئر. بدت في سنِّه، شعرها أحمر باهت ووجها عريض مبرقش بالنمش. سألتها: «هل تريدين القليل من النيِّد؟»، ولما رمقته حائرةً قال: «ليس معي كوب لك. علينا أن نتقاسم كوبي». عادت الغسَّالة إلى نفص السُّترات ونشرها، واستقرَّ تيريون على دِكَّةٍ حجريةٍ بإبريقه متسائلاً: «أخبريني، إلى أيِّ حدِّ يُمكنني الثقة بالماجستير الليريو؟». جعلها الاسم ترفع عينيهما إليه، فقال: «إلى هذا الحدِّ؟»، وقهقهةً واضحاً ساقاً على ساقٍ ورشفت من شرابه، ثم تابع: «أكره أن ألب الدور الذي يعدُّه تاجر الجبنة لي أيًّا كان، ولكن كيف أرفضُ البوابات عليها حراسة. ربما يُمكنك تهريبي إلى الخارج تحت تنورتك؟ سأكون في غاية الامتنان، بل وسأتزوَّجك أيضاً. إن لي زوجتين بالفعل، فماذا يمنع أن تكوني الثالثة؟ أه، لكن أين نسكن؟»، ومنحها أطيّب ابتساميةٍ يقدر عليها رجل له نصف أنف، وأردف: «إن لي ابنةٍ أختٍ في (صنسبير)، هل أخبرتك بهذا؟ بإمكانني إحداث بلبلةٍ عظيمة في (دورن) عن طريق مراسلا. أستطيع أن أشعل حرباً بين ابنة أختي وابنها، ألن يكون ذلك طريفاً؟». ثبتت الغسَّالة على الحبل سترَةً لِّليريو تصلح لأن تكون شرعاً، فيما واصل هو: «يجدر بي أن تُخزني تلك الأفكار الشريرة، أنت محقّةٌ تماماً. الأفضل أن أسعى إلى (الجدار). عندما يلتحق الرّجل بحرس اللّيل تُمحي جرائمه كلّها كما يقولون، لكنني أخشى أنهم لن يسمحوا لي بالاحتفاظ بك يا حلوتي. لا نساء في حرس اللّيل، لا زوجات جميلات ذوات نمشٍ يُدفنن فراش المرء في اللّيل، لا شيء إلا الرّيح الباردة وسمك القُد المملح والقليل من البيرة. أتُحسبيني سأبدو أطول قامة إذا ارتديت الأسود يا سيّدي؟»، وأعاد ملء كوبه مضيئاً: «ما قولك؟ الشّمال

أم الجنوب؟ هل أكرمُ عن خطاياي القديمة أم أرتكبُ بضع خطايا جديدة؟». رمقته الغسالة بنظرةٍ أحيرة، ثم التقطت سلّتها وابتعدت، ففكر تيريون: لا يبدو أنني أستطيع الاحتفاظ بزوجةٍ طويلاً. بشكل ما كان ما في إبريقه قد نفذ. ربما عليّ العودة إلى القبو. على أن النبيذ القوي جعل رأسه يدور، ودرجات القبو طويلة منحدرة للغاية. سأل الغسيل الذي يُرفرف على الحبل: «أين تذهب العاهرات؟». ربما كان عليه أن يسأل الغسالة. وإن كنت لا ألمحُ إلى كونك عاهرةً يا عزيزتي، ولكن قد تعلمين أين يذهبن. والأفضل لو كان قد سأل أباه. قال اللورد تاويين: «أينما تذهب العاهرات». لقد أحببتي. كانت ابنة مُزارع، أحببني وتزوجتني ووضعت نثقتها بي.

انزلق الإبريق الفارغ من يده وتدرج على أرض الباحة، فدفَع تيريون نفسه ناهضاً ليستعيده، وإذ فعلَ هذا لمح بعض الفطر النَّابت من بلاطةٍ مكسورة، فطراً أبيض شاحباً مرقطاً، جوانبه السفلية مزلعة بالأحمر القاني كالدم. قطف القزم حبةً وتشممها مفكراً: شهيةً، ومميّة.

كانت حبات الفطر سبعة. لعلّ الآلهة السبعة تُحاول إخباره بشيء ما. قطفها كلّها وانتزع قفاً من على الحبل ولفها به بحرص ودسها في جيبه، غير أن الجهد دور رأسه، فعاد إلى الدكّة وتكور على نفسه فوقها وأغمض عينيه. وعندما استيقظ ثانية وجد نفسه في غرفة نومه من جديد، غارقاً في الفراش المحشو بريش الإوز بينما تهزه فتاة شقراء من كتفه قائلة: «سيدي، حمّامك جاهز. الماچستر إيريو ينتظرك على المائدة خلال ساعة».

أسند تيريون ظهره إلى الوسائد، ووضع رأسه بين يديه متسائلاً: «هل أحلم أم أنك تتكلمين العامية؟».

- «نعم يا سيدي. لقد اشتريتُ للتّرفيه عن الملك». الفتاة حسناء زرقاء العينين، شابةٌ وغمضة.

- «أنا واثق بأنك رفّهت عنه. أريدُ كوباً من النبيذ».

قالت وهي تصبُّ له: «الماچستر إيريو قال أن أفرك ظهرك وأدفع فراشك».

اسمي...».

- «... لا يهمني. هل تعرفين أين تذهب العاهرات؟».

احمرّ وجهها، وقالت: «العاهرات يعن أنفسهن مقابل المال».

- «أو الجواهر، أو الفساتين، أو القلاع. لكن أين يذهبن؟»
ردّت الفتاة التي لم تستوعب السؤال: «أهذه أحجية يا سيدي؟ لستُ بارعةً في الأحاجي. هلا أخبرتني بالإجابة؟».

لا. إنني أبغضُ الأحاجي عن نفسي. «لن أخبرك بشيء، فأسدي لي الصنيع نفسه». همّ بأن يقول لها: الجزء الوحيد الذي يهمني فيك هو الذي بين ساقيك، وكانت الكلمات على لسانه بالفعل، لكنها لسبب ما لم تخرج من بين شفتيه، وقال القزم لنفسه: إنها ليست شاي، بل مجرد حمقاء صغيرة تحسبني ألباً بالأحاجي. الحقيقة أن فرجها نفسه لا يهمنها لهذه الدرجة. لا بدّ أنني مريض، أو ميت. «هل ذكرتِ حمّاماً؟ يجب ألا تنترك تاجر الجبنة العظيم منتظراً».

في أثناء استحمامه غسلت الفتاة قدميه وفركت ظهره ومشطت شعره، وبعدها دهنت ربتلي ساقيه بمرهم عطر الرائحة لتخفيف الألم فيهما، ثم ألبسته ثياب الصبيان مجدّداً؛ سراويل خمريّة زنخة الرائحة، وسترة ضيقة من المخمل الأزرق مبطنة بقماش الذهب، وبينما تعقد أربطة حذائه سألته: «هل سيرغب في سيدي بعد أن يأكل؟».

- «لا، لقد فرغت من النساء». العاهرات.

ضايقه ألا تبدي خيبة الأمل، وقولها: «إذا كان سيدي يُفضّل غلاماً فيمكنني أن أجعل واحداً ينتظره في الفراش».
سيدي يُفضّل زوجته، سيدي يُفضّل فتاةً أسماها تايشا. «فقط إذا كان يعرف أين تذهب العاهرات».

زمت الفتاة شفتيها، فقال لنفسه: إنها تحتقني، ولكن ليس أكثر مما أحتقر نفسي. لا يرتاب تيريون لانستر على الإطلاق في أنه ضاجع نساءً كثيرات يكرهن مجرد منظره، لكن الأخريات كنّ على الأقل بالكياسة الكافية لادعاء العاطفة. قد يكون القليل من الاحتقار الصادق منعشاً، كالنبيد اللاذع بعد الكثير من الحلويات.

قال لها: «أعتقد أنني غيرت رأيي. انتظريني في الفراش، عاريةً إذا سمحت. سأكون أكثر ثملاً من أن أستطيع خلع ثيابك»، ونظر إليها شزراً آملاً أن يتذوق شيئاً من خوفها، لكنه لم ينل منها إلا الاشمئزاز. لا أحد يخشى الأقرام. حتى

اللورد تاويين لم يخف مع أن تيريون كان يحمل نُشَابِيَّةً. سأل خادمة الفِراش: «هل تتأوهين عند النكاح؟».

- «إذا كان هذا يسرُّ سيدي».

- «قد يسرُّ سيدي أن يخنقك. هذا ما فعلته بعاهرتي الأخيرة. هل تحسبن أن سيديك سيعترض؟ لا بالتأكيد. إن عنده مئة منك، لكن لا أحد آخر مثلي». وعندما رماها بابتسامته العريضة هذه المرّة نال الخوف الذي أرادّه.

كان إليريو مستريحًا على أريكةٍ مبطنّة، يلتهم الفلفل الحار والبصل اللؤلؤي من وعاءٍ خشبي، وقد نضح جبينه بالعرق والتمعت عيناه الخنزيريتان فوق وجنتيه اللحيمتين، وتراقصت الجواهر على يديه مع حركتهما؛ جزع وأوپال، وعين نمر وتورمالين، وياقوت وجمشت، وصفير وزمرّد، وسبح ويشب، وماسة سوداء ولؤلؤة خضراء. قال تيريون لنفسه متأملاً: يُمكنني أن أعيش سنيًا على ثمن خواتمه، وإن كنت سأحتاجُ إلى ساطور لآخذها.

أشار له إليريو بالاقتراب قائلاً: «تعال واجلس يا صديقي الصغير».

صعد القزم على مقعدٍ، ولو أنه وجدّه كبيرًا عليه للغاية، عرشًا مقدّسة عليه الوسائد صنّيع لاستيعاب أرداف الماچستر الهائلة، وله قوائم سميقة متينة تتحمّل وزنه. لقد عاش تيريون لانستر حياته بأكملها في عالم كبير عليه للغاية، لكن في ضيعة إليريو موياتيس اتّخذ إحساسه بالتفاوت أبعادًا لا تُصدّق. أنا فأر في عرين ماموث، لكن على الأقل عند الماموث قوًّا مليئًا بالخيرات. أشعرته الفكرة بالعطش، فطلبَ نبيدًا.

سأله إليريو: «هل استمتعت بالفتاة التي أرسلتها إليك؟».

- «لو أردتُ فتاةً لطلبتها».

- «إذا تخاذلت عن إسع...».

- «بل فعلت كلَّ المطلوب منها».

- «كان هذا أمني. لقد تلقت تدريبها في (ليس)، حيث يجعلون من الحُبِّ فنًّا. الملك استمتع بها كثيرًا».

قال تيريون: «إنني أقتل الملوك، ألم تسمع؟»، وابتسم بشرًّا من فوق كأسه مضيئًا: «لستُ أريدُ فضلاتٍ ملكيّة».

- «كما تشاء. لنأكل إذن»، وصدّق إليريو فجاء الخدم مسرعين.

بدأ بمرق سرطان البحر وسمك الرَّاهب، بالإضافة إلى حَساء بيضٍ
وليمون أخضر بارد، ثم رُصَّت أطباق السُّمَّان بالعسل، ولحم ظهر الحملان،
وكبد الإوز الغارق في النيِّد، والجزر الأبيض بالزُّبدة، والخنازير الرِّضيعة.
أصابَ منظر كلِّ هذه الأصناف تيريون بالغثيان، لكنه أجبر نفسه على تجربة
ملعقةٍ من الحَساء على سبيل الأدب، وحالما تذوقها ضاعَ تمامًا. ربما تكون
الطَّاهيتان عجوزين سميتين، لكنهما تعرفان عملهما. إنه لم يأكل بهذه الشَّهية
من قبل قطُّ، حتى في البلاط الملكي.

بينما يمتصُّ اللحم من على عظم طائرهِ سألَ إليريو عن استدعاء الأمير هذا
الصَّباح، فهزَّ الرجل البدن كنفه مجيبًا: «ثمة متاعب في الشُّرق. (أستاپور)
(ميرين) سقطت، مدينتان جيسكاريتان كانتا عجوزين والعالم في شبابه».
قَطع أحد الخدم الخنزير الرِّضيع، فتناولَ إليريو قطعةً من الشَّواء وغمسها
في صلصة البرقوق وأكلها بأصابعه.

غرس تيريون طرف سكينه في قطعةٍ من كبد الإوز قائلاً: «(خليج
النخاسين) بعيد جدًّا عن (پنتوس)». ما من أحدٍ ملعون كقاتل الأقربين،
ولكن بإمكانني أن أحبَّ هذا الجحيم.

قال إليريو: «صحيح، لكن العالم شبكة واحدة عظيمة، والمرء لا يجرؤ
على لمس خيطٍ واحد خشية أن تهترَّ الخيوط الأخرى كلها. مزيد من النيِّد؟»،
ثم ألقى قرنًا من الفلفل في فمه، وأردف: «لا، شيء أفضل»، وعادَ يُصَفق.
دخلَ خادم على إثر الصَّوت حاملاً طبقًا مغطىً ووضعَه أمام تيريون، ومالَ
إليريو عبر المائدة يرفع الغطاء، ثم أعلنَ الماچستير إذ فاحت الرَّائحة: «فطر
مقبَّل بالثوم ومحَّمم بالزُّبدة. قيلَ لي إن مذاقه بديع. كُل واحدة يا صديقي،
كُل اثنتين».

كانت حبة الفطر الأسود الكبيرة في منتصف الطريق إلى فم تيريون
بالفعل، لكن شيئًا ما في نبرة إليريو جعله يتوقَّف فجأة، وقال دافعًا الطبق نحو
مضيفه: «بعدك يا سيِّدي».

بذوره دفعَ الماچستير إليريو طبق الفطر نحوه قائلاً: «لا، لا»، وللحظةٍ
خاطفة بدا كأن فتى خبيثًا يطل من داخل جسد تاجر الجُبنة المتفخ. «بعدك.
أنا مصرُّ. الطَّاهية أعدته خصيصًا من أجلك».

- «حقاً؟». تذكر الطّاهية والدّقيق على يديها وتديها الثّقيلين وعروقهما الزّرقاء الدّاكنة. «هذا لطف منها، لكن... لا»، وتتوّدة أعادَ تيريون حبة الفطر إلى بحيرة الزّبدة التي خرجت منها.

قال إيريو مبتسماً من تحت لحيته الصّفراء المتشعّبة: «يا لك من شكّاك». يظنُّ تيريون أنه يدهن لحيته هذه بالزّيوت كل يومٍ ليجعلها تلمع كما الذهب. «أنت جبان؟ لم أسمع ذلك عنك».

- «في (الممالك السّبع) يعدُّ قتل ضيفك على العشاء بالسّم خرقاً عظيماً لأصول الصّيافة».

تناول إيريو موباتيس كأسه قائلاً: «وهنا أيضاً، لكن حين تبدو رغبة الصّيف في إنهاء حياته واضحة جليّة فعلى مضيفه أن يلبّيها، أليس كذلك؟»، وجرع من النّبيذ، ثم تابع: «الماچستر أوردلو مات مسموماً بحبة فطر قبل أقلّ من نصف عام. قيل لي إن الألم ليس شديداً. مخصّ خفيف، وألم مفاجئ وراء العينين، ثم ينتهي كل شيء. الفطر أفضل من سيف في العنق، أليس كذلك؟ لم تموت وفي فمك مذاق الدّم في حين يُمكن أن يكون مذاق الزّبدة والثوم؟». أمعن القزم النّظر إلى الطبق أمامه، وقد أسألت رائحة الثوم والزّبدة لعابه بالفعل. جزء منه يُريد هذا الفطر على الرغم من معرفته بحقيقته. إنه ليس بالشّجاعة الكافية لأن يُغمّد الحديد البارد في بطنه، لكن قضمته من الفطر لن تكون بتلك الصّعوبة، وقد أخافه هذا لدرجة لا يستطيع التّعبير عنها. سمع نفسه يقول: «أنت مخطئ».

- «حقاً؟ يا هل تُرى! إذا كنت تُحبّد الغرق في النّبيذ فقل وستنال ما تُريد، وبسرعة. الغرق كأساً كأساً مضيعة للوقت والنّبيذ».

كرّر تيريون بصوتٍ أعلى: «أنت مخطئ». كان الفطر الدّاكن يلتمع بإغراءٍ في ضوء المصباح. «لست راغباً في الموت، أو كد لك. إن عندي...»، لكن صوته تاه في غياهب الحيرة. ما الذي عندي؟ حياة أعيشها؟ عمل أوديّه؟ أطفال أرييهم؟ أرض أحكمها؟ امرأة أحبّها؟

أنهى الماچستر إيريو عبارته قائلاً: «ليس عندك شيء، لكننا نستطيع أن نغيّر هذا»، والتقطَ حبة فطر من الزّبدة ومضغها بتلذّذ، ثم قال: «شهية».

مستاءً قال تيريون: «الفطر ليس مسموماً».

قال الماچستر إليريو: «نعم. لِمَ أتمنّى لك الأذى؟»، وأكلَ حَبَّةَ أُخْرَى مردفًا: «يجب أن يُبدي كلانا القليل من الثقة. هلمّ، كُلْ»، ومن جديدِ صَفْقٍ مضميفًا: «إن أماننا عملاً، ويجب أن يحتفظ صديقي الصّغير بقوّته».

جلبَ الخدم طيور البكشون المحشّوة بالتّين، وشرائح لحم العجل المسلوق في حليب اللوز، والرّنجة المهروسة بالقشدة، والبصل المحلّى، وأجبانًا عَفِنَةً الرّائحة، وأطباقًا من الحلزون وحلويات العجول، وإورّة سوداء بريشها. رفضَ تيريون الإورّة التي ذكّرتَه بعشاءٍ تناوله ذات مرّةٍ مع أخته، وإن أكلَ البكشون والرّنجة وعددًا من حَبّات البصل المحلّى، وكلّما أفرغَ كأسه ملأه الخدم من جديد.

- «تشرب نبيذًا كثيرًا جدًّا بالنّسبة إلى رجل صغير مثلك».

- «قتل الأقربين عمل يُصيب بالجفاف، يجعلني أعطش».

التمعت عينا البدين كالأحجار الكريمة على أصابعه، وقال: «في (وستروس) من يقولون إن قتل اللورد تايوين كان مجرّد بداية موفّقة».

قال القزم: «خيرٌ لهم ألا يقولوا هذا على مسمع من أختي وإلا وجدوا أنفسهم بلا ألسنة»، ومزّق رغيفًا من الخُبز نصّفين، وأضاف: «وخيرٌ لك أن تتوخّى الحذر في ما تقوله عن عائلتى أيها الماچستر. قاتلَ أقربين أو لا، إنني ما زلتُ أسدًا».

بدا أن سيّد الأُجبان وجدّ قوله طريقًا لأقصى درجة، وقد صفعَ فخذه اللّحيمية قائلاً: «كلّكم واحد يا معشر الوستروسيين، تخطون حيوانًا ما على قطعةٍ من الحرير وفجأة تُصبِحون أسودًا أو تنانين أو نسورًا. يُمكنني أن آخذك إلى أسدٍ حقيقي يا صديقي الصّغير. الأمير يحتفظ بعدّة أسودٍ مهيبة في معرض وحوشه. هل ترغب في مشاركتها قفصها؟».

أقرّ تيريون رغماً عنه بأن لوردات (الممالك السّبع) يُبالغون جدًّا في تقدير رموزهم بالفعل، وهكذا قال مسلّمًا: «ليكن. اللانستر ليس أسدًا، لكني ما زلتُ ابن أبي، ولي أنا أن أقتل چايمي وسرسي».

قال إليريو بين حلزون وحلزون: «غريب للغاية أن تذكر أختك الجميلة. لقد عرضت الملكة اللوردية على من يأتيها برأسك، مهما كان مولده متواضعًا».

ليس هذا أكثر مما توقع تيريون، الذي ردَّ: «إذا كنت تنوي قبول عرضها فاجعلها تفتح ساقها لك أيضًا. أفضل جزء مني لقاء أفضل جزء منها، صفقة عادلة». قال تاجر الجُبنة: «أفضل أن أحظى بوزني ذهبًا»، وانفجر ضاحكًا بشدة حتى إن تيريون خشي أن ينفجر، قبل أن يُضيف: «كل ما في (كاسترلي روك) من ذهب، ولم لا؟».

مرتاحًا لأنه لن يغرق في بركة من الأسماك واللحوم نصف المهضومة، قال القزم: «الذهب لك، لكن (الصخرة) لي».

قال الماچستر: «بيت القصيد»، وغطى فمه يُداري تجشؤه القوي، ثم تابع: «هل تظنُّ أن الملك ستانيس سيعطيك إياها؟ بلغني أنه يُطبِّق القانون بحذافيره. أخوك يرتدي المعطف الأبيض، أي أنك الوريث بحسب قوانين (وستروس) كلها».

قال تيريون: «قد يمنحني ستانيس (كاسترلي روك) حقًا، لولا المسألة الصَّغيرة المتعلقة بقتل الملك وقتل الأقربين. لقاء هذا سيُصِّرنِي رأسًا، وأنا قصير كفاية بالفعل. لكن لم تحسبني أنوي الانضمام إلى اللورد ستانيس؟».

- «ولم تذهب إلى (الجدار) إن لم يكن لهذا؟».

حكَّ تيريون أنفه متسائلًا: «ستانيس على (الجدار)؟ ما الذي يفعل ستانيس على (الجدار) بحقِّ الجحائم السبع؟».

- «يرتجف على ما أظنُّ. الطَّقس أكثر دفئًا في (دورن). ربما كان عليه الإبحار في ذلك الاتجاه».

كان تيريون قد بدأ يرتاب في أن غَسَّالَةً معيَّنَةً ذات نمش تعرف من اللُّغة العامية أكثر مما تتظاهر. «يتصادف أن مارسلا ابنة أختي في (دورن)، وأفكَّر في أن أجعلها ملكة».

ابتسم إليريو فيما غرف لهما خدمه الكرز الأسود بالقشدة المحلاة، وقال: «ما الذي فعلته بك تلك الطُّفلة المسكينة حتى تمنى موتها؟».

مجروحًا قال تيريون: «حتى قاتِل الأقربين ليس مطلوبًا منه أن يقتل جميع أقربائه! قلتُ أجعلها ملكة، لم أقل أقتلها».

تناول تاجر الجُبنة الكرز بالملعقة قائلًا: «في (فولانتيس) يستخدمون عملةً على وجهها تاج وعلى الوجه الآخر رأس الموت، لكنها العملة نفسها».

إن تَوَجَّهْتَ تَقْتُلْهَا. ربما تنهض (دورن) من أجل مارسلا، لكن (دورن) وحدها لا تكفي، وأنت تعلم هذا إذا كنت بالذكاء الذي يُؤكِّده صديقنا».

رمق تيريون الرَّجل البدين باهتمام تجدد، وقال في قرارة نفسه: إنه محقٌّ في هذا وذلك. إن تَوَجَّهْتَ قَتَلْتَهَا، وأنا أعلمُ هذا. «لم يتبقَّ لي إلا المحاولات العبيثَّة. على الأقل هذه المحاولة ستجعل أختي تذرِف دموعاً مريرة».

مسح الماچستر إيريو القشدة المحلاة عن فمه بظَهْر يده السَّمينة، وقال: «الطَّرِيق إلى (كاسترلي روك) لا يمرُّ بـ(دورن) يا صديقي الصَّغير، ولا يمضي أسفل (الجدار)، لكنني أوكدُ لك أن هذا الطَّرِيق موجود».

- «أنا خائِنٌ مجردٌ من ممتلكاته وإرثه وقَاتِلٌ ملكٍ وقَاتِلٌ أقربين». هذا الكلام عن الطرق يُضايقه. هل يحسبها لعبة؟

قال إيريو: «ما يفعله ملك يستطيع ملك آخر أن يُبطِّله. في (بنتوس) لنا أمير يا صديقي، يترأس الاحتفالات والمآدب ويتجوَّل في المدينة راكباً هودجاً من العاج والذهب، يسبقه ثلاثة حُجَّاب حاملين ميزان التجارة الذهبي وسيف الحرب الحديدي وكُرباج العدالة الفضي، وفي اليوم الأول من كلِّ عام جديد عليه أن يقطف زهرة عذراء الحقول وعذراء البحار»، ومال إلى الأمام مستنذاً بمرفقيه إلى المائدة، وأكمل: «لكن إذا حدث أن بارَ محصول أو هُزِمنا في حرب نحره إرضاءً للآلهة، ونختار أميراً جديداً من بين العائلات الأربعين».

- «ذكَرني ألا أصبح أمير (بنتوس) أبداً».

- «وهل تختلف مما لكم السَّبْع؟ ليس في (وستروس) سلام، لا عدالة، لا إيمان... وقریباً لا طعام. حين يتصوَّر النَّاسُ جوعاً ويضيقون ذرعاً بالخوف يبحثون عن مُنقذ».

- «لهم أن يبحثوا، لكن إذا لم يجدوا إلا ستانيس...».

أُتسعت الابتسامة الصَّفراء إذ قال الماچستر: «ليس ستانيس ولا مارسلا، غيرهما. أقوى من تومن، وأرحم من ستانيس، وأحق من الفتاة مارسلا. مُنقذ من وراء البحر يُداوي جراح (وستروس) التي تذرِف الدَّماء».

ردَّ تيريون بلا تأثر: «كلام جميل، والكلام هواء. ومن هذا المُنقذ اللعين؟». قال تاجر الجبنة: «تئين»، ولَمَّا رأى النظرة على وجهه ضحك مضيئاً: «تئين له ثلاثة رؤوس».



دنيرس

كان بإمكانها سماع الرَّجل الميت يصعد السَّلام، يسبقه وقع خُطوات الأقدام البطيء الموزون الذي يتردَّد صداه بين أعمدة قاعتها الأرجوانية، وقد جلست دنيرس تارجارين تنتظره على الدُّكة الأبنوس التي جعلتها عرشها، جفناها يُرخيها النعاس وشعرها الذهبي الفضي أشعث مبعر.

قال قائد حرسها الملكي السير بارستان سلمي: «جلالة الملكة، لا داعي لأن تري هذا».

ردَّت داني: «لقد مات من أجلي»، وضمت إلى صدرها فروة الأسد التي تردي تحتها غلالة بيضاء رقيقة من الكتان تُغطيها حتى منتصف الفخذ. كانت تحلم بمنزل بابه أحمر حين أيقظتها ميسانداي، ولم تجد وقتاً لتبديل ثيابها.

همست إيربي: «غاليسي، يجب ألا تلمسي الرَّجل الميت. لمس الموتى يجلب الحظ السيئ».

قالت چي كوي: «إلا إذا قتلهم المرء بنفسه، هذا معلوم». الفتاة عظامها أكبر من عظام إيربي، ولها وركان عريضتان ونهدان ثقيلان.

أمّنت إيربي على قولها بقولها: «هذا معلوم».

الدوثرافي حُكماء في ما يتعلق بالخيل، ولكن من شأنهم أن يكونوا غايةً في الحماقة في أشياء أخرى كثيرة. ثم إنهما ما زالتا فتاتين. وصيفتاها في مثل سنّها، امرأتان بالغتان كما يشي منظرهما، لهما شعر أسود وبشرة نحاسية وأعين لوزية الشكل، لكنهما فتاتان رغم ذلك. لقد مُنحت إياهما عندما تزوّجت الكال دروجو، ودروجو هو من أهدى إليها الفروة التي ترتديها، رأس وإهاب الهراكار، أسد (بحر الدوثرافي) الأبيض، ومع أن الفروة كبيرة عليها للغاية ولها رائحة زنخة، فإنها تُشعرها كأن شمسها ونجومها لا يزالان بالقرب منها.

ظَهَرَ الدُّودَةُ الرَّمَادِي عَلَى قَمَّةِ السَّلَامِ أَوْلًا، يَرْفَعُ مَشْعَلًا وَيَعْتَمِرُ خَوْذَةً مِنَ الْبُرُونِزِ تَعْلُوهَا ثَلَاثُ شُعَبٍ مَدْبِيَّةٍ، وَقَدْ تَبَعَهُ أَرْبَعَةٌ مِنْ جُنُودِهِ الْمُطَهَّرِينَ حَامِلِينَ الرَّجْلَ الْمَيْتَ عَلَى الْأَكْتافِ، وَعَلَى رَأْسِ كُلِّ مِنْهُمْ خَوْذَةٌ تَبْرُزُ مِنْهَا شُعْبَةٌ مَدْبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، دُونَ أَنْ يَلُوحَ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَيْ تَعْبِيرٌ تَقْرِيبًا كَأَنَّهَا هِيَ أَيْضًا مِنَ الْبُرُونِزِ الْمَصْبُوبِ. وَضَعُوا الْجِثَّةَ عَلَى الْأَرْضِ عِنْدَ قَدَمَيْهَا، وَأَزَاحَ السَّيْرُ بَارِيَسْتَانَ الْكَفْنَ الْمَلَطَّخَ بِالْدَّمَاءِ، وَخَفَضَ الدُّودَةُ الرَّمَادِي الْمَشْعَلَ لَتَرَى دَانِي.

رَأَتْ وَجْهَ الرَّجْلِ الْمَيْتِ أَمْلَسَ حَلِيقًا، وَلَوْ أَنَّ وَجْتِيهِ مَشْقُوقَتَانِ مِنَ الْأُذُنِ إِلَى الْأُذُنِ. كَانَ طَوِيلَ الْقَامَةِ، شَعْرُهُ أَزْرَقٌ وَمَلَامِحُهُ وَسِيمَةٌ. أَحَدُ أَوْلَادِ (لَيْسَ) أَوْ (فُولَانْتِيَسَ)، اخْتَطَفَهُ الْقِرَاصِنَةُ وَبَاعُوهُ لِلْعَبُودِيَّةِ فِي (أَسْتَاپُورِ) الْحَمْرَاءِ. مَعَ أَنَّ عَيْنَيْهِ مَفْتُوحَتَانِ فَجُرُوحُهُ هِيَ الْبَاكِيةُ، وَجُرُوحُهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحْصِيَ.

قَالَ السَّيْرُ بَارِيَسْتَانَ: «جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ، كَانَتْ هُنَاكَ هَارِيبِي مَرْسُومَةٌ عَلَى الْقَرْمِيدِ فِي الرَّفَاقِ الَّذِي وَجَدُوهُ فِيهِ...».

- «... مَرْسُومَةٌ بِالْدَّمِ». أَصْبَحَ الْأَمْرُ مَأْلُوفًا لِلدَّنِيرِسِ. أَبْنَاءُ الْهَارِيبِيِّ يُعْمَلُونَ خِنَاجِرَهُمْ فِي اللَّيْلِ، وَيَتْرَكُونَ عَلَامَتَهُمْ فَوْقَ كُلِّ قَتِيلٍ. «لِمَاذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ بِمَفْرَدِهِ أَيُّهَا الدُّودَةُ الرَّمَادِي؟ أَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَرِيكٌ؟». بِأَمْرِهَا، عِنْدَمَا يَتَجَوَّلُ الْمُطَهَّرُونَ فِي شِوَارِعِ (مِيرِينِ) لَيْلًا فَعْلِيهِمْ أَنْ يَمْشُوا أَرْوَاجًا دَوْمًا.

أَجَابَ الْقَائِدُ: «خَادِمُكَ التُّرْسُ الْمَقْدَامُ لَمْ يَكُنْ فِي الْخِدْمَةِ لَيْلَةَ أَمْسٍ يَا مَلِيكْتِي. لَقَدْ ذَهَبَ إِلَى... مَكَانٍ مَعِيْنٍ... لِلشَّرْبِ وَالرَّفَقَةِ».

- «مَكَانٍ مَعِيْنٍ؟ مَاذَا تَعْنِي؟».

- «بَيْتُ هَوِي يَا جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ».

مَآخُورٌ. إِنْ نِصَفَ أَتْبَاعُهَا الْمَعْتَقُونَ مِنْ (يُونُكَايِ)، حَيْثُ اشْتَهَرَ الْأَسْيَادُ الْحُكْمَاءُ بِتَدْرِيبِ عَيْدِ الْفِرَاشِ. فَنُ التَّنَهَّدَاتِ السَّبْعَةِ. فِي كُلِّ أَنْحَاءِ (مِيرِينِ) نَبَّتِ الْمَوَآخِيرُ كَعَيْشِ الْعُرَابِ. إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا هَذَا، وَمَحْتَاجُونَ إِلَى كَسْبِ الرِّزْقِ. الطَّعَامُ يَزْدَادُ غَلَاءً كُلَّ يَوْمٍ، فِي حِينٍ يَنْخَفِضُ سِعْرُ أَجْسَادِ الْبَشَرِ، وَتَعْلَمُ دَانِي أَنَّ فِي الْأَحْيَاءِ الْأَفْقَرَ، بَيْنَ أَهْرَامَاتِ (مِيرِينِ) الْمَدْرَجَةِ الَّتِي يُقْطَنُ بِهَا نُبْلَاؤُهَا النِّخَاسُونَ، ثَمَّةُ مَوَآخِيرٍ تُشْبِعُ كُلَّ نَزْعَةٍ شَهْوَانِيَّةٍ يُمَكِّنُ تَصَوُّرَهَا. وَمَعَ ذَلِكَ... «وَمَا الَّذِي يَأْمَلُ خَصِيٌّ أَنْ يَجِدَهُ فِي مَآخُورٍ؟».

قال الدودة الرمادي: «حتى من يفتقرون إلى الأعضاء الذكرية ما زالوا يتمتعون بقلوب الرجال يا جلالة الملكة. لقد قيل لهذا الواحد إن تُرسك المقدام كان أحياناً يُنفذ نساء الماخور مالا لينمن إلي جواره ويحتضنه». دم التين لا تبكي. بعينين جافتين قالت: «الترس المقدام. كان هذا اسمه؟».

- «بعد إذن جلالة الملكة».

- «اسم جيد». لم يسمح أسياد (أستايور) الكرام لجنودهم العبيد بمجرد أن تكون لهم أسماء، وبعد تحريرها إياهم استردَّ بعض مُطهرها الأسماء التي وُلدوا بها، واختار آخرون لأنفسهم أسماء جديدة. «هل نعلم كم واحداً هاجموا الترس المقدام؟».

- «هذا الواحد لا يعلم. كانوا كثيرين».

قال السير باريستان: «ستة أو أكثر. يبدو من منظر جروحه أنهم أحاطوا به من كلِّ جانب. كان غمده فارغاً حين وجدوه. ربما جرح بعض مهاجميه». دعت داني في صمت أن يكون أحد أبناء الهاربي يُحتصر في مكان ما الآن، يُمسك بطنه ويتلوى ألماً. «لماذا شقوا وجنتيه هكذا؟».

أجاب الدودة الرمادي: «أيتها الملكة العطوف، قتلة خادمك الترس المقدام حشروا عضو كبش في حلقه، لكن هذا الواحد أزاله قبل المجيء به إلى هنا».

لم يستطيعوا أن يطعموه ذكره هو. الأستايوريون لم يتركوا له جذراً أو ساقاً. علقت داني: «الأبناء يزدادون جرأة». حتى الآن اقتصرَت هجماتهم عليّ المعتقين العزل، يسقطونهم في الشوارع أو يقتحمون بيوتهم تحت جنح الظلام ويقتلونهم في أسرّتهم. «هذا أول واحد يقتلونه من جنودي».

قال السير باريستان مندرًا: «الأول، لكنه لن يكون الأخير».

مازلتُ في حرب. الفرق الآن أن من أقاتلهم ظلال. كانت تأمل أن تنال فترة راحة من القتل، أن يكون عندها وقت للبناء والشفاء.

هزت كفيها مسقطه فروة الأسد، وركعت إلى جوار الجثة تُغلق عينيها متجاهلة شهقة جيكوي، ثم قالت: «الترس المقدام لن يُنسى. اجعلوهم يُغسلونه ويُلبسونه ثياب المعركة، وادفنه بخوذته وُترسه وجِرابه».

قال الدودة الرمادي: «أمرك يا جلالة الملكة».

- «أرسلوا رجلاً إلى (معبد ذوات النعم) ليسألوا إن كان أي رجل قد ذهب إلى ذوات النعم الزرق بجرح سيف، وانشروا بين الناس أننا سندفع مبلعاً جيداً من الذهب نظير سيف الترس المقدم القصير. استجوبوا الجزارين ورعاة الماشية، واعلموا من كان يخصي الماعز في الفترة الأخيرة». ربما يعترف راعي ماعز ما. «من الآن فصاعداً لا أحد من رجالي يمشي وحده في الظلام».

- «هؤلاء الأحاد سيطيعون».

أزاحت دنبرس شعرها قائلة: «اعثروا لي على هؤلاء الجبناء، اعثروا عليهم كي أعلم أبناء الهاربي معنى أن يُوقظوا التنين».

أدى لها الدودة الرمادي التحيّة، وعادَ مطَّهروه يُغطُّون الرَّجل الميت بكفنه ورفعوه على أكتافهم وحملوه خارجين من القاعة، أمّا السير باريستان سلمى فمكث. شعره أبيض، وفي أركان عينيه الزرقاوين الباهتتين تجاعيد، لكن قامته لا تزال لم تنحن، ولم تسلبه السنون براعته في القتال. قال الرَّجل: «جلالة الملكة، أخشى أن مخصيِّك لا يصلحون للمهمّة التي كلّفتم بها».

استقرت داني على الدكّة ولفّت نفسها بفروة الأسد من جديد، وقالت: «المطَّهرون أفضل مُحاربي».

- «إنهم جنود لا مُحاربون، بعد إذن صاحبة الجلالة. لقد أعدوا الميدان المعركة، دُربوا على الوقوف كتفاً إلى كتفٍ وراء تروسهم وحرابهم مرفوعة أمامهم. تدريبهم يُعلّمهم الطّاعة التّامة بلا خوفٍ ودون تفكيرٍ أو تردّد... وليس إماطة اللثام عن الأسرار أو الاستجواب».

- «وهل الفرسان أكثر نفعا؟». كان سلمى يعمل علي تدريب فرسان من أجلها، يُعلّم أبناء العبيد القتال بالرُّمح والسيف على الطراز الوستروسي... لكن ما جدوى الرّماح ضد جنباء يقتلون في الظلام؟

أجاب العجوز: «ليس في هذا الشأن، كما أن جلالتك ليس عندها فرسان باستثنائي. الصّبيّة لن يكونوا مستعدّين قبل أعوام».

- «من غير المُطَّهرين إذن؟ الدوثرافي سيكونون أسوأ». الدوثرافي يُقاتلون من فوق متون الخيول، والخيالة نفعهم أكبر في الحقول المفتوحة والتلال من شوارع المدينة وأزقتها الضيقة. وراء أسوار (ميرين) بألوانها العديدة حُكم داني - في أحسن تقدير - مضطرب. ما زال آلاف العبيد يكدحون في الأراضي الشاسعة في التلال، يزرعون القمح والزيتون ويرعون

الخراف والماعز ويُقبون عن الملح والنحاس، وفي مخازن المدينة مؤن وافرة من الغلال والزُّبوت والزُّيتون والفواكه المجففة واللحوم المملحة، لكن المخزون يتناقص، ولذا أرسلت داني غالاسارها الصَّغير لإخضاع المناطق الدَّاخِلية البعيدة عن السَّواحل تحت قيادة خيَّالة دمها الثلاثة، فيما أخذ بن بلوم البني رجال الأبناء الثَّانين جنوبًا لدرء غارات اليونكيَّين.

والمهمة الأهمُّ على الإطلاق عهدت بها إلى داريو نهاريس، داريو بلسانه المعسول وسنَّه الذهب ولحيته ثُلَّائية الشَّعب، يتسم ابتسامته الماكرة من تحت شَعْر شواربه الأرجوانية. وراء التلال الشَّرقية تقع سلسلة من جبال الحجر الرَّملي المستديرة، (ممر كيازي)، و(لازار). إذا أُنْفَع داريو اللازارين بإعادة فتح طرق التَّجارة البرية فيمكن المجيء بالغلل عبر النَّهر أو من فوق التلال عند الحاجة... غير أن شعب الحملان ليس عنده سبب لِحَبِّ (ميرين). قالت للسَّير باريستان: «ربما أستخدمُ غُربان العاصفة عندما يعودون من (لازار)»، ثم نهضت مردفة: «أرجو أن تُعذِّرنِي أيها الفارس. سيكون المُلتمسون على بابي بعد قليل، وعليَّ أن أضع أذني الرَّخوتين وأصبح ملكتهم مجددًا. استدعِ رزناك والرَّأس الحليق، سأراهما بعد أن أبدل ملاسي».

انحنى سلمي قائلاً: «كما تأمر صاحبة الجلالة».

يرتفع (الهرم الأكبر) ثمانمئة قدم في السَّماء، من قاعدته المربَّعة الهائلة إلى قِمَّتِه الشَّامخة التي اتَّخذت المَلِكة فيها مسكنها الخاص، المُحاط بالخضرة والبرك العطرة. مع طلوع فجر أزرق فاتر على المدينة خرجت داني إلى الشَّرفة. إلى الغرب يتوهج ضوء الشَّمس على قباب (معبد ذوات النعم) الذهبية، وينتشر ظلالاً عميقة وراء أهرام الأقوياء المدرَّجة. في هذه اللَّحظة في بعض تلك الأهرامات يُخطط أبناء الهاربي لاعتيالات جديدة، وأنا عاجزة عن ردِّعهم.

شعرَ فسيريون باضطرابها. كان الثَّنين الأبيض مضطجعاً على الأرض، ملتفًّا شجرة إِبْخاص ومريحاً رأسه على ذيله، ولمَّا مرَّت داني فتح عينين كبيرتين من الذهب المصهور. قرناه ذهبيَّان أيضًا، وكذا الحراشف الممتدة على ظهره من الرَّأس إلى الذَّيل. حكته تحت فكِّه قائلة: «أنت كسول»، وشعرت بملمس حراشفه السَّاخن كدرع تُركت طويلاً في الشَّمس. الثَّانين هي النَّار وقد استحالت لحمًا. قرأت هذه المقولة في أحد الكُتب التي أهداها لها السَّير

چورا يوم زفافها. «يجدُّ بك أن تذهب للصيد مع أخويك. هل تشاجرت مع دروجون ثانية؟». أصبح تنانينها أكثر ضراوة في الفترة الأخيرة، إذ نثار ريجال على إيرى، وأشعل فسيريون النار في توكار رزناك عندما زارها القهرمان آخر مرة. تركتهم لأنفسهم فترة أطول من اللازم، لكن أين أجد لهم الوقت؟

حرك فسيريون ذيله إلى الجانب ضاربًا جذع الشجرة بقوة بالغة حتى إن ثمرة كمثرى سقطت ووقعت عند قدمي داني، ثم إنه بسط جناحيه، وبحركة تجمع بين الطيران والوثوب حط على السور، وفكرت داني وهي تُشاهده ينطلق إلى السماء: إنه يكبر، الثلاثة يكبرون، وقرية سيصبحون قادرين على احتمال وزني. عندها سئحلق كما حلق إجون الفاتح، إلى أعلى وأعلى، إلى أن تصير (ميرين) متناهية في الصغر حتى إن بإمكانها أن تمحوها بإبهامها.

شاهدت فسيريون يرتفع في دوائر تتسع إلى أن غاب عن بصرها وراء مياه نهر (السكاهازان) العكرة، وعندئذ فقط عادت داني تدخل الهرم، حيث تنتظرها إيرى وچيكيوي لتمشيط شعرها وكسوتها بالتوکار الجيسكاري كما يليق بملكة (ميرين).

الثوب عصي على الارتداء، ملاءة طويلة فضفاضة بلا شكل، تُلَفُّ حول وركيها وتحت ذراعها وفوق كتفها، بطريقة تجعل شراريها المتدلّية مرتبة ومعروضة بعناية. إذا أرخت لفته على جسدها أكثر من اللازم فعلى الأرجح سيسقط، وإذا أحكمت لفه فستعقد ويُقيدها ويجعلها تعثر. وحتى مع لفه بإحكام يفرض التوکار على مرتديه أن يُثبت يده اليسرى، كما أن المشي به يتطلب خطوات متهادية قصيرة وتوازنًا ممتازًا، خشية أن تدوس تلك الشراريب الثقيلة التي تُجرّجها على الأرض وهي تمشي. ليس هذا بالثوب المناسب لأي شخص يرغب في العمل، فالتوکارات ثياب الأسياد، علامة على الثروة والنفوذ.

أرادت داني أن تحظر التوکار حين استولت على (ميرين)، إلا أن مستشاريها أقنعوها بالعدول عن هذا، وحذرتها ذات النعمة الخضراء جالازا جالار قائلة: «على أمّ التنانين أن ترتدي التوکار وإلا صارت مكروهة إلى الأبد. في أصواف (وستروس) أو في فستان من الحرير المايري ستقتي صاحبة الرّونق غريبة بيننا على الدوام، أجنبية تُثير السخرية، غازية بربرية. لا بد أن تكون ملكة (ميرين) سيّدة من (جيس القديمة)». أمّا بن بلوم النبي

قائد الأبناء الثَّانِينَ فَعَبَّرَ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَخْتَصِرِ الْمَفِيدِ بِقَوْلِهِ: «إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يُصْبِحَ مَلِكَ الْأَرَابِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَضَعَ زَوْجِينَ مِنَ الْأَذَانِ الرَّخْوَةِ».

وَالْأَذَانُ الرَّخْوَتَانِ اللَّتَانِ اخْتَارَتَهُمَا الْيَوْمَ مَصْنُوعَتَانِ مِنَ الْكِتَّانِ الْأَبْيَضِ الشَّفَافِ، بِحَاشِيَةٍ مِنَ الشَّرَارِبِ الذَّهَبِيَّةِ. بِمَسَاعِدَةِ چِيكُوي لَفَتَ التُّوكَارَ حَوْلَ جَسَدِهَا بِالطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ فِي مَحَاوَلَتِهَا الثَّلَاثَةِ، وَجَلَبَتْ لَهَا إِبْرِي تَاجَهَا الْمَصْوَغَ عَلَى شَكْلِ تَيْنِ عَائِلَتِهَا ثَلَاثِي الرُّؤُوسِ، ذِيُولَهُ مِنَ الذَّهَبِ، وَأَجْنَحَتَهُ مِنَ الْفِضَّةِ، وَرُؤُوسَهُ الثَّلَاثَةَ مِنَ الْعَاجِ وَالْجَزَعِ وَالْيَشْبِ. قَبْلَ نَهَائِهِ الْيَوْمَ سَيَكُونُ وَزْنُهُ قَدْ أَصَابَ رَقَبَةَ دَانِي وَكَتْفَيْهَا بِالْخَدْرِ وَالْأَلْمِ. يَجِبُ أَلَّا يَسْتَقَرَّ النَّجَّاحُ عَلَى الرَّأْسِ. أَحَدُ أَسْلَافِهَا الْمَلِكِيِّينَ قَالَ هَذَا ذَاتَ يَوْمٍ. إِجُونُ مَا، وَلَكِنْ أَيْ وَاحِدٌ؟ خَمْسَةٌ اسْمُهُمْ إِجُونُ حَكَمُوا مَمَالِكَ (وَسْتَرُوسَ) السَّعِيعِ، وَكَانَ مِنَ الْمَقْتَرَضِ أَنْ يَأْتِيَ سَادِسٌ، لَكِنْ كَلَابُ الْغَاصِبِ قَتَلُوا ابْنَ أُخِيحِهَا وَهُوَ لَا يَزَالُ رَضِيْعًا. لَوْ عَاشَ لَكَانَ يُمَكِّنُ أَنْ أَتْرُوجَهُ. إِجُونُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيَّ فِي السَّنِّ مِنْ فُسَيْرِسَ. كَانَتْ دَانِي مَجْرَدَ جَنِينٍ حَدِيثٍ فِي رَحِمِ أُمِّهَا حِينَ قُتِلَ إِجُونُ وَأَخْتُهُ، وَسَبَقَهُمَا أَبُوهُمَا -أَخُوهَا رِيَجَارَ- إِلَى الْمَوْتِ، فَتَكَ بِهِ الْغَاصِبُ فِي مَعْرَكَةِ (الثَّلَاوِثِ)، وَمَاتَ أَخُوهَا فُسَيْرِسَ صَارِخًا فِي (فَإِيَسِ دُوِثْرَاك) بِنَاجٍ مِنَ الذَّهَبِ الذَّائِبِ عَلَى رَأْسِهِ. سَيَقْتُلُونِي أَيْضًا إِذَا أُعْطِيْتَهُمُ الْفُرْصَةَ. السَّكَاكِينِ الَّتِي قَتَلَتْ تُرْسِي الْمَقْدَامَ كَانَتْ تَسْتَهْدِفُنِي أَنَا.

إِنهَا لَمْ تَنْسَ الْأَطْفَالَ الْعَبِيدَ الَّذِينَ عَلَّقَهُمُ الْأَسْيَادُ الْعِظَامَ عَلَى الطَّرِيقِ مِنْ (يُونُكَاي). كَانَ عَدَدُهُمْ مِئَةً وَثَلَاثَةً وَسِتِّينَ، طِفْلٌ كُلُّ مِيلٍ، مَثَّبٌ بِالْمَسَامِيرِ عِنْدَ كُلِّ صُورَةٍ مِئَلِيَّةٍ وَتُسْبِيرُ ذِرَاعِهِ إِلَى الطَّرِيقِ إِلَى (مِيرِين). بَعْدَ سَقُوطِ الْمَدِينَةِ عَلَّقَتْ دَانِي عِدَدًا مِمَّاثِلًا مِنَ الْأَسْيَادِ الْعِظَامِ، وَحَضَرَتْ حَشُودٌ مِنَ الذَّبَابِ تَشْهَدُ مَوْتَهُمُ الْبَطِيءِ، وَعَلَّقَتْ رَائِحَتَهُمُ الشَّنِيْعَةَ طَوِيلًا فِي السَّاحَةِ. وَرَغْمَ هَذَا تَخَشَى فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ أَنَّهَا لَمْ تَتِمَّادَ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ. هُوَ لِأَمِيرِنِيْزْيُونِ شَعْبِ مَاكِرِ عِينِدِ، فِي كُلِّ خُطْوَةٍ يُنَهِضُونَهَا. لَقَدْ عَتَقُوا عِبِيدَهُمْ، نَعَمْ... فَقَطُّ لِيُعِيدُوا تَعِينَهُمْ كَخَدْمٍ بِأَجُورٍ غَايَةِ فِي الزَّهْدِ لِدَرَجَةٍ أَنْ بَعْضُهُمْ يَكَادُ لَا يَجِدُ الْقُوَّةَ، وَالْأَصْغَرَ أَوْ الْكَبَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ فَائِدَةٌ أَلْقُوهُمْ فِي الشُّوَارِعِ وَمَعَهُمُ الْمَرْضَى وَالْمُعَاقُونَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ هَذَا مَا زَالَ الْأَسْيَادُ الْعِظَامَ يَجْتَمِعُونَ عَلَى قَمَمِ أَهْرَامِهِمُ الْفَسِيحَةِ لِشَتْكُوَا مِنْ مَلِكَةِ التَّنَانِينَ الَّتِي مَلَأَتْ مَدِينَتَهُمُ النَّبِيلَةَ بِالْمَتَسَوِّلِينَ الْأَوْسَاحَ وَاللِّصُوصَ وَالْعَاهِرَاتِ.

لأحکم (میرین) علیّ أن أكسب المیرینیزیین مهما كنتُ أحتقرهم. قالت لإیری: «أنا جاهزة».

وجدت رزناك وسكاهاز منتظرین علی قمة السلالم، وحيّاها رزناك مو رزناك معلنا: «أيتها الملكة العظيمة، إنك شديدة التآلق اليوم حتى إنني أخشي النظر إليك». كان القهرمان يرتدي توكارًا من الحرير القرمزي البني له حاشية ذهبية، وهو رجل صغير الحجم كثير العرق، تفوح منه رائحة طيبة كأنه استحّم بالعطر، ويتكلّم بلكنة ركيكة من الفاليريّة الفصحى، مشوبة ومنكّهة بالزّمجرة الجيسكارية الثقيلة.

ردّت داني باللغة نفسها: «لطف بالغ منك أن تقول هذا».

دمدم سكاهاز مو كانداك ذو الرأس الحليق: «ملكتي». شعر الجيسكاريين كثيف خشن كالأسلاك، ومنذ زمن طويل وعادة أهل مُدن النّخاسة أن يُسكّلوه علی غرار القرون والأشواك والأجنحة، وبحلقه شعره وضع سكاهاز (میرین) القديمة وراه ليتقبّل الجديدة، وحذا أقرباؤه حذوه، وتبعهم آخرون، ولو أن داني لا تدري إن كان هذا بدافع الخوف أم أتباع البدعة أم الطّموح. يُسمّون أنفسهم الرّؤوس الحليقة، وسكاهاز هو الرّأس الحليق... وألعن الخونة عند أبناء الهاربي وشاكلتهم. «بلغنا ما حدث للخصي».

- «كان اسمه الترس المقدام».

- «سيموت المزيد ما لم يُعاقب القتلة». حتى مع رأسه الحليق لسكاهاز وجه منفرّ؛ حاجباه كئان، وعينه صغیرتان وتحتهما أكياس ثقيلة، وأنفه كبير مليء بالرّؤوس السّوداء، وبشرته زيتية تبدو أكثر اصفرارًا من لون الجيسكاريين الكهرماني المعتاد. إنه وجه خشن قاسٍ غاضب، وليس بوسع داني إلا أن تدعو أن يكون وجهًا صادقًا كذلك.

سألته: «كيف أعاقبهم وأنا أجهل من يكونون؟ أخبرني أيها الجريء سكاهاز».

- «لست تفتقرين إلى الأعداء يا جلالة الملكة. باستطاعتك رؤية أهرامهم من شرفتك. زاك وهازكار وجازين وميريك ولوراك، كل عائلات النّخاسة القديمة. وپال، بالذات پال. إنها عائلة من النساء الآن، نساء مسنّات حاقدات يروقهن مذاق الدّم. النساء لا ينسين، النساء لا يغفرن».

فكرت: نعم، وهذا ما سيتعلّمه كلاب الغاصب حينما أعودُ إلى

(وستروس). صحيحٌ أن بينها وبين بني پال دمًا، منذ أردى بلواس القوي أوزناك زو پال قتيلاً، ومات أبوه قائد حرس المدينة في (ميرين) دفاعاً عن البوابة عندما هشمها المدك المسمى (قضيبي چوسو)، كما أن ثلاثة من أعمامه كانوا بين المئة وثلاثة وستين في الساحة. سألت داني: «كم من الذهب عرضنا مقابل معلوماتٍ عن أبناء الهاربي؟».

- «مئة أونتر⁽¹⁾، بعد إذن صاحبة الرونتق».

- «أفضل أن تكون ألف أونتر. نفذ هذا».

قال الرأس الحليق سكاهاز: «جلالتك لم تطلبي مشورتي، لكنني أقول إن ثمن الدم دم. خذي رجلاً من كل عائلة ذكرتها واقتليه، والمرّة القادمة عندما يُغتال أحد رجالك خذي اثنين من كل عائلة كبرى واقتليهما. لن يكون هناك اغتيال ثالث».

صاح رزناك مذعوراً: «لاااا... أيتها الملكة الحليمة، وحشية كتلك ستجلب علينا غضبة الآلهة. سنجد القتلة، أعدك، وحين نفعل سيوضح أنهم أقدار وضيعو المولد».

القهرمان أصلح مثل سكاهاز، ولو أن الآلهة هي المسؤولة في حالته، وحين عيّنته داني أكد لها قائلاً: «إذا تجرأت شعرة واحدة على الظهور فحلاقي جاهز بالموسى». في بعض الأحيان تتساءل إن كانت الموسى أصلح لعنق رزناك. إنه مفيد، لكنه يروقها قليلاً وثقتها به أقل. لقد أخبرها خالدو (كارث) أنها ستعرض إلى الخيانة ثلاث مرّات. الأولى كانت ميري ماز دور، والثانية السير چورا، فهل يكون ثالث الخائنين رزناك؟ الرأس الحليق؟ داريو؟ أم سيكون أحداً لا أشك فيه أبداً، كالسير باريستان أو الدودة الرمادي أو ميسانداي؟

قالت: «سكاهاز، أشكرك على نصيحتك. رزناك، لنر ما قد تحقّقه ألف أونتر»، ثم ثبتت دنيرس توكارها وتجاوزتهما نازلة السّلام الرّخام العريضة، تتحرّك خطوة خطوة كي لا تتعثّر في الحاشية وتدخل البلاط سقوطاً على رأسها.

أعلنت ميسانداي حضورها، وبصوتٍ قويٍّ عذب قالت المترجمة

(1) الأونتر واحدة من العُملة الدّارجة في المُدن الحرّة ومُدن خليج النّحاسين. (المترجم).

الصَّغِيرَةَ: «ليركع الجميع لدنيرس وليدة العاصفة، التي لم تحترق، ملكة (ميرين)، ملكة الأنداليين والروينار والبشر الأوائل، غاليسي بحر العُشب العظيم، محطمة الأصفاد، وأم التنانين».

وجَدتِ القاعة امتلأت. وقفَ المُطَهَّرُونَ معطينَ ظهورهم للأعمدة وحاملين التُّروس والحِراب، ومن خوذهم ترتفع الشُّعاب كصفٍّ من السَّكَّاكين، وقد اجتمعَ الميرينيزيون تحت النَّافذة الشَّرقيَّة، ووقفَ معتقوهم بعيداً بمسافةٍ لا بأس بها عن أسيادهم السَّابِقين. إلى أن يقفوا معاً لن تعرف (ميرين) السَّلَام. استقرَّت داني على دِكْتها، وقالت: «انهضوا»، فنهضوا. على الأقل يفعلون هذا معاً.

كانت مع رزناك مورزناك قائمة. يقضي العُرف أن تبدأ الملكة بالمبعوث الأستاپوري، وهو عبد سابق يُسمِّي نفسه اللورد جايل، ولو أن أحداً لا يدري نطاق سيادته المزعومة. للورد جايل أسنان بيّنة نخرة ووجه أصفر مدبَّب كابن عرس، وقد جلبَ معه هديَّةً قدَّمها قاتلاً: «كليون العظيم يُرسل هذين الخُفين كرمزٍ لِحُبِّه لدنيرس وليدة العاصفة وأم التنانين».

وضعتَ إيرِي الخُفين على قدمي داني، جلدتهما المذهب مزين بلألئ المياه العذبة. هل يحسب الملك الجزَّار أن زوجين من الأخفاف الأنيقة سيجعلانني أقبل الزَّواج به؟ «الملك كليون في غاية الكرم. اشكره على هديَّته الجميلة». جميلة، لكن مصنوعة لطفلة. قدما داني صغيرتان، لكن الخُفين المدبَّبين هرساً أصابعهما.

قال اللورد جايل: «سيسرُّ كليون العظيم أن يعلم أنها سرَّتكَ. صاحب السُّمو أمرني بأن أقول إنه مستعدُّ للدِّفاع عن أمِّ التنانين ضد كلِّ أعدائها». قالت داني لنفسها: إذا عرضَ ثانية أن أتزوِّج الملك كليون سارميه بخُفٍّ في رأسه، لكن المبعوث الأستاپوري لم يأتِ على ذِكر الزَّواج الملكي هذه المرَّة، وبدلاً من ذلك أعلن: «حان الوقت لأن تضع (أستاپور) و(ميرين) نهايةً للحُكم الوحشي لأسياد (يونكاي) الحُكماء، الأعداء الأليَّة المتكالبين على كلِّ من يحيا في حرِّيَّة. كليون العظيم أمرني بأن أخبرك أنه ومُطَهَّروه الجُدِّد سيزحفون قريباً».

مُطَهَّروه الجُدِّد دُعاة قبيحة. «من الحكمة أن ينصرف الملك كليون إلى شؤونه ويترك اليونكيين لشؤونهم». ليست المسألة أن داني تكنُ أيَّ حُبِّ

لـ(يونكاي)، بل وبدأت تدم على عدم استيلائها على المدينة الصَّفراء عقب هزيمة جيشها في ميدان المعركة. لقد رجَعَ الأسياد الحُكَّماء إلى النُّخاسة ما إن غادرت، ومشغولون الآن بحشد الجنود واستتجار المرتزقة وعقد التَّحالفات ضدها.

على أن كليون الذي يُلَقَّب نفسه بالعظيم ليس أفضل منهم، إذ أعادَ الملك الجَزَّار النُّخاسة إلى (أستاپور)، والفرق الوحيد أن العبيد السَّابقين هُم الأسياد الآن، والأسياد السَّابقين أصبحوا العبيد.

قالت للورد جايل: «أنا مجرد فتاة صغيرة وأعرف القليل عن طبائع الحرب، لكننا سمعنا أن (أستاپور) تنصُورُ جوعاً. فليطعم الملك كليون شعبه قبل أن يقوده إلى المعركة»، ولوحت بيدها صارفةً إياه، لينسحب جايل. سألتها رزناك مو رزناك: «صاحبة السُّمو، هل ستسمعين النبيل هيزدار زو لوراك؟».

مرَّةً أخرى؟ أو مأت برأسها إيجاباً، وتقدَّم هيزدار بخطواتٍ واسعة، رجل طويل القامة شديد النُّحول له بشرة كهرمانيَّة لا تشوبها شائبة. انحنى في البُقعة ذاتها التي وُضِعَ فيها التُّرس المقدم ميتاً قبل قليل، وقالت داني لنفسها مذكرةً: إنني محتاجة إلى هذا الرَّجل. هيزدار تاجر ثري له أصدقاء كثيرون في (ميرين) وأكثر عبر البحار، وقد زارَ (فولانتيس) و(ليس) و(كارث)، وله أقرباء في (تولوس) و(إيريا)، ويُقال أيضًا إن له القليل من السُّطوة في (جيس الجديدة)، حيث يُحاول اليونكَيون إثارة العداوة ضد داني وحُكمها. كما أنه ثري، ثروته هائلة فاحشة...

وسيزداد ثراءً إذا قبلت التماسه. حين أغلقت داني حلبات القتال في المدينة انهارت قيمة صكوكها، وقد اختطفها هيزدار زو لوراك بكلتا يديه اختطافاً، والآن يملك أكثر حلبات القتال في (ميرين).

من صُدغي النَّبيل يَبْرُز جناحان من الشعر الخشن الأسود الصَّبارب إلى الحُمْرة، وقد جعلاه يبدو كأن رأسه على وشك الطيران، أمَّا وجهه الطويل فأطالته أكثر لحيته المربوطة بالحلقات الذهب، وتوَّكاره الأرجواني موشى بالجمشت واللؤلؤ. خاطبها قائلاً: «لا بُدَّ أن صاحبة الرُّونق تعلم سبب وجودي هنا».

- «مؤكِّد لأنك لا تملك هدفًا آخر غير إزعاجي. كم مرَّة رفضتُ؟».

- «خمس مرّات يا صاحبة السمو» .
- «والآن ست. لن أعيد فتح حلبات القتال» .
- «إذا سمعت صاحبة الفخامة حُججتي...» .
- «سمعتها خمس مرّات. هل جلبت حُججًا جديدة؟» .
- «إنها الحُجج القديمة بكلماتٍ جديدة، كلمات عذبة دمثة، أكثر قابليّة للتأثير في مشاعر الملكة» .

قالت داني: «دعواك هي ما أجده غير مقبول وليس دماثتك. لقد سمعت حُججك مرارًا لدرجة أنني أستطيع أن أترافع في قضيتك بنفسى. هل أجربُ؟»، ومالت إلى الأمام مردفة: «حلبات القتال كانت جزءًا من (ميرين) منذ تأسيس المدينة. القتال ديني الطابع للغاية، قربان دم لآلهة (جيس). فنُ (جيس) المميت ليس مجرد تقتيل بل استعراض للشجاعة والمهارة والقوة يُرضي الآلهة عظيم الرضا. المُقاتلون المنتصرون يدلّلون ويحتفى بهم، والقتلى يُكرّمون ويُذكرون. بإعادة فتح الحلبات سأري أهل (ميرين) أنني أحترمُ عاداتهم وتقاليدهم. الحلبات ذائعة الصيت في كل أنحاء العالم، تستدرّ التجارة على (ميرين) وتملأُ خزائن المدينة بالأموال من كل أطراف الأرض. كل البشر يشتركون في تعطشهم للدّماء، وهو التّعطش الذي تُساعد الحلبات على إطفائه، وبهذه الطريقة يجعلون (ميرين) أكثر سكينه. بالنسبة إلى المجرمين المحكوم عليهم بالموت على الرّمال تُمثل الحلبات حُكمًا بالقتال، فرصة أخيرة لإثبات براءتهم»، وأرجعت ظهرها إلى الورا نافضةً شعرها، وسألت: «هاك. كيف أبلّيت؟» .

- «صاحبة الرّونق طرحت القضية أفضل كثيرًا مما كنت لأطرحها بنفسى أبدًا. أرى أنك فصيحة علاوة على جمالك. لقد اقتنعتُ تمامًا» .

ضحكت رغما عنها، وقالت: «آه، لكننى لم أقتنع» .
همس رزناك مو رزناك في أذنها: «صاحبة السمو، جرى العرف على أن تأخذ المدينة عشر إجمالي أرباح حلبات القتال ضريبة، بعد خصم المصروفات. يُمكن الاستفادة بتلك المبالغ في عدّة شؤون نبيلة» .

- «ربما... لكن إذا حدث أن أعدنا فتح الحلبات فعلينا تأخذ العشر قبل خصم المصروفات. أنا مجرد فتاة صغيرة وأعرف القليل عن تلك الأمور، لكننى أقيمتُ مع زاروزون داكسوس فترة تكفي أن أعلم هذا القدر. هيزدار،

لو كان بإمكانك أن تسوق الجيوش كما تسوق الحُجج لاستطعت أن تغزو العالم... لكن إجابتي ما زالت لا، للمرة السادسة».

- «الملكة قالت كلمتها»، ردّ منحنيًا بشدّة كما فعل من قبل، لتُصدر لآلئه وجَمَشْتَه رنيًا خفيًا مع احتكاكها بالأرض. رجل رشيق للغاية هيزدار زو لوراكا هذا.

لولا هذا الشعر السّخيف لبدا وسيماً. منذ مدّة ورزناك وذات النّعمة الخضراء يحثّان داني على أن تتخذ أحد بُلاء (ميرين) زوجا لها كي تُؤلّف بين المدينة وحُكمها، وربما يستحقّ هيزدار زو لوراكا نظرة فاحصة. هو أفضل من سكاهاز. عرض عليها الرّأس الحليق أن يتخلّى عن زوجته من أجلها، لكن الفكرة جعلتها ترتعد. على الأقل يعرف هيزدار كيف يبتسم.

راجع رزناك قائمته قائلاً: «صاحبة السّموم، النبيل جرازدان زو جالار يرغب في مخاطبتك. هل ستسمعينه؟».

- «يسرّني هذا»، ردّت داني متطلّعة بإعجاب إلى بريق الذهب ولمعة اللؤلؤ الأخضر في خفي كليون، فيما تبذل قصارى جهدها لتجاهل الألم في أصابع قدميها. جرازدان - كما نهبوها مسبقاً - من أولاد عمومة ذات النّعمة الخضراء، التي تجد داني دعمها لا يُقدّر بثمن، فالكاهنة صوت السّلام والقبول وطاعة السّلطة الشّرعيّة. يُمكنني أن أسمع ابن عمومتها باحترام أيّاً كان ما يبتغيه.

واتّضح أن ما يبتغيه الذهب. كانت داني قد رفضت تعويض أيّ من الأسياد العظام عن قيمة عبيدهم، لكن الميرينزيين ما انفكوا يبتكرون وسائل أخرى لاعتصار المال منها. على ما يبدو، كان النبيل جرازدان يمتلك أمة معروفة بمنسوجاتها الممتازة، لثمار نولها قيمة عظيمة، وليس فقط في (ميرين) بل أيضًا في (جيس الجديدة) و(أستاپور) و(كارث)، ولما تقدّمت المرأة في السنّ اشترى جرازدان نصف دستة من الفتيات الشّابات وأمر العجوز بتعليمهن أسرار حرفتها. ثم ماتت العجوز، أمّا الشّابات فقد عُتقن وفتحن متجرًا عند سور الميناء ليعن منسوجاتهن، والآن يطلب جرازدان زو جالار أن يُمنح حصّة من أرباحهن، وقال بإصرار: «إنهن مديونات لي بحرفتهن. لقد انتزعتن من على منصّة المزادات وأعطيتهن النول».

أصغت داني بهدوءٍ وملامح ثابتة، وحين فرغ قالت: «النسّاجة العجوز، ماذا كان اسمها؟».

عدّل جرازدان وقفته مقطّباً جيّنه، وقال: «الأمّة؟ كانت... إلزا ربما، أو إلا. لقد ماتت منذ ستّة أعوام، وأنا امتلكتُ عبيداً كثيرين يا صاحبة الجلالة».

- «لنقل إنها إلزا. ها هو ذا حُكمنّا. من الفتيات لن تأخذ شيئاً، فإلزا هي من علّمتهن النّسج لا أنت، ومنك ستأخذ الفتيات نوّلاً جديداً، أفضل ما يُمكن شراؤه بالمال، وهذا لنسيانك اسم العجوز».

كان رزناك ليستدعي توكاراً آخر بعده، لكن داني أصرّت أن يُنادي أحد المعتقّين، وبعدها بدّلت بين الأسياد السّابقين والرّقيق السّابقين. كثير جدّاً من المسائل التي طُرحت عليها يخصّ التعويضات. لقد نُهبّت (ميرين) بوحشيّة بعد سقوطها، ولئن نجت أهرامات الأقوياء المدرّجة من أسوأ أعمال التخريب، سقطت المناطق الأكثر تواضعاً من المدينة ضحيّة لعريضة السّارقين والقتلة، إذ انتفض عبيد المدينة وتدفقت الجحافل الجائعة التي تبعّت دنيرس من (يونكاي) و(أستاپور) من البوابة المحطّمة. في النهاية أعاد مطهروها فرض النّظام، لكن النهب خلف وباءً من المشكلات، وهكذا يأتي الميرينزيون لرؤية الملكة.

جاءت امرأة ثريّة مات زوجها وأبناؤها دفاعاً عن الأسوار. خلال النهب فرّت إلى أخيها خائفةً، وحين عادت وجدت منزلها حوّل إلى ماخور، وقد زينت العاهرات أنفسهن بحلّيها وثيابها. تُريد المرأة استعادة المنزل والمجوهرات، وقد أضافت: «يُمكنهن الاحتفاظ بالثياب»، فحكمت لها داني بالجواهر، وإن قضت أن المنزل ضاع منها حين هجرته.

جاء عبد سابق يتهم نبيلاً معيناً من بني زاك. في الفترة الأخيرة تزوّج الرّجل امرأة محرّرة كانت أمة فراش النّبيّل قبل سقوط المدينة، وقد فضّ النّبيّل بكارتها واستخدمها لمُتعتة وحبّلت منه، ويُريد زوجها الجديد أن يُخصى النّبيّل عقاباً على جريمة الاغتصاب، ويُريد أيضاً صرةً من الذهب على سبيل الأجر مقابل تربية نعل النّبيّل كابنه. حكمت له داني بالذهب ولكن ليس الخصاء، وقالت: «حين نامَ معها كانت زوجتك ملكاً له، يفعل بها ما يشاء. بالقانون، لم يحدث اغتصاب». رأت بوضوح أن قرارها لم يسره، لكن إذا خصّت كلّ رجلٍ أرغم أمته على الجماع فسرعان ما ستحکم مدينة من المخصّيين.

جاء فتى أصغر منها، هزيل نديب الوجه، يرتدي توكاراً رمادياً مهترئاً له

حاشية فضيئة، وقد انكسر صوته عندما أخبرها كيف ثار اثنان من عبيد أبيه ليلة تحطمت البوابة، فقتل أحدهما أباه والثاني أخاه الكبير، واغتصب الاثنان أمه قبل قتلها بدورها. هرب الفتى مصاباً بالندبة في وجهه فقط، لكن أحد القاتلين ما زال مقيماً بمنزل أبيه، والتحق الثاني بجنود الملكة كواحد من رجال الأم، ويُريد أن يُشتم كلاهما.

أنا ملكة على مدينة مبنية على التراب والموت. لم تجد داني خياراً إلا رفض التماسه، فقد أعلنت عفواً شاملاً عن كل الجرائم التي ارتكبت في أثناء النهب، كما أنها لن تُعاقب عبيداً ثاروا على أسيادهم. حين أخبرته بهذا اندفع الفتى نحوها، لكن قدميه اشتبكنا في توكاره وتعثر منظرهما على وجهه فوق الرخام الأرجواني. في الحال انقضَّ عليه بلواس القوي، ورفعه الخصيُّ البني الضخم بيد واحدة وراح يرجه ككلب صيدٍ اقتنص جرداً، حتى قالت داني: «كفى يا بلواس، أطلق سراحه»، ثم خاطبت الفتى قائلة: «عليك أن تعتزَّ بهذا التوكار، فقد أنقذ حياتك. أنت مجرد صبي، ولذا سننسى ما حدث هنا. عليك أن تفعل المثل». لكن إذ غادر الفتى نظر وراءه من فوق كتفه، وحين رأت داني عينيه فكرت: أصبح للهاربي ابن آخر.

مع انتصاف النهار كانت داني تشعر بوزن التاج على رأسها وصلابة الدكة من تحتها. في وجود كثيرين ما زالوا ينتظرون لقاءها لم تتوقف لتأكل، وبدلاً من ذلك أرسلت چيكوي إلى المطابخ لتُحضِرَ صحفةً من الخبز المدور والزيتون والتين والجبنة، وبينما تُصغي أخذت قضماتٍ صغيرة ورشفت من كأس من النبيذ المخفف بالماء. وجدت طعم التين جيداً والزيتون أجود، لكن النبيذ ترك في فمها مذاقاً معدنياً لاذعاً، ذلك أن العنب الأصفر الصغير الذي ينمو في هذه الأنحاء يُنتج خموراً معروفةً برداءتها. لن تكون عندنا تجارة خمور. كما أن الأسياد العظام أحرقوا أفضل الكرم بالإضافة إلى أشجار الزيتون.

بعد الظهر جاء مثال يعرض استبدال رأس الهاربي البرونز العظيمة في (ساحة التطهير) برأس له ملامح داني، فرفضت بكل ما تقدر عليه من كياسة. اصطيدت سمكة كراكي ذات حجم غير مسبوق في نهر (السكاهازاذان)، وأراد الصياد أن يهديها للملكة، التي أبدت إعجابها الشديد بالسمكة وكافأت الصياد بصرّة من الفضة وأرسلت السمكة إلى المطابخ.

صنع لها نحاس بزة من الحلقات المصقولة ترتديها في الحرب، فقبلتها مع خالص الشكر، فقد بدا منظرها جميلاً، وستكون التمامة النحاس المصقول في الشمس بهيئة، ولكن إذا كانت المعركة على وشك النشوب بالفعل فإنها تفضل التدرج بالفولاذ. حتى فتاة صغيرة مثلها لا تعرف شيئاً عن طبائع الحرب تعرف هذا.

لم تعد داني تحتلم ألم الحُفنين اللذين أرسلهما إليها الملك الجزار، فخلعتهما ركلاً وجلست واضعةً قدمًا تحتها وراحت تُورجح الأخرى. ليس وضعاً ملكياً جداً، لكنها سئمت من مظهرها الملكي، علاوةً على أن التاج صدع رأسها وأصاب مؤخرتها الخدر. قالت: «سير بارستان، عرفت السمة التي يحتاج إليها الملك أكثر من غيرها».

- «الشجاعة يا جلالة الملكة؟».

ردت مداعبةً: «مؤخرة من حديد. إنني لا أفعل شيئاً سوى الجلوس».

- «صاحبة الجلالة تضع على عاتقها الكثير. عليك أن تسمحي لمستشاريك بحمل المزيد من أعبائك».

قالت: «عندي مُستشارون أكثر من اللازم ووسائل أقل من اللازم»، ثم التفتت إلى رزناك متسائلةً: «كم تبقى؟».

أجاب القهرمان: «ثلاثة وعشرون، بعد إذن صاحبة السمو، بعدد مماثل من الالتماسات»، وراجع بعض الأوراق قبل أن يضيف: «عجل واحد وثلاثة كباش. البقية خراف أو حملان بلا شك».

زفرت داني، وقالت: «ثلاثة وعشرون. يبدو أن حُب تنانيني للضأن صار عظيماً منذ بدأنا ندفع للرعاة ثمن ما يقتلونه. هل أثبتوا ادعاءاتهم؟».

- «بعضهم جلب عظاماً محروقة».

- «الناس يُشعلون النار ويطهون الضأن. العظام المحروقة لا تثبت شيئاً. بن البني يقول إن هناك ذئباً حمراء في التلال خارج المدينة، وبنات أوى وكلاباً بريئة. أعلينا أن ندفع مبلغاً وقدره من الفضة لقاء كل حملٍ يضيع بين (يونكاي) و(السكاهازادان)؟».

انحنى رزناك قائلاً: «لا يا صاحبة السمو. هل أصرف هؤلاء الأوباش أم أنك ترغيبين في جلدهم؟».

اعتدلت داني على الدكة مجيبةً: «يجب ألا يخشى أحد أن يأتيني أبداً».

لا شكّ لديها في أن بعض الادّعاءات زائف، لكن أكثرها صحيح. لقد كبرَ تنانينها على القنوع بالجرذان والقِطط والكلاب، وكان السير باريستان قد نبّها قائلاً: كلّمَا أكلوا أكثر ازدادَ حجمهم، وكلّمَا ازدادَ حجمهم أكلوا أكثر. دروجون على وجه الخصوص يقطع مسافاتٍ بعيدة ويُمكّنه بسهولة أن يلتهم خروفاً كاملاً في اليوم. قالت لِرزنّاك: «ادفع لهم قيمة حيواناتهم، لكن من الآن فصاعداً على المدّعين الذّهاب أوّلاً إلى (معبد ذوات النّعم) وحلف يمين مقدّسة لآلهة (جيس)».

قال رزنّاك: «كما تأمرين»، ثم التفت إلى الملتسمين معلناً بالحيسكارية: «صاحبة السّموم الملكي وافقت على تعويضكم عن الحيوانات التي خسرتوها. قدّموا أنفسكم إلى وُكلائي غداً وسيدفعون لكم ثمنها بالمال أو الحيوانات، كيفما تُفضّلون».

قوبل الإعلان بصمتٍ واجم حدا بداني إلى أن تقول لنفسها: كان المرء ليحسبهم سيسعدون أكثر. لقد نالوا ما أتوا من أجله. أما من سبيل لإرضاء هؤلاء النّاس؟

تخلّف رجل عن الآخرين الذين خرجوا في طابور، رجل قصير مكتنز له وجه لوّحته الرّيح ويرتدي ثياباً رثة، شعره الخشن الأسود الضّارب إلى الحمرة مخلوق حول أذنيه، ويأخذ يديه يحمل كيساً فماشياً بئس المنظر، وقد وقف خافضاً رأسه يُحدّق إلى الأرض الرّخامية كأنه نسي أين هو تماماً. وما الذي يُريده هذا؟

صاحت ميسانداي بصوتها العالي العذب: «ليركع الجميع لدنيرس وليدة العاصفة، التي لم تحترق، ملكة (ميرين)، ملكة الأنداليين والروينار والبشر الأوائل، غاليسي بحر العُشب العظيم، محطّمة الأصفاد، وأم التّنانين».

نهضت داني فبدأت توكّارها ينزلق، فثبّته في مكانه منادية: «أنت يا من تحمل الكيس، هل أردت أن تُخاطبنا؟ لك أن تقترب».

حين رفع رأسه كانت عيناه محمّرتين ملتھيتين كالجروح المفتوحة، ولمحت داني السير باريستان يتقدّم مقرباً منها كظلّ أبيض إلى جانبها. قابضاً على كيسه، أقبل الرّجل بخطى متعثّرة، واحدة تلو الأخرى، وتساءلت داني: أهو سكران أم مريض؟ كان تحت أظفاره الصّفراء المشقّقة وسخ. سألته: «ما الأمر؟ أليدك شكوى تطرحها علينا أو التماساً ما؟ ماذا تُريد منا؟».

بتوتّر لعقّ الرّجل شفتيه المشقّقتين، وقال: «لقد... جلبتُ...». قالت بصبرٍ نافذ: «عظامًا؟ عظامًا محروقةً؟». رفع الرّجل الكيس وسكب محتوياته على الرّخام. وكانت عظامًا بالفعل، عظامًا محطّمةً مسودّةً، وقد كُسر الطّويل منها من أجل النّخاع. قال الرّجل بالجيسكارية الخشنة: «كان الأسود، الظّلّ المجنّح، نزل من السّماء... و...».

وارتجفت داني قائلةً في قرارة نفسها: لا، لا، لا، أوه، لا. خاطب رزناك مورزناك الرّجل قائلاً: «أأنت أصم أيها الأحمق؟ ألم تسمع ما أعلنته؟ اذهب إلى وُكلائي غدًا وستقبض ثمن خروفك». بهدوءٍ قال السير باريستان: «رزناك، صُن لسانك وافتح عينيك. هذه ليست عظام خروف». فكرت داني: نعم، بل هي عظام طفل.



چون

في غايةِ سوداءِ أسفلِ جُرفٍ شاحبٍ يُناهزُ السَّمَاءَ طوًلاً ينطلقُ الذُّئبُ الأبيضُ، ومعه يركُضُ القمرُ منسلاً بين الأَغصانِ الجرداءِ المتشابكةِ بالأعلى، وعبر سماءٍ مزدانةٍ بالنجومِ.

يُتمِّمُ القمرُ: «سنو»، فلا يُجيبُ الذُّئبُ، وينسجِقُ الثلجُ تحت كفوفه، وتتنهَّدُ الرِّياحُ بين الأشجارِ.

من بعيدٍ يسمعُ رفاقه في القطيعِ يُنادونه نِداءً لِنِدِّ. هُمُ أيضاً يصطادون. بينما يُمزَّقُ أخوه الأسودُ لحمَ كبشٍ ضِخمٍ ينهمرُ عليه مطرٌ غزيرٌ، يغسلُ الدَّمُ عن جانبهِ حيثُ خدشهُ قرنُ الكبشِ الطَّويلِ. وفي مكانٍ آخرُ ترفعُ أخته الصَّغيرةُ رأسها تُغنيُّ للقمرِ، فيقطعُ مئةَ من أولادِ العمومةِ الشَّهبِ الصَّغارِ صيدهم ليُغنُّوا معها. التَّلالُ أكثرُ دفئاً حيثُ يجوبون، وملأى بالطَّعامِ، وفي ليالٍ كثيرةٍ يلتهمُ قطعِ أخته لحمَ الخرافِ والأبقارِ والخيولِ، فرائسُ البَشَرِ، وفي بعضِ الأحيانِ لحمَ البَشَرِ أنفسهمِ.

من جديدٍ يُناديه القمرُ بضحكةٍ قاسيةٍ: «سنو»، ويمضي الذُّئبُ الأبيضُ في دربِ البَشَرِ أسفلِ الجُرفِ الجليديِّ، على لسانهِ مذاقُ الدِّماءِ، وفي أُذنيه ترنُّ أغنيةٌ لأولادِ العمومةِ المئةِ. من قبلُ كانوا ستَّةَ، خمسةٌ منهم يئنُّونَ عميماً وسطَ الثلوجِ إلى جوارِ جثةِ أمِّهم، يمتصُّونَ اللَّبنَ الباردَ من حللماتها الميتةِ اليابسةِ فيما يزحفُ هو وحده. والآنُ تبقى أربعةٌ... منهم واحدٌ لم يعدِ الذُّئبُ الأبيضُ يشعُرُ بوجوده.

ويُنادي القمرُ بالحاحِ: «سنو».

ويهرُبُ منه الذُّئبُ الأبيضُ، يندفعُ نحو كهفِ اللَّيْلِ حيثُ تختبئُ الشَّمسُ،

وتتجمّد أنفاسه في الهواء. في اللَّيالي التي تغيب فيها النُّجوم يبدو الجُرف العظيم بسواد الحجر، ظلام يرتفع شاهقًا فوق العالم الواسع، لكن حين يطلع القمر يلتصق جليده الشّاحب كجدول ماءٍ متجمّد. فروة الذّئب سميكة مشعثة، لكن حين تهبُّ الرّيح على الجليد فما من فروٍ يستطيع وقايته من البرد. على الجانب الآخر الرّيح أكثر برودةً. هذا ما يشعُر به الذّئب، وهناك أخوه، الأخر الرّمادي الذي يعبق بروائح الصّيف.

- «سنو». تسقط كتلة جليد من فرع شجرة، ويلتفت الذّئب الأبيض مكشّرًا عن أنيابه. «سنو!». ينتفّش فروه عن آخره، ومن حوله تذوب الغابة. «سنو، سنو، سنو!». يسمع ضربات جناحين، وفي العتمة يطير غُداً. وحطّ الطائر على صدر جون سنو بخبطةٍ مكتومة وخربشة من مخالبه، وصرخ في وجهه: «سنو!».

- «سمعتك». كانت العُرفة معتمّة وسريه المتواضع صلبًا، ومن خصائص النّافذة يتسرّب ضوء رمادي متوعّدًا بيوم بارد كئيب آخر. «أهكذا اعتدت إيقاظ مورمونت؟ أبعد ريشك عن وجهي»، وأخرج جون ذراعه من تحت الأغطية يذبُّ الغُداً. إنه طائر كبير، عجوز وجريء ومنفوش الرّيش ولا يعرف الخوف على الإطلاق، وقد صاح محلّقًا إلى قائم السرير: «سنو، سنو، سنو!». فقبض جون على وسادةٍ ورماه بها، لكن الطائر وثبّ إلى الهواء متفاديًا إياها، وارتطمت الوسادة بالحائط وانفجرت ليتبعثر الحشو في كلّ اتّجاه، في اللّحظة نفسها التي دسّ فيها إد توليت الكئيب رأسه من الباب، وقال متجاهلاً فورة الرّيش: «معدرةٌ، هل أحضر لسّيدي إفطاره؟».

صاح الغُداً: «ذرة، ذرة، ذرة!».

أجاب جون: «غُداً مشوي ونصف كوب من الجزر». ما زال يستغرب أن يأتيه وكيل بطعامه ويُقدّمه له. قبل فترة ليست بالطويلة كان هو من يجلب الإفطار لحضرة القائد مورمونت.

قال إد: «ثلاث حبّات من الذرة وغُداً مشوي، لا بأس يا سيّدي، لكن هوب طهى البيض المسلوق والسّجق الأسود ويخنة التّفاح بالبرقوق. يخنة التّفاح بالبرقوق ممتازة، لولا البرقوق. أنا لا أكل البرقوق عن نفسي. حدث

مرّةً واحدةً أن قطعهُ هوب مع الكستناء والجزر وحشا به دجاجةً. لا تثق بالطُّهاة أبداً يا سيّدي، سيدشون لك البرقوق في طعامك وأنت غافل». - «في ما بعد». يُمكن للإفطار أن ينتظر، أمّا ستانيس فلا. «أي متاعب من المحبس ليلة أمس؟».

- «ليس منذ وضعت حراسةً على الحراسة يا سيّدي». - «عظيم». وراء (الجدار) ألف من الهمج المحتجزين، الأسرى الذين أخذهم ستانيس باراثيون عندما دحر فرسانه جيش مانس رايدر المرقع، وبين المسجونين نساء كثيرات، وكان بعض الحرس يُهرّبون من المحبس ليُدْفَن أسرتهم؛ رجال الملك ورجال الملكة، لا فرق، كما أن بعض الإخوة السود جربوا الشيء نفسه. الرّجال هم الرّجال، وأولئك هن النّساء الوحيدات في نطاق ألف فرسخ.

تابع إاد الكتيب: «اثنان آخران من الهمج ظهرا لتسليم نفسيهما، أم ومعها بنت متشبّهة بثيابها. كانت تحمل رضيعاً ملفوفاً بالفرو أيضاً، لكنه ميت». ردّد الغداف: «ميت!». إنها واحدة من كلماته المفضّلة. «ميت، ميت، ميت!».^١

كلّ ليلة تقريباً يأتيهم المزيد من شعب الأحرار، مخلوقات شبه متجمّدة تتصوّر جوعاً فرّت من المعركة عند سفح (الجدار)، فقط لتعود زاحفةً حين أدركت أن لا مهرب أمنأ هنالك. سأل جون: «هل استُجوبت الأم؟». لقد حطّم ستانيس باراثيون جيش مانس رايدر وأسر ملك ما وراء الجدار... لكن الهمج لا يزالوا طليقين، البكاء وتورموند بليّة العماليق وألف غيرهما. أجاب إاد: «أجل يا سيّدي، لكنها لا تعلم إلّا أنها هربت في أثناء المعركة واختبأت بعدها في الغابة. أطعمناها قدرًا وافرًا من الثريد وأرسلناها إلى المحبس وأحرقنا الرضيع».

لم يعد إحراق الأطفال الموتى يُزعج جون سنو، أمّا الأحياء فمسألة أخرى. ملكان لإيقاظ التّنين. الأب أولاً ثم الابن، كي يموت كلاهما ملكًا. هكذا تمتّم أحد رجال الملكة فيما نظّف المايستر إيمون جروحه. حاول جون أن يتغاضى عن الكلام باعتباره هذيان الحمّى، غير أن إيمون خالفه الرأى، وقال له المايستر المسنُّ منذرًا: «في دماء الملوك قوّة، وثمّة رجال أفضل

من ستانيس اقترفوا أشياء أسوأ من هذا». من شأن الملك أن يكون قاسياً لا يتسامح، نعم، لكن إحراق رضيع؟ لا يُلقَى طفلاً حياً في اللهب إلا وحش.
 تبول چون في الظلام وملاً وعاء فضلاته في حين راح عُذاف الدب العجوز يُهمهم متذمراً. أحلام الذئاب تزداد قوّة، والآن يجد نفسه يتذكّرها حتى وهو مستيقظ. جوست يعرف أن جراي ويند مات. لقد مات روب في (التوأمتين)، خانّه رجال اعتقدّهم أصدقاءه، ومعه مات ذئبه. وبران وريكون قُتلا أيضاً، قُطِعَ رأسهما بأمر ثيون جرايجوي الذي كان ربيب السيّد والدهم من قبل... لكن إذا كانت الأحلام لا تكذب فقد فرّ ذئبهما الرّهيبان. عند (تاج الملكة) خرج أحدهما من الظلام وأنقذ حياة چون. سمر، مؤكّد أنه هو. كان فروه رمادياً، وفرو شاجيدوج أسود. تساءل إن كان جزء ما من أخويه الميتين ما زال حياً في ذئبيهما.

ملاً حوضه من إبريق الماء المجاور للفراش وغسل وجهه ويديه، ثم ارتدى طقمًا نظيفًا من الثياب الصوف السوداء، وعقد أربطة سُترة من الجلد الأسود، وانتعل حذاءً بالياً جدًّا. شاهدَه طائر مورونت بعينين سوداوين ثاقبتين، ثم حلّق إلى النافذة، فسأله چون: «هل تحسبني خادمك؟»، ثم فتح النافذة بألواحها الزجاجيّة الصّفراء السميكة ذات الشّكل الماسي، لتطمه برودة الصّباح على وجهه. أخذَ نفسًا عميقًا لتصفية عقله من شباك النّوم في حين طارَ العُذاف مبتعدًا. هذا الطائر شديد الذكاء. لقد ظل رفيق الدب العجوز أعوامًا طويلةً، لكن هذا لم يمنعه من أكل وجه مورونت حالما مات. خارج غرفة نومه سلاّم تنزل إلى حُجرة أوسع مؤنّثة بطاولة مشوّهة من خشب الصنوبر ودسته من الكراسي المصنوعة من السّنديان والجلد. مع استقرار ستانيس في (برج الملك) واحترق (برج القائد) اتّخذ چون مقرّه في مسكن دونال نوي المتواضع وراء مستودع السّلاح. لا شكّ أنه سيحتاج إلى مقرّ أوسع مع الوقت، لكن لا بأس بهذا في الوقت الحالي ريثما يُعوّد نفسه القيادة.

كانت المنحة التي قدّمها إليه الملك طالبًا توقيعَه على الطاولة تحت كوب فضّي كان ملكًا لدونال نوي. لم يترك الحدّاد ذو الدّراع الواحدة إلا القليل من المتعلّقات الشّخصيّة؛ الكوب وستّة بنسات ونجمة نحاسيّة ودبوسًا أسود

منقوشًا إبيزيمه مكسور، بالإضافة إلى سُترة ضيقة مزركشة زنخة تحمل رمز
وعل (ستورمز إند). كنوزه كانت أدواته والسُيوف والخناجر التي صنعها.
كانت الورشة حياته. أراح چون الكوب وعادَ يقرأ الورقة مفكرًا: إذا وضعتُ
ختمي عليها فسيذكرني النَّاسُ أبدَ الدهر باعتباري الفائد الذي تنازلَ عن
(الجدار) طواعيةً، لكن إذا رفضتُ...

باستمرارٍ يُثبت ستانيس باراثيون أنه ضيف خشن لا يهدأ. لقد ركبَ على
(طريق الملوك) حتى (تاج الملكة) تقريبًا، وتجوّل في أكواخ (بلدة المناجد)
الخواوية على عروشها، وفحص الأطلال عند قلعتي (بوابة الملكة) و(درع
البُلوط)، وكلّ ليلةٍ يمشي على قمة (الجدار) مع الليدي ملساندر، ونهارًا
يزور المحبس لانتقاء أسرى تستجوبهم المرأة الحمراء. لا يُعجبه أن يُمانعه
أحد. يخشى چون أنه لن يكون صباحًا سارًا.

من مستودع السلاح جاءت صلصلة التروس والسُيوف إذ بدأ الصبية
الجُدد والمجنّدون المبتدئون يُسلّحون أنفسهم، وسمعَ چون صوت إميت
الحديدي يأمرهم بالعجلة. لم يسرَّ الاستغناء عنه كوتر بايك، لكن الجوّال
الشاب موهوب في تدريب الرّجال. يحبُّ القتال، وسيعلّم فتيته أن يجوّه
أيضًا. أو أن هذا ما يأمله.

كان معطفه معلقًا على مشجب عند الباب، وحزام سيفه على آخر،
فوضعهما ثم أتجه إلى مستودع السلاح. رأى البساط الذي ينام عليه جوست
خاليًا، وقد وقف حارسان بالداخل، كلاهما يرتدي المعطف الأسود ويعتمر
خوذةً قصيرةً من الحديد ويحمل حربةً. سأله جارس: «هل يرغب سيدي في
مرافقة؟».

- «أظنُّ أنني أقدرُ على العثور على (برج الملك) وحدي». يكره چون
أن يمشي وراءه حُرّاس أينما ذهب، فالأمر يُشعره كأنه بطّة أم تقود طابورًا من
الأفراخ الصّغيرة.

وجدَ فتيّة إميت الحديدي منمكين في التّدريب في السّاحة، تهوي
سيوفهم المثلومة على التروس ويُفارع بعضها بعضًا. توقف چون لحظاتٍ
يتفرّج إذ أرغم الجواد روبن النّطاط على التّقهقر صوب البئر، واستقرّ رأيه
على أن الجواد يملك مقومات المُقاتل البارِع، فهو قويٌّ ويزداد قوّةً، وغريزته

القتالية سليمة. أمّا روبن النطّاط فقصة أخرى، قدمه المعوجة سيّئة بما فيه الكفاية، لكنه يخشى الإصابة كذلك. ربما نجعل منه وكيلاً. انتهى القتال فجأةً بروبن مطروحاً على الأرض.

خاطبَ چون الجواد قائلاً: «أحسنت القتال، لكنك تخفض تُرسك أكثر من اللازم حين تُهاجم. عليك أن تُصحّح هذا وإلاّ قاذك إلى حتفك». ردّ الجواد: «نعم يا سيّدي. سأرفعه المرّة القادمة»، وساعدَ روبن على النهوض، وانحنى الصّبي الأصغر حجماً بحركةٍ خرقاء.

كان بعضُ فرسان ستانيس يتناوَشون في جانب السّاحة القصيِّ، ولم يفتَ چون أن يلاحظ أن رجال الملك وحدهم في رُكن ورجال الملكة في آخر. لكن عددهم قليل. البرد شديد للغاية بالنسبة إلى معظمهم. عند مروره بهم بخطواتٍ واسعة ناداه صوت جهوري قائلاً: «أيها الصّبي! أنت هناك! أيها الصّبي!».

ليس «أيها الصّبي» أسوأ شيءٍ دُعيّ به چون منذ انتخابه قائداً، لكنه تجاهل النداء.

نادى الصّوت بإصرار: «سنو، حضرة القائد».

هذه المرّة توقّف، وقال: «أيها الفارس».

قال الفارس الذي يفوقه طولاً بستّ بوصاتٍ كاملة: «على من يحمل الفولاذ الثاليري أن يستخدمه في ما هو أكثر من حكّ مؤخرته».

سبقت لچون رؤية هذا الرّجل في أنحاء القلعة. إنه فارس ذائع الصّيت بحسب كلامه. خلال المعركة التي دارت أسفل (الجدار) قتل السير جودري فارنج عملاقاً هارباً، انطلق وراءه على متن حصانه وغرس رُمحه في ظهره، ثم ترجّل ليقطع رأس المخلوق الصّغير المشير للشّفة، ومنذ ذلك الحين تعود رجال الملكة دعوته بجودري قاتل العمالقة.

تذكّر چون إيجريت تبكي. أنا آخر العمالقة. «أستخدم (المخلب الطّويل) عند الصّرورة أيها الفارس».

سأله السير جودري: «لكن بأيّ قدرٍ من البراعة؟»، واستلّ سيفه مضيئاً: «أرنا. أعدك بأنني لن أُوذيك يا فتى».

يا للطفك. «في وقتٍ آخر أيها الفارس. أخشى أن عندي واجباتٍ أخرى الآن».

قال السير جودري: «تخشى، أرى هذا»، وابتسم ابتسامة عريضة لأصدقائه مكرراً لبطيي الفهم منهم: «يخشى».
قال چون: «بعد إذنك»، وأعطاه ظهره.

بدأت (القلعة السوداء) مكاناً كثيباً موحشاً في ضوء الفجر الشاحب، وقال چون سنو لنفسه متأملاً بأسف: قيادتي، خراب مثلما هي حصن. (بُرج القائد) هيكل فارغ، والقاعة العامة كومة من الأخشاب المتفحمة، و(بُرج هاردين) يبدو كأن هبة الريح التالية ستسقطه... ولو أنه يبدو هكذا منذ أعوام طويلة. ووراء مباني القلعة يرتفع (الجدار) شاهقاً مهيباً قارس البرودة، يعجُّ بالبنائين الذين يرفعون سلالم متعرجة جديدة ليُلحِقوها بقايا القديمة. يدوم عملهم من الفجر إلى الغسق، فدون السلالم لا وسيلة لبلوغ قمة (الجدار) إلا الرفاعة، ولن يصلح هذا إذا هجم الهمج مرةً أخرى.

فوق (بُرج الملك) تُرفرف راية عائلة باراثيون الذهبية شاقّة الهواء كالسوط، ترتفع من السطح الذي ذرعه چون سنو حاملاً القوس قبل فترة ليست بالطويلة، يقتل الثنين والأحرار إلى جوار ساتان وديك فولارد الأصم. وجد اثنين من رجال الملكة واقفين يرتجفان على السلم، وقد دس كل منهما يديه تحت إبطيه وأسندَ حربته إلى الباب. قال لهما چون: «هذه القفازات القماش لن تصلح أبداً. اذهبا إلى باون مارش غداً وسيعطي كلا منكما زوجين من الجلد المبطن بالفرو».

رداً أكبر الاثنين سناً: «سنفعل يا سيدي، وشكرًا لك».
أضاف الأصغر وأنفاسه تخرج ضباباً باهتاً: «إذا لم تتجمد أيدينا اللعينة أولاً. لقد اعتدت أن أحسب (تخوم دورن) باردة. ماذا كنت أعلم؟».

فكر چون سنو: لا شيء، مثلي.
في منتصف السلم الملتف قابل سامويل تارلي نازلاً، فقال له: «أأنت قادم من عند الملك؟».

- «المياستر إيمون بعثني إليه برسالة».

- «مفهوم». بعض اللوردات يأتمنون مياستراتهم على قراءة رسائلهم وإبلاغهم بفحواها، لكن ستانيس يصرُّ على كسر أحتام رسائله بيده. «كيف تلقاها؟».

أجابَ سام: «ليس بسرور كما وشت ملامحه»، وخفضَ صوته إلى الهمس مضيئًا: «لا يجدر بي أن أتكلّم عن الأمر».

- «لا تفعل إذن». تساءلَ چون عن حامل راية أبيه الذي رفضَ مبايعة الملك ستانيس هذه المرّة. لقد سارعَ بنشر الخبر حين أعلنت (كارهولد) الولاة له. «كيف حال تدريباتك بالقوس الطويل؟».

عابساُ أجبَ سام: «وجدتُ كتابًا جيّدًا عن الرّماية، لكن ممارستها أسهل من القراءة عنها. إنها تُصيني بالقروح».

- «استمرّ في التّدريب. ربما نحتاج إلى قوسك على (الجدار) إذا ظهر (الآخرون) ذات ليلةٍ مظلمة».

- «أوه، أملٌ ألاّ يحدث ذلك».

وجدَ مزيدًا من الحُرّاس واقفين خارج غرفة الملك الشّمسيّة، وخاطبه رقيبهم قائلاً: «غير مسموح بالأسلحة في حضرة جلالته يا سيّدِي. سأخذُ هذا السيف، وخناجرِك أيضًا». يعلم چون أن الاعتراض لن يُجدي نفعًا، وهكذا ناولهم أسلحته.

شعرَ بدفء الهواء داخل الغرفة الشّمسيّة، وقد جلست الليدي مليساندرا قُرب النّار، تَبْرُق ياقوتتها على بشرة حلقها الشّاحبة. إيجريت قبلتها النّار، أمّا الرّاهبة الحمراء فهي النّار، وشعرها دم ولهب. وكان ستانيس واقفًا وراء المنضدة ذات السّطح غير المستوي، التي تعود الدّب العجوز الجلوس إليها وتناول وجباته عليها. تُغطّي المنضدة خارطة كبيرة للشّمال مرسومة على قطعةٍ مهترئة من الجلد، وتُثبت شمعة من الشّحم أحد طرفيها وقفاز فولاذي الطّرف الآخر.

يرتدي الملك سراويل من صوف الحملان وسترةً ضيّقةً مبطنّةً، وعلى الرغم من هذا يبدو متخشّبًا غير مستريح كأنه يرتدي الصّفائح والحلقات المعدنية. بشرته شاحبة مشدودة، ولحيته مشدّبة بمنتهى العناية كأنها مرسومة على وجهه، وحول صدغيه حافة قصيرة هي كل ما تبقى من شعره الأسود.

كان الملك يُمسك رقًا عليه ختم مكسور من الشّمع الأخضر الدّاكن، ولمّا ركعَ چون أمامه عبست ملامحه وهزّ الورقة غاضبًا، وقال: «انهض. أخبرني، من ليانا مورمونت؟».

- «إحدى بنات الليدي مِج يا مولاي، الصُّغرى. لقد سُمِّيت تيمُّناً بأخت السيِّد والدي».

- «لنيل حظوة السيِّد والدك لا ريب. أعرفُ كيف تُلعب اللُّعبة. كم سنُّ تلك الطُّفلة المأفونة؟».

فكَّرَ چون لحظةً قبل أن يُجيب: «عشرة أعوام أو نحوها. هل لي أن أعرف كيف أساءت إلى جلالتك؟».

قرأ ستانيس من الرِّسالة: «(جزيرة الدِّببة) لا تعرف ملكاً إلاَّ الملك في الشِّمال المسمَّى ستارك. تقول إنها فتاة في العاشرة، ومع ذلك تتجرَّأ على توبيخ مليكها الشَّرعي». كانت لحيته المشدَّبة بعناية تبدو كظُلِّ فوق خدَّيه الأجوِّفين. «أحرص علي الاحتفاظ بهذا الخبر لنفسك أيها اللورد سنو. (كارهولد) معي، وهذا كل ما يحتاج الرِّجال إلى معرفته. لن أسمح بأن يتبادل إخوانك الحكايات عن بصق تلك الطُّفلة علي».

- «كما تأمر يا مولاي». يعرف چون أن مِج مورمونت ركبت جنوباً مع روب، وانضمتَّ ابنتها الكُبرى أيضًا إلى جيش الدُّبب الصُّغير، لكن حتى إذا ماتت كلتاها فليليدي مِج بنات أخريات، وبعضهن لهن أولاد كذلك. هل ذهب مع روب أيضًا؟ مؤكَّد أن الليدي مورمونت تركت واحدة على الأقل من الفتيات الأكبر سنًّا أمنيَّةً للقلعة، ولذا لا يفهم لماذا تردُّ ليانا على رسالة ستانيس، وليس بوسعه إلاَّ أن يتساءل إن كانت الإجابة لتختلف لو أن الرِّسالة ممهورة بختم الدُّبب الرَّهيب بدلاً من الوعل المتوجِّج، ومذيَّلة بتوقيع چون ستارك سيِّد (وينترفل). فات أو ان تلك الهواجس. لقد اخترت.

قال الملك متذمِّراً: «أرسلنا نحو أربعين غُداً، لكننا لم نلتق جواباً إلاَّ الصِّمت والتَّحدِّي. البيعة واجب يدين به كلُّ الرِّعايا المخلصين لملكهم، ومع ذلك يُدير جميع حملة راية أبيك ظهورهم لي، باستثناء آل كارستارك. هل آرنولف كارستارك الرِّجل الشَّريف الوحيد في الشِّمال؟».

آرنولف كارستارك هو عمُّ اللورد ريكارد الرِّاحل، وقد عيَّن أميناً للقلعة في (كارهولد) حين ذهب ابن أخيه وأبناؤه جنوباً مع روب، وكان أول من يُلبِّي دعوة الملك ستانيس للبيعة برسالة تُعلن ولاءه. كان چون ليقول: آل كارستارك لا يملكون خياراً آخر. لقد خان ريكارد كارستارك الدُّبب الرَّهيب

وأراق دماء الأسود، وهو ما يجعل الوعل أمل (كارهولد) الوحيد. «حتى الشرفاء في الأوقات المضطربة كأوقاتنا هذه عليهم أن يتساءلوا أين يقع واجبهم. صاحب الجلالة ليس الملك الوحيد في البلاد الذي يطلب البيعة». تحركت الليدي مليساندرا في جلستها قائلة: «أخبرني أيها اللورد سنو... أين كان هؤلاء الملوك الآخرون حين هاجم الهمجيون جداركم؟».

أجاب جون: «على بُعد ألف فرسخ وقد صموا آذانهم عن حاجتنا. لم أنس هذا يا سيدي ولن أنساه، لكن لحملة راية أبي زوجات وأولادًا عليهم حمايتهم، ورعايا من العامة سيموتون إذا أساءوا الاختيار. جلالة الملك يطلب منهم الكثير. امنحهم وقتًا وستنال إجاباتك».

سحق ستانيس رسالة ليانا سائلاً: «إجابات كهذه؟».

- «حتى في الشمال يخشى الناس غضبة تايوين لانستر. ثم إن آل بولتون أعداء سيئون أيضًا. إنهم لم يضعوا رجلًا مسلوحًا على رياتهم مصادفة. لقد ركب الشمال مع روب ونزف معه ومات في سبيله. هؤلاء الناس شربوا المرّ والموت، والآن تأتي عارضًا عليهم المزيد، فهل تلومهم إذا أعرضوا؟ سامحني يا جلالة الملك، لكن بعضهم سينظر إليك ولا يرى إلا مدعياً آخر محكومًا عليه بالهلاك».

قالت الليدي مليساندرا: «إذا هلك جلالته فبلادكم هالكة أيضًا. تذكر هذا يا لورد سنو، إن ملك (وستروس) الشرعي الوحيد هو الواقف أمامك». حافظ جون على جمود ملامحه وهو يرد: «كما تقولين يا سيدي». أطلق ستانيس نخيرًا ساخرًا، وقال: «إنك تُنفق كلماتك كأنها تنانين ذهبية. ترى كم من الذهب تدخرون؟».

- «الذهب؟». أهذه هي التنانين التي تنوي المرأة الحمراء إيقاظها؟ تنانين من الذهب؟ «الضرائب التي نجمعها عينية يا جلالة الملك. حرس الليل أثرياء باللقت فقراء بالمال».

- «لن يرضي اللقت سالادور سان على الأرجح. إنني أطلب الذهب أو الفضة».

- «من أجل هذا تحتاج إلى (الميناء الأبيض). المدينة لا تُقارن بـ(البلدة

القديمة) أو (كينجز لاندنج)، لكنها تظلُّ ميناةً مزدهراً. اللورد ماندرلي أغنى حملة راية السيد والدي».

- «اللورد الأسمن من أن يركب حصاناً». تكلمت الرسالة التي بعث بها اللورد وايمان ماندرلي من (الميناة الأبيض) عن سنه ومرضه، لكنها لم تذكر غير هذا إلا القليل، وقد أمر ستانيس چون بعدم الكلام عنها أيضاً. قالت الليدي ملساندر: «ربما يرغب حضرة اللورد في زوجة همجية. أهذا الرجل السمين متزوج يا لورد سنو؟».

- «السيدة زوجته ماتت منذ زمن طويل. للورد وايمان ابنان بالغان وأحفاد من الابن الكبير، وهو أسمن من أن يركب حصاناً بالفعل، وزنه ستمئة رطل على الأقل. قال لن تقبله أبداً».

دمدم الملك: «مرة واحدة حاول أن تعطيني جواباً يسرني أيها اللورد سنو».

- «ألمي أن تسرك الحقيقة يا مولاي. رجالك يدعون قال بالأميرة، لكنها بالنسبة إلى شعب الأحرار ليست أكثر من أخت زوجة ملكهم الميتة. إذا أجبرتها على الزواج برجل لا تريده فغالباً ستشقى حلقه ليلة زفافهما. وحتى إذا قبلت زوجها، فذلك لا يعني أن الهمج سيتبعونه أو يتبعونك. الرجل الوحيد الذي يستطيع ضمهم إلى قضيتك هو مانس رايدر».

قال ستانيس باستياء: «أعرف هذا. لقد قضيت ساعات في الكلام مع الرجل. إنه يعرف الكثير عن عدونا الحقيقي، ولا يفتقر إلى الدهاء، أعترف بهذا. حتى إذا نبذ ملكيته فالرجل لا يزال حائناً بالقسم. اسمح لمتهرّب واحد بالحياة وستشجع آخرين على التهرّب. لا، يجب أن تكون القوانين من حديد لا عجين. على مانس رايدر أن يدفع حياته غرامة طبقاً لكل قوانين (الممالك السبع)».

- «القانون ينتهي عند (الجدار) يا صاحب الجلالة. يمكنك الاستفادة بمانس».

- «هذا ما أنتويه. سأحرقه، وسيرى الشمال كيف أتعامل مع الخونة والمارقين. إن عندي رجالاً آخرين يقودون الهمج، وعندني ابن رايدر، لا تنس هذا. ما إن يموت الأب سيصبح ابنه ملك ما وراء الجدار».

- «جلالتك مخطى». اعتادت إيجريت أن تقول له: لست تعلم شيئاً يا چون سنو، لكنه تعلم. «الصغير ليس أميراً كما أن فال ليست أميرة. البرء لا يصبح ملك ما وراء الجدار لأن أباه كان كذلك».

قال ستانيس: «عظيم، لأنني لن أسمح بوجود ملوك آخرين في (وستروس). هل وقعت المنحة؟».

- «لا يا جلالة الملك». هيا بنا إذن. ثنى چون أصابعه المحروقة وبسطها مضيقاً: «إنك تطلب الكثير جداً».

- «أطلبُ؟! لقد طلبتُ منك أن تكون سيّد (ويترفل) وحاكم الشمال. إنني محتاج إلى هذه القلاع».

- «لقد تنازلنا لك عن (قلعة الليل)».

- «جردان وأنقاض. هدية البخيل لا تكلفُ مُعطيها شيئاً. رجلك يارويك يقول إن القلعة لن تصلح للسكنى قبل نصف عام».

- «القلاع الأخرى ليست أفضل حالاً».

- «أعرفُ هذا، لكن لا بهم، إنها كل ما عندنا. على (الجدار) تسع عشرة قلعة، وليس لديكم رجال إلا في ثلاثٍ منها. إنني أنوي وضع حامية في كل واحدة من جديد قبل نهاية السنة».

- «ليس عندي اعتراض على هذا يا مولاي، ولكن يُقال أيضاً إنك تنوي منح هذه القلاع لفرسانك ولورداتك، ليجعلوا منها مقرّاتهم كأتباع لجلالتك».

- «المتوقع من الملوك أن يكونوا أسخياء مع أتباعهم. ألم يعلم اللورد إدارد نغله شيئاً؟ كثيرون من فرساني ولورداتي تخلوا عن أراضٍ خصبة وقلاعٍ منيعة في الجنوب. أيجب ألا يكافأوا على إخلاصهم؟».

- «إذا كان صاحب الجلالة يُريد أن يخسر حملة راية السيّد والذي جميعاً فما من طريقة أضمن من منح القلاع الشماليّة للوردات جنوبيين».

- «كيف أخسرُ رجالاً لا أحظى بهم؟ لقد أملتُ أن أمنح (ويترفل) لرجلٍ شمالي كما تذكّر، ابن إدارد ستارك، فألقى عرضي في وجهي». عندما

يشكو ستانيس باراثيون من شيء ما يكون مثل درواس⁽¹⁾ في فمه عظمة، يظنُّ يقضمها بعنادٍ عن آخرها.

- «المفترض بحسب الأصول أن تؤول (وينترفل) إلى أختي سانزا».
- «تعني الليدي لانستر؟ أنت مشتاق لهذه الدرجة لرؤية العفريت جاثماً على مقعد أبيك؟ أعدك بأن ذلك لن يحدث أبداً ما دمتُ حياً يا لورد سنو».
قال چون الأعقل من أن يصرَّ على الكلام في هذا الشأن: «مولاي، بعضهم يزعم أنك تنوي أن تمنح أراضي وقلعتين لذي القميص المُخشخِش وماجنر (ثن)».
- «من أخبرك بهذا؟».

الكلام دائر في جميع أنحاء (القلعة السوداء) بالفعل. «إذا كان يجب أن نعرف، فقد بلغني الخبر من جيلي».
- «من جيلي؟».

أجابته الليدي مليساندرا: «المُرْضعة. جلالتك أعطيتها حرية التجوال في القلعة».

- «ليس لنشر النَميمة. إنها مطلوبة من أجل ثدييها لا لسانها. أريد منها لبناً أكثر ورسائل أقل».

وافقه چون قائلاً: «(القلعة السوداء) ليست محتاجةً إلى أفواهٍ عديمة الفائدة. سأرسلُ جيلي جنوباً على متن أول سفينة تُبحر من (القلعة الشرقية)».
مسَّت مليساندرا الياقوتة على عنقها، وقالت: «جيلي تُرضع ابن دالا علاوةً على ابنها. قسوة منك أن تُفرِّق بين أميرنا الصَّغير وأخيه في الرِّضاعة يا سيدي».

احذر الآن، احذر. «إنهما لا يشتركان إلا في لبن الأم. ابن جيلي أكبر حجماً وأقوى، ويركُل الأمير ويقرُصه ويدفعه عن ثدي جيلي. كراستر أبوه، رجل قاس جشع، والدَّم يدل على هذا».

قال الملك حائراً: «حسبتُ المُرْضعة ابنة ذلك الرَّجل كراستر».
- «زوجته وابنته في آن واحد يا جلالة الملك. كان كراستر يتزوَّج بناته جميعاً، وصبيُّ جيلي ثمرة علاقتهما».

(1) الدَّرْواس كلب فيبح الشَّكل شديد الصَّخامة يُستخدَم في الصَّيد والحراسة. (المُترجم).

بدا ستانيس مصدومًا وهو يقول: «حبَلت بهذا الطُّفل من أيها؟ خيرٌ لنا أن نتخلَّص منها إذن. لن أسمح بوجود مسوخٍ مثلها هنا. هذه ليست (كينجز لاندنج)».

- «يمكنني العثور على مُرضعةٍ أخرى. إذا لم أجد واحدةً بين الهمج فسأرسُلُ إلى عشائر الجبال، وحتى ذلك الحين من شأن حليب الماعز أن يكفي الصَّبي، بعد إذن صاحب الجلالة».

قال ستانيس: «غذاء رديءٌ لأمير... لكن أفضل من لبن عاهرة، نعم»، ونقرَّ بأصابعه على الخريطة مستطرِّدًا: «لنعدُّ إلى مسألة القلاع...».

بكياسيةٍ باردة قال چون: «جلالة الملك، لقد أسكنتُ رجالك وأطعمتهم، وهو ما كلَّفنا الكثير من مؤن الشتاء، وألبستهم كي لا يتجمدوا بردًا».

لم يبدُ الرُّضا على ستانيس إذ قال: «أجل، تقاسمتم معنا لحمكم المملَّح وثرديدكم، ورميتم لنا بضع خرقٍ سوداء تُدْفئنا، خرقًا كان الهمج ليخلعونها عن جُثثكم لو لم أتِ إلى الشَّمال».

تجاهلَ چون قوله، وتابع: «لقد أعطيتكم علفًا لخيولكم، وما إن ينتهي بناء السَّلالم سأعيركم بنائين لإصلاح وترميم (قلعة اللَّيل)، بل ووافقْتُ على السَّماح لك بتوطين الهمج في أراضي (الهدية)، التي مُنحتَ لحرس اللَّيل مدى الحياة».

- «تقدِّم لي أراضي خاليةً وأطلاقًا، ومع ذلك تأبى عليَّ القلاع التي أحتاجُ إليها لمكافأة لورداتي وحملة رابتي».

- «حرس اللَّيل سيُبدوا تلك القلاع...».

- «وحرس اللَّيل هم من هجروها».

أنهى چون عبارته بعناد: «... للدِّفاع عن (الجدار)، وليس كمقرَّاتٍ للوردات الجنوب. أحجار تلك القلاع يختلط ملاطها بدماء وعظام إخوتي الذين ماتوا منذ زمنٍ طويل، ولا أستطيعُ أن أعطيها لك».

كانت أوتار رقبة الملك مشدودةً عن آخرها، بارزةً كالسُّيوف الماضية إذ قال: «لا تستطيعُ أم لا تُريد؟ لقد عرضتُ عليك اسمًا».

- «إن لي اسمًا يا جلالة الملك».

قال ستانيس: «سنو. هل من نذير شوْم أكبر؟»، ومسّ مقبض سيفه مردفًا:
«من تخال نفسك بالضبط؟».

- «الحارس على الأسوار، السيف في الظلمات».
ردّ ستانيس: «لا تُردّد قسّمكم عليّ كاللبغاء»، واستلّ السيف الذي يُسمّيه
(جالب الضياء) مواصلاً: «ها هو ذا السيف في الظلمات»، ليموج الضوء
حيثه وذهاباً على النصل القشيب، الآن أحمر، الآن أصفر، الآن بُرتقالي، يُلون
وجه الملك بدرجات زاهية قاسية. «حتى صبي أخضر مثلك من شأنه أن يرى
هذا. أنت أعمى؟».

- «لا يا مولاي. إنني أوافقك على ضرورة وضع حاميات في تلك
القلاع...».

- «القائد الصبي يوافقني. يا لحظّي السعيد!».

- «... من رجال حرس الليل».

- «أعداد رجالكم لا تكفي!».

- «امنحني الرجال إذن يا مولاي. سأزوّد كلّ قلعة مهجورة بضباط، قادة
متمرسين يعرفون (الجدار) والأراضي وراءه، وأفضل السبل للبقاء على
قيد الحياة خلال الشتاء المقبل. مقابل كلّ ما أعطيناكم إياه امنحني الرجال
لملء الحاميات، رجالاً مسلّحين ورُماة شُبابية وصبيّة مبتدئين، بل وسأخذُ
جرحاكم ومرضاكم أيضاً».

حملق ستانيس إليه غير مصدّق، ثم أطلق ضحكة قصيرة، وقال: «أنت
جريء كفاية يا سنو، أقرّب هذا، لكنك مجنون إذا كنت تظنُّ أن رجالي سيرتدون
أسود حرس الليل».

- «لهم أن يرددوا أيّ ألوانٍ يشاءون، شريطة أن يُطيعوا ضباطي كما
يُطيعون ضباطك».

لم يبدُ على الملك التآثر إذ قال: «إن عندي فُرساناً ولوردات في خدمتي،
سُبلان عائلات نبيلة عريقة، ولا يُمكن أن تتوقع منهم أن يخدموا تحت إمرة
اللصوص والفلاحين والقتلة».

أو النغول يا مولاي؟ «يدك نفسه مهرب».

- «كان مهرباً، وقد قصرتُ أصابعه لأجل ذلك. يقولون لي إنك قائد

حرس الليل الثامن والتسعون بعد المئة التاسعة أيها اللورد سنو. ماذا تحسب القائد التاسع والتسعين بعد التسعمئة سيقول عن تلك القلاع؟ ربما يُلهمه منظر رأسك على خازوق بأن يتعاون أكثر»، ومرر الملك سيفه الوهاج على الخريطة بطول (الجدار) مردفاً: «إنك القائد لمجرد أنني أسمح لك. من صالحك أن تتذكر هذا».

- «إنني القائد لأن إخوتي اختاروني». ما زال الصبح يطلع على چون سنو أحياناً وهو نفسه لا يصدق هذا، حين يستيقظ مفكراً أنه رأى حلمًا مجنوناً لا شك. كان سام قد قال له: كأنك تضع ثياباً جديدةً، تشعر بمقاسها غريباً في البداية، لكن عندما ترتديها فترة تبدأ الشعور فيها بالراحة.

قال الملك وبينهما الخريطة كميدان معركة، غارقة في ألوان السيف الوقاد: «أليس ثورن يشكو من أسلوب اختيارك، ولا يمكنني أن أقول إن شكواه باطلة. الأصوات أحصاها رجل كيف يقف إلى جواره صديقك البدين، وسلينت يدعوك بالمارق».

ومن يعرف المارقين أفضل من سلينت؟ «كان المارق ليخبرك بما ترغب في سماعه ويخونك لاحقاً. جلالتك تعلم أنني اخترت بالعدل. لطالما قال أبي إنك رجل عادل». عادل ولكن قاس. هذا ما قاله اللورد إدارد تحديداً، وإن كان چون لا يحسب أن من الحكمة أن يبوح بهذا.

- «لم يكن اللورد إدارد صديقي، لكنه لم يفتقر إلى شيء من العقل. كان يُعطيني تلك القلاع».

مُحال. «ليس لي أن أتكلّم عمّا كان أبي ليفعله. لقد حلفت يميناً يا جلالة الملك. (الجدار) تحت قيادتي».

قال ستانيس: «حالياً. سنرى براعتك في الاحتفاظ به»، وأشار إليه متابعاً: «احتفظ بأطلالك ما دامت تعني لك الكثير، لكنني أعدك، إذا ظلّ أيها خالياً مع نهاية السنة فسأخذها برضاك أو دونه، وإذا سقطت ولو واحدة منها في يد العدو فسرعان ما سيتبعها رأسك. والآن اخرج».

نهضت الليدي مليساندرا من موضعها إلى جوار النار قائلة: «بعد إذنك يا مولاي، سأصحبُ اللورد سنو إلى مسكنه».

قال ستانيس: «لماذا؟ إنه يعرف الطريق»، ثم أشار لهما بالانصراف قائلاً: «افعلي ما يحلو لك. دفان، أريد طعامًا، بيضًا مسلوقًا وماءً بالليمون».

بعد دفء غرفة الملك الشمسية كانت برودة السلم الملتف تُجمد العظام، وقد نبه الرقيب مليساندرا وهو يُناول چون أسلحته قائلاً: «الريح تشتدُّ يا سيديتي. ربما عليك ارتداء معطفٍ أثقل».

ردت المرأة الحمراء: «إيماني يُدفئني»، ونزلت السلالم إلى جوار چون قائلةً: «جلالة الملك يزداد ولعًا بك».

- «أدركتُ هذا. لقد هدّديني بقطع رأسي مرتين فقط».

ضحكت مليساندرا قائلةً: «صمته هو ما عليك أن تخشاه وليس كلامه».

مع دخولهما الساحة نفخت الريح معطف چون وجعلته يضربها، فأزاحت الراهبة الحمراء الصوف الأسود وتأبطت ذراعه مردفةً: «ربما لا تكون مخطئًا بشأن ملك الهمج. سأصلي لإله الضياء طالبةً الإرشاد. عندما أنظر في اللهب أستطيع أن أرى من خلال الحجارة والتربة وأجد الحقيقة في أنفس الناس، أستطيع أن أكلّم ملوكًا ماتوا منذ ربح من الزمن وأطفالًا لم يولدوا بعدُ وأشاهد السنين والفصول تمرّ حتى نهاية الزمان».

- «ألا تُخطئ نيرانك أبدًا؟».

- «أبدًا... ولو أننا نحن الرهبان فانون وأحيانًا نخطئ، نخلط بين ما سيحدث وما يمكن أن يحدث».

كان بإمكان چون الشعور بحرارتها، حتى عبر ما يرتديه من أصواف وجلدٍ مقوّى بالزيت المغلي، ورأى أن منظرهما متشابهكي الذراعين يجذب النظرات الفضولية. سيتهمسون عن هذا في التكنات الليلة. قال: «إذا كنتِ تستطيعين رؤية الغد في لهبك بحق فأخبريني متى وأين سيقع هجوم الهمج التالي»، وسحب ذراعه.

قالت مليساندرا: «راهلور يُرسل إلينا ما يشاء من رؤى، لكنني سأبحثُ عن ذلك الرجل تورموند في اللهب»، ورسمت على شفيتها الحمراءوين ابتسامةً، وأضافت: «لقد رأيتك في نيراني يا چون سنو».

- «أهذا تهديد يا سيديتي؟ هل تتوین إحراقي أيضًا؟».

ردّت: «أسأت فهمي»، ورمقته بإمعانٍ قائلَةً: «أخشى أنني أصيبك بالانزعاج يا لورد سنو».

لم يُنكرِ چون هذا، وقال: «(الجدار) ليس مكانًا لامرأة».
- «أنت مخطئ. لقد حلمتُ بجداركم يا چون سنو. عظيمةٌ كانت المعارف التي شيّدته، وعظيمةٌ كانت التّعاويز الحبيسة تحت جليده. إننا نمشي أسفل إحدى دعائم العالم»، ورفعت مليساندرا عينيها إلى الصّرح العظيم وأنفاسها سحابة دافئة رطبة في الهواء، وقالت: «هذا مكاني كما هو مكانك، وربما تجد نفسك في حاجةٍ ماسّةٍ إليّ عمّا قريب. لا ترُفّض صداقتي يا چون. لقد رأيتك في العاصفة محاصرًا يُطوّفك الأعداء من كلّ اتّجاه. إن لك أعداءً كثيرين جدًّا. هل أتلو عليك أسماءهم؟».
- «أعرفُ أسماءهم».

التّمعت الياقوتة على عُنق مليساندرا وهي تقول: «لا تكن متأكّدًا لهذه الدّرجة. ليس عليك أن تخشى الخصوم الذين يلعنونك في وجهك، بل من يبتسمون حين تنظُر ويشحذون سكاكينهم حين تُدير ظهرك. خيرٌ لك أن تبقي ذئبك على مقربةٍ منك. جليدًا أرى، وخناجر في الظّلام، دماءٌ قانيةٌ متجمّدةٌ عن آخرها وفولادًا مجرّدًا. كانت البرودة شديدةً».

- «البرودة دائمة على (الجدار)».

- «أتظنُّ هذا؟».

- «بل أعلمه علم اليقين يا سيّدتني».

همست: «لست تعلم شيئًا إذن يا چون سنو».



بران

هل وصلنا؟

لم يلفظ بران السؤال قَطُّ، وإن بقي معلقاً على شفثيه ومجموعتهم البائسة تتقدّم بخطى ثقيلة بطيئة، تمضي عبر بساتين من شجر السنديان العتيق وشجر الحارس⁽¹⁾ الأخضر الرمادي الباسق، وتمرُّ بشجر الصنوبر الجُندي⁽²⁾ المتجهم وشجر الكستناء البني الأجرد. هل اقتربنا؟ يظل الصبي يتساءل إذ يصعد هودور منحدرًا حجريًا بصعوبة أو ينزل إلى أخدودٍ مظلم تتشقق فيه أكوام الثلج المتسخ تحت قدميه. كم تبقى؟ لا يُفارق السؤال والإلكة العظيمة تخوض في جدولٍ شبه متجلد. كم أمامنا؟ البرد شديد جدًا. أين الغراب ذو الأعين الثلاث؟

متمايلًا في سلته الخيزران على ظهر هودور، طأطأ الصبي رأسه إذ مرَّ عامل الاسطبل الكبير من تحت فرع شجرة سنديان. كان الثلج قد عاود السقوط مبتلاً ثقبلاً، وهودور يمشي وقد انغلق أحد جفنيه وتجمد، وغلف الصقيع لحيته البنية الكثيفة، وتدلت كتل الجليد من أطراف شاربه الكث. ما زالت يده المقفزة قابضة على السيف الحديد الطويل الذي أخذه من السرايب أسفل (ويتترفل)، ومن حينٍ إلى آخر يضرب به فرعاً فيخلخل الثلج المتراكم عليه ويسقطه، وبأسنانٍ تصطك يُهمهم: «هود-د-د-دور».

وجد بران الصوت مطمئنًا على نحوٍ غريب. خلال رحلتهم من (ويتترفل)

(1) الحارس نوع أشجار من خيال المؤلف. (المترجم).

(2) الصنوبر الجُندي نوع أشجار من خيال المؤلف. (المترجم).

إلى (الجدار) اختصرَ بران ورفاقه أميال السَّفر بتجاذُّبِ أطراف الحديث والحكايات، لكن الأمر مختلف هنا. حتى هودور يَشعُرُ بهذا، وما عاد يُردِّد هَوَدَرَاتِهِ بالكثرة التي تعودها جنوب (الجدار). هذه الغابة يحفُّها سكون لم يعرف بران له مثيلاً قطُّ. قبل سقوط الثلج كانت رياح الشَّمال تدور حولهم في دَوَّاماتٍ وتتطاير سحابات من أوراق الأشجار البنيَّة الميتة مصدرَّةً خفيفاً خفيفاً ذكَّره بصوت الصَّراصير إذ تسعى داخل خزانة، لكن كلَّ الأوراق مدفونة الآن تحت طبقةٍ من الأبيض. بين الفينة والفينة يُحلقُ عُذاف فوقهم ضارباً الهواء البارد بجناحيه الأسودين، لكن باستثناء ذلك فالعالم صامت تماماً.

أمامه مباشرةً شقَّت الإلكة طريقها بين أكوام الثلج خافضةً رأسها، وقد اكتست قرونها الضَّخمة بقشرةٍ من الجليد، وجلسَ الجوّال على ظَهرها العريض بصمِّ كئيب. ذو اليدين الباردتين هو الاسم الذي أطلقه عليه الفتى البدين سام، فعلى الرغم من شحوب وجه الجوّال فيداه سوداوان صُلبتان كالحديد، وباردتان كالحديد أيضاً، أمَّا باقي جسده فمغطىً بطبقاتٍ من الصُّوف والجلد المقوى والحلقات المعدنيَّة، وتُخفي ملامحه قلنسوة معطفه والوشاح الصُّوف الأسود الذي يلفه حول نصف وجهه السُّفلي.

وراء الجوّال جلستَ ميرايد مطوّقةً أباها بذراعيها لتقيه من الرِّيح والبرد بدفء جسدها، وكانت قشرة من المُخاط المتجمّد قد تكوّنت أسفل أنف چوچن، وكلُّ فترةٍ يرتجف جسده بعُنف. فكَّر بران وهو يُشاهده يتمايل على متن الإلكة: يبدو صغيراً للغاية، يبدو أصغر مني الآن، وأضعف أيضاً، وأنا المُعاق.

في مؤخِّرة رِفقتهم الصَّغيرة تحرَّك سَمَر، تُجمّد أنفاس الذُّبب الرَّهيب هواء الغابة إذ يمضي وراءهم وهو لا يزال يعرج على قائمته الخلفيَّة التي أصيبت بسهم عند (تاج الملكة). كلِّما تلبَّس بران الذُّبب أحسَّ بالجرح القديم، وفي الفترة الأخيرة يقضي بران في جسم سَمَر أوقاتاً أطول مما يقضي في جسده هو، فمع أن الذُّبب يَشعُرُ بقرس البرد على الرغم من فروه السَّميك فإنه يرى على مسافاتٍ أبعد، وسمعه وشمَّه أفضل من الصَّبي الجالس في السلَّة ملفوفاً بالثياب الثَّقيلة كرضيع بالقِمَاط.

وفي أحيانٍ أخرى، عندما يسأم من كونه ذبُّباً، يتلبَّس بران هودور، فيئنُّ

العَملاق الرَّقيق حين يحسُّ به ويلوي رأسه الأشعث ذات اليمين وذات الشَّمال، ولكن ليس بالعُنْف نفسه كتلك المرَّة الأولى في (تاج الملكة). يحلو للصَّبي أن يقول لنفسه: إنه يعرف أنه أنا. لقد اعتادني، وعلى الرغم من هذا لا يشعُر بالراحة في جسد هودور إطلاقاً، فعامل الاسطبل الكبير لا يفهم ما يجري أبداً، وكلُّ مرَّة يذوق بران الخوف في مؤخِّرة فمه. أمَّا داخل سَمر فأفضل. أنا هو وهو أنا. ما أشعُر به يشعُر به.

في بعض الأحيان يحسُّ بران بالذُّب الرَّهيب يتشَمَّ رائحة الإلَكة متسائلاً إن كان يستطيع التَّغلب على الذَّابَّة العظيمة. في (وينترفل) تأقلمَ سَمر على الخيول، لكن هذه الإلَكة، والإلَكات فرائس. يشعُر الذُّب الرَّهيب بالدماء الحارَّة التي تندفِق تحت فروة الإلَكة المشعثة، ومجرَّد الرَّائحة كفيلاً يجعل لُعبه يسيل من بين فكَّيه، ولَمَّا يحدُث هذا يملأ اللُّعب فم بران بدوره مع فكرة اللُّحم الأحمر الدَّسم.

نعبَ غُداف على شجرة سنديان قريبة، وسمع بران صوت جناحين إذ ضربَ واحد آخر من الطُّيور السَّوداء الكبيرة الهواء ليحطَّ إلى جواره. بالنَّهار يبقى معهم نصف دستةٍ لا أكثر من الغُدافان، تطير من شجرةٍ إلى شجرةٍ أو تستقرُّ على قرون الإلَكة، في حين تسبقهم بقيَّة السَّرب أو تتخلف عنهم، لكن حين تنخفض الشَّمس في الأفق تعود وتنزل من السَّماء بأجنحةٍ بسواد اللَّيل، إلى أن يمتلئ كلُّ فرع من كلِّ شجرةٍ بها على مسافة ياردات وياردات حولهم. بعضها يطير إلى الجوّال ويتميم له، ويبدو لبران أنه يفهم نعيها وصياحها. إنها أعينُه وأذانه، تستكشف له الطُّريق وتهمس له بما أمامنا وخلفنا من أخطار.

كما هي الحال الآن. فجأةً توقفت الإلَكة، ووثبَ الجوّال بخفةٍ من فوق ظهرها ليهبط وسط ثلوج متكوِّمة حتى الرُّكبة. زمجرَ سَمر في وجهه وقد انتفش فروه، فالذُّب الرَّهيب لا تروقه رائحة ذي اليدين الباردتين. لحم ميت ودماء جافَّة وشيء من رائحة العفن، والبرودة، والبرودة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. سألتَ ميِرا: «ما الأمر؟».

بصوتٍ كتّمه الوشاح الصُّوف الأسود الملفوف حول فمه وأنفه أعلنَ ذو اليدين الباردتين: «وراءنا».

تساءلَ بران: «أهي الذُّباب؟». منذ أيامٍ يعرفون أن الذُّباب تتبعهم. كلُّ ليلةٍ

يسمعون عواء القطيع النَّائح، وكلَّ ليلة تبدو الذُّباب أقرب قليلاً. مخلوقات صيَّادة جائعة، وبإمكانها أن تشمَّ رائحة ضعفنا. كثيراً ما يصحو بران يرتعد قبل ساعاتٍ من الفجر، يُصغي إليها إذ يُنادي بعضها بعضاً من بعيدٍ فيما ينتظر شروق الشَّمس، وقد اعتادَ أن يُفكِّر: إذا كانت هناك ذئاب فهناك فرائس، إلى أن خطرَ له أنهم هم الفرائس.

هزَّ الجوّال رأسه نفيّاً، وأجاب: «بَشْر. ما زالت الذُّباب على مسافةٍ منا، لكن هؤلاء الرِّجال لا يستحيون مثلها».

أزاحت ميرا ريد قلنسوتها لينقلب الثَّلج الذي يُغطيها على الأرض بصوت مكتوم، وسألته: «كم رجلاً؟ من هم؟».

- «أعداء. سأتولّى أمرهم».

- «سأتي معك».

- «بل ستبقين. لا بُدَّ من حماية الصَّبي. أمامكم بحيرة متجمّدة عن آخرها. حين تَبْلُغونها انعطفوا شمالاً واتَّبِعُوا شاطئها حتى تصلوا إلى قرية صيد. انزلوا بها إلى أن ألحق بكم».

حسبَ بران أن ميرا تُريد أن تُجادل، إلى أن قال أخوها: «افعلي كما يقول. إنه يعرف هذه الأنحاء». لچوچن عينان خضراوان داكتان بلون الطُّحلب، وإن أثقلهما إنهاك لم يره بران فيهما مطلقاً من قبل. الجدُّ الصَّغير. جنوب (الجِدَار) بدا أن الصَّبي الآتي من المستنقعات يتمتّع بحكمةٍ تتجاوز سِنِي عُمُرِهِ، أمّا هنا فهو خائف ضائع كبقيتهم، وعلى الرغم من هذا تُصغي إليه ميرا دوماً.

ولم يزل هذا الأمر الواقع. غاصَّ ذو الديدن الباردتين بين الأشجار عائداً من حيث أتوا وحلّقت أربعة غُدفان تتبعه، وشاهدته ميرا يتعد وقد احمرّت وجنتاها من البرد وخرجت أنفاسها متلاحقةً من منخربيها، ثم إنها عادت ترفع قلنسوتها وهمزت الإلكة ليستأنفوا رحلتهم، لكن قبل أن يتعدوا عشرين ياردةً التفتت تنظُر وراءهم قائلةً: «يقول إنهم رجال. أيُّ رجال؟ هل يعني الهَمْج؟ لماذا لا يقول؟».

ردَّ بران: «قال إنه سيذهب ويتولّى أمرهم».

- «قال، أجل. وقال أيضًا إنه سيأخذنا إلى الغُراب ذي الأعين الثلاث».

أقسمُ أن النهر الذي عبرناه هذا الصُّباح هو نفسه الذي عبرناه قبل أربعة أيام. إننا نمضي في دوائر».

علّق بران بتردّد: «الأنهار تدور وتلتوي، وعلينا الدّوران حول البحيرات والتلال».

قالت بإصرار: «هناك الكثير من الدّوران والكثير من الأسرار. لا يروقني هذا، ولا يروقني ذلك الرّجل، ولستُ أثقُ به. يدها إياهما سيّتان بما فيه الكفاية، كما أنه يُخفي وجهه ويرفض أن يُخبرنا باسمه. من هو؟ ماذا يكون؟ باستطاعة أيّ أحد أن يرتدي معطفًا أسود، أيّ أحد أو أيّ شيء. إنه لا يأكل أو يشرب أبدًا، ولا يبدو أنه يشعُر بالبرد».

صحيح. كان بران يخشى أن يذكُر هذا، لكنه لاحظ. متى أووا إلى مكانٍ ما ليلاً، وفي حين يتلمّم هو وهودور والأخوان ريد معًا طلبًا للدّفء، يبقى الجوّال بعيدًا. أحيانًا يُغلق ذو اليدين الباردتين عينيه، لكن بران لا يظنُّ أنه ينام. ثم إن هناك شيئًا آخر...

قال بران: «الوشاح»، وتلفّت حوله بتوتّر، لكنه لم يرَ أيّ غِدفان، إذ تركّتهم الطيور السوداء الكبيرة كافّة حين رحل الجوّال. لا أحد هنالك يسمع، ومع ذلك حافظَ على انخفاض صوته وهو يتابع: «الوشاح الذي على فمه لا يُجمّده الجليد أبدًا مثل لحية هودور، حتى عندما يتكلّم». رمقته ميرا بنظرةٍ حادة، وقالت: «أنت مُحق. إننا لم نرَ أنفاسه قطّ، أليس كذلك؟».

- «بلى». كلّما أطلقَ هودور واحدةً من هودراته صاحبّتها سحابة من الأبيض، وبإمكانك أن ترى كلماتٍ چوچن وأخته عندما يتكلّمان، وحتى الإلكة تتركُ غيمةً دافئةً في الهواء حين تزفر.

- «إذا كان لا يتنفس...».

وجدَ بران نفسه يتذكّر حكايات العجوز نان له في صِغره، وكيف كانت تُغطيّه بدثاره الصُّوف الخشن قائلّة: وراء (الجدار) تعيش الوحوش والعمالق والغيلان، والظلال المتربّصة والموتى السّائرون، لكنها لا تستطيع المرور ما دام (الجدار) يرتفع قويًّا وما دام رجال حرس اللّيل مخلصين، فاخلد إلى النوم يا براندون يا صغيري الجميل واحلم أحلى الأحلام، فلا وحوش هنا.

الجوّال يرتدي أسود حرس اللّيل، لكن ماذا لو أنه ليس رجلاً على الإطلاق؟
ماذا لو أنه وحش ما يقوده إلى وحوش أخرى تبغي افتراسه؟
مرتدّداً قال بران: «الجوّال أنقذ سأم والفتاة من الجُثث الحيّة، وسيأخذني
إلى العُراب ذي الأعين الثّلاث».

- «لِمَ لا يأتنا ذلك العُراب ذو الأعين الثّلاث بنفسه؟ لماذا لم يُقابلنا عند
(الجِدَار)؟ العُراب لها أجنحة. أخي يزداد ضعفاً كلّ يوم. إلى متى يُمكننا
الاستمرار؟».

سعلَ چوچن، وأجابها: «إلى أن نصل».
لم يطلّ الوقت قبل أن يبلُغوا البُحيرة الموعودة، وهناك انعطفوا شمالاً كما
أخبرهم الجوّال، وكان هذا الجزء سهلاً.

وجدوا المياه متجمّدة، وكانت الثلوج تتساقط منذ مُدّة طويلة للغاية حتى
إن بران لم يُعدّ يدري كم يوماً مرّ، فأحالت البُحيرة إلى بريةٍ بيضاءٍ مترامية
الأطراف. تحرّكوا يبُسّر حيثما كان الجليد مسطحاً والأرض غير مستوية،
لكن حيثما دفعت الرّيح الثلج وكوّمته لاقوا صعوبةً أحياناً في معرفة أين تنتهي
البُحيرة وأين يبدأ السّاطي، وحتى الشّجر لم يكن بمثابة الدّليل المعصوم عن
الخطأ الذي أملوا أن يكونه، ففي البُحيرة جُزر ملأى بالأدغال، وعلى البرّ
مساحات شاسعة تخلو تماماً من الأشجار.

مضت الإلكة حيثما تشاء بصرف النّظر عمّا تُريده ميرا وچوچن الرّاكبان
على ظهرها، وقد ظلّت أغلب الوقت تحت الأشجار، ولكن أينما ينحني
السّاطي غرباً أخذت الطّريق الأكثر مباشرةً عبر البُحيرة المتجمّدة، وتخوض
بين أكوام من الثلوج أطول من بران فيتشقق الجليد تحت حوافرها. على
صفحة البُحيرة الرّيح أقوى، ريح شماليّة باردة تهبّ عاويةً وتنفذ كالسّكاكين
مما يرتدونه من صوفيّ وجلد وتثير فيهم جميعاً الرّجفة، وحين تضربهم في
وجوههم تقذف الثلج في أعينهم وتترُكهم كالعُميان.

مرّت ساعات من الصّمت، وأمامهم بدأت الظّلال تتسلّل من بين
الأشجار، أصابع الغسق الطّويلة. يحلّ الظّلام مبكّراً في هذه الأصقاع البعيدة
في الشّمال، وقد أمسى بران يخشى هذا، فكلّ نهارٍ يبدو أقصر من سابقه،
ومتى كان النّهار بارداً أتى اللّيل أقسى برودةً.

أوقفَهم ميرا ثانيةً، وبنبرةٍ مكبوتةٍ غريبةٍ قالت: «المفترض أن نكون قد بلغنا القرية بالفعل».

تساءلَ بران: «هل تجاوزناها؟».

- «لا أتمنى ذلك. يجب أن نجد مأوىً قبل حلول الليل».

ليست مخطئةً، فشفنا چوچن مزرقتان، ووجنتا ميرا حُمرتها قاتمة، ووجه بران أصابه الخدر، ولحية هودور تجمّدت تمامًا وغلف الثلج ساقه حتى الركبتين تقريبًا، وشعر به بران يترنّح أكثر من مرّة. لا أحد أشد بأسًا من هودور، لا أحد، فإذا كانت قواه الهائلة تخور...

- «سمر يستطيع العثور على القرية»، قال بران فجأةً لتُغشي كلماته الهواء، ولم ينتظر أن يسمع ما ستقوله ميرا، بل أطبق جفنيه وترك نفسه ينساب من جسده المكسور.

تلبّس الصّبي سمر لتدبّ الحياة بغتةً في الغابة الميتة. من قبل ساد الصّمت، لكنه الآن يسمع، يسمع الرّيح بين الأشجار، وأنفاس هودور، والإلكة تحفّر في الأرض بسُنّبكها باحثّة عن طعام. أفعمت الرّوائح المألوفة منخرية، الأوراق المبتلة والكأ الميت، وجثة سنجاب تتعفن تحت الشّجيرات، وعرق البّشر الكريه، ورائحة الإلكة الزّنخة. طعام، لحم. شعرت الإلكة بانتباهه إليها، فالتفتت برأسها نحو الدّئب الرّهب بحذر، وخفضت قرونها العظيمة. وهمس الصّبي للحيوان التي يُشاركه جسمه: ليست فريسةً. دعك منها، اركض.

وركض سمر، اندفع عبر البحيرة نائراً الثلج بكفوفه، وقد وقفت الأشجار متكاتفّة كالجنود على خطّ القتال، كلها يرتدي المعاطف البيضاء. فوق الجذور والصّخور انطلق الدّئب الرّهب، واخترق كومة قديمة من الثلج سامعاً قشرة الجليد تشقّق تحت وزنه، وابتلت كفوفه وبدأ يحسّ فيها بالبرد. كان التّل التّالي مغطّى بأشجار الصّنوبر، وقد ملأت رائحة إبرها الحادة الهواء، ولمّا بلغ القمّة دارّ حول نفسه متشمّمًا، ثم رفع رأسه يعوي.

الرّائحة موجودة، رائحة الإنسان.

رماد، رائحته قديمة خافتة، لكنه رماد. إنها رائحة الحطب المحروق والسّناج والفحم، نار هامة.

نفضَ الثلج عن خطمه. كانت الرِّيح تهبُّ، وهو ما جعلَ اقتفاءَ الرِّوائح عسيرًا. تَلَفَّت الذُّب في هذا الاتِّجاه وذاك يتشمَّم، وفي كلِّ جهةٍ حوله أكوام الثلوج والشَّجر الطَّويل الملتحف بالأبيض. تركَ لسانه يتدلَّى من بين أسنانه متذوِّقًا الهواء البارد، تَخْرُجُ أنفاسه في سحاباتٍ دافئةٍ فيما تذوب رقائق الثلج على لسانه، وعندما هرو ل صوب الرَّايحة تحرَّك هودور في أعقابهِ بخطى ثقيلة متعبة من فوره، في حين استغرقت الإلكة وقتًا أطول في اتِّخاذ قرارها، وهو ما دفعَ بران إلى العودة إلى جسده على مضضٍ ليقول: «من هنا. اتبعني سمر. لقد شممتُ القرية».

أخيرًا دخلوا القرية المطلَّة على البُحيرة مع بروز أول شظيَّةٍ من الهلال من بين الشُّحب. لقد كادوا يعبرون من داخلها مباشرةً دون أن يتبهوا، فمن على الجليد لا تبدو القرية مختلفةً بأيِّ شكل عن غيرها من البقاع الأخرى على الشَّاطئ، وكان يُمكن بسهولةٍ أن يحسبوا المنازل الحجرية المستديرة المدفونة بأكوام الثلج جلاميد أو روابي صغيرةٍ أو جذوعًا ساقطةً، مثل الكومة التي حسبها چوچن مبنى قبل يوم، إلى أن نَقَبُوا فيها ولم يجدوا إلا الفروع المكسورة والجذوع المتعفُّنة.

كانت القرية خاليةً، نزعَ عنها الهمج الذين سكنوها من قبل ككلِّ القرى الأخرى التي مرُّوا بها. بعضها وجدوه محترقًا، كأن أهالي تلك القرى أرادوا أن يضمنوا عدم قُدرتهم على العودة لاحقًا، وإن نَجَّت هذه القرية من النَّار. تحت الثلج وجدوا دسَّة من الأكواخ وقاعةً طويلةً سقفها من النَّجيل وجُدرانها السِّميكة من الخشب الخام.

قال بران: «على الأقل لن نتعرَّض إلى الرِّيح».

قال هودور: «هودور».

ترجَّلت ميرا عن ظهر الإلكة، ثم تعاونت مع أخيها على رفع بران من سلَّته الخيزران، وقالت: «ربما ترك الهمج القليل من الطَّعام».

لكن اتَّضح أن أملها زائف. داخل القاعة الطَّويلة وجدوا رماد نار وأرضيَّة من التُّربة الصُّلبة وبردًا يتخَّر العظم، لكن هناك على الأقل سقفاً فوق رؤوسهم وجُدرانًا تقيهم من الرِّيح. على مقربةٍ يسري جدول مغطَّى بطبقة رقيقة من

الجليد، وقد كسرتها الإلكة بحافرها كي تشرب، وما إن استقرَّ بران وچوچن وهودور جلبت لهم ميرا قطعاً من الجليد المكسور يمتصونها، ولمّا ذاب جعلت برودة الماء الفارسة بران يرتجف.

لم يتبعهم سمر إلى داخل القاعة الطويلة. أحسَّ بران بجوع الذئب الكبير كظلِّ لجوعه، فقال له: «اذهب للصَّيد، لكن دَعِ الإلكة وشأنها». جزء منه كان يتمنى الذَّهاب للصَّيد أيضاً، وقد يفعل هذا في ما بعد.

كان العشاء حفتةً من جوز البلوط المسحوق والمطحون حتى أصبح عجيناً، مذاقه شديد المرارة لدرجة أن بران كاد يتقيأ وهو يُحاول ابتلاعه، أمّا چوچن ريد فأحجم عن أكله. إنه أصغر سنّاً وأضعف من أخته، وكلُّ يومٍ يزداد وهناً.

قالت له ميرا: «يجب أن تأكل يا چوچن».

ردّاً أخوها: «في ما بعد. أريد أن أستريح فقط»، وأضاف بابتسامةٍ شاحبة:

«اليوم ليس يوم مماتي يا أختاه، أعدك».

- «كدت تسقط من فوق الإلكة».

- «كدت. إنني بردان وجائع، هذا كلُّ شيء».

- «كلِّ إذن».

- «جوز البلوط المسحوق؟ بطني يؤلمني، لكن ذلك سيُزيد الألم. دعيني

لحالي يا أختاه. إنني أحلمُ بالدجاج المشوي».

- «الأحلام لن تُغذِّيك، ولا حتى الأحلام الخضراء».

- «الأحلام كل ما لدينا».

كلُّ ما لدينا. آخر ما أتوا به من زادٍ من الجنوب نفذَ قبل عشرة أيام، ومنذ

ذلك الحين يُرافقهم الجوع في سفرهم ليلٍ نهار، وحتى سمر لم يعثر على

فرائس في هذه الغابة، والآن يقتاتون بجوز البلوط المسحوق والسَّمك النيء.

الغابة ملأى بالجداول المتجمّدة والبحيرات السوداء الباردة، وميرا تبرع في

الصَّيد بواسطة رُمح الضَّفادع ثلاثي الشُّعب كما يبرع أكثر الرِّجال في الصَّيد

بالصَّنارة، وأحياناً تعود إليهم بشفتين مزرقّتين من البرد حاملةً سمكةً تتلوَّى

على رُمحها، إلّا أن ثلاثة أيام مرّت منذ استطاعت أن تصطاد واحدة، والآن

يحسُّ بران بخواءٍ بالغ في معدته كأن ما مرَّ ثلاثة أعوام.

بعد أن ابتلعوا عشاءهم الزهيد بصعوبة جلست ميرا مسندة ظهرها إلى حائطٍ وراحت تشخذ خنجرها، فيما ألقى هودور إلى جوار الباب وأخذ يتأرجح إلى الأمام والخلف على عجيزته ويغمغم: «هودور، هودور، هودور».

أغلق بران عينيه. البرد أشد من أن يتكلموا، كما أنهم لا يجروون على إشعال نار، إذ حذرهم ذو اليمين الباردين من ذلك قائلاً: «هذه الغابة ليست خالية كما تحسبون، ولستم تعلمون ما قد يجتلبه النور من الظلام». جعلته الذكرى يرتعش على الرغم من دفء هودور المجاور له.

رفض النوم أن يأتي، وما كان يمكن أن يأتي، وبدلاً منه كانت الريح والبرد القارس ونور القمر على الثلج... والنار. لقد عاد إلى داخل سمر على بُعد فراسخ عديدة، واللبليل يعقب برائحة الدم القويّة. فرانس، وليست بعيدة. سيكون اللحم دافئاً. سأل اللعاب من بين أسنانه إذ استيقظ الجوع في أحشائه. ليست إلكة، ليست غزاً، ليست هذه.

تحرك الذئب الرهيب صوب اللحم، ظل رماديّ هزيل ينسل من شجرة إلى أخرى عبر برك من نور القمر وفوق تباب الثلج. هبت الريح حوله مبدلة اتجاهها، ففقد الرائحة ثم عثر عليها قبل أن يفقدها من جديد، وبينما يبحث عنها مرّة أخرى جعله صوت بعيد يرهف أذنيه.

علم في الحال أنه صوت ذئب، وقد تقدّم سمر نحوه بحذر الآن، وسرعان ما عادت رائحة الدم، وإن اختلطت بها روائح أخرى هذه المرّة، روائح بول وجلود ميتة وخراء طيور وريش، وذئب، وذئب، وذئب. قطع. عليه أن يقايل من أجل الظفر بلحمه هذا.

الذئاب أيضاً شعرت بوجوده، وراقبتّه إذ خرج من ظلّمة الأشجار إلى الأرض الفضاء الدامية. كانت الأنثى تلوك فردة حذاء جلد ما زال فيها نصف ساق، لكنها تركتها تسقط مع اقترابه، أمّا قائد القطيع، وهو ذكر عجوز له خطم أبيض وعين عمياء، فقد تقدّم يقابله مزمجراً وكاشفاً أسنانه، ووراءه كشر ذكر أصغر عن أنيابه هو الآخر.

تشرّبت عينا الذئب الرهيب الصّفراوان الباهتتان المناظر المحيطة، من المصارين الملتقّة على شجيرة، إلى البخار المتصاعد من بطن مبقور حاملاً

رائحة الدَّم واللَّحْم الغنيَّة، إلى رأسٍ يُحدِّق بلا بصيرٍ إلى القمر الهلال وقد مُزِّتَ الوجنتان حتى العظم وصارت العينان حُفرتين غائرتين وانتهى العُنُق بجَدعة مهترئة.

إلى بركة من الدَّماء المتجمِّدة تلمع بالأسود والأحمر.

بَسْر. ملأت رائحتهم الزَّنخة العالم. في حياتهم كانوا بعدد أصابع كفِّ الإنسان، لكنهم الآن صِفر. ماتوا، انتهوا، لحم. من قبل كانوا يرتدون المعاطف والقطنسوات، لكن الذُّباب مَزَّت ثيابهم إربًا إربًا في هياجها سعيًا إلى اللَّحْم، ومن لا تزال لهم وجوه يُعطي لحاهم الجليد والمُخاط المتجمِّد، وقد بدأ الثلج المتساقط يدفن ما تبقى منهم، يبدو في غاية الشُّحوب مقارنةً بسواد معاطفهم وسراويلهم الرثة. أسود.

وعلى بُعد فراسخ عديدة تململ الصَّبي باضطراب.

أسود، حرس الليل، كانوا من حرس الليل.

على أن الذُّبب الرَّهيب لم يُبال. إنه لحم، وهو جائع.

برقت أعين الذُّباب الثلاثة بالأصفر، وطوح الذُّبب الرَّهيب رأسه من جانب إلى جانب بمنخرين اتسعا، ثم كثر عن أنيابه زائمًا. تراجع الذِّكر الأصغر، وشمَّ الذُّبب الرَّهيب رائحة الخوف فيه. الذِّيل. لكن الذُّبب الأعور أجابه بزمجرة وتقدَّم يصدُّ تقدُّمه. الرأس، ولا يخشاني مع أنني في ضِعفي حجمه.

التقت أعينهما.

وانزع!

ثم انقضَّ الاثنان، الذُّبب والذُّبب الرَّهيب، ولم يعد هناك وقت للتفكير. اختصَّ العالم في الأسنان والمخالب والثلج المتطاير حولهما وهما يتدحرجان ويدوران ويحاول كلاهما نهش الآخر، في حين راح الذُّبان المتبقَّيان يزومان ويؤمجران حولهما. انغلق فكاه على فروٍ أشعث جعله الصَّقيع زلقًا، وعلى قائمة رفيعة كعصا جافة، لكن الذُّبب الأعور خمس بطنه وحرَّ نفسه، ثم تدحرج وعاد ينقضُّ. انغلقَت أنياب صفراء حول عنقه، لكنه نفص ابن عمومته الأشهب العجوز عنه كأنما ينفص جردًا، ثم انقضَّ

عليه وأسقطه. بين دحرجة وعض وركل تقاطلا، إلى أن تقطعت أنفاسهما وتساقت الدماء على الثلج حولهما، لكن في النهاية استلقى الذئب الأعمى العجوز وكشف بطنه، فنهش الذئب الرهيب الهواء في وجهه مرتين، ثم تشمّم مؤخرته ورفع ساقاً فوقه.

وبعد بضع نهشاتٍ وزمجرة إنذار رضخت الأنثى والذئب بدورهما، وأصبح القطيع له.

والفرائس أيضاً. تنقل من رجل إلى رجل يتشمّم قبل أن يستقرّ على أكبرهم حجماً، شيء بلا وجه يقبض بيده على قطعة من الحديد الأسود، وقد غابت يده الأخرى المقطوعة عند المعصم وربطت جذعتها بالجلد. من الشق في حلقه سأل الدم ثخيناً ثقيلًا، وراح الذئب يلغ فيه بلسانه، ولعق خراب الأنف والوجنتين في الوجه الذي ما عادت له عينان، قبل أن يدفن خطمه في العنق ويمزّقه ويزرد قطعة من اللحم الجميل، لحم لم يدق في حلاوته مثيلاً.

حين فرغ من هذه انتقل إلى جثة الرجل التالي والتهم أفضل القطع منها، ومن فوق الأشجار راقبته الغدبان الجائمة بصمتٍ وأعين سوداء على الفروع والثلج يسقط من حولها. تدبّرت الذئاب الأخرى أمرها بفصالتها، فأكل الذئب العجوز أولاً، ثم الأنثى، ثم الذئب. إنهم له الآن، إنهم قطيعه.

همس الصبي: لا، إن لنا قطيعاً آخر. ليدي ماتت، وربما جراي ويند أيضاً،

لكن في مكان ما شاجيدوج ونايميريا وجوست أحياء. هل تذكر جوست؟ بدأت الثلوج والذئاب ووليمتها تبهت، وضرب الدفء وجهه باثاً فيه الراحة كقبلات أم. نار، دخان. اختلج أنفه على إثر رائحة اللحم المشوي التي ملأته، ثم انسحبت الغابة ووجد نفسه في القاعة الطويلة من جديد، في جسده المكسور ينظر إلى نارٍ مشتعلة. كانت ميرا ريد تدور قطعة من اللحم الأحمر النّيء فوق لهبٍ يسفحها فتطّطق، وقد خاطبته قائلة: «في الوقت المناسب». فرك بران عينيه بكعب يده وزحف إلى الوراء ليجلس مستنداً إلى الحائط، وأردفت هي: «كاذب العشاء يفوتك وأنت نائم. الجوّال وجد خنزيرة».

وراءها رأى هودور يلتهم بنهم قطعة من اللحم الساخن والدم والدهن يسيلان ليتخلّلا لحيته، وقد تصاعدت خيوط من الدخان من بين أصابعه،

وبين كل قضمة وقضمة يمتيم: «هودور، هودور، هودور»، وإلى جواره كان سيفه موضوعاً على الأرض الترابية، أما چوچن ريد فأكل قطعة ببطء قضمة قضمة، يمضغ كل واحدة مراراً قبل أن يتلعها.

الجوال قتل خنزيراً. كان ذو اليدين الباردتين واقفاً عند الباب بغدافٍ على ذراعه وكلاهما ينظر إلى النار، واللهب منعكس في أربع أعين سوداء. قال بران لنفسه متذكراً: إنه لا يأكل، ويهباب النار.
قال للجوال: «قلت لا نار».

- «الجدران المحيطة بنا تخفي الضوء، والفجر دان. سنواصل طريقنا قريباً».

- «ماذا حدث للرجال؟ للأعداء الذين كانوا وراءنا؟».

- «لن يُزعجوكم».

- «من كانوا؟ همجاً؟».

قلبت ميرو اللحم لتشوي الجانب الآخر، وانشغل هودور بالمضغ والابتلاع والتتممة السعيدة الخفيفة. وحده چوچن بدا متبهاً لما يحدث إذ التفت ذو اليدين الباردتين برأسه يرمق بران قائلاً: «كانوا أعداء».

كانوا رجالاً من حرس الليل. «لقد قتلتم، أنت والغدبان. كانت وجوههم ممزقة وأعينهم مفقوة». لم يُنكر ذو اليدين الباردتين، فتابع بران: «كانوا إخوة». لقد رأيتهم. الذئاب مزقت ثيابهم لكنني استطعت تمييزها. كانت معافطهم سوداء كيديك». لم يقل ذو اليدين الباردتين شيئاً، فسأله بران بالحاح: «من أنت؟ ما سبب اسوداد يديك؟».

أمعن الجوال النظر إلى يديه كأنه لم يرها من قبل، ثم أجاب بصوت أجش، مثله رفيع هزيل: «ما إن يكف القلب عن الخفقان تندفق دماء المرء إلى أطرافه حيث تتخثر وتتجمد، وتتورم يده وقدماه وتسودان كالعجين، أما بقيته فتصير بيضاء كالحليب».

نهضت ميرو ريد رافعةً رُمحها الذي ما زالت قطعة من اللحم الدّاخن مغروسةً فيه، وقالت: «أرنا وجهك».
لكن الجوال لم يتحرك قيد شعرة.

قال بران متذوّقًا المرّة في حلّقه: «إنه ميت. ميراء، إنه شيء ميت ما. الوحوش لا تستطيع المرور ما دأَمَ (الجِدَار) قائمًا ورجال حرس اللّيل مخلصين. هذا ما اعتادت العجوز نان قوله. لقد أتى يُقابلنا عند (الجِدَار)، لكنه لم يستطيع المرور، ولذا أرسلَ سام وتلك الفتاة الهمجيّة». أحكمتَ ميراء قبضتها حول قناة الرُمح، وسألتَ الجوّال: «مَن أرسلَكَ؟ من هذا الغُراب ذو الأعين الثّلاث؟». - «صديق، حالم، ساحر، يُمكنكم تسميته كما شئتم. إنه آخر الأنبياء الخُضر».

انفتحَ باب القاعة الطويلة الخشبي بعُنف، وبالخارج عوتَ ريح اللّيل الكثيية السّوداء. كانت الأشجار تعجُّ بالغدّان الصّارخة، ولم يتحرّك ذو اليبدين الباردتين. قال بران: «وحش».

نظرَ الجوّال إلى بران كأنما ليس للأخرين وجود، وردّ: «وحشك أنت يا براندون ستارك».

ردّد الغدّاف من فوق كتفه: «وحشك!»، وخارج الباب تلقت الغدّان الجاثمة على الأشجار الكلمة، حتى ردّدت غابة اللّيل كلّها صيحة السّرب: «وحشك، وحشك، وحشك!».

سألتَ ميراء أخاها: «چوچن، هل حلمت بهذا؟ مَن هو؟ ماذا يكون؟ ماذا نفعل الآن؟».

أجابها چوچن: «نذهب مع الجوّال. لقد قطعنا شوطًا أطول من أن نرجع الآن يا ميراء. لن نستطيع العودة إلى (الجِدَار) أحياء أبدًا. إمّا أن نذهب مع وحش بران وإمّا أن نموت».



تيريون

غادَروا (پنتوس) من (بَوَّابة المشرق)، ولو أن تيريون لانستر لم يُبصر الشمس تُشرق.

داخل الهودج أكَّد له الماچستر إليريو وهو يُغلق السَّائِر المخلمل الأرجوانيَّة: «كأنك لم تكن في (پنتوس) البتَّة يا صديقي الصَّغير. يجب ألا يراك أحد تخرُج من المدينة مثلما لم يرك أحد تدخُلها».

- «لا أحد باستثناء البحَّارة الذين حَسروني في البرميل، وعامل القمره الذي كان يُنظِّف ورائي، والفتاة التي أرسلتها تدفِّع فراشي، وتلك الغسَّالة الواشية ذات النَّمس. أوه، وحُرَّاسك. ما لم تكن استأصلت عقولهم مع حُصاهم فإنهم يعرفون أنك لست بمفردك هنا». كان الهودج معلقًا على أحزمة جلدية ثقيلة بين ثمانية خيول جرِّ عملاقة، ويمشي أربعة من المخصَّيين إلى جوار الخيول زوجين على كل جانب، ووراءهم يتقدَّم المزيد من حُرَّاس الأمتعة والمؤن.

قال له إليريو مُطمئنًا: «المُطهَّرون لا يُفشون الأسرار، والقادس⁽¹⁾ الذي أوصلك في طريقه الآن إلى (أشاي) ولن يعود قبل عامين، هذا إذا ترفقت به البحار. أمَّا أهل بيتي فيحبُّونني حبًّا جمًّا، لا يُمكن أن يخونني أحدهم».

عليك الاعتزاز بهذه الفكرة يا صديقي البدين. ذات يوم سيَتفَشون هذه الكلمات على قبرك. قال القزم: «حريُّ بنا أن نكون على متن ذلك القادس. البحر أسرع الطرق إلى (فولانتيس)».

(1) القادس نوع من السُّفن المزوَّدة بمجاديف، يتميَّز ببدنه الطويل الرِّفيع، والقُدرة على الملاحة في الظروف غير المواتية، واستُخدِم في الحرب والتَّجارة والقرصنة. (المترجم).

ردَّ إليريو: «البحر خطِر. الخريف فصل زاخر بالعواصف، وما زال القراصنة يتخذون أوكارهم في (الأعتاب) ويقدمون على نهب الشرفاء. لن يصلح أبداً أن يقع صديقي الصَّغير في براثن أمثالهم».

- «في (الروين) أيضاً قراصنة».

قال تاجر الجُبنة: «قراصنة نهريُّون»، وتئاب مغطياً فمه بمؤخرة يده، ثم أضاف: «ربابنة صراصير يسعون وراء الفتات».

- «المرء يسمع كلاماً عن المتحجِّرين أيضاً».

- «إنهم حقيقيُّون، كائنات تعسة مسكينة حقاً. لكن لِمَ نتكلَّم عن تلك الأشياء؟ اليوم أجمل من أن نخوض حديثاً كهذا. قريباً سنرى (الروين) وتتخلَّص من إليريو وبطنه الكبير، وحتى ذلك الحين دعنا نشرب ونحلِّم. إن معنا خموراً حلوةً وأطعمةً شهيةً نستمتع بها، فلم نُفكِّر في المرض والموت؟».

لِمَ حقاً؟ مرَّةً أخرى سمعَ تيريون صوت النشائيةِ الوتريِ وطفقَ يتساءل. من جانب إلى جانب تمايل الهودج، حركته مهدئة ملطقة تُشعره كأن أمه تُهدِّده بين ذراعيها ليُغيب في النوم. رغم أني لم أختبر ذلك الشعور بنفسِي قط. تحت مؤخرته وسائد من الحرير محشوة بريش الإوز، وفوق رأسه تنحني الجُدران المخمل الأرجوانية لتلتقي معاً صانعةً سقفاً وجاعلةً الجوّ في الدّاخل دافئاً سارّاً على الرغم من برودة الخريف في الخارج.

وراءهما تمضي قافلة من البغال حاملة الصناديق والأقفاص والبراميل، وسلالاً كبيرةً معبأةً بأطايب الطَّعام للحيلولة دون معاناة سيّد الأجان الجوع. في ذلك الصُّباح أكلا السُّجق المتبَّل وشرباً نبيذ التُّوت الدُّخاني⁽¹⁾ البني الدّاكن، وبعَد الظَّهر ملأت ثعابين الماء المطبوخة في الهُلام والخمور الدوريةِ الحمراء بطنيهما، وعند حلول المساء تناولا شرائح لحم الخنزير والبيض المسلوق وطيور القُبرة المحشوة بالثوم والبصل مع أصنافٍ من المِزر الباهت والنبيذ المايري النَّاري تُساعدهما على الهضم. لكن لئن كان الهودج مريحاً فهو بطيء الحركة أيضاً، وسرعان ما وجد القزم نفسه يتملِّم بصبر نافذ.

تلك اللَّيلة سأل إليريو: «كم يوماً حتى نبلِّغ النهر؟ بهذه السُّرعة ستكون تنانين ملكتك أكبر من تنانين إجون الثلاثة قبل أن يقع بصري عليها».

(1) التُّوت الدُّخاني فصيلة من التُّوت من خيال المؤلِّف. (المترجم).

قال الماجستير: «ليت ذلك ممكناً. التئین الكبير أشدُّ هيبَةً من تئین صغیر»، وهزّ كتفيه متابعًا: «كان من دواعي سروري البالغ أن أستقبل الملكة دنيرس في (فولانتيس) بنفسی، لكن عليّ أن أعتد عليك وعلى جريف في هذا الصدد. وأنا في (پنتوس) أستطيع أن أقدم لها أفضل عون، أمهد الطريق لعودتها. لكن ما دمت معك... يجب أن يحظي رجل عجوز بدين مثلي بسبب الراحة، أليس كذلك؟ هلم، اشرب كوبًا من النبيذ».

قال تيريون وهو يشرب: «أخبرني، لماذا يُبالي ماجستير من (پنتوس) بمن يعتمر التاج في (وستروس)؟ أين مكسبك من هذه المغامرة يا سيدي؟». مسح الرجل البدين الدهن عن شفتيه مجيبًا: «إنني عجوز تعب من هذا العالم وخياناته. أمن الغريب حقًا أن أرغب في فعل القليل من الخير قبل وفاتي؟ أن أساعد فتاة صغيرة طيبة علي استرداد حقها بالميلاد؟». ينقّص أن تقدّم لي بزة مدرعة سحرية وقصرًا في (فاليريا). «إذا لم تكن دنيرس أكثر من فتاة صغيرة طيبة فسيُمرّقها العرش الحديدي أشلاء صغيرة طيبة».

- «لا تخف يا صديقي الصغیر. إن دماء إجون التئین تجري في عروقها». وكذا دماء إجون غير الجدير وميجور المتوحّش ويبلور التائه. «احك لي المزيد عنها».

فكر الرجل البدين مليًا قبل أن يجيب: «كانت دنيرس طفلة صغيرة حين أتتني، ولكن أجمل من زوجتي الثانية ذاتها، رائعة الجمال لدرجة أن نفسي سوّلت لي أن أخذها لي، إلا أنها كانت صغيرة خائفة خجولًا، وعلمت أنني لن أجد مسرة في جماعها، فبدلاً من ذلك استدعيت خادمة فراش وضاجعتها بقوة إلى أن انقضت نوبة الجنون. الحقيقة أنني لم أتصوّر أن دنيرس ستبقى حيةً طويلاً وسط سادة الخيول».

- «لكن هذا لم يمنعك من بيعها للگال دروجو...».

- «الدوثرافي لا يبيعون أو يشترون. قُل بالأحرى إن أحاها فسيرس أعطها لدروجو كي يربح صداقته. كان شابًا مغرورًا طمّاعًا. لقد اشتهي فسيرس عرش أبيه، لكنه اشتهي دنيرس أيضًا، وكره أن يتخلّى عنها. في الليلة السابقة لزفاف الأميرة حاول التسلل إلي مخدعها مصرًا أنه إذا لم يستطيع أن ينال يدها فسيقتل بكارتها، ولولا أنني اتّخذت الحيلة ووضعت حراسة علي بابها لأفشل فسيرس أعوامًا من التخطيط».

- «يبدو كأحمق كبير».

قال الماچستر: «فيسرس كان ابن أبيه إيرس المجنون، بالصَّبْط. أمَّا دنيرس... دنيرس مختلفة تمامًا»، وألقى طائر قُبْرَة مشويًا في فمه ومضغه بعظمه بصوت مزعج، ثم أردف: «الفتاة الخائفة التي لجأت إلى ضيعتي ماتت في (بحر الدوثرافي) ووُلِدَت من جديد باللَّم والنَّار. ملكة التَّنانين التي تحمل اسمها ابنة حقة لعائلة تارجارين. عندما أرسلتُ إليها سُفْنًا تأخذها إلى الوطن أتَّجَهت بدلًا من ذلك إلى (خليج النَّحاسين)، وخلال مُدَّة قصيرة غزت (أستاپور) وأخضعت (يونكاي) واستولت على (ميرين). سيأتي دور (مانتاريس) إذا استمرت في الزحف غربًا على الطُّرق المُاليريَّة القديمة، وإذا جاءت بحرًا... فلا بُدَّ من أن يُحمَّل أسطولها الطَّعام والماء من (فولانتيس)». علق تيريون: «برًا أو بحرًا، بين (ميرين) و(فولانتيس) فراسخ طويلة».

- «خمسمئة وخمسون بسرعة طيران التنين، عبر صحارى وجبالٍ ومستنقعاتٍ وأطلالٍ تسكنها الشياطين. سيموت كثيرون، لكن النَّاجين سيكونون أقوى لدى وصولهم إلى (فولانتيس)... حيث سيجدونك وجريف في انتظارهم بقوَّاتٍ نشيطة وسُفنٍ تكفي لحملكم جميعًا عبر البحر إلى (ستروس)».

تأمل تيريون في ما يعرفه عن (فولانتيس)، أقدم المُدن الحُرَّة التسع وأفخرها. شيء ما لا يُريح هنا، وحتى بنصف أنفٍ بإمكانه أن يشمه. قال: «يُقال إن لكل رجلٍ حُر خمسة عبيد في (فولانتيس). لماذا يُعين القناصل الثلاثة ملكة حطمت تجارة العبيد؟»، وأشار إلى إيريو متابعًا: «وبهذه المناسبة، لماذا تُعينها أنت؟ قد تكون النَّحاسة محرَّمة في (پنتوس) بالقانون، لكن لك إصبعًا في تلك التَّجارة أيضًا، بل وربما يد كاملة، ومع ذلك تتأمَّر وتُخطِّط لصالح ملكة التَّنانين وليس ضدها. لماذا؟ ما الذي تأمل أن تناله من الملكة دنيرس؟».

- «هل عدنا إلى ذلك الكلام؟ أنت رجل صغير لحوح»، وأطلق إيريو ضحكة ورَبَّت على بطنه قائلاً: «كما تُريد. الملك الشحاذ وعدتبعيني أمينًا للنَّقد، وبلورديَّة أيضًا. ما إن يعتمر تاجه الدَّهبي لكان لي أن أختار ما أريد من القلاع... حتى (كاسترلي روك) إذا شئت».

تنشق تيريون النيِّد بالجدعة المشوَّهة التي كانت أنفه، وقال: «كم كان أبي يحب أن يسمع هذا».

قال الرَّجُلُ البدين: «لم يكن عند السيّد والدك ما يدعو للقلق. لماذا أرغبُ في صخرة؟ إن ضيعتي كبيرة كفايةً لأيّ أحد، ومريحة أكثر من قلاعكم الوستروسيّة المملأى بتيّارات الهواء. أمّا منصب أمين التقدّ...»، وقسّر بيضه متابعًا: «إنني مغرم بالتقدّ. هل من صوتٍ أحلى من رنين الذهب؟».

صرخات أخت. «وهل أنت واثق بأن دنيرس ستفي بوعده أخيها؟». أجابَ إليريو: «ستفعل أو لن تفعل»، وقضمَ نصف البيضة مضيغًا: «كما أخبرتك يا صديقي الصّغير، ليس كل ما يفعله المرء في سبيل المكسب. صدّق ما تشاء، لكن حتى الحمقى العجائز السّمان أمثالي لهم أصدقاء، وعليهم ديون من العاطفة يُسدّدونها».

كاذب. في هذه المُغامرة شيء ما قيمته عندك أتمنّ من المال أو القلاع. «المرء يلتقي أناسًا قليلين للغاية يُعلون الصّداقة فوق الذهب هذه الأيام».

قال الرَّجُلُ البدين غافلًا عن السّخرية: «صحيح جدًّا».

- «كيف أصبح العنكبوت عزيزًا عليك لهذه الدرجة؟».

- «كنا صغيرين معًا، صبيّين أخضرين في (پتوس)».

- «فارس أتى من (مير)».

- «نعم، وقد التقيته بعد وصوله بفترة قصيرة سابقًا النّحاسين بخطوة. بالنّهار كان ينام في المجاري وبالليل يجوب أسطح المباني كالقطط. وقتها كنتُ أناهزه فقراء، مجرد مبارز برافو يرتدي الحرير المتسخ ويعيش بسلاحه. هل لاحظت التّمثال الواقف على مسيحي؟ لقد نحته باثو مالانون وأنا في السّادسة عشرة. شيء جميل، ولو أنني أبكي الآن حين أراه».

- «السّنُ تبطش بنا جميعًا. ما زلتُ أبكي أنفي عن نفسي. لكن فارس...».

- «في (مير) كان أميرًا بين اللصوص، إلى أن وشى به لصّ منافس، وفي (پتوس) دلّت عليه لهجته، وما إن عرّف أنه خصميّ احتقروه وضربوه. قد لا أعرفُ أبدًا لماذا اختارني لحمايته، لكننا توصلنا إلى اتّفاق. تلصّص فارس على اللصوص الأقل شأنًا وأخذَ مسروقاتهم، وعرضتُ أنا المساعدة عليّ ضحياهم ووعدهم باستعادة مقتنياتهم الثمينة مقابل أجر، وسرعان ما تعلم كل من عانى خسارة أن يأتيني، في حين سعى قُطاع طرق المدينة ونشالوها إلى فارس... نصفهم يبغى ذبحه والنّصف الآخر يبغى أن يبيعه ما معه من مسروقات، وهكذا أترى كلانا وازدادَ ثراءً عندما درّب فارس فئرانه».

- «في (كينجز لاندنج) كان عنده طير صغيرة».

- «كنا نسميهم الفئران في ذلك الحين. اللصوص الأكبر سنًا كانوا حمقى لا يُفكرون إلا في تحويل ما ينهبونه كل ليلة إلى نبيذ، أما فارس ففضل الصبية الأيتام والفتيات الصغيرات. اختار أصغرهم حجمًا، من يتمتعون بالسرعة والهدوء، وعلمهم تسلق الأسوار والتسلل من المداخل، وعلمهم القراءة أيضًا. تركنا الذهب والجواهر للصوص التقليديين، وبدلاً من ذلك سرقت فئراننا الرسائل والدفاتر والخرائط... ولاحقًا تعلمت قراءتها وتركها حيث هي. قال فارس إن الأسرار أضمن من الفضة والصفير، وهذا صحيح تمامًا. هكذا علا شأنني حتى وافق ابن عمّ لأمير (پنتوس) على زواجي بابنته العذراء، فيما عبرت همسات عن مواهب خصبي معين (البحر الضيق) وتناهت إلى مسامع ملك معين، ملك شديد القلق لا يثق بالكامل بابنه أو بزوجه أو بيده، يده الذي كان صديق شبابه قبل أن يُصيبه الغرور والغطرسة. أظنك تعرف بقية هذه الحكاية، أليس كذلك؟».

أجاب تيريون: «أعرف جزءًا كبيرًا منها. أرى الآن أنك أكثر بعض الشيء من مجرد تاجر جُبنة».

حنى إلبريو رأسه قائلاً: «لطف منك أن تقول هذا يا صديقي الصغير، ومن ناحيتي أرى أنك سريع البديهة كما زعم اللورد فارس بالضبط»، وابتسم مظهرًا أسنانه الصفراء المعوجة، وزعق طالبًا جرّة أخرى من النبيذ المايري الناري. حين غاب الماچستر في النوم محتضنًا جرّة النبيذ زحف تيريون فوق الوسائد ليحررها من سجنها اللحيم وصب لنفسه كأسًا. شرب وتشاءب ثم عاد يملأ الكأس مفكرًا: إذا شربت ما يكفي من النبيذ الناري فقد أحلم بالتنانين. وقت أن كان طفلًا وحيدًا في أعماق (كاسترلي روك) اعتاد ركوب التنانين كل ليلة تقريبًا، متظاهرًا بأنه أمير مفقود ما من آل تارجارين أو واحد من سادة التنانين الفاليريين يُحلق عاليًا فوق الحقول والجبال. ذات مرّة، عندما سأله أعمامه عن الهدية التي يُريدها بمناسبة يوم ميلاده، توسّل إليهم طالبًا تينًا، وقال: «لا يجب أن يكون كبيرًا. يُمكن أن يكون واحدًا صغيرًا مثلي»، فحسب عمّه جيريون أن هذا أطرف شيء سمعه على الإطلاق، غير أن عمّه تايجت قال: «التنين الأخير مات منذ قرنٍ أيها الصغير»، ولقد بدا هذا ظلمًا فادحًا للصبّي حتى إنه ظل يذرف الدمع حتى نام ليلتها.

لكن إذا صدق سيّد الأجبان فقد ظفرت ابنة الملك المجنون بثلاثة تنانين حية. أي باثنين أكثر مما يتطلبه أحد من عائلة تارجارين نفسها. يكاد تيريون يحسّ بالأسف لأنه قتل أباه. كان ليستمتع برؤية وجه اللورد تايوين حين يعلم أن ملكة من آل تارجارين في طريقها إلى (وستروس) بثلاثة تنانين، يدعمها خصميّ متآمر وتاجر جُبنة يبلغ نصف (كاسترلي روك) حجمًا.

كان القزم متخمًا بالطعام لدرجة أنه اضطرَّ إلى حلّ حزامه وأربطة سراويله العلوية. ثياب الصّبي التي ألبسه مضيفه إياها تجعله يشعُر كأنه عشرة أرطال من السُّجق محشوة في خمسة أرطال من الأمعاء. إذا ظللنا نأكل على هذا المنوال كل يوم سأبلغ حجم إليريو قبل أن ألتقي ملكة التّنانين. خارج الهودج حلّ الليل، ودّاخله سادّ الظلام. أصغى تيريون إلى غطيط إليريو وصرير الأحزمة الجلد وطققة حوافر الخيول المزوّدة بالحدوات الحديد على الطّريق الثّاليري الصّلب، أمّا قلبه فكان يُصغي إلى خفقات أجنحة جلدية.

وجد الفجر طالعا عندما استيقظ، والخيول تمضي في طريقها والهودج يصرُّ ويتأرجح بينها. أراح تيريون السّتار بوصة ليختلس نظرة إلى الخارج، وإن لم يرَ إلا القليل عدا حقول المُغرة⁽¹⁾ وشجر الدردار البني الأجرد علاوة على الطّريق نفسه، وهو طريق عمومي عريض من الحجر، يمتد مستقيماً كالحرية إلى الأفق.

كان قد قرأ عن تلك الطّرق الثّاليرية، لكنها المرّة الأولى التي يرى فيها واحداً. لقد بلغت هيمنة المعقل الحرّ (دراجونستون)، وإن لم تمتد إلى برّ (وستروس) نفسه قطّ. غريب هذا. (دراجونستون) ليست أكثر من صحرة. كانت الثروة تقع على مسافة أبعد في الغرب، لكنهم امتلكوا التّنانين، ومؤكّد أنهم علموا بوجودها.

ليلة البارحة أسرف كثيراً في الشّرب. كان رأسه يدقّ، وحتى أرجحة الهودج الهادئة كفيلة بإشعاره بالرغبة في القيء. لا بُدّ أن معاناته بدت جليّة لإليريو موپاتيس مع أنه لم يلفظ الشكوى، إذ قال له الرّجل البدين: «هلمّ، اشرب معي. حرشفة من التّنين الذي حرّقت كما يقولون»، وصبّ لهما من إبريق من نبيذ الثّوت الأسود، شديد الحلاوة حتى إنه يجذب الذباب أكثر من

(1) المُغرة حجر تُستخرج منه صبغة حمراء بيّنة مصفّرة. (المترجم).

العسل. ذبَّ تيريون الدُّباب بظَّهر يده وهو يشرب بنهم، وقد وجدَ المذاق كطيظًا للغاية لدرجة أنه بذلَ قصارى جهده كي لا يتقيأ ما شربه، وإن استطاع ابتلاع الكأس الثانية بسهولة أكثر، ومع ذلك لم يجد لديه شهيةً، ولَمَّا قَدَّم له إليريو وعاءً من الثَّوت الأسود بالقشدة لَوَّح بيده رافضًا، وقال: «حلمتُ بالملكة. كنتُ على رُكبتي أمامها أقسمُ لها على الولاء، لكنها حسبتني أخي چايمي وأطعمتني لتنانينها».

- «لنأمل أنه ليس حُلْمًا تنبؤيًا. أنتِ عَفریت ذكي كما قال فارس، ودينيرس ستحتاج إلي وجود الأذكياء حولها. السير باريستان فارس مخلص مقدم، لكن لا أظنُّ أن أحدًا وصفه بالمكر من قبل».

- «الفرسان يعرفون سبيلًا واحدًا لحل المشكلات، يُسدِّدون رماحهم ويهجمون، أمَّا الأقرام فينظرون إلى العالم بطريقةٍ مختلفة. لكن ماذا عنك؟ أنت رجل ذكي عن نفسك».

قال إليريو: «إنك تُطري عليّ»، ونفَضَ يده مضيغًا: «للأسف لست مخلوقًا للسفر، ولذا سأرسلك إلى دينيرس بدلًا مني. لقد أسديت إلى جلالتها صنيعًا عظيمًا عندما قتلت أباك، وأملي أن تُسدي إليها المزيد والمزيد من الصنائع. دينيرس ليست بالحمق الذي كانه أخواها، وستُحسِّن الانتفاع بك».

مبتسمًا ببشاشةٍ تساءل تيريون في قرارته: كشيء تُضرم فيه النار؟
يومها بدَّلوا الخيول ثلاث مرَّاتٍ فقط، وإن بدا أنهم يتوقفون مرَّتين على الأقل كل ساعةٍ كي ينزل إليريو من الهودج ويتبول، وهو ما حدا بالقزم إلى أن يقول لنفسه: سيِّد الأجبان في حجم الفيل لكن مئنته كحبة الفستق. خلال إحدى الوقفات استغلَّ الوقت في إلقاء نظرةٍ فاحصةٍ على الطريق. كان تيريون يعلم ما سيحده، ليس تربةً صلبةً ولا قرميدًا ولا حجارةٍ رصف، وإنما شريط من الحجارة الملحومة يرتفع نصف قدم عن الأرض ليُتيح لمياه المطر والثلوج الذائبة أن تسيل من على جانبيه. عليّ عكس الدروب الموحلة التي يعدونها طرُقًا في (الممالك السبع)، تتسع الطرق الفاليريَّة لثلاث عرباتٍ تسير جنبًا إلى جنب، ولم يُفسدها الزمن أو حركة المرور، فما زالت راسخةً لم تتغيَّر بعد أربعة قرونٍ كاملة منذ لاقَت (فاليريا) نفسها هلاكها. بحثَ عن شقوقٍ أو حُفرٍ لكنه لم يجد إلا كومةً من الرُّوث الدافئ أسقطها أحد الخيول. جعله الرُّوث يُفكِّر في السيِّد والده. هل أنت في جحيمٍ ما الآن يا أبي؟

جحيم لطيفة باردة تراني فيها من أسفل أساعد ابنة إيرس المجنون على ارتقاء العرش الحديدي؟

مع استئناف الرّحلة أخرج إليريو كيسًا من الكستناء المحمّصة وعاد يتكلّم عن ملكة التّنانين. «أخشى أن أحر الأخبار التي بلغتنا عن الملكة دنيرس قديمة، لكن علينا أن نفترض أنها غادرت (ميرين) بالفعل. إن معها جيشها أخيرًا، جيشًا مرّقًا من المرترقة والدوثر اكي سادة الخيول والمُشاة المُطهرين، ولا شك أنها ستقودهم غربًا لتستعيد عرش أبيها»، ثم فتح الماچستر إليريو جرّة من الحلزون بالثوم وتشمّمها وابتسم، ثم تابع وهو يمتصّ واحدًا من قوقعته: «يجب أن نأمل أن تجد أخبارًا جديدةً عن دنيرس في (فولانتيس). التّنانين والفتيات الصّغيرات كلتاها متغيّرة المزاج، وقد تحتاج إلى تعديل خُططك. جريف سيعرف ما يجب فعله. هل تُريد حلزونًا؟ الثوم من حدائقني».

يُمكنني أن أركب حلزونًا وأمضي أسرع من هودجك هذا. لوّح تيريون بيده رافضًا، وقال: «إنك تضع قدرًا بالغًا من الثّقة في هذا الرّجل جريف. أهو صديق طفولةٍ آخر؟».

أجاب إليريو: «لا. لك أن تقول إنه مرترق، لكنه وستروسي المولد. دنيرس محتاجة إلى أناس يليقون بقضيتها»، ورفّع يده مواصلاً: «أعرف! لا بدّ أنك تقول لنفسك الآن: المرترقة يضعون الذهب فوق الشرف. هذا الرّجل جريف سيبيعي لأختي. غير صحيح. إنني أثق بجريف كأنه أخي».

خطأ مميت آخر. «سأحذو حدوك إذن». - «في هذه اللّحظة تزحف الجماعة الذّهبيّة إلى (فولانتيس)، وهناك ستنتظر مجيء ملكتنا من الشّرق».

تحت الذهب الفولاذ الأليم. «سمعت أن الجماعة الذّهبيّة مرتبطة باتّفاق مع إحدى المُدن الحرّة».

ردّ إليريو متكلّفًا الابتسام: «(مير). الاتّفاقات قابلة للنّقص». قال تيريون: «في تجارة الأجبان مال أكثر مما حسبت. كيف حققت هذا؟».

هزّ الماچستر أصابعه السّمينه مجيبًا: «بعض العقود يُكتَب بالحبر وبعضها بالدم. لن أقول المزيد».

أعمل القزم فكره في ما سمعه. يُشاع أن الجماعة الذّهبيّة أفضل

الجماعات الحرّة كافّة، أسّسها قبل قرنٍ نغلٍ إجون غير الجدير الملقّب بالفولاذ الأليم. حين حاولَ واحد آخر من نغولٍ إجون المعظمين الاستيلاء على العرش الحديدي من أخيه الشرعي غير الشقيق انضمَّ الفولاذ الأليم إلى التمرّد، ثم ماتَ ديمون بلاكفاير في معركة حقل الكلاّ الأحمر ومات معه تمرّده، لكن أتباع التّنين الأسود النّاجين من المعركة الذين رفضوا الخضوع فرّوا عبر (البحر الضيّق)، وبينهم أبناء ديمون الأصغر والفولاذ الأليم ومئات من اللوردات والفرسان الذين خسروا أراضيهم وسرعان ما وجدوا أنفسهم مضطّرين إلى الارتزاق بسيوفهم كي يأكلوا. بعضهم التحقَ بجماعة الرّاية المهترئة، وبعضهم بالأبناء الثّانين أو رجال العذراء، أمّا الفولاذ الأليم فرأى قوّة عائلة بلاكفاير تتفرّق وتشتت في كلّ اتّجاه، ولذا كوّن الجماعة الذهبية ليشدّ وثاق المنفيين.

ومنذ ذلك الحين يعيش رجال الجماعة الذهبية ويموتون في (أراضي النزاع) في (إسوس)، يُقاتلون لحساب (مير) أو (ليس) أو (تايروش) في حروبها العقيمة ويحلّمون بالأرض التي فقدّها أسلافهم. إنهم منفيون وأبناء منفيين، محرومون من الأملاك والغفران... لكنهم مُحاربون مغاوير. قال تيريون لإليريو: «إنني معجب بقُدرك على الإقناع. كيف أقنعت رجال الجماعة الذهبية بمُناصرة قضية ملكتنا الطيّبة وقد قضاوا أكثر تاريخهم يُحاربون آل تارجارين؟».

ذَبَّ الماچستر الاحتجاج بيده كأنه ذُبابه قائلاً: «أسود أو أحمر، ما زالَ التّنين تنينًا. عندما ماتَ ميليز الوحش في (الأعتاب) كانت هذه نهاية ذكور عائلة بلاكفاير»، وابتسمَ تاجر الجُبنة من تحت لحيته المتشعّبة مردفًا: «ودنيسر ستمنح المنفيين ما لم يستطعه الفولاذ الأليم أو آل بلاكفاير قطّ، ستأخذهم إلى الوطن».

بالنّار والسيف. ضرب العودة إلى الوطن الذي يبتغيه تيريون أيضًا. «عشرة آلاف مُقاتل هديّة تليق بأميّة بالتأكيد. مؤكّد أن جلالتها مسرورة للغاية». أو مآً إليريو برأسه بتواضعٍ ليرتجّ ذقنه، وقال: «لا أتجرأ أبدًا على افتراض ما قد يسرُّ جلالتها».

يا للحصافتك. يعرف تيريون الكثير جدًّا عن امتنان الملوك، فلمَ قد تختلف الملكات؟

سرعان ما غابَ الماجستير في نوم عميق تاركًا تيريون وحده يُفكّر كاسف البال، يتساءل عن رأي باريستان سلمي في دخول المعركة إلى جانب الجماعة الذهبية. خلال حرب ملوك التسعة بنسات شقّ سلمي طريقه بين صفوفهم تفتيلًا حتى فتك بأخر المدّعين من آل بلاكفاير. التمرّذات تصنع أغرب الأَحلاف طرًّا، وما من أحدٍ أغرب من هذا البدين وأنا.

استيقظَ تاجر الحُبنة عندما توقّفوا لتبديل الخيول وأرسلَ يطلبُ سلّةَ طعام جديدة. «كم قطعنا؟»، سأله القزم وهما يحشوان أشداقهما بلحم الديوك البارد ومقبّل من الجزر والزبيب وقطع الليمون الأخضر والبرّ تقال.

- «هذه (أندالوس) يا صديقي، الأرض التي أتى منها أنداليوكم. لقد أخذوها من القوم المُشعرين الذين كانوا هنا قبلهم، أولاد عمومة قوم (إيب) المُشعرين. قلب مملكة هيو جور العتيقة يقع إلى الشمال، لكننا سنمرُّ من تُخومها الجنوبية. في (بنتوس) تُسمّى هذه الأنحاء (الأراضي المسطّحة)، وعلى مسافةٍ أبعد في الشرق تقع (تلال المخمل) التي نتّجه نحوها».

(أندالوس). تُعلّم العقيدة أن (السبعة) أنفسهم اعتادوا جوب تلال (أندالوس) في صورةٍ بشريّة ذات يوم. تلا تيريون من الذّاكرة قائلًا: «مدّ (الأب) يده في السّماوات وانتقى نجماتٍ سبعًا، وواحدةٌ تلو الأخرى وضعها على جبهة هيو جور ابن التّل ليصنع تاجًا برّاقًا».

رمقه الماجستير إلبريو بفضول، وقال: «لم أكن أتخيّل أن صديقي الصّغير متديّن هكذا».

هزّ القزم كتفيه مجيبًا: «إنه أثر باقٍ من صباي. كنتُ أعلمُ أنني لن أصير فارسًا، فقرّرتُ أن أصبح السّپتون الأعلى. التّاج البلّوري يُضيف قدمًا كاملاً إلى طول المرء. لقد درستُ الكُتب المقدّسة وصلّيتُ حتى غطّت رُكبتَي قشور الجروح، لكن مسعاي انتهى نهايةً مأساويّةً عندما بلغتُ سنًا معيّنَةً ووقعتُ في الحُب».

قال إلبريو: «فتاة؟ أعرفُ ما يحدثُ عندئذٍ»، ودسَّ يُمناه في كُمه الأيسر وأخرجَ مُدلاةً فضيّةً، في داخلها صورة مرسومة لامرأةٍ لها عينان زرقاوان كبيرتان وشعر ذهبي باهت موهووط بالفضي. «سيرًا. وجدتها في بيت هوى لايسيني وعدتُ بها إلى الديار لتُدفعُ فراشي، لكنني تزوّجتها في النهاية. أنا

الذي كانت زوجته الأولى ابنة عمومة لأمير (پنتوس). بعدها أُغْلِقَتْ بَوَابَةُ القصر في وجهي، لكنني لم أكرث. كان هذا ثمنًا زهيدًا لقاء سيرا». - «كيف ماتت؟». عرفَ تيريون أنها ميتة، فلا رجل يتحدث بهذا الولع عن امرأة هجرته.

- «قادمس تجاري براهوسي توقّف في (پنتوس) في طريق عودته من (بحر الیشب). كان (الكنز) يحمل القرنفل والزعفران والسبج والیشب والسّميت القرمزي والحريير الأخضر... والموت الرمادي. قتلنا البحارة لدى نزولهم إلى الشاطئ وأحرقنا السفينة في مرساها، لكن الجردان زحفت على المجاذيف وسبحت إلى الرّصيف بأقدامها الحجرية الباردة، وأتى الطّاعون على ألفي نسمة قبل أن يجري مجراه»، وأغلقَ الماچستر إلیريو المُدلاة مضيئًا: «إني محتفظ بيديها في غرفة نومي. كم كانت يداها ناعمتين...».

فكّر تيريون في تایشا وهو يُلقي نظرةً على الحقول في الخارج حيث كانت الآلهة تمشي في الماضي، وسأل: «ما الآلهة التي تخلق الجردان والطّاعون والأقزام؟». ثم إنه تذكرَ مقطعًا آخر من (النّجمة السّباعية) فردّده: «آتته (العدراء) بفتاة غضة كالصّفاص عيناها بركتان زرقاوان عميقتان، وأعلنَ هيو جور أنه سيّخذها عروسًا، فوهبت لها (الأم) الخصوبة، وتنبأت (العجوز) بأنها ستحمل للملك أربعةً وأربعين ابنًا قديرًا. في أذرُعهم بثّ (المُحارب) القوّة، ولكلّ منهم صاعُ (الحدّاد) بزةً من الحديد».

قال إلیريو مازحًا: «مؤكّد أن حدّادكم هذا كان روينيًا. لقد تعلّم الأنداليون فنّ صياغة الحديد من الروينار الذين كانوا يعيشون على النّهر. هذا معلوم». عقبَ تيريون: «ليس معلومًا لسيّتونانتا»، وأشار إلى الحقول متسائلًا: «مَنْ يَقطن بأراضيكم المسطّحة هذه؟».

- «فلاحون وكادحون مرتبطون بالأرض. هناك بساتين ومزارع ومناجم... بعضها ملكي، وإن كنتُ نادرًا ما أزورها. لماذا أفضي أيامي هنا ومباهج (پنتوس) العديدة في متناول اليد؟».

- «المباهج العديدة». والأسوار المنيعة الهائلة. دورَ تيريون نبينه في الكأس قائلًا: «إننا لم نر أيّ بلداتٍ منذ (پنتوس)».

قال إلیريو ملوِّحًا بساق دجاجةٍ نحو السّتائر: «ثمّة أطلال. سادة الخيول

يأتون إلى هذه الأنحاء متى عزم أحد الكالات على رؤية البحر. الدوثراكي لا يحبون البلدات، لا بُدَّ أنكم تعرفون هذا حتى في (وستروس).

- «داهموا واحدًا من تلك الكالات ودمروه وقد تجدون الدوثراكي يترددون في عبور (الروين)».

- «رشوة العدوُّ بالأطعمة والهدايا أرخص».

ليتني فكّرتُ في أخذ القليل من الجبنة معي إلى معركة (النهر الأسود)، لكنني محتفظًا الآن بأنفي كاملاً. لطالما احتقر اللورد تايوين المُدن الحُرّة، واعتاد أن يقول عن أهلها: إنهم يُحاربون بالمال بدلاً من السيِّف. للذهب فوائدُه، لكن الحروب تُربح بالحديد. قال تيريون: «أعطي العدوَّ ذهبًا وسيعود طالبًا المزيد، كما تعود أبي أن يقول».

سأله إلبريو: «أهو الأب عينه الذي قتلتَه؟»، وألقى عظمة الدجاج من الهودج متابعًا: «المرتزقة لا يصمّدون أمام الدوثراكي الصّارخين، وقد ثبت هذا في (كوهور)».

تساءل تيريون بتهمكُم: «ولا حتى رجلك الشجاع جريف؟».

- «جريف مختلف. إن له ابنًا يُغديق عليه بالحب. اسمه جريف الصّغير.

لم يعرف العالمُ فتىً أنبل منه قط».

البيد، والطعام، والشمس، وأرجحة الهودج، وطين الدُّباب، كلُّها تأمر على إشعار تيريون بالنعاس، وهكذا نام وصحا وشرب، وباراه إلبريو كأسًا بكأس، وإذا اصطبغت السماء بأرجوان الغسق تصاعد شخير الرّجل البدن.

ليلتها حلم تيريون لانستر بمعركة خضبت تلال (وستروس) بحمرة الدِّماء. كان في قلبها، يُعمل الموت بفأس تُضاهيه حجمًا، يُقاتل جنبًا إلى جنب باريستان الباسل والفولاذ الأليم فيما تدور في السماء من فوقهم تنانين. في الحلم كان له رأسان كلاهما مجدوع الأنف. قاد أبوه العدوَّ، فقتله من جديد، ثم قتل أخاه چايبي هاويًا بالضربات على وجهه إلى أن أحاله إلى خراب أحمر، يضحك كلما أصابت فأسه الهدف، وفقط حين وضعت المعركة أوزارها أدرك أن رأسه الثاني ينتحب.

عندما استيقظ أحسّ بساقيه ناقصتي النمو متبيستين كأنهما من حديد. كان إلبريو يأكل الزيتون، فسأله تيريون: «أين نحن؟».

- «لم نترك الأراضي المسطحة بعد يا صديقي المتعجّل. قريبًا سيمرُّ

طريقنا من (تلال المخمل)، وهناك نبدأ تسلقنا إلى (جويان درو) على (الروين الصغير)».

كانت (جويان درو) واحدةً من مُدن الروينار، إلى أن حوّلتها تنانين (فاليريا) إلى قحطٍ محروق. لستُ مسافرًا عبر الفراسخ فحسب، بل عبر السنين أيضًا، عائد في التاريخ إلى الزمن الذي حكمت فيه التنانين الأرض. نامَ تيريون واستيقظ ونامَ مجددًا، ولم يعد يبدو لليل والنهار أهمية. خيبت (تلال المخمل) أمه، وقال لإليريو: «نصف عاهرات (لانسپورت) لهن أئداء أكبر من هذه التلال. يجدرُ بكم أن تسمّوها الأئداء المخملية».

بعدها رأوا دائرةً من الحجارة القائمة زعمَ إليريو أن عمالقةً رفعوها، ولاحقًا بحيرةً عميقةً قال عنها: «هنا كان وكر لصوصٍ يسلبون وينهبون كلَّ من يسلك هذا الطريق. يُقال إنهم ما زالوا ماكين تحت الماء، يجذبون من يصطادون من البحيرة إلى أسفل ويلتهمونهم».

في الليلة التالية صادفوا تمثال أم هول فاليريا عملاقًا قابعًا على جانب الطريق، له جسم تنين ووجه امرأة. قال تيريون: «ملكة تينّة، فأل حسن».

ردّ إليريو: «ملكها مفقود»، وأشار إلى القاعدة الحجرية الملساء التي كان تمثال أبي الهول يقف عليها أنفًا، والآن تُغطّيها الطحالب والكروم المُرهرة. «سادة الخيول بنوا عجلاتٍ خشبيةً وجروه إلى (فايس دوثراك)».

فكّر تيريون: هذا أيضًا فأل، لكنه لا يبعث على الأمل بالقدر نفسه. ليلتها، وكان أكثر ثملًا من المعتاد، شرع في الغناء.

ركبَ في شوارع المدينة
نازلًا من تلة العالي
عبر الحارات والأعتاب والأحجار
ركبَ إلى تنهيدة امرأة
هي عاره ونعيمه
هي كنزه وسرُّ الأسرار
وهل تُقارَن سلسلة من الأيدي وقلعة
بقبلة امرأة؟

هذه هي كلُّ الأبيات التي يعرفها باستثناء اللازمة. الأيدي الذهب دومًا باردة، لكن يدي المرأة تشعان دفئًا. يدا شاي ضربتاه إذ انغرست الأيدي الذهب في لحم عنقها، ولا يذكر إن كانتا دافئتين أم لا. مع تسرب قواها منها صارت ضرباتها عُنًا يُرْفِرُفِ حول وجهه، وكلما لوى السلسلة أكثر انغرست الأيدي أكثر. وهل تُقَارَنُ سلسلة من الأيدي وقلعة بقبلة امرأة؟ هل قبلها مرَّةً أخيرةً بعد أن ماتت؟ لا يذكر... ولو أنه يذكر قبلتهما الأولى في خيمته على ضفة (الفرع الأخضر). كم كان مذاق فمها حلوًا.

ويذكر المرَّة الأولى مع تايشا أيضًا. لم تكن تعرف كيف مثلما لم أكن أعرف. ظلَّ أنفها يخبط أنفي، لكن حين لمستُ لسانها بلساني ارتجفت. أسبل تيريون جفنيه ليري وجهها بعين الخيال، لكنه بدلًا من ذلك رأى أباه جالسًا على المرحاض وقد رفع معطف النُّوم حول خصره. قال اللورد تايوين: «أينما تذهب العاهرات»، وأصدرت النشائية صوتها الوتري.

انقلب القزم على جانبه الآخر ودسَّ نصف أنفٍ في عمق الوسائد الحريري، وانفتح النُّوم من تحته كالبئر فزجَّ بنفسه فيه عن طيب خاطرٍ وترك الظلام يتلعه.



خادم التاجر

مغامرتهم كريهة الرائحة.

تزهو السفينة بمجازيفها الستين وشراعها الوحيد وبدنها الطويل الرفيع الذي يعد بالسرعة، وقد فكر كوينتن حين رآها: صغيرة، ولكن ربما تصلح. على أن ذلك كان قبل أن يصعد إلى متنها ويستنشق رائحتها. الخنازير أول ما خطر له، لكن بعد أن شمها ثانية غير رأيه. للخنازير رائحة أنظف، أما هذه فرائحة البول واللحم النتن والغائط، رائحة عفن الجثث والصديد والجروح المتقرحة، قويّة فاعمة حتى إنها طغت على روائح الملح في الهواء والأسماك في الميناء.

قال لجيريس درينكووتر: «أريد أن أتقياً». كانا ينتظران ظهور ربّان السفينة، يتصبّبان عرقاً في الحرّ والرائحة اللعينة تتصاعد من السطح أسفلهما.

ردّ جيريس: «إذا كانت رائحة الربّان كسفينته فقد يحسب قياًك عطراً». كان كوينتن على وشك اقتراح أن يجربوا سفينة أخرى عندما ظهر الربّان أخيراً، وإلى جانبه فردان من الطاقم يبدو عليهما اللؤم. حيّاه جيريس بابتسامة، وعلى الرغم من أنه لا يتحدث الفولانتينية بطلاقة كوينتن فحيلتهما تتطلّب أن يكون هو الناطق بلسانهما. في (بلدة الأخشاب) لعب كوينتن دور بائع الخمر، لكن التمثيلية أرهقته، ولذا حين بدّل الدورنيون السفن في (ليس) بدّلوا أدوارهم كذلك. على متن (طائر المروج) أصبح كليتوس يرونوود التاجر وكوينتن خادمه، وفي (فولانتيس)، بعد مقتل كليتوس، اضطلع جيريس بدور السيّد.

جيريس درينكووتر طويل وسيم، عيناه خضراوان مائلتان إلى الزرقة،

وشعره بلون الرمال الموحوطة بأشعة الشمس، وجسده نحيل متناسق، وإن كان له سميت الخيلاء، ثقة بالنفس تدنو من الغطرسة. لا يبدو على جبريس الارتباك أو الحيرة أبداً، وحتى في الأماكن التي لا يعرف لغاتها له أساليب تجعل محدثه يفهمه. أمّا كوينتن فيبدو بائساً بالمقارنة، بساقيه القصيرتين وجسده المكتنز وتكوينه الغليظ وشعره البني كالتربة المقلّبة حديثاً. جبهته أعلى من اللازم، وفكّه مربع أكثر من اللازم، وأنفه أعرض من اللازم، وقد قالت فتاة ما عن وجهه ذات مرّة: إنه وجه طيبّ صادق، لكن عليك أن تبتمس أكثر. لا ترتسم الابتسامات بسهولة أبداً على وجه كوينتن مارتل، تماماً كالسيد والده.

سأل جبريس بفاليريّة فصحى أقرب إلى الركاكة: «ما سرعة مُغامرتك؟». تعرّف رُبّان (المُغامرة) اللكنة، فأجاب بعاميّة (وستروس): «لا سفينة أسرع منها يا سيّدي الكريم. (المُغامرة) تستطيع أن تسبق الرّيح نفسها. أخبرني بوجهتك المرغوبة وسأخذك إلى هناك بأقصى سرعة».

- «أريدُ رحلةً إلى (ميرين) لي ولاثنين من خدمي».

دفع ردهُ الرّبّان إلى التردّد برههً قبل أن يقول: «ليست (ميرين) غريبةً عليّ. أستطيعُ العثور على المدينة ثانيةً، أجل... لكن لماذا؟ ليس في (ميرين) عبيد، لا ربح هناك. الملكة الفضيّة وضعت نهايةً لهذا، وعلاوةً على ذلك أغلقت حلبات القتال، والآن لا يستطيع بحار مسكين مثلي أن يُسلي نفسه فيما تمتلئ مخازنه بالبضائع. أخبرني يا صديقي الوستروسي، ما الذي يحثك على الذهاب إلى (ميرين)؟».

قال كوينتن في نفسه: أجمل امرأة في العالم، من ستكون عروسي بمشيئة الآلهة. أحياناً في الليل يستلقي مستيقظاً يتخيّل وجهها وقدها، ويتساءل لِمَ قد ترغب امرأة مثلها في الزواج به من بين كلّ الأمراء في العالم. إنني (دورن)، وهي سترُيد (دورن).

أجاب جبريس بالحكاية التي لفقوها: «النبيذ تجارة عائلتنا. أبي يملك مزارع عنب شاسعة في (دورن) ويريدني أن أجد أسواقاً جديدة. أملنا أن يُرحّب أهل (ميرين) الطيبون بما أبيعهم».

قال الرُّبَّانُ بغير اقتناع: «النَّبِيذُ؟ النَّبِيذُ الدورني؟ مُدُنُ النُّخَاسَةِ في حرب. أَيْعَلُّ أَنْكُمْ لَا تَعْلَمُونَ هَذَا؟».

- «سمعنا أن القتال بين (يونكاي) و(أستاפור)، لا دخل فيه لـ(ميرين)».
- «ليس بعدُ، لكن قريبًا. في (فولانتيس) الآن مبعوث من المدينة الصَّفراء يستأجر المرتزقة جماعة الرِّمَاح الطويلة أبَحَرَت إلى (يونكاي) بالفعل، وسيلحق بها المذروون و زُمْرَةُ القِطِّ ما إن تكتمل صفوفهما بالرِّجال، والجماعة الذهبية تزحف شرقًا أيضًا. كل هذا معلوم».

- «كما تقول. إنني أتعامل في الخمر لا الحروب. الجميع متفقون على أن النَّبِيذَ الجيسكاري رديء، وسيدفع الميرينيزيون ثمنًا جيدًا مقابل أصنافي الدورنية الممتعة الممتازة».

علق رُبَّانُ (المغامرة): «الموتى لا يُبالون بنوع النَّبِيذِ الذي يشربونه»، ثم داعبَ لحيته مردفًا: «أظنُّ أنني لستُ أولُ رُبَّانٍ تعرضون عليه الأمر، ولا حتى العاشر».

أقرَّ جيريس قائلاً: «صحيح».

- «كم إذن؟ مئة؟».

فكَّرَ كويتن: قرابة هذا. يهوى الفولانتينيون التَّباهي بأن من الممكن إسقاط جُزر (برافوس) المئة في مينائهم الفسيح فتغرق، ومع أن كويتن لم يرَ (برافوس) قط فمِن السَّهْلِ أَنْ يُصَدِّقَ هذا. (فولانتيس) غنيَّة يانعة عتيقة، تُغَطِّي ثغر (الروين) كقُبلةٍ بليلةٍ دافئة، وتمتدُّ عبر التلال والمستنقعات على ضفَّتَي النَّهْرِ. السُّفْنُ في كلِّ مكان، سواء أكانت آتيةً من النَّهْرِ أو خارجةً إلى البحر، تزدهم بها المراسي والأرصفة فيما تُفَرِّغُ البضائع أو تُحْمَلُها. هنا وهناك السُّفْنُ الحربيَّةُ وسُفْنُ صيد الحيتان والقوادم التَّجاريَّةُ والقراقير⁽¹⁾ والزوارق والأكواج⁽²⁾ صغیرها وعظیمها والسُّفْنُ الطَّويلة والسُّفْنُ البجعيَّة، سُفْنُ من (ليس) و(تايروش) و(بتتوس)، وسُفْنُ توابل كارثينية ضخمة كالقصور،

(1) القرقور سفينة ضخمة تحمل آلات الحرب والمؤن والعتاد، وتتسع لعدد كبير من المجدفين والبحارة. (المترجم).

(2) الكوج سفينة لها شراع واحد مربع عادةً وأحيانًا شراعان، وتُبنى من خشب البلوط. (المترجم).

وسُفِن من (تولوس) و(يونكاي) و(جُزر البازيليسق)، سُفِن كثيرة لدرجة أن كويتن قال لأصدقائه حين رآها أول مرّة من على متن (طائر المروج) إنهم لن يَمَكُونَا هنا أكثر من أيام ثلاثة.

لكن أيامًا عشرين مرّت، وها هم أولاء ما زالوا هنا بلا سفينة. قباطنة (الميلانتين) و(ابنة القنصل) و(قُبلة عروس البحر) جميعهم رفضوهم، ووكيل رُبَّان (الرحال الجريء) ضحك في وجوههم، ورُبَّان (الدولفين) وبَّخهم لتضييع وقته، ومالك (الابن السَّابع) اتَّهمهم بالقرصنة، وكلُّ هذا في اليوم الأول فقط.

وحده رُبَّان (الطَّيبة) شرح لهم أسباب رفضه وهم يحتسون النِّبذ المخفَّف بالماء بقوله: «أي نعم أنا مبحرٌ شرقًا، من الجنوب حول (فاليريا) ومن هناك إلى مشرق الشَّمس. سنُحمِّل الماء والمؤن من (جيس الجديدة)، ثم ننتجه إلى (كارث) و(بوابات اليشب). لم أسعى إلى المزيد من الأخطار بدخول (خليج النخاسين)؟ إن (الطَّيبة) مصدر رزقي، ولن أجازف بها لأخذ ثلاثة دورنيين مجانيين إلى قلب الحرب».

بعد فترةٍ بدأ كويتن يُفكّر أنهم لو اشتروا سفينتهم الخاصّة في (بلدة الأخشاب) لكان أفضل، ولو أن تصرّفًا مثل ذلك كان قيمًا بأن يجذب إليهم انتباهًا غير مرغوب، فجواسيس العنكبوت في كلِّ مكان، حتى في أبهاء (سنسبير). كانا يُشاهدان الأطفال يلعبون ويعبثون في مسابح ونوافير (الحدائق المائيّة) عندما حدّره أبوه قائلاً: «سُراق دماء (دورن) إذا افتضح أمر مهمّتك. إن ما نفعله خيانة، إياك أن تغفل عن هذا. لا تتق إلا برفاقتك، وابدل قصادي جهدك لتلافي جذب الانتباه».

هكذا منح جبريس درينكووتر رُبَّان (المغامرة) أكثر ابتساماته وداعةً، وقال: «الحقيقة أنني لم أعد الجُبَّان الذين رفضوا، لكنني سمعتهم في (بيت التُّجَّار) يقولون إنك رجل أجراً من غيره، رجل من شأنه أن يُخاطر بأيّ شيءٍ مقابل قدرٍ مجزٍ من الذهب».

فكّر كويتن: مهرّب. هكذا نعت الآخرون في (بيت التُّجَّار) رُبَّان (المغامرة)، وأخبرهم صاحب الخان: «إنه مهرّب ونخاس، نصف قرصان ونصف قوَّاد، ولكن لعلّه فرصتكم الأفضل».

فرك الرُّبَان سبَّابته وإبهامه معًا سائلًا: «وما قدر الذهب الذي تعتبره مجزيًا لقاء رحلة كهذه؟».

- «ثلاثة أضعاف أجرِك المعتاد للسَّفر إلى (خليج النخَّاسين)».

غمغم الرُّبَان: «لكلِّ منكم؟»، وبرزت أسنانه إذ فتح شفثيه على سبيل ما يُمكن أن يكون ابتسامة، وإن أضفى هذا على وجهه الضيق طابع الشَّراسة، وتابَع: «ربما. صحيحٌ بالفعل أنني أجرأ من معظم الرُّجال. متى ترغب في المغادرة؟».

- «غدًا وقت ملائم تمامًا».

- «أتفقنا. عد قبل ساعةٍ من بزوغ الفجر بصدقيك ونيذك. الأفضل أن نتحرَّك و (فولانتيس) نائمة، كي لا يُلقي علينا أحد أسئلةً مزعجةً عن وجهتنا».

- «كما تقول. قبل ساعةٍ من بزوغ الفجر».

اتَّسعت ابتسامة الرُّبَان، وقال: «يسرُّني أن أستطيع مساعدتك. ستكون رحلتنا سعيدةً، أليس كذلك؟».

ردَّ جيريس: «إنني متأكَّد من هذا».

ثم طلب الرُّبَان المِزر، ومعًا شربا نخب المُغامرة المرتقبة.

بعدها قال جيريس لكويتن وهما نازلان إلى الرِّصيف حيث ينتظر الهاتاي الذي استأجره: «رجل حُلو». كان الهواء ثقيلًا ساخنًا، والشَّمس شديدة السُّطوع تُجبر كليهما على تضيق عينيه.

وافقه كويتن قائلاً: «هذه مدينة حُلوة». حُلوة بما يكفي لتسويس الأسنان. في هذه الأنحاء يُزرع بنجر السُّكَّر بوفرةٍ ويُقدَّم مع كلِّ وجبةٍ تقريبًا، ومنه يصنع الثولانتينون حساءً باردًا تخين القوام غنيَّه كالعسل الأرجواني⁽¹⁾، كما أن خمورهم أيضًا حُلوة. «لكنني أخشى أن رحلتنا السَّعيدة ستكون قصيرةً. ذلك الرِّجل الحُلو لا ينوي أخذنا إلى (ميرين). لقد سارعَ بقبول عرضك. لا شكَّ أنه سيأخذ ثلاثة أضعاف الأجر المعتاد، وما إن نُصبح على متن سفينته ونبتعد عن اليابسة سيدبحنا ويسرق بقيةَ ذهبنا أيضًا».

(1) العسل الأرجواني نوع نادر من عسل النحل، ليست هناك طريقة معيَّنة لإنتاجه وإنما يَنجَع عشوائيًا، وما زال موضوع بحثٍ عند العلماء. (المُترجم).

- «أو يُقَيِّدنا بالسَّلاسل إلى مجذافٍ إلى جوار البائسين الذين شممناهم. أظنُّ أن علينا العثور على صنفٍ أفضل من المهرَّيين».

كان الحوزي في انتظارهما إلى جوار الهاثاي. في (وستروس) يُمكن أن تُعدَّ من العربات تجرُّها الثيران، مع أن زخارفها المنمَّقة لم يرَ لها كويتن مثيلاً على أيِّ عربةٍ في (دورن)، ثم إنها تفتقر إلى ثورٍ يجرُّها، فالهاثاي تجرُّها فيلة قزمية جلدُها بلون الثلج المتسَّخ، وشوارع (فولانتيس القديمة) تعجُّ بأمثالها. يُفضَّل كويتن المشي، لكنهما يبعدان أحياناً عن الخان، علاوةً على أن صاحب الخان في (بيت التُّجَّار) نَبَّه إلى أن التَّنقل سيراً على الأقدام سيُلوِّث منظرهما في أعين الرِّبانية الأجنبي وأهل (فولانتيس) على حدِّ سواء. أصحاب المقام العالي يتنقلون بالهودج أو الهاثاي... وقد تصادف أن لصاحب الخان ابن خالٍ يملك عددًا كبيراً من تلك العربات المبتكرة، وسيسرُّه أن يخدمهما في هذا الصِّدد.

سائقهما أحد عبيد ابن الخال، رجل صغير الحجم على وجنته وشم لعجلة، لا يلبس إلَّا متزراً قصيراً وحُفَّين، بشرته قائمة كخشب السَّاج وعيناه شظيَّتان من الصَّوآن. بعد أن ساعدهما على الصُّعود إلى الدِّكَّة المزوَّدة بالوسائد بين عجلتي العربة الخشبيَّتين الصَّخمتين ركبَ على ظهر الفيلة، وقال له كويتن: «إلى (بيت التُّجَّار)، لكن خذ طريق الميناء». وراء الشُّطِّ ونسيمه ترتفع الحرارة في شوارع (فولانتيس) وأزقتها لدرجة كفيلة بأن يغرق المرء في عرقه، على هذه الضِّفة من النَّهر على الأقل.

زَعَقَ الحوزي في الفيلة بشيءٍ ما باللغة المحليَّة، فبدأت الدَّابة تتحرَّك وخرطومها يتأرجح من جانب إلى جانب، وارتجَّت العربة متحرِّكةً وراءها فيما صاحَ الحوزي في البِحَّارة والعبيد ليُفَسِّحوا الطَّرِيق. التَّفارقة بين هؤلاء وأولئك سهلة، فالعبيد كلُّهم موشومون، هذا بقناع من الرِّيش الأزرق، وهذا بصاعقة برق من الفكِّ إلى الجبين، أو بعملةٍ على الوجنة، أو برُقَط فهد، أو بجمجمةٍ أو إبريق. قال المايستر كِدري إن لكلِّ رجلٍ حُر في (فولانتيس) خمسة عبيد، ولو أنه لم يعيش حتى يتحقَّق من هذا بنفسه. لقد مات صبيحة هجوم القراصنة على (طائر المروج).

في اليوم نفسه فقدَ كويتن صديقين آخريْن؛ ويلم ولز بنمشه وأسنانه

المعوجةً وشجاعته في القتال بالرُّمح، وكليتوس يرونود الوسيم على الرغم من عينه الكسول، السِّليط دائماً الضَّاحك دائماً. طيلة نصف حياة كويتن كان كليتوس صديقه الصَّدوق، أخاً له في كلِّ شيءٍ باستثناء الدَّم، وقُبيل أن يلفظ نفسه الأخير همسَ له: «أعطِ عروسك قُبلةً من أجلي».

صعدَ القراصنة إلى متن (طائر المروج) في ظلمة ما قبل الفجر والسَّفينة راسية عند ساحل (أراضي النَّزاع)، وصدَّ الطَّاقم هجومهم لكن النَّصر كلَّفهم اثنتي عشرة نفساً. بعدها جرَّد البحَّارة القراصنة الموتى من الأحذية والأحزمة والأسلحة، واقتسموا أموالهم وانتزَعوا الأحجار الكريمة من آذانهم والخواتم من أصابعهم. كانت إحدى الجُثث لرجل بالغ البدانة حتى إن الطَّاهي اضطرَّ إلى قطع أصابعه بالسَّاطور ليحصلَ على خواتمه، واحتاجت دحرجة الجثة إلى البحر إلى ثلاثة من أفراد الطَّاقم، ثم ألقِيَ باقي القراصنة وراءها دون جنازةٍ أو صلاة.

أمَّا موتاهم هم فنالوا معاملةً لطف، فلفَّ البحَّارة جُثثهم بقماس القنب المستخدم في القلوع، وأنقلوها بالصَّابورة⁽¹⁾ لتسريع غوصها في الماء. بعد ذلك قادَ رُبَّان (طائر المروج) أفراد طاقمه في صلاةٍ على أرواح رفاقهم القتلى، ثم التفتَ إلى المُسافرين الدورنيين، الثلاثة الباقين من الستة الذين ركبوا معه في (بلدة الأخشاب). حتى الرَّجل الكبير خرجَ ممتنع الوجه يبدو عليه الإعياء وعدم الاتِّزان، صاعداً بعُسرٍ من مخزن السَّفينة ليُشارك في الجنازة. قال الرُّبَّان: «على أحدكم أن يقول شيئاً ما عن موتاكم قبل أن نُعطيهم للبحر»، فأذعنَ جيريس وتكلَّم كاذباً بين كلِّ كلمةٍ وكلمة، بما أنه لم يجرؤ على أن يذكُر هويَّاتهم الحقيقيَّة أو سبب مجيئهم.

لم يكن يُفترَض أن تكون هذه نهايتهم. يوم خرجوا من قلعة أبيه أعلنَ كليتوس: «ستكون هذه حكايةً نحكيها لأحفادنا»، فرسمَ ويل على وجهه الامتعاض، وردَّ: «تعني حكايةً نحكيها لساقيات الحانات على أمل أن يرفعن تناويرهن»، فربَّت كليتوس على ظهره قائلاً: «للحصول على أحفاد يحتاج المرء إلى أولاد، وللحصول على أولاد يحتاج المرء إلى رفع بعض

(1) الصَّابورة أُنقال توضع في بطن السَّفينة لثلاث تميل على أحد جوانبها. (المُترجم).

التنانير». ولاحقًا، في (بلدة الأخشاب)، شربَ الدورنيون نخبَ عروس كويتن المنتظرة، وألقوا الدُّعابات البذيئة عن ليله زفافه المقبلة، وتكلّموا عن الأشياء التي سيرونها والمآثر التي سيُحقّقونها والأمجاد التي سيظفرون بها. وما ظفروا إلاّ بجوالٍ من قماش القلوع مملوء بالصّابورة.

بقدر حُزنه على ويل وكليتوس ففقدان المايستر أكثر ما يُكدِّره. كان كِدري طليقًا في لغات المُدن الحرّة كلّها، وحتى في الجيسكارية الهجينة التي يتحدّثونها على سواحل (خليج النخاسين). ليلة افتراقا قال له أبوه: «المايستر كِدري سيصبحكم. أصغوا إلى نصائحه. لقد كرّس نصف حياته لدراسة المُدن الحرّة التسع». والآن يتساءل كويتن إن كانت الأمور لتمضي بسهولة أكثر لو أنه هنا ليُرشداهم.

قال جيريس وهم يخوضون زحام الرّصيف: «يُمكّني أن أبيع أمّي مقابل القليل من التّسيم. الجوّ رطب كفرج (العذراء) والظّهيرة لم تحلّ بعد. كم أكره هذه المدينة».

يُشاركه كويتن شعوره، فحرّ (فولانتيس) الرّطب الجهم يستنزف قواه ويُشعره بالأتساخ، والأدهى معرفة أن المساء لن يأتي بشيءٍ من الرّاحة. دائميًا في المروج العالية شمال أملاك اللورد يرونوود يكون الهواء فاترًا جافًا بعد هبوط الظلام مهما كان النّهار حارًّا. أمّا هنا فلا، ففي (فولانتيس) تكاد الليالي تُماثل الأنهر حرارةً.

ذكَره جيريس قائلاً: «(الرّبّة) مبحرة إلى (جيس الجديدة) غدًا. على الأقل سيَقصّر هذا المسافة».

- «(جيس الجديدة) جزيرة، ميناء أصغر من هذا بكثير. سيَقصّر هذا المسافة، نعم، ولكن قد نجد أنفسنا عالقين هناك. ثم إن (جيس الجديدة) تحالفت مع (يونكاي)». لم يُفاجئ هذا الخبر كويتن، ف(جيس الجديدة) و(يونكاي) كلتاها مدينة جيسكارية. «إذا تحالفت (فولانتيس) معهما بدورها...».

- «يجب أن نجد سفينةً من (وستروس)، سفينةً تجاريةً ما من (لانسپورت) أو (البلدة القديمة)».

- «سفن قليلة تقطع كل هذه المسافة، وتلك التي تفعل تملأ مخازنها بالحريير والتوابل من (بحر اليشب) ثم تعود أدرجها إلى الوطن».

- «ربما سفينة برافوسية إذن؟ المرء يسمع عن الأشرعة الأرجوانية في كل مكانٍ حتى (أشاي) وجُزر (بحر اليشب)».

- «البرافوسيون منحدرون من الرقيق الهاربين، ولا يشتغلون بالتجارة في (خليج النحاسين)».

- «هل معنا ذهب يكفي لشراء سفينة؟».

- «ومن سيبحر بها؟ أنت؟ أنا؟». لم يعد الدورتيون ملاحين منذ أحرقت نايميريا سفنها العشرة آلاف. «والبحار حول (فاليريا) زاخرة بالمخاطر وملأى بالقراصنة».

- «لقد اكتفيت من القراصنة. دعنا لا نشترى سفينة».

أدرك كويتن أن جيريس ما زال يعدّها لعبة. لا تختلف عن المرة التي قادَ فيها ستة منا في الجبال للعثور على وكر الملك العقاب القديم. ليس من طبيعة جيريس درينكووتر أن يتخيّل فشلهم، ناهيك بموتهم، ويبدو أنه لم يتعظ من موت ثلاثة من الأصدقاء دفعةً واحدةً. يتّرك هذا لي. إنه يعرف أن طبيعتي الحذر كما أن طبيعته الجرأة.

قال السير جيريس: «لعلّ الرّجل الكبير على حق. فليحترق البحر، يُمكننا إتمام رحلتنا برّاً».

ردّ كويتن: «تعلم لماذا يقول هذا. إنه يؤثّر الموت على ركوب سفينةٍ أخرى». ظلّ الرّجل الكبير متوعكًا طوال رحلتهم، وفي (ليس) استغرق تعافيه أربعة أيام كاملة، ووجدوا أنفسهم مرغمين على استئجار غُرفٍ في أحد الخانات ليضعه المايستر كدري في فراشٍ وثير ويسقيه الحساء والعقاقير إلى أن عادَ القليل من التورّد إلى وجنتيه.

من الممكن الذهاب إلى (ميرين) برّاً بالفعل، فالطُرق الفاليريّة القديمة تمتدُّ إلى هناك، «طُرق التنانين» كما يُسمّي الناس طُرق المعقل الحُرّ الحجريّة العظيمة، إلا أن الطُريق الذي يمضي شرقًا من (فولانتيس) إلى (ميرين) اكتسبَ اسمًا مشؤومًا هو «طريق الشياطين».

قال كويتن: «طريق الشياطين محفوف بالمخاطر وبطيء للغاية. تايوين

لانستر سيريسل رجاله وراء الملكة ما إن تبلغ أخبارها (كينجز لاندنج). كان أبوه موقناً بهذا تمام اليقين. «ورجاله سيذهبون حاملين الخناجر. إذا وصلوا إليها أولاً...».

قال جيريس: «لنأمل أن تشمّ ثنائينها رائحتهم وتأكلهم. طيب، إذا كنا لا نستطيع العثور على سفينة ولست نريدنا أن نسافر براً فربما علينا أن نحجز رحلة عودة إلى (دورن)».

أزحف عائداً إلى (صنسير) مهزوماً أجرّ أذيال الخيبة؟ سيكون إحباط أبيه أبلغ من احتمال كويتن، وسخرية أفاعي الرمال حارقة. لقد وضع دوران مارتل مصير (دورن) في يديه ولا يمكن أن يخذله ما دام حياً.

مضى الهائبي مهتراً على عجلته المؤطرتين بالحديد، وتراقص السراب على أرض الشارع مضيفاً على الموجودات سمت الأحلام. وسط المخازن والمراسي يزدحم مختلف الحوانيت والأكشاك على الشط؛ من هنا يمكنك شراء المحار الطازج، ومن هنا السلاسل والأصفاد الحديد، ومن هنا قطع السايقاس المنحوتة من يشب والعاج. وثمة أيضاً معابد يذهب إليها البحارة لتقديم القرابين إلى آلهة أجنبية، ملتصقة ببيوت الهوى حيث تُنادي النساء الرجال من الشرفات، وقد قال له جيريس في أثناء مرورهم بأحد تلك البيوت: «انظر إلى هذه. أظنها واقعة في غرامك».

وكم يكلف غرام عاهرة؟ الحقيقة أن الفتيات يُصبن كويتن بالتوتر، بالذات الحسنات.

في بداية إقامته في (بيرونود) كان مفتوناً بانة اللورد بيرونود الكبرى يينيس، ورغم أنه لم يعبر عن مشاعره ولو بكلمة فقد احتفظ بأحلامه المكونة سنيماً... إلى أن أتى يوم وأرسلوها للزواج بالسير ريبون أليرون وريث (عطية الآلهة). آخر مرة رآها كانت تُرضع ولداً ويتشبّه بتنورتها آخر.

بعد يينيس أتت التوامتان درينكووتر، عذراوان صغيرتان قمحيتان تحبان الصيد بالصقور والكلاب وتسلق الصخر وحقن وجه كويتن بحمرة الخجل، وقد أعطته إحداهما قبلته الأولى، وإن كان لم يعرف قط أيهما. باعتبارهما ابنتين لفارس يملك بعض الأراضي كانتا في منزلة أوضع من أن يتزوج واحدة منهما، لكن كليتوس لم يحسب هذا سبباً يدفعه إلى التوقف عن تقبيلهما،

وقال له: «بعد أن تتزوج بإمكانك أن تتخذ واحدة منهما خليله، أو الاثنين، ولم لا؟». غير أن كوينتن فكّر في أسباب عدّة تمنعه، ولذا حرص على تحاشي التوأمتين منذ ذلك الحين، ولم ينل قبلة ثانية.

وفي الماضي القريب تعودت صُغرى بنات اللورد يرونوود تتبّعه في أنحاء القلعة. جوينيث في الثانية عشرة لا أكثر، فتاة صغيرة ناحلة تُميّزها عيناها الدّاكتتان وشعرها البني عن عائلتها ذات الشعر الأشقر والأعين الزرقاء، لكنها ذكيّة في الحقيقة، تُباري بديتها يديها في السرعة، ومغرمة بإخبار كوينتن أن عليه أن ينتظرها حتى تُزهر كي تتزوجه.

كان ذلك قبل أن يستدعيه الأمير دوران إلى (الحدائق المائية)، والآن أجمل امرأة في العالم منتظرة في (ميرين)، وهو ينوي أن يقوم بواجبه ويتخذها عروسًا. لن ترفُضني، ستلتزم الاتّفاق. ستحتاج دنيرس تارجارين إلى (دورن) في سبيل الظفر بـ(الممالك السبع)، ومعنى هذا أنها ستحتاج إليه. لكن هذا لا يعني أنها ستحبني، بل وقد لا أعجبها من الأصل.

ينحني الشّارع حيث البرزخ بين النّهر والبحر، وهناك بطول المنحني يتكدّس باعة الحيوانات عارضين السّحالي المحلّاة بالجواهر والتّعايين العملاقة المربوطة بحلقات المعدن والقردة الصّغيرة الرّشيقة ذات الذبيل المخطّطة والأيدي الوردية المرنة. قال جيريس: «قد يروق ملكتك الفضيّة أن تُهديتها قرداً».

لا يملك كوينتن أدنى فكرة عمّا يروق دنيرس تارجارين. لقد وعدّ أباه بأن يعود بها إلى (دورن)، لكنه ما برح يتساءل إن كان جديرًا بهذه المهمّة. لم أفكّر في هذا قطّ.

عبر زُرقة (الروين) العريضة رأى (السُّور الأسود) الذي شيّده الفاليريون عندما كانت (فولانتيس) مجرد نقطة حدودية لإمبراطوريتهم، وهو سور يبضاوي عظيم من الحجارة الملحومة يرتفع متّي قدم، وسميك لدرجة أن بإمكان ستّ عربات تجرّ كل منها أربعة أحصنة أن تتسابق متجاوزة على قمّته، وهو ما يحدث كلّ سنة للاحتفال بتأسيس المدينة. ليس مسموحًا للغُرباء والأجانب والعبيد المعتمدين بالوجود وراء (السُّور الأسود) إلّا بدعوة من أحد القاطنين هناك، أنجال الدّم القديم الذين يعود نسبهم إلى (فاليريا) نفسها.

الزَّحَامُ أَشَدُّ هُنَا. إِنَّهُمْ بِالْقُرْبِ مِنَ الطَّرْفِ الْغَرْبِيِّ لـ (الجسر الطَّوِيل) الذي يصل بين نِصْفِي المدينة، ولذا تعجُّ الشَّوَارِعُ بالعربات بأنواعها والهائيات، كلُّها قادم من على الجسر أو ذاهب إليه، والعبيد في كلِّ مكان، جحافل كالصَّراصير، يهرعون هنا وهناك لتلبية أوامر سادتهم.

على مسافةٍ ليست بعيدةً عن (ميدان السَّمَاكِين) و(بيت التُّجَّار) ارتفع الصَّيَاحُ من على جانب الشَّارِعِ الْآخَرِ، وفجأةً ظهرت دسنة من المُطَهَّرِينَ حاملي الحِرَابِ مرتدين الدُّرُوعَ المِزخَرَفَةَ ومعاطف من جلود النُّمُورِ كأنهم خرجوا من العدم، يُلوِّحون للجميع بإفْسَاحِ الطَّرِيقِ كِي يَمَرَ القُنْصَلُ على متن فيله، وفيل القنصل هذا مخلوق ضخم رمادي الجِلْدِ يرتدي درعًا منمَّقةً النُّقُوشِ مطليَّةً بالمينا الأبيض تُصَدِّرُ صلصلةً خافتةً مع حركته، والهودج على ظهْره فارع الطُّولِ حتى إنه احتكَّ بقمَّةِ قنطرة الرِّبْنَةِ الحِجْرِيَّةِ وهو يمرُّ من تحتها. شرح كويتن لرفيقه قائلاً: «القناصل الثلاثة يُعَدُّون في غاية السُّمُو لدرجة أن لمس الأرض بأقدامهم خلال عامهم في الخدمة محرَّم، فلا يتنقلون إلَّا بالأفيال».

قال جيريس: «ويسدُّون الشَّوَارِعَ ويُخَلِّفون أكوام الرُّوثِ لأمثالنا. لن أفهم أبداً لماذا تحتاج (فولانتيس) إلى ثلاثة أمراء في حين تكتفي (دورن) بواحد».

- «القناصل ليسوا ملوكاً أو أمراء. (فولانتيس) معقل حُرٍ مثل (فاليريا) قديماً، يتقاسم فيها جميع مَلَاكِ الأراضِي المولودين أحراراً الحُكْم، وحتى النِّسَاءُ مسموح لهن بالتصويت شريطة أن يكن من أصحاب الأراضِي. القناصل الثلاثة يُنتخبون من بين تلك العائلات النِّبيلة التي تستطيع إثبات نسبها الموصول إلى (فاليريا) القديمة، ويخدمون حتى اليوم الأول من السَّنة الجديدة. كنت لتعرف كلَّ هذا لو كلفت نفسك عناء قراءة الكتاب الذي أعطاه لك المايستر كِدرِي».

- «لم تكن فيه صُور».

- «كانت فيه خرائط».

- «الخرائط لا تُحسب. لو قال لي إنه عن النُّمُور والأفيال لجرَّبت قراءته،

لكنه بدا ككتاب تاريخ على نحوٍ يُثير الرِّيبة».

حين بلغَ الهائِي حافة (ميدان السَّمَاكِين) رفعت فيلتهم خرطومها

وأطلقت زميراً كإورّة بيضاء ضخمة، وقد تردّدت في الخوض في بلبلة العربات والهوداج والمارة أمامهم، لكن سائقهم نكّزها بكعبه وأجبرها على مواصلة الحركة.

كان باعة السمك متشرّين في الميدان بأعدادٍ كبيرة يُنادون على صيد الصّباح. فهم كويتن كلمة على الأكثر من كل اثنتين، لكنه ليس محتاجاً إلى معرفة الكلمات ليعرف ما يراه من أسماك القُد وأبي شراع والسردين وبراميل بلح البحر وأم الخلول. في واجهة أحد الأكشاك علقت ثعابين الماء، وعرض كُشك آخر سلحفاة عملاقة ثقيلة كالحصان، معلقة من ساقها بسلاسل حديد، وفي براميل الماء المالح والطّحالب البحريّة راحت السراطين تزحف، فيما قدّم عدد كبير من الباعة قطع الأسماك المقلية بالبصل والبنجر، أو يخنة السمك المُقلّل من قدورٍ حديديّة صغيرة.

في منتصف الميدان، تحت تمثالٍ متصدّع بلا رأس لقنصل ميت ما، بدأ المارة يحتشدون حول قزمين يُقدّمان عرضاً، وقد ارتدى الرّجلان الصّغيران درعين من الخشب ليبدوا كفارسين مُنمنمين يتهيّان للنزال. رأى كويتن أحدهما يمتطي كلباً فيما وثب الثاني على ظهر خنزير... فقط ليتزلق من عليه مفعراً الضحك.

قال جيريس: «بيدوان مسلمين. هل نتوقّف ونُشاهد قتالهما؟ قد ينفعلك أن تضحك يا كويتن. إنك تبدو كعجوز مُصاب بالإمساك منذ نصف عام». ففكر كويتن: أنا في الثامنة عشرة، أصغر منك بستة أعوام. لست عجوزاً، لكنه بدلاً من ذلك قال: «لا حاجة عندي إلى الأرقام الهزليين، ما لم تكن لديهم سفينة».

- «أظنُّ أنها ستكون صغيرة».

يرتفع (بيت التّجار) أربعة طوابق مطلقاً على المراسي والأرصفة والمخازن المحيطة به. هنا يختلط التّجار القادمون من (البلدة القديمة) و(كينجز لاندنج) بنظراتهم من (برافوس) و(پنتوس) و(مير)، وبالإبنيزيين المُشعرين والكارتين ذوي البشرة الشّاحبة وأولاد (جُزر الصّيف) ببشرتهم الفاحمة ومعافطهم الرّيش، وحتى بأسري الظلال المقنّعين من (آشاي) عند (بلاد الظل).

عندما نزل من الهائي شعَرَ كوينتن بدفء حجارة الرّصف تحت قدميه يتخلّل جلد حدائه. في الظلّ خارج (بيت التّجّار) نُصِبَت طاولة مزينة بأعلام مثلثة مخطّطة بالأزرق والأبيض تُرفرف مع كلّ نسمة هواء، وقد جلس حولها أربعة مرتزقة قساة النظرات يُنادون كلّ رجل أو فتى يمرّ. عرف كوينتن أنهم رُقباء من جماعة المذروّين الحرّة يبحثون عن لحم طازج لملء صنفوفهم قبل الإبحار إلى (خليج النخاسين). وكلّ رجل يلتحق بهم يعني سيفاً آخر في صفّ (يونكاي)، نصلاً آخر يتشرّب دماء عروسي.

صاح فيهما أحد المذروّين، فأجاب كوينتن: «لا أتحدّث لغتكم». مع أنه يُجيد قراءة الغاليريّة الفصحى وكتابتها فإنه لم يتمرّن إلّا قليلاً على نطقها، كما أن اللّهجة الثولانتينيّة شطحت بعيداً جدّاً عن أصولها الغاليريّة.
ردّ الرّجل بالعاميّة: «وستروسي؟».

- «دورني. سيّدي يبيع الخُمور».

- «سيّدك؟ سحفاً لهذا. أنت عبد؟ تعال معنا وكن سيّد نفسك. هل تُريد الموت في سيرك؟ سنُعَلِّمك القتال بالسيف والحرّبة. سنَدْخُل المعركة مع أمير الأسمال وترجع إلى وطنك أغنى من لورد. غلمان، فتيات، ذهب، أيّا كان ما تُريده إذا كنت بالرّجولة الكافية لأخذه. إننا المذروّون، وننكح إلهة المجازر في دُبرها».

شرع اثنان من المرتزقة في الغناء هادرين بكلمات نشيدٍ عسكري ما، وفهم كوينتن منه ما يكفي لإدراك الخلاصة.

نحن من تذرّوهم الرّيح. هُي بنا شرقاً إلى (خليج النخاسين). سنقتل الملك الجزار وننكح ملكة التّنانين.

قال جيريس: «لو كان كليتوس وويل معنا لعدنا بالرّجل الكبير وقتلناهم جميعاً».

كليتوس وويل ماتا. ردّ كوينتن: «لا تُلقِ إليهم بالأ».

رماهما المرتزقة بعبارات الاستهزاء إذ دخلا من باب (بيت التّجّار)، قائلين إنهما جبانان بلا دم وفتاتان مرعوبتان.

كان الرّجل الكبير متطرّفاً في عُرفتهم بالطّبق الثّاني. على الرغم من أن ربّان (طائر المروج) أشار عليهم بالنّزول في هذا الخان فهذا لا يعني أن

كويتن سيتْرُك حاجياتهم وذهبهم بلا حماية. في كلِّ ميناءٍ لصوص وجرذان وعاهرات، وهؤلاء أكثر في (فولانتيس) من أغلب الأماكن الأخرى.

قال السير آرشيولد يرونوود وهو يرفع مزلاج الباب ليُدخلهما: «كنتُ على وشك الخروج للبحث عنكما». كليتوس ابن عمِّه هو من بدأ دعوته بالرجل الكبير، لكنه يستحقُّ اللقب عن جدارة، فأرش يبلغ ستَّة أقدام ونصفًا طولاً، عريض المنكبين ضخم البطن، وساقاه كجذوع الأشجار ويدها كأفخاذ الخنازير، وعُنقه قصير للغاية. في طفولته أصيبَ بعلَّةٍ ما تسبَّبت في سقوط شعره كلِّه، ويُدكَّر رأسه الأصلع كويتن بجُلُمودٍ وردي أملس. سألهما آرش: «حسن، ماذا قال المهربُّ؟ هل وجدنا قاربًا؟».

قال كويتن مصحِّحًا: «سفينة»، ثم أضاف: «أجل، سيأخذنا، ولكن حتى أقرب جحيم لا أكثر».

جلس جيريس على سريرٍ غائص وخلعَ حذاءه قائلاً: «(دورن) تبدو أكثر جاذبيَّةً بمرور كلِّ لحظة».

قال الرجل الكبير: «ما زال رأيي أن طريق الشياطين أفضل لنا. قد لا يكون محفوظًا بالأخطار كما يقولون، وإذا كان كذلك فمعنى هذا المزيد من المجد لمن يجسرون على سلوكه. من يجروء على التَّحرُّش بنا؟ درينك معه سيفه وأنا معي مطرقتي، هذا أكثر مما يستطيع أيُّ شيطانٍ الاحتمال».

قال كويتن: «وإذا ماتت دنيرس قبل أن نبلُغها؟ لا بُدَّ من سفينة، حتى إذا كانت (المغامرة)».

ضحك جيريس قائلاً: «مؤكَّد أنك أكثر اشتياقًا إلى دنيرس مما حسبتُ إذا كنت مستعدًّا لتحملُ تلك الرَّاثة طوال شهور. عن نفسي لتوسَّلتُ إليهم أن يقتلوني بعد ثلاثة أيام. لا يا أميري، أرجوك، ليس (المغامرة)».

سأله كويتن: «هل عندك وسيلة أفضل؟».

- «نعم، وقد خطرَت لي الآن فحسب. إن لها مخاطرها، وليست بوسيلةٍ تُوصَف بالشرف، أعتَرِفُ بهذا... لكنها ستأخذك إلى ملكتك أسرع من طريق الشياطين».

قال كويتن مارتل: «أخبرني».



چون

قرأ چون سنو الرّسالة مرارًا وتكرارًا حتى بدأت الكلمات تتشوّش في نظره وتمتزج. لا يُمكنني أن أوقّعها، لن أوقّعها. همّ بإحراق الرّق في التّو واللّحظة، لكنه بدلًا من ذلك أخذ رشفةً من المِزر، ثمّالة نصف الكوب الذي تبقي من عشاءه الذي تناوله وحيدًا ليلة أمس. يجب أن أوقّعها. لقد اختاروني قائدًا عليهم. (الجدار) تحت قيادتي، وكذلك الحرس. حرس اللّيل لا يتدخلون.

أراحه أن فتح إد توليت الكئيب الباب ليُخبره بأن جيلي بالخارج، فنحّي رسالة المايستر إيمون جانبًا، وقال: «سأراها». كم يخشى هذا. «واعثر لي على سام. أريد أن أتكلّم معه بعدها».

قال إد الكئيب: «سيكون بالأسفل مع الكُتب. اعتاد سِبتوني القديم أن يقول إن الكُتب موتى يتكلّمون، أمّا أنا فأقول إن على الموتى أن يبقوا صامتين. لا أحد يريد أن يسمع ميتًا يُثرثر»، ثم ذهب يُهمهم بكلام ما عن الدود والعناكب. حين دخلت جيلي جثت على رُكبته من فورها، فدَار چون حول المنضدة وساعدها على النهوض قائلاً: «ليس عليك أن تجثي أمامي، هذا للملوك وحدهم». على الرغم من كونها زوجةً وأمًّا لا تزال جيلي تبدو في عينيه طفلةً، فتاةً نحيلةً صغيرةً ملفوفةً بأحد معاطف سام القديمة، والمعطف كبير عليها لدرجة أنها تستطيع إخفاء عدّة فتياتٍ أخريات تحت طيّاته. سألتها: «هل الصّغيران بخير؟».

ابتسمت الهمجيّة بخنوع من تحت قلسوتها مجيبةً: «نعم يا سيّدي. كنتُ

أخشى ألا يكون لديّ لبن يكفي الاثنين، لكن كلما رضعا زاد لبني. إنهما قويّان».

- «عليّ أن أخبرك بشيءٍ صعب». كان على وشك أن يقول «أطلبُ»، إلا أنه منع نفسه في اللحظة الأخيرة.

- «أهو مانس؟ قال توسّلت للملك أن يصفح عنه، قالت إنها ستسمح لراكم ما بالزواج بها ولن تشقّ حلقه أبداً ما دام مانس سيعيش. سيّد العظام هذا، الملك سيصفح عنه أيضاً. لقد أقسم كراستر دوماً أن يقتله إذا أظهر وجهه عند القلعة، ومانس لم يرتكب نصف ما ارتكب من أشياء».

كلُّ ما فعله مانس أنه قاد جيشاً ضد البلاد التي أقسم على حمايتها. «مانس حلفَ يميننا يا جيلي، ثم انشقّ وتزوَّج دالا وتوَّج نفسه ملكاً وراء الجدار. إن حياته بين يديّ الملك الآن. ليس هو من يجب أن نتكلّم عنه، بل ابنه، صبي دالا».

قالت بصوتٍ راجف: «الرّضيع؟ لكنه لم يحنث بأيّ إيمان يا سيّدي. إنه ينام ويكي ويرضع، هذا كلُّ شيء، ولم يؤذِ أحداً قط. لا تدعها تُحرّقه. أنقذه أرجوك».

ردّ جون: «أنتِ وحدكِ تستطيعين إنقاذه»، وأخبرها بالوسيلة. لو كانت امرأةً أخرى لصرخت فيه، لعنته، دعت عليه بالحريق في الجحائم السبع. لو كانت امرأةً أخرى لانقضّت عليه، صفعته، ركّته، خمشت عينه بأظفارها. لو كانت امرأةً أخرى لوكرّته بالتحدّي في أسنانه.

أمّا جيلي فهزّت رأسها قائلةً: «لا، أرجوك، لا». التقطّ الغداف منها الكلمة، وصرخ: «لا!».

- «ارفضي وسيحترق الصّبي، ليس غداً أو بعد غد... لكن قريباً، متى احتاجت مليساندرا إلى إيقاظ تين أو اشتداد الرّياح أو عمل تعويذة ما تتطلب دماء الملوك. عندئذٍ سيكون مانس رماداً وعظماً، وعليه ستأخذ ابنه لتلقيه في النّار، ولن يرفض ستانيس. إذا لم تأخذي الصّبي معكِ وترحلي فسوف تُحرّقه».

قالت جيلي: «سأرحل، سأخذه، سأخذ الاثنين، ابن دالا وابني». تبينّ جون أن الدّموع تسيل على وجنتيها، ولولا التماعها في ضوء الشّموع

لما عرفَ أنها تبكي. لا بُدَّ أن زوجات كراستر علَّمن بناتهن أن يذرفن دموعهن في وسادة، وربما تَعوِّدن البكاء بالخارج بعيداً عن قبضتي كراستر. ثنى أصابع يد السَّيف قائلاً: «خذي الولدين وسيخرج رجال الملكة وراءك ويعودون بك جرّاً. ستظلُّ النَّار مصير الصَّبي... وأنتِ معه». إذا واسيتها فقد تحسب الدَّموع قدرةً على تحريكه. يجب أن تُدركِ أنني لن أترجح. «ستأخذين واحداً هو ابن دالا».

- «لا يُمكن لأُمّ أن تهجرُ ابنها وإلاّ فهي ملعونة إلى الأبد. إلاّ ابنها. سام وأنا أنقذناه. أرجوك يا سيّدي، لقد أنقذناه من البرد».

- «يُقال إن التجمُّد حتى الموت أدنى إلى السَّلام، في حين أن النَّار... هل ترين الشَّمعة يا جيلي؟».

رمقت اللهب مجيبةً: «نعم».

- «المسي اللهب، ضعي يدك فوقه».

أُسعَت عيناها البتّتان الواسعتان أكثر، ولم تتحرّك.

- «افعلها». أقتل الصَّبي. «الآن».

مرتجفةً، مدّت الفتاة يدها ووضعتهَا فوق لهب الشَّمعة المتذبذب بمسافةٍ آمنة.

- «اخفِضي يدك، دعي اللهب يُقبِّلها».

وهكذا خفّضت جيلي يدها، بوصةً، ثم أخرى، ثم عندما لعق لسان اللهب جِلدها اختطفَت يدها وأجهشت بالبكاء.

- «النَّار طريقة بشعة للموت. دالا ماتت لتمنح هذا الطُّفل الحياة، لكنك أطعمته وأحسنَت إليه. لقد أنقذتِ ابنك من الجليد، فأنقذي ابنا الآن من النَّار».

- «سيحرقون صغيري إذن. المرأة الحمراء، إذا لم تحظْ بابن دالا فستحرق ابني».

- «ليست في عروق ابنك دماء ملكيّة، ولن تجني مليساندرا شيئاً بإعطائه للنَّار. ستانيس يُريد شعب الأحرار أن يُحارب معه، ولن يُحرق طفلاً بريئاً دون سببٍ وجيه. سيكون ابنك آمناً. سأجدُ له مُرضعةً وسينشأ هنا في (القلعة السوداء) تحت حمايتي. سيتعلّم الصَّيد وركوب الخيل والقتال بالسَّيف

والفأس والقوس، وسأحرصُ أيضًا على تعلُّمه القراءة والكتابة». سيحُثُّ سام هذا. «ولمَّا يكبر بما فيه الكفاية سيعلم حقيقة أصله، وله الحرِّيَّة في الذهاب إليك عندئذٍ إذا أراد».

غمغمت: «ستجعلونه غُرابًا»، ومسحت دموعها بظهر كَفِّها الصَّغيرة الشَّاحبة، وقالت: «لن أفعل ذلك، لن أفعله».

أقتل الصَّبِي. «ستفعلينه، وإلَّا فإنني أعدك، يوم يُحرِّقون ابن دالا سيموت ابنك أيضًا».

صرخ غُدا فالدُّب العجوز: «يموت، يموت، يموت، يموت!».

جلست الفتاة مطأئئة الرَّأس منكمشةً على نفسها تُحدِّق بصمتٍ إلى لهب الشمعة، وأخيرًا قال چون: «لك إذني في الانصراف. لا تذكُري الأمر لأحد، لكن اعملي على أن تكوني جاهزةً للرَّحيل قبل ساعةٍ من الفجر. سيأتيك رجالِي».

نهضت جيلي، وخرجت واجمةً ممتعةً الوجه دون نظرةٍ إلى الورا، وسمع چون خطواتها إذ اندفعت عبر مستودع السِّلاح بسرعةٍ أقرب إلى العدو.

حين ذهبَ يُغلق الباب رأى جوست متمدِّدًا أسفل السَّنْدان يقضم عظمة ثور، ورفع الذُّب الأبيض الكبير رأسه مع اقترابه، فقال له: «أخيرًا عدت؟»، ثم عاد إلى كرسيه ليُعيد قراءة رسالة الجايستر إيمون.

بعد قليل ظهرَ سامويل تارلي حاملًا كومةً من الكُتب، ولم يكد يدُخل حتى طارَ غُدا فمورمونت إليه طالبًا الدُّرة، ففعلَ سام ما يستطيع كي يُلبِّي طلبه، وأخرج حَفنةً من الحبوب من كيس يُجاور الباب، وفعلَ الغُدا ما يستطيع كي ينفُر راحة يده، فعوَّل سام المَّا، وحلَّق الطائر مبتعدًا، وتناثرت حبوب الدُّرة.

سأله چون: «هل جرحَ المأفون جلدك؟».

خلع سام فُقَّازَه بحذرٍ مجيبيًا: «نعم، إنني أنزف!».

ردَّ چون: «كلنا ننزف من أجل حرس الليل. ارتدِ قُفازاتِ أغلظ»، ودفع مقعدًا بقدمه نحو سام، وأردف: «اجلس وألقِ نظرةً على هذا»، وناولَه الرِّقَّ.

- «ما هذا؟».

- «درع من ورق».

قرأ سام بتأن، ثم تساءل: «رسالة إلى الملك تو من؟».

قال چون متذكراً: «في (ويترفل) تبارز تو من وأخي بران بسيفين خشبيين. كان يرتدي بطانة سميكة لدرجة أنه بدا كأوزة محشوة، وطرحه بران أرضاً، وذهب إلى النافذة وفتحها. بالخارج كان الهواء بارداً منعشاً على الرغم من تلبّد السماء بالغيوم. «ومع ذلك مات بران، والآن يجلس تو من السمين ذو الوجه المتورّد على العرش الحديدي، ووسط خصلاته الذهبية يستقرّ التاج». رسم قوله نظرة غريبة على وجه سام، وللحظة بدا كأنه يريد أن يقول شيئاً، لكنه بدلاً من ذلك ابتلع ريقه ونظر إلى الورقة قائلاً: «لم تُوقّع الرسالة».

هزّ چون رأسه، وقال: «الدّب العجوز توّسل العون من العرش الحديدي مئة مرّة، فأرسلوا إليه چانوس سلينت. لا رسالة من شأنها أن تجعل آل لانستر يحبّوننا أكثر ما إن يسمعوا أننا ساعدنا ستانيس».

- «في الدّفاع عن (الجدار) فقط، وليس في تمردّه، هذا هو المكتوب هنا».

قال چون: «قد يغيب الفرق عن اللورد تايوين»، وتناول الرسالة من سام متسائلاً: «لِمَ يُساعدنا الآن؟ إنه لم يفعلها من قبل قطّ».

- «لأنه لن يريد أن يقول النّاس إن ستانيس هبّ للدّفاع عن البلاد فيما يلعب الملك تو من بلُعبه. شيء كهذا سيؤدّي إلى السّخرية من عائلة لانستر».

قال چون: «ما أريده لعائلة لانستر هو الموت والدّمار»، ورفع الرسالة وقرأ: «حرس اللّيل لا يتدخّلون في حروب (الممالك السّبع). إننا نحلف أيماننا للبلاد، والبلاد في خطرٍ داهم الآن. ستانيس باراثيون يُساعدنا ضد أعدائنا من وراء (الجدار)، لكننا لسنا رجاله...».

تلوّى سام في مقعده قائلاً: «طيّب، نحن لسنا رجاله بالفعل، أليس كذلك؟».

- «لقد أعطيت ستانيس الطّعام والمأوى و(قلعة اللّيل)، بالإضافة إلى

السّماح له بتوطين عددٍ من شعب الأحرار في (الهدية)، هذا كل شيء».

- «اللورد تايوين سيقول إن هذا كثير للغاية».

- «وستانيس يقول إنه لا يكفي. كلّما أعطيت ملكاً المزيد أراد أكثر. إننا

نمشي على جسرٍ من الجليد على جانبيه هاوية. إرضاء ملكٍ واحد عسير بما فيه الكفاية، أمّا إرضاء اثنين فيكاد يكون مستحيلًا».

- «نعم، لكن... إذا كانت الغلبة لآل لانستر وقرّر اللورد تايوين أننا خُنّا الملك بدعمنا ستانيس فقد يعني هذا نهاية حرس الليل. إن وراءه آل تايرل وقوّة (هايجاردن) بأكملها، كما أنه هزمَ اللورد ستانيس في معركة (النّهر الأسود)». - «(النّهر الأسود) معركة واحدة. روب انتصرَ في معاركه كلّها وفقدَ رأسه رغم ذلك. إذا استطاعَ ستانيس أن يحشد الشّمال...».

تردّد سام قبل أن يقول: «آل لانستر معهم شماليّون في صفوفهم، اللورد بولتون ونغله».

- «ستانيس معه آل كارستارك. إذا فازَ بتأييد (الميناء الأبيض)...». قاطعه سام ضاغطًا على الكلمة: «إذا. وإذا لم يحدث... سيّدي، حتى درع من ورق أفضل من لا شيء».

- «أظنُّ هذا». هو وإيمون متفقان. بشكل ما كان يأمل أن يرى سامويل تارلي الأمر بنظرةٍ مختلفة. إنه مجرد جبر على ورق. وهكذا، مستسلمًا، التقطَ ريشةً وذيلَ الرّسالة بتوقيعه، وقال: «أحضر الشّمع». قبل أن أغيّر رأبي. أسرعَ سام يُطيع أمره، ومهرَ چون الرّسالة بختم القائد، ثم ناوله إياها قائلًا: «خذها إلى المايستر إيمون حين تُغادر وقلّ له أن يُرسل طائرًا إلى (كينجز لاندنج)». قال سام بنبرةٍ مستريحة: «سأفعل»، ثم استطرذ: «سيّدي، إذا سمحت لي بالسؤال... لقد رأيتُ جيلي وهي ذاهبة، وكانت مجهشةً بالبكاء».

ردّ چون كاذبًا: «قال أرسلتها تشفّع لمانس مجددًا». ثم إنهما تحدّثا بعض الوقت عن مانس وستانيس ومليساندرا الآشايّة، إلى أن أكل الغداف حبةً الذرة الأخيرة على الأرض، وصرخ: «دماء!».

قال چون: «سأصرفُ جيلي من هنا، هي والصّبي. علينا أن نجد مُرضعةً أخرى لأخيه في الرّضاعة».

- «لا بأس بحليب الماعز حتى تجدوا واحدة. إنه أفضل للرّضع من حليب الأبقار». من الواضح أن الكلام عن الأتداء يُصيب سام بالارتباك، ففجأةً بدأ يتكلّم عن التّاريخ والقادة الصّبية الذين عاشوا وماتوا قبل مئات الأعوام، إلى أن قاطعه چون بقوله: «أخبرني بشيء مفيد، حدّثني عن عدوّنا».

قال سام: «(الآخرون)»، ولعق شفتيه مستدرگًا: «إنهم مذكورون في السجلات، وإن لم يكن بالكثرة التي حسبتها... في السجلات التي وجدتتها وقرأتها بالأحرى، لكنني أعرفُ أن هناك المزيد مما لم أجدّه. بعض الكتب الأقدم منسّخ، والصفحات تنفتت حين أحاولُ أن ألقبها. وبالنسبة إلى الكتب العتيقة... إِمَّا أنها نفتتت تمامًا وإِمَّا أنها مدفونة في مكانٍ ما لم أبحث فيه بعدُ، وربما... ربما لا تكون هناك كتب كهذه من الأصل ولم يكن لها وجود قطُّ. أقدم التواريخ المدوّنة كان بعد مجيء الأنداليين إلى (وستروس)، بينما ترك لنا البشر الأوائل نقوشًا على الصُخور فحسب، لذا فإن كل شيءٍ نَظُنُّ أننا نعرفه عن عصر الأبطال واللّيل الطويل يأتي من حكايات كتبها سبتونات بعد آلاف الأعوام من تلك الأحداث، وهناك ما يسترات رؤساء في (القلعة) يُشككون فيها جميعًا. تلك التواريخ القديمة ملأى بالملوك الذين حكموا مئات السنين، والفُرسان الذين جابوا البلاد قبل ألف عام من وجود فُرسان. أنت تعرف تلك الحكايات؛ براندون البناء وسيميون ذو العينين النجميتين وملك اللّيل... نحن نقول إنك القائد التسعمة وثمانية وتسعون لحرس اللّيل، لكن أقدم قائمةٍ وجدتها تضمُّ ستمئة وأربعة وسبعين قائداً، وهو ما يُفيد بأنها كُتبت...».

قاطعه چون ثانية: «منذ زمنٍ طويل. ماذا عن (الآخرين)؟».

- «وجدتُ ذكراً لزجاج التّنين. أطفال الغابة تعودوا أن يُعطوا حرس اللّيل مئة خنجرٍ من الزُّجاج البركاني كل عامٍ خلال عصر الأبطال. معظم الحكايات متّفق على أن (الآخرين) يأتون في البرد، أو أن البرد يأتي معهم. أحياناً يظهرون وقت العواصف الثلجيّة ويختفون حين تصفو السّماء، ويختبئون من ضوء الشّمس ويخرُجون ليلاً... أو أن اللّيل يحل حين يخرُجون. بعض القصص يتكلّم عن ركوبهم الحيوانات الميتة؛ الدّبة والدّئاب الرّهية والماموثات والخيول، لا فرق ما دام الحيوان ميتاً. الذي قتلَ پول الصّغير كان يمتطي حصاناً ميتاً، فواضح أن هذا الجزء صحيح. بعض الحكايات يذكُر عناكب جليديّة أيضاً، لكنني لا أدري ماهيتها. من يسقطون في المعركة أمام (الآخرين) لا بُدَّ أن يُحرقوا وإلّا سينهض الموتى من جديد كعبيدٍ لهم».

- «نعرف كل هذا. السُّؤال هو كيف نُقاتلهم؟».

- «دروع (الآخرين) منيعة ضد معظم الأسلحة التقليدية، إذا صدقنا ما ورد في الحكايات، وسيوفهم باردة للغاية لدرجة أنها تُحطّم الفولاذ، لكنهم يهابون النار، ومن شأن زجاج التّنين أن يؤذيهم. وجدتُ حكايةً عن اللّيل الطّويل تقول إن البطل الأخير قتل (الآخرين) بسيفٍ من فولاذ التّنين. المفترض أنهم لا يستطيعون الصّمود أمامه».

ردّد چون: «فولاذ التّنين؟». المصطلح جديد عليه. «الفولاذ الغالييري؟». قال سام: «هذا أول ما خطر لي أيضًا».

- «إذن إذا استطعتُ أن أفزع لوردات (الممالك السّبع) بإعطائنا سيوفهم المصنوعة من الفولاذ الغالييري فستنتهي المشكلة؟ لن يكون هذا صعبًا. ليس أصعب من طلب أن يتنازلوا عن أموالهم وقلاعهم. أطلق ضحكةً مريرةً، وسأل سام: «هل عرفت من يكون (الآخرين)؟ من أين يأتون؟ ماذا يريدون؟».

- «ليس بعدُ يا سيّدي، لكن لعلّي كنتُ أقرأ الكُتب الخطأ فقط. هناك مئات الكُتب التي لم أفتحها حتى الآن. أعطني مزيدًا من الوقت وسأجدُ كل ما يمكن إيجاده».

- «ليس هناك مزيد من الوقت. عليك أن تحزم أغراضك يا سام، إنك راحل مع جيلي».

حملتُ سام إليه مغمور الفاه كأنه لا يفهم معنى الكلمة، ثم قال: «راحل؟ أنا راحل؟ إلى (القلعة الشّرقية) يا سيّدي؟ أم... أين...».

- «(البلدة القديمة)».

ردّد سام بصوتٍ رفيع كالصّريير: «(البلدة القديمة)؟!». - «وإيمون أيضًا».

- «إيمون؟ المايستر إيمون؟ لكن... لقد تجاوزَ المئة بعامين يا سيّدي، ولا يقوى على... سترسله وترسلني أيضًا يا سيّدي؟ ومن سيعتني بالغدّفان؟ إذا مرضت أو جرحت، فمن...».

- «كلايداس، إنه مع إيمون منذ سنوات».

- «كلايداس مجرد وكيل، وبصره يزداد ضعفًا. أنت محتاج إلى مايستر.

المايستر إيمون واهن، ورحلة في البحر... ربما... إنه شيخ، و...».

- «ستكون حياته في خطر، أدركُ هذا يا سام، لكن الخطر هنا أكبر. ستانيس يعرف من هو إيمون، وإذا كانت تعاويد المرأة الحمراء تقتضي دم المملوك...».

غمغم سام وقد غاصت الدماء من وجنتيه السَّمينتين: «أوه» .
- «سينضمُّ داريون إليكم في (القلعة الشرقيّة). أُملي أن تُكسبنا أغانيه بعض الرّجال في الجنوب. ستحملكم (الطائر الأسود) إلى (برافوس)، ومن هناك عليكم ترتيب رحلتكم إلى (البلدة القديمة). إذا كنت لا تزال تعتزم أن تُعلن ابن جيلي نغلك، فأرسلها إلى (هورن هيل)، وإن لم يكن فسيجد لها إيمون عملاً كخادمةٍ في (القلعة)».

- «ننغلي. نعم، أنا... أُمّي وأخواتي سيُساعدن جيلي على العناية بالصّبي. داريون يستطيع أن يصحبها إلى (البلدة القديمة) مثلي تمامًا. إنني... إنني أتمرّن على الرّماية كلَّ أصيل مع أولمر كما أمرت... إلّا عندما أكون في القبو، لكنك قلت لي أن أكتشف ما يُمكن اكتشافه عن (الآخرين). القوس الطويل يُؤلم كتفي ويجعل أصابعي تتقرّح»، ورفع سام يده يُري جون أحد القروح المفتوحة مواصلاً: «لكنني ما زلتُ أتمرّن، وأستطيع أن أصيب الهدف معظم الوقت الآن، إلّا أنني لا أزال أسوأ رام حمل قوساً في العالم. لكنني أحبُّ قصص أولمر. على أحدهم أن يُدوّنها ويضعها في كتاب».

- «دوّنها إذن. إن لديهم حبراً وورقاً في (القلعة)، بالإضافة إلى الأقواس الطويلة. سأتوقّع منك أن تُواصل تدريباتك. سام، في حرس الليل مئات الرّجال الذين يستطيعون الرّمي بالسّهام، لكن ليس بينهم إلّا شردمة ممن يُجيدون القراءة والكتابة. أريدك أن تكون ما يستري الجديد».

- «سيدي، أنا... إن عملي هنا. الكُتب...».

- «... ستكون هنا عندما تعود إلينا».

وضع سام يده على عنقه، وقال: «سيدي، (القلعة)... إنهم يجعلونك تُشرح الجُثث هناك. لا يُمكنني أن أضع سلسلة».

- «بل يُمكنك، وستفعل. المايستر إيمون عجوز كيف وفوّته تتسرّب منه. من سيحل محله عندما يموت؟ المايستر مولين في (برج الظلال) مُقاتل أكثر من نطاسي، والمايستر هارميون في (القلعة الشرقيّة) يسكر أكثر مما يستفيق».

- «إذا سألت (القلعة) أن تُرسل المزيد من المايسترات...».

- «هذا ما أتتويه، فسنتحتاج إلى كل واحدٍ منهم، لكن إيمون تارجارين لا يُستبدل بسهولة». الأمر لا يمضي بالبساطة التي أملتها. كان يعلم أن جيلي ستكون صعبة، غير أنه افترض أن سام سيُسَرُّ لاستبدال مخاطر (الجدار) بدفء (البلدة القديمة). هكذا قال حائرًا: «كنتُ واثقًا بأن الأمر سيسرُّك. في (القلعة) كُتِبَ أكثر مما يأمل أحد أن يقرأها كلها. ستبلي بلاءً حسنًا هناك يا سام، أعلمُ هذا».

- «لا يُمكنني أن أقرأ الكُتُب، لكن... على المايستر أن يكون مُعالجًا أيضًا، والدُددم يُصيني بالدُّواز»، وارتجفت يد سام مثبتةً صحَّةَ قوله وهو يُضيف: «أنا سام الخائف لا سام القاتل».

- «خائف؟ ممّ؟ تويخ بضعة رجالٍ مسنّين؟ سام، أنت رأيت الجُثث الحيّة تجتاح (القبضة)، رأيت طوفانًا من الموتى الأحياء بأيّد سوداء وأعينٍ زرقاء لامعة. لقد قتلت واحدًا من (الآخرين)».

- «قتله زُرُزُرُ جاج التين وليس أنا».

محتدًا قال چون: «صمتًا». بعد جيلي ليس عنده صبر على مخاوف الصّبي البدين. «لقد كذبت وتحايّلت وتأمّرت لتجعلني القائد، ستُطيعني إذن. ستذهب إلى (القلعة) وتكوّن سلسلةً، وإذا كان عليك أن تُشرّح الجُثث فليكن. على الأقل لن تعترض الجُثث في (البلدة القديمة)».

- «سيّدي، إن أأأبي، اللورد راندل، إنه، إنه، إنه، إنه... حياة المايستر حياة خدمة. لا أحد من أبناء عائلة تارلي يضع سلسلةً حول عنقه أبدًا. رجال (هورن هيل) لا ينحنون للوردات الأدنى ويُعظّمونهم. چون، لا أستطيع أن أعصي أبي».

فكّر چون: اقتل الصّبي، الصّبي الذي في داخلي وفي داخلك، اقتلهم أيتها النّعل الملعون. «أنت لا أب لك، بل إخوة فقط، نحن فقط. إن حياتك تنتمي إلى حرس اللّيل، فاذهب واحشُر ثيابك الدّاخليّة في جوالٍ ومعها كلّ شيءٍ آخر تُريد أن تأخذه إلى (البلدة القديمة). ستُعادِر قبل ساعةٍ من الشُّروق. وهاك أمر آخر: من اليوم فصاعدًا لن تنعت نفسك بالجبّين. لقد واجهت في العام المنصرم أشياء أكثر مما يرى معظم النّاس في حياتهم كلها. يُمكنك

أن تُواجه (القلعة)، لكنك ستواجهها باعتبارك أخًا محلّفًا في حرس الليل. لا أستطيع أن أمرك بأن تكون شجاعًا، لكنني أستطيع أن أمرك بأن تُخفي مخاوفك. لقد حلفت اليمين يا سام، أتذكر؟».

- «س... سأحاول».

- «لن تُحاول، وإنما ستُطيع».

خفق غُداف مورمونت بجناحيه الأسودين الكبيرين مردّدًا: «تُطيع!».
بدا على سام أنه يتداعى إذ قال: «كما يأمر سيّدي. هل... هل يعرف المايستر إيمون؟».

قال چون: «إنها فكرته بقدر ما هي فكرتي»، وفتح له الباب مردّفًا: «لا وداع. كلّمنا قلّ عدد من يعلمون بالأمر كان أفضل. ساعة قبل طلوع الفجر في ساحة الأُسنة⁽¹⁾».

وتمامًا كما فعلت جيلي، فرّ منه سام.

أحسّ چون بالتعب. أحتاجُ إلى النّوم. لقد قضى نصف الليل مستيقظًا يتأمّل الخرائط ويكتب الرسائل ويضع الخطط مع المايستر إيمون، وحتى بعد أن ألقى نفسه في فراشه الضيق لم يأتِه النّوم بسهولة. كان يعلم ما عليه أن يواجهه اليوم، ووجد نفسه يتملّم ويتقلّب متوترًا وهو يفكر مليًا في آخر كلمات المايستر إيمون، وكيف قال له العجوز: «فليسمح لي سيّدي بأن أنصحك نصيحةً أخيرةً، النصيحة نفسها التي قدّمتها لأخي حين افترقنا للمرّة الأخيرة. كان في الثالثة والثلاثين عندما اختاره المجلس العظيم لاعتلاء العرش الحديدي، رجلًا بالغًا له أولاد، وإن ظلّ في بعض النّواحي صبيًا. كان إج يتسم بنوع من البراءة، بعدوية أحببناها جميعًا. يوم أبحرتُ إلى (الجدار) أخبرته: اقتل الصّبي الذي في داخلك. الحُكم يتطلب رجلًا، إجون وليس إج. اقتل الصّبي ودع الرّجل يُولد»، ثم تحسّس الشّيخ وجه چون وأتبع: «إنك في نصف سنِّ إج وقتها، وأخشى أن حملك أثقل. إنك لن تجد كثيرًا من

(1) الأُسنة كائنات تعائشيّة تتكوّن من تراقق بين الطّحالب الخضراء أو الجراثيم الزّرقاء والفطريّات، وتنمو على الأبنية القديمة والقبور، ولذا يُطلق على ساحات المقابر هذا الاسم. (المترجم).

البهجة في القيادة، لكنني أظنُّ أن في داخلك القوَّة اللازمة لِلفعل ما يجب فعله. اقتُل الصَّبي يا چون سنو، فالشَّيء يدنو، اقتُل الصَّبي ودع الرَّجل يُؤلِّد». ارتدى چون معطفه وخرج. كلُّ يوم يدور في أنحاء (القلعة السَّوداء)، يزور الرِّجال الواقفين حراسةً ويسمع تقاريرهم بنفسه، ويُشاهد أولمر ومن تحت إمرته يتمرِّنون على الرِّماية، ويتكلَّم مع رجال الملك ورجال الملكة على حدِّ السَّواء، ويمشي على الجليد على قمَّة (الجدار) ليُلقي نظرةً على الغابة، ويتحرَّك معه جوست كطلُّ أبيض إلى جانبه.

كان كِدج ذو العين البيضاء يتولَّى القيادة فوق (الجدار) حين صعَدَ چون. كِدج كهل تجاوزَ الأربعين عامًا، منها ثلاثون قضاها على (الجدار)، عينه اليسرى عمياء واليمنى قاسية. في البراري، وهو وحده بفأسه وحصانه، يُضارع أيَّ جوالٍ في حرس اللَّيل في البراعة، لكن العلاقة بينه وبين بقية الرِّجال لم تكن طيبةً قط. عندما رأى چون خاطبه قائلاً: «اليوم هادئ، لا شيء يستحقُّ الإبلاغ عنه، باستثناء جوالِي الطَّرِيق الخطأ!». - «جوالا الطَّرِيق الخطأ؟».

أجاب كِدج بابتسامةٍ عريضة: «فارسان خرجا قبل ساعةٍ جنوبًا على (طريق الملوك). حين رآهما دايوين يرحلان قال إن الأحمقين الجنوبيين ذاهبان في الطَّرِيق الخطأ». - «مفهوم».

عرفَ چون المزيد من دايوين نفسه فيما كان الحطَّاب العجوز يشرب حساء الشَّعير في الثكنات، إذ أخبره: «أجل يا سيِّدي، لقد رأيتهما. إنهما هورب وماسي. زعما أن ستانيس أرسلهما في مهمَّة، لكنهما لم يذكرا أين أو لأَيِّ غرض أو متى سيعودان».

السير ريتشارد هورب والسير چاستن ماسي كلاهما من رجال الملكة، ومن أبرز مُستشاري الملك. فكَّر چون سنو: كان اثنان من المُحاربين غير النِّظاميين يصلحان لو أن كلَّ ما يُريده ستانيس استطلاع الطَّرِيق، أمَّا الفرسان فأصلح كُرسل أو مبعوثين. كان كوتر بايك قد أرسل خبرًا من (القلعة الشَّرقيَّة) بأن لورد البصل وسالادور سان قد أبحرا إلى (الميناء الأبيض) للتفاوض مع

اللورد ماندرلي، ومن المنطقي أن يُرسل ستانيس مبعوثين آخرين، فجلالته ليس بالرَّجل الصَّبور.

على أن عودة جِوَالِي الطَّرِيق الخطأ مسألة أخرى. قد يكونان فارسين، لكنهما لا يعرفان الشَّمال. ستكون على (طريق الملوك) أعين، وليس جميعها لأصدقاء. ليس هذا من شأنه على كلِّ حال. فليحفظ ستانيس بأسراره. الآلهة تعلم أن لي أسراري أيضًا.

نامَ جوست عند قدم فراشه ليلتها، وهذه المرَّة لم يحلمَ چون بأنه ذئب، وعلى الرغم من هذا كان نومه متقطَّعًا، وقد راح يتقلَّب لساعاتٍ قبل أن ينزلق إلى كابوس كانت جيولي بطلته، تبكي وتتوسَّل إليه أن يدع صغيريها وشأنهما، لكنه انتزعَ الطِّفلين من بين ذراعيها وبتَرَ رأسيهما، ثم بدَّل الرَّأسين وقال لها أن تخطط كلاً منهما بيدن الآخر.

حين استيقظَ وجدَّ إد توليت واقفًا فوقه في ظلِّمة عُرفة نومه يقول: «سيدي، حان الوقت. إنها ساعة الذُّئب⁽¹⁾. كنت قد تركت أوامر بإيقاظك».

أزاح چون أعطيته مجيبًا: «أحضِر لي شيئًا ساخنًا».

عادَ إد مع فروغه من ارتداء ثيابه ووضع في يديه كوبًا يتصاعد منه البخار. توقع چون أنه نبيذ متبل ساخن، وفاجأه أن وجدَّه حَسَاءً خفيفًا فيه رائحة الكُرَّاث والجزر لكن لا كُرَّاث فيه أو جزر. الرِّوائح أقوى في أحلام الذئاب، والطعام أشهى أيضًا. جوست حيٌّ أكثرَ مني. بعد أن شربَ ترك الكوب الفارغ على كور الحدادة.

ألفى كيجز واقفًا حراسةً على بابه هذا الصَّباح، فقال له: «سأريد أن أتكلَّم مع بدويك وچانوس سلينت. اجعلهما يأتيان هنا عند طلوع الفجر».

في الخارج كان العالم أسود ساكنًا. برد، ولكن ليس زمهريًا، ليس بعدُ. سيكون الجوُّ أدفأ حين تُشرق الشَّمس، وإذا شاءت الآلهة فقد يقطُر (الجدار). لمَّا بلغَ ساحة الأُسنة وجدَّ أن الرِّكب اتَّحدت تشكيل الحركة بالفعل. كان

(1) في عالم الرواية ساعة الذُّئب هي الفترة الأشدُّ حلَكَةً من اللَّيل، تسبقها -بالترتيب- ساعة الوطواط وساعة نُعبان الماء وساعة الأشباح وساعة البومة، وتليها ساعة العندليب، ثم الفجر. (المترجم).

چون قد ولى چاك بولوار الأسود الحراسة المرافقة، تحت قيادته دسته من الجوّالة الرّاكبين وعربتان. إحدى العربتين تتكوّم عليها الصّناديق والأقفاص والأجولة التي تحوي مؤن الرّحلة، والثانية لها سقف يابس من الجلد المقوى للوقاية من الرّيح، وقد جلس المايستر إيمون في مؤخرتها تحت فروة دُبّ ضخمة تجعله يبدو صغيراً كالأطفال، ووقف سام على مقربة مع جيلي. رأى عينها محمرّتين منتفختين، لكن الصّبي بين ذراعها ملفوف بإحكام. سواء أكان ابنها أم ابن دالا لا يدري، فهو لم ير الاثنتين معاً إلا مرّات قليلة. صبيّ جيلي أكبر، وصبيّ دالا أقوى، لكن الاثنتين قريان في السنّ والحجم حتى إن من لا يعرفهما جيّداً لا يستطيع التّمييز بينهما بسهولة.

ناداه المايستر إيمون قائلاً: «لورد سنو، لقد تركتُ لك كتاباً في مسكنك، (خلاصة اليشب) الذي كتبه المغامر الفولانتيني كولوكو فوتار، الذي سافر إلى الشّرق وزار جميع أراضي (بحر اليشب). هناك فقرة قد تُثير اهتمامك، قلتُ لكلايداس أن يُعلّمها لك».

- «سأحرصُ على قراءتها».

مسح المايستر إيمون أنفه، وقال: «المعرفة سلاح يا چون، فسَلِّح نفسك جيّداً قبل أن تخوض المعركة».

ردّ چون: «سأفعلُ»، ثم إنه شعر بشيءٍ بارد بليل على وجهه، ولَمّا رفع عينيه وجد الثلج يسقط. نذير سوء. التفت إلى چاك بولوار الأسود قائلاً: «أسرعوا قدر الإمكان، لكن لا داعي للمخاطرات الحمقاء. إن معكم رجلاً عجوزاً وطفلاً رضيعاً. احرص على دفتهم وإطعامهم جيّداً».

دون أن يبدو عليها استعجال ركوب العربة قالت جيلي: «افعل المثل يا سيّدي، افعل المثل مع الآخر، اعثر له على مُرضعةٍ كما قلت، لقد وعدتني بأنك ستفعل. الصّبيّ... صبيّ دالا... أعني الأمير الصّغير... اعثر له على امرأةٍ صالحة ليكبّر قوياً».

- «لكِ كلمتي».

- «إياكم أن تُسمّوه، لا تفعلوا هذا قبل أن يتجاوز العامين. تسميتهم وهم ما زالوا يرضعون طالع سيّء. ربما لا تعرفون هذا أيها الغربان، لكنه صحيح».

- «كما تأمرين يا سيّديتي».

رَدَّت: «لا تُنادِني بهذا. أنا أُمٌ ولسْتُ سيِّدة أحد، أنا زوجة كراستر وابنته، وأُم»، ثم ناوَلت الطَّفل لإد الكئيب فيما صعَدت إلى العربة وغطَّت نفسها بالجلود، وعندما ناوَلها إد الصَّغير ألقَمته ثديها، فأشاح سام بوجهه المتورِّد عن المنظر وامتطى فَرسه بحركةٍ ثقيلة.

طرَقَ جاك بولوار الأسود بسوطة وقال أمرًا: «هيا بنا»، وبدأت العربتان تتحرَّكان.

تخفَّف سام عن الآخريْن لحظةً ليقول: «حسن، وداعًا».

قال إد الكئيب: «وداعًا لك يا سام. لا أظنُّ أن سفينتك ستغرق. السُّفن لا تغرق إلَّا عندما أكونُ على متنها».

متذكِّرًا قال چون: «أول مرَّة رأيتُ جيلي كان ظهرها ملتصقًا بجدار (قلعة كراستر)، تلك الفتاة النَّحيلة ذات الشَّعر الدَّاكن والبطن المنتفخ، منكمشة رُعبًا من جوست. كان قد افترسَ أُرانبها، وأظنُّ أنها خافت أن يمزَّق بطنها ويلتهم جينها... ولكن الدُّب لم يكن ما عليها أن تخافه، أليس كذلك؟».

أجاب سام: «إنها تمتلك شجاعةً أكثر مما تحسب».

قال چون: «وكذلك أنا يا سام. رحلةٌ سريعةٌ آمنَّة، واعتن بها وبإيمون والطفل». ذكَّرتُه رقائق الثَّلج الدَّاثة على وجه سام بيوم ودَّع روب في (وينترفل) دون أن يعلم أنها المرَّة الأخيرة، فأضاف: «وارفع قلنسوتك. نُدف الثَّلج تذوب في شعرك».

ولدى غياب الرِّكب الصَّغير عن الأعين كانت سماء الشَّرق قد استحالت من الأسود إلى الرَّمادي واشتدَّ سقوط الثَّلج.

ذكَّره إد الكئيب قائلاً: «سيكون العملاق في انتظار حضرة القائد، وچانوس سلينت أيضًا».

قال چون سنو: «نعم»، ورفع عينيه إلى (الجدار) الشَّاهق كجُرْفٍ من الجليد. يمتدُّ مئة فرسخ من أقصاه إلى أقصاه ويرتفع سبعمئة قدم. قوَّة (الجدار) تكمنُ في علوِّه، وضعفه في طوله. تذكَّر چون شيئًا قاله أبوه ذات مرَّة: أيُّ جدارٍ ليس قويًّا إلَّا إذا كان من يُدافعون عنه أقوىاء. رجال حرس اللَّيل شُجعان، لكن أعدادهم قليلة للغاية لمقارنته بالمهمَّة التي تُواجههم.

كان العملاق منتظرًا في مستودع السِّلح. اسمه الحقيقي بدويك، وبطوله

الذي لا يتعدى الأقدام الخمسة يُعدُّ أصغر الرِّجال حجماً في حرس اللَّيل. بلا تمهيدٍ خاطبه چون قائلاً: «نحتاج إلى المزيد من الأعيُن على (الجدار)، إلى قلاعٍ فرعيَّةٍ تستطيع دورياتنا الاحتماء فيها من البرد والحصول على طعامٍ ساخنٍ وخبولٍ جديدة. سأضعُ حاميةً في (باب الجليد) وسأوليك قيادتها». وضع العملاق طرف خنصره في أذنه يُنظفها من الشمع، وقال: «القيادة؟ أنا؟ سيدي يعلم أنني ابن مُزارعٍ وأنا على (الجدار) لأنني اعتدتُ سرقة الصَّيد، أليس كذلك؟».

- «إنك جوالٌ منذ دسنةٍ من الأعوام، ونجوت من (قبضة البشر الأوائل) و(قلعة كراستر) وُعدت لتحكي عنهما. الرِّجال الأصغر يتطلَّعون إليك». صاحكاً قال الرِّجل الصَّغير: «فقط الأقزام يتطلَّعون ليّ. أنا لا أعرفُ القراءة يا سيدي، وفي أفضل الأحوال أستطيعُ كتابة اسمي». - «لقد أرسلتُ إلى (البلدة القديمة) أطلبُ المزيد من المايسترات. سيكون معك عُدا فان تستعين بهما حينما تكون حاجتك ماسَّةً، وإذا لم تكن كذلك فأرسل خيالةً. إنني أنوي إقامة خطٍّ من أبراج المنارات على قمة (الجدار) إلى أن يصبح لدينا المزيد من المايسترات والطيور». - «وكم أحمق مسكيناً سيكون تحت قيادتي؟».

أجاب چون: «عشرون من الحرس ونصف هذا العدد من ستانيس». مسنونٌ أو معدومو الخبرة أو جرحى. «لن يكونوا من خيرة رجاله، ولا أحد منهم سيرتدي أسود حرس اللَّيل، لكنهم سيُطيعونك. عليك باستغلالهم كيفما استطعت. أربعة من الإخوة الذين سأرسلهم معك سيكونون من أبناء (كينجز لاندنج) الذين أتوا إلى (الجدار) مع اللورد سلينت. أبق عيناً على هؤلاء وترقِّب المتسلِّقين بالثانية».

- «يُمكننا ترقيُّهم يا سيدي، لكن إذا بلغ عدد كافٍ من المتسلِّقين قمة (الجدار) فلن يكفي ثلاثون رجلاً لصدِّهم».

وقد لا يكفي ثلاثمئة. احتفظ چون بهذا الشكِّ لنفسه. صحيحٌ أن المتسلِّقين يكونون في موقفٍ في غاية الضَّعف وهم يصعدون، إذ يُمكن إِمطارهم من أعلى بالحجارة والجِراب وجِرار القار المحترق، وما بإمكانهم إلا التَّشبُّث بيأسٍ بالجليد. وأحياناً يبدو كأن (الجدار) نفسه يُدافع عن نفسه،

ينفضهم عنه كما ينفض الكلب البراغيث، وقد شهدَ چون هذا بأَمِّ عينيه عندما انشقَّ لوح من الجليد تحت چارل عشيق قال وألقى به من حالق إلى حتفه .
لكن إذا بلغ المتسلِّون قَمَّةَ (الجِدَار) دون أن يلحظهم أحدَ تغيَّر كل شيء، فمع الوقت يُمكنهم أن يُقيموا موطنًا لهم لأنفسهم هناك ويرفعوا متاريسهم الخاصَّة ويُلقوا الحبال والسَّلام لآلافٍ آخريين ليتسلَّقوا وراءهم. هكذا فعلها رايمون ذو اللِّحية الحمراء، رايمون الذي كان ملك ما وراء الجِدَار في أيام جدِّ جدِّه. في ذلك الحين كان چاك موسجود قائد حرس الليل، چاك المسرور كما كان لقبه قبل أن يتهجَّم ذو اللِّحية الحمراء على الشَّمال، وچاك الغافي كما عُرفَ إلى الأبد بعدها. لاقى جيش رايمون نهايةً داميةً على شواطئ (البُحيرة الطَّويلة)، إذ وقعَ بين مطرقة اللورد وِيلام سيِّد (ويتترفل) وسندان العملاق السكِّير هارموند أومبر، وسقطَ ذو اللِّحية الحمراء قتيلاً بيد آرتوس العنيد شقيق اللورد وِيلام الصَّغير. وصلَ رجال حرس الليل لقتال الهَمج متأخريين، ولكن في الوقت المناسب لدفنهم، وهو الواجب الذي كلَّفهم به آرتوس ستارك في غضبته الحزينة على جثَّة أخيه مقطوعة الرَّأس .
لا ينوي چون أن يذكِّره النَّاس باعتباره چون سنو الغافي، وهكذا قال للعملاق: «ثلاثون رجلاً فُرصتهم أفضل من لا أحد».

قال الرَّجل الصَّغير: «صحيح. أهي (باب الجليد) وحدها أم أن سيِّدي سيفتح القلاع الأخرى أيضًا؟».

- «أنوي تزويد كلِّ منها بحامية مع الوقت، لكن في الوقت الرَّاهن ستكون (باب الجليد) و(الحارس الرَّمادي) فقط».

- «وهل قرَّر سيِّدي من سيقود في (الحارس الرَّمادي)؟».

- «چانوس سلينت». ولتنبذنا الآلهة. «لا أحد يترقى إلى قيادة ذوي المعاطف الذهبية بلا كفاءة. لقد وُلِد سلينت ابنًا لچزار. كان قائد (البوابة الحديدية) عندما مات مانلي ستوكوورث، ورَقاه چون آرن ووضعَ دفاعات (كينجز لاندنج) بين يديه. لا يُمكن أن يكون اللورد چانوس أحمق كبيرًا كما يبدو». وأريده بعيدًا تمامًا عن أليسر ثورن.

قال العملاق: «قد يكون ذلك صحيحًا، لكنني كنتُ لأرسله إلى المطابخ يُساعد هوب ذا الثلاثة أصابع على تقطيع اللَّفت».

لو فعلتُ فلن أجرؤُ على أكل اللَّفْتِ ثانيةً أبداً.
مرَّ نصفُ الصُّباحِ قبل أن يظهر اللورد چانوس مليباً الأمر. كان چون يُنظِّفُ
سيفه (المخلب الطويل)، وهو العمل الذي عادةً ما يُكلِّفُ به وكيل أو مُرافق،
لكن اللورد إدارد علّم أبناءه العناية بأسلحتهم بأنفسهم. حين وصل كجز وإد
الكتيب مع سلينت شكرهما چون ودعا اللورد چانوس إلى الجلوس.

وقد جلس، ولكن بفضاظة، عاقداً ذراعيه على صدره وعابساً ومتجاهلاً
الفولاذ المجرّد في يد قائده. مرَّ چون قطعة القماش المزيّنة على نصل سيفه
النَّغْل⁽¹⁾ مشاهداً ضوء الصُّباح يتلاعب على التَّموجات في قلب الفولاذ،
ومفكراً في السُّهولة التي يُمكن أن يشقَّ بها النَّصل جلد وشحم وأوتار
سليمنت ليفصل رأسه القبيح عن بدنه. عندما ينخرط الرَّجل في حرس اللَّيل
تُغفّر جرائمه كلها ويتخلّى عن ولاءاته جميعها، إلا أن چون يجد التّفكير في
چانوس سليمنت باعتباره أخصاً عسيراً. إن بيننا دماً. هذا الرَّجل ساعد على قتل
أبي وبذل قصارى جهده لقتلي أيضاً.

دسّ چون سيفه في غِمدته قائلاً: «لورد چانوس، إنني أوليك القيادة في
(الحارس الرّمادي)».

باغت قوله سليمنت الذي ردّ: «(الحارس الرّمادي)... (الحارس الرّمادي)
هو المكان الذي تسلّقت (الجدار) عنده مع أصدقائك الهمج...».
- «نعم. لا أنكر أن القلعة في حالة مؤسفة، لكنك ستجدّها وترمّمها قدر
استطاعتك. ابدأ بقطع أشجار الغابة، وخذ الحجارة من المباني التي سقطت
لإصلاح تلك التي لا تزال قائمة». كان ليُضيف: سيكون العمل شاقاً للغاية.
ستنام على الحجر، أكثر إرهاقاً من أن تشكو أو تتأمّر، وسرعان ما ستنسى معنى
الدّفء، ولكن قد تتذكّر معنى أن تكون رجلاً. «سيكون معك ثلاثون رجلاً،
عشرة من هنا وعشرة من (برج الظلال) وعشرة أعارنا إياهم الملك ستانيس».

(1) السِّيف النَّغْل مصطلح يُطلق في عالمي الواقع والرّواية على السِّيف الذي يقع حجمه بين
السِّيف الطويل والسِّيف العظيم الذي يُحمَل باليد، ويُطلق عليه أيضاً «يد ونصف».
يُلاحظ أن (المخلب الطويل) أقرب إلى السِّيف العظيم، لكنه يُحمَل بيد واحدة.
(المترجم).

اصطَبَعَ وجه سلينت بلون البرقوق المجفَّف، وبدأ لُغده اللَّحيم يرتجف وهو يقول: «أتحسبني لا أرى ما تفعله؟ چانوس سلينت ليس بالرجل الذي ينخدع بسهولة. لقد كَلَّفْتُ بالدَّفَاعِ عن (كينجز لاندنج) وأنت لا تزال تبول في قِماطك. احتفظ بأطلالك أيها النُّغل».

إنني أعطيك فُرصةً يا سيِّدي، وهذا أكثر مما أعطيت أبي. «أسأت فهمي يا سيِّدي. هذا أمر لا طلب. المسافة إلى (الحارس الرَّمادي) أربعون فرسخاً. احزم أسلحتك ودرعك وودِّع أصدقاءك واستعدَّ للرَّحيل مع مطلع الفجر غداً».

قال اللورد چانوس: «لا»، وهبَّ واقفاً مسقطاً مقعده إلى الورا، وتابع: «لن أذهب ذليلاً لأتجمد وأموت. لا نغل ابن خائن يُملي الأوامر على چانوس سلينت! أحذرك، إنني لستُ عديم الأصدقاء، هنا وفي (كينجز لاندنج) أيضاً. لقد كنتُ سيِّد (هارنهال)! أعطِ أطلالك لأحد الحمقى العميان الذين صَوَّتوا لك، أمّا أنا فلن أسمح لك. هل تسمعني أيها الصَّبِي؟ لن أسمح لك!». - «ستفعل».

لم يُحاول سلينت مجرَّد الرَّد، لكنه ركَلَ المقعد إلى الجانب في طريقه وهو خارج.

ما زال يراني صبيّاً، صبيّاً أخضر تُرهبه الكلمات الغاضبة. ليس بوسعه إلا أن يأمل أن ينام اللورد چانوس اللَّيلة ويصحو ثابتاً إلى رُشده. لكن الصَّبَاح التَّالي أثبت له أن أمله كان عبثاً.

وجدَ چون سلينت يتناولُ فطوره في القاعة العامَّة ومعه السير أليسر ثورن وعدد كبير من أنصارهما. كانوا يضحكون على شيء ما عندما نزلَ چون السَّلالم مع إميت الحديدي وإد الكتيب، ووراءهم مولي والجواد وچاك كراب الأحمر ورستي فلاورز وأوين الجحش. كان هوب ذو الثلاثة أصابع يغرف الثريد من قِدره، وقد جلسَ رجال الملكة ورجال الملك والإخوة الشُّود إلى موائدهم يأكلون من أوعية الثريد أو يملأون بطونهم بالخُبز المحمَّر واللَّحم المقدَّد. رأى چون پيپ وچرن جالسَيْن إلى مائدةٍ وباون مارش إلى أخرى، وشمَّ في الهواء رائحة الدُّخان والشَّحم، وسمع أصدقاء جلبة السَّكاكين والملاعق تتردَّد على السَّقْف المقنطر.

همدّت الأصوات جميعاً في الحال، وقال چون: «لورد سلينت، سأعطيك فُرصةً أخيرةً. ضَع هذه الملعقة واذهب إلى الأسطبلات. لقد أمرتهم بتجهيز حصانك بالسَّرَج واللِّجام. الطَّرِيق إلى (الحارس الرَّمادي) طويل ووعر».

ردّ سلينت: «عليك بالذهاب إذن أيها الصَّبي»، وضحك مسقطاً الثريد على صدره، قبل أن يُردِف: «أظنُّ أن (الحارس الرَّمادي) مكان ملائم لأمثالك، بعيداً عن القوم الأتقياء الصَّالحين. إن علامة الوحش عليك أيها النُّغل».

- «هل ترفض طاعة أمري؟».

قال سلينت ولُغده يرتجف: «يُمكنك أن تدسَّ أمرك في مؤخرتك أيها النُّغل».

ارتسمت بسمة رقيقة على شفطي أليسر ثورن وركّز عينيه السّوداوين على چون، في حين بدأ جودري قاتِل العمالقة الجالس إلى مائدةٍ أخرى يضحك.

قال چون: «كما تُريد»، وأوماً برأسه لإميت الحديدي قائلاً: «من فضلك خذ اللورد چانوس إلى (الجدار)...».

... واحبسه في زنزانيةٍ جليديّة. كان ليقول هذا، فلا شكّ لديه في أن يوماً أو عشرةً من الحبس داخل الجليد كفيلاً بترك سلينت مرتجفاً محمومًا يتوسَّل إطلاق سراحه. وما إن يخرج سيبدأ هو وثورن التأمُر من جديد.

... وقيده إلى حصانه. كان ليقول هذا أيضًا، فإذا كان سلينت لا يرغب في الذهاب إلى (الحارس الرَّمادي) كقائدها فليذهب كطبّاخها. وعندئذ ستكون مسألة وقتٍ قبل أن يتهرَّب. وكم رجلاً سيأخذ معه وقتها؟ وهكذا أنهى چون عبارته: «... واشنقه».

وغاضت الدماء من وجه چانوس سلينت حتى حاكى لون الحليب وسقطت الملعقة من بين أصابعه.

قطع إِد وإميت القاعة بخطواتٍ رنّت على أرضيّتها الحجرية، وانفتح فم باون مارش وانغلق دون أن تخرُج منه كلمة، ومدّ السير أليسر ثورن يده إلى مقبض سيفه، ففكّر چون الذي علّق مخلبه الطويل على ظهره: هلمّ، جرّد فولاذك، أعطني سبباً لأفعل المثل.

نهض نصف من في القاعة من رجال، الفرسان والجنود الجنوبيون، المُخلصون للملك ستانيس أو المرأة الحمراء أو الاثنين، وإخوان حرس

اللَّيْلِ الْمُحَلَّفُونَ. بعضهم اختارَ چون قائداً، وبعضهم صَوَّتَ لباون مارش أو السير دينس ماليستر أو كوتر بايك... وبعضهم لچانوس سلينت. مئات منهم كما أذكرُ. تساءلَ چون كم من هؤلاء الرِّجال في القبو الآن، وللحظةٍ تراقصَ العالم على حافة سيف.

ثم رفعَ أليسر ثورن يده عن سيفه وأفسحَ الطَّرِيقَ لِإِد توليت.
قبضَ إِد الكتيبَ على ذراع سلينت وإميت الحديدي على الثانية، ومعاً سبحاه من على الدُّكَّة، ومحتجاً صاحَ اللورد چانوس والثريد يتناثرَ من بين شفتيه: «لا، لا، لا، اتركاني. إنه مجرد صبي، إنه نغل! أبوه كان خائناً. علامة الوحش عليه، ذئبه هذا... اتركاني! ستندمان على اليوم الذي وضعتما فيه يدًا على چانوس سلينت. إن لي أصدقاء في (كينجز لاندنج). أهدركما...»، وظلَّ يعترض وهما يصعدان به على السَّلام بحركة هي تارة جرٌّ وتارة دُفَع. تبعهم چون إلى الخارج، ومن ورائه فرغَ القبو من شاغليه. عند القفص تملَّص سلينت لحظةً وحاولَ أن يُحوِّل الأمر إلى قتال، لكن إميت أمسكَه من عنقه وضربَ به القضبان الحديد إلى أن أمسكَ عن المقاومة، وعندئذٍ كانت (القلعة السوداء) كلها خرجت تتفرَّج، حتى قال في نافذتها وقد تدلَّت ضفيريته الذهبية من على كتفها، وستانيس الذي وقفَ على درجات (برج الملك) محاطاً بفُرسانه.

سمعوا اللورد چانوس يقول: «إذا كان الصَّبي يحسب أنه سيُخيفني فهو مخطئ. لن يجرؤ على شفتي. چانوس سلينت له أصدقاء، أصدقاء مهمُّون، سترون...»، وذرَّت الرِّيح بقيةَ عبارته.
فكرَ چون: هذا خطأ، ثم قال: «توقَّف».
التفتَ إليه إميت مقطَّباً وجهه، وغمغمَ: «سيدي؟».
قال چون: «لن أشنقه. أحضره إلى هنا».
وسمعَ باون مارش يصيح: «أوه، بحقِّ الآلهة».

حملتَ الابتسامة التي ابتسمها اللورد چانوس سلينت لحظتها كلَّ ما في الرُّبدة الفاسدة من حلاوة... إلى أن أضافَ چون: «إد، اجلب لي قُرمةً»، واستلَّ مخلبه الطَّويل.

لدى عثورِ إِد على قُرمةٍ مناسبة كان اللورد چانوس قد تراجعَ إلى داخل

القفص من جديد، لكن إميت الحديدي دخل وراءه وسحبه إلى الخارج،
وفيما جرّه إميت ودفعه عبر السّاحة صَاحَ سلينت: «لا. اتركني... لا
يُمكنك... حين يسمع تايوين لانستر بهذا ستندمو...».

رُكِّلَ إميت ساقيه من تحته، ثم ثَبَّتَ إِدَ الكئيب قدمه على ظهره ليُبقيه على
رُكْبتيه فيما دفعَ إميت القُرمة تحت رأسه، وقال له چون سنو: «سيكون الأمر
أسهل إذا بقيت ساكناً. تحرك لتفادي الضربة وستموت أيضاً، لكن ميتك
ستكون أقبح. مدِّعُنقك يا سيّدي». تلاعبَ ضوء الصّباح الشّاحب على نصله
إذ أحكمَ چون كلتا يديه على مقبض سيفه النّغل ورفعَه عاليًا، قبل أن يقول
متوقِّعًا شتيمةً أخيرةً: «إذا كانت لديك كلمات أخيرة فالآن الوقت المناسب
لقولها».

لوى چانوس سلينت رقبته لينظر إليه قائلاً: «أرجوك يا سيّدي، الرّحمة.
س... سأذهب، سأذهب، س...».

قال چون في نفسه: لا، لقد أغلقت ذلك الباب، وهوى مخلبه الطويل.
وسأل أوين الجحش ورأس چانوس سلينت يتدحرج على الأرض
الموحلة: «هل يُمكنني أن آخذ حذاءه؟ إنه جديد تقريبًا، ومبطن بالفرو».
ألقي چون نظرةً إلى الوراء نحو ستانيس، وللحظةٍ التقت أعينهما، ثم أوماً
الملك برأسه وعادَ يدخلُ برّجه.



تيريون

استيقظَ ليجد نفسه وحده والهودج متوقفاً.
رأى القزم كومةً من الوسائد المكبوسة تُبَيِّنُ البُقعة التي كان إيريون
مصطجعاً فيها، وأحسَّ بحلقه جافاً خشناً. لقد حلم... بِمَ حلم؟ لا يذكُر.
بالخارج سمع أصواتاً تتكلم بلُغَةٍ يجهلها، وهكذا دفعَ تيريون ساقيه بين
السِّتائر ووثبَ إلى الأرض ليجد الماچستير إيريون واقفاً عند الخيول مع خيالين
فوق حصانيهما، كلاهما يرتدي قميصاً من الجلد البالي تحت معطفٍ من
الصُّوف البنيِّ الداكن، لكن سيفيهما مُغمدان والرَّجل البدين لا يبدو في خطرٍ.
أعلنَ القزم: «أريدُ أن أبول»، وذهبَ متمائلاً إلى جانب الطَّرِيق وحل
سراويله وقضى حاجته على كُتلةٍ متشابكة من الأشواك، وهو ما استغرق وقتاً
طويلاً.

علّق صوت: «على الأقل يُجيد التَّبُول».

نفّضَ تيريون آخر القطرات ودسَّ ذكره في سراويله قائلاً: «التَّبُول أقل
مواهيبي. يَجْدُرُ بك أن تراني أتَبْرُزُ»، والتفتَ إلى إيريون سائلاً: «هل تعرف
هذين الرَّجلين أيها الماچستير؟ يبدوان كالخارجين عن القانون. هل أحضرُ
فأسي؟».

- «فأسك؟!»، ردَّدَ أكبر الخيالين حجماً، وهو رجل متين البنيان له لحية
مشعثة وشعر بُرتقالي. «هل سمعت يا هالدون؟ الرَّجل الصَّغير يُريد أن
يُقَاتِلنا!».

رفيقه أكبر سنّاً، وجهه الحليق متغصّن قشيف، وشعره مسحوب ومعقود
وراء رأسه، وقد أعلن: «كثيراً ما يجنح الرَّجال الصَّغار إلى إثبات شجاعتهم
بالتَّباهي بأشياء زائفة. أشك في أنه يستطيع أن يقتل بطَّة».

هَزَّ تِيرِيونَ كَتْفِيه، وَقَالَ: «هَاتِ الْبَطَّةَ».
رَدَّ الْخِيَالَ: «إِذَا كُنْتُ مَصْرًا»، وَنَظَرَ إِلَى رَفِيقِهِ.
وَاسْتَلَّ الرَّجُلُ مَفْتُولَ الْعَضَلَاتِ سَيْفًا نَعْلًا قَائِلًا: «أَنَا الْبَطَّةُ أَيُّهَا الثَّرَاثِرُ
الْمَزْعَجُ الصَّغِيرُ».
أَوْه، بِحَقِّ الْآلِهَةِ. «كُنْتُ أَفَكَّرُ فِي بَطَّةٍ أَصْغَرُ».
هَدَرَ الرَّجُلُ الْكَبِيرُ بِالضَّحْكَ، وَقَالَ: «هَلْ سَمِعْتَ يَا هَالِدُونَ؟ يُرِيدُ بَطَّةً
أَصْغَرَ!».

أَجَابَ الْمَسْمَى هَالِدُونَ: «سِيرُ ضَيْعِي تَمَامًا أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً أَهْدَأُ»، وَتَفَرَّسَ
فِي تِيرِيونَ بَعَيْنَيْنِ رَمَادِيَّتَيْنِ فَاتَرْتَيْنِ، قَبْلَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى الْإِيرِيوِ وَيَسْأَلَهُ: «مَعَكَ
بَعْضُ الصَّنَائِقِ لَنَا؟».

- «وَبِغَالٍ تَحْمِلُهَا».

- «الْبِغَالُ بَطِيئَةٌ لِلْغَايَةِ. إِنْ مَعَنَا خِيُولٌ شَحْنُ سَنَنْقُلُ الصَّنَادِيقَ إِلَيْهَا. تَوَلَّ
هَذَا أَيُّهَا الْبَطَّةُ».

عَادَ الرَّجُلُ الْكَبِيرُ يَدْسُ سَيْفِهِ فِي غِمْدِهِ قَائِلًا: «لِمَاذَا يَتَوَلَّى الْبَطَّةَ كُلَّ شَيْءٍ
دَائِمًا؟ مَا الَّذِي تَتَوَلَّاهُ أَنْتَ يَا هَالِدُونَ؟ مَنْ الْفَارِسُ هُنَا؟ أَنَا أَمْ أَنْتَ؟»، وَعَلَى
الرَّغْمِ مِنْ هَذَا تَحَرَّكَ بِخُطَوَاتٍ ثَقِيلَةٍ نَحْوَ الْبِغَالِ.
سَأَلَ الْإِيرِيوِ وَالصَّنَادِيقَ تُنْقَلُ: «كَيْفَ حَالُ فَتَانَا؟». أَحْصَى تِيرِيونَ سِتَّةً،
صَنَادِيقَ مِنْ خَشَبِ السَّنْدِيَانِ مَزُودَةٌ بِأَقْفَالِ حَدِيدٍ، وَقَدْ رَفَعَ الْمَدْعُو الْبَطَّةَ كَلًّا
مِنْهَا بِسَهْوَةٍ عَلَى كَتْفِهِ وَاحِدَةً.

- «يُعَادِلُ جَرِيفَ طَوَّلًا الْآنَ. قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَسْقَطَ بَطْنُنَا فِي حَوْضِ سَقِي
الْخِيُولِ».

- «لَمْ يُسْقِطْنِي، بَلْ سَقَطْتُ بِإِرَادَتِي لِأَجْعَلَهُ يَضْحَكُ».

رَدَّ هَالِدُونَ: «وَنَجَحَتْ خَطَّتُكَ. أَنَا نَفْسِي ضَحِكْتُ».

قَالَ الْإِيرِيوُ: «فِي أَحَدِ الصَّنَادِيقِ هَدِيَّةٌ لِلْفَتَى، الْقَلِيلُ مِنَ الزَّنَجِيلِ
الْمَحَلِّيِّ. لَقَدْ كَانَ مَوْلَعًا بِهِ دَوْمًا»، وَأَضَافَ بِنَبْرَةٍ حَزِينَةٍ غَرِيبَةٍ: «خَطَرَ لِي أَنْ
أُوَاصِلَ الطَّرِيقَ مَعَكُمْ إِلَى (جُويَانِ دُرُو). مَادِبَةٌ وَدَاعٌ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأُوا رِحْلَتَكُمْ
النَّهْرِيَّةَ...».

قَاطَعَهُ هَالِدُونَ: «لَا وَقْتُ لِدِينَا لِلْمَادِبِ يَا سَيِّدِي. جَرِيفُ يَنْوِي أَنْ يَتَحَرَّكَ
مَا إِنْ نَعُودُ. لَقَدْ بَلَّغْتَنَا أَنْبَاءَ مِنْ اتِّجَاهِ النَّهْرِ الْآخَرِ، وَكُلِّهَا سَيِّئٌ. الدُّوْثِرَاكِي

شُوهِدوا شمال (بُحيرة الخناجر)، كَشَافَة من كَالاسار موثو العجوز، والكال زكو وراءه بمسافة قصيرة، يقطع (غابة كُوهور)». أصدرَ الرَّجُل البدِين صوتًا بذيئًا، وقال: «زكو يزور (كُوهور) كلَّ ثلاثة أو أربعة أعوام، فيُعْطيه الكُوهوريون جوالًا من الذَّهَب ويعود أدراجه شرقًا. أمَّا موثو فرجاله يُدانونه في الشَّيخوخة، وعددهم يقل كل عام. التَّهديد الحقيقِي هو...».

أكمَل هالدون عبارته: «... الكال هونو. موثو وزكو يفرَّان منه إذا صدقت الأخبار. آخرها يقول إن هونو كان قُرب منابع (السَّلهورو) بكالاسار قوامه ثلاثون ألفًا. جريف لا يُريد المخاطرة بالوقوع بينهم إذا قرَّر هونو عبور (الروين)»، وألقى نظرةً نحو تيريون متسائلًا: «هل يُجيد القزم الرُّكوب مثلما يُجيد التَّبُول؟».

أسرَع تيريون يقول قبل أن يُجاوب سيِّد الأجان نيابةً عنه: «إنه يركب، ولو أنه يُفضِّل الرُّكوب بسرج خاص وحصانٍ يعرفه جيِّدًا. إنه يتكلَّم أيضًا». - «واضح. أنا هالدون، المُعالج في أحوَّتنا الصَّغيرة، وبعضهم يدعوني بالنِّصف مايبستر. رفيقي هو السير بطة».

عقبَ الرَّجُل الكبير: «السير رولي، رولي حقل البط. أيُّ فارسٍ يستطيع أن يُنصَّب أيُّ رجل فارسًا، وجريف نصَّبي. وأنت أيها القزم؟». مسرِّعًا أجابه إليريو: «اسمه يولو».

يولو؟ يولو اسم تُطلِّقه على فرد. والأسوأ أنه اسم بنتوشي، وأيُّ أحمق يرى بوضوح أن تيريون ليس من (بنتوس). هكذا قال بسرعة كي يُنقذ الموقف: «فِي (بنتوس) اسمي يولو، لكن أمِّي سمَّتي هيو جور هيل». سأله هالدون: «أأنت ملك صغير أم نغل صغير؟».

أدرك تيريون أن من صالحه أن يأخذ الحذر مع هالدون النِّصف مايبستر، فأجاب: «كل قزم في العالم نغل في عيني أبيه».

- «لا شكَّ. حسن يا هيو جور هيل، أجبني عن هذا السُّؤال. كيف قتلَ سروين ذو التُّرس المرأة التَّينين أوراكس؟».

- «تقدَّم منه رافعًا تُرسه أمامه، فلم يرَ أوراكس إلا انعكاسه حتى غرسَ سروين حربته في عينه».

لم يبدُ على هالدون الإعجاب، وقال: «حتى بَطَّتْنا يعرف تلك الحكاية».

هل يُمكنك أن تُخبرني باسم الفارس الذي جرَّب الحيلة نفسها مع فاجهار خلال رقصة التَّنانين؟».

أجابَ تيريون بابتسامةٍ واسعة: «السير بايرون سوان، وكان مصيره الشَّي... لكن التَّينة كانت سايراكس لا فاجهار».

- «أخشى أنك مخطئ. في (رقصة التَّنانين، قصَّة حقيقيَّة) كتبَ المايستر مونكون...».

- «... أنها كانت فاجهار. المايستر - الأكبر - مونكون مخطئ. مُرافق السير بايرون رأى سيِّده يموت وكتبَ لابنته يصف موته، وتقول حكايته إنها سايراكس تينة رينيرا، وهو المعقول أكثر من نُسخة مونكون من الحكاية. سوان كان ابناً لأحد لوردات (التَّخوم)، و(ستورمز إند) كانت تُؤيِّد إجون، وفاجهار كان راكبها آنذاك الأمير إيموند شقيق إجون، فلمَ يرغب سوان في قتلها؟».

زَمَّ هالدون شفثيه قائلاً: «حاول ألاَّ تسقط من فوق الحصان، وإذا فعلت فخيرٌ لك أن ترجع إلى (بتتوس) مشياً. عذراؤنا الخجول لن تنتظر رجلاً أو قزماً».

- «الخجول نوع العذراء المفضَّل عندي، بعيداً عن الخليعة. أخبرني، أين تذهب العاهرات؟».

- «هل أبدو كرجل يتردَّد إلى العاهرات؟».

ضحكَ البطَّة بسُخريَّةٍ قائلاً: «ليس يجرؤ، وإلاَّ لجعلته ليمور يُصلِّي طالباً العفو وأراد الفتى أن يذهب معه، وقد يقطع جريف قضيبه ويحشره في حلقه».

قال تيريون: «المايستر لا يحتاج إلى قضيب».

- «لكن هالدون نصف مايستر فقط».

قال هالدون: «يبدو أنك تجد القزم مسلماً أيها البطَّة. يُمكنه أن يركب معك

إذن»، ودارَ بحصانه.

استغرقَ البطَّة بضع دقائق أخرى في تثبيت صناديق إلبريو على ظهور حصنة الشَّحن الثلاثة، وعندئذٍ كان هالدون قد اختفى، لكن قلماً لم يبدُ على رقيقه، الذي وثبَ يعتلي سرجه، ثم أمسكَ تيريون من ياقته ورفعَ الرَّجل الصَّغير واضعاً إياه أمامه، وقال له: «تمسَّك جيِّداً بقرن السَّرج وستكون بخير. هذه الفرس مشيتها مريحة متزَّنة، وطريق التَّنانين ناعم كمؤخرة فتاة»، ثم جمعَ السير رولي العنان في قبضته اليمنى وحبال الخيول الأخرى في اليسرى، وانطلقت فرسه تخبُّ برشاقة.

ناداهما إليريو قائلاً: «حظاً سعيداً. قولاً للفتى إنني آسفٌ لأنني لن أكون معه في زفافه. سأنضمُّ إليه في (وستروس)، أقسمُ على هذا بيدي غاليّتي سيرا».

عندما ألقى تيريون لانستر نظرةً أخيرةً على إليريو موپاتيس كان الماچستر واقفاً عند هودجه في رداثة المزرکش وقد تهدّلت كتفاه، ومع تضاؤله في العُبار الذي أثارته خيولهم كادَ حجم سيّد الأجان يبدو صغيراً. لحقّ البطةً بهالدون النصف مايستر بعد رُبع ميل، ومن هناك واصلاً الطريق جنباً إلى جنب، وتمسّك تيريون بقرن السرج العالي وقد فرج ساقيه القصيرتين بغير راحةٍ عالمًا أن عليه أن يتوقّع قروحاً وتشنجاتٍ وأوجاع الرُكوب.

تساءل هالدون وهم راكبون: «تُرى ماذا سيكون رأي قراصنة (بُحيرة الخناجر) في قزمناء؟».

ردّ البطة: «أنه يصلح لعمل يخبنة الأقرام؟».

وجّه هالدون كلامه إلى تيريون: «أور هو الوسخ أسوأهم. رائحته وحدها كفيلة بقتل المرء».

بهزةً من كتفيه قال: «من حُسن الحظّ أني بلا أنف».

منحه هالدون ابتسامةً رقيقةً قائلاً: «إذا قابلنا الليدي كورا على متن (أسنان الشّمطاء) فقد تجد نفسك بلا أعضاء أخرى أيضاً. يُسمونها كورا الوحشيّة، وطاقم سفينتها من الشّابّات الجميلات اللاتي يخصين كل رجلٍ يأسرهن».

- «مُرعب. قد أبولُ على نفسي».

قال البطةً بقتامة: «خيرٌ لك ألا تفعل».

- «كما تقول. إذا قابلنا الليدي كورا تلك فسأرتدي تنورةً وأقولُ إنني

سرسي حسناء (كينجز لاندنج) الملتحية الشهيرة».

هذه المرّة ضحك البطة، وقال هالدون: «يا لك من شخصٍ صغير طريف يا يولو. يقولون إن اللورد المُكفّن يهب عطيةً لأيّ أحدٍ ينجح في إضحاحه. سيختارك صاحب الجلالة الرّمداء لتحلية بلاطه الحجري».

رمق البطةً رقيقه بتوتّرٍ قائلاً: «لا يُستحسن المزاح عنه ونحن على هذه المقربة من (الروين). إنه يسمع».

قال هالدون: «الحكمة من منقار بطة. معذرةً يا يولو، ليس عليك أن يمتنع

وجهك هكذا، كنتُ أعابثك فقط. إن أمير (الويلات) لا يهبُ قُبَلته الرَّمادية ببساطة».

قُبَلته الرَّمادية. اقشعرَّ جلده للفكرة. لقد فقدَ الموتُ مقدرته على إرهاب تيريون لانستر، لكن الداء الأرمَد مسألة أخرى. قال لنفسه: اللورد المكنفُ ليس إلا أسطورةً، ليس حقيقياً أكثر من شبح لان الأريب الذي يدعي بعضهم أنه يسكنُ (كاسترلي روك). وعلى الرغم من هذا لزم الصمت.

لم يلحظا صمت القزم المفاجئ، إذ بدأ البطةُ يُسَلِّيه بحكاية قصَّة حياته. قال إن أباه كان صانع سلاح في (جسر العلقم)، فولدَ ورنين الفولاذ في أذنيه وأحبَّ المبارزة منذ سنِّ مبكرة، وقد لفتَ صبيُّ كبير الحجم بارز مثله نظر اللورد كازويل العجوز، الذي عرض عليه موقعاً في حاميته، إلا أن الصبي أراد أكثر، لا سيَّما أنه شاهد ابن كازويل الضعيف يُسمَّى وصيفاً ثم مُرافقاً وأخيراً فارساً. «كان وضيعاً مهزولاً ممصوص الوجه، لكن اللورد العجوز أنجبَ أربع بناتٍ وهذا الابن الوحيد، وعليه لم يكن مسموحاً لأحدٍ بأن يقول كلمة ضده، حتى إن المُرافقين الآخرين كانوا يجرؤون بالكاد على مسِّه بإصبع في السَّاحة».

قال تيريون الذي يرى مسار الحكاية بوضوح: «لكنك لم تكن خانعاً». تابع البطة: «صنع لي أبي سيفاً بمناسبة يوم ميلادي السَّادس عشر، لكنه أعجبَ لورنت كثيراً فأخذَه لنفسه، ولم يتجرَّأ أبي اللعين على الرِّفض. لمَّا شكوتُ قال لي لورنت في وجهي إن يدي مخلوقة لحمل المطرقة لا السِّيف، فذهبتُ وجلبتُ مطرقةً وضربتُه بها إلى أن انكسرت ذراعه الاثنان ونصف ضلوعه، وبعدها كان عليّ أن أهرب من (المرعى) بأقصى سرعة. عبرتُ البحر والتحتُّ بالجماعة الذهبية، وعملتُ صبيِّ حدَّادٍ بضعة أعوام، ثم جعلني السير هاري ستريكلاند مُرافقه، وحين بعث جريف برسالة عبر النهر يطلِّبُ أحداً يُساعد على تدريب ابنه على السِّلاح أرسلني هاري إليه».

- «ونصَّبك جريف فارساً؟».

- «بعد عام».

قال هالدون النُّصف مايستر بابتسامةٍ رفيعة: «لِمَ لا تُخبر صديقنا الصَّغير بكيفية حصولك على اسمك؟».

ردَّ الرَّجل الكبير بعناد: «الفارس يحتاج إلى أكثر من اسمٍ واحد، و...»

حسن، لقد كنا في حقلٍ حين نَصَبني، ورفعتُ نظري ورأيتُ تلك البطّات، ف... لا تضحك».

بُعِيد غروب الشَّمس تركوا الطَّرِيق ليستريحوا في ساحةٍ ملاءى بالحشائش إلى جوار بئرٍ حجريةٍ قديمة. ترَجَل تيريون لِيُدلِّك رِبَلتي ساقيه من التَّشَنُّجات فيما سقى هالدون والبطّة الخيول. ينبت العُشب البني الخشن والحشائش الشجرية من الثغرات بين الأحجار، ومن الجدران المغطاة بالطحالب التي ربما كانت لقصرٍ حجريٍّ عظيمٍ في الماضي. بعد العناية بالدواب تقاسم الرَّاكِبون عشاءً بسيطاً من لحم الخنزير المملح والفاصوليا البيضاء الباردة والموزر، ووجد تيريون في الوجبة البسيطة تغييراً ساراً عن الأظعمة الدسمة التي أكلها مع إلبريو. قال وهو يلوك: «تلك الصناديق التي جلبناها لكم، في البدء حسبتُ أن فيها ذهباً للجماعة الذهبية، إلى أن رأيتُ السير رولي يرفع أحدها على كتفٍ واحدة. لو كان مليوناً بالنقود لما استطاعَ حملة بهذه السهولة».

قال البطّة هاراً كتفيه: «إنها دروع فحسب».

وأسرَع هالدون يُضيف: «وثياب أيضاً، ثياب للبلاط من أجل أفراد مجموعتنا، أصواف ناعمة ومخمل ومعاطف حرير. المرء لا يُمثل أمام ملكة بلا هندام، ولا خالي الوفاض. لقد تَلَطَّف الماجستير بمدننا بهدايا مناسبة».

عادوا يركبون مع طلوع القمر، يخبُون شرقاً تحت بساطٍ من النُّجوم والطَّرِيق القاليري القديم يلتَمع أمامهم كشريطٍ فضيٍّ طويل يلتف عبر الغابات والوديان، ولقليل من الوقت شعر تيريون لانستر بشيءٍ أقرب إلى السَّلام. «كان لوماس الرحالة محققاً، هذا الطَّرِيق أعجوبة».

ردَّد البطّة: «لوماس الرحالة؟».

أجابَه هالدون: «كاتب مات منذ زمن طويل، قضى حياته في السَّفر حول العالم، وكتب عن البلاد التي زارها في كتابين سمَّاهما (عجائب) و(عجائب صنعها الإنسان)».

قال تيريون: «أحد أعمامي أهداهما إليَّ في صباي، وقرأتهما مراراً حتى تفتتتا».

قال النُّصف ماِستر مقتبساً: «صنعت الآلهة سبع عجائب وصنع الإنسان الفاني تسعاً»، ثم أضاف: «عُفوق من الإنسان الفاني أن يتفوق على الآلهة

بائنتين، لكن ماذا فعل؟ كانت طُرق (فاليريا) الحجرية واحدة من عجائب لونجسترايدر التَّسع، الخامسة على ما أعتقد».

صحَّح تيريون الذي حفظَ العجائب الست عشرة عن ظهر قلب في صباه: «الرَّابعة». كان يروق عمّه جيريون أن يضعه على المائدة في أثناء الولائم ويجعله يسردها. وراقني هذا كثيرًا، أليس كذلك؟ أن أفه هناك وسط الأطباق والأعين كلها عليّ وأثبتُ أنني عفریت صغير ذكي. لأعوام بعدها استحلى أن يحلم بيوم يأتي ويسافر في أنحاء العالم ليرى عجائب لونجسترايدر بعينه.

ووضع اللورد تايوين نهايةً لذلك الأمل قبل أيام عشرة من يوم ميلاد ابنه القزم السَّادس عشر، حين سأله تيريون الإذن في التَّجوال في المُدن الحرَّة التَّسع كما فعل أعمامه في السنِّ نفسها، فأجابَه أبوه: «إخوتي يُمكن الاعتماد عليهم في عدم تلوٲث سُمعة عائلة لانستر أو الزَّواج بعاهرة»، ولمَّا ذكَّره تيريون أنه بعد عشرة أيام فقط سيُصبح رجلًا بالغًا حرًّا في السَّفر حيثما يشاء قال اللورد تايوين: «ما مِن امرئٍ حرٍّ. وحدهم الأطفال والحمقى يخالون العكس. تفضَّل بالذهاب، ارتدِّ ثياب المهرَّجين وقف على رأسك لتُسلي لوردات التَّوابل وملوك الجُبنة، لكن احرص على دفع تكلفه رحلتك بنفسك ونحَّ عن بالك أيَّ نيَّة للعودة». وبهذا انهارَ تحدِّي الصَّبي، وقال أبوه: «إذا كنت راغبًا في عمل مفيد فستنال عملاً مفيدًا»، وهكذا، بمناسبة بلوغه مبلغ الرِّجال، كلَّف تيريون بالإشراف على كلِّ البالوعات والصَّهاريج في (كاسترلي روك). ربما أمل أن أسقط في أحدها. لكن أمل تايوين في ذلك خاب، فطيلة مُدَّة إشرافه عليها كانت بالوعات القلعة سالكة تمامًا على نحوٍ لم يحدث من قبل.

أريدُ كوبًا من النِّبذ لأغسل فمي من طعم تايوين، وإذا كانت قربةً فأفضل. ركبوا طوال اللَّيل، وقد استند تيريون إلى قرن السَّرج متأرجحًا بين الرُّقود والصَّحو، يغلبه النعاس قليلًا ثم يستيقظ فجأةً، وبين الحين والآخر يبدأ في الانزلاق جانبًا فيقبض عليه السير رولي ويشده ويعدله ثانية. بحلول الفجر كان الألم شديدًا في ساقَي القزم وتسلخت مؤخرته وانسحجت.

لم يصلوا إلى موقع (جويان درو) على النَّهر مباشرةً قبل اليوم التَّالي، وعندما أبصر تيريون المجرى الأخضر البطيء من فوق مرتفعٍ قال: «(الروين) الشهير».

قال البطّة: «(الروين الصّغير)».

- «هو كذلك». نهر لا بأس به على ما أظنُّ، لكن أصغر فروع (الثالوث) أعرض مرتين، وتيّار الفروع الثلاثة أسرع. ولم يجد المدينة أكثر إثارة للإعجاب. تدكّر تيريون من دراسته التّاريخ أن (جويان درو) لم تكن كبيرة، وإن كانت مكانًا طبيعيًا مليئًا بالخضرة والزهور، مدينةً تنتشر فيها القنوات والنوافير. حتى الحرب، حتى جاءت التّنين. والآن، بعد ألف عام، القنوات يَحْتَفِها البوص والطّمي، وتتكاثر جحافل الذباب في برك المياه الآسنة، وتغوص حجارة المعابد والقصور في الأرض، وتنمو على ضفاف النّهر أشجار الصّفصاف العجوز الملتوية.

ما زال بعض القوم قاطنين في الخرائب، يعتنون ببساتين صغيرة وسط الحشائش، وقد دفع صوت الحدوات الحديد على الطريق القالييري القديم أكثرهم إلى الهروع عائدين إلى الجحور التي خرجوا منها، لكن أجراهم ظلوا في الشمس يُحدّقون إلى العابرين بنظراتٍ فاترة لا تُبالي. بدت فتاة صغيرة عارية يُعطيّ الوحل ساقها حتى الرُّكبتين عاجزةً عن رفع عينيها عن تيريون، الذي قال لنفسه وقد استوعب: لم ترَ قزماً من قبل قطّ، فمابالك بقزم مجدوع الأنف؟ ثم رسم على وجهه تعبيرًا طريفًا وأخرج لها لسانه، فانفجرت الفتاة في البكاء.

سأله البطّة: «ماذا فعلت؟».

- «نفختُ لها قُبلةً. كلُّ الفتيات يبكين حين أقبلهن».

انتهى الطّريق فجأةً بعد أشجار الصّفصاف المتشابكة وانعطفوا شمالاً مسافةً قصيرةً وركبوا بمحاذاة النّهر، إلى أن أحلى الدّغل السّبيل ووجدوا أنفسهم عند رصيفٍ حجري قديم، نصف غارق في الماء ومحاط بالحشائش البنية الطويلة. صاح أحدهم: «البطّة! هالدون!»، فأدار تيريون رأسه إلى الجانب ليرى فتى واقفاً فوق سطح بناية خشبية واطئة يُلوح بقُبعة عريضة الحافة من القش، شاباً رشيقاً ممشوق القدّ له شعر أزرق داكن كثيف، وقد قدّر القزم أنه في الخامسة أو السادسة عشرة أو ما يُقرّب من هذا.

اتّضح أن السّقف الذي يقف عليه الفتى لقمرة (العذراء الخجول)، وهي قارب نهري قديم متداعٍ له شراع واحد، بدنه عريض وغطّسه ضحل، مناسب تمامًا لشقّ طريقه عبر أصغر الجداول والحركة الجانبية أو القطرية فوق

الحواجز الرَّمليَّة. فتاة دميمة، لكن أفتحهن أكثرهن شراهةً في الفراش أحيانًا. غالبًا ما تكون القوارب التي تُدفع بالعِصِيّ في أنهار (دورن) مطليَّةً بالألوان الزَّاهية ومزيَّنةً بأبهى النقوش، أمَّا هذه العذراء فلا، فطلاؤها بيّني موحد مائل إلى الرَّمادي، مبقع ومقشور، ودفتها الكبيرة المقوَّسة لا يُحلِّيها شيء. تبدو قدرةً، لكن لا شك في أن هذا هو الغرض.

ردَّ البطة النَّداء، وخاصَّت الفرس في المياه الضَّحلة داعسةً أعواد البوص، وقفزَّ الفتى من فوق القمرة إلى سطح القارب، وظهر باقي طاقم (العذراء الخجول). وقفَ زوجان أكبر سنًّا لهما ملامح رويّنة قُرب الدِّقَّة، في حين خرجت سبّيته حسناء ترتدي ثوبًا أبيض ناعمًا من باب القمرة وأزاحت خصلة من الشَّعر البيّني الدَّاكن عن عينها.

لكن لم يكن ممكناً أن يُخطئ جريف، الذي قال: «كفى صياحًا»، فران على النهر صمت مفاجئ.

سيكون هذا الرّجل مصدر متاعب. علمَ تيريون هذا في الحال. معطف جريف مصنوع من رأس وإهاب أحد ذئاب (الروين) الحمراء، وتحتة يرتدي الجِلد البيّني القاسي المدعّم بالحلقات المعدنيَّة. وجهه الحليق جِلدي قاس أيضًا، وفي أركان عينيه تجاعيد، وعلى الرغم من أن شعره أزرق كشعر ابنه فجذوره حمراء وحاجباه أكثر احمرارًا. على وركيه يُعلّق سيفًا وخنجرًا، وإذا أسعدته رؤية هالدون والبطة مجددًا فقد أخفى شعره جيّدًا، وإن لم يُكلّف نفسه محاولة إخفاء استيائه لرؤية تيريون، إذ سألهما: «قزم؟ ما هذا؟». ردَّ عليه تيريون: «أعرفُ، كنت تأمل أن أكون قالب جُبنة»، والتفت إلى جريف الصَّغير ومنحه أكثر ابتساماته لُطفًا، وقال: «قد ينفعك الشَّعر الأزرق في (تايروش)، لكن في (وستروس) سيرميك الأطفال بالحجارة وتضحك الفتيات منك في وجهك».

قال الفتى مندھشًا: «أمِّي كانت من سيِّدات (تايروش). إنني أصبغُ شعري تكريمًا لذكراها».

سأل جريف بخشونة: «ما هذا المخلوق؟». أجابه هالدون: «إليريو بعث برسالةٍ يشرح فيها». - «أعطني إياها إذن، وخذ القزم إلى قمرتي». جلس المرترق قبَّالته في عتمة القارب من الدَّاخل وبينهما مائدة خشبيَّة

مشوّهة وشمعة من الشحم، وحينها فكّر تيريون: لا تُعجّبي عيناه. لعيني جريف زُرقة الجليد، باهتان باردتان، والقزم لا يحبُّ العيون الباهتة، فعينا اللورد تاويين كانتا خضراوين باهتتين ومرقطين بالذهب. شاهد جريف يقرأ، ومجرد أنه يعرف القراءة لافِت في حدِّ ذاته، فكم مرتزقا يستطيع أن يزهو بهذا؟ يكاد لا يُحرِّك شفّيته على الإطلاق.

أخيرا رفع جريف نظره عن الورقة وضيّق هاتين العينين الباهتتين سائلا: «تاويين لانستر مات؟ وبيدك أنت؟».

أجاب تيريون: «ياصبعي، هذا»، ورفع إصبعه ليراه جريف متبعا: «كان اللورد تاويين جالسا على مرحاض، فغرسْتُ سهم نُشايّة في أحشائه لأرى إن كان يتبرّز ذهبا بحق، ولم يفعل. مؤسف، كنت محتاجا إلى القليل من الذهب. لقد قتلتُ أمّي أيضا قبل هذا بفترة. أوه، وچوفري ابن أختي سمّمته في مأدبة زفافه وشاهدته يختنق حتى الموت. ألم يذكُر تاجر الجُبنة ذلك الجزء؟ إنني أنوي إضافة أخي وأختي إلى القائمة قبل أن أفرغ، وأتمنى أن يسرّ هذا ملكتك».

- «يسرّها؟! هل طار صواب إليريو؟ لماذا يتخيّل أن جلالتهما سترحّب بخدمات قاتل ملكٍ وخائن معترف على نفسه؟».

فكّر تيريون: سؤال عادل، لكنه قال: «الملك الذي قتله كان جالسا على عرشها، وكل من قتلهم أسود، وعليه يبدو لي أنني قدّمتُ للملكة خدماتٍ موفّقة بالفعل»، وحكّ جدعة أنفه مواصلا: «لا تخف، لن أقتلك، فلست من أقربائي. هل لي أن أرى ما كتبه تاجر الجُبنة؟ إنني أحبُّ القراءة عن نفسي حقّا». تجاهل جريف طلبه، وبدلا من ذلك مسّ لهب الشمعة بالرّسالة وشاهد الورقة تسود وتجعّد وتشتعل، ثم قال: «بين عائلتي تارجارين ولانستر دم، فلم تُساند الملكة دنيرس في قضيتها؟».

جاوبه القزم بمرح: «في سبيل الذهب والمجد. أوه، والكراهية. لو قابلت أختي لفهمت».

- «أفهم الكراهية جيّدا». من الطّريقة التي نطقَ بها جريف الكلمة علمَ تيريون أن هذا صحيح. هذا الرّجل أيضا تجرّع الكراهية وظلّت تُدفّنه ليلا أعواما.

- «هذا شيء نشترك فيه إذن أيها الفارس».

- «لستُ فارسًا».

لست كاذبًا فحسب، بل كاذب خائب أيضًا. ردُّك أخرق أحقق يا سيدي.
«ومع ذلك يقول السير بطَّة إنك نصَّبتَه فارسًا».

- «البطَّة يتكلَّم أكثر من اللازم».

- «قد يتعجَّب بعضهم من قُدرة بطَّة على الكلام من الأصل. لا يهيمُّ يا جريف». لفظ تيريون الكلمة الأخيرة ضاغظًا على الكلمة. «أنت لست فارسًا وأنا هيجور هيل، وحش صغير، وحشك الصَّغير إذا أردت. لك كلمتي، لستُ أبتغي إلا أن أكون خادِمًا وفيًّا لملكة التَّنانين».

- «وكيف تقترح أن تخدمها؟».

أجاب تيريون: «بلساني»، ولعق أصابعه واحدًا تلو الآخر، وأردف:
«أستطيعُ أن أقول لجلالته كيف تُفكِّر أختي، إذا كنت تدعو ذلك تفكيرًا، وأستطيعُ أن أخبر قادتها بأفضل السُّبل لهزيمة أخي چامي في المعركة، وأعلمُ أيُّ اللوردات سُجاع وأيُّهم جبان، أيُّهم مُخلص وأيُّهم قابل للرَّشوة. يُمكنني أن أجلب لها حلفاء، وأعرفُ الكثير والكثير عن التَّنانين كما سيؤكِّد لك النصف مايستر. إنني مسلٌ أيضًا، ولا أكل كثيرًا. اعتبرني عِفريتك الوفي الخاص».

وزن جريفُ ردَّه وهلَّة، ثم قال: «افهم هذا أيها القزم. أنت آخر أفراد مجموعتنا وأقلهم شأنًا. صُن لسانك وافعل كما تُؤمِّر وإلا تمنيت لو أنك فعلت».

كاد تيريون يقول: حاضر يا أبي. «كما تقول يا سيدي».

- «لستُ سيِّد أحد».

كاذب. «مجرَّد مجاملة يا صديقي».

- «ولستُ صديقك كذلك».

لا فارس ولا سيِّد ولا صديق. «مؤسف».

- «أعني من سُخريتك. سأخذك حتى (فولانتيس). إذا أثبتَّ أنك مطيع ومفيد فلك أن تبقى معنا لتخدم الملكة قدر استطاعتك، لكن إذا أثبتَّ أن متاعبك أكبر من فائدتك فستذهب إلى حال سبيلك».

نعم، وسيأخذني سبيلي إلى قاع (الروين) ليقتضم السَّمك ما تبقى من أنفي. «فالاردو هيرس».

- «يُمكنك أن تنام على السطح أو في المخزن، كما تُفضِّل. ستجد لك
يسيلاً فراشاً».

قال تيريون: «لطف بالغ منها»، وانحنى متمائلاً، ولكن عندما بلغ باب
القمرة التفت مضيقاً: «ماذا لو وجدنا الملكة واكتشفنا أن ذلك الكلام عن
التنانين مجرد خيال بحارٍ سكيّر ما؟ هذا العالم الواسع زاخر بالحكايات
المجنونة المشابهة، حكايات الجرامينات والسناركات⁽¹⁾ والأشباح والغيلان
وعرائس البحر والجوبلين الصخريين⁽²⁾ والخيول المجنحة والخنازير
المجنحة... والأسود المجنحة».

رمقه جريف عابساً، وقال: «لقد أذرتك يا لانستر. صن لسانك أو افقده.
ثمّة ممالك كاملة على المحك، وحياتنا وأساؤنا وسرفنا أيضاً. ليست هذه
لُعبة نلعبها لتسليتك».

فكر تيريون: بل هي لُعبة بالطبع، لُعبة العروش، وعادَ ينحني مغمغماً:
«كما تقول أيها الرُّبان».

(1) الجرامين والسنارك مخلوقان خياليان يرد ذكرهما في الحكايات الشعبيّة في (وستروس)،
الأول يُقال إنه يُحقّق الأمانى بالسحر، والثاني وحش ليس له وصف محدّد. (المُترجم).

(2) الجوبلين مخلوقات وحشيّة من الفلكلور الأوروبي، لها عدّة أوصاف تختلف حسب
القصة، لكنها دائماً تقريباً صغيرة الحجم مشوّهة خبيثة، وأحياناً لها قدرات سحرية
كالجنّيات والشياطين. في عالم الرّواية جوبلين الصُّخور من المخلوقات المذكورة في
فلكلور (بتوس). (المُترجم).



دافوس

شقَّ البرق سماءَ الشَّمالِ راسمًا حدودَ بُرجِ (سراج اللَّيلِ) الأسودِ تحتِ القُبَّةِ البيضاءِ المزرقَّةِ، وبعدَ ستِّ نبضاتٍ قلبٍ دَوَى هزيمِ الرِّعدِ كدَقَّاتِ طبلَةٍ بعيدة.

ساقُ الحُرَّاسِ دافوسِ سيوورثِ عبرَ جسرٍ من البازلتِ الأسودِ وتحتِ شبكَةٍ حديديةٍ يلوحُ عليها الصِّدأُ، يقعُ وراءها خندقٌ عميقٌ مليءٌ بالماءِ المالحِ وجسرٌ متحرِّكٌ تدعّمه سلسلتانِ ضخمتانِ، وبالأَسفلِ تَطمو المياهِ الخضراءُ وتُفورُ مرسلَةٌ أعمدةً من الرِّذاذِ تتكسَّرُ على أناساتِ القلعةِ. ثم بلغوا مبنى بُوابةٍ ثانيًا أكبرَ من الأولى، حجارتُه ملتحيةٌ بالطَّحالبِ الخضراءِ، وتقدِّمُ دافوسَ متعثِّراً عبرَ ساحةٍ موحلةٍ بمعصمينِ مقيدَينِ وعينينِ يلسعهما المطرُ الباردُ، قبلَ أن يدفعه الحُرَّاسُ صاعدينِ به السَّلامِ إلى حصنِ (كاسرةِ الموجِ) الحجريِّ الفسيحِ.

ما إن دخلوا خلَعَ قائدُ الحُرَّاسِ معطفه وعلَّقَه على مشجبٍ كي لا يترُكُ برِكاً صغيرةً من الماءِ على البساطِ المائريِّ الرِّثِ، فحذا دافوسُ حذوه فاتحًا إزيمَ معطفه بصعوبةٍ بيديه المقيدَينِ. إنهُ لم ينسَ أصولَ اللِّياقةِ التي تعلَّمها في (دراجونستون) خلالَ أعوامه في الخدمةِ.

وجدوا اللوردَ بمفرده في عتمةِ قاعتهِ، يتناولُ عشاءً من البيرةِ والخُبزِ ويخنةِ الأخواتِ. على جُدُرانه الحجريَّةِ السَّميكةِ عشرونَ حاملِ مشعلٍ من الحديدِ، لكن في أربعةٍ منها فقط مشاعلٌ، ولا واحدٌ منها موقدٌ، وبدلًا من ذلك تُلقِي شمعتانِ سميكتانِ من الشَّحمِ ضوءًا خفيفًا متذبذبًا. سمعَ دافوسُ الأمطارَ تجلُدُ الجُدُرانَ من الخارجِ، وصوتَ ماءٍ يتقاطرُ بثباتٍ من تسرُّبٍ في السَّقْفِ.

قال القائد: «سيدي، وجدنا هذا الرجل في (بطن الحوت) يُحاول استئجار من يُغادر به الجزيرة. كان معه اثنا عشر تينًا ذهبيًا، وهذا الشيء أيضًا»، ثم وضع الشيء على المائدة أمام اللورد، وهو شريط عريض من المخمل الأسود المؤطر بقماش الذهب، ويحمل ثلاثة أختام: وعلا متوجًا مختومًا في شمع النحل الذهبي، وقلبًا أحمر ناريًا، ويدًا بيضاء.

انتظر دافوس مبتلًا يقطر منه الماء، يُؤلمه معصماه حيث انغرس فيهما الحبل المشبّع بالبلل. كلمة واحدة من هذا اللورد وسيجد نفسه معلقًا من رقبته من (بوابة المشانق) في (بلدة الأخوات)، لكنه محتّم من المطر على الأقل، وتحت قدميه أحجار صلبة بدلًا من سطح قارب يرتفع وينخفض. إنه مبتل عن آخره وموجوع ومُضنى، أعياه الحُزن وأنهكته الخيانة، وسئم العواصف حدّ الموت.

مسح اللورد فمه بمؤخرة يده والتقط الشريط يلقي عليه نظرة من كئيب. بالخارج سطح البرق جاعلاً حلقات السهام تتوهج بالأزرق والأبيض لنصف نبضة قلب، وقبل أن يهزم الرعد عدّ دافوس: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، ولما خبا أصغى إلى صوت الماء المتقاطر من السقف والهدير المكتوم تحت قدميه حيث تعتلج الأمواج وتتكسر على قناطر (كاسرة الموج) الحجرية الهائلة وتدور في زنازينها. قد ينتهي به الأمر بالفعل في إحدى تلك الزنازين، مقيّدًا إلى أرضية حجرية مبتلة ومتروكًا حتى يغرق عندما تتدفق مياه المد. حاول أن يقول لنفسه: لا. ربما يموت مهرب هكذا، ولكن ليس يد ملك. إن قيمتي أكبر إذا باعني لملكته.

داعب اللورد الشريط مقطّبًا وجهه وهو يرمق الأختام. إنه رجل قبيح، لحيم كبير الحجم، له كتفا مجذّف سميكتان وعُتق لا يُذكر، ويُعطّي وجنتيه وذقنه شعر شائب خشن خفيف وخطّه الأبيض في غير موضع. فوق جبهته الكبيرة البارزة رأسه أصلع، وتحتها أنفه أكتل محمّر من العروق المكسورة وشفثاه غليظتان، وبين أصابع يمينه الوسطى الثلاثة شيء أشبه بغشاء. كان دافوس قد سمع أن بعض لوردات (الثلاث أخوات) أيديهم وأقدامهم غشائية وتراء، وإن اعتبرها دومًا مجرد قصة بحارة أخرى.

عادَ اللورد يسند ظهره قائلاً: «اقطع قيوده واخلع فُؤازيه هذين. أريدُ أن أرى أصابعه».

أطاعَ قائد الحُرَّاس الأمر، وإذ رفعَ يدَ أسيره اليُسرى المشوَّهة سَطَعَ البرق من جديدٍ ملقياً ظلَّ أصابع دافوس سيورث المقصَّرة على وجه جودريك بورل القاسي اللفظ، ثم قال سيِّد (الأخت العذبة): «بإمكان أيِّ أحدٍ أن يسرق شريطاً، لكن هذه الأصابع لا تكذب. أنت فارس البصل».

- «دُعيتُ بهذا الاسم بالفعل يا سيِّدي». دافوس نفسه من اللوردات، وقبلها كان فارساً لأعوام طويلة، لكنه ما زال في أعماقه ما كانه دوماً، المهرب ابن العوام الذي ابتاعَ فُروسَيْته بحمولةٍ من البصل والسَّمك. «ودُعيتُ بأشياء أسوأ أيضاً».

- «أجل. خائن، متمرِّد، مارق».

ردَّ وقد أحنته الكلمة الأخيرة: «لم أمرق قطُّ يا سيِّدي. إنني من رجال الملك».

علَّق اللورد: «فقط إذا كان ستانيس ملكاً»، ووزنه بعينين سوداوين صارمتين، وقال: «معظم الفُرسان الذين يرسون على سواحلي يسعون إليَّ في قاعتي، وليس في (بطن الحوت). ذلك المكان وكر مهربيين حقير. أنت عائد إلى حرفتك القديمة يا فارس البصل؟».

- «لا يا سيِّدي. كنتُ أبحثُ عن رحلةٍ إلى (الميناء الأبيض). لقد بعثني الملك برسالةٍ إلى سيِّدها».

بدا على اللورد جودريك أنه يجد الموقف طريفاً إذ قال: «إذن فأنت في المكان الخطأ مع الشَّخص الخطأ. هذه (بلدة الأخوات)، على (الأخت العذبة)».

- «أعرفُ هذا». ولو أن (بلدة الأخوات) تخلو من أيِّ عذوبة. إنها بلدة كريمة، زرية، صغيرة وحقيرة وتبقى بخراء الخنازير والأسماك المتعفِّنة. (الثلاث أخوات) مثوى مفضَّل عند المهربيين منذ مئات السنين، وقبل ذلك كانت وكرًا للقراصنة، وشوارع (بلدة الأخوات) وحلٍ وألواح خشب، ومنازلها أكواخ وضيعة من القسِّ والجصِّ وسقفها مغطاة بالنَّجيل، ودائماً عند (بوابة المشائق) ثمة رجال مشنوقون تتدلى أعاؤهم من بطونهم.

قال اللورد: «لا شكّ لديّ في أن لك هنا أصدقاء. لكلّ مهربّ أصدقاء في (الأخوات). بعضهم أصدقاؤني أيضًا، ومن ليسوا كذلك أشنقهم، أتركهم يختنقون ببطءٍ فيما تلتطم أحشاؤهم رُكبهم». توهّج الصّوء في القاعة من جديدٍ مع إضاءة البرق النّوافذ، وبعد نبضتي قلب تلاه الرّعد. «إذا كنت تُريد (الميناء الأبيض) فماذا تفعل في (بلدة الأخوات)؟ ما الذي أتى بك؟». كان دافوس ليقول: أمر ملكٍ وخيانة صديق، لكنه بدلًا من ذلك أجاب: «العواصف».

تسع وعشرون سفينةً أبحرت من عند (الجدار)، وإذا كان نصفها لا يزال طافيًا فستكون صدمةً لدافوس. بطول السّاحل لاحقتهم السّماء السّوداء والرّيح العنيفة والأمطار الغزيرة، فانجرف القادسان (أوليدو) و(ابن الأمّ العجوز) إلى صخور (سكاجوس)، جزيرة اليونيكورنات⁽¹⁾ وآكلي لحوم البشّر التي كان النّغل الأعمى نفسه يخشى الرّسو على شواطئها، ثم غرق الكوج العظيم (ساثوس سان) عند (الجروف الرّماديّة)، وقال سالادور سان وهو يتميّز غيظًا: «سيدفع ستانيس ثمنها، سيدفع ثمن كلّ واحدةٍ منها ذهبًا». كأن إلهاً غاضبًا ما كان يتنزّع منهم ضريبة رحلتهم السّهلة إلى الشّمال، حين ركبوا رباحًا جنوبيّةً ثابتةً من (دراجونستون) إلى (الجدار). ثم هبت زوبعة أخرى ممزّقةً جبال أشرعة (الحصاد الوفير) ومرغمةً سالًا على جرّها بسفيتينٍ أخريين، وعلى بُعد عشرة فراسخ من (قلعة الأرملة) جدّد البحر غضبته صاربًا (الحصاد) بأحد القادسين اللذين يجرّانها ومغرّقًا السّفينتين. أمّا بقية الأسطول اللايسيني فانتشرت في (البحر الضيّق)، بعضها سيجد طريقه إلى ميناءٍ أو غيره، وبعضها لن يراه أحدٌ ثانيةً أبدًا.

وبينما تقدّمت بقايا أسطوله بصعوبةٍ عبر (الخليج الطويل) قال سالادور سان لدافوس متذمّرًا: «سالادور المتسوّل، سالادور المحطم. أين سُفني؟ وذهبي، أين الذهب الذي وُعدت إياه؟»، فلمّا حاول دافوس أن يُطمئنه أنه

(1) اليونيكورن مخلوق أسطوري عبارة عن حصان له قرن واحد ويتمتع بقدرات سحرية، وفي عالم الرواية يُقال إنه حيوان أقرب إلى الكبش في الشكل، وله قرن واحد طويل في منتصف رأسه، ويستطيع تسلق الجبال العالية. (المترجم).

سينال أجره انفجرَ سالاً زاعقاً: «متى؟ متى؟! غداً؟ مع مطلع القمر الجديد؟ حين يظهر المذنب الأحمر ثانية؟ إنه يعدني بالذهب والجواهر، يعدني طول الوقت، لكنني لم أرَ ذهباً. أعطاني كلمته، هكذا يقول، أوه، نعم، كلمته الملكية المكتوبة. هل يستطيع سالادور سان أن يأكل كلمة الملك؟ هل يستطيع إطفاء عطشه بالورق والأختام الشمع؟ هل يستطيع أن يُلقي الوعود في فراشٍ وثير ويُضاجعها حتى تصرُخ؟».

حاول دافوس أن يُقنعه بالثبات على ولائه، ووضَّح له أنه إذا تخلَّى عن ستانيس وقضيَّته فإنه يتخلَّى عن كلِّ أملٍ في جني الذهب الذي استحقَّه، فليس من المتوقع أن يسدِّد الملك تومن ديون عمِّه المهزوم إذا انتصر. أمل سالال الوحيد أن يبقى مُخصَّصاً لستانيس باراثيون حتى يظفر بالعرش الحديدي، وإلا فإنه لن يرى جروتاً⁽¹⁾ واحداً من ماله. يجب أن يكون صبوراً.

ربما كان لورد ما معسول اللسان ليُفلح في استمالة أمير القراصنة اللالسيني، إلا أن دافوس فارس بصل، ولم تنجح كلماته إلا في استفزاز سالال وتجديد ثورته، ليقول له: «في (دراجونستون) كنتُ صبوراً عندما أحرقت المرأة الحمراء الآلهة الخشبية والرَّجال الصَّارخين. طيلة الطريق الطويل إلى (الجدار) كنتُ صبوراً. في (القلعة الشرقية) كنتُ صبوراً... وبردان، بردان جداً. والآن أقولُ أف! أف! لأصبرك وأف! لملكك! رجالي جائعون، يُريدون أن يُضاجعوا زوجاتهم ثانية، وأن يعدُّوا أولادهم، وأن يروا (الأعتاب) وحدائق الهوى في (ليس). الجليد والعواصف والوعود الفارغة، تلك أشياء لا يُريدونها. الشَّمال بارد للغاية، ويزداد برودة».

حدَّث دافوس نفسه قائلاً: كنتُ أعلمُ أن هذا اليوم سيأتي. كنتُ مولعاً بالشَّقِي العجوز، لكنني لم أكن بالحماقة الكافية للثقة به.

- «العواصف»، ردَّد اللورد جودريك الكلمة بحنان رجل ينطق اسم معشوقته. «العواصف كانت مقدَّسة في (الأخوات) قبل مجيء الأنداليين. إلهانا القديمان كانا سيِّدة الموج وسيِّد السَّموات، وكلِّما تجامعا صنعا

(1) الجروت عملة كانت متداولة قديماً في إنجلترا وأيرلندا وسكوتلندا، ويُساوي أربعة بنسات. (المترجم).

العواصف»، ومالَ إلى الأمام متابعًا: «هؤلاء الملوك لا يكثرثون أبدًا لـ(الأخوات)، ولم يفعلون؟ إنا قوم فقراء ضعاف، ومع ذلك هأنذا، جلبتكم إليَّ العواصف».

بل جلبني إليك صديق.

التفت اللورد جودريك إلى قائد الحُرَّاس قائلاً: «اترك هذا الرجل معي. إنه لم يكن هنا قطُّ».

قال القائد: «نعم يا سيدي، لم يكن هنا قطُّ»، وانصرف ليترك حذاؤه آثار قدميه المبتلَّة على البساط.

تحت الأرض ما انفكَّ البحر الهائج يهدر ضاربًا دعائم القلعة.

انغلق الباب الخارجي بصوت كالرَّعد البعيد، ومرةً أخرى سطع البرق كأنه يُجيبه، وقال دافوس: «سيدي، إذا أرسلتني إلى (الميناء الأبيض) سيعدُّ جلالته هذا التصرف دلالةً على الصَّدَاقَة».

ردَّ اللورد: «يُمكِنني أن أرسلك إلى (الميناء الأبيض)، أو يُمكنني أن أرسلك إلى جحيم باردة مبتلَّة».

(بلدة الأخوات) جحيم فعليَّة. يخشى دافوس أن يقع الأسوأ، فد(الثلاث أخوات) معروفات بتقلُّبهن وإخلاصهن لأنفسهن فحسب. المفترض أن الجزر الثلاث مدينت بالولاء لآل آرَن أولاد (الوادي)، لكن سيطرة (العُش) عليها -على أحسن تقدير- ضعيفة.

- «إذا علمَ سندرلاند بوجودك هنا فيسُطَلَب أن أسلمك إليه». يُقدِّم بورل فروض الولاء إلى (الأخت العذبة)، مثلما يُقدِّمها لونجثورپ إلى (الأخت الطويلة) وتورنت إلى (الأخت الصَّغيرة)، وكلها تابع ل تريستون سندرلاند سيِّد (الثلاث أخوات). «سيبيعك للملكة مقابل جرَّةٍ من ذهب لانستر. الرِّجل المسكين محتاج إلى كلِّ تِنين، فله سبعة أبناء كل منهم عازم على أن يُصبح فارسًا»، وتناول اللورد ملعقةً خشبيَّةً وعادَ ينقُض على يخته مواصلاً: «اعتدتُ أن ألعن الآلهة التي لم تهب لي إلا الفتيات، إلى أن سمعتُ تريستون يشكو متحسِّراً من تكلفة الجياد الحربيَّة. سيُدْهِشك أن تعلم عدد الأسماك المطلوب لشراء بَرَّة جيِّدة من الصَّفائح وقيصًا من الحلقات الحديد».

كان لي سبعة أبناء أيضًا، لكن أربعة منهم ماتوا محترقين. قال دافوس:

«اللورد سندرلاند مقسم على الولاء لـ(العُش). الواجب أن يُسلمني إلى الليدي آرَن». قدَّر أن فُرسته معها أفضل من فُرسته مع آل لانستر، فعلى الرغم من أنها لم تُشارك في حرب الملوك الخمسة فلايسا آرَن ابنة (ريفررن) وخالة الدُّب الصَّغير.

قال اللورد جودريك: «لايسا آرَن ماتت، قتلها مُطرب ما. اللورد الإصبع الصَّغير يَحْكُم (الوادي) الآن. أين القراصنة؟»، فلمَّا امتنع دافوس عن الإجابة دقَّ المائدة بملعقته قائلاً بإصرار: «اللايسيني. تورنت لمحّ قلعوه من (الأخت الصَّغيرة)، وقبله آل فلينت من (قلعة الأرملة). قلعوا بُرتالِيَّة وخضراء ووردِيَّة. سالادور سان. أين هو؟».

- «في البحر». لا بُدَّ أن سالاً مبحرٌ حول (الأصابع) وعبر (البحر الضيق) في طريق العودة إلى (الأعتاب) بما تبقى له من سُفن قليلة، وربما يَحْصُل على المزيد في الطُّريق إذا صادفَ سُفنًا تجاريَّةً مناسبةً. القليل من القرصنة لمساعدته على احتمال المسافة. «صاحب الجلالة أرسله جنوباً لإزعاج آل لانستر وأصدقائهم». كان قد تمرَّن على هذه الكذبة وهو يُجذِّف في المطر صوب (بلدة الأخوات). عاجلاً أو آجلاً سيعلم العالم أن سالادور سان تخلى عن ستانيس باراثيون تاركًا إياه بلا أسطول، لكن أحداً لن يسمع الخبر من فم دافوس سيوورث.

قلَّب اللورد جودريك يخته متسائلاً: «هل جعلك ذلك القُرصان العجوز سان تسبح إلى الشاطئ؟».

- «لقد رسوتُ على الشاطئ بقارب مفتوح يا سيدي». انتظرَ سالاً حتى غاب ضوء منارة (سراج الليل) عن سفينته (فاليريان) قبل أن ينزله. على الأقل استحققت صدافتها هذا القدر. أقسم اللايسيني أنه سيأخذه معه إلى الجنوب بكلِّ ترحاب، لكن دافوس رفض. ستانيس محتاج إلى وإيمان ماندردلي، وقد عهدَ إليه بكسبه، وهكذا قال لسالاً إنه لن يخون تلك الثقة، فردَّ الأمير القُرصان: «أف! سيقتلك بتكريمه إياك يا صديقي القديم، سيقتلك».

قال اللورد جودريك: «لم أستقبل يد ملكٍ تحت سقفي من قبل. تُرى هل يقبل ستانيس أن يدفع فديتك؟».

هل يقبل؟ لقد أسبغ ستانيس على دافوس بالأراضي والألقاب والمناصب،

لكن هل يدفع مبلغًا وقدره من الذهب ليفتدي حياته؟ إنه لا يملك ذهبًا، وإلاً لكان سالماً ما زال معه. «سيجد سيدي جلالته في (القلعة السوداء) إذا أراد أن يسأله».

دمدم بورل: «هل العفريت في (القلعة السوداء) أيضًا؟». لم يفهم دافوس السؤال. «العفريت؟ إنه في (كينجز لاندنج)، محكوم عليه بالموت لاغتiale ابن أخته».

- «اعتاد أبي أن يقول إن (الجدار) آخر من يعلم. لقد هرب القزم، تلوَّى خارجاً من بين قضبان زنزانه ومزق أباه إرباً إرباً بيديه العاريتين. أحد الحرس رآه يهرُب غارقاً بالأحمر من قمة رأسه إلى أخمص قدميه كأنه استحمَّ بالدم. الملكة ستهب لورديةً لأي رجل يقتله».

مجاهداً لتصديق ما يسمعه، سأله دافوس: «هل تقول لي إن تايوين لانستر مات؟».

أجاب اللورد: «بيد ابنه، أجل»، وأخذ رشفةً من البيرة قبل أن يُردف: «حين كان لـ (الأخوات) ملوك لم نكن نسمح للأقزام بالعيش. كنا نلقيهم جميعاً في البحر كقربانٍ للآلهة، ثم جعلنا السِّبتونات نكفُّ عن ذلك. يا لهم من قطع من الحمقى الورعين. لم تخلق الآلهة أحداً بهذا الشكل إلا للدلالة على كونه وحشاً؟».

موت تايوين لانستر يُغيِّر كلَّ شيء. «سيدي، هل تأذن لي في إرسال عُذافٍ إلى (الجدار)؟ سيرغب جلالته في المعرفة بموت اللورد تايوين».

- «سيعرف، ولكن ليس مني، أو منك ما دُمت هنا تحت سقفي الذي يُسربُّ الماء. لن أجعل الناس يقولون إنني مددتُ ستانيس بالعون والمشورة. لقد جرَّ آل سندرلاند (الأخوات) إلى اثنين من تمرُّدات بلاكفاير ودفعنا الثمن غالباً»، وأشار اللورد جودريك بملعقته إلى مقعدٍ مستطرداً: «اجلس قبل أن تقع أيها الفارس. إن قاعتي باردة ورطبة ومظلمة، لكنها لا تفتقر إلى شيءٍ من الكياسة. سنجد لك ملابس جافَّة، لكنك ستأكل أولاً»، ثم صاح فدخلت امرأة القاعة، ليقول لها: «عندنا ضيف علينا أن نُطعمه. اجلبي البيرة والخُبز ويخنة الأخوات».

كانت البيرة بيئةً والخُبز أسمر واليخنة بيضاء قشديَّة، وقد قدَّمتها في طبقٍ

مصنوع من رغيّف خُبزٍ بائت مفرّغ، فيها كمّيّات وافرة من الكرفس والجزر والشّعير واللفّت الأبيض والأصفر، مع المحار وقطع سمك القد ولحم السّرّاطين، وكلّ هذا يسبح في مرّق ثخين دسم من القشدة والزّبدة. إنه طبق يُدْفَى المرء حتى النُّخاع، الوجبة المثلى لليلةٍ ليليةٍ باردة.

وشرّع دافوس يأكل ممتنّاً.

- «هل دُقت يخبنة الأخوات من قبل؟».

- «نعم يا سيّدي». في كلّ حانٍ وخانٍ في جميع أنحاء (الثلاث أخوات)

تُقَدِّم اليخبنة نفسها.

- «هذه أفضل من التي تناولتها من قبل. جِلا تعدّها، ابنة ابنتي. أنت متزوِّج يا فارس البصل؟».

- «نعم يا سيّدي».

- «مؤسف. جِلا عزباء. الدّميمات أفضل الزّوجات. في هذه اليخبنة

ثلاثة أنواع من السّرّطان، السّرّطان الأحمر والسّرّطان العنكبوتي والسّرّطان الغازي. لستُ أكل السّرّطان العنكبوتي إلّا في يخبنة الأخوات. إنه يجعلني أشعرُ كأنني أكلُ لحومٍ عشيرتي»، وأشارَ حضرة اللورد إلى الرّاية المعلّقة فوق المستوقد الأسود البارد، المطرّز عليها سرّطان عنكبوتي أبيض على خلفيّة خضراء مائلة إلى الرّمادي. «سمعنا أن ستانيس أحرق يده».

سلفي في اليدويّة. أعطت مليساندرا آلستر فلورنت لرّبّها في (دراجونستون) لتستحضر الرّياح التي حملتهم شمالاً. كان اللورد آلستر قوياً صامتاً إذ قيده رجال الملكة إلى العمود، يبدو عليه الإباء والوقار - إن كان شيء كهذا ممكناً لرجلٍ شبه عارٍ - لكن عندما لعقت أسنّة اللّهب ساقه بدأ يصرّخ، وإذا صدقت المرأة الحمراء فقد دفعهم صريخه طوال الطّريق إلى (القلعة الشّرقية). لم يحبّ دافوس تلك الرّياح التي بدت له كأنها تحمل رائحة اللّحم المحترق، صوتها مغمّم أليم وهي تتلاعب بين القلوع. كان يُمكن أن أكون مكانه بالسّهولة نفسها. قال للورد جودريك: «لم أحرق، ولو أن (القلعة الشّرقية) كادت تُجمّديني».

- «هذا ما يفعله (الجدار)». جلبت لهما المرأة رغيّف خُبزٍ ساخناً من

الفرن، ولمّا رأى دافوس يدها حملق إليها، وهو ما لم يفت اللورد جودريك

الذي قال: «أجل، إن عليها العلامة كجميع آل بورل منذ خمسة آلاف عام. إنها ابنة ابنتي، ليست من تَطْبُخ اليخنة»، وقسم الرَغيف نصفين ناول دافوس أحدهما مضيئاً: «كُل. إنه طازج».

وكان كذلك، ولو أن دافوس كان ليرضى بأيِّ كِسرةٍ بائته، فمعنى هذا أنه ضيف هنا، هذه الليلة على الأقل. إن للوردات (الثلاث أخوات) سُمعةً بالغة السوء، بالذات جودريك بورل سيّد (الأخت العذبة) وحامي (بلدة الأخوات) وحاكم قلعة (كاسرة الموج) وحافظ (سراج الليل)... لكن حتى اللوردات اللصوص ومحطّمو السفن يلتزمون قوانين الضيافة العتيقة. سأرى الفجر على أقلّ تقدير. لقد أكلتُ عيشه وملحه.

مع أن في يخنة الأخوات هذه توابل أغرب من الملح. «أهذا مذاق زعفران؟». الزعفران أعلى من الذهب، ولم يدقه دافوس إلا مرةً واحدةً من قبل، عندما أرسل إليه الملك روبرت نصف سمكةٍ خلال مأدبةٍ في (دراجونستون).

أجاب اللورد جودريك: «أجل، من (كأرت). هناك فلفل أيضاً»، وأخذ القليل منه بين سبّابته وإبهامه ورشّه على طبقه متابعاً: «فلفل أسود مجروش من (فولانتيس)، لا شيء أجود. خُذ منه ما تشاء إذا كنت تحبُّ الفلفل. إن عندي أربعين صندوقاً منه، بخلاف القرنفل وجوز الطيب... ورطل من الزعفران. لقد أخذتها من عذراء حواء». قالها بورل وضحك، فرأى دافوس أن أسنانه لا تزال كاملةً، وإن كان أكثرها مصفراً وثمة واحدة في الصّفّ العلوي سوداء ميتة. «كانت في طريقها إلى (برافوس)، لكن عاصفةً دفعتها إلى (الخليج الطويل) وحطّمتها على صخوري. كما ترى إذن، لست الهدية الوحيدة التي جاءتني بها العواصف. البحر غدار لا يرحم».

ليس غداراً كالْبِشْر. كان أجداد اللورد جودريك ملوكاً قراصنةً إلى أن جاء آل ستارك وقطعوا دابرهـم بالنّار والسّيف، أمّا هذه الأيام فيترك رجال (الأخوات) القرصنة العلنية لسالادور سان ومن هم على شاكلته ويكتفون بنهب حُطام السفن. المفترض أن تُحذّر المنارات المشتعلة على سواحل (الثلاث أخوات) من المياه الضّحلة والشّعاب المرجانيّة والصّخور وتُرشد

السُّفن إلى الأمان، لكن في الليالي العاصفة أو كثيفة الضباب يستخدم بعض رجال (الأخوات) أضواءً زائفةً لاجتذاب الربابنة الساهين إلى حتفهم.

قال اللورد جودريك: «العواصف صنعت معك جميلًا عندما دفعتك إلى بابي. كنت لتجد ترحيبًا باردًا في (الميناء الأبيض). لقد جئت متأخرًا يا سيدي. اللورد وايمان سيركع، وليس لستانيس»، وأخذ جرعةً من البيرة قبل أن يُكمل: «آل ماندرلي في أعماقهم ليسوا شماليين. إنهم لم يذهبوا إلى الشمال إلا منذ تسعمئة عام فقط، محمّلين بذهبهم وآلهتهم. كانوا لوردات عظامًا على ضفاف (الماندر) إلى أن تجاوزوا حدودهم فصفتهم الأيادي الخضراء. الملك الذئب أخذ ذهبهم لكنه أعطاهم أرضًا وسمح لهم بالاحتفاظ بآلهتهم»، وغسّس من يخته بقطعةٍ من الخبز مواصلاً: «إذا كان ستانيس يحسب أن الرجل السمين سيمتطي الوعل فهو مخطئ. لقد رست (أسد النجوم) في (بلدة الأخوات) قبل اثني عشر يومًا لتملأ براميلها بالماء. هل تعرفها؟ أشرعة قرمزية وأسد ذهبي على مقدمتها، ومليئة بأبناء فراي المتجهين إلى (الميناء الأبيض)».

- «أبناء فراي؟». كان هذا آخر شيء يتوقّعه دافوس. «سمعنا أن آل فراي قتلوا ابن اللورد وايمان».

ردّ اللورد جودريك: «أجل، وكانت ثورة الرجل السمين عارمةً لدرجة أنه تعهد على نفسه بالعيش على الخبز والخبث فقط حتى ينال ثاره، لكن قبل نهاية اليوم كان يحشو شدقيه بالمحار والكعك. بين (الأخوات) و(الميناء الأبيض) سفن تتحرك طوال الوقت، نبيع لهم السراطين والأسماك وجبنة الماعز ويبيعون لنا الخشب والصوف والجلود. مما سمعتُ فقد بلغ حضرة اللورد درجةً غير مسبوقة من البدانة. هذه هي قيمة العهود. الكلام هواء، وما يخرج من فم اللورد ماندرلي لا يعني أكثر مما يخرج من شرجه»، ومزق اللورد قطعةً أخرى من الخبز يمسح بها طبقه، وتابع: «كان مع أبناء فراي جوال من العظام للأحمق السمين. قد يُسمّونها بعضهم كياسةً، أن يجلبوا للرجل رُفات ابنه. لو كان ابني أنا لرددتُ الكياسة وشكرتُ أبناء فراي قبل أن أشنقهم، لكن الرجل السمين أنبل من أن يفعل ذلك»، ثم دسّ الخبز في فمه ومضغه وابتلعه، وأردف: «لقد ضيّفتُ أبناء فراي على العشاء. كان أحدهم

جالسًا حيث تجلس. قال إن اسمه ريجار، فكذتُ أضحكُ في وجهه. ذكر أنه فقد زوجته، لكنه ينوي أن يجد واحدةً جديدةً في (الميناء الأبيض). الغدبان تطير جيئةً وذهابًا منذ مُدَّة. اللورد وايمان واللورد والدير توصَّلا إلى اتِّفاق، وينيوان إبراهيم بالزَّواج».

شعرَ دافوس كأن اللورد لكَمَه في بطنه. إذا صدقَ فقد ضاعَ مليكي. ستانيس باراثيون في أمسِّ الحاجة إلى (الميناء الأبيض). إذا كانت (ويترفل) قلب الشمال ف(الميناء الأبيض) فمه. منذ قرون وخور المدينة يظلُّ حرًّا من الجليد حتى في عمق الشتاء، وبدنو الشتاء قد يعني هذا الكثير، ومثله فضة المدينة. آل لانستر يملكون ذهب (كاسترلي روك) كلَّه، وصاهروا ثروة (هايجاردن) الطائلة، في حين أن خزائن الملك ستانيس فارغة. يجب أن أحاول على الأقل. قد تكون هناك وسيلة أمتعُ بها هذه الزَّيجة. «يجب أن أصل إلى (الميناء الأبيض). أتوسَّل إليك يا سيِّدي اللورد أن تُساعدني».

بدأ اللورد جودريك يأكل طبقه ممزقًا إياه بيديه الكبيرتين وقد طرَّت اليخنة الحُزْب البائت، ثم إنه أعلن: «لستُ أكنُّ حُبًّا للشماليين. يقول الويايستر إن اغتصاب (الأخوات الثلاث) كان قبل ألفي عام، لكن (بلدة الأخوات) لم تنس. قبلها كنا قومًا أحرارًا يحكُمنا ملوكنا، وبعدها أصبح علينا الخضوع لـ(العش) كي نُخرج الشماليين. لقد تقاتل الذئب والصقر علينا ألف عام حتى التهم الاثنان شحم ولحم هذه الجزر الفقيرة ولم يتركا لها إلا العظم. وبالنسبة إلى ملكك ستانيس، حين كان قيِّم سفن روبرت أرسلَ أسطولاً إلى مينائي دون إذني وجعلني أشنقُ دستةً من الأصدقاء الطيبين، رجالاً مثلك، بل وتمادي مهددًا إياي بالشنق إذا حدث أن جنحت سفينة ما إلى اليابسة لأن (سراج الليل) كانت مطفاةً، ومرغمًا ابتلعتُ غطرسته»، وأكل جزءًا آخر من طبقه مضيغًا: «والآن يأتي إلى الشمال مهزومًا وذيله بين قدميه. لماذا أقدمُ له العون؟ أجبني».

فكَّر دافوس: لأنه ملكك الشرعي، لأنه رجل قوي عادل، الرَّجل الوحيد الذي يستطيع إعادة إعمار البلاد والدِّفاع عنها ضد الأخطار المحتشدة في الشمال، لأنه يحمل سيفًا سحريًّا يتوهج بنور الشمس. على أن الكلمات احتبست في حلقه، فليس بها يستطيع استمالة سيِّد (الأخت العذبة). ما

الإجابة التي يُريدها؟ هل عليّ أن أعدّه بذهبٍ لا نملكه؟ بزواجٍ عالي المقام لابنة ابنته؟ بالأراضي والامتيازات والألقاب؟ لقد حاولَ اللورد آلستر فلورنت أن يلعب تلك اللعبة ولأجل هذا احترقَ.

قال اللورد جودريك: «يبدو أن اليد فقدَ النطقَ. إنه لا يحبُّ مذاقَ يخنة الأخوات، أو مذاقَ الحقيقة».

ببطءٍ قال دافوس: «لقد ماتَ الأسد. هذه هي الحقيقة يا سيّدي. تايوين لانستر مات».

- «وماذا في هذا؟».

- «من يحكّم الآن في (كينجز لاندنج)؟ ليس تومن، إنه مجرد طفل. أهو السير كيفان؟».

التمع ضوء الشمّعتين في عينيّ اللورد جودريك السّوداوين وهو يُجيب:
«لو كان هو لكنت مقيّدًا بالسّلاسل. الملكة هي الحاكمة».

وفهمَ دافوس. إن لديه شكوكًا، لا يُريد أن يجد نفسه مع الجانب الخاسر. «ستانيس دافع عن (ستورمز إند) ضد آل تايرل وآل ردواين، وأخذَ (دراجونستون) من فلول آل تارجارين، وحطّم الأسطول الحديدي عند (الجزيرة القصيّة). الملك الطّفّل لن ينتصر عليه».

- «الملك الطّفّل يملك ثروة (كاسترلي روك) وقوّة (هايجاردن)، ومعه آل بولتون وآل فراي»، وفركَ اللورد جودريك ذقنه متابعًا: «ومع ذلك... في هذا العالم الشّتاء وحده أكيد. ند ستارك قال هذا لأبي هنا في هذه القاعة».

- «ند ستارك كان هنا؟».

- «في فجر ثورة روبرت. الملك المجنون أرسلَ إلى (العُش) مطالبًا برأس ستارك، فردَّ چون آرن بالعصيان. لكن (بلدة النّوارس) ظلت على إخلاصها للعرش، ولكي يعود إلى وطنه ويستدعي راياته اضطرَّ ستارك إلى عبور الجبال إلى (الأصابع) والعثور على صيادٍ يحمله عبر (الخليج الطويل). خلال الطريق هبّت عاصفة أغرقت الصياد، لكن ابنته قادت ستارك إلى (الأخوات) قبل أن يغرق القارب. يقولون إنه تركّها بكيسٍ من الفضة ونغلٍ في بطنها سمّته چون سنو تيمُنًا بآرن. على كلِّ حال، كان أبي جالسًا حيث أجلس الآن حين وصلَ اللورد إدارد إلى (بلدة الأخوات). وقتها حنّنا

المبايستر على إرسال رأس ستارك إلى إيرس لإثبات ولائنا. كان ذلك ليعني مكافأة ضخمة. الملك المجنون كان سخيًّا مع من يُرضونه. لكننا كنا قد علمنا أن چون آرَن أخذَ (بلدة النّوارس). كان روبرت أول من تسلّق الأسوار، وقتلَ مارك جرافتون بيده. حينئذٍ قلتُ: باراثيون هذا لا يعرف الخوف. إنه يُقاتل كما يجدرُ بملك، فضحكُ المبايستر وقال إن الأمير ريجار سيهزم هذا المتمرد بالتأكيد، وعندها قال ستارك: في هذا العالم الشّتاء وحده أكيد. ربما نفقد رؤوسنا... لكن ماذا لو انتصرنا؟ وهكذا صرّفه أبي ورأسه على كتفيه، وقال للورد إدارد: إذا هُزِمتم فأنت لم تكن هنا قطُّ». قال دافوس سيورث: «مثلما لم أكن هنا قطُّ».



چون

أتوا بملك ما وراء الجدار مقيّد اليدين بحبلٍ من القنب وتُحيط بعُنقه
أنشودة.

حول قرن سرج جواد السير جودري فارنج الحربي عُقد الطرف الآخر من
الحبل، وقد تدرّع قاتل العمالقة ومطيّته بالفولاذ المفضّض المطعم بالمينا
الأسود، في حين لم يرتد مانس رايدر إلا سترّة طويلة تترك أطرافه مكشوفةً
للبرد، وهو ما جعل چون سنو يُفكّر: كان بإمكانهم أن يدعوه يحتفظ بمعطفه،
المعطف الذي رفعته المرأة الهمجية بقصاصاتٍ من الحرير القرمزي.
لا عجب أن (الجدار) يقطر كأنه يذرف الدمع.

كان چون قد بذل محاولةً أخيرةً لإقناع الملك ستانيس بأن حياة ملك ما
وراء الجدار أجدى لهم نفعاً من موته، وقال لصاحب الجلالة: «مانس يعرف
(الغابة المسكونة) أفضل من أيّ جوال، ويعرف تورموند بليّة العماليق، وقاتل
(الآخرين)، وكان معه بوق چورامون لكنه لم ينفخ فيه، لم يهدم (الجدار)
وهو يستطيع».

لكن كلماته وقعت على أذنين صمّاوين، ولم يتزحّح ستانيس. القانون
صريح: المتهرّب يدفع حياته غرامةً.

عند سفح (الجدار) الباكي رفعت الليدي مليساندرا يديها البيضاوين
الشاحبتين، وأعلنت: «علينا جميعاً الاختيار. رجالاً أو نساءً، صغاراً أو كباراً،
لوردات أو فلاحين، اختياراتنا واحدة». حضّ صوتها چون سنو على التّفكير
في الينسون وجوز الطيب والقرنفل إذ شاهدّها واقفةً إلى جوار الملك على

منصّة خشبيّة مرفوعة فوق الحُفرة. «نختار النور أو نختار الظلام، نختار الخير أو نختار الشر، نختار الإله الحقيقي أو الآلهة الزائفة».

طارَ شعر مانس رايدر البني الشائب الكثيف على وجهه وهو يمشي، فأزاحه عن عينيه بيدين مقيّدين وعلى شفثيه ابتسامة، لكن عندما رأى القفص تخلّت عنه شجاعته. كان رجال الملكة قد صنعوه من أشجار (الغابة المسكونة)، من الشجيرات والفروع اللينة وعضون الصنوبر بسُغها اللزج وأصابع الويروود البيضاء كالعظم، وثنوا كلّ هذا ولووه ودشّوا بعضه في بعض لعمل تعريشة خشبيّة، ثم علّقوها فوق حُفرة عميقة مليئة بالحطب وأوراق الشجر والهشيم. نكصَ ملك الهمج فرعًا من المنظر، وصاح: «لا، الرّحمة! ليس هذا عدلاً. أنا لستُ الملك. إنهم...».

شدّ السير جودري الجبل، ولم يجد ملك ما وراء الجدار خيارًا غير أن يتقدّم وراءه متعثّرًا وقد خنقَ الجبل كلماته، ولمّا فقدَ توازنه وسقطَ جرّه فانرج بقيّة الطّريق، فكان مضرّجًا بالدماء حين دفعه رجال الملكة وحملوه إلى القفص، ثم جذبَ دسته من الجنود حبل القفص معًا لرفعه في الهواء.

راقبته مليساندرا يرتفع، ثم قالت: «يا شعب الأحرار! ها هنا يقف ملككم ملك الأكاذيب، وها هو ذا البوق الذي وعدَ بأن يسقطَ به (الجدار)». جلبَ اثنان من رجال الملكة بوق چورامون الأسود المرصّع بحلقات الذهب العتيق، طوله ثمانية أقدام من الطّرف إلى الطّرف، وعلى الحلقات الذهبيّة نقوش بالأبجدية القديمة، كتابة البشر الأوائل. ماتَ چورامون منذ آلاف السنين، إلا أن مانس عثرَ على قبره تحت نهر جليدي في أعالي (أنياب الصّقيع). ونفخَ چورامون في بوق الشّتاء وأيقظَ العماليق من قلب الأرض. كانت إيجريت قد قالت لچون إن مانس لم يجد البوق. كذبت، أو أن مانس كتمَ السرّ عن قومه أنفسهم.

شاهدَ ألف من الأسرى من وراء قضبان محبسهم الخشبيّة إذ رُفِعَ البوق عاليًا، كلهم هزيل أشعث رث الثياب. تُسمّيهم (الممالك السبع) همجًا، ويُسمّون أنفسهم شعب الأحرار، لكنهم لا يبدون الآن همجيّين ولا أحرارًا، وإنما جياع خائفون خدرهم البرد.

قالت مليساندرا: «بوق چورامون؟ كلاً، بل هو بوق الظلام. إذا سقطَ

(الجِدَار) سقط اللَّيْل، اللَّيْل الطَّوِيل الذي لا ينتهي. يجب ألاَّ يَحْدُث ذلك، ولن يَحْدُث! لقد رأى إله الضَّيَاء أطفاله في خطرٍ فأرسل إليهم بطلاً، أزور آهاي المولود من جديد، وأشارت بيدها إلى ستانيس، ونبضت الياقوتة الكبيرة على رقبتها بالضَّوء.

هو الحجر وهي اللَّهب. عينا الملك كدمتان زرقاوان غائرتان في وجهه الضَّاوي. كان يرتدي الصَّفائح المعدنيَّة الرَّماديَّة، ومن على منكبيه العريضين ينسدل معطف من قماش الذهب المبطن بالفراء، وعلي واقي صدره القلب النَّاري المنقوش فوق قلبه، ويحيط بصدغيه تاج من الذهب الأحمر بروزاته كألسنه اللَّهب المتعاقبة. إلى جواره تقف فآل مليحة فارعة، وكانوا قد توجَّوها بحلقة رفيعة بسيطة من البرونز الدَّاكن، وإن بدت أبهى بالبرونز من ستانيس بالذهب. عيناها رماديتان جريئتان لا تطرفان، وتحت معطف من فرو القاقوم⁽¹⁾ ترتدي الأبيض والذهبي، وقد ضفرت شعرها الذهبي العسلي صناعةً جديدةً تتدلَّى من على كتفها اليمنى إلى خصرها، وخضبَّ البرد في الهواء وجنتيها بشيء من الحُمرة.

لا تعتمر الليدي مليساندرا تاجًا، لكن الموجودين أجمعهم يعلمون أنها هي ملكة ستانيس الحقيقيَّة، لا المرأة القبيحة التي تركها ترتجف في (القلعة الشرقيَّة). يُقال إن الملك لا ينوي أن يُرسل في استدعاء الملكة سيليس وابنتهما حتى تُصبح (قلعة اللَّيْل) جاهزةً للسكنى. شعر جون بالأسف من أجلهما، فـ(الجِدَار) لا يُقدِّم إلاَّ النَّزر اليسير من سُبُل الرَّاحة التي تعتادها بنات عليَّة القوم في الجنوب، وليس في (قلعة اللَّيْل) شيء منها البتَّة. إنها مكان كئيب، حتى في أفضل الأحيان.

صاحت مليساندرا: «يا شعب الأحرار! انظروا مصير من يختار الظلام».

وشبَّت النَّار في بوق چورامون.

اشتعل البوق بصوت كالصَّفير إذ اندفعت ألسنه النَّار الخضراء والصَّفراء مقطقةً تلعه بطوله، فجفل حصان جون مضطربًا، وبطول الصُّفوف

(1) القاقوم حيوان ثديي ينتمي إلى فصيلة العرسيَّات، وهو من أخطر حيوانات هذه الفصيلة على الرغم من لطف شكله وجماله، وله فرو يُستخدم في صناعة الملابس الفاخرة. (المترجم).

وعرضها جاهداً آخرون لتهدئة دوابهم أيضاً. من المحبس صدرَ أنين وقد رأى الأحرار النيران تضطرم في أملهم، وبدأ بعضهم يزعق ويصبُّ اللعنت، لكن أكثرهم لاذَّ بالصمت. لأقلَّ من لحظةٍ بدت الحروف المنقوشة على الذهب العتيق كأنها تتموج ملتمةً في الهواء، ثم أرخى رجال الملكة الحبل ليسقط البوق في حفرة النار.

وداخل قفصه راح مانس رايدر يخمش الأنشطة المحيطة بعنقه بيدين مقيدتين ويصرخ بكلام مفكك عن الخيانة والشعوذة، يُنكر ملكيته، يُنكر شعبه، يُنكر اسمه، يُنكر كلَّ ما كانه. صرخ مانس يتوسل الرحمة ولعن المرأة الحمراء وبدأ يضحك بجنون.

وشاهد چون بعينين لا ترفان، فليس يجروء على أن يلوح عليه التوتُّر أو الامتعاض أمام إخوته. لقد أمر متي رجل بالخروج، أكثر من نصف حامية (القلعة السوداء)، وقد انتظموا في صفوفٍ على خيولهم مرتدين الأسود الكئيب حاملين الحراب رافعين قلنسواتهم ليخفوا وجوههم... وحقيقة أن كثيراً منهم مسنون وصبيبة خضر. الأحرار يخشون حرس الليل، ويريدهم چون أن يأخذوا هذا الخوف معهم إلى ديارهم الجديدة جنوب (الجدار).

هوى البوق وسط الحطب وورق الأشجار والهشيم، وفي غضون ثلاث نبضات قلب اشتعلت الحفرة بأكملها، وراح مانس ينتحب ويتوسل وهو قابض على قضبان قفصه بيديه المقيدتين. حين بلغته النار قام برقصة صغيرة، واستحالت صرخاته إلى صرخة ألم وخوف واحدة طويلة بلا كلمات، وداخل قفصه رفرَف بهياج كورقة شجر تحترق، كعثة طالها لهب شمعة. ووجد چون نفسه يتذكر أغنية.

إخوتي، يا إخوتي، أيامي ها هنا انتهت

وسلبي حياتي الدوري

لكن لا يهم، فكل البشر يدركهم الموت

وأنا ذقتُ زوجة الدوري!

وقفتُ قال على المنصة بثبات كأنها قدت من قالبٍ من الملح. تأبى أن

تبكي أو تُشيع ببصرها. تساءلَ چون عمّا كانت إيجريت لتفعله في مكانها. النساءُ هن القويّات. وجدَ أفكاره تجنح إلى سام والمايستر إيمون، وإلى جيلي والرّضيع. ستلعنني حتى آخر نفس في صدرها، لكنني لم أر سبيلاً آخر. كانت (القلعة الشّرقية) قد بعثت تقريراً بعواصف عاتية في (البحر الضيق). أردتُ أن أحافظ على سلامتهم، فهل أطعمتهم للسّراطين بدلاً من ذلك؟ ليلة البارحة حلمَ بسام يغرق، ويإيجريت تموت بسهمه المغروس في جسدها (لم يكن سهمه هو في الواقع، لكنه كذلك دومًا في أحلامه)، وجيلي تذرّف دموعًا داميةً.

اكتفى چون سنو مما رأى، وهكذا قال: «الآن».

غرس أولمر ابن (غابة الملوك) حربته في الأرض وخلع قوسه وتناول سهمًا من جعبته، وأزاح دونل هيل المريح قلنسوته وفعل المثل، وكذا جارث جرايفيزر وبن الملتحي، وركب أربعتهم السّهام وسحبوها على الأوتار وأطلقوها.

أصاب سهم مانس رايدر في صدره، والثاني في بطنه، والثالث في حلقه، في حين انغرس الرّابع في أحد قضبان القفص الخشبيّة واهتزّ هناك لحظةً قبل أن تشتعل فيه النّار. تردّدت أصداة نحيب إحدى النّساء على (الجدار) إذ تهاوت جثة ملك الهمج المرتخية على أرض القفص والنّار تلتهمها، وغمغم چون بخفوت: «والآن انتهت حراسته». كان مانس رايدر رجلًا من حرس اللّيل ذات يوم، قبل أن يستبدل معطفه الأسود بواحدٍ مرّقع بالحرير الأحمر اللّامع.

فوق المنصّة انقلبت سحنة الملك، لكن چون رفض أن يبادلَه النّظر. كان قاع القفص الخشبي قد سقطَ وقضبانُه تتداعى، وكلّما ارتفعت ألسنة اللّهب سقطَ المزيد من الفروع، منها الأحمر كالكرز ومنها الأسود.

قالت مليساندرا للهمج: «إله الضّياء خلقَ الشّمس والقمر والنّجوم لتضيء لنا الطّريق، وحبانا النّار لتقينا من اللّيل. لا أحد يصمد أمام لهيبه».

ردّد رجال الملكة: «لا أحد يصمد أمام لهيبه».

هفهف ثوب المرأة الحمراء المصبوغ بالقرمزي القاني حولها، وصنع شعرها النّحاسي هالةً حول وجهها، وتراقصت ألسنة لهبٍ عشرة من أناملها

كالمخالب. «يا شعب الأحرار! ألتهكم الزائفة لا تستطيع أن تُساعدكم. بوقكم الزائف لم يُنقذكم. ملككم الزائف لم يجلب لكم إلا الموت واليأس والهزيمة... لكن ها هنا يقف الملك الحقيقي. اشهدوا مجده!». وامتشق ستانيس باراثيون (جالب الضياء).

ودبّت الحياة في السيف الذي توهّج بالأحمر والأصفر والبرتقالي. كان چون قد رأى هذا العرض من قبل... لكن ليس هكذا، ليس هكذا على الإطلاق. الآن يبدو (جالب الضياء) كالشمس وقد صارت فولاذًا، ولمّا رفعه ستانيس فوق رأسه أشاح الحاضرون برؤوسهم أو غطّوا أعينهم مرغمين، ونكصت الخيول وألقى أحدها راكبه من على ظهره. بدا كأن وهيج حفرة النار يتقلّص أمام عاصفة الضياء هذه ككلب صغير ينكمش خوفًا من آخر كبير، واصطبغ (الجدار) نفسه بالأحمر والوردي والبرتقالي إذ تراقصت أمواج من الألوان على جليده. أهذه قوّة دماء الملوك؟

بصوتٍ خشن يفتقر إلى موسيقى مليساندرا قال ستانيس: (لـ(وستروس) ملك واحد فقط. بهذا السيف أدافع عن رعاياي وأدمّر من يتهدّدونهم. اركعوا وأعدكم بالطعام والأرض والعدل. اركعوا وعيشوا، أو اذهبوا وموتوا. الخيار لكم»، ودسّ (جالب الضياء) في غمده لِيُظلم العالم من جديد، كأن الشمس اختبأت وراء السحاب، وأردفَ الملك: «افتحوا البوابة!».

جأر السير كلايتون سوجز بصوتٍ عميق كبوقٍ حربي: «افتحوا البوابة!»، وردّد السير كورليس پني: «افتحوا البوابة!»، وصاح الرُقباء: «افتحوا البوابة!»، وأسرع الرّجال يُطيعون. انتزعت الخوازيق المدبّبة من الأرض، ووضعت ألواح الخشب المتين فوق الخندق العميق، وفتحت بوابة المحبس. رفع چون سنو يده وخفضها، فافترقت صفوفه السوداء إلى اليمين واليسار مفسحة الطريق إلى (الجدار)، حيث فتح إاد الكتيب البوابة الحديد. واستحثت مليساندرا الهمج قائلةً والنار تُطّطق في الحفرة أسفلها: «تعالوا، تعالوا إلى الثور... أو اركضوا عائدين إلى الظلمات. إذا اخترتم الحياة فتعالوا إليّ!».

وقد ذهبوا، بتوّد في البداية وبعضهم يعرج أو يتكئ على رفاقه، لكن الأسرى بدأوا يخرجون من محبسهم البدائي. فكّر چون: إذا أردتم أن

تأكلوا فنعالوا إليّ، إذا أردتم ألا تتجمدوا وتتصوروا جوعاً فاخضعوا. برترُدُّ وحذر من فحّ ما تحرك أوائل السُّجناء ببطءٍ فوق ألواح الخشب وعبر حلقة الخوازيق صوب مليساندرا و(الجدار)، ثم تبعهم المزيد عندما رأوا أن أدّى لم يُصب من سبقوهم، ثم المزيد، حتى باتوا تياراً يتدفق بثبات. ناولٌ رجال الملكة الذين يرتدون الشُّترات المطعّمة بالحديد ويعتَمرون الخوذ القصيرة كلَّ رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ قطعةً من خشب الـويروود الأبيض، عُصناً مكسوراً شاحباً كالعظم عالقة به بعض الأوراق الحمراء كالدم، وقال چون لنفسه وهو يثني أصابع يده سيفه ويسطها: قطعة من الآلهة القديمة لإطعام الإله الجديد. كانت حرارة حُفرة النَّار ملموسةً حتى من بعيد، وبالنسبة إلى الهمج فلا بُدَّ أن لفحها شديد. رأى رجالاً ينكمشون على أنفسهم مع اقترابهم من اللهب وسمع أطفالاً يبكون، ورأى بعضهم يدور متجهاً إلى الغابة، وشاهد امرأةً شابةً تبعد متعثرةً وهي تقبض على طفلٍ بكلِّ يد، كلُّ بضع خطواتٍ تنظر خلفها لتتأكد من أن أحداً لا يتبعهم، وحين اقتربت من الأشجار انطلقت تجري. أخذ أحد الشيوخ عُصن الـويروود الذي ناولوه إياه واستخدمه كسلاح، يُهاجم به هذا وذاك إلى أن أجهز عليه رجال الملكة بالحِراب، واضطرَّ الآخرون إلى الخطو حول جثته حتى أمر السير كورليس بإلقائها في النَّار. بعدها اختار المزيد من شعب الأحرار الغابة، واحد من كلِّ عشرةٍ ربما.

لكن أغلبهم ظلَّ يتقدّم. من ورائهم ليس هناك إلاَّ البرد والموت، ومن أمامهم الأمل، ولذا تقدّموا قابضين على قطع الخشب حتى حان وقت إلقاء كلِّ منها في النَّار. راهلور إله غيور، لا يشيع أبداً، وهكذا التهم الإله الجديد جثة الآلهة القديمة وألقى ظلالاً عملاقةً لستانيس ومليساندرا على (الجدار)، سوداء على الانعكاس الأحمر المتورّد على الجليد.

كان سيجورن أول الرَّاكعين أمام الملك. ماجنر (زن) الجديد نُسخة أصغر سنّاً وأطول قامَةً من أبيه، نحيف يزحف على رأسه الصَّلع، ويرتدي واقي ساقين من البرونز وقميصاً من الجلد مخيطة عليه الأقراص البرونزية. ثم تلاه ذو القميص المُخشخش بدرعه المصنوعة من العظام والجلد المقوى وخوذته التي صنعها من جمجمة عملاق. تحت العظم يكمن مخلوق فاسد دنيء له أسنان بنية مكسرة ومسحة صفراء في بياض عينيه. رجل ضئيل خبيث

غَدَارًا، لا يَقْبَلُ غِبَاؤُهُ عَنْ قَسْوَتِهِ. لَا يُصَدِّقُ چون لِحِظَّةً أَنَّهُ سَيَصُونَ الْعَهْدَ، وَيَتَسَاءَلُ عَمَّا شَعَرَتْ بِهِ فَأَلِ إِذْ شَاهَدْتَهُ يَرْكَعُ وَقَدْ نَالَ الْمَغْفِرَةَ.

تَبَعَهُ قَادَةُ أَقْلٍ شَانًا؛ ائْتَانِ مِنْ رُعْمَاءِ ذَوِي الْحَوَافِرِ بِأَقْدَامِ سُودَاءِ صُلْبَةٍ، وَعَرَّافَةِ عَجُوزٍ يُبْجِلُهَا أَهْلُ (النَّهْرِ اللَّبْنِيِّ)، وَعُغْلَامِ هَزِيلٍ دَاكُنَ الْعَيْنِينَ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ هُوَ ابْنُ أَفْئِينَ قَاتِلِ الْغُرْبَانِ، وَهَالِكِ أَخُو هَارِمَا رَأْسِ الْكَلْبِ وَمَعَهُ خَنَازِيرٌ هَا.

وَرَكَعَ كُلُّ مِنْهُمْ أَمَامَ الْمَلِكِ.

فَكَّرَ چون: الطَّقْسُ بَارِدٌ لِلْغَايَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَهْزَلَةِ. كَانَ قَدْ حَذَّرَ سْتَانِيْسَ قَائِلًا: «الْأَحْرَارُ يَحْتَقِرُونَ الرُّكْعَ. دَعَهُمْ يَحْتَفِظُونَ بِكِرَامَتِهِمْ وَسَيَحْيُونُكَ أَكْثَرَ»، غَيْرَ أَنَّ جَلَالَتَهُ لَمْ يُصْغِ، وَقَالَ: «إِنِّي مَحْتَاجٌ إِلَى سَيُوفِهِمْ لَا قُبُلَاتِهِمْ». بَعْدَ الرُّكُوعِ تَحَرَّكَ الْهَمْجُ مَارِّينَ بِصَفُوفِ الْإِخْوَةِ السُّودِ نَحْوِ الْبَوَابَةِ، وَكَانَ چون قَدْ كَلَّفَ الْجَوَادَ وَسَاتَانَ وَنِصْفَ دَسْتِيَّةٍ مِنَ الْآخَرِينَ بِقِيَادَتِهِمْ بِالْمَشَاعِلِ عِبْرَ (الْحِدَارِ). عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ تَنْتَظِرُهُمْ أَوْعِيَةٌ مِنْ حَسَاءِ الْبِصْلِ وَقِطْعٍ مِنَ الْخُبْزِ الْأَسْمَرِ وَالسُّجُقِ، وَفِي انْتِظَارِهِمْ مَلَابِسٌ أَيْضًا؛ مِعَاطِفٌ وَسِرَاوِيلٌ وَأَحْذِيَّةٌ وَسُتْرَاتٌ وَقَفَازَاتٌ سَمِيكَةٌ مِنَ الْجِلْدِ. سَيْنَامُونَ عَلَى أَكْوَامٍ مِنَ الْقَشِّ النَّظِيفِ بِالْقُرْبِ مِنْ نَارٍ مَوْقُودَةٍ تَقِيهِمْ مِنْ بَرْدِ اللَّيْلِ. الْمَلِكُ لَا يَتَصَرَّفُ عِبَثًا، لَكِنْ عَاجِلًا أَوْ آجَلًا سَيُعَاوِدُ تَورْمُونِدَ بَلِيَّةَ الْعَمَالِيْقِ الْهَاجِمِ عَلَى (الْحِدَارِ)، وَيَتَسَاءَلُ چون عَنِ الْجَانِبِ الَّذِي سَيَخْتَارُهُ رَعَايَا سْتَانِيْسَ الْجُدِّدِ لِمَا تَحِينُ هَذِهِ السَّاعَةُ. يُمَكِّنُكَ أَنْ تَمْنَحَهُمُ الْأَرْضَ وَالرَّحْمَةَ، لَكِنْ الْأَحْرَارُ يَخْتَارُونَ مَلُوكَهُمْ، وَقَدْ كَانَ اخْتِيَارُهُمْ مَانِسًا لِأَنْتِ.

تَقَدَّمَ بَاوَنُ مَارَشٍ بِحِصَانِهِ لِيَتَوَقَّفَ إِلَى جَوَارِ چون قَائِلًا: «يَوْمٌ لَمْ أَنْتَوِّرْ أَنْ أَرَاهُ أَبَدًا». هَزَلٌ قِيَمَ الْوُكْلَاءُ بِصُورَةٍ مَلْحُوظَةٍ مِنْذُ أُصِيبَ بِجَرْحٍ فِي رَأْسِهِ عِنْدَ (جِسْرِ الْجَمَاجِمِ)، وَوَلَّاحَ الْجِزْءَ الْمَقْطُوعَ مِنْ أُذُنِهِ. لَمْ يَعْذِ يَدُو كَرْمَانَةَ. تَابَعَ مَارَشٌ: «لَقَدْ ذَرَفْنَا دِمَاعَنَا لِنَصُدَّ الْهَمْجَ فِي (الْغُورِ). رِجَالُ صَالِحُونَ سَقَطُوا قَتَلِي هُنَاكَ، أَصْدِقَاءُ وَإِخْوَانُ، وَأَجَلٌ مَاذَا؟».

أَعْلَنَ السَّيْرُ أَلِيْسِرُ ثُورِنَ بِنْبِرَةَ نَاقِمَةً: «سَتَلْعَنُنَا الْبِلَادُ جَمِيعًا لِهَذَا. كُلُّ رَجُلٍ نَزِيهٍ سَيُدِيرُ رَأْسَهُ وَيَبْصُقُ إِذَا ذُكِرَ حَرَسُ اللَّيْلِ».

وَمَا الَّذِي تَعْرِفُهُ أَنْتِ عَنِ النَّزَاهَةِ؟ «صَمْتًا بَيْنَ الصَّنُوفِ». مِنْذُ فَقَدَ الْلُورِدَ

چانوس رأسه صارَ السيرَ أليسرَ أكثرَ حذرًا وحيطةً، لكنه لم يتخَلَّصَ من حقه. كانت فكرة تكليفه بقيادة (الحارس الرَّمادي) التي رفضها سليمان قد داعبتَ چون، لكنه يُريد الرّجل قريبًا. لطالما كان هو أخطر الاثنين. بدلًا من ذلك أرسلَ وكيلاً مسنًا من (بُرج الظلال) لتولي القيادة في (الحارس الرَّمادي).
 رجأوه أن تصنع الحاميتان الجديدتان فرقًا. يستطيع حرس اللّيل إراقة دماء الأحرار، لكن في النّهاية لا أمل لنا في ردعهم. وإعطاء مانس رايدر للنّار لا يُغيّر هذه الحقيقة. مازلنا قليلين للغاية وما زالوا كثيرين للغاية، وبلا جوّالة فكأننا عميان. يجب أن أرسل رجالًا وراء (الجدار)، لكن إذا فعلتُ فهل يعودون؟

التّفق المشقوق عبر (الجدار) طويل متعرّج، وكثيرون من الهمج مسنّون أو مرضى أو جرحى، ولذا تقدّموا بمنتهى البُطء، ولمّا ركع آخرهم أخيرًا كان اللّيل قد حلّ. خمدت نار الحفرة، وتقلّص ظلّ الملك على (الجدار) إلى رُبع ارتفاعه الأنف، وبدأ چون سنو يرى أنفاسه في الهواء. الجوُّ برد ويزداد برودة. هذه المهزلة طالت بما فيه الكفاية.

ظلّ نحو أربعين من الأسرى عند المحبس، بينهم أربعة عمالقة، كائنات هائلة مُشعرة لها أكتاف متهدّلة وسيقان كجذوع الأشجار وأقدام مفلطحة. على الرغم من حجمهم الكبير كان بإمكانهم المرور عبر (الجدار)، لكن أحدهم رفض أن يترك ماموئه، ورفض الآخرون تركه. الباقون بشر، بعضهم ميت وبعضهم يموت، وأكثرهم من أهلهم أو رفاقهم المقربّين العازفين عن التّخلي عنهم ولو من أجل وعاءٍ من حساء البصل.

بين من يرتجف ومن أعجزه الخدر عن الارتجاف استمعوا لصوت الملك يتردّد هادرًا على (الجدار) إذ قال لهم ستانيس: «لكم أن تذهبوا. أخبروا قومكم بما رأيتم، قولوا لهم إنكم رأيتم الملك الحقيقي وإنه يُرحّب بهم في مملكته ما داموا سيحفظون سلامه، وإلا فعليهم أن يقرّوا أو يخبثوا، فلن أسمح بهجماتٍ أخرى على جداري».

هتفتَ الليدي مليساندرا: «مملكة واحدة، إله واحد، ملك واحد!».
 والتقطَ رجال الملكة منها الهتاف قارعين تروسهم بكعوب الحِراب،

وردّ دوا: «مملكة واحدة، إله واحد، ملك واحد! ستانيس! ستانيس! مملكة واحدة، إله واحد، ملك واحد!».

لاحظَ چون أن قال لم تنضمَّ إليهم في أنشودتهم، وكذا إخوة حرس الليل. خلال الجمعية ذابَّ الهَمَج القلائل المتبقون في الغابة، وكان آخر الرّاحلين العمالقة الأربعة، اثنان على متن الماموث واثنان على الأقدام، ولم يتبقَّ إلا الموتى. شاهدَ چون إذ نزلَ ستانيس من فوق المنصّة ومليساندرا إلى جواره. ظلَّه الأحمر، قلما تترُكه. انتظمَ حرس شرف الملك حولهما؛ السير جودري والسير كلايتون ودسته من الفرسان الآخرين، كلُّهم من رجال الملكة، وقد تفرَّق نور القمر على دروعهم وراحت الرِّيح تمضغ معافهم.

قال چون لمارش: «حضرة قيِّم الوُكلاء، فككوا المحبس من أجل الحطب وألقوا الجُثث في النَّار».

- «أمر سيّدي». زعقَ مارش بالأوامر فانفصلَ حشد من وُكلائه عن الصُّفوف وانقضُّوا على الأسوار الخشبيّة، وقال القيِّم وهو يُشاهد هدم عاقداً حاجبيه: «هؤلاء الهَمَج... هل تظنُّ أنهم سيحفظون العهد يا سيّدي؟»
- «بعضهم، ليس الجميع. إن لنا جُبناءنا ومخادعينا وضعافنا وحمقاناً، وكذلك هم».

- «يميننا... إننا مقسمون على حماية البلاد...».

- «حالما يستقرُّ الأحرار في (الهدية) سيصبحون جزءاً من البلاد. أيامنا هذه أيام يأس، وستزداد يأساً. لقد رأينا وجه عدوِّنا الحقيقي، وجهها أبيض ميتاً عيناه زرقاوان بارقتان. شعب الأحرار رأى هذا الوجه أيضاً. ستانيس ليس مخطئاً في هذا الشأن، لا مناص من التحالف مع الهَمَج».

قال باون مارش: «التَّحالفُ ضدَّ عدوِّ مشترك، أتفقُّ مع هذا، لكنه لا يعني أن علينا السَّماح لعشرات الآلاف من البرابرة الجائعين بالمرور من (الجدار). فليعودوا إلى قُراهم ليقاتلوا (الآخرين) هناك ونسدُّ نحن البوابات. أو ثيل يقول لي إن الأمر لن يكون صعباً. ما علينا إلا أن نملاً الأنفاق بالدبش ونصبَّ الماء من كُوّات الدِّفاع، وسيتولّى (الجدار) الباقي. البرد والوزن... في غضون دورة قمرٍ ستكون البوابة كأنها لم تُوجد قطُّ، وعلى أيِّ عدوٍّ أن يشقَّ طريقه حفراً».

- «أو يتسلَّق».

- «مستبعد. هؤلاء ليسوا هجَّانَةً خرجوا لاختطاف زوجةٍ أو السَّلب والنَّهب. سيكون مع تورموند أطفال وعجائز وقُطعان من الخراف والماعز، وماموثات أيضًا. إنه محتاج إلى بَوَّابة، وهناك ثلاث بَوَّابات باقية فقط. وإذا أرسلَ متسلِّقين... الدِّفاع ضد المتسلِّقين ببساطة صيد سمكةٍ من قِدر». «السَّمك لا يخرُج من القِدر ويغرس حربَةً في بطنك. لقد خبرَ چون تسلُّق (الجِدَار) بنفسه.

واصلُ مارش: «بالنَّظر إلى عدد القنوات المستهلكة التي جمعناها فلا بُدَّ أن رُماة مانس رايدر ألقونا بعشرة آلاف سهم على الأقل، وما بلغ رجالنا منها على قِمَّة (الجِدَار) أقل من مئة، أكثرها رفعته هبةٌ ريح عشوائية. أَلن الأحمر ابن (غابة الورد) الرَّجل الوحيد الذي ماتَ بالأعلى، والسَّقطة هي التي قتلتَه لا السَّهم الذي أصابَ ساقه. دونالد نوي ماتَ دفاعًا عن البَوَّابة، عمل شجاع، نعم... لكن لو كانت البَوَّابة مسدودةً فلربما كان حدَّادنا المقدم معنا الآن. سواء أكنَّا نُواجه مئة عدوٍّ أو مئة ألف، ما دُمنا على قِمَّة (الجِدَار) وهم بالأَسفل فلن يستطيعوا إيذاءنا».

ليس مخطئًا. لقد انكسر جيش مانس رايدر على (الجِدَار) كما ينكسر الموج على شاطئٍ حجري، مع أن المُدافعين لم يكونوا سوى رجالٍ مستنِّين وصبيان خُضر وعاجزين. وعلى الرغم من هذا يُعارض ما يقترحه مارش غريزة چون بالكامل. «إذا سدَدنا البَوَّابات فلن نستطيع إرسال جِوالة. سنكون كالعميان».

- «حملة اللورد مورمونت الأخيرة كلَّفت الحرس رُبع عددهم يا سيدي. يجب أن ندخر ما تبقى لنا من قوَّة. كلُّ موتٍ يُضعفنا، كما أننا موزعون على مساحةٍ كبيرة للغاية. خُذ الموقع العالي واربح المعركة، كما اعتادَ عمِّي أن يقول، ولا موقع أعلى من (الجِدَار) يا حضرة القائد».

- «ستانيس وعدَّ أيُّ همجيٍّ يركع بالأرض والطَّعام والعدالة، ولن يسمح لنا أبدًا بسدِّ البَوَّابات».

تردَّد مارش لحظةً قبل أن يقول: «لورد سنو، لسْتُ رجلاً يحبُّ النَّميمة، لكن هناك كلامًا عن أنك صرت... ودودًا أكثر من اللازم مع اللورد ستانيس. بل ويُلَمِّح بعضهم إلى أنك... أنك...».

متمردّ ومارق، أجل، ونغل ووازج أيضًا. ربما رحلَ چانوس سلينت، لكن أكاذيبه باقية. «أعرفُ ما يقولون». سمعَ چون الهمسات ورأى رجالاً يعرضون عنه عابسين حين يعبرُ السّاحة. «ماذا يُريدونني أن أفعل؟ أحمل السّلاح ضد ستانيس والهَمْج في آنٍ واحد؟ رجال جلالته يبلّغون ثلاثة أضعاف رجالنا المقاتلين، ناهيك بأنه ضيفنا. قوانين الضّيافة تحميه، ونحن مدينون له ولرجاله».

بعنادٍ قال مارش: «اللورد ستانيس أعاننا عندما احتجنا إلى العون، لكنه يظلّ متمردًا وقضيّته خاسرة، مثلما سنكون إذا وصمنا العرش الحديدي بالخيانة. يجب أن نحرض على عدم اختيار الجانب الخاسر».

قال چون: «ليست نيتي أن أختار أيّ جانب، لكنني لسْتُ متأكدًا من نتيجة هذه الحرب مثلك يا سيّدي وقد مات اللورد تايوين». إذا صدقت الحكايات الآتية على (طريق الملوك) فقد قُتل يد الملك بيد ابنه القزم وهو جالس على المرحاض. لقد عرفَ چون تيريون لانستر فترةً وجيزةً. صافحني ودعاني بالصّديق. عصيُّ على التّصديق أن يقدر الرّجل الصّغير على قتل والده، لكن وفاة اللورد تايوين نفسها لا ريب فيها. «الأسد في (كينجز لاندنج) شبل، والعرش الحديدي معروف بتمزيق الكبار أنفُسهم أشلاءً».

- «قد يكون صبيًا صغيرًا يا سيّدي، ولكن... الملك روبرت كان محبوبًا، وما زال أكثر الرّجال يُصدّقون أن تو من ابنه. كلّمنا رأوا المزيد من اللورد ستانيس قلّ حبّهم له، وقلائل من يحبّون الليدي مليساندرا بنيرانها وربّها الأحمر الجهم إياه. إنهم يشتكون».

- «كانوا يشتكون من حضرة القائد مورمونت أيضًا. ذات مرّة قال لي إن الرّجال يحبّون الشّكوى من زوجاتهم وسادتهم، ومن بلا زوجات تتضاعف شكواهم من سادتهم»، ثم ألقى چون سنو نظرةً نحو المحبس فرأى حائطين أزيلا والثالث يسقط سريعًا، وهكذا قال: «سأتركك تُنهي العمل هنا يا باون. احرص على إحراق الجثث كلّها. شكرًا لنصيحتك. أعدك بالتّفكير في كلّ ما قلته».

كان الدّخان والرّماد ما زالوا عالقين بالهواء حول الحُفرة عندما خبّ چون عائدًا إلى البوابة، حيث ترجّل ليقود حصانه عبر الجليد إلى الجانب الجنوبي،

وقد سبقه إاد الكئيب حاملاً مشعلاً لعقت السنة لهبه السقف، فظلت الدُموع الباردة تتساقط عليهم طوال الطريق.

قال إاد: «أراحتني رؤية ذلك البوق يحترق يا سيدي. البارحة فقط حلمت بنفسي أتبوّل من فوق (الجدار)، وعندها قرّر أحدهم أن يُجرب النَّفخ في البوق. لستُ أشكو. هذا أفضل من حلمي القديم الذي تُطعمني فيه هارما رأس الكلب لخنازيرها».

- «هارما ماتت».

- «ولكن ليس الخنازير. إنها تنظر إليّ كما تعود القاتل النظر إلى اللحم. لا أعني أن الهَمج يُضمرّون لنا شرّاً. أجل، حطّمنا آلهتهم وجعلناهم يُحرقون شظاياها، لكننا أعطيناهم حَساء البصل أيضاً. وما الآلهة مقارنةً بوعاءٍ من حَساء البصل السّاخن؟ أوْدُ واحداً عن نفسي».

كانت روائح الدُّخان واللحم المحروق لا تزال متمسّكةً بثياب چون السوداء. يعلم أن عليه أن يأكل، لكن ما يشتهيهِ حقاً هو الصُّحبة لا الطّعام. كوب من النيّذ مع المايستر إيمون، حوار هادئ مع سام، القليل من الضّحك مع پيپ وجرن والضّفدع. لكن إيمون وسام رحلا، وأصدقاؤه الآخرون... «سأتناول العشاء مع الرّجال هذا المساء».

- «لحم بقري مسلوّق وشمندر». دائماً يعرف إاد الكئيب ما يُطهى اليوم في المطابخ. «لكن هوب يقول إن الفجل الحار نفذ. ما جدوى اللحم البقري دون فجل حار؟».

منذ أحرّق الهَمج القاعة العامّة القديمة يتناول رجال (القلعة السوداء) وجباتهم في القبو الحجري تحت مستودع السّلاح، وهو حيزٌ فسيح يقسمه صفّان من الأعمدة الحجرية المربّعة، له سقف مقنطر وعند جدرانها براميل نيّذ ومزر كبيرة مرصوصة. حين دخلَ چون كان أربعة من البنّائين يلعبون البلاطات جالسين إلى المائدة الأقرب إلى السّلام، وعلى مقربةٍ من النّار تجلس مجموعة من الجوّالة وبعض رجال الملك يتكلّمون بهدوء.

كان الرّجال الأصغر سنّاً مجتمعين حول مائدةٍ أخرى، حيث طعنَ پيپ ثمرة لفت بسكّينه معلناً بكآبة: «اللّيل مظلمٌ ومفعمٌ باللّفت. دعونا ندعو بلحم

الغزلان يا أطفالى، مع القليل من البصل والمرق اللذيذ»، وهو ما أضحك أصدقاءه؛ جرن وتودر وساتان والآخريين كلهم.

على أن چون سنو لم يُشاركهم الضحك، بل قال: «السخرية من أدعية الغير حماقة يا بيب، وخطر».

- «فليطح بي الإله الأحمر إذا شعرَ بالاهانة».

لحظتها ماتت الابتسامات كلها، وقال ساتان: «كنا نسخر من الرأهبة لا إلهها. مجرد دُعاة يا سيدي». الشاب رشيق وسيم، وكان من قبل بائع هوى في (البلدة القديمة).

- «إن لكم آلهتكم ولها إلهها، فدعوها وشأنها».

جادلَه الضفدع قائلاً: «لكنها لن تدع آلهتنا وشأنهم. إنها تدعو (السبعة) بالآلهة الزائفة يا سيدي، والآلهة القديمة أيضًا. لقد جعلت الهمج يُحرقون أغصان اليربوود كما رأيت بنفسك».

- «الليدي مليساندرا ليست تحت قيادتي، أمّا أنتم فتحتها. لن أسمح

بوقوع ضغينة بين رجال الملك ورجالي».

وضع بيب يده على ذراع الضفدع، وقال: «كفى نقيقًا يا ضفدعنا الشجاع، فقد قال اللورد سنو العظيم كلمته»، وهبَّ واقفًا وانحنى لچون بسخرية قائلاً: «أستميحك العذر. من الآن فصاعدًا لن أهزُّ أذني إلا بإذن من حضرة اللورد السامي».

يحسب كل شيء لعبة. أرادَه چون أن يتعقلَ بعض الشيء، فقال له بغلظة: «لك أن تهزَّ أذنك كما تشاء. لسانك هو ما يصنع المتاعب».

قال جرن: «سأحرص على أن يكون أكثر حذرًا، وإذا لم يكن فسأعنته»، وتردَّد برهه، ثم استطرذ: «سيدي، هلاً تناولت العشاء معنا؟ أوين، انزح وأفسح مكانًا لچون».

لم يكن چون يودُّ شيئًا أكثر من هذا، لكنه قال لنفسه رغماً عنه: لا، تلك الأيام ولت. التوى الإدراك في بطنه كالخنجر. لقد اختاروه للحكم. (الجدار) تحت قيادته، وحياتهم كذلك. كان بإمكانه سماع السيد والده يقول: يُمكن للورد أن يحبَّ الرجال الذين يقودهم، لكن لا يُمكنه أن يكون صديقهم، فقد

يأتي يوم ويضطرُّ إلى إصدار الحُكْم عليهم أو إرسالهم إلى نحبهم. هكذا ردَّ حضرة القائد كاذبًا: «مرَّة أخرى. إد، تناول أنت عشاءك. إن عندي عملاً».

شعرَ بالهواء في الخارج أبرد مما كان. عبر القلعة رأى ضوء الشُّموع يلمع من نوافذ (برج الملك)، وقد وقفت فإل على قَمَّته تتطلَّع إلى (الجدار). يحتفظ ستانيس بها حبيسةً في المسكن الواقع فوق مسكنه، لكنه يسمح لها بالخروج إلى الشرفة على سبيل الرياضة. تبدو رائحة الجَمال، وحيدةً ورائعة الجَمال. كانت إيجريت حسنة على طريقتها بشعرها الأحمر الذي قبلته النَّار، لكن ما كان يجعل وجهها يُضيء حيويَّةً هو بسمتها. أمَّا فال فليست مضطَّرةً إلى الابتسام، فجَمالها قمين بإدارة رؤوس الرِّجال في أيِّ بلاطٍ في العالم الرَّحِب. وعلى الرغم من هذا لا تجد الأميرة الهمجيَّة حُبًّا من سجانها. إنها تنهكهم عليهم جميعًا وتدعوهم بالرُّكَّع، وحاوَلت الهرب ثلاث مرَّات، ولمَّا توانى أحد الجنود في الحذر في حضرته اختطفَت خنجره من غِمدته وطعنته في عنقه. بوصة واحدة إلى اليسار وكان ليموت.

وحيدة ورائعة الجَمال ومميَّته، وكان بإمكانني أن آخذها لنفسي، هي (ويترفل) واسم السيِّد والدي. وبدلًا من ذلك اختارَ معطفًا أسود وحائطًا من الجليد، بدلًا من ذلك اختارَ الشَّرَف. الشَّرَف على طريقة النُّغول.

ارتفعَ (الجدار) إلى يمينه إذ قطع السَّاحة، يلتصق جليده العالي بشحوب لكن من أسفل تحفه الظُّلال. عند البوابة يتسرَّب وهج بُرتقالي خافت عبر القضبان حيث يستتر الحُرَّاس من الرِّيح، وتناهى إلى مسامع چون صرير السَّلاسل والقفص يتأرجح ويحتك بالجليد. مؤكَّد أن الحُرَّاس بالأعلى مجتمعون حول مستوقدٍ في سقيفة التَّدفئة، يتصايحون ليسمع بعضهم بعضًا في مهبِّ الرِّيح، أو أنهم تخلَّوا عن محاولة الكلام وغاص كل منهم في بركة من الصَّمْت. المفترَض أن أصدع وأمشي على الجليد. (الجدار) تحت قيادتي. كان يمشي أسفل هيكل (برج القائد) مارًّا بالبقعة التي ماتت فيها إيجريت بين ذراعيه عندما ظهرَ جوست إلى جواره وأنفاسه تخرُج بخارًا في الهواء. في نور القمر تتقد عينا الدُّب الرَّهيب الأبيض الحمران كمارجين من نار. ملأ مذاق الدَّم الساخن فم چون، فعلم أن جوست قتل اللَّيلة. قال لنفسه: لا، أنا بشري لا ذئب، وفرك فمه بظُهر يده المقفَّرة وبصق.

ما زالَ كلايداس يُقيم في المسكن الواقع تحت المِغْدفة⁽¹⁾، وحين سمعَ طرقةَ چون أتى مسرعاً يحمل فتيلاً لِيُوارب الباب، فسأله چون: «هل أُتِفلُّ؟». فتَحَ كلايداس الباب مجيباً. «إِطلاقاً. كنتُ أتَبَلُّ القليل من النَّبيذ. هل يُريد سيدي كوباً؟».

- «بكل سرور». كانت يدها متبيستين برداً بالفعل، فخلعَ قفَّازَه وراح يثني أصابعه ويبسطها.

عادَ كلايداس إلى المستوقدِ يُقلِّب النَّبيذ. في السَّتين من العُمر على الأقل، رَجُل مسنٌ. كان يبدو أصغر مقارنةً بإيمون فحسب. كلايداس قصير القامة مستدير البدن، له عينان ورديتان باهتان كمخلوقٍ ليلي ما. عندما صبَّ له النَّبيذ حملَ چون الكوب بكلتا يديه وتشمَّم التَّوابل ورشفَ ليتشرب الدَّفء في صدره، ثم أخذَ جرعةً ثانيةً طويلةً ليغسل فمه من مذاق الدَّم.

- «رجال الملكة يقولون إن ملك ما وراء الجدار مات جباناً، إنه توسَّل الرَّحمة وأنكرَ أنه ملك».

قال چون: «نعم. كان (جالِب الضَّياء) أبهى مما رأيتُ من قبل على الإطلاق، ساطعاً كالشَّمس»، ورفعَ كوبه مضيفاً: «نخب ستانيس باراثيون وسيفه المسحور». كان مذاق النَّبيذ مُراً في فمه.

- «جلالته ليس رجلاً سهلاً. قلائل ممَّن يعتمرون التَّيجان كذلك. اعتادَ المايستر إيمون أن يقول إن رجلاً صالحين كُثراً كانوا ملوكاً طالحين، وإن بعض الرِّجال الطَّالحين كانوا ملوكاً صالحين».

- «مؤكَّد أنه يعلم هذا». لقد عاصرَ إيمون تارجارين تسعة ملوكٍ على العرش الحديدي، وكان ابناً لملكٍ وأخاً لملكٍ وعمًّا لملك. «ألقيتُ نظرةً على الكتاب الذي تركه لي المايستر إيمون، (خُلَاصة اليشب)، الصَّفحات التي تحكي عن أزور آهاي. كان سيفه (جالِب الضَّياء) الذي سقى فولاذَه بدماء زوجته، إذا صدقَ ما كتبه فوثار، ومنذ ذلك الحين لم يبرد (جالِب الضَّياء) قطُّ، بل ظلَّ دافئاً كما كانت نيسا نيسا، وفي المعركة يتَّقد السَّيف بنارٍ حامية. ذات مرَّة قاتل أزور آهاي وحشاً، وحين أغمَدَ النَّصل في بطن الوحش

(1) المِغْدفة عبارة عن قفص كبير بمثابة عُش لطيور الغداف. (المترجم).

بدأ دمه يغلي وتدقق الدُخان والبُخار من فمه وذابت عيناه وسالتا على وجهه واشتعل اللهب في جسمه».

حدّق كلايداس إليه قائلاً: «السيف الذي يُؤلّد حرارته الخاصّة...».

- «... سيكون مفيداً للغاية على (الجدار)»، ووضعّ چون كوبه جانباً وعادَ يرتدي قفازيه المصنوعين من جلد الخلد، وأردف: «مؤسفٌ أن السيف الذي يحمله ستانيس بارد. عندي فضول لرؤية ما سيفعله جالب ضيائه في المعركة. شكراً على النيّذ. جوست، معي»، ورفعّ چون سنو قلنسوة معطفه وتبعه الذئب الأبيض إلى الليل بالخارج.

كان مستودع السلاح مظلمًا صامتًا. أوماً چون برأسه للحراس قبل أن يشقّ طريقه إلى مسكنه ماراً بصفوف الجراب الصّامته. عندما خلع قفازيه وجدّ يديه باردتين متخشّبتين، واستغرقَ مُدَّةً طويلةً حتى أشعل الشُّموع. تكوّر جوست على نفسه فوق بساطه وغابَ في النّوم، لكنّ چون لا يستطيع الرّاحة بعدُ. المنضدة المشوّهة المصنوعة من خشب الصنوبر مغطّاة بخرائط (الجدار) والأراضي الواقعة ورائه، مع قائمة بالجوّالة ورسالة من (برج الظلال) مكتوبة بخطّ السير دينس مالمستر النّضيد.

قرأ رسالة (برج الظلال) مرّتين، ثمّ شحذَ ريشة كتابية وخلع سدادة دواة الحبر الأسود الثخين. كتبت رسالتين، الأولى للسير دينس والثانية لكوتر بايك. كلاهما يلحّ عليه في طلب المزيد من الرّجال، وهكذا أرسل هالدر والصّفدع إلى (برج الظلال)، وجرن وبيب إلى (القلعة الشّرقية) على البحر. لم يكن الحبر سائلاً كما ينبغي، وبدت كلماته خشنة رديئة خرقاء، لكنه واصل الكتابة. ولما وضعّ الرّيشة أخيراً كانت عُرفته معتمّة باردة، وشعرَ بجدرانها تنغلق عليه. فوق النّافذة يجثم عُذاف الدّب العجوز ويَرُمقه بعينين سوداوين ثابتتين، ففكّر بأسى: صديقي الأخير، وخيرٌ لي أن تموت قبلي وإلّا أكلت وجهي أيضاً. جوست لا يُحسب، جوست أكثر من صديق، جوست جزء منه. نهضّ چون وصعد السّلم إلى الفراش الضيّق الذي كان لدونال نوي، وفيما يخلع ثيابه قال لنفسه مستوعباً الأمر الواقع: هذا نصيبي، من الآن وحتى نهاية أيامي.



دنيرس

صاحت إذ هزّت إيرى كتفها برفق: «ما الخطب؟». بالخارج كان الليل في هدأته، وعلّمت من فورها أن شيئاً ما على غير ما يُرام. «أهو داريو؟ ماذا حدث؟». في حُلْمها كانا زوجًا وزوجةً، شخصين بسيطين يعيشان حياةً بسيطةً في منزلٍ حجري عالٍ له باب أحمر. في حُلْمها راح يطبع قُبلاته على جسدها كلّه؛ على ثغرها، على عنقها، على نهدِها.

غمغمت إيرى: «لا يا گاليسي. إنه خصيئك الدودة الرّمادي والرّجلان الأصلعان. هل سترينهم؟».

قالت داني: «نعم»، ولمّا أدركت أن شعرها ملبّد وملا بس نومها مجعّدة متشابكة أضافت: «ساعديني على تبديل ثيابي. سأشرب كوب نبيذٍ أيضًا». لأغرق حُلْمي. ثم إنها سمعت نحيبًا خفيصًا، فتساءلت: «من يبكي؟».

أجابتها چيكيوي التي تحمل فتيلًا بيدها: «أمتك ميسانداي».

صحّحت لها داني: «خادمتي. ليست عندي أمات»، ثم سألت غير فاهمة: «لماذا تبكي؟».

أخبرتها إيرى: «تبكي من كان أخواها».

عرفت الباقي من سكاهاز ورزناك والدودة الرّمادي حين مثلوا أمامها. أدركت داني أن أخبارهم سيئة قبل أن ينطق أحدهم بكلمةٍ وبمجرد النّظر إلى وجه الرّأس الحليق القبيح. «أبناء الهاربي؟».

أوماً سكاهاز برأسه إيجابًا وقد زمّ فمه بجهامة.

- «كم ميتًا؟».

هَزَّ رزناك يديه بحرارةً مجيباً: «تسعة يا صاحبة السُّمو. فَعَلَة بغِيضة شَرِيْرَة. إنها ليلة شنيعة، شنيعة».

تسعة. كانت الكلمة بمثابة خنجرٍ في قلبها. كلَّ ليلة تُسَنُّ حرب الظلال من جديدٍ أسفل أهرامات (ميرين) المدرَّجة، وكلَّ صبيحة تُشْرِقُ الشَّمْسُ على جُثِّثٍ جديدة إلى جوارها الهاربي مرسومة على القمر، وكل معتنق انتعشت أحواله أو عرِفَ بكلامه الصَّريح محكوم عليه بالموت. لكن تسعة في ليلة واحدة... يُخيفها هذا حقاً. «أخبروني».

أجابها الدودة الرمادي: «خدمك هوجموا وهم يجوبون شوارع (ميرين) لحفظ سلام جالاتك. كانوا كلهم شاكِّي السلاح، يحملون الحراب والتروس والسُّيوف القصيرة. ساروا اثنين اثنين، وماتوا اثنين اثنين. خادماك القبضة السوداء وسيثريس قتلتها سهام نُشائية في (متاهة مازدان)، وخادماك موسادور وديوران سحقتها حجارة مُلقاة من فوق السُّور المطل على النهر، وخادماك إلادون ذو الشعر الذهبي والرُّمَح الوفي ماتا مسمومين في خمارة اعتادا زيارتها كل ليلة خلال دوريتهما».

موسادور. كوَّرت داني قبضتها. لقد اختطفت ميسانداي وأخواها من موطنهما في (ناث) وباعهما مُغبر و (جُزر البازيليسق) للعبودية في (أستاپور)، لكن على الرغم من سنّها الصَّغيرة أبدت ميسانداي موهبةً كبيرةً في اللغات حتى إن الأسياد الكرام أسندوا إليها العمل كُمترجمة، أمَّا أخوها موسادور ومارسلن فلم يكونا محظوظين مثلها، فخصي كلاهما وصنِعَ منهما جُنديين مُطهرين. «هل قبض على أي من القتلة؟».

- «خدمك قبضوا على مالك الخمارة وبناته، لكنهم يدعون البراءة ويتوسلون الرحمة».

كلهم يدعون البراءة ويتوسلون الرحمة. «أعطهم للرأس الحليق. سكاهاز، افضل كلا منهم عن الآخر واستجوبهم».

- «سأفعل يا صاحبة العبادة. هل تُريدني أن أستجوبهم باللين أم بالعنف؟».

ردت: «باللين كبداية. اسمع ما لديهم والأسماء التي يُدلون بها. ربما لم تكن لهم يد في هذا»، وتردَّدت لحظة ثم سألت: «النَّيْل رزناك قال تسعة. مَنْ أيضًا؟».

قال الرَّأس الحليق: «ثلاثة معتقن قُتِلوا في بيوتهم؛ مُرابٍ وإسكافٍ وعازفة القيثار رايلونا ري. لقد بتروا أصابعها قبل أن يَمُتْلوها».

جفَلت الملكة. كانت رايلونا ري تعزف على القيثار بعدوبة (العذراء)، ووقت أن كانت أمةً في (يونكاي) اعتادت أن تسمع ألحانها كل عائلة نبيلة في المدينة، وفي (ميرين) أصبحت قائدةً بين اليونكيين المحررين وصوتهم في مجلس داني. «ألم نقبض على أحدٍ إلا بائع الخمر هذا؟».

- «لا أحد، يُوسِفي أن أقرّ بهذا. نستمحك العُذر».

الرَّحمة. سينالون رحمة التين. «سكاهاز، لقد غيَّرت رأيي. استجوب الرَّجل بالعُنف».

- «يُمكني أن أفعل هذا، أو يُمكني أن أستجوب البنات بالعُنف على مرأى من الأب. سيستخلص هذا بعض الأسماء منه».

- «افعل ما تراه أفضل، لكن ائتني بأسماء». كانت غضبتها نارًا في بطنها. «لن أسمح بقتل المزيد من المُطهرين. أيها الدودة الرَّمادي، اسحب رجالك إلى نُكناتهم. من الآن فصاعدًا سيحُرسون جُدراني وبواباتي وشخصي فقط، ومن اليوم على الميرينيزيين أن يحفظوا السَّلام في (ميرين). سكاهاز، كوّن لي فريق حراسةٍ جديدةً من الرُّؤوس الحليقة والمعتقن بالتساوي».

- «أمرك. كم رجلًا؟».

- «كما تحتاج».

شَهَقَ رزناك مو رزناك قائلاً: «صاحبة السُّمو، من أين نأتي بالمال لدفع أجور كل هذه الأعداد؟».

- «من الأهرامات. سمَّها ضريبة دم. أريدُ مئة قطعةٍ من الذهب من كلِّ هرمٍ مقابل كلِّ رجلٍ قتله أبناء الهاربي».

رَسَمَ رُدُّها ابتسامةً على وجه الرَّأس الحليق، وقال: «أمرك نافذ. لكن على صاحبة الرُّونق أن تعلم أن أسياذ زاك وميريك العظام يستعدون للخروج من هرميهم ومغادرة المدينة».

سَمَّت دنيرس حدَّ الموت من زاك وميريك، سَمَّت من الميرينيزيين أجمعين كبارهم وصغارهم. هكذا قالت: «دعهم يذهبون، لكن احرص على ألا يأخذوا غير الثياب التي عليهم، وتأكد من بقاء ذهبهم كله هنا معنا، ومخزون أطعمتهم أيضًا».

غمغمَ رزناك مورزناك: «صاحبة السُّمو، لسنا نعلم إن كان هؤلاء النبلاء العظام ينون الانضمام إلى أعدائك. الأرجح أنهم ذاهبون إلى أملاكهم في التلال».

- «إذن فلن يُمانعوا أن نحفظ ذهبهم في أمان. ليس في التلال ما يُشترى».

- «إنهم خائفون على أطفالهم».

نعم، وأنا أيضًا. «يجب أن نحافظ على سلامتهم أيضًا. أريدُ طفلين من كلِّ منهما، ومن الأهرامات الأخرى أيضًا، صبيًا وبتنا».

علّق سكاهاز بسعادة: «رهائن».

قالت دنيرس: «وصفاء وسُقاة. إذا اعترضَ الأسياد العظام فاشرح لهم أن في (وستروس) يُعدُّ اختيار طفل للخدمة في البلاط شرفًا عظيمًا». لم تجد داعيًا لذكر الباقي، وأردفت: «اذهبوا وافعلوا كما أمرت. أريدُ أن أرثي لموتاي».

حين عادت إلى مسكنها على قمة الهرم وجدت ميسانداي تبكي بخفوتٍ على سريرها محاولةً قدر المستطاع كتمان نشيجها، فقالت للمترجمة الصَّغيرة: «تعالى نامي معي. لن يحلَّ الفجر قبل ساعات».

دخلت ميسانداي تحت الأغطية قائلةً: «مولاتي تعطف على هذه الواحدة. كان أخا صالحًا».

طوّقت داني الفتاة بذراعيها، وقالت: «احكي لي عنه».

- «في صغرا علمني تسلق الأشجار، وكان يستطيع صيد الأسماك بيديه. في مرّةٍ وجدته نائمًا في حديقتنا ومئة فراشةٍ تزحف عليه. كم بدا جميلًا ذلك الصُّباح. هذه الواحدة... أعني أنني أحببته».

قالت داني مملّسةً على رأس الصَّغيرة: «كما أحبكِ. قولي الكلمة فقط يا حلوتي وسأصرفكِ من هذا المكان البشع، سأجدُ سفينةً بوسيلةٍ ما وأرسلكِ إلى الوطن في (ناث)».

- «أفضّل البقاء معكِ. في (ناث) سأكونُ خائفةً. ماذا لو عادَ النحاسون؟ إنني أشعرُ بالأمان هنا معكِ».

الأمان. جعلت الكلمة العبرات تملأ مُقلتي داني. «أريدُ أن أحافظ على أمانكِ». ميسانداي طفلة، ومعها تُشعرُ أن بإمكانها أن تكون طفلةً أيضًا. «لم يُحافظ أحد على أمانِي في صغري. كان هناك السير ويلم، لكنه مات، و«شيرس...

أريدُ أن أحميك، لكن... صعبٌ للغاية أن أكون قويَّة. لستُ أعلمُ دائماً ما عليَّ أن أفعله، لكن يجب أن أعلم. ليس لهم غيري، إنني الملكة... إل...».

همستُ ميسانداي: «... الأم».

راجفتُ قالت داني: «أمُ التَّنانين».

ضمَّتها ميسانداي بقوةِ قائلة: «لا، بل أمُّنا جميعاً. عليكِ الخلود إلى النَّوم يا صاحبةِ الجلالة. سيحلُّ الفجر قريباً، ومعه انعقاد البلاط».

- «ستُخلدُ كلتانا إلى النَّوم وتحلُّمُ بأيامٍ أحلى. أغلِقِي عينيكَ»، ولمَّا فعلتْ لثمَّتها داني على جفنيها وجعلتها تضحكُ.

لكن القُبل أسهل من النَّوم. أغلقتُ داني عينيها وحاولتُ أن تُفكِّر في الوطن، في (دراجونستون) و(كينجز لاندنج) وكلِّ الأماكن الأخرى التي حكى فُسيرس عنها، في أرضٍ أرحم من هذه... إلا أن أفكارها ما برحت تعود إلى (خليج النخاسين) كسُفنٍ وقعت فريسةً لريح قاهرة. عندما غابت ميسانداي في النَّوم حلَّت داني نفسها من ذراعيها وخرَّجتُ إلى هواء ما قبل الفجر لتستند إلى سور الشرفة القرميدي البارد وتتطلع إلى المدينة، تمتد أسفلها آلاف السُّقوف التي لونها القمر بدرجات العاج والفضَّة.

في مكانٍ ما تحت هذه السُّقوف يجتمع أبناء الهاربي، يتأمرون على قتلها وقتل كلِّ من يحبونها وتكبير أطفالها بالأغلال من جديد. في مكانٍ ما بالأسفل طفل جائع يبكي طالباً اللبن، امرأة عجوز تُحتصر، رجلٌ وفتاة يتعاقبان ويخلع أحدهما ثياب الآخر بأيدي تواقفة. لكن هنا ليس هناك إلا بريق ضوء القمر على الأهرام والحلبات، ولا شيء يشي بما يدور بالأسفل، هنا لا أحد إلَّاها.

إنها دم التَّنين. تستطيع أن تقتل أبناء الهاربي، وأبناء الأبناء، وأبناء أبناء الأبناء، لكن التَّنين لا يقدر على إطعام طفلٍ جائعٍ أو تخفيف الألم عن امرأةٍ محتضرة. ومن يجرؤ على حُبِّ تنينٍ؟

وجدتُ نفسها تُفكِّر في داريو نهاريس من جديد، داريو بسنَّ الذهبية ولحيته ثلاثية الشعب ويديه القويتين المستريحيتين على مقبضي أراخه وخنجره الرِّفيع، المقبضين المصنوعين من الذهب على شكل امرأتين عاريتين. يوم انصرف، وفيما ودَّعته، راح يُداعِب المقبضين بإبهاميه بخفةٍ

جيثهً وذهاباً، فقالت لنفسها: أشعرُ بالغيرة من مقبض سيف، من امرأتين من ذهب. كان قرار إرساله إلى شعب الحملان حكيماً. إنها ملكة، وداريو نهاريس ليس من طينة الملوك.

البارحة فقط باحت للسير باريستان قائلةً: «مرّ وقت طويل جداً. ماذا لو أن داريو خانتي وانضمّ إلى أعدائي؟». ثلاث خياناتٍ ستعرفين. «ماذا لو أنه قابل امرأةً أخرى، أميرةً ما من اللازارين؟».

تعلم أن الفارس العجوز لا يحبُّ داريو أو يثق به، ومع ذلك أجابها بنبل: «لا امرأةٌ تفوق جلالتكِ حسناً. لا يعتقد العكس إلا أعمى، وداريو نهاريس ليس أعمى».

نعم. عيناه زرقاوان داكتان، أقرب إلى الأرجواني، وسنّه الذهب تلمع حين يتسم لي.

لكن السير باريستان واثق بعودته، وليس بيد داني إلا أن تأمل أن يكون مصيباً.

سيُساعد الاستحمام على تهدئتي. خطت على العُشب حافية القدمين إلى بركة الشرفة، وشعرت بالماء بارداً على جلدها حتى إنه اقشعر، فيما راحت الأسماك الصغيرة تُعضض ذراعها وساقها.

وأسبلت داني جفنيها وتركت نفسها تطفو. ثم إن حفيفاً خفيفاً جعلها تفتحهما من جديد، فاعتدلت تجلس نائرةً القليل من الماء، ونادت: «ميسانداي؟ إيري؟ چيكوي؟».

جاءتها الإجابة: «إنهن نائمات».

تحت شجرة التين الكاكي رأت امرأةً واقفةً ترتدي معطفاً مقلنساً ينسدل حتى العُشب، وتحت القلنسوة يبدو وجهها صلباً يلمع. تضع قناعاً، قناعاً من الخشب المطلي بالأحمر القاني. «كويث؟ هل أحلم؟». قرصت داني أذنها وجفلت من الألم، ثم قالت: «حلمتُ بك على متن (بالريون) في بداية ذهابنا إلى (أستاپور)».

- «لم يكن حلمًا، وقتها أو الآن».

- «ماذا تفعلين هنا؟ كيف تجاوزتِ حرسِي؟».

- «أثيتُ من طريقٍ آخر. حرسِك لم يروني».

- «إذا ناديتهم فسَيقتلونك».

- «سَيَقْسِمُونَ أَنِّي لَسْتُ هُنَا».

- «وَهَلْ أَنْتِ هُنَا؟».

- «لَا. أَنْصِتِي إِلَيَّ يَا دَنِيرِسُ تَارْجَارِينَ. الشُّمُوعُ الزُّجَاجِيَّةُ مُشْتَعَلَةٌ. قَرِيبًا تَأْتِي الْفَرَسُ الشَّاحِبَةُ، وَبَعْدَهَا الْآخَرُونَ. الْكِرَاكِينُ⁽¹⁾ وَاللَّهَبُ الْقَاتِمُ، الْأَسَدُ وَالْجَرِيفِينَ⁽²⁾، ابْنُ الشَّمْسِ وَتَيْنِ الْمُمَثِّلِينَ. إِيَّاكَ وَالثَّقَّةَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ. احْذَرِي الْقَهْرْمَانَ الْعَاطِرَ».

- «رِزْنَاكَ؟ وَلِمَ أَحْشَاهُ؟»، وَنَهَضَتْ دَانِي لَتَقَطُرَ الْمِيَاهُ عَلَى سَاقِيهَا وَتَزْحَفُ الْقَشْعَرِيَّةَ عَلَى ذِرَاعَيْهَا فِي هَوَاءِ اللَّيْلِ الْبَارِدِ. «إِذَا أَرَدْتَ تَحْذِيرِي مِنْ شَيْءٍ مَا فَتَكَلَّمِي بِوُضُوحٍ. مَاذَا تُرِيدِينَ مِنِّي يَا كُوَيْثُ؟».

أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ وَضُوءَ الْقَمَرِ يَتَأَلَّقُ فِي عَيْنَيْهَا: «أَنْ أُرِيكَ الطَّرِيقَ».

قَالَتْ دَانِي: «أَذْكَرُ الطَّرِيقَ. أَذْهَبُ جَنُوبًا لِأَذْهَبَ شِمَالًا، وَشَرْقًا لِأَذْهَبَ غَرْبًا، وَإِلَى الْخَلْفِ لِأَتَقَدَّمَ، وَكَيْ أَمْسَ النُّورَ عَلَيَّ أَنْ أَمُرَّ تَحْتَ الظِّلِّ»، وَاعْتَصَرَتْ الْمَاءَ مِنْ شَعْرِهَا الْفِضِّيِّ مُتَابِعَةً: «لَقَدْ سَمِئْتُ الْأَحَاجِي. فِي (كَارْت) كُنْتُ شَحَاذَةً، لَكِنِّي هُنَا مَلِكَةٌ، وَأَمْرُكَ...».

- «دَنِيرِسُ! تَذَكَّرِي الْخَالِدِينَ، تَذَكَّرِي مَنْ تَكُونِينَ».

- «دَمِ التَّنِينِ». لَكِنْ اثْنَيْنِ مِنْ تَنَانِينِي يَزَارَانِ فِي الظَّلَامِ. «أَذْكَرُ الْخَالِدِينَ. لَقَدْ دَعَوْنِي بِابْنَةِ الثَّلَاثَةِ، وَوَعَدُونِي بِثَلَاثِ دَوَابٍ وَثَلَاثِ نِيرَانٍ وَثَلَاثِ خِيَانَاتٍ، وَاحِدَةٌ مِنْ أَجْلِ الدَّمِّ وَوَاحِدَةٌ مِنْ أَجْلِ الذَّهَبِ وَوَاحِدَةٌ مِنْ أَجْلِ...».

- «جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ؟». كَانَتْ مِيسَانْدَايَ وَاقِفَةً فِي مَدْخَلِ غُرْفَةِ نَوْمِهَا تَحْمَلُ

قَنْدِيلًا. «مَنْ تُكَلِّمِينَ؟».

أَلْقَتْ دَانِي نَظْرَةً وَرَاءَهَا نَحْوَ شَجَرَةِ التَّيْنِ الْكَاسِي. لَا امْرَأَةً هُنَاكَ، لَا مَعْطَفٍ مَقْلَسٍ، لَا فَنَاقَ خَشْبِي، لَا كُوَيْثَ.

ظَلًّا، ذَكَرِي، لَا أَحَدٍ. إِنَّهَا دَمُ التَّنِينِ، لَكِنْ السَّيْرُ بَارِيسْتَانَ حَذَّرَهَا مِنْ أَنْ ذَلِكَ الدَّمُّ قَدْ يَكُونُ مَلُوثًا. أَيْمُكُنْ أَنِّي أَفْقَدُ عَقْلِي؟ لَقَدْ نَعَتُوا أَبَاهَا مِنْ قَبْلِ

(1) الْكِرَاكِينُ وَحَشَّ بَحْرِيَّيَ أُسْطُورِيَّيَ عَمَلَاقٍ يَظْهَرُ عَلَى سَطْحِ الْبَحْرِ كَجَزِيرَةٍ، وَهوَ أَذْرُعٌ أَحْطَبُوطِيَّةٌ طَوِيلَةٌ تَلْتَفُ حَوْلَ السُّفْنِ وَتُغْرِقُهَا. (المُتْرَجَم).

(2) الْجَرِيفِينَ مَخْلُوقٌ أُسْطُورِيٌّ لَهُ جَسْمٌ أَسَدٍ وَرَأْسٌ وَجَنَاحَا عُقَابٍ. (المُتْرَجَم).

بالجنون. قالت للفتاة النائبة: «كنتُ أصليّ. سيطلع الصّوء قريبًا. الأفضل أن أكل شيئًا قبل انعقاد البلاط». - «سأجلبُ لك طعام الإفطار».

لَمَّا انفردتْ بنفسها ثانيةً دارتْ داني دورةً كاملةً حول قَمّة الهرم على أمل العثور على كويث، مارةً بالأشجار المحروقة والأرض المسفوعة حيث حاولَ رجالها القبض على دروجون، لكنها لم تسمع من أصواتِ إلاّ الرّياح في شجر الفاكهة ولم ترَ من مخلوقاتٍ في الحديقة إلاّ بعض العُثِّ الشّاحب. عادتْ ميسانداي بثمرة شَمَام ووعاءٍ من البيض المسلوق، لكن داني لم تجد لديها شهيةً، وبينما بدأت السّماء تُنير والنجوم تخبو واحدةً تلو الأخرى ساعدتها إيرري وچيكونوي على ارتداء توكار من الحرير البنفسجي المقصّب بالذهب. عندما ظهرَ رزناك وسكاهاز وجدّت نفسها تنظرُ إليهما بارتياحٍ والخيانات الثلاث في ذهنها. احذري القهرمان العاطِر. بشكٍ تنشقت رائحة رزناك مو رزناك. يُمكنني أن أمر الرّأس الحليق باعتقاله واستجوابه. هل يُبطل ذلك النّبوءة أم يأخذ خائن آخر مكانه؟ قالت لنفسها مذكرةً: النّبوءات خداعة، وربما لا يُبطن رزناك أكثر مما يُظهر.

في القاعة الأرجوانية وجدّت داني على دكتها الأبنوس كومةً عاليةً من الوسائد الساتان، فرسم المنظر ابتسامةً باهتةً على شفيتها. السير باريستان. الفارس العجوز رجل صالح، لكنه يأخذ الأمور بحرفيةٍ أكثر من اللازم. فكّرت: كانت مجرد مزحة أيها الفارس، لكنها جلست على إحدى الوسائد رغم ذلك. سرعان ما بدأت تحسُّ بعاقبة الأرق، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تجد نفسها تُحاول مغالبة التثاؤب فيما أسهبَ رزناك في الكلام عن روابط الحرفيين. يبدو أن الحجّارين غاضبون منها، والبنائين أيضًا، فثمّة عبيد سابقون معيّنون يشتغلون في نحت القرميد والبناء به سارقين العمل من عمالي الرّابطة وأساتذتها على حدّ سواء. قال رزناك: «المعتقون يعملون بأجور زهيدة للغاية يا صاحبة السُّمو. بعضهم يدعو نفسه بالعامل الموظّف، بل وبالأساذ، وهما لقبان لا يحقُّ إلاّ لحرفيي الرّابطة حملهما. الحجّارون والبنّاون يُناشدون صاحبة العبادة مع كامل الاحترام أن تُحافظ على حقوقهم وتقاليدهم العريقة».

علّقت داني: «المعتقون يعملون بأجور زهيدة لأنهم جائعون. إذا حرّمت عليهم نحت القرميد أو البناء به فقريباً سأجدُ الشَّماعين والنَّساجين والصَّاعِغَةَ على بابي يَطلبون استبعادهم من تلك الحِرف أيضاً»، وفكّرت لحظةً، ثمّ قالت: «فليُكتب أن من الآن فصاعداً لن يُسمح إلاّ لأعضاء الرّابطة بدعوة أنفسهم بالعمّال الموظّفين أو الأساتذة... شريطة سماح الرّابطة بإدراج اسم أيّ معتقٍ يبرهن على المهارة المطلوبة على قوائمها».

قال رزناك: «سنعين هذا. هل تُوافق صاحبة الجلالة على سماع النّيبيل هيزدار زو لوراك؟».

ألن يقرّ بالهزيمة أبداً؟ «فليتقدّم».

لا يرتدي هيزدار التوكار اليوم، وبدلاً منه اختار رداءً بسيطاً من الرّمادي والأزرق، كما أنه حليق أيضاً. خلق لحيته وقصّ شعره. لم ينضمّ الرّجل إلى جماعة الرّؤوس الحليقة، لكنه تخلّص على الأقل من هذين الجناحين السّخيفين. خاطبته قائلةً: «أحسنَ حلاقك صنْعاً يا هيزدار. أمل أنك جئت لتُريني عمله وليس لابتلائي بمزيدٍ من الكلام عن حلبات القتال».

ردّ منحنياً بإجلال: «أحشى أنني مضطّرّ يا صاحبة الجلالة».

كشّرت داني. حتى قومها لا يكفون عن الإلحاح عليها في هذه المسألة. رزناك مو رزناك أكّد أهميّة المال الذي سيُجنى من الصّرائب، وذات النّعمة الخضراء قالت إن إعادة فتح الحلبات ستُرضي الآلهة، والرّأس الحليق رأى أن فتحها سيُكسبها دعماً ضد أبناء الهاربي، في حين دمدم بلواس القوي الذي كان من أبطال الحلبات في السّابق: «دعيهم يتقاتلون»، أمّا السير بارستان سلمي فاقترح دورة مباريات بدلاً من ذلك، أن يركب أيتامه في مضمار نزال ويتقاتلوا في التحام جماعي بأسلحةٍ مثلومة، وهو الاقتراح الذي تعلم داني أن لا أمل منه على الرّغم من النّية الطيّبة وراءه. ما يتوق الميرينيزيون إلى رؤيته هو الدّماء لا المهارة، وإلاّ لارتدى العبيد المُقاتلون دروعاً. وحدها المترجمة الصّغيرة ميسانداي بدت متفكّقة مع هواجس الملكة.

قالت لهيزدار: «لقد رفضت طلبك ستّ مرّات».

- «صاحبة الرّوتق لها سبعة آلهة، فلعلّها تنظر إلى التماسي السّابع بعين أكثر عطفاً. اليوم لم أت وحدي. هلّا سمعت أصدقائي؟ إنهم سبعة أيضاً»،

وقَدَّمهم إليها واحدًا تلو الآخر: «هذا كراز، وهذه بارسينا ذات الشعر الأسود دائمة الجسارة، وهذان كامارون العدَّاد وجوجهور الجبَّار، وهذان القُط الأرقط وإيثوك الصَّنديد، وأخيرًا بيلاذو كاسِر العظام. لقد أتوا الضمُّ أصواتهم إلى صوتي وسؤال جلالتك أن تسمحي بفتح الحلبات من جديد».

تعرف داني سبعتهم، إن لم يكن شكلاً فاسمًا. جميعهم من أشهر عبيد (ميرين) المُقاتلين... والعبيد المُقاتلون الذين حرَّهم جردانها من قيودهم هُم من قادوا الثَّورة التي ظفرت من خلالها بالمدينة، أي أن عليها لهم دينًا من الدَّم، وهكذا قالت: «سأسمعكم».

واحدًا واحدًا سألتها كلُّ منهم أن تُعيد فتح حلبات القتال، فلمَّا فرغَ إيثوك تساءلت: «لماذا؟ إنكم لم تعودوا عبيدًا محكومًا عليهم بالموت بحسب نزوات الأسياد. لقد اعتقتكم. لماذا ترغبون في الموت على الرِّمال القرمزيَّة؟».

قال جوجهور الجبَّار: «إنني أتدربُ منذ سنِّ الثالثة وأقتلُ منذ السادسة. أمُ التنانين تقول إنني حُرٌّ، فلمَ لا أكونُ حُرًّا في القتال؟».

- «إذا كان القتال ما تريد فقاتل من أجلي. أقسم بسيفك لرجال الأم أو الإخوة الأحرار أو الثُّروس المقدامة، علِّم رجالي المعتقنين الآخرين القتال». هزَّ جوجهور رأسه نفيًا قائلاً: «من قبل قاتلتُ من أجل سيدي. تقولين أقاتل من أجليك، وأقولُ أن أقاتل من أجلي»، ودقَّ الرِّجل الصَّخم صدره بقبضة كبيرة كفضخ الخنزير، وأكمل: «من أجل الذهب، من أجل المجد».

قال القُط الأرقط الذي يضع فروة فهدٍ على كتفه: «رأي جوجهور من رأينا جميعًا. آخر مرَّة باعوني كان الثمن ثلاثمئة ألف أونز. حين كنتُ عبدًا اعتدتُ النُّوم على الفرو وأكل اللحم الأحمر الطَّازج، والآن وقد صرتُ حُرًّا أنامُ على القشِّ وأكلُ السمك المملَّح، هذا إذا وجدته».

أضاف كراز: «هيزدار يُقسم أن الرِّابحين سيتقاسمون نصف الأموال المدفوعة عند البوابة، نصفها، ويُقسم على هذا، وهيزدار رجل شريف». لا، بل رجل ماكر. شعرتُ دنيرس أنها محاصرة وهي تسأل: «والخاسرون؟ ماذا سينالون؟».

أعلنتُ بارسينا: «ستُنقش أسماؤهم على (بوابة القدر) مع سائر القتلى الشُّجعان». يُقال إنها فتكت بكلِّ امرأةٍ قاتلتها خلال الأعوام الثمانية

المنصرمة. «كُلُّ البَشَرِ يُدْرِكُهُمُ الموتُ، رجالًا ونساءً... لكن التَّاريخَ لا يَدُكِّرُ الجميعَ».

لم تجد داني ردًّا. إذا كانت هذه رغبة شعبي فعلاً فهل يحقُّ لي أن أرفضها؟ لقد كانت مدينتهم قبل أن تُصبحَ مدينتي، وحياتهم هُم هي ما يرغبون في تبديده. قالت: «سأفكرُ في كلِّ ما قَلِّتموه»، ونهضت مردفة: «سنستكمل غدًا».

صاحت ميسانداي: «ليركع الجميعَ لدنيرس وليدة العاصفة، التي لم تحترق، ملكة (ميرين)، ملكة الأنداليين والروينار والبشر الأوائل، غاليسي بحر العُشب العظيم، محطمة الأصفاد، وأم التنانين».

اصطحبها السير بارستان إلى مسكنها، وبينما يصعدان قالت له: «احك لي حكايةً أيها الفارس، حكايةً ما عن الشجاعة نهايتها سعيدة». كم هي محتاجة إلى نهاية سعيدة. «أخبرني كيف فررت من الغاصب».

- «يا جلالة الملكة، لا شجاعة في أن يفرَّ المرء حفاظًا على حياته».

جلست داني على وسادةٍ ووضعت ساقًا على ساقٍ ورفعت عينيها إليه قائلةً: «من فضلك. الغاصب الصَّغير هو من صرفك من الحرس الملكي...».

- «چوفري، أجل. زعموا إن سني السَّبب، لكن الحقيقة لم تكن كذلك. لقد أراد الصَّبي معطفًا أبيض لكلبه ساندور كليجاين، وأرادت أمُّه أن يكون قاتل الملك القائد. عندما أخبروني... خلعتُ معطفي كما أمروا وألقيتُ سيفي عند قدمي چوفري وقلتُ كلامًا تعوزه الحكمة».

- «ماذا قلتُ؟».

- «الحقيقة... لكن الحقيقة لم تكن محلَّ ترحابٍ قطُّ في ذلك البلاط. خرجتُ من قاعة العرش ورأسي مرفوع عاليًا، ولو أنني لم أدر أين أذهب. لم يكن لي بيت إلا (بُرج السَّيف الأبيض). كنتُ أعلمُ أن أولاد عمومتي سيجدون لي مكانًا في (بهو الحصاد)، لكنني لم أدرُ أن أستدرَّ عليهم سُخْط چوفري. كنتُ أجمعُ أغراضِي حين خطرَ لي أنني جلبتُ هذا على نفسي بقبولي عفو روبرت. كان فارسًا طيبًا ولكن ملكًا سيئًا، ولم يكن له حقُّ في العرش الذي اعتلاه. عندئذٍ أدركتُ أن عليَّ العثور على الملك الشرعي لأكفر عن غلظتي، وأخدمه بإخلاصٍ بكلِّ ما بقيَ لي من قوَّة».

- «أخي فُسيرس».

- «تلك كانت نيتي. حين وصلت إلى الاسطبلات حاول ذوو المعاطف الذهبية القبض عليّ. چوفري عرض عليّ بُرجاً أموتُ فيه، لكنني ترفعتُ عن هديته، وهكذا أراد أن يهدي إليّ ززانة. واجهني قائد حرس المدينة بنفسه وقد شجعه غمدي الفارغ، لكن ثلاثة رجالٍ فقط كانوا معه، وما زال معي سكينتي، وهكذا فتحتُ وجه أحدهم لَمَّا وضع يده عليّ، وانطلقتُ بحصاني بين الاثنين الآخرين، وبينما أندفعُ نحو البوابة سمعتُ چانوس سلينت يصبح في رجاله أن يُطارِدوني. حالما خرجتُ من (القلعة الحمراء) وجدتُ الشوارع مزدحمةً، ولولا هذا لغادرتُ بلا متاعب، لكنهم لحقوا بي عند (بوابة النهر). زعقُ من طارِدوني من القلعة منبهين الواقفين عند البوابة ليمنعوني من الخروج، فقاطعوا حراهم ليسدُّوا طريقي».

- «ودون سيفك؟ كيف تجاوزتهم؟».

- «الفارس الحقيقي يُعادِل عشرة حُرَّاس. دعستُ أحدهم وانتزعتُ منه حربته وغرستها في عُقْ أقرب المطاردين، وتفرَّق الآخرون ما إن خرجتُ من البوابة، فهزمتُ حصاني وهرولتُ به بأقصى سرعةٍ بمحاذاة النهر حتى غابت المدينة عن النَّظر من ورائي. ليلتها بعثُ حصاني مقابل حفنةٍ من البنسات وبعض الثياب البالية، وفي الصُّباح التالي انضممتُ إلى العامةِ الداهيين إلى (كينجز لاندنج). كنتُ قد خرجتُ من (بوابة الطمي)، فعدتُ من (بوابة الآلهة) بوجهٍ متسخٍ وشعرٍ نابت من وجتني وبلا سلاحٍ إلَّا عكَّازٍ خشبي. بالملابس الخيش والحذاء المكسوُّ بالوحل أصبحتُ مجرد عجزٍ آخر هارب من الحرب. أخذَ مني ذوو المعاطف الذهبية أيلًا فضيًّا وأشاروا لي بالمرور. كانت (كينجز لاندنج) مكتظةً بمن أتوا ناشدين ملاذًا من القتال، فاختمتُ بينهم. كان معي القليل من الفضة، لكن كان عليّ أن أدفع تكلفة عبور (البحر الضيق)، فمتمتُ في السِّتات والأزقة وأكلتُ في محال الأكل، وتركتُ لحيتي تنمو وسترْتُ نفسي بسنني المتقدِّمة. يوم فقدَ اللورد ستارك رأسه كنتُ موجودًا أشاهدُ، وبعدها ذهبْتُ إلى (السِّت الكبير) وشكرتُ الآلهة السبعة لأن چوفري جرَّدني من معظفي».

- «ستارك كان خائنًا لاقى نهاية خائن».

قال سلمى: «جلالة الملكة، إدارد ستارك لعبَ دورًا في سقوط أبيك،

لكنه لم يكنْ لكِ أيّ ضعائن. عندما أبلغنا الخصيُّ فارس بكونك حاملاً أرادَ روبرت قتلِك، لكن اللورد ستارك عارضه، وبدلاً من تأييده اغتيال الأطفال قال لروبرت أن يجد لنفسه يداً آخرَ.

- «هل نسيت الأميرة رينيس والأمير إجون؟».

- «إطلاقاً. كان هذا عمل لانستريا صاحبة الجلالة».

- «لانستر أو ستارك، ما الفرق؟ اعتادَ فُسيرس أن يُسمِّيهم كلاب الغاصب. إذا هاجمَ قطع من كلاب الصَّيد طفلاً فهل يهْمُ أيُّها يُمزق عنقه؟ كل كلاب القطيع مذنبه. الذنب...». احتبست الكلمة في حلقها، وفكرت: هازيا، وفجأة سمعت نفسها تقول بصوتٍ خفيض كهمسة طفلة: «يجب أن أرى الجُبَّ. خُذني إلى هناك أيها الفارس».

لاحت لمحة من الاعتراض على وجه العجوز، ولكن ليس هو من يُراجع ملكيته، وهكذا قال: «كما تأمرين».

سلالم الخدم أسرع طريقٍ إلى أسفل. ليست فخمةً، لكنها منحدره ومستقيمة وضيقة ومحجوبة داخل الجدران. جلب السير باريستان مصباحاً يُضيء الطريق لثلاثاً تسقط، ونزلاً والقرميد المطلي بعشرين لوناً يُحيط بهما من كُتب، قبل أن يستحيل إلى الرمادي والأسود عندما يتجاوزَه الصَّو. ثلاث مرَّاتٍ مرَّاً بحرسٍ من المُطهَّرين الواقفين بثباتٍ يجعلهم كأنهم منحوتون من حجر، والصَّوت الوحيد وقع أقدامهما الخافت على الدَّرجات.

في مستواه الأرضي هرم (ميرين) الأكبر مكان صامت مليء بالغبار والظلال، جُدرانه الخارجية تَبْلُغ الثلاثين قدماً سُمكاً، ودخلها تتردَّد أصداء الأصوات على القناطر عديدة الألوان وفي الاسطبلات ومرابط الخيول والمخازن. مرَّاً من تحت ثلاث قناطر هائلة وقطعا مرَّاً منحدرًا مضاءً بالمشاعل إلى الأقبية أسفل الهرم، وتجاوزا خزانات الماء والزنازين وحُجرات التعذيب التي قاسى فيها العبيد الجلد والسَّلخ والحرق بالمكاوي الحامية، وأخيراً بلغا باباً ضخماً مصراعاه من الحديد ومفصلاته صدئة يحرسه المُطهَّرون.

بأمرها أخرج أحدهم مفتاحاً حديدياً. صرخت مفصلات الباب إذ انفتح، وخطت دنيرس تارجارين إلى قلب الظلام الساخن وتوقفت على حافة جُبِّ

عميق، وعلى بُعد أربعين قدمًا بالأسفل رفعَ تينَّاهما رأسيهما وأربع أعينٍ متَّعدة تتخلَّل نارهما الظَّلَال، اثنتين من الذهب المصهور واثنتين من البرونز. أمسكها السير باريستان من ذراعها قائلاً: «لا تقتربي أكثر».

- «أتظنُّ أنهما قد يُؤذيانني؟».

- «لا أدري يا جلالة الملكة، لكنني أوثرُ ألاَّ أخطر بك لأعرف الإجابة». حين زارَ ريجال أحالَ رُمح من النَّار الصَّفراء الظَّلَام إلى نهارٍ لِنِصف لحظة، ولعقت ألسنة اللهب الجُدران وشعرت داني بحرارتها على وجهها كأنها أتون يلفح. عبر الجُبَّ انبسطَ جناحا فُسيرون محرِّكين الهواء السَّاكن، وحاولَ أن يطير إليها لكن السُّلسلة انشدَّت عن آخرها إذ ارتفعَ وجعلته يهوي على بطنه. تُقيِّدُ قدمي التَّين حلقات كبيرة بحجم قبضة رجل إلى الأرض، والطوق الحديدي المحيط بعنقه مثبتٌ إلى الحائط ورائه. ريجال أيضًا مقيِّدٌ بسلاسل شبيهة، وفي ضوء مصباح سلمي تلتمع حراشفه كاليشب. من بين أسنانه يتصاعد الدُّخان، وعند قدميه على الأرض عظام مبعثرة، مكسرة ومهشَّمة ومتفحَّمة، والهواء ساخن لدرجةٍ مزعجةٍ وعابق برائحة الكبريت واللحم المحترق.

قالت داني: «حجمهما أكبر»، فتردَّد صدى صوتها على الحوائط الحجرية المسفوعة، وشعرت بقطرةٍ من العرق تسيل على جبينها وتسقط على ثديها. «أصحيحُ أن التَّنانين لا تكف عن النمو أبدًا؟».

- «إذا تمتَّعت بالطَّعام الكافي ومساحةٍ للنُّمو، لكن وهي مقيِّدة هنا...».

في السَّابق استخدمَ الأسياد العظام الجبَّ كسجنٍ مساحتها واسعة تكفي لاحتواء خمسمئة سجين... وتكفي تينين وتزيد. لكن إلى متى؟ ماذا سيحدثُ عندما يكبران على الجبِّ؟ هل سينقلب أحدهما على الآخر بناره ومخالبه؟ هل سيضعفان ويهزُلان وتذبُّل جوانبهما وتنكمش أجنحتهما؟ هل ستنتفضي نيرانهما قبل النهاية؟

ما الأم التي تترك طفلها يتعفن في الظلام؟

قالت داني لنفسها: إذا نظرتُ إلي الوراء فأنا هالكة... لكن كيف يُمكنها ألاَّ تنظر وراءها؟ كان عليَّ أن أتوقع هذا. هل كنتُ عمياء أم أغلقتُ عيني بإرادتي كي لا أرى ثمن القوة؟

حكى لها فسيرس الحكايات كلَّها في طفولتها، فلکم أحبَّ الكلام عن التَّنانين، وهكذا علَّمت كيف سقطت (هارنهال)، وعلَّمت بحقل النيران ورقصة التَّنانين، وأن أحد أسلافها -إجون الثالث- رأى تَنين خاله يلتهم أمَّهُ حيَّةً، كما أن هناك أغاني لا تُحصى عن فُرى وممالك عاشت في رُعب من التَّنانين إلى أن جاء قاتل تنانين شجاع يُنقذها. في (أستاپور) ذابت عينا النحاس، وفي الطَّريق إلى (يونكاي)، حينما ألقى داريو رأسي سالور الأصلع ويرندال نا غزن عند قدميها، صنع أطفالها منهما وليمةً. لا تخشى التَّنانين البَشَر، والتَّنين الكبير كفايةً لالتهام خروفٍ يستطيع أن يلتهم طفلةً بالبساطة ذاتها.

كان اسمها هازيا، وكانت في الرَّابعة. ما لم يكن أبوها قد كذب. ربما كذب. لا أحدٌ إلَّا رأى التَّنين، ودليله كان بعض العظام المحروقة، لكن العظام المحروقة لا تُثبت شيئاً. ربما قتل الصَّغيرة بنفسه ثم أحرق جثَّتها. لن يكون أول أب يتخلَّص من ابنةٍ لا يُريدها كما زعم الرَّأس الحليق. ربما قتلها أبناء الهاربي وجعلوا الأمر يبدو كأن تَنيناً فعلها لجعل المدينة تكرهني. تُريد داني أن تُصدِّق ذلك... لكن إن كانت تلك الحقيقة فلم انتظر أبو هازيا حتى خلَّت القاعة تقريباً ليتقدَّم؟ لو كان هدفه أن يُلهب مشاعر الميرينزيين ضدها لحكي حكايته والقاعة ملأى بالأذان الصَّاغية.

حُثها الرَّأس الحليق على قتل الرَّجل، وقال: «أو اقطعي لسانه على الأقل». من شأن كذبة هذا الرَّجل أن تُدمرنا جميعاً يا صاحبة السُّمو، إلَّا أن داني اختارت أن تدفع ثمن الدَّم بدلاً من ذلك. لم يكن بإمكان أحد أن يُخبرها بثمن ابنة، فقدَّرتَه بمئة ضعف ثمن حمل، وقالت للأب: «كنتُ لأعيد هازيا إليك لو استطعتُ، لكن بعض الأشياء لا تقدر عليه الملكات أنفسهن. ستُدفن عظامها في (معبد ذوات النعم)، وستشتعل مئة شمعة ليل نهار في ذكراها. عدُّ إليَّ كلِّ سنَةٍ في يوم ميلادها ولن يعوز أطفالك الآخرون شيء... لكن يجب ألا تُخرِّج هذه الحكاية من فمك ثانية أبداً».

قال الأب الثَّكلان: «سيسأل النَّاس، سيسألونني أين هازيا وكيف ماتت». ردَّ رزناك مورزناك بإصرار: «ماتت بلدغة ثُعبان، اختطفها ذئب مفترس، أخذها مرض مفاجئ. قُل لهم ما تشاء، لكن لا تذكُر التَّنانين».

خَدَشْتِ مَخَالِبَ فُسِيرِيونَ الْأَحْجَارِ وَصَلَّصَلْتَ السُّلْسَلَةَ الضَّخْمَةَ إِذْ حَاوَلَ الطَّيْرَانِ إِلَيْهَا ثَانِيَةً، وَلَمَّا فَشَلَ أُطْلِقَ زَنْبِرًا وَلَوَى رَأْسَهُ إِلَى الْخَلْفِ قَدْرَ اسْتِطَاعَتِهِ وَبَصَقَ اللَّهْبَ الذَّهْبِيَّ عَلَى الْحَائِطِ وَرِاثَهُ. كَمْ مِنَ الْوَقْتِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَعْرَنَ نَارَهُ بِمَا يَكْفِي لِفُلُقِ الْحَجَرِ وَإِذَابَةِ الْحَدِيدِ؟

مِنْذُ وَقْتٍ لَيْسَ بِبَعِيدٍ كَانَ يَرْكَبُ عَلَى كَتِفِهَا بِذَيْلٍ مَلْفُوفٍ حَوْلَ ذِرَاعِهَا، مِنْذُ وَقْتٍ لَيْسَ بِبَعِيدٍ كَانَتْ تُطْعِمُهُ لُقَيْمَاتِ اللَّحْمِ الْمَتَفَحَّمِ مِنْ يَدِهَا. هُوَ أَوَّلُ مَنْ قَبِدَتْهُ السُّلَاسِلُ، عِنْدَمَا قَادَتْهُ دَنْيِرْسٌ إِلَى الْجُبِّ بِنَفْسِهَا وَحَبْسَتَهُ بِالذَّاخِلِ مَعَ عِدَّةِ ثَيْرَانٍ، وَبَعْدَ أَنْ التَّهَمَّهَا أَصَابَهُ النَّعَاسُ، وَبَيْنَمَا غَابَ فِي النَّوْمِ قَبِدُوهُ. غَيْرَ أَنْ رِيْجَالَ كَانِ أَصْعَبَ. رُبِمَا سَمِعَ ثَوْرَةَ أُخِيهِ فِي غِيَابِ الْجُبِّ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْجُدْرَانِ الْحَجَرِ وَالْقَرْمِيدِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَهُمَا. فِي النِّهَايَةِ غَطَّوهُ بِشَبَكَةٍ مِنَ السُّلَاسِلِ الْحَدِيدِ الثَّقِيلَةِ وَهُوَ مُسْتَلْقٍ فِي شَمْسٍ سُرِفَتْهَا، وَقَدْ قَاوَمَ بِشِرَاسِيَةٍ فَائِقَةٍ حَتَّى إِذَا اسْتَعْرَقُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ لِلنُّزُولِ بِهِ عَلَى سَلَالِمِ الْخَدْمِ وَهُوَ يَتَلَوَّى وَيَعُضُّ الْهَوَاءَ، وَأَسْفَرَ الصَّرَاعَ عَنِ احْتِرَاقِ سِنَّةِ رِجَالِهِ.

وَدَرُوجُونَ...

الظِّلُّ الْمَجْتَمِعُ كَمَا دَعَاهُ الْأَبُ الثُّكْلَانِ. إِنَّهُ أَكْبَرُ الثَّلَاثَةِ حَجْمًا وَأَشْرَسُهُمْ وَأَضْرَاهُمْ، حِرَاشِفُهُ سَوْدَاءٌ كَالصَّرِيمِ وَعَيْنَاهُ حُفْرَتَانِ مِنَ النَّارِ. يَصْطَادُ دَرُوجُونَ بَعِيدًا، لَكِنْ حِينَ يَشْبَعُ يَحْبُ الْاسْتِقْلَاءَ فِي الشَّمْسِ عَلَى قَمَّةِ (الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ) حَيْثُ كَانَتْ هَارِيْبِي (مِيرِين) تَقِفُ مِنْ قَبْلِ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَاوَلُوا أَخْذَهُ هُنَاكَ، وَثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَخْفَقُوا. أَرْبَعُونَ مِنْ أَشْجَعِ رِجَالِهَا خَاطَرُوا بِأَرْوَاحِهِمْ فِي مَحَاوَلَةِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ، وَأَصِيبُوا كُلُّهُمْ تَقْرِيْبًا بِحُرُوقٍ وَمَاتَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ. آخِرُ مَرَّةٍ رَأَتْ دَرُوجُونَ كَانَتْ عِنْدَ الْغُرُوبِ يَوْمَ الْمَحَاوَلَةِ الثَّلَاثَةِ، وَكَانَ التَّنِينُ الْأَسْوَدُ مَحْلَقًا شِمَالًا عَبْرَ (السَّكَّاهَا زَادَانَ) نَحْوَ عُشْبِ (بَحْرِ الدُّوْثِرَاكِيِّ) الطَّوِيلِ، وَمِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ لَمْ يَرْجِعْ.

وَقَالَتْ دَنْيِرْسٌ فِي أَعْمَاقِهَا: أُمُّ التَّنَانِينِ. أُمُّ الْوَحُوشِ. مَاذَا أُطْلِقْتِ عَلَى الْعَالَمِ؟ مَلَكَةٌ أَنَا، لَكِنْ عَرَشِي مِنْ عَظْمٍ مَحْرُوقٍ وَمِنْ تَحْتِهِ رَمَالٌ مَتَحَرِّكَةٌ. فِي غِيَابِ التَّنَانِينِ مَا أَمَلُهَا فِي السَّيْطَرَةِ عَلَى (مِيرِين)، نَاهِيَهَا بِاسْتِرْدَادِ (وَسْتِرُوسِ)؟ أَنَا دَامُ التَّنِينِ. إِذَا كَانُوا وَحُوشًا، فَأَنَا أَيْضًا وَحْشٌ.



ريك

صرخَ الجرذ إذ انغرست أسنانه في جسمه، وراح يتلوى بين يديه بهياج شرس محاولاً التملص. البطن أطرى جزء، وقد نهش لحمه الجميل ليسيل الدم الدافئ على شفثيه، ووجدَه شهياً لدرجة أن عينيه اغرورقتا بالدموع. قرقر بطنه وهو يزدرد، ومع القضمة الثالثة كان الجرذ قد كفَّ عن المقاومة وأحسَّ هو بشيءٍ يُشبه الرضا.

ثم سمع الأصوات خارج باب الزنانة.

سكنت حركته من فوره خاشياً مجرد المضغ، فمه مليء بالدم واللحم والشعر لكنه لا يجرؤ على الابتلاع أو البصق. متيسساً كالحجر، أصغى بهلع إلى احتكاك الأحذية بالأرض ورنين المفاتيح الحديد، وفي داخله تضرع: لا، لا، أرجوك أيتها الآلهة، ليس الآن، ليس الآن. لقد استغرق وقتاً طويلاً للغاية حتى استطاع الإمساك بالجرذ. إذا ضبطوني به فسيأخذونه مني، ثم سيقولون، وعندها سيؤذيني اللورد رامزي.

يعلم أن عليه أن يُخبي الجرذ، لكن الجوع مشتدٌ عليه. آخر مرة أكل كانت منذ يومين، أو ربما ثلاثة. صعبٌ أن يُحدّد الوقت هنا في الظلام. مع أن ذراعيه وساقيه صارت رقيقة كأعواد البوص فبطنه منتفخ أجوف، ويوجعه وجعاً ممضاً حتى إنه لا يستطيع النوم. متى أغمض عينيه وجد نفسه يتذكر الليدي هورنود. بعد زفافهما حبسها اللورد رامزي في بُرجٍ وجوعها حتى الموت، وفي النهاية أكلت أصابعها.

أفعى في رُكن الزنانة قابضاً على غنيمته تحت ذقنه، وسأل الدم من زاويتي فمه وهو يقضم من الجرذ بما تبقى له من أسنان، محاولاً التهام ما

يقدر عليه من اللحم الدَّفَافِ قبل أن يُفْتَحَ الباب. كان اللحم قاسياً لكن دسم إلى حدٍّ أشعره بالغيثان. لآك وابتلع ملتقطاً عظماً صغيرةً من فراغات لثته التي كانت الأسنان تحتلها قبل أن تُنتزع. ألمه المضغ لكن الجوع الذي استبدَّ به جعله لا يقوى على التَّوقُفِ.

ارتفعت الأصوات، فصلَّى وهو يُمَرِّقُ إحدى سيقان الجرد: أرجوك أينها الآلهة، لا تجعلهم يأتون من أجلي. مرَّ وقت طويل منذ جاءه أحد، فهناك زنازين أخرى وسُجناء غيره. أحياناً يسمعهم يصرخون على الرغم من الجدران الحجرية السَّميكة. صراخ النسوة أصخب دوماً. مضغ اللحم النيء وحاول أن يَبْصُقَ عظمة السَّاق، لكنها تدلَّت من على شفته السفلى وعلقت بلحيته. ارحلوا، اذهبوا، تجاوزوني، أرجوكم، أرجوكم.

لكن الخطوات توقفت ما إن بلغ صوتها أعلاه، وصلصت المفاتيح خارج الباب. سقط الجرد من يده ومسح أصابعه الدامية على سراويله متمتماً: «لا، لا!!!»، واحتكَّ كعباه بالقش إذ حاول أن يدفع نفسه إلى الرُّكن، كأنه يريد أن يغوص في الجدار الحجري البارد الرطب.

وكان صوت دوران المفتاح في الرتاج أشنع ما في الأمر، وحين لطمه الضوء على وجهه مباشرةً أطلق صرخةً وغطى عينيه بكلتا يديه، ولو جرؤ لفقأهما بأظفاره من جرَّاء الدقِّ العنيف في رأسه. «أبعده، افعلوها في الظلام، أوه، أرجوكم، أرجوكم».

قال صوت صبيٍّ: «ليس هو. انظر إليه. إنها الزنزانة الخطأ».
ردَّ صبيٌّ آخر: «آخر زنزانية إلى اليسار. هذه آخر زنزانية إلى اليسار، أليس كذلك؟».

- «بلى». صمت قصير. «ماذا يقول؟».

- «لا أظنه يحبُّ الضوء».

- «هل كنت لتحبُّه لو بدوت هكذا؟»، ثم تنخَّم الصبي وبصق مضيئاً:

«ورائحته هذه تكاد تخنُّني».

قال الصبي الثاني: «كان يأكل الجردان، انظر».

ضحك الأول معلقاً: «فعلاً. هذا طريف».

رغمًا عني. حين ينام تعضُّه الجردان، تقرض أصابع يديه وقدميه، وحتى

وجهه، ولذا فعندما يظفر بأحدها لا يتردّد. خياراه الوحيدان أن يأكل أو يُؤكّل. همهم: «فعلتُ هذا، نعم، نعم، أكلته. إنها تأكلني أيضًا. أرجوكم...». دنا الصَّبِيَّانِ لينسحق القش بصوتٍ خفيضٍ تحت أقدامهما، وقال أحدهما: «أخبرني، هل تذكُر من أنت؟». إنه أصغر الاثنيْنِ حجْمًا، صبيٌّ نحيلٌ لكن يبدو عليه الذكاء.

أحسّ بالخوف يفور في داخله، وأطلقَ أُنْيًا.
- «كلمني، أخبرني باسمك».

اسمي. احتبست في حلقة صرخة. لقد علّموه اسمه، علّموه إياه، علّموه إياه، نعم، لكن وقتًا طويلًا للغاية مرّ فَنسي. إذا أخطأتُ فيه فسيأخذ إصبعًا آخر، أو أسوأ، س... س... لن يُفكّر في ذلك، لا يُمكنه أن يُفكّر في ذلك. يحسُّ كأن في فكّيه أشواكًا مغروسةً، وفي عينيه، ورأسه يدق. صرّ بصوتٍ رفيعٍ ضعيفٍ: «أرجوكم»، فبدت نبرته كأنه في المئة من العمر، وقد يكون كذلك حقًا. كم قضيتُ هنا؟ تمتَم من خلال أسنانه المكسورة وأصابعه المكسورة وقد أطبق جفنيه بشدّة يقيهما من الضوء الساطع الشّنيع: «ارحلا. أرجوكم، خُذا الجرد، لا تُؤذيانِي...».

قال الصَّبِي الأكبر حجْمًا: «ريك! اسمك ريك. هل تذكُر؟». هو من يحمل المشعل، في حين يُمسك الثاني حلقة المفاتيح الحديد.

ريك؟ انهمرت الدموع على وجنتيه وهو يقول: «أذكُر، نعم»، وأخذ فوه يفتح وينغلق. «اسمي ريك، على قافية شريك». في الظلام لا يحتاج إلى اسم، ولهذا يسهل أن ينسى. ريك، ريك، اسمي ريك. لم يولد بهذا الاسم، بل كان أحدًا آخر في حياةٍ أخرى، لكن هنا والآن اسمه ريك. لقد تذكّر.

وتذكّر الصَّبِيَّانِ أيضًا. يرتدي كلُّ منهما سُترةً من صوف الحملان، رماديّة مفضّضةً وموشاةً بالأزرق الدّاكن. كلاهما مُرافِق، وكلاهما في الثامنة، وكلاهما اسمه والدر فراي. والدر الكبير والدر الصّغير، نعم. ولو أن الكبير هو الصّغير والصّغير هو الكبير، وهو ما يتفكّه به الصَّبِيَّانِ ويُحيرُ بقيّة العالم. بشفتين مشققتين همس: «أعرفكما، أعرف اسميكما».

قال والدر الصّغير: «ستأتي معنا».

وقال والدر الكبير: «حضرة اللورد يُريدك».

اخترقه الخوف كسكين، وفكّر: إنهما طفلان، مجرد صبيّين في الثامنة. مؤكّد أنه يستطيع التعلّب على صبيّين في الثامنة. حتى بضعفه هذا يمكنه أن يأخذ المشعل والمفاتيح والخنجر المغمّد على ورك والدر الصّغير ثم يهرّب. لا، لا، الأمر يبدو سهلاً. إنه فخ. إذا هربتُ فسيأخذ مني إصبعاً آخر، ومزيداً من أسناني.

لقد هرب من قبل... منذ سنواتٍ على ما يبدو، عندما كان لا يزال يتحلّى بشيءٍ من القوّة، عندما كان لا يزال يُبدي التّحدّي. وقتها كانت كايرا تحمل المفاتيح، وقد أخبرته بأنها سرقتها وبأنها تعرف بوّابة خلفيّة لا تُوضع عليها حراسة أبداً، وقالت له متوسّلةً مرتجفةً بوجهٍ ممتنع: «أعدني إلى (ويتترفل) يا سيّدي. لستُ أعرف الطّريق ولا يُمكنني أن أهرب بمفردي. تعال معي أرجوك»، وهكذا ذهب معها. كان السجّان في غيبوبة سُكّر ورأسه في بركةٍ من التّبيد وسراويله حول كاحليه، وباب الزّنازة مفتوحاً والبوّابة الخلفيّة بلا حراسة، تماماً كما قالت. انتظروا حتى غاب القمر وراء سحابة، ثم انسلّوا من القلعة وخاضوا في مياه (النّهر الباكي) متعثرين في الحجارة وقد كاد المجرى الجليدي يُجمّدهما. على الضّفة الأخرى قلّها، وقال لها: «لقد أنقذتنا». أحمق، أحمق.

كان فخاً، لُعبة، دُعابة. اللورد رامزي يحبّ المطاردة ويُفضّل الطّرائد ذات السّاقين. طيلة اللّيل جريا في الغابة المظلمة، لكن مع شروق الشّمس ترامى إليهما عبر الأشجار صوت بوقٍ بعيد، وسمعا نباح قطعٍ من كلاب الصّيد. مع اقتراب الكلاب قال لكايرا: «علينا أن ننفصل. لن يُمكنهم تتبّعنا في أيّ واحد»، إلّا أن الخوف أفقد الفتاة صوابها، ورفضت أن تتركه حتى عندما تعهّد بحشد جيش من الحديديين والعودة من أجلها إذا طاردها هي.

قبل انقضاء السّاعة قبض عليهما. طرحه أحد الكلاب أرضاً، وعصّ آخر كايرا من ساقها وهي تُحاول تسلّق جانب تل، وأحاط بهما باقي القطيع، تنبح كلابه وتزمر وتزوم كلّما تحرّكا، تحتجزهما حتى وصل رامزي سنو مع صيّاده. كان نغلاً ما زال حينئذٍ، لا يحمل اسم بولتون بعد. قال مبتسماً لهما من فوق حصانه: «ها أنتما ذان. لقد جرّحتماني بالفرار هكذا. هل تعبتما من كرم ضيافتي بهذه السّرعة؟». عندها قبضت كايرا على حجرٍ وقذفته به على رأسه، لكنه أخطأه بقدمٍ كامل، وابتسم رامزي قائلاً: «لأبُد من عقابك».

يَذْكُرُ رِيكَ النَّظْرَةَ الْيَائِسَةَ الْمَرْعُوبَةَ فِي عَيْنَيْ كَايِرَا. لَمْ تَبْدُ صَغِيرَةً قَطُّ
كَمَا بَدَتْ لِحَظَّتْهَا، فَتَاءً فِي رِيْعَانِ الصَّبَا، لَكِنَّهُ كَانَ مَكْتُوفَ الْيَدَيْنِ. هِيَ الَّتِي
أَوْصَلْتَهُمْ إِلَيْنَا. لَوْ أَنْفَضَلْنَا فَلرَبْمَا نَجَا أَحَدُنَا.

جَعَلْتِ الذِّكْرَى التَّنْفُسَ صَعْبًا. أَشْأَحَ رِيكَ بِوَجْهِهِ عَنِ الْمَشْعَلِ الْمَتَّقِدِ
وَالدُّمُوعِ تَتَرَقَّرِقُ فِي عَيْنَيْهِ، وَيَأْسُ تَسَاءَلٌ فِي نَفْسِهِ: مَاذَا يُرِيدُ مِنِّي هَذِهِ الْمَرَّةَ؟
لِمَاذَا لَا يَدْعُنِي وَشَأْنِي؟ لِمَ أَفْعَلُ شَيْئًا خَطَأً، لَيْسَ هَذِهِ الْمَرَّةَ. لِمَ لَا يَتْرُكُونِي
فِي الظَّلَامِ؟ لَقَدْ اصْطَادَ جَرْدًا، وَاحِدًا سَمِينًا دَافِتًا يَتَلَوَّى...

سَأَلُ وَالِدَ الصَّغِيرِ: «هَلْ نَغْسَلُهُ؟».

أَجَابَ الْكَبِيرُ: «حَضْرَةُ اللَّورْدِ يَحْبُهُ كَرِيهَ الرَّائِحَةِ. لِهَذَا سَمَّاهُ رِيكَ».

رِيكَ، اسْمِي رِيكَ، عَلَيَّ قَافِيَةٌ رِيكِيكَ. عَلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَ هَذَا. أَخْذِمُ وَأَطْعُ
وَتَذَكَّرُ مِنِّي أَنْتَ وَلَنْ يَمْسُكَ مَزِيدٌ مِنَ الْأَذَى. لَقَدْ وَعَدْتِي، حَضْرَةُ اللَّورْدِ
وَعَدْتِي. حَتَّى إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَاوِمَ فَقَوَاهُ خَائِرَةً، اسْتَنْزَفُوهَا مِنْهُ تَعْدِيًّا وَتَجْوِيْعًا
وَسَلْخًا. حِينَ سَحَبَهُ وَالِدَ الصَّغِيرِ مِنْ يَدِهِ لِيَقِفَ وَلَوْحَ وَالِدِ الْكَبِيرِ بِالْمَشْعَلِ
فِي وَجْهِهِ لَيْسُوهُ مِنَ الزَّنَانَةِ ذَهَبَ مَعَهُمَا بَانْصِيَاعِ الْكَلَابِ، وَلَوْ كَانَ لَهُ ذَيْلٌ
لَدَسَّهَ بَيْنَ قَدَمَيْهِ.

لَوْ كَانَ لِي ذَيْلٌ لَقَطَعَهُ النَّعْلُ. أَتَاهُ الْخَاطِرُ بِلَا دَعْوَةٍ، خَاطِرَ كَرِيهِ خَطِرِ.
حَضْرَةُ اللَّورْدِ لَمْ يَعْذُ نَغْلًا. بُولْتُونُ لَا سَنُو. الْمَلِكُ الصَّبِي الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ
الْحَدِيدِيِّ شَرَعَ لِلَّورْدِ رَامِزِي وَأَعْطَاهُ الْحَقَّ فِي حَمَلِ اسْمِ السَّيِّدِ وَالِدِهِ. عَلَيَّ
رِيكَ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَنْ دَعْوَتَهُ بِسَنُو تُذَكِّرُهُ بِنِغُولَتِهِ وَتُشْعِلُ فِيهِ ثُورَةً سُودَاءَ. وَاسْمُهُ
أَيْضًا، عَلَيْهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ اسْمَهُ. لِأَقْلَ مِنْ لِحَظَّةٍ رَاوَعَ الْأَسْمَ ذَاكِرْتَهُ، وَأُرْعِبَهُ هَذَا
لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ تَعَثَّرَ فِي دَرَجَاتِ الزَّنَانَةِ الْمُنْحَدِرَةِ وَمَزَّقَ سِرَاوِيلَهُ عَلَى الْحَجَرِ
وَجُرِحَتْ سَاقُهُ، وَاضْطَرَّ وَالِدَ الصَّغِيرِ إِلَى التَّلْوِيحِ بِالْمَشْعَلِ فِي وَجْهِهِ لِيَقُومَ
وَيُوَاصِلَ الْحَرَكَةَ.

فِي السَّاحَةِ بِالْخَارِجِ كَانَ اللَّيْلُ يَسِطُ سُلْطَانَهُ عَلَيَّ (مَعْقِلُ الْخَوْفِ)، وَالْبَدْرُ
التَّامُّ يَرْتَفِعُ فَوْقَ سُورِ الْقَلْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ، يُلْقِي نُورَهُ الشَّاحِبَ ظِلَالِ الثَّلَمَاتِ⁽¹⁾
الْمِثْلَةَ الطَّوِيلَةَ عَلَى الْأَرْضِ الْمُتَجَلِّدَةِ لِتَبْدُو كَصَفِّ مِنَ الْأَسْنَانِ السُّودَاءِ

(1) الثَّلْمَةُ هِيَ الْفَرْجَةُ بَيْنَ عَمُودَيْنِ أَوْ شُرَافَتَيْنِ فِي شُرْفَةِ الْحِصْنِ. (الْمُتْرَجِمُ).

الحادة. كان الهواء باردًا رطبًا مفعمًا بانروائح شبه المنسيّة، وقال ريك لنفسه: العالم، هذه هي روائح العالم. لا يدري كم لبث في الزنازين بالأسفل، لكن مؤكّد أن نصف عام على الأقل قد مرّ. أو مُدَّة أطول. ماذا لو أن خمسة أعوام مرّت؟ أو عشرة؟ أو عشرين؟ هل كنت لأدرك ذلك؟ ماذا لو أُنِي فقدتُ عقلي في السّجن وضاع نصف عمري؟ لكن لا، هذا سُخف. لا يُمكن أن مُدَّة كنتك مرّت، فما زال الصّبيّان صبيّين، ولو كانت أعوام عشرة قد مرّت لصارا رجلين بالغين. عليه أن يتذكّر هذا. يجب ألاّ أسمح له بدفعي إلى الجنون. يُمكنه أن يأخذ أصابع يديّ وقدمي، يُمكنه أن يفتقأ عيني ويترّ أذني، ولكن لا يُمكنه أن يسلبني عقلي ما لم أسمح له.

قاد والدر الصّغير الطريق حاملاً المشعل، وتبعه ريك بخنوع ووالدر الكبير وراءه مباشرة. نبحت الكلاب في الوجار مع مرورهم، ودارت دَوّامات الرّيح في أنحاء السّاحة متخلّلة فُماش أسماله القذرة الخفيف وجاعلة القشعريرة تزحف على جلده. هواء اللّيل بارد رطب، لكنه لم ير ثلجًا على الرغم من أن الشّتاء قريب لا ريب. تساءل ريك إن كان سيظل حيًّا ليشهد سقوط الثلج. كم إصبعًا سيبتقى في يديّ؟ وفي قدمي؟ حين رفع يده صدمته رؤية شحوبها ونحولها البالغ. جلد على عظم. إن لي يدي رجل عجوز. أيّمكن أنه مخطئ بشأن الصّبيّين؟ ماذا لو أنهما لسا والدر الصّغير ووالدر الكبير وإنما ابنا الصّبيّين اللذين عرفهما؟

وجد القاعة الكُبرى معتمّة كثيفة الدُّخان. على اليمين واليسار صفوف من المشاعل المتقدّة، تُمسكها أيادٍ بشريّة عظيمة بارزة من الجدران، وعلى مسافة مرتفعة بالأعلى عوارض سوّدها الدُّخان، وسقف مقنطر متوارٍ في الظلال، وقد أفعمت الهواء روائح النّبذ والمزر واللّحم المشوي. قرقر بطن ريك بصوتٍ مسموع، وبدأ لُعابه يسيل.

دفعه والدر الصّغير ليمضي متعثرًا بين الموائد الطويلة حيث جلس رجال الحامية يأكلون، وشعر بنظراتهم الموجهة إليه. أفضل البقاع بالقرب من المنصّة يحتلها رجال رامزي المفضّلون، صبيان النّعل؛ بن بونز العجوز الذي يرضى كلاب صيد حضرة اللورد المحبوبة، وديمون المسمّى ديمون ارقص - لي بشعره الأشقر وملامحه الصّبيانيّة، وجرونت الذي فقد لسانه نتيجة

لاستهتاره في الكلام على مسمع من اللورد روكس، وآلن الفظ، والسلاخ، والقضيب الأصفر. على مسافة أبعد، تحت الملح⁽¹⁾، آخرون يعرفهم ريك شكلاً لا اسماً، حرس شخصيون ورُقباء وجنود وسجّانون ومعذبون. على أن هناك أغراباً أيضاً، وجوهاً لا يعرفها، وقد تقلّصت أنوف بعضهم مع مروره، فيما ضحك آخرون من منظره. فكّر: ضيوف، أصدقاء حضرة اللورد، وقد جيءَ بي لأرْفَهُ عنهم، وارتعدَ جسده خوفاً.

إلى المائدة العالية يجلس نغل بولتون على مقعد السيّد والده ويشرب من كأسه، وقد جاوزه رجلان مسنّان. أدركَ ريك بمجرد النّظر أن كليهما لورد. أحدهما هزيل له عينان قاسيتان ولحية طويلة بيضاء ووجه صلب كصقيع الشتاء، يرتدي سترهً باليةً مهترئةً من جلد الدببة يلوّثها الدهن، وتحتها قميصاً من الحلقات المعدنيّة يبدو أنه لا يخلعه أبداً، حتى على المائدة. اللورد الثاني نحيل أيضاً، لكنه محنيّ القامة في حين أن الأول معتدلها، إحدى كتفيه أعلى كثيراً من الأخرى، وينحني فوق طبقه كعقاب يلتهم جيفةً. عيانه رماديتان جشعتان، وأسنانه صفراء، ولحيته المتشعبة شبّكة من الثلج والفضّة، ولم يبق ملتصقاً بجمجمته المبقعة إلا بضع خُصلٍ شعيرٍ خفيفة، لكن المعطف الذي يرتديه فاخر ناعم، صوفه الرّمادي موشى بفرو السمّور الأسود ومثبت عند الكتف بنجم متفجّر من الفضّة المطرّقة.

يلبس رامزي الأسود والوردي؛ حذاءً أسود، وحزاماً وغمداً أسودين، وسترهً جلديةً سوداء فوق قميصٍ من المخمل الوردي المشرّط بالساتان الأحمر القاني، وفي أذنه اليسرى تلتمع حلية مقصوفة على شكل قطرة دم. لكن على الرغم من فخامة ثيابه يظل رجلاً قبيحاً، كبير العظام محني الكتفين، بدنه ممتلئ نوعاً ويشير إلى البدانة في مرحلة مقبلة من العمر. بشرته متورّدة مبقعة، وأنفه مفلطح، وفمه صغير، وشعره طويل داكن جاف، وشفثاه عريضتان لحيمتان، لكن أول ما يلحظه النَّاس فيه هو عيانه، إذ إن له عيني

(1) على غرار العادة في القرون الوسطى، يوضع الملح في منتصف المائدة، بحيث يجلس كبير القوم وعائلته والضيوف رفيعو المقام فوق الملح، أي في اتجاه رأس المائدة، فيما يجلس الضيوف الأقل شأنًا وغيرهم تحت الملح. (المترجم).

السيد والده الصغيرتين الضيقتين الشاحبتين شحوبًا عجيبيًا. يُسمي الناس درجة اللون هذه «الرَّمادي الشَّبحي»، لكن الحقيقة أن عينيه لا لون لهما تقريبًا، كأنهما رُفَاقتان من الجليد المتسخ.

لدى مرأى ريك ارتسمت ابتسامة على شفتيه المبتلئين، وقال: «ها هو ذا، صديقي القديم الكئيب»، وخاطبَ ضيفه قائلاً: «ريك معي منذ صباي، أهده السيد والدي إليّ كعلامةٍ على حُبِّه».

تبادل اللوردان النظر، وعلّق ذو الكتف المحنيّة: «سمعتُ أن خادمك مات، قيل إن رجال ستارك قتلوه».

قهقهة اللورد رامزي، وقال: «يقول الحديدؤون عسى الميت ألا يموت أبدًا، بل يُبعث من جديد، أقوى وأصلب... مثل ريك. لكن رائحته كالقبر بالفعل، أقرُّ بهذا».

قال ذو الكتف المحنيّة: «رائحته براز وقيء»، وألقى العظمة التي كان يأكل لحمها ومسحَ أصابعه على مفرش المائدة متسائلًا: «أهناك سبب ضروري لابتلائنا به ونحن نأكل؟».

أمعن اللورد الثاني ذو الظهر المستقيم والقميص المعدني النظر إلى ريك بعينه القاسيتين، ثم قال للأول: «انظر ثانية. لقد ابيضَّ شعره وفقدَ نحو ستين رطلًا من وزنه، أجل، لكنه ليس خادمًا. هل نسيت؟».

عاد محنيُّ الكتف يتطلّع إليه، قبل أن يُطلقَ نخيرًا مفاجئًا ويقول: «هو؟! هذا ممكن؟ ريب ستارك. كان يبتسم، دومًا يبتسم».

قال اللورد رامزي: «لم يعد يبتسم بالكثرة نفسها الآن. ربما كسرتُ بعض أسنانه البيضاء النضيدة».

ردّ مرتدي المعدن: «كان حريًا بك أن تشقَّ حلقة الكلب الذي ينقلب على سيده لا يصلح إلا للسُلخ».

قال رامزي: «أوه، لقد سلخَ بالفعل، هنا وهناك».

- «نعم يا سيدي. كنتُ سيئًا يا سيدي، وقحًا و...». لعقَ شفته محاولًا التّفكير في شيءٍ آخر فعله. اخدم وأطع وسيدعك تعيش وتحتفظ بالأعضاء التي تبتقت لك. اخدم وأطع وتذكر اسمك. ريك، ريك، على قافية وشيك. «... سيئًا و...».

خاطبه رامزي قائلاً: «على فمك دم. هل عدت إلى قضم أصابعك يا ريك؟».

- «لا، لا يا سيدي، أقسم لك». حاول ريك أن يقضم إصبع خاتمه مرةً لِيُوقِفَ الألم بعد أن جرّده من جلده. اللورد رامزي لا يقطع إصبع امرئٍ ببساطة، بل يُحبّد سلخه وترك اللحم المكشوف يجف ويتشقق ويتعفن. لقد جلد ريك وجرح ووضِعَ على المِخلعة⁽¹⁾، لكن الألم الذي يتبع السِّلخ لا يُضاهيه ألم. إنه ألم يدفع المرء إلى الجنون، ولا يُحتمل طويلاً. عاجلاً أو آجلاً تصرّخ الضّحية: «أرجوكم، كفى، كفى، أوقفوا الألم، اقطعوه!»، وعندها يمن اللورد رامزي بالقبول. إنها لعبة يلعبانها، وقد تعلّم ريك قواعدها كما تشهد يده وقدماه، لكنه نسي في تلك المرّة الوحيدة وحاول القضاء على الألم بنفسه بواسطة أسنانه، وهو ما أثار استياء اللورد رامزي، وكلفت الإساءة ريك إصبع قدم آخر. غمغم: «أكلتُ جرّداً».

قال رامزي وعيناه الباهتان تلمعان في ضوء المشاعل: «جرّداً؟ كلُّ جرّدان (معقل الخوف) ملك للسيّد والدي. كيف تجرّو على عمل وجبةٍ من أحدها دون إذني؟».

لم يدرِ ريك ماذا يقول، فأطبّق شفّتيه. كلمة واحدة خطأ قد تُكلّفه إصبعاً آخر من قدمه أو يده. حتى الآن فقد إصبعين من يسراه وخنصر يُمناه، ولكن فقط إصبع قدمه اليمنى الصّغير مقابل ثلاثة من اليسرى. أحياناً يقول رامزي مازحاً إنه يُريد أن يُوازِنه. حاول أن يقول لنفسه: سيّدي يمزح فقط. لقد قال لي إنه لا يُريد أن يُؤذيني، إنه يفعل ذلك عندما أعطيه سبباً فقط. سيّده رحيم عطوف، وكان بإمكانه أن يسلخ وجه ريك عقاباً على بعض الأشياء التي قالها قبل أن يتعلّم اسمه السّليم ومنزلته الحقيقيّة.

قال ذو القميص المعدني: «بدأتُ أمل. اقتله وافرغ من الأمر». ملاً اللورد رامزي كأسه بالجوهر قائلاً: «سيّفسد ذلك احتفالنا يا سيّدي. ريك، عندي لك أخبار سارّة. سأتروّج السيّد والدي في الطّريق إليّ بإحدى

(1) المِخلعة آلة تعذيب تعود إلى العصور القديمة، بحيث يُربط الشّخص على لوح خشبي وتُسَدُّ أطرافه بالحبال حتى تتفكك مفاصله وتتمزّق عضلاته. (المترجم).

ابنتي ستارك، آريا ابنة اللورد إدارد. أنت تذكر آريا الصغيرة، أليس كذلك؟». كادَ يقول: آريا المُداسَة، آريا وجه الحصان. أخت روب الصَّغيرة، ذات الشَّعر البني والوجه الطَّويل والقوام الرَّفيع كالعصا. كانت ممتسخةً دائماً. سانزاهي الحسناء. يذكُر وقتنا ظنَّ فيه أن اللورد إدارد ستارك قد يُزوِّجُه سانزا ويَعده ابناً، لكنه كان خيالاً طفولياً لا أكثر. أمَّا آريا... «أذكرها، آريا».

- «ستكون سيِّدة (ويتترفل)، وأنا سيِّدها».

إنها مجرد طفلة. «نعم يا سيِّدي، مبارك».

- «هل ستحضر زفافي يا ريك؟».

تردَّد قبل أن يُجيب: «إذا شئت يا سيِّدي».

- «أوه، هذا ما أشاؤه».

عادَ يتردَّد متسائلاً إن كان هذا فخاً وحشياً، ثم قال: «نعم يا سيِّدي، بعد إذنك، سيكون هذا شرفاً لي»

- «علينا أن نُخرجك من تلك الزَّنازة الكريهة إذن، نُحمِّمك ونُعطيك ثياباً نظيفةً وطعاماً. القليل من الثريد الطَّري اللَّذيد، ما رأيك؟ وربما فطيرة بازلاء باللحم المقدَّد. إن عندي مهمَّةٌ صغيرةٌ لك، وستحتاج إلى استرداد قوتك كي تخدمني بنجاح. أعلمُ أنك تُريد أن تخدمني».

سرت في جسده رعدة وهو يقول: «نعم يا سيِّدي، أكثر من أيِّ شيء. أنا مخلوقك ريك. أرجوك دعني أخدمك، أرجوك».

قال رامزي بولتون: «كيف أرفضُ وقد طلبت بكلِّ أدب؟»، وابتسم مضيئاً: «إنني ذاهب إلى الحرب يا ريك، وستأتي معي لتُساعدني على المجيء بعروسي البكر إلى الدِّيار».



بران

شيء ما في صرخة الغداف جعل القشعريرة تزحف على عموده الفقري، وهو ما دفع بران إلى تكدير نفسه قائلاً: أكاد أكون رجلاً بالغاً. يجب أن أشجع الآن. لكن الهواء عنيف بارد مفعم بالخوف، وحتى سمر نفسه خائف، الفرو على عنقه منفوش عن آخره. على جانب التلّ تمتد الظلال سوداء جوعى، والأشجار كلها ملتوية محنية تحت ثقل الجليد الذي تحمله، بعضها لا يبدو كالأشجار على الإطلاق وقد دفنها الثلج المتجلد من الجذر إلى القمة لتربض على التلّ كالعمالقة، كمخلوقات وحشية مشوهة منكمشة من الريح الجليدية.

قال الجوّال مستلاً سيفه الطويل: «إنهم هنا».

بصوت مكتوم سألته ميرا: «أين؟».

- «علي مقربة. لا أدري. في مكان ما».

عاد الغداف يصرخ، وهمس هودور: «هودور». كان يدس يديه تحت إبطيه، وكنتل الجليد تتدلى من دغل لحيته البني، وشاربه قطعة من المخاط المتجمد تلتمع بالأحمر في ضوء الغروب.

نبههم بران: «الذئاب قريبة أيضاً، الذئاب التي تتبعنا. سمر يشمها متى كنا في اتجاه الريح».

قال ذو اليدين الباردتين: «الذئاب أقل همومنا. يجب أن نتسلق. سيحلّ الظلام قريباً. خير لكم أن تكونوا بالداخل قبل نزول الليل. سيجتذبهم دفتكم»، وألقى نظرة غرباً حيث يلوح ضوء الشمس الغاربة خافتاً من بين الأشجار كوهج نار بعيدة.

سألت ميرا: «أهذا هو المدخل الوحيد؟».

- «الباب الخلفي على بُعد ثلاثة فراسخ شمالاً، وفي قاع هبوط أرضي». ما كان عليه أن يقول غير هذا. حتى هودور لا يستطيع أن ينزل إلى قاع هبوط أرضي بران على ظهره، وفي حالة چوچن فلا فرق بين أن يمشي ثلاثة فراسخ وأن يعدو ألفاً.

رمقت ميرا التلّ أعلاهم قائلةً: «الطريق يبدو سالكاً». غمغم الجوّال بتجهّم: «يبدو. هل تشعرين بهذا البرد؟ ثمة شيء هنا. أين هم؟!».

- «ربما داخل الكهف؟».

أجابها الجوّال: «الكهف محميٌّ بالتّمائم، لا يستطيعون الدّخول»، وأشار بطرف سيفه مردفاً: «يُمكّنكم رؤية المدخل هناك، في منتصف الطريق إلى أعلى بين شجر الويروود، ذلك الصّدع في الصّخر». قال بران: «أراه». كانت الغدّان تطير دخولاً وخروجاً.

وعدّل هودور ثقله قائلاً: «هودور».

قالت ميرا: «لست أرى إلّا طيّة في الصّخر».

- «ثمة ممرٌ هناك، منحدر متعرّج في البداية، نفق عبر الصّخور. إذا بلغتوه فستكونون في أمان».

- «وماذا عنك؟».

- «الكهف محميٌّ بالتّمائم».

تطلّعت ميرا إلى الصّدع في جانب التلّ قائلةً: «بين هنا وهناك ألف ياردة على الأكثر».

فكّر بران: نعم، لكن كلّ تلك الپاردات إلى أعلى. التلّ شديد الانحدار كثيف الشجر. على الرغم من توقّف الثلوج عن السقوط قبل ثلاثة أيام فإن شيئاً منها لم يذّب، وتحت الأشجار الأرض ملتحفة بالأبيض النّظيف المنتظم، وهو ما جعل بران يقول بشجاعة: «انظروا إلى الثلج، لا آثار أقدام». ردّ الجوّال: «المشاة البيض يتحرّكون بخفّة على الثلج. لن تجد آثاراً تدلّ على مرورهم».

هبط غداف من أعلى يحطّ على كتفه. لم يتبّع من الطيور السوداء الكبيرة إلّا دسّته، وقد اختفت البقيّة خلال الطريق، وكلّما استيقظوا فجراً وجدوا عددها أقل. نعى الطائر: «تعالوا، تعالوا، تعالوا!».

قال بران لنفسه: العُرابُ ذو الأعينِ الثلاثِ، النبيُّ الأخضرُ، ثم قال لهم: «المدخل ليس بعيدًا جدًّا. القليل من التسلُّق ثم نصبح آمنين، وقد يُمكننا إشعال نارٍ». كلهم بردان مبتل جائع باستثناء الجوّالِ، وچوچن ريد أضعف من أن يمشي بلا عون.

قالت ميرا ريد: «اذهبوا أنتم»، ومالت على أخيها الجالس مستندًا إلى جذع شجرة سنديان، عيناه مغلقتان ويرتجف بعُنف. القليل المرئي من وجهه تحت قلنسوته ووشاحه عديم اللون كالثلج المحيط بهم، لكن أنفاسه ما زالت تخرُج بضعفٍ من طاقتي أنفه كلِّما زفر. لقد حملته ميرا طيلة النهار. حاول بران أن يُخبر نفسه: الطعام والنار سيردّان إليه عافيته، ولو أنه غير متأكّد من ذلك. كانت ميرا تقول: «لا أستطيع أن أقاتل وأحمل چوچن في آنٍ واحد. هودور، خذ بران إلى الكهف».

صفق هودور قائلاً: «هودور».

قال بران ببؤس: «چوچن محتاج إلى الأكل». مرّ اثنا عشر يومًا منذ انهارت الإلكة للمرّة الثالثة والأخيرة، منذ ركع ذو اليمين الباردتين إلى جوارها فوق كومة الثلج وتمتمّ بصلاة ما بلغة غريبة وهو يشقّ حلقتها. بكى بران كفتاة صغيرة عندما انجست الدماء القانية، ولم يحدث أن شعر بإعاقته كما شعر لحظتها إذ شاهد بعجز ميرا ريد والجوّال يذبحان الدابة الشجاعة التي حملتهما كل هذه المسافة. قال لنفسه إنه لن يأكل، إن الجوع أفضل من التهام لحم صديق، لكنه أكل في النهاية مرّتين، واحدة في جلده والثانية في جلده سمر. على الرغم من هزال الإلكة من جرّاء احتياجها الملح إلى الطعام أقاتتهم شرائح اللحم التي قطعها الجوّال سبعة أيام، إلى أن أتوا على آخرها حول نار في أطلال حصن بدائي قديم.

أيدته ميرا قائلةً وهي تملّس على جبهة أخيها: «نعم، محتاج إلى الأكل، كلنا كذلك، لكن لا طعام هنا. اذهبوا!».

حاول بران أن يحبس دمعته وشعر بها تتجمّد على وجنته، وأمسك ذو اليمين الباردتين ذراع هودور قائلاً: «الصّوء يخبو. إن لم يكونوا هنا الآن فيظهرون قريبًا. هيا بنا».

دون كلمة هذه المرّة نفّس هودور الثلج عن قدميه وخاصّ في الأكوام إلى أعلى وبران على ظهره، وتحرك ذو اليمين الباردتين إلى جوارهما شاهراً

سيفه في يده السَّوداء، وأتى سَمْر وراءهم. الثلج في بعض البقاع أعلى منه، وهو ما يجعل الذئب الرَّهيب الكبير يتوقف لينفضه عن جسمه كلما اخترق القشرة الرقيقة. مع بدئهم الصُّعود التفت بران بعُسر في سلته ليرى ميرا تضع ذراعها تحت أخيها وترفعه ليقف. وزنه ثقيل للغاية عليها. إنها تتصورُ جوعاً وليست قويةً كما كانت. أطقت ميرا على رُمح صيد الصَّفادع بيدها الأخرى غارسةً شعبه الثلاث في الثلج طلباً لمزيد من الارتكاز، وكانت قد بدأت تتسلق التلَّ لتوها وهي تجرُّ أخاها الصَّغير تارةً وتحمله تارةً حين مرَّ هودور بين شجرتين وغبايا عن نظير بران.

اشتدَّ تحدر التلِّ، وتشققت الثلوج تحت حذاء هودور، وفي مرَّة تحرَّكت صخرة تحت قدمه فانزلق إلى الخلف وكاد يسقط إلى أسفل التلِّ، لكن الجوال أمسكه من ذراعه وأنقذه، وقال هودور: «هودور». كل هبة ريح تملأ الهواء بمسحوق أبيض ناعم يبرق كالزجاج في ضوء آخر النهار، وقد راحت الغدبان تُرفرف حولهم، وحلق أحدها إلى الأمام واختفى داخل الكهف. ثمانون ياردة فقط الآن، ليس بعيداً على الإطلاق.

توقف سمر فجأةً عند سفح بقعةٍ ممتدةٍ منحدره من الثلج المنتظم، وتلفت الذئب الرَّهيب برأسه يشمِّم الهواء ثم زمجر، وبقرو منتفش بدأ يتقهقر. قال بران: «هودور، توقف. هودور، انتظر!». ثمَّة خطب ما. سمر شمَّه، وهو أيضاً. شيء سيئ، شيء قريب. «هودور، لا، عد».

كان ذو اليدين الباردتين يواصل التسلق، وأراد هودور أن يجاريه، فدمدم بصوت عالٍ: «هودور، هودور، هودور»، ليطنغي على اعتراض بران، وقد بدأت أنفاسه تنقطع، وملأت غمامة شاحبة الهواء. أخذ خطوةً ثم أخرى في ثلوج مرتفعة حتى الضاصرة تقريباً على المنحدر بالغ الحدة، وقد مال إلى الأمام متمسكاً بالصُّخور والأشجار. خطوةً أخرى، وأخرى، وانزلق الثلج الذي خلخله هودور إلى أسفل بادئاً انهياراً صغيراً وراءهم.

ستون ياردة. لوى بران نفسه إلى الجانب في سبيل نظرةٍ أفضل على الكهف، ثم إنه رأى شيئاً آخر. «نار!». في الصُّدع الصَّغير بين أشجار الويروود وهج متذبذب، ضوء محمر يُناديهم من الظلمة المتوغلة. «انظروا، أحدهم...».

وصرخ هودور، وتلوى، وتعثر، وسقط.

شعرَ بران بالعالم ينزلت إلى الجانب إذ دارَ عامل الاسطبل الكبير بعُنف،
وأفرغت رجةً صادمة ما في صدره من هواء. كان فمه مليئًا بالدم، وهودور
يتلوى ويتدحرج ساحقًا الصبي المُقعد تحته.

شيء ما أمسك ساقه. لأقل من لحظة ظنَّه بران جذرًا اشتبك حول كاحله...
إلى أن تحرك الجذر، ثم رأى اليد إذ انبثقت الجثة الحية من تحت الثلج.
أخذ هودور يُكيّل للشيء الركلات، يضربه بكعبه في وجهه مباشرة، ولم
يبدُ على الرجل الميت أنه شعرَ بشيءٍ منها، ثم اشتبك الاثنان باللكمات
والخمش وهما ينزلقان إلى أسفل. ملأ الثلج فم بران وأنفه إذ تدحرجوا،
لكن خلال لحظةٍ أو أقل انقلب على ظهره، وارتطم شيء ما برأسه، صخرة
أو كتلة جليد أو قبضة رجل ميت، لا يدري، ووجد نفسه ملقى خارج سلته
على جانب التل، ييصق الثلج ويده المقفزة تقبض على الشعر الذي مزقه من
رأس هودور.

من كل اتجاهٍ حولهم كانت الجثث الحية تنهض من تحت الثلج.
اثنان، ثلاثة، أربعة. أكثر من أن يُحصيهم بران. هبَّ الموتى واقفين وسط
سُحب الثلج التي تفجرت فجأة، بعضهم يرتدي المعاطف السوداء وبعضهم
الجلود البالية وبعضهم لا شيء، وكلهم شاحب البشرة أسود اليمين، وتقد
أعينهم كنجوم زرقاء باهتة.

انقضَّ ثلاثة منهم على الجوّال، ورأى بران ذا اليمين الباردتين يهوي
بسيفه على وجه أحدهم، لكن الشيء ظل يُهاجمه دافعًا إياه بين ذراعي آخر،
في حين تحرك اثنان آخران نحو هودور نازلين المنحدر بخطى خرقاء. أدرك
بران بفزع عاجز أشعره بالغثيان أن ميرا ستصعد لتجد نفسها في قلب ما
يحدث، فذق على الثلج بقبضته وصاح منذرًا.
ثم أطبق عليه شيء.

وعندئذ تحولت صيحته إلى صرخة. ملأ بران قبضته بالثلج وقذفه، لكن
عينًا لم تطرف للجثة الحية، وامتدت يد سوداء إلى وجهه وأخرى إلى بطنه،
وشعر بأصابعها صلبة كالحديد. سيتنزِع أحشائي من بطني.
لكن بغتة كان سمر بينهما. لمح بران جلدًا يتمزق كالقماش الرخيص،
وسمع عظمًا ينكسر، ورأى يداً ورُسعًا ينفصلان عن ذراعهما وأصابع تتلوى
وكُمًا من الخيش الأسود الباهت. أسود، يرتدي الأسود. كان من حرس

اللَّيْلِ. طَوَّحَ سَمْرَ بالسَّاعِدِ والتوى غارسًا أسنانه في عُنُقِ الرَّجْلِ المِيتِ تحت
ذقنه، وحين انترعها الذُّبَّ الرَّمَادِي الكَبِيرَ مَزَّقَ معظمَ حَلْقِ الكائِنِ فِي انفِجَارِ
مِنَ اللَّحْمِ الشَّاحِبِ العَفِينِ.

كانت اليد المقطوعة لا تزال تتحرَّك، فتدحرج بران مبتعدًا عنها، وعلى
بطنه أبصرَ الأشجارَ بالأعلى شاحبةً مكسوةً بالثلج، وبينها الوهج البرتقالي.
خمسون ياردةً. إذا استطاعَ جرَّ نفسه خمسين ياردةً فلن يستطيع الموتى
الوصول إليه. تخلَّلَ البللُ قُفَازِيهَ إِذْ تشبَّثَ بالجذورِ والصُّخُورِ زاحفًا نحو
الصُّوءِ، وقال لنفسه: لم يبقَ الكثير، لم يبقَ الكثير، ثم يُمكنك أن تستريح عند
النَّارِ.

كان شُعاعُ الصُّوءِ الأخيرِ قد اختفى بين الأشجارِ وحلَّ اللَّيْلِ. يُسَدِّدُ ذُو
اليدَيْنِ الباردَتَيْنِ ضرباته وطعناته إلى دائرة الموتى المحيطين به، ويُطبق
سَمْرَ بأسنانه على وجه الجثة التي أسقطها، ولا أحد ملتفت إلى بران الذي
واصلَ الزَّحفَ إلى أعلى جازًا ساقِيهَ العاطلَتَيْنِ وراءه. إذا استطعتُ بلوغَ هذا
الكهف...

ومن مكانٍ ما بالأَسفلِ أتى الأَينِ: «هوودودور».
وعلى حين غرَّةٍ لم يعد بران الصَّبي المَكسُورَ الرَّاحِفَ على الثَّلجِ، على
حين غرَّةٍ أصبحَ هودودور بالأَسفلِ فِي مَنْتَصَفِ الطَّرِيقِ إلى السَّفْحِ، والجثة
الحَيَّةُ تُحاوِلُ فَمًا عَيْنِيه. هادِرًا، هبَّ يقف وألقى الشَّيْءَ بَعْنِفِ إلى الجانِبِ،
فسقطَ على رُكْبَتِهِ وبدأ ينهض من جديد، واستل بران سيف هودودور الطَّويلِ
من حزامه. فِي الأَعْماقِ لم ينقطع أنين هودودور المسكين عن سمعه، لكنه من
الخارج سبعة أقدام من الغضب وفي يده الحديد القديم. رَفَعَ السَّيْفَ وهوى
به على الرَّجْلِ المِيتِ، وخارَ إِذْ شَقَّ النَّصْلَ الصُّوفِ المَبْتَلِ وحلقات المعدن
الصَّدئة والجِلْدِ المَتَعَفِنِ وانغرسَ عَمِيقًا فِي اللَّحْمِ والعَظْمِ. جَارَ: «هودودور!»،
وبضربة ثانية من سيفه بترَ رأسَ الجثة من العُنُقِ، وللحظةٍ أو دونها أفعَمَتَه
النَّشوة... إلى أن امتدَّتْ يَدانِ مِيتَتانِ بلا رُؤْيِيَةٍ إلى عُنُقِهِ.

ترجع بران نازفًا، وكانت ميرا ريد هناك، تُغمد رُمحها في ظَهْرِ الجثة
الحَيَّةِ. عادَ بران بجارٍ مشيرًا لها نحو أعلى التَّلِّ: «هودودور، هودودور، هودودور!».
كان چوچن يتلوَّى بوهن حيث مدَّته، فذهب إليه بران وأسقطَ السَّيْفَ الطَّويلِ
ورفعَ الصَّبي بذرَاعِي هودودور ونهضَ مسرعًا يهدر: «هودودور!».

قَادَت ميرا الطَّرِيقَ إِلَى أَعْلَى التَّلِّ طَاعِنَةً الموتى بِرُوحِهَا إِذَا دنوا. هذه الأشياء غير قابلةٍ للأذى، لكنها بطيئةٌ خرقاء. مع كلِّ خُطوةٍ قال هودور: «هودور، هودور، هودور»، وتساءل كيف ستكون ردّة فعل ميرا إذا قال لها فجأةً إنه يحُبُّها.

بالأعلى فوقهم كانت أجساد مشتعلة ترُقُص في الثلج. الجُثث الحيّة، أحدهم أشعل فيها النّار.

كان سَمَرٌ يُزْمِجُ ويَعْضُّ الهواء وهو يدور حول أقربها، خراب رجل تُغلفه دَوَامات اللَّهب، ففكّر بران: لا ينبغي أن يقترب منه هكذا. ماذا يفعل؟ ثم إنه رأى نفسه ملقى على وجهه في الثلج، وأدرك أن سَمَرٌ يُحاول إبعاد الشيء عنه. تساءل الصَّبِي: ماذا سيحدّث إذا قتلتني؟ هل سأتبقى هودور إلى الأبد؟ هل سأعودُ إلى داخل سَمَرٍ؟ أم سأموتُ فحسب؟

تحرك العالم على نحوٍ مدوّخٍ من حوله. الأشجار البيضاء، والسّماء السوداء، واللّهب الأحمر، كل شيء يلف، يتحوّل، يدور. أحسّ بنفسه يتعثر، وسمع هودور يصرخ: «هودور هودور هودور هودور. هودور هودور هودور هودور. هودور هودور هودور هودور هودور». كانت سحابة من الغدقان تنصبُّ من الكهف، ورأى فتاةً صغيرةً تحمل مشعلًا وتندفع هنا وهناك كالسّمهم. لهنيهة حسبها أخته آريا... وهذا جنون، لأنه يعلم أن أخته الصّغيرة تبعد ألف فرسخ، أو مائة. لكن ها هي ذي تدور حول نفسها، مخلوقة نحيلة ضارية مهترئة الثياب شعرها متلبّد.

ترقرقت الدّموع في مُقلتي هودور وتجمّدت في مكانها.

ثم انقلب كل شيء من الدّاخِل إلى الخارج ومن أعلى إلى أسفل، وألغى بران نفسه في جسده مجدّدًا، شبه مدفون في الثلج، تقف الجثة الحيّة المحترقة فوقه طويلةً تحت الأشجار في أكفانها الثلجيّة. رأى بران أنها إحدى الجُثث العارية، وفي اللّحظة التّالية نفّضت أقرب شجرةٍ إليه الثلج الذي يُعطّيها وألقته كلّهُ على رأسه.

ثم إذا به ممدّدًا على طبقةٍ من إبر الصّنوبر تحت سقفٍ حجري مظلم. الكهف، أنا في الكهف. ما زال في فمه مذاق الدّم بعد أن عضّ لسانه، لكن إلى يمينه نار موقدة تغسل حرارتها وجهه، وفي حياته كلّها لم يشعُر بشيء بهذا الجمال. كان سَمَرٌ هناك يتشَمّم الهواء حوله، وهودور المبتل عن آخره،

وقد وسّدت ميرا رأس چو چن حجرها، ووقف الشّيء الذي حسبه آريا فوقهم ممسكًا المشعل.

قال بران: «الثلج سقط عليّ ودفنني».

قالت ميرا: «أخفاك، ثم أخرجتك منه»، وأشارت برأسها إلى الفتاة مضيفةً: «لكنها هي التي أنقذتنا. المشعل... النار تقتلهم».

- «النار تحرقهم، النار جائعة دومًا».

ليس صوت آريا، أو أيّ طفلة، بل صوت امرأة عالٍ عذب، فيه موسيقى عجيبة لم يسمع لها نظيرًا وحُزن كاد يكسر قلبه. زرّ بران عينيه ليراها أفضل. إنها فتاة بالفعل، لكن أصغر حجمًا من آريا، بشرتها رقطاء كأنثى الطّبي تحت معطفٍ من أوراق الشّجر، وعيناها غريبتان؛ كبيرتان مائعتان، خضراوان وذهيّتان، مشقوقتان طويلًا كأعين القطط. لا أحد له هاتان العينان. شعرها شبكة من البني والأحمر والذهبي، ألوان الخريف، مجدولة فيه كروم وغصون وزهور ذابلة.

سألته ميرا ريد: «من أنتِ؟».

عرف بران الإجابة، فجاوبها: «إنها طفلة، طفلة من أطفال الغابة». قالها وارتجفَ عجبًا وبردًا في آنٍ واحد. لقد سقطوا في واحدةٍ من حكايات العجوز نان.

قالت المرأة الصّغيرة: «البشر الأوائل دعونا بالأطفال، والعمالقة بـ«ووه داك ناج جران»، أي شعب السّناجب، لأننا كنا صغارًا وسريعين ومولعين بالأشجار، لكننا لسنا سناجب أو أطفالًا. اسمنا في اللغة الحقّة يعني «الذين يترنّمون بأغنية الأرض». قبل أن يُلفظ حرف واحد من لغتكم القديمة كنا نُغني أغانينا طوال عشرة آلاف عام».

قالت ميرا: «لكنك تتكلّمين العاميّة».

- «من أجله، الصّبي بران. لقد وُلِدْتُ في زمان التّنين، وطيلة متّي عام جبتُ عالم البشر كي أشاهد وأسمع وأتعلّم. كان يُمكنني أن أطلّ أجوبه حتى الآن، لكن ساقِي الكمتاني وأتعبني قلبي، فعدتُ إلى الدّيار».

ردّدت ميرا: «طيلة متّي عام؟».

ابتسمت الطفلة قائلةً: «البشر هم الأطفال».

سألها بران: «ألك اسم؟».

أجابت: «حين أحتاج إلى واحد»، ولوّحت بالمشعل صوب الشَّقِّ الأسود في جدار الكهف الخلفي مستطرّدة: «طريقنا إلى أسفل. يجب أن تأتوا معي الآن».

عادَ بران يرتعش، وقال: «الجوّال...».

- «لا يُمكنه أن يأتي».

- «سيقتُلونه».

- «لا، لقد قتلوه منذ زمن طويل. هيا الآن. الجوّ أكثر دفئًا في الأعماق، ولن يؤذيك أحد. إنه ينتظرك».

سألتهاميرا: «العُراب ذو الأعين الثلاث؟».

قالت: «النبي الأخضر»، ودون كلمةٍ أخرى تحرّكت، فلم يجدوا خيارًا إلاّ الدّهَاب في أعقابها.

ساعدت ميرا بران علي الرُّكوب على ظهر هودور، وإن كانت سلّته شبه مسحوفة ومبتلة بالثلج الذائب، ثم طوّقت أحاها بذراعها وأسندته إلى كتفها معاونة إياه على القيام. انفتحت عينا چوچن، وقال: «ماذا؟ ميرا؟ أين نحن؟»، ثم رأى النّار فابتسم قائلاً: «رأيتُ حُلماً في غابة الغرابة».

كان الطّريق ضيقاً متعرّجاً وواطئاً لدرجة أن هودور سرعان ما اضطرَّ إلى المشي مقرّضاً، وحنى بران رأسه قدر المستطاع، لكن علي الرغم من هذا احتكّت قَمّة رأسه بالسَّقْف. تفتّتت التربة المخلخلة مع كل لمسةٍ وتساقط الثّرى في عينيه وعلى شعره، وفي مرّة ارتطمت جبهته بجذر أبيض سميك نابت من جدار النّفق، منه تتدلّى المَحالِق وبين أصابعه شباك العناكب.

تقدّمهم الطّفلة حاملة المشعل، يهمس معطف أوراق الشّجر الذي ترتديه من ورائها، لكن الممرّ ظلّ يلتوي وينحني ولم يمض وقت طويل قبل غيابها عن عيني بران، ثم لم يَعد هناك ضوء إلاّ ذلك المنعكس على الحوائط. بعد أن قطعوا مسافةً قصيرةً تفرّغ الكهف، غير أن الفرع الأيسر بقي غارقاً في ظلام دامس، فعلم هودور -على الرغم من كل شيء- أن يتبع المشعل المتحرّك في الفرع الأيمن.

جعلت الطّريقة التي تتحرّك بها الظلال حوائط الكهف تبدو كأنها تتحرّك بدورها. رأى بران ثعابين بيضاء هائلة تسعى داخله التربة وخارجة منها من حوله، ودق قلبه في صدره بعنف. تساءل إن كانوا قد خطوا سهواً إلى جحرٍ

لثعابين اللبّان⁽¹⁾ أو ديدان القبور العملاقة، كلّها شاحب طريّ رخو. ديدان القبور لها أسنان.

هودور أيضًا رآها، وأنّ قائلاً: «هودور». تردّد في التّقدّم، لكن عندما توقّفت الطّفلة الفتاة ليلحقوا بها ثبت ضوء المشعل، وأدرك بران أن الثّعابين ليست إلّا جذورًا بيضاء كالذي اصطدم به رأسه، فقال: «إنها جذور ويروود. هل تذكر شجرة القلوب في أيكة الآلهة يا هودور؟ الشّجرة البيضاء ذات الأوراق الحمراء؟ لن تؤذيك شجرة».

قال هودور: «هودور»، وتقدّم مسرعًا وراء الفتاة ومشعلها متوغّلًا أكثر في باطن الأرض. مروا بفرع آخر، ثم آخر، ثم وجدوا أنفسهم في مغارة فسيحة تُعادل قاعة (ويتترفل) الكُبرى في المساحة، من سقفها تتدلى أسنان حجريّة ومن أرضيّتها يبرز المزيد. أشارت لهم الطّفلة ذات المعطف المورق نحو الطّريق، وبين الحين والآخر توقّفت لتلوّح لهم بصبرٍ نافذ بالمشعل الذي بدا كأنه يُخاطبهم قائلاً: من هنا، من هنا، من هنا، أسر عوا.

بعدها رأوا مزيدًا من الممرّات الجانيبة والحجرات، وسمع بران مياهًا تتقاطر من مكان ما إلى يمينه، فلمّا نظر رأى أعينًا أخرى ترمقه، أعينًا مشقوقةً طويلًا تلتصق عاكسة ضوء المشعل. قال لنفسه: المزيد من الأطفال. ليست الفتاة الوحيدة، لكنه تذكر حكاية العجوز نان عن أطفال جرنيل أيضًا.

الجذور في كلّ مكان، ملتوية عبر التربة والحجارة، تسدّ بعض الممرّات وتحمل سقوف بعضها. أدرك بران فجأة أن الألوان كلّها غابت، أن العالم تُربة سوداء وخشب أبيض. لشجرة القلوب في (ويتترفل) جذور سميكة كساق عملاق، لكن هذه تفوقها سُمكًا، ولم يرَ بران كل هذه الأعداد من قبل قطّ. مؤكّد أن هناك بستانًا كاملاً من شجر الويروود فوقنا.

ابتعد الضوء ثانية. على الرغم من حجمها الصّغير فالطّفلة التي ليست طفلة تتحرّك بسرعة عندما تشاء، وإذ تقدّم هودور وراءها يدقّ الأرض انسحق شيء ما تحت قدميه، ليتوقّف فجأة وتكاد ميرا وچوجن يرتطمان بظّهره. قال بران: «عظام، إنها عظام». أرضية الممرّ مكسوة بعظام الطيور

(1) ثعبان اللبّان زاحف حقيقي، لكن في عالم الواقع له لون رمادي أو بني فاتح ويُقع صفراء على جانبيه، يتغلّى على الجردان، واكتسب اسمه من اعتقاد شائع مغلوط بأنه يحلب الأبقار ويشرب لبنها. (المترجم).

والحيوانات، لكن هناك عظامًا أخرى أيضًا، عظامًا كبيرةً أتت لا شك من عمالقة، وعظامًا صغيرةً محتملًا أنها لأطفال. على جانبيهم، في كَوَاتٍ محفورة في الحجر، جماجم تتطلع إليهم، ورأى بران جمجمة دُبٍّ وجمجمة ذئبٍ ونصف دسْتةٍ من جماجم البَشَر ونحو مثلها من جماجم العمالقة، أمَّا باقي الجماجم جميعًا فصغير عَجيب التَّكوين. أطفال الغابة. كلها بلا استثناءٍ تنمو الجذور فيه وحوله وعبره، وفوق بعضها غِدفان جائمة تُشاهدهم يمرُّون بأعينٍ سوداء لامةة.

كانت المرحلة الأخيرة من رحلتهم الأشدَّ اندحارًا. نزلَ هودور الجزء الأخير على مؤخَّرته، يهتزُّ وينزلق إلى أسفل وسط فوضى من العظام المكسورة والتُّربة المخلخلة والحصى، وانظرتهم الطُّفلة الفتاة واقفةً على طرف جسرٍ طبيعيٍ يمتدُّ فوق هاويةٍ تفرغ فاها. من الظلمة بالأسفل تنأى إلى مسامع بران خريير مياهٍ جارئة، ففكَّر: نهر جوفي.

سألَ بران فيما انزلقَ الأخوان ريد نازلين من خلفه: «هل يجب أن نعبُر؟». هالته الفكرة. إذا انزلقَ هودور على هذا الجسر الضيق فسيسقطان ويسقطان. أجابت الفتاة: «لا أيها الصَّبي. وراءك»، ورفعت مشعلها أعلى فبدا كأن الضوء يتبدَّل ويتغيَّر، في لحظةٍ توقَّد اللَّهب بالبرتقالي والأصفر مالئًا الكهف بوهج محمر، ثم بهتت الألوان كلها تاركةً الأسود والأبيض وحدهما. من ورائهما شهقت ميرا، والتفت هودور.

وأمامهم كان اللورد الشاحب جالسًا بثياب سوداء فاخرة يحلم في عَشِّ من الجذور المتشابكة، على عرش من خشب الـويرود المجدول يحتوي أطرافه الدَّابلة كما تحتوي الأمُّ صغيرها.

جسده عظميٌّ للغاية وثيابه بالية للغاية حتى إن بران حسبه في البدء جثةً أخرى، رجلًا ميتًا أجلسوه في هذا الوضع منذ زمن طويل جدًا لدرجة أن الجذور نمت عليه وحوله وعبره. ما يبدو من بشرة اللورد الجثة أبيض، باستثناء بقعةٍ دائمةٍ ترحف من على عنقه إلى وجنته، وشعره الأبيض ناعم خفيف كمحالق الجذور وطويل مسترسل يلمس الأرض. حول ساقيه تلتف الجذور كأفَاع من خشب، يخترق أحدها سراويله إلى لحم فخذة اليابس ليخرِّج من كتفه، ومن جمجمته ينبت عُصيين من الأوراق الحمراء القانية، ويُرفَع عيش الغُراب الرَّمادي جبهته. تبقى له القليل من الجلد الأبيض

المشدود على وجهه، لكنه متهتك، وهنا وهناك يلوح العظم البني والأصفر الذي تحته.

سمع بران نفسه يسأل: «أأنت الغراب ذو الأعين الثلاث؟». المفترض أن تكون للغراب ذي الأعين الثلاث ثلاث أعين، لكن له واحدة فقط، واحدة حمراء. شعر بران بالعين تُحدّق إليه ملتمة كبركة من الدّم في ضوء المشعل، وحيث يُفترض أن تكون العين الثانية ينبت جذر أبيض رفيع من المحجر الفارغ نازلاً على وجنته وداخلاً من عنقه.

- «غراب...؟». كان صوت اللورد الشّاحب جافاً، وتحركت شفّته ببطء كأنه نسي كيف يُكوّن الكلمات. «في الماضي، نعم. أسود الملبس وأسود الدّماء». الثّياب التي يرتديها بالية باهتة رقعّتها الطّحالب وأكلها الدّود، لكنها كانت سوداء من قبل. «كنتُ أشياء كثيرةً يا بران. الآن أنا كما تراني، والآن تفهم لِمَ لم أستطع أن أذهب إليك بنفسي... إلّا في الأحلام. لقد راقبتك زمناً طويلاً، راقبتك بألف عين وعين. رأيتُ ميلادك وميلاد السيّد والدك من قبلك، رأيتُ خُطوتك الأولى وسمعتُ كلمتك الأولى وكنتُ جزءاً من حُلمك الأول، ورأيتك حين سقطت. والآن ها قد جئتني أخيراً يا براندون ستارك، ولو أن الوقت تأخّر».

قال بران: «أنا هنا، لكنني مكسور. هل... هل ستُصلحني... أعني تُصلح ساقِي؟».

أجاب اللورد الشّاحب: «لا، ليس ذلك في مقدوري». ملأت الدّموع عيني بران، وقال لنفسه: قطعنا مسافةً طويلةً للغاية. تردّدت أصداء مياه النّهر الأسود على جدران الكهف، ووعده اللورد الشّاحب قائلاً: «لن تمشي ثانيةً أبداً يا بران، لكنك ستطير».



تيريون

لفترة طويلة لم يتحرك، بل تمدد ساكنًا على كومة الأجوالة القديمة التي يتخذها فراشًا، يصغي إلى الرياح تتلاعب بالحبال ومياه النهر تعلق بدن القارب.

فوق الشراع يطفو البدر التام. يتبعني عبر النهر، يرأقني كعين عظمة. على الرغم من دفء الجلود الزنخة التي تغطي الرجل الصغير سرت في جسده رعشة. أحتاج إلى كوب نبيذ، إلى دسنة من الأكواب. لكن أسهل أن يغمز له القمر من أن يتركه ابن العاهرة جريف يطفئ ظمأه. بدلًا من ذلك يشرب الماء، ومحكوم عليه بليال من الشهاد وأنهر من العرق والرّجفة.

اعتدل القزم جالسًا برأس مؤسد بين يديه. هل حلمت؟ كل ما يذكره من الحلم تلاشى. لم يترقق الليل بتيريون لانستر قط، وحتى على الأسرة الوثيرة نومه سيئ. على متن (العذراء الخجول) يفترش سطح القمرة ويتخذ لفة من الحبال القنب وسادة. يحب النوم هنا أكثر من مخزن القارب الضيق، فالهواء أصفى وأصوات النهر أعذب من غطيط البطّة. غير أن هذه المباحج لا تأتي بلا ثمن، فالسطح صلب، وهو ما يجعله يصحو متيسسًا موجهًا تعاني ساقاه التشنج والألم.

كلتاها تنبض ألمًا الآن وقد تخشبت ربلتاها، فراح يُدلكهما بأصابعه محاولًا إراحتهما بعض الشيء، لكن لمّا وقف ظلّ الألم كفيلاً بجعل قسمات وجهه تلتوي. أريد أن أستحمّ. رائحة ثياب الصّبيان التي يرتديها كريهة، ورائحته أيضًا. الآخرون يستحمّون في النهر، إلا أنه لم يحذّ حذوهم بعد، فبعض السّلاحف التي رآها في المياه الصّحلة كبير الحجم بما فيه الكفاية

لفلقه نصفين بأسنانه، تلك التي يُسمِّيها البطة كَسَّارة العظم. ثم إنه لا يُريد أن تراه ليمور عارياً.

يقود سُلَّم خشبي إلى أسفل من سطح القمرة. انتعلَ تيريون حذاءه ونزلَ إلى مؤخِّرة القارب، حيث يجلس جريف ملتفًا بمعطفٍ من فرو الدُّنَّاب أمام مستوقِدٍ حديدي. يتولَّى المرتزق الحراسة اللَّيلية بنفسه، فيستيقظ عندما تخذلُ بقية رفقته إلى النَّوم وينام عندما تطلُّ الشَّمس من مشرقها.

أفعى تيريون فُبالته يُدْفَى يديه فوق الفحم وغناء العنادل يتردَّد عبر الماء . قال لجريف: «النَّهار قريب».

- «ليس قريباً كفاية. يجب أن نتحرَّك». لو كان الأمر بيد جريف لوصلت (العذراء الخجول) الملاحه طيلة اللَّيل علاوةً على النَّهار، لكن ياندرى ويسيلا رفضا المخاطرة بقاربهما في الظَّلام، ذلك أن أعالي (الروين) ملأى بأجذال الأشجار والفروع الغارقة، ومن شأن أيِّ منها أن يُمزقَ بدن القارب. لم يُرد جريف أن يسمع أعداءاً، ما يُريده هو (فولانتيس).

لا تكفُّ عينا المرتزق عن الحركة أبداً، دائماً تبحثان عن... ماذا؟ القراصنة؟ المتحجِّرين؟ صيَّادي العبيد؟ يعلم القزم أن للنَّهر مخاطره، لكن جريف نفسه يُوحى لتيريون بأنه أخطر من أيِّ منها. يُذكِّره الرَّجل برون، لكن برون يتمتَّع بحسِّ فُكاهة المرتزقة الأسود، أمَّا جريف فلا يعرف معنى الفُكاهة من الأصل.

غمغمَ تيريون: «يُمكنني أن أقتل في سبيل كوب نبيذ».

لم يردَّ جريف، وإن قالت له عيناها الباهتتان: ستموت قبل أن تشرب. في ليلته الأولى على متن (العذراء الخجول) شربَ تيريون حتى العمى، وفي اليوم التَّالي استيقظَ وفي دماغه تنانين تتصارع. ألقى عليه جريف نظرةً واحدةً وهو يتقيأ من فوق حاجز القارب، وأخبره: «لن تشرب بعد الآن».

قال تيريون معترضاً: «النَّبِيذ يُساعدني على النَّوم»، وكان ليقول: النَّبيذ يُعرق أحلامي.

فردَّ جريف بصرامة: «ابقَ مستيقظاً إذن».

إلى الشَّرق بدأ أول ضوء النَّهار الشَّاحب ينتشر في السَّماء فوق النَّهر، وعلى

مهل تحوّلت مياه (الروين) من الأسود إلى الأزرق مضاهيةً شعر المرتزق ولحيته. نهض جريف قائلاً: «سيتيقظ الآخرون قريباً. تولّ المراقبة».

صمّت العنادل لكن طيور القُبرة النّهريّة استأنفت أغنيّتها، وخاضت طيور أبي قردان وسط أحراج القصب تاركةً آثار أقدامها على الحواجز الرّمليّة. في السّماء توهّجت السُّحب بالوردي والأرجواني والكستنائي والذهبي واللؤلؤي والزّعفراني، وقد بدت إحداها كتّين. ذات مرّة كتب أحدهم: إذا رأى المرء تيناً محلّقاً فليبق في داره ويعنى بحديقته راضياً، ففي هذا العالم الرّحب ما من أعجوبةٍ أعظم. حكّ تيريون عاهته محاولاً تذكّر اسم المؤلّف. في الفترة الأخيرة تشغل التّنانين حيّزاً كبيراً من باله.

- «صباح الخير يا هيو جور». كانت السّپتة ليمور قد خرجت مرتدية ثوبها المربوط عند الخصر بحزام مجدول من سبعة ألوان، ينسدل شعرها طليقاً على كتفيها. «كيف كان نومك؟».

- «متقطّعاً يا سيّدتي الكريمة. لقد حلمتُ بكِ ثانيةً». حلّم يقظّة. لم يستطع القزم النّوم، فمدّ يده بين ساقيه وتخيل السّپتة تعتليه بنهدين يتوّبان.

- «كان حلّمًا شرّيراً لا ريب. أنت رجل شرّير. هلاً صليتّ معي وطلبت المغفرة لذنوبك؟».

بشرط أن نُصليّ على نسق أهل (جُز الصّيف). «لا، لكن أعطي (العذراء) قُبلةً طويلةً حلوةً مني».

صاحكةً، ذهبّت السّپتة إلى مقدّمة القارب استعداداً لحمّامها الصّباحي المعتاد في النّهر، وبينما خلعت ثوبها نادى تيريون: «واضح أنّهم لم يُسمّوا هذا القارب تيمناً بك».

- «(الأب) و(الأم) خلقانا على صورتها يا هيو جور. يجدر بنا أن نفتخر بأجسادنا، فهي من صنع الآلهة».

مؤكّد إذن أن الآلهة كانت ثملةً لمّا جاء دوري. شاهد القزم ليمور تنزل في الماء، وهو المنظر الذي يُثيره دوماً. ثمّة شيء ما شرّير - وإنما على نحوٍ رائع - في فكرة خلع هذا الثّوب الأبيض المحتشم عن السّپتة وفتح ساقها. إفساد البراءة... ولو أن ليمور ليست بريئةً كما تبدو على الإطلاق، فعلى بطنها علامات شدّت تنمّ فقط عن وضعها طفلاً من قبل.

استيقظَ ياندرى ويسىلا مع شروق الشَّمس وبدأ يقومان بأعمالهما. بين الحين والآخر اختلس ياندرى نظرةً إلى السَّيِّتة ليمور وهو يتفقدُ الجبال، غير أن زوجته السَّمراء صغيرة الحجم يسىلا لم تلاحظ، وقد انشغلت بإطعام بعض رقائق الخشب للمستوقد على السَّطح الخلفي وقلَّبت الفحم بنصلٍ مسود، ثم بدأت تعجن بسكويت الصَّباح.

حين صعدت ليمور إلى السَّطح من جديدٍ تلذذت بيريون بمشهد الماء السائل بين ثدييها وألق بشرتها البضَّة الذهبي في ضوء الصُّبح. تعدَّت الأربعين، إلى الحُسن أقرب من روعة الجَمال، لكن لا شكَّ أنها تسرُّ العين. قال لنفسه حازمًا أمره: الشَّقُّ أفضل شيءٍ بعد الشُّكر. وهو ما يُشعره بأنه لا يزال حيًّا. سألته السَّيِّتة نافضةً الماء من شعرها: «هل رأيت السُّلحفاة يا هيو جور؟ ذات الظَّهر المحدَّب؟».

الصَّباح الباكر أمثل وقتٍ لرؤية السِّلاحف. خلال النِّهار تغوص في الأعماق أو تختفي في الأخاديد على الصُّفاف، لكنها تصعد إلى السَّطح قُرب شروق الشَّمس، وتروق بعضها السِّباحة إلى جوار القارب. رأى تيريون أنواعًا عديدةً منها؛ سلاحف كبيرةً وصغيرةً، وسلاحف مسطَّحة الظَّهر وسلاحف حمراء الأذنين، وسلاحف لدنة الصِّدف وكسَّارة عظم، وسلاحف بنيةٌ وخضراء وسوداء، وسلاحف ذات مخالب وسلاحف ذات قرون، وسلاحف أصدافها المحدَّبة المزركشة مغطَّاة بدواماتٍ من الذهب واليَسْب والقشدة. بعضها كبير الحجم لدرجةٍ تُمكنه من حمل رجل على ظهره، وقد أكَّد ياندرى أن أمراء الروينار اعتادوا ركوبها عبر النِّهر بالفعل. هو وزوجته من مواليد (الدِّم الأخضر)، زوجان من الأيتام الدورنيين عادا إلى وطنهما في (الأم روين).

- «فاتنتي السُّلحفاة». كنتُ أشاهدُ المرأة العارِية.
قالت ليمور: «أحزنتني»، وارتدت ثوبها مضيئةً: «أعرفُ أنك لا تستيقظ مبكرًا إلاَّ أملًا في رؤية السِّلاحف».

- «أحبُّ مشاهدة الشَّمس تُشرق أيضًا». كأنه يُشاهدُ فتاةً تقوم عارِيةً من حمَّامها. بعضهن أجمل من بعضهن، لكن جميعهن واعدات. «للسِّلاحف سحرها، لن أنكر هذا. لا شيء يطيب لي أكثر من منظر زوجين من الأ... الأصداف المتناسقة».

ضحكت السبّية ليمور. ككلّ مَنْ على متن (العذراء الخجول) لها سرارها، وهنيئًا لها بها. لا أريدُ أن أعرفها، أريدُ فقط أن أنكحها. هي أيضًا تعرف هذا، وإذ علقت بلورة السبّوتات حول عنقها لتريحها في الشقّ بين ثدييها داعبته بابتسامة.

رفع ياندري المرساة وسحبَ واحدةً من العصي الطويلة من فوق سطح القمره ودفعهم بعيدًا عن الشاطئ. رفع اثنان من طيور البلكشون رأسيهما يُشاهدان القارب يتعد عن الضفة إلى المجرى، وببطءٍ بدأ (العذراء الخجول) يتحرّك في اتجاه المصب. أمسك ياندري الدفّة، وقلبت يسلا البسكويت على النار، ثم وضعت مقلاةً من الحديد على المستوقد ورصت فيها شرائح اللحم المقدّد. في بعض الأيام تطهو البسكويت واللحم المقدّد وفي بعضها اللحم المقدّد والبسكويت، ومرةً كل أسبوعين قد تكون هناك سمكة، ولكن ليس اليوم.

حين أدارت يسلا ظهرها اختطفَ تيريون بسكويتةً من فوق المستوقد، وأسرع يتعد في الوقت المناسب ليتفادى ضربة ملعقتها الخشبيّة المخيفة. البسكويت أفضل حين يُؤكل ساخناً يقطر منه العسل والزبدة. سرعان ما أخرجت رائحة تحمير اللحم المقدّد البطّة من المخزن، وقد اقترب من المستوقد يتشمّم فتلقّى ضربةً من ملعقة يسلا، فذهب إلى مؤخرة القارب ليتبول.

لحقّ به تيريون بخطواتٍ متمائلة، وبينما يُفرغان مائتيهما قال مازحًا: «منظر جدير بالرؤية، قزم وبطة يُزيدان (الروين) القوي قوّة».

أصدرَ ياندري نخير سُخرية، وقال: «(الأم روين) ليست محتاجةً إلى مائك يا بولو. إنها أعظم نهرٍ في العالم».

نفضَ تيريون آخر قطرات البول قائلًا: «إنه نهر كبير بما يكفي لإغراق قزم، أقرُّ بهذا، لكن (الماندر) يماثله عرضًا، وكذا (الثالوث) عند مصبه، و(النهر الأسود) أعمق».

- «لست تعرف النهر. انتظر وسترى».

كان اللحم المقدّد قد نضجَ واكتسبَ البسكويت اللون الذهبي عندما خرج جريف الصّغير إلى السطح يتثاءب، وقال: «طاب صباحكم جميعًا». الفتى

أقصر قامَةً من البطَّة، لكن نحافته تشي بأن نموّه لم يكتمل بعد. بشعر أزرق أو غيره يستطيع هذا الصَّبِي الحليق أن ينال أيّ فتاة في (الممالك السَّبع). عيناه هاتان قادرتان على تدوييهن. كأبيه، لجريف الصَّغير عينان زرقاوان، لكن لئن كانت عينا الأب باهتتين فعينا الابن داكتان. في ضوء المصباح تصطبغان بالأسود، وفي ضوء الغسق تبدوان أرجوانيّتين، وأهدابه طويلة كأهداب امرأة. قال الفتى متنعلاً حذاءه: «أشْمُ لحمًا مقدِّدًا».

قالت يسيلًا: «لحم طيّب. اجلس».

أطعمتهم على السَّطح الخلفي مختصَّةً جريف الصَّغير بالسكويكوت المحلَّى بالعسل وضاربةً يد البطَّة بملعقتها كلِّما حاول أخذ المزيد من اللحم المقدِّد. قسمَ تيريون بسكويكوتين وملاهما باللحم وأخذهما إلى ياندرى على الدفَّة، وبعدها ساعدَ البطَّة على رفع شراع القارب المثلث. أخذهم ياندرى إلى منتصفِ النَّهر حيث التَّيار الأقوى. (العذراء الخجول) قارب ممتاز، غاطسه مسطَّح يُتيح له الملاحة في أصغر روافد النَّهر وتلافي الحواجز الرَّمليَّة التي من شأنها إعاقة مراكب أكبر، لكن بشراع مرفوع وفي تيارٍ قوي يستطيع المضيَّ بسرعةٍ لا بأس بها، وهو ما قد يعني الفرق بين الحياة والموت في أعالي (الروين) كما يزعمُ ياندرى، الذي قال له: «ليس فوق (الويلات) قانون منذ ألف عام».

- «ولا ناس على مدى بصري». كان قد لمحَ بعض الأطلال على الضُّفاف، أكوامًا من الرُّكام تنمو عليها بكثافة النَّباتات المعترشة والطَّحالب والزُّهور، لكن لا علامة على كونها مأهولةً بالسُّكَّان.

- «لست تعرف النَّهر يا يولو. قد يكون مركب قراصنةٍ كامنًا في أيِّ جدول، وكثيرًا ما يختبئ العبيد الهاربون بين الأطلال. نادرًا ما يقطع صيَّادو العبيد كلَّ هذه المسافة شمالًا».

- «صيَّادو العبيد تغيير مرَّحَّب به عن السَّلاحف». بما أنه ليس عبدًا هاربًا فتيريون لا يخشى القبض عليه، وليس محتملًا أن يُزعج القراصنة قاربًا مدفوعًا بالعصي يمضي في اتِّجاه المصب، فالبضائع النَّفيسة تأتي عبر النَّهر من (فولانتيس).

عندما نفذ اللحم المقدّد لكزّ البطّة جريف الصّغير في كتفه قائلاً: «حان وقت الإصابة ببعض الكدمات. السّيوف اليوم على ما أظنّ».

ردّ جريف الصّغير بابتسامة عريضة: «السّيوف؟ السّيوف رائعة».

ساعده تيريون على ارتداء ثياب النّزال؛ سراويل ثقيلة وسُترَة مبطّنة وبزّة من الفولاذ القديم المنبجج، في حين ارتدى السير رولي قميصه المعدني وجِلده المقوّى، واعتمر كلاهما خوذة واختار سيفاً طويلاً مثلوماً من صندوق الأسلحة، ثم شرعا في النّزال على السّطح الخلفي متبادلين الضربات بحيويّة فيما تفرّجت عليهما بقيّة ضحبة الصّباح. عندما يتقاتلان بالهراوة السّائكة أو الفأس الطويلة المثلومة يتغلّب حجم السير رولي الأكبر وقوّته على تلميذه، لكن بالسّيف تكون المنافسة أكثر تكافؤاً. لا يحمل أيّهما ترساً هذا الصّباح، فكانت لعبة كرّ وفرّ وإقبال وإدبارٍ عبر سطح القارب. ردّد النّهر رنين قتالهما إذ سدّد جريف الصّغير ضرباتٍ أكثر ورولي ضرباتٍ أقوى، غير أن الرّجل الكبير بدأ يتعب بعد فترة وصارت ضرباته أبطأ وأكثر انخفاصاً، وقد صدّها جريف الصّغير جميعاً وشنّ هجمةً عنيفةً أرغمت السير رولي على الفهقري، ولما بلغا مؤخّرة القارب شابك الفتى نصليهما ودفّع البطّة بكتفه بعنفٍ مسقطاً الرّجل الكبير في النّهر.

خرَجَ رولي لافظاً الماء، يلعن ويصيح أن يصطاده أحدهم قبل أن تأكل كسّارة عظم أعضائه، فألقى له تيريون حبلاً، وقال وهو يسحب الفارس بمساعدة ياندرى إلى سطح القارب: «المفترض أن يُجيد البطّ السّباحة أكثر من هذا».

أمسك السير رولي تيريون من ياقته قائلاً: «لنرّ كيف يسبح الأقرام»، وكبّه على وجهه في مياه (الروين).

لكن الضّحكة الأخيرة كانت للقرم. إنه يُجيد السّباحة بكفاءةٍ مقبولة، وقد فعل... حتى بدأت ساقاه تتشنّجان. مدّ جريف الصّغير إليه عصا، وبعدها قال تيريون للبطّة وهو يصبّ ماء النّهر من فردة حدائه: «لست أول من يُحاول إغراقى. يوم مولدي ألْقاني أبي في بئر، لكنني كنتُ شديد القُبح لدرجة أن ساحرة الماء التي عاشت في القاع بصقتني من جديد»، وخلع الفردة الأخرى ثم دار في عجلةٍ هوائيةٍ عبر السّطح نائراً الجميع بالماء.

ضحك جريف الصَّغِير متسائلًا: «أين تعلَّمت هذا؟». أجاب كاذبًا: «الممثلون علَّموني. أحببتي أمِّي أكثر من سائر أطفالها لأنني كنتُ صغيرًا جدًّا، وأرضعتني حتى بلغت السَّابعة، لكن هذا آثارُ غيرَة إخوتي، فحشروني في جوالٍ وباعوني لفرقة ممثليين. عندما حاولتُ الهرب قطع كبير الممثلين نصف أنفي، فلم أجد خيارًا سوى الدَّهاب معهم وتعلم تسليَة النَّاس».

الحقيقة مختلفة تمامًا. حين كان في السَّادسة أو السَّابعة علَّمه عمُّه القليل من الشُّقْلبة، وقد استهوته بشدَّة، وطيلة نصف عام دارَ كالعجلة بمرح وانبساط في أرجاء (كاسترلي روك) راسمًا الابتسامات على وجوه السُّبُتونات والمُرافقين والخدم على حدِّ سواء، وحتى سرسي ضحكَّت لمرآه مرَّةً أو مرَّتين. على أن كلَّ هذا انتهى يوم عادَ أبوه من إقامةٍ مؤقتة في (كينجز لاندنج). ليلتها على العشاء فاجأ تيريون والده بقطع المائدة بطولها مشيًا على يديه، وهو ما لم يسرَّ اللورد تايوين الذي قال: «الآلهة خلقتك قرمًا. أوجب أن تكون مهرجًا أيضًا؟ لقد وُلدت أسدًا وليس قردًا». وأنت جثَّة يا أبْت، وسأنطُ وأرقيصُ كما يحلُّو لي.

قالت له السُّبُتة ليمور وهو يُجفِّف أصابع قدميه: «أنت موهوب في جعل النَّاس يبتسمون. عليك أن تشكُر (الأب في الأعلى)، إنه يوجد على كلِّ أطفاله بالمواهب».

أيدها قائلًا بأسارير مهلَّلة: «صحيح». وحين أموتُ أرجو أن يدفونني بنُشايَّة في يدي كي أشكُر (الأب في الأعلى) على ما وهبَه كما شكرتُ الأب في الأسافل.

كانت ثيابه لا تزال مبتلَّة عن آخرها من الغطسة الخارجة عن إرادته، ملتصقةً بذراعيه وساقيه بإزعاج، ولدى ذهاب جريف الصَّغِير مع السُّبُتة ليمور لتلقَّنه تعاليم العقيدة وغوامضها خلعَ تيريون الملابس المبتلَّة وارتدى أخرى جافَّة. أطلق البطة ضحكةً صاحبةً لَمَّا عادَ إلى السُّطح، ولا يُمكنه أن يلومه، فثيابه هذه يبدو منظره هزليًا. سُترته مقسومة من المنتصف، الجانب الأيسر مخمل أرجواني بأزرارٍ من البرونز، والأيمن صوف أصفر مطرَّز بتشكيلات زهرية خضراء. وسراويله هي الأخرى مقسومة، السَّاق اليمنى أخضر خالص

وَالْيُسْرَى مَخْطُطَةٌ بِالْأَحْمَرِ وَالْأَبْيَضِ. كَانَ أَحَدُ صِنَادِيقِ الْيَرِيوِّ مَلِيئًا بِمَلَابِسٍ صَبِيٍّ زَنْخَةٍ لَكِنْ مَتَقَنَةَ التَّفْصِيلِ، وَقَدْ قَصَّتِ السَّبِيَّةُ لِيَمُورَ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْهَا ثُمَّ أَعَادَتْ خِيَاظَةَ نِصْفِ هَذِهِ بِنِصْفِ تِلْكَ صَانِعَةً ثَوْبًا جَدِيدًا مَرَقَعًا. أَصَرَ جَرِيْفٌ عَلَى أَنْ يُسَاعِدَهَا تِيرِيُونَ فِي الْقَصِّ وَالْخِيَاظَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُخْزِيَهُ، لَكِنْ تِيرِيُونَ اسْتَمْتَعَ بِأَشْغَالِ الْإِبْرَةِ. لِيَمُورُ صُحْبَةَ سَارَّةَ دَوْمًا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَلْعِهَا بِتَوْبِيخِهِ مَتَى قَالَ شَيْئًا وَقِيحًا عَنِ الْآلِهَةِ. إِذَا أَرَادَ جَرِيْفٌ أَنْ يَسْبِكَنِي فِي قَالِبِ الْمَهْرَجِ فَسَأَجَارِيهِ فِي اللَّعْبَةِ. يَعْلَمُ أَنَّ اللَّوْرِدَ تَايُوْنِ لَانْسْتَرِ فِي مَكَانٍ مَا مَفْزُوعٌ لَا يُصَدِّقُ، وَقَدْ لَطَّفَ هَذَا اسْتِيَاءَهُ.

عَلَى أَنْ وَاجِبُهُ الْآخِرُ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنِ التَّهْرِيجِ. لِلْبَطَّةِ سَيْفُهُ وَوَلِي رِيْشَتِي وَوَرَقِي. أَمْرُهُ جَرِيْفٌ بِتَدْوِينِ كُلِّ مَا تَعَلَّمَهُ عَنِ مَعَارِفِ التَّنَانِيْنِ، وَهِيَ الْمَهْمَةُ الْجَسِيْمَةُ، لَكِنْ الْقَرْمُ يَجْتَهِدُ فِيهَا كُلَّ لَيْلَةٍ وَيَكْتُبُ مَا يَسْتَطِيعُ وَهُوَ جَالِسٌ مَتْرِبَعًا عَلَى سَطْحِ الْقَمْرَةِ.

قَرَأَ تِيرِيُونَ كَثِيرًا جَدًّا عَنِ التَّنَانِيْنِ عَلَى مَرِّ الْأَعْوَامِ. السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنْ تِلْكَ الرَّوَايَاتِ كَلَامٌ مَرْسَلٌ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ، وَالْكَتُبُ الَّتِي زَوَّدَهُمْ بِهَا الْيَرِيوُّ لَيْسَتْ الَّتِي كَانَ لِيَرْغَبُ فِيهَا. مَا يُرِيدُهُ حَقًّا هُوَ النَّصُّ الْكَامِلُ لـ(نِيرَانِ الْمَعْقَلِ الْحُرِّ)، تَارِيخِ جَالَنْدَرُو لـ(فَالِيْرِيَا)، لَكِنْ (وَسْتَرُوسِ) لَا تَعْرِفُ لِلْكِتَابِ نُسخَةً كَامِلَةً، وَحَتَّى (الْقَلْعَةُ) يَنْقُصُهَا سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ رَقًّا. لَا شَكَّ أَنَّ عِنْدَهُمْ مَكْتَبَةٌ فِي (فُولَانْتِيْسِ الْقَدِيْمَةِ)، مَوْكَّدٌ. قَدْ أَجَدْتُ نُسخَةً أَفْضَلَ هُنَاكَ، إِذَا وَجَدْتُ سَبِيْلًا لِلدُّخُولِ مِنَ (السُّورِ الْأَسْوَدِ) إِلَى قَلْبِ الْمَدِيْنَةِ.

لَكِنْ أَمْلُهُ لَيْسَ كَبِيرًا بِشَأْنِ (التَّنِيْنِ وَدَوْدَةِ النَّارِ وَالْوَايْفَرْنِ)⁽¹⁾: تَارِيخُهَا غَيْرِ الطَّبِيْعِيِّ) لِلْسَّبِيْتُونِ بَارْثِ. كَانَ بَارْثُ ابْنِ حَدَادٍ تَرْقَى حَتَّى أَصْبَحَ يَدُ الْمَلِكِ فِي عَهْدِ چَهِيْرِسِ الْمُصْلِحِ. ادَّعَى خِصْمُوهُ دَوْمًا أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْمَشْعُودِ مِنْ السَّبِيْتُونِ، وَقَدْ أَمَرَ بِيَلُورِ الْمُبَارِكِ بِحَرْقِ كُلِّ كِتَابَاتِ بَارْثِ عِنْدَمَا ارْتَقَى الْعَرْشَ الْحَدِيْدِي. قَبْلَ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ قَرَأَ تِيرِيُونَ نُبْدَةً مِنْ (التَّارِيخِ غَيْرِ الطَّبِيْعِيِّ) سَلِمَتْ مِنْ بِيَلُورِ الْمُبَارِكِ، لَكِنَّهُ يَشْكُ فِي أَنْ أَيًّْا مِنْ أَعْمَالِ بَارْثِ عَبَرَ (الْبَحْرَ الضِّيْقَ).

(1) الْوَايْفَرْنُ مَخْلُوقٌ اسْطُورِيٌّ شَبِيهُ بِالْتَّنِيْنِ، لَهُ جِسْمٌ كَالسَّحْلِيَّةِ وَسَاقَانُ وَذَيْلٌ سَمَكَةٌ، وَلَا يَنْفِثُ النَّارَ. (المُتْرَجِمُ).

وبالطَّبْعِ فُرْصَتَهُ أضعف في العثور على المجلد المُفْتَتِ الغارق بالدماء الذي كتبه مجهول ويُسمَّى (الدَّم والنَّار) حينًا و(موت التَّنانين) حينًا، ويُفترَض أن النُّسخة الوحيدة الباقية منه مخبَّأة في خزانةٍ موصدة تحت (القلعة).

حين ظهر النُّصف ماِستر على السُّطح يتشاءب كان القزم يُدَوِّن ما يذكِّره بخصوص عادات التَّزْأُج عند التَّنانين، وهو الموضوع الذي اختلف عليه بارث ومونكون وثوماكس اختلافًا ملحوظًا. ذهب هالدون إلى مؤخِّرة القارب ليبول على الشَّمس حيث ينعكس ضوءها على صفحة الماء متوقِّفًا مع كلِّ هبَّة رِيح، وناذاه النُّصف ماِستر قائلاً: «المفترَض أن نَبْلُغ ملتقى (النوين) مع حلول المساء يا يولو».

رفع تيريون عينيه عن كتابته، وردَّ: «اسمي هيو جور. يولو مختبئ في سراويلي. هل أُخرِجه ليلعب؟».

بابتسامٍ ماضية كنصل الخنجر قال هالدون: «الأفضل ألا تفعل وإلا أخفت السِّلَاحف. قلت لي ما اسم الشَّارع الذي وُلدت به في (لانسپورت) يا يولو؟».

- «كان زُقاقًا بلا اسم». يجد تيريون نوعًا حَرِيْفًا من اللدَّة في اختراع تفاصيل الحياة الحافلة التي عاشها هيو جور هيل، المعروف أيضًا بيولو نغل (لانسپورت). أطيب الأكاذيب مَبْئُول بشيءٍ من الحقيقة. يعلم القزم أنه يتكلَّم بلُكنة أراضي الغرب، بل وبلُكنة أحد أبناء أعيان الغرب أيضًا، وعليه يجب أن يكون هيو جور ابنًا غير شرعي لأحد اللوردات الصُّغار، مولودًا في (لانسپورت) لأنه يعرف المدينة أفضل من (البلدة القديمة) أو (كينجز لاندنج). أكثر الأرقام ينتهي بهم المطاف في المُدن، حتى إذا كان القزم ابن العقيلة يقطينة التي ولدته وسط أجولة اللُّفت. لا تُقام في الرِّيف عروض غرائب أو ممثِّلين... ولو أن هناك الكثير من الآبار لابتناع الهُريرات غير المرغوب فيهن والعجول ذات الثلاثة رؤوس والرُّضَع من أمثاله.

عقد هالدون أربطة سراويله قائلاً: «أرى أنك تُشوِّه المزيد من الورق الممتاز يا يولو».

- «ليس بإمكاننا جميعًا أن نكون نِصف ماِستر». بدأت يد تيريون تتشجج، فوضع ريشته جانبًا وأخذ يثني أصابعه القصيرة ويبسطها متسائلًا: «هل ترغب

في مُباراة سايقاس أخرى؟». دائماً يهزمه النُّصف مايستر، لكنها وسيلة لتزجية الوقت.

- «هذا المساء. هل ستنضمُّ إلينا في درس جريف؟».

- «ولِمَ لا؟ على أحدهم أن يُصحِّح أخطاءك».

على (العذراء الخجول) أربع مقصورات، يتقاسم ياندري ويسيلا إحداها، وجريف وجريف الصَّغير أخرى، وللسَّيِّئة ليمور مقصورتها، وكذا هالدون. مقصورة النُّصف مايستر أكبر الأربع، أحد حوائطها مصفوفة عليه رفوف الكُتب والسُّلال المملأ بالمخطوطات واللِّفائف القديمة، وعلى آخر رفوف المراهم والأعشاب والعقاقير. من النَّافذة المستديرة ذات الزُّجاج الأصفر متموِّج النَّقش يَدْخُل الضُّوء الذَّهبي، ويتكوَّن الأثاث من سريرٍ ومنضدة كتابة ومقعد بظَّهرٍ وآخر بدون وطاولة سايقاس النُّصف مايستر المثورة عليها القِطع المنحوتة من الخشب.

بدأ الدَّرس باللُّغات. يتحدَّث جريف الصَّغير اللُّغة العاميَّة كأنه مفطور عليها، وطلیق في الثَّالِثِيَّة الفُصحى ولُكنات (پنتوس) و(تايروش) و(مير) و(ليس)، ومصطلحات البحَّارة التَّجاريِّين، لكن اللُّكنة الثُّولانينيَّة جديدة عليه مِثلما هي جديدة على تيريون، وهكذا يتعلَّمان بضع كلماتٍ جديدة كلَّ يوم ويصحِّح لهما هالدون أخطاءهما. الميرينزيَّة أصعب، وعلى الرغم من جذورها الثَّالِثِيَّة فقد نبتت شجرتها مرويةً بلُغة (جيس القديمة) القبيحة الخشنة. قال تيريون متذمِّراً: «المرء محتاج إلى نَحْلَةٍ في أنفه كي يتكلَّم الجيسكاريَّة كما ينبغي»، فضحك جريف الصَّغير، في حين اكتفى هالدون بقول: «ثانيَّة»، وأطاعه الفتى، مع أن عينيه نَمَّتَا عن تبرُّمه من حروف الرَّاِي العديدة. أقرَّ تيريون لنفسه: أدنه أفضل من أدني، لكنني أراهن أن لساني أرشقي. تبعَت الهندسة اللُّغات. في هذه الفتى أقلَّ حدقًا، لكن هالدون معلِّم صبور، كما استطاع تيريون أن يكون ذا عون. لقد تعلَّم أسرار المرَبَّعات والدَّوائر والمثلثات من مايسترات أبيه في (كاسترلي روك)، وأدهشته السُّرعة التي استعادها به.

ولدى وصولهم إلى درس التَّاريخ كان جريف الصَّغير قد بدأ يضحج. قال

له هالدون: «كنا نناقش تاريخ (فولانتيس). هلاً أُخبرت يولو بالفرق بين النمر والفيل؟».

أجاب الفتى بملل: «(فولانتيس) أقدم المُدن الحُرّة التّسع، ابنة (فاليريا) البكر. بعد الهلاك طابَ للفولانتيين أن يعدّوا أنفسهم ورثة المعقل الحُر وسادة العالم الشّرعيين، لكنهم انقسموا بصدد الوسيلة المثلى لتحقيق السّيّطرة. فضّل أصحاب الدّم القديم السّيف، في حين تحيّر التّجار والمُرابون إلى التّجارة، ومع تنافسهم على حُكم المدينة أصبحت الطّائفتان معروفتين على التّوالي بالنُمور والأفيال. كان للنُمور النّفوذ لقرنٍ تقريباً بعد هلاك (فاليريا)، ولفترةٍ حالفهم النّجاح. أخذَ أسطول فولانتيني (ليس) وغزا جيش فولانتيني (مير)، وطيلة ثلاثة أجيال حُكمت المُدن الثلاث من وراء (السّور الأسود)، لكن ذلك انتهى حين حاول النُمور ابتلاع (تايروش). دخلت (بتنوس) الحرب إلى جانب التايروشيين، ومعها ملك العواصف الوستروسي، وزوّدت (برافوس) منفيّاً لايسينياً بمئة سفينةٍ حربيّة، وحلّق إجون تارجارين من (دراجونستون) على متن الرّعب الأسود، ونشبت ثورة في (مير) و(ليس). تركت الحرب (أراضي النّزاع) خراباً وحرّرت (ليس) و(مير) من نير الاحتلال. مُني النُمور بهزائمٍ أخرى أيضاً. الأسطول الذي أرسلوه لاستعادة (فاليريا) اختفى في (بحر الدّخان)، وحطّمت (كُوهور) و(نورفوس) قوتهما على (الروين) عندما تقاتلت القوادس نافثة اللّهب في (بُحيرة الخناجر)، ومن الشّرق جاء الدوثراكي طاردين العامّة من بيوتهم والنّبلاء من ضياعهم، حتى لم يعدّ باقياً بين (غابة كُوهور) ومنابع (السّلهورو) إلّا العُشب والخرائب. بعد قرنٍ من الحروب وجدت (فولانتيس) نفسها مكسورةً مفلسةً وفقيرة السّكان، وعندها نهض الأفيال، ومنذ ذلك الحين والسّطوة لهم. في بعض السّنوات ينتخب النُمور قُنصلاً وفي بعضها لا يفعلون، لكنه يكون قُنصلاً واحداً دوماً، وهكذا يحكّم الأفيال المدينة منذ ثلاثمئة عام».

قال هالدون: «مضبوط. والقناصل الحاليون؟».

- «مالاكو نمر ونيسوس ودونيفوس فيلان».

- «وما الدّرس الذي نتعلّمه من التّاريخ الفولانتيني؟».

- «إذا أردت أن تغزو العالم فيُفضّل أن تكون عندك تنانين».

ولم يجد تيريون باليد حيلةً إلا الضحك.

لاحقًا، بعدما صعد جريف الصَّغير إلى السَّطح لِيُساعد ياندرى جَهَّز هالدون طاولة السايڤاس من أجل مباراتهما، وراقبه تيريون بعينين غير متماثلتين قائلًا: «الفتى ذكي. لقد أحسنت تعليمه. يُؤسفني أن أقول إن نصف لوردات (وستروس) لم يتعلَّموا نصف ما يعرفه. اللغات والتَّاريخ والأغاني والحساب... مزيج مُسكر يُدير الرُّأس المعارف بالنِّسبة إلى ابن مرتزق». قال هالدون: «الكتاب لا يقل خطورةً عن السَّيف في اليد السَّليمة. حاول أن تُعطيني معركةً أفضل هذه المرَّة يا يولو. إن لعبك السايڤاس سيءٌ كسقلبتك».

ردَّ تيريون وهما يرضَّان بلاطاتهما على جانبي الحائل الخشبي المنقوش: «أحاولُ استدرجك إلى إحساس زائفٍ بالثقة. إنك تحسب فقط أنك علمتني كيف ألعبُ، لكن باطن الأشياء ليس كظاهرها دومًا. ربما تعلَّمتُ اللعبة من تاجر الجُبنة، هل فكَّرت في هذا؟».

- «إليرو لا يلعب السايڤاس».

فكَّر القزم: نعم، بل يلعب لعبة العروش، وأنت وجريف والبطة مجرد يادق يُحرِّكها كما يعنُّ له ويضحِّي بها عند الحاجة، تمامًا كما ضحِّي بفسير س. «اللوم عليك إذن. إذا كنت لا أُجيدُ اللَّعب فأنت السَّبب».

قهقهة النِّصف مايستر قائلًا: «سوف أفتدك حين يذبحك القراصنة يا يولو».

- «أين هؤلاء القراصنة المشاهير؟ بدأتُ أظنُّ أنك وإليرو اختلقتماهم».

- «إنهم موجودون بأعلى كثافة في الجزء من النَّهر الواقع بين (آر نوي)

و(الويلات). فوق أطلال (آر نوي) يحكُم الكوهوريون النَّهر، وتحت

(الويلات) لقوادس (فولانتيس) السَّيطرة، لكن المياه بينهما لا تنتمي إلى أيِّ

من المدينتين، فجعلها القراصنة لهم. (بُحيرة الخناجر) زاخرة بالجزر التي

يكمُنون عليها في كهوفٍ خفيَّة ومعاقل سرِّيَّة. مستعد؟».

- «لك؟ دون شك. للقراصنة؟ ليس تمامًا».

رفع هالدون الحائل، وتأمَّل كل منهما ترتيب افتتاحيَّة الثاني، ثم قال

النِّصف مايستر: «بدأت تتعلَّم».

همَّ تيريون بتحريك تينته، لكنه أعاد النَّظر. في المباراة السَّابقة تعجَّل

بإخراجها وخسرها بضرية منجنيق. «إذا قابلنا هؤلاء القراصنة بالفعل فقد أنضمُّ إليهم. سأقولُ لهم إن اسمي هيو جور النصف ماىستر». قالها وحركَ خيوله الخفيفة نحو جبال هالدون.

ردَّ هالدون بفيل، وقال: «هيو جور النصف عاقل يُناسِبك أكثر». قال تيريون محرِّكًا خيوله الثقيلة لتدعم الخفيفة: «لستُ محتاجًا إلا إلى نصف عقلي لأكون نداءً لك. ما رأيك في الرهان على النتيجة؟».

قوس النصف ماىستر حاجبه متسائلًا: «كم؟».

- «ليس معي مال. سنلعب على الأسرار».

- «لقطع جريف لساني».

- «أنت خائف؟ لو كنتُ مكانك لخفتُ».

قال النصف ماىستر: «يوم تغلبنى في السايقاس هو اليوم الذي تخرُج فيه من مؤخرتي سلحفاة»، وحركَ جرابه مردفًا: «رهانك مقبول أيها الرَّجل الصَّغير».

ومدَّ تيريون يده إلى تنيته.

مرَّت ثلاث ساعات قبل أن يصعد الرَّجل الصَّغير إلى السَّطح أخيرًا ليُفرغ مئانته. كان البطة يُساعد ياندرى على إنزال الشُّراع فيما تحكَّمت يسىلا في الدفة، وقد انخفضت الشَّمس فوق حقول القصب على الضفة الغربية وبدأت الرياح تهبُّ بقوة. فكَّر القزم: كم أحتاجُ إلى قرية من النيذ. كانت ساقاه متيبستين من الجلوس على المقعد، ويحسُّ بدوخة شديدة لدرجة أنه محظوظ لأنه لم يسقط في النَّهر.

ناداه السير رولي: «يولو، أين هالدون؟».

أجاب: «خلد إلى فراشه متوعكًا بعض الشيء. ثمة سلاحف تخرُج من مؤخرته»، وترك الفارس يحزر معنى قوله وصعد على السُّلم إلى سطح القمر. إلى الشرق كان الظلام ينزل وراء جزيرة صخرية.

وجدته السَّيطة ليمور هناك، وقالت: «هل تُشعرُ بالعواصف في الهواء يا هيو جور هيل؟ (بحيرة الخناجر) أمامنا يجوبها القراصنة، وبعدها (الويلات)». ليست ويلاتى، إننى أحملُ ويلاتى معي أينما ذهبتُ. فكَّر في تايشا وتساءل أين تذهب العاهرات. ولم لا يذهبن إلى (فولانتيس)؟ قد أجدها

هناك. على المرء أن يتمسك بالأمل. تساءل ماذا عساه يقول لها. آسفٌ لأنني تركتهم يغتصبونك يا حبيبتي. حسبتكِ عاهرةً. هل تجددين في قلبك القدرة على العفو عني؟ أريدُ أن أعود إلى كوخنا، إلى حياتنا حين كنا زوجًا وزوجةً. تراجعَت الجزيرة من ورائهم، ورأى تيريون أطلالاً ترتفع على الضفة الشَّرقيَّة؛ جُدُرًا معوجَّةً وبروجًا ساقطةً وقبابًا محطَّمةً وصفوفًا من الأعمدة الخشبيَّة المتعفنة وشوارع يخنقها الطمي والطحالب الأرجوانيَّة. مدينة ميتة أخرى، أكبر عشر مرَّاتٍ من (جويان درو). الآن تقطن السَّلاحف هنا، كسَّارة العظم الكبيرة، وقد رآها القزم تستدفعُ بالشَّمس كُربى بنينِّه وسوداء ظهورها محدَّبة محرَّزة عند منتصفِ أصدافها، ورأى بعضها (العذراء الخجول) فغاص في الماء تاركًا تموجاتٍ على صفحة النهر. ليس هذا مكانًا ملائمًا للسَّباحة.

ثم إنه، بين الأشجار الملتوية شُبه الغارقة والشوارع الواسعة المبتلَّة، أبصرَ بريق ضوء الشَّمس الفضي على مسطحٍ مائي، وقد عرفَ ماهيته في الحال. نهر آخر يتدفق صوب (الروين). استطألت الأطلال وبدأت الأرض تضيق، إلى أن انتهت المدينة عند رأس من اليابسة حيث تقف بقايا قصرٍ هائل من الرُّخام الوردِي والأخضر، قبابه المتداعية وأبراجه المحطَّمة ترتفع ضخمة فوق صفٍّ من القناطر المغطَّاة. رأى تيريون المزيد من كسَّارة العظم نائمة في مزلق السفن التي تكفي لاحتواء نصفمئة سفينة، وعندئذٍ أدرك أين هو. كان هذا قصر نايميريا، وهذا كل ما تبقى من مدينتها (ناي سار).

صاح ياندرِي إذ مرَّت (العذراء الخجول) بالرَّأس الأرضي: «يولو، حدَّثني ثانيةً عن تلك الأنهار الوستروسية الكبيرة كـ(الأم روين)».

ردَّ صائحًا: «لم أكن أعلم. لا نهر في (الممالك السَّبع) يبلُغ نصف عرض هذا». النهر الذي انضمَّ إليهم أقرب إلى توأم للذي كانوا مبحرين فيه، والأول وحده كان يُناهِز (الماندر) أو (الثالوث) عرضًا.

قال ياندرِي: «هذه (ناي سار)، حيث تلتقي (الأم) ابنتها الصَّارية (النوين)، لكنها لن تَبُلُغ عرض نقاطها إلى أن تلتقي ابنتها الأخرى. عند (بُحيرة الخناجر) تصبُّ فيها ابنتها السَّمراء (الكوين) المملأى بالذهب والكهرمان من (الفأس) وأكواز الصَّنوبر من (غابة كُوهور). جنوبًا هناك تلتقي (الأم)

الابنة الباسمة (اللورولو) المتدفقة من (الحقول الذهبية)، وملتقاهما حيث كانت (كرويان) مدينة الاحتفالات في الماضي، التي كانت شوارعها من ماء ومنازلها من ذهب. ثم جنوبًا وشرقًا ثانيةً لفراسخ طويلة إلى أن تأتي في النهاية الابنة الخجول (السلهورو) التي تُخفي مجراها بالبوص والالتواءات. هناك تتسع (الأم روين) لدرجة أن رجلًا على قاربٍ في منتصف المجرى لا يستطيع أن يرى شاطئًا على جانبه. سترى يا صديقي الصغير».

كان القزم يُفكر أنه سيرى بالفعل عندما لمحَ تموجًا أمامهم على بُعد أقل من ستَّ ياردات من القارب، وأوشك على تنبيه ليمور إليه لكن الشيء صعد إلى السطح ناثرًا المياه بغزارٍ رجَّت القارب إلى الجانب.

سلاحفة أخرى، سلاحفة هائلة الحجم ذات قرنين، صدفتها الخضراء الداكنة مرقعة بالبني وتُغطّيها طحالب الماء وقواقع النهر السوداء. رفعت السِّلحفاة رأسها وأطلقت هديرًا وتريرًا عميقًا أصحَب من أيِّ بوق حربي سمعه تيريون على الإطلاق، وبصوتٍ عالٍ صاحت يسيلًا والدموع تنهمر على وجهها: «لننا البركة، لننا البركة، لننا البركة!».

كان البطّة يصيح بجذل، وجريف الصغير أيضًا، وخرَج هالدون إلى السطح ليعرف سبب الصَّخب... لكنه تأخَّر، إذ عادت السِّلحفاة العملاقة تختفي تحت الماء. سأل النُّصف ما يستر: «ما سبب كلِّ هذه الجلبة؟».

قال تيريون: «سلاحفاة، سلاحفاة أكبر من هذا القارب».

صاح ياندرى: «كان هو! رجل النهر العجوز!».

فكر تيريون بابتسامة عريضة: ولمَ لا؟ دائمًا تظهر الآلهة والعجائب لتشهد مولد الملوك.



دافوس

وصلت (القابلة المرححة) إلى (الميناء الأبيض) محمولةً على تيار المساء،
تموج أشرعتها المرقعة مع كل هبة ريح.
السفينة كوج عجوز، لكن حتى في شبابها لم يصفها أحد بالجمال. تمثال
مقدمتها امرأة ضاحكة تحمل رضيعاً من ساقه، لكن وجنتي المرأة ومؤخرة
الرضيع تكثر فيها نخاريب الدود، وتغطي طبقات لا تحصى من الطلاء البني
الباهت بدنها، وقلوعها رمادية مهترئة. ليست سفينة تستدعي نظرة ثانية من
أحد إلا ليتساءل كيف لا تزال طافية. (القابلة المرححة) معروفة في (الميناء
الأبيض) أيضاً، إذ مضت أعوام من سفرها في تجارة متواضعة بين المدينة
(بلدة الأخوات).

ليس الوصول الذي توقعه دافوس سيورث حينما أبحر مع سالا
وأسطوله. آنذاك بدا كل هذا أبسط. لم ترجع الغدبان إلى الملك ستانيس
بولاء (الميناء الأبيض)، فأرسل جلالته مندوباً يتفاوض مع اللورد ماندري
شخصياً، وكاستعراض للقوة كان المفترض أن يصل دافوس على متن قادس
سالا المسمى (فاليريان) ووراءه بقية الأسطول اللايسيني المخططة أبدان
سفنه جميعاً بالأسود والأصفر، والوردي والأزرق، والأخضر والأبيض،
والأرجواني والذهبي. يحب اللايسينيون الألوان الزاهية، وسالادور سان
أكثرهم تلوثاً. سالادور المبهر، لكن العواصف كتبت نهاية كل هذا.

بدلاً من ذلك هرب دافوس نفسه إلى المدينة كما كان ليفعل قبل عشرين
عاماً. حتى يعلم الأحوال هنا فمن الحصافة أن يلعب دور البحار التقليدي لا
اللورد.

ارتفعت أسوار (الميناء الأبيض) الحجرية المطلية بالجير أمامهم على الساحل الشرقي حيث يصبُّ (السكين الأبيض) في اللسان البحري. منذ زار دافوس المدينة آخر مرة قبل ستة أعوام خضع بعض دفاعاتها للتعزيزات، فحاجز الأمواج الذي يفصل المرفأ الداخلي عن الخارجي محصن الآن بسور حجري طويل يرتفع ثلاثين قدماً ويمتد ميلاً أو نحوه، وعند كل مئة ياردة بُرج، كما أن الدخان يتصاعد من (صخرة الفقمت) حيث لم يكن في السابق إلا الأطلال. قد يكون هذا جيداً أو سيئاً، حسب الجانب الذي يختاره اللورد وإيمان.

لطالما كان دافوس مغرماً بهذه المدينة منذ أتى هنا للمرة الأولى كعامل قمرية على متن (القط الحجري). على الرغم من صغرهما مقارنةً بالبلدة القديمة) و(كينجز لاندنج) فإنها تتسم بالنظافة والنظام، شوارعها عريضة مستقيمة مرصوفة تُسهل على المرء أن يجد طريقه، ومنازلها مبنية بالحجارة المطلية بالجير ولها سقوف مائلة من الأردواز الرمادي الداكن. اعتاد رورو أوهوريس رُبَّان (القط الحجري) العجوز عصبي المزاج أن يدعي أنه يستطيع التفرقة بين مختلف المواني عن طريق رائحتها، وأصرَّ أن المُدن كالنساء، لكل منها رائحتها الفريدة، فالبلدة القديمة) زهرية كأرملة نبيلة مضمخة بالطيب، و(لانسپورت) لبانة ريانة بسيطة في شعرها دُخان الحطب المحروق، و(كينجز لاندنج) منفرة كعاهرة قادرة، لكن رائحة (الميناء الأبيض) ملحية لاذعة، وسمكية بعض الشيء أيضاً. «رائحتها كما يجب أن تكون رائحة عروس البحر، رائحتها كالبحر نفسه».

فكر دافوس: ولا تزال كذلك، وإن كان يشمُّ أيضاً دُخان الخُث المحروق المتصاعد من (صخرة الفقمت). تُشرف الصخرة البحرية على مداخل المرفأ الخارجي، كتلة عملاقة من الأخضر الرمادي ترتفع خمسين قدماً فوق الماء، قممتها متوجة بدائرة من الأحجار البالية، وقد كانت حصناً للبشر الأوائل يقف مهجوراً مقفراً منذ مئات السنين. على أنها ليست مهجورة الآن، إذ رأى دافوس عرّادات⁽¹⁾ ونافثات لهبٍ وراء الأحجار القائمة، ورُماة نُشابية

(1) العرّادة ضرب من المنجنيق تُقذف به الأحجار والسهام الكبيرة. (المترجم).

بينها. مؤكّد أنهم يُعانون البرد والبلل بالأعلى. في كلّ زيارته السّابقة تعودّ رؤية الفقمات مستلقيةً على الصُّخور المكسورة بالأسفل، ومتى أبحرت (القِط الحجري) من (الميناء الأبيض) جعله النّخل الأعمى يُحصيها، فطبّقاً لرورو كلّما زاد عدد الفقمات حالّفهم حظّ أسعد في رحلتهم. لكن لا فقمات هناك الآن، فقد أفرعها الدُّخان والجنود. كان رجل أكثر حكمةً ليرى في هذا تحذيراً. لو أنني أتمتّع بمقدار خردليّة من العقل لذهبتُ مع سالا. كان ليسلك طريقه جنوباً ويعود إلى ماريا وابنيهما. فقدتُ أربعة أبناء في خدمة الملك، والخامس مرافقه. المفترض أن يكون لي حقّ التّمتع بوقتي مع الاثنين الباقيين. مضى زمن طويل جداً منذ رأيتهما.

في (القلعة الشّرقية) قال له الإخوان السُّود إن حُبّاً لا يجمع بين آل ماندري أولاد (الميناء الأبيض) وآل بولتون أولاد (معقل الخوف). لقد بوأ العرش الحديدي رويس بولتون حُكم الشّمال، وعليه فمن المعقول أن يُعلن وإيمان ماندري تأييده ستانيس. (الميناء الأبيض) لا تستطيع الوقوف وحدها. المدينة في حاجةٍ إلى حليف، إلى حام. اللورد وإيمان محتاج إلى الملك ستانيس مثلما يحتاج ستانيس إليه. أو أن الأمور بدت هكذا في (القلعة الشّرقية) على الأقل.

قوّضت (بلدة الأخوات) تلك الآمال. إذا صدق اللورد بولر، إذا كان آل ماندري ينتوون ضمّ قوتهم إلى آل بولتون وآل فراي حقاً... لا، لن يُفكّر في هذا. قريباً سيعرف الحقيقة، ويدعو الآلهة أنه لم يجرى بعد فوات الأوان.

بينما أنزكت (القابلة المرحّة) أشرعتها أدرك دافوس أن السُّور فوق حاجز الأمواج يحجب المرفأ الداخلي. المرفأ الخارجي أكبر، لكن مراسي الدّاخلي أفضل، لأنها محميّة بسور المدينة من جانب وكُتلة (عرين الذّئاب) المرتفعة من جانب آخر، والآن بحاجز الأمواج المسور أيضاً. في (القلعة الشّرقية) أخبر كوتر بايك دافوس بأن اللورد وإيمان يبني قوادم حربيّة، أي أن من الوارد أن هذه الأسوار تُخفي وراءها عشرين سفينةً تنتظر أمر الخروج إلى البحر.

وراء أسوار المدينة البيضاء المنيعّة ترتفع (القلعة الجديدة) فخوراً شاحبةً فوق تلّها، ورأى دافوس سطح (سپت الثلوج) المقبّب المتوجّج بتمثيل الآلهة

السَّبْعَةُ الطَّوِيلَةُ. بعد إجلائهم من (المرعى) جلب آل ماندرلي العقيدة معهم إلى الشَّمال، غير أن في (الميناء الأبيض) أيكَة آلهة أيضًا، شبكة كثيفة من الجذور والفروع والحجارة مغلقة وراء أسوار (عرين الذَّباب) السَّوداء الآيلة للشقوط، وهي قلعة عتيقة تُستخدَم كسجنٍ فقط الآن، لكن الحُكم في الغالب هنا للسَّبتونات.

عريس بحر عائلة ماندرلي في كلِّ مكان، يخفق في أبراج (القلعة الجديدة) وفوق (بوابة الفقمات) وبطول أسوار المدينة. في (القلعة الشَّرقيَّة) أكَّد السَّماليُّون أن (الميناء الأبيض) لن تنثني أبدًا عن ولائها لـ (ويتترف)، إلَّا أن دافوس لم يرَ أثرًا لذئب ستارك الرَّهيب. ولا أسود كذلك. لا يُمكن إذن أن اللورد وإيمان أعلن تأييده تومن، وإلَّا لكانوا قد رفعوا رايته.

تعجُّ أرصفة الميناء بالنَّاس. عند سوق السَّمك فوضى من القوارب الصَّغيرة المربوطة تُفرِّغ حمولاتها، ورأى دافوس زوارق نهريَّة أيضًا، قوارب طويلة رفيعة بُنيت قويَّة متينة لتخوض تيارات (السكين الأبيض) السَّريعة وروافده الصَّخريَّة. لكن أكثر ما يهْمُه فُلك البحر التي رآها؛ قرقوران في حالة مزرية كـ (القابلة المرحة)، والقادس التَّجاري (راقصة العواصف)، والكوجان (الماجستر الشُّجاع) و(قرن الوفرة)، و(قاليون⁽¹⁾) من (برافوس) يُميِّزه بدنه وقلوعه الأرجوانية...
... ووراء السَّفينة الحرِّيَّة.

غرس مرآها سكينًا في أماله. بدنها أسود وذهبي، وتمثال مقدِّمتها أسد يرفع كفه، وعلى مؤخرتها مكتوب (أسد النجوم) تحت راية خافقة تحمل رمز الملك الصَّبي على العرش الحديدي. قبل عام لم يكن ليستطيع قراءة الحروف، لكن المايستر پايلوس علَّمه بعضها في (دراجونستون)، وهذه المرَّة لم يجد سرورًا في القراءة. كان دافوس يدعو أن القادس ضاع في العواصف التي بطشت بأسطول سالا، لكن الآلهة لم تُنعم عليه بالإجابة. أبناء فراي هنا، وعليه أن يُواجههم.

(1) القاليون سفينة أكبر من القادس، أشرعتها مربَّعة وتُبحر بصفَّين أو ثلاثة من المجاذيف، وكانت تعدُّ أكبر سفن الأسطول العثماني. (المترجم).

ربطت (القابلة المرحة) حبالها إلى مرسى خشبي بال في طرف المرفأ الخارجي، بعيداً بمسافة لا بأس بها عن (أسد النجوم)، وبينما ثبتت طاقمها إلى القوائم الخشب وأنزل لوح عبور ذهب رُبَّانها بخطوات بطيئة إلى دافوس. كاسو موجات من هيجيني (البحر الضيق)، أنجبته إحدى عاهرات (بلدة الأخوات) من صائد حيتان إينيزي، تَبْلُغ قامته الأقدام الخمسة لا أكثر وله جسد مُشعر، ويصبغ شعره ولحيته بالأخضر الطحلي، وهو ما يجعله يبدو كجذع شجرة مبتور ينتعل حذاءً أصفر. على الرغم من مظهره يبدو بحارًا بارعًا، ولو أنه يقسو على طاقمه. سأله الرَّجل: «كم ستغيب؟».

- «يومًا على الأقل، ربما أطول». وجدَّ دافوس أن اللوردات يحبُّون جعلك تنتظر، ويخمن أنهم يفعلون هذا ليشوا فيك التوتُّر ويستعرضوا قوتهم. - «ستبقى (القابلة) هنا أيامًا ثلاثة لا أكثر. سينتظرون عودتي في (بلدة الأخوات)».

- «إذا سارت الأمور على ما يرام فقد أعود غدًا».

- «وإن لم تسر؟».

قد لا أعود على الإطلاق. «ليس عليك انتظاري».

صعد اثنان من رجال الجمارك إلى متن السفينة في أثناء نزوله على لوح العبور، لكن أحدهما لم يكلف نفسه مجرد نظرة إليه، فهما هنا لرؤية الرُّبان وتفقد المخزن، ولا يهتمهما البحارة التقليديون، وقلائل يبدون بتقليدية دافوس. إنه متوسط الطول، وجهه الريفي المدبب لوحتة الشمس والريح، ويشيع الشيب في لحيته وشعره البنيين، وثيابه تقليدية أيضًا؛ حذاء قديم وسراويل بالية وسترة زرقاء ومعطف من الصوف غير المصوغ يُثبته مشبك خشبي، كما يضع قفازًا جلدًا بقعه الملح يُخفي به جدعات أصابعه التي قصَّرها ستانيس قبل سنواتٍ طويلة. لا يبدو دافوس كاللوردات، ناهيك بيد ملك، وهذا خير إلى أن يعرف الأحوال هنا.

شقَّ طريقه بطول المرسى وعبر سوق السمك. كانت (الماجستر الشجاع) تُحمّل البتع وقد رُصت البراميل في أربعة صفوفٍ مرتفعة، ووراء أحدها لمح ثلاثة بحارة يلعبون الترد. على مسافة أبعد تُنادي بائعات السمك على صيد اليوم، ويدق صبيُّ إيقاعًا على طبلة فيما يرقص دُبُّ أشعث عجوز في دائرة

لحلقة من نوتية الزوارق النهريّة. عند (بوابة الفقمات) يقف حارسان من حاملي الحراب على صديهما شارة عائلة ماندرلي، وإن انشغلا بمغازلة إحدى عاهرات الميناء فلم ينتبها إلى دافوس. البوابة مفتوحة، والشبكة الحديدية مرفوعة، وهكذا انضم إلى المارة الداخلين.

في الداخل ميدان مرصوف في مركزه نافورة يرتفع من مياهها عريس بحر حجري طوله عشرون قدماً من الرأس إلى القدم، لحيته المجددة مغطاة بالأشنة الخضراء والبيضاء، وإحدى شعب رُمحه الثلاثي مكسورة من قبل مولد دافوس، وعلى الرغم من هذا لا يزال منظره يُثير الإعجاب. يُسميه السكّان المحليون قدم السمكة العجوز، ومع أن الميدان يحمل اسم لورد ميت ما فلا أحد يُسميه شيئاً غير (ساحة قدم السمكة).

الساحة مكتظة اليوم. وقفت امرأة تغسل ثيابها الداخليّة في نافورة قدم السمكة وتشرها على رُمحه، وتحت قناطر رواق الباعة الجائلين نصب الكتبة ومبدلو العملة مناظدهم إلى جوار ساحر متجوّل ومعالجة أعشاب وحاو رديء للغاية، ويبيع رجل التفاح من على عربة يد وامرأة الرنجة بالبصل المقطع، والدجاج والأطفال في كل مكان تحت الأقدام. كلما زار دافوس (ساحة قدم السمكة) وجد باب (دار سك العملة القديمة) الضخم المصنوع من السنديان والحديد مغلقاً دوماً، لكنه ألقاه مفتوحاً اليوم، وبالداخل لمح مئات من النساء والأطفال والمسنيين على الأرض فوق أكوام من الفرو، وقد أشعل بعضهم بُور نارٍ للطهو.

توقّف دافوس في الرواق واشترى تفاحةً بنصف بنس، وسأل البائع: «هل يعيش أناس في (دار سك العملة القديمة)؟».

- «من لا يجدون مكاناً آخر للمعيشة. غالبيتهم عوام من أعالي (السكّين الأبيض)، وقوم من (هورنود) أيضاً. في وجود نغل بولتون إياه طليقاً يُريدون جميعاً أن يكونوا وراء الأسوار. لا أدري ماذا ينوي حضرة اللورد أن يفعل بهم. أكثرهم جاء بالخرق التي يرتديها فقط».

أحسّ دافوس بالذنب يخزه وخزاً. لقد أتوا هنا ناشدين الملاذ، إلى مدينة لم يمسهما القتال، وهانذا أتى لأجرهم ثانية إلى الحرب. أخذ قضمة من التفاحة أشعرته بدورها بالذنب، وسأل: «كيف يأكلون؟».

هَزَّ بَائِعَ التُّفَّاحِ كَتْفَيْهِ مَجِيْبًا: «بَعْضُهُمْ يَتَسَوَّلُ، بَعْضُهُمْ يَسْرِقُ. شَابَاتٌ كَثِيرَاتٌ اِمْتَهَنَ التَّجَارَةَ اِيَاهَا كَمَا تَفْعَلُ الْفَتِيَّاتُ حِيْنَ لَا يَتَبَقَّى لِهِنَّ شَيْءٌ اٰخَرَ يَبْعُهُ. اَيُّ صَبِيٍّ يَبْلُغُ طَوْلَهُ خَمْسَةَ اَقْدَامٍ يُمَكِّنُهُ اَنْ يَجِدَ مَكَانًا فِي ثُكُنَاتِ حَضْرَةِ اللُّورْدِ مَا دَامَ يَسْتَطِيْعُ اَنْ يَحْمِلَ حَرْبَةً».

اِنَّهُ يَحْشُدُ الرَّجَالَ اِذْنًا. قَدْ يَكُوْنُ هَذَا خَيْرًا... اَوْ شَرًّا، حَسَبِ الْاِحْوَالِ. كَانَتِ التُّفَّاحَةُ جَافَةً مَتَفَتَّتَةً، لَكِنْ دَافُوسٌ جَعَلَ نَفْسَهُ يَأْخُذُ قَضْمَةً اٰخَرَى قَبْلَ اَنْ يَسْأَلَ: «هَلْ يَنْوِي اللُّورْدُ مَاندِرْلِي التَّحَالْفَ مَعَ النَّغْلِ؟». رَدًّا بَائِعَ التُّفَّاحِ: «عِنْدَمَا يَنْزِلُ حَضْرَةَ اللُّورْدِ لِيَشْتَرِيَ تُّفَّاحَةَ الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ سَاحِرُصُّ عَلَيَّ سَوَالَهُ».

- «سَمِعْتُ اَنْ ابْنَتَهُ سَتَزَوِّجُ اَحَدَ اَبْنَاءِ فَرَاي».

- «حَفِيْدَتُهُ. سَمِعْتُ هَذَا اَيْضًا، لَكِنْ حَضْرَةُ اللُّورْدِ نَسِيَ اَنْ يَدْعُوْنِي اِلَى الرَّفَافِ. هَلْ سَتُكْوِمِلُ هَذِهِ التُّفَّاحَةَ؟ سَآخُذُ بِقِيَّتِهَا. الْبَدُوْرُ جَيِّدَةٌ».

اَلْقَى دَافُوسٌ اِلَيْهِ اللَّبَّ مَفْكَرًا: تُّفَّاحَةُ سَيِّئَةٌ، لَكِنْ مَعْرِفَةٌ اَنْ مَاندِرْلِي يَحْشُدُ الرَّجَالَ تَسْتَحِقُّ النَّصْفَ بِنِسْبَةِ دَارٍ حَوْلَ تَمَثَالِ قَدَمِ السَّمَكَةِ الْعَجُوزِ مَرَّةً اَبْتِغَاةً صَغِيْرَةً تَبِيْعَ اَكْوَابِ الْحَلِيْبِ الطَّازِجِ مِنْ مَعزَاتِهَا. الْاَنَ وَقَدْ عَادَ اِلَى الْمَدِيْنَةِ بَدَأَ يَتَذَكَّرُ الْمَزِيْدَ مِنْهَا. بَعْدَ الْبُقْعَةِ الَّتِي يُشِيْرُ اِلَيْهَا رُمَحُ التَّمَثَالِ رُفَاقُ بِيَاعٍ فِيهِ سَمَكٌ الْقَدِّ الْمَقْلِيِّ، ذَهَبِيٌّ هَشٌّ مِنَ الْخَارِجِ وَابْيَضٌ نَاضِجٌ مِنَ الدَّاخِلِ، وَفِي هَذَا الْاِتِّجَاهِ مَاخُوْرٌ اَنْظَفٌ مِنْ غَيْرِهِ يَسْتَطِيْعُ فِيهِ الْبَحَّارُ الْاِسْتِمْتَاعَ بِامْرَأَةٍ دُونَ اَنْ يَخْشَى اَنْ يُسْرِقَ اَوْ يُقْتَلَ، وَفِي النَّاحِيَةِ الْاٰخَرَى، فِي اَحَدِ الْمَنَازِلِ الْمَلْتَصِقَةِ بِاَسْوَارِ (عَرِيْنِ الذَّنَابِ) كَمَا يَلْتَصِقُ مَحَارُ الْبَرْنَقِيْلِ بِدَنْ سَفِيْنَةٍ قَدِيْمَةٍ، كَانَتْ تَوْجَدُ مَخْمَرَةً قَدِيْمَةً يَصْنَعُوْنَ فِيْهَا بِيْرَةً سُوْدَاءَ شَدِيْدَةِ الثُّخَانَةِ وَاللَّذَاذَةِ، مِنْ شَأْنِ الْبَرْمِيْلِ الْوَاحِدِ مِنْهَا اَنْ يَعُوْدَ عَلَيَّ بِاَتْعِهِ بَثْمَنَ بَرْمِيْلِ مِنْ نَبِيْذِ (الْكِرْمَةِ) الذَّهَبِيِّ فِي (بَرَاْفُوسِ) اَوْ (مِيْنَاءِ اِيْبِيْنِ)، هَذَا اِذَا تَرَكَ الْمَحْلِيُوْنَ لِلْخَمَّارِ شَيْئًا يَبِيْعُهُ.

لَكِنْ مَا يُرِيْدُهُ الْاَنَ هُوَ النَّبِيْذُ، نَبِيْذٌ لَازِعٌ دَاكِنٌ رَدِيءٌ. هَكَذَا قَطَعَ السَّاحَةُ وَنَزَلَ مَجْمُوْعَةً مِنَ الدَّرَجَاتِ اِلَى الْخَمَّارَةِ الْمَسْمُوْمَةِ (حَنْشِ الْمَاءِ الْكَسُوْلِ) تَحْتَ مَسْتَوْدَعٍ مَلِيءٍ بِجَلُوْدِ الْخُرَافِ. اِبَّانَ اَيَّامِ التَّهْرِيْبِ كَانَ (حَنْشِ الْمَاءِ) مَشْهُوْرًا بِتَقْدِيْمِ اَكْبَرِ الْعَاھِرَاتِ سِنًا وَاْرْدَا نَبِيْذِ فِي (الْمِيْنَاءِ الْاَبْيَضِ)، بِاِلْاِضَافَةِ

إلى فطائر لحم مليئة بالدهن والغضاريف، غير صالحة للأكل في أفضل الأحوال وسامة في أسوأها. مع هذه السمعة يتجنب معظم المحليين المكان تاركين إياه للبخارة الذين لا يعرفون حقيقته، ولذا لا يرى المرء أحدًا من حرس المدينة أو قيمي الجمارك هناك أبدًا.

بعض الأشياء لا يتغير أبدًا، وداخل (حنش الماء) تجمد الزمن. السقف المقنطر مبعث بسواد السخام، والأرضية من التربة الصلبة، والهواء رائحته دُخان ولحم فاسد وقيء قديم. تُصدر الشموع السمينية المصنوعة من الشحم على الموائد دُخانًا أكثر من الضوء، وفي العتمة بدا النبيذ الذي طلبه دافوس بنيا أكثر من أحمر. قُرب الباب تجلس أربع عاهرات يشربن، وقد منحته واحدة منهن ابتسامة أمل لدى دخوله، لكن حين هز رأسه نفيًا قالت المرأة لرفيقاتها شيئًا أضحكهن، وبعدها لم تُعره إحداهن اهتمامًا.

باستثناء العاهرات والمالك كان المكان لدافوس وحده. القبو واسع مليء بالأركان والتجاويف الظليلة التي يستطيع المرء الانفراد فيها بنفسه، فأخذ نبيذه إلى أحدها وجلس مسندًا ظهره إلى الحائط ينتظر.

لم يمض وقت طويل قبل أن يجد نفسه يُحدق إلى المستوقد. المرأة الحمراء ترى المستقبل في النار، لكن دافوس سيوورث لا يرى فيها إلا أطياف الماضي؛ السفن المحترقة، والسلسلة النارية، والظلال الخضراء ثومض على بطون السحاب، و(القلعة الحمراء) مرتفعة فوق كل شيء. دافوس رجل بسيط، لم يترق إلا عن طريق الصدفة والحرب وستانيس، ولا يفهم لماذا أخذت الآلهة أربعة فتية يافعين أقوياء كأبنائه وتركت أباهم المتعب على قيد الحياة. في بعض الليالي يُفكر أنه بقي حيًا لإنقاذ إدريك ستورم... لكن مؤكّد أن ابن الملك روبرت النغل آمن في (الأعتاب) الآن، ولا يزال دافوس هنا. هل عند الآلهة مهمة أخرى لي؟ إن صحَّ هذا فقد تكون (الميناء الأبيض) جزءًا منها. جرّب النبيذ ثم سكب نصف كوبه على الأرض إلى جوار قدمه.

مع حلول الغسق بالخارج بدأت دكك (حنش الماء الكسول) تمتلئ بالبخارة. طلب دافوس كوب نبيذ ثانيًا من المالك، ولمّا جلبه الرجل جلب معه شمعة أيضًا، وسأله: «هل تُريد طعامًا؟ عندنا فطائر لحم».

- «ما نوع اللحم الذي فيها؟»-

- «النوع المعتاد. إنها طيبة».

ضحكت العاهرات، وقالت إحداهن: «يعني أنه لحم رمادي».

- «أطريقي فمك اللعين. أنت تأكلينها».

- «وأكل جميع أصناف الخراء، لكن هذا لا يعني أنني أحبّه».

ما إن ابتعد المالك أطفأ دافوس الشمعة بنفخةٍ وعادَ يجلس في الظلّ. البحارة أكثر من ينهمكون في التّميمة في العالم عندما يتدفق النّبيذ، حتى إذا كان رخيصًا كهذا، وما عليه إلا أن يُصغي.

معظم ما سمعه سبق أن عرفه بالفعل في (بلدة الأخوات) من اللورد جودريك أو مُرتادي (بطن الحوت). مات تايوين لانستر، فتكّ به ابنه القزم، وقد فاحت من جثمانه رائحة شنيعة جعلت أحدًا لا يجرؤ على دخول (سيت بيلور الكبير) لأيام بعدها. سيّدة (العُش) قتلها مطرب، والإصبع الصّغير يحكم (الوادي) الآن، لكن يون رويس البرونزي أقسم على الإطاحة به. بالون جرايچوي مات أيضًا، وإخوته يتشاجرون على كرسي حجر اليم. ساندور كليجاين خرج عن القانون ويعيث فسادًا وقتلًا ونهبًا في أراضي (الثالوث). (مير) و(ليس) و(تايروش) متورّطات في حربٍ أخرى. في الشّرق ثورة عبيد مشتعلة.

لكنه وجدّ أنباءً أخرى أكثر إثارة لاهتمامه. روت جلوفر كان في المدينة يُحاول حشد الرّجال، لكن نجاحًا قليلًا حالفه إذ صمّ اللورد ماندرلي أذنيه عن التماسه، ويُشاع أنه قال إن (الميناء الأبيض) تعبت من الحرب. سيّء هذا. باغت آل ريزويل وآل داستن الأسطول الحديدي في (النّهر المحموم) وأضرّمو النّار في سفنهم الطويلة. وهذا أسوأ. والآن يركب نغل بولتون جنوبًا مع هوثر أومبر للانضمام إليهم في الهجوم على (خندق كايلن)، وهو ما قال عنه ملاح نهري أتى بشحنةٍ من الجلود والخشب عبر (السكّين الأبيض): «باقر العاهرة بنفسه ومعه ثلاثمئة من حملة الحِراب ومئة من الرّماة. بعض رجال (هورنوود) انضمّوا إليهم، وبعض رجال (سروين) أيضًا». وهذا هو الأسوأ على الإطلاق.

قال العجوز الجالس عند طرف المائدة: «خيرٌ للورد وايمان أن يُرسل رجالًا للقتال إذا كان يعلم ما في صالحه. اللورد رويس هو الحاكم الآن، و(الميناء الأبيض) مرتبطة ارتباطًا شرف بتلبية استدعائه».

رَدَّ مالِكُ الخَمَّارَةَ وهو يصبُّ لهم المزيد من النَّبِيذِ البَنِيِّ: «وما الذي يعرفه أَيْ من آل بولتون عن الشَّرَفِ؟».

- «اللورد وايمان لن يذهب إلى أيِّ مكان. إنه مفرط البدانة».

- «سمعتُ أنه مريض. يقولون إنه لا يفعل شيئًا إِلَّا النَّومَ والبُكاءَ. أكثر الأيام لا يستطيع النهوض من فراشه من شدَّة المرض».

- «تعني من شدَّة البدانة».

- «لا علاقة للبدانة أو النَّحافة بالأمر. ابنه أسير عند الأسود».

لم يتكلَّم أحد عن الملك ستانيس، بل ولم يبدُ أن أحدًا يعلم أنه أتى إليَّ الشَّمال لِيُساعد في الدَّفَاعِ عن (الجِدَار). في (القلعة الشَّرقيَّة) كان الكلام كله عن الهمج والجُثِّ الحيَّة والعمالقة، لكن هنا لا أحد يُفكِّر فيهم مجرد تفكير على ما يبدو.

مَالٌ دافوس لِيَدْخُلَ دائرة الصَّوء قائلًا: «ظننتُ أن آل فراي قتلوا ابنه. هذا ما سمعناه في (بلدة الأخوات)».

أجابَه المالك: «قتلوا السير وندل. عظامه راقدة في (سبَّت الثلوج) وحولها الشُّموع إذا أردت أن تُلقِي نظرةً. أمَّا السير وايليس فلا يزال أسيرًا».

أسوأ وأسوأ. كان يعرف أن للورد وايمان ابنين، لكنه حسبَ كلاهما مات. إذا كانت عند العرش الحديدي رهينة... دافوس أنجبَ سبعة أبناء وفقدَ أربعة منهم في (النَّهر الأسود)، ويعلم أنه مستعدٌّ لِفعل ما تطلَّبه منه الآلهة أو البَشَر أيًّا كان لحماية الثلاثة الباقيين. ستفون وستانيس يبعُدان آلاف الفراسخ عن القتال وِأمان من الأذى، لكن دُفان مُرافق الملك في (القلعة السَّوداء). الملك الذي قد تصيب قضيئته أو تخيب بسبب (الميناء الأبيض).

كان رفاقه الشَّاربون يتكلَّمون الآن عن التَّنائين، وقال ملاح من (راقصة العواصف): «أنت مجنون كبير. الملك الشَّحاذ مات منذ أعوام، قطعَ أحد الدوثرافي سادة الخيول رأسه».

رَدَّ العجوز: «هذا ما يقولونه لنا. ربما يكذبون. لقد مات على الجانب الآخر من العالم، إذا كان قد مات حقًّا. من يدري؟ إذا أرادَ ملك ما موتي فقد يكون عليَّ أن أجاره وأنظاها باني جثَّة. لا أحد منا رأى جثته».

دمدمَ مالك الخَمَّارة: «أنا لم أرَ جثَّةَ چوفري أو روبرت. ربما يكونون أحياء جميعاً إذن، وربما كان بيلور المُبارك غافياً طوال هذه الأعوام لا أكثر». كسَّر العجوز قائلاً: «لم يكن الأمير فُسيرس التَّين الوحيد، أليس كذلك؟ ونحن واثقون بأنهم قتلوا ابن الأمير ريجار؟ كان رضيعاً». قالت العاهرة التي ذكَّرت أن اللحم رمادي: «ألم تكن هناك أميرة أيضاً؟». أجابها العجوز: «أميرتان، واحدة ابنة ريجار والثانية أخته». قال المَلَّاح النَّهري: «داينا كانت الأخت، داينا ابنة (دراجونستون). أم أنها دايرا؟».

قال رجل (راقصة العواصف): «داينا كانت زوجة الملك بيلور. عملتُ مجدِّفاً على سفينةٍ تحمل اسمها مرَّةً، (الأميرة داينا)». - «لو كانت زوجة ملكٍ فالمفترَض أن تكون ملكةً». - «لم تكن لبيلور ملكة. لقد كان ورعاً».

قالت العاهرة: «ليس معنى هذا أنه لم يتزوَّج أخته، لكنه لم يُصاحِجها. حين نَصَّبوه ملكاً حبسها في بُرج، هي وأختيها الأخرين أيضاً. كنَّ ثلاثاً». أعلن المالك: «داينلا، كان هذا اسمها، أعني ابنة الملك المجنون لا زوجة بيلور اللَّعينة».

قال دافوس: «دنيرس. سمَّوها تيمُّناً بدنيرس التي تزوجت أمير (دورن) في عهد دايرون الثاني. لا أدري ماذا حدث لها».

- «أنا أدري»، قال الرَّجل الذي بدأ الكلام عن التَّنانين، مَلَّاح برافوسي يرتدي سُترَةً كالحِجَّة من الصُّوف. «في (پنتوس) رسونا إلى جوار سفينةٍ تجاريَّة اسمها (العذراء الحولاء)، وشربتُ مع وكيل رُبَّانها الذي حكى لي حكايةً مسليَّةً عن فتاةٍ نحيلةٍ صعَّدت إلى متن سفينتهم في (كارث) لتحجز رحلةً إلى (وستروس) لها ولتنانينها الثلاثة. كان شعرها فضياً وعيناها أرجوانيتين. أكَّد الوكيل لي قائلاً: أخذتها إلى الرُّبَّان بنفسه لكنه رفضَ تماماً. قال لي إن المكسب أكبر في القرنفل والزَّعفران، والتَّوابل لا تُشعل النَّار في القلوع».

اجتأح الصُّحك القبو، لكن دافوس لم يشترك فيه. إنه يعلم ما جرى لـ(العذراء الحولاء). قسوة من الآلهة أن تدع رجلاً يُبحر حول نصف العالم ثم تُرسله يُطارِد ضوءاً زائفاً وهو موشك على العودة إلى الوطن. فكَّر في طريقه

إلى الباب: كان رُبَّانها رجلاً أجراً مني. رحلة واحدة إلى الشَّرق ويستطيع المرء أن يعيش ثرياً كاللوردات حتى آخر عُمره. في شبابه حلِمَ دافوس بالقيام برحلاتٍ كتلك، لكن السنين مرَّت تتراقص كالعثِّ حول اللهب، وبشكل ما لم يبدُ الأوان مناسباً قطُّ. يوماً ما، يوماً ما حين تضع الحرب أوزارها ويرتقي الملك ستانيس العرش الحديدي ولا يعود محتاجاً إلى فرسان البصل. سأخذ دقان معي، وستف وستاني أيضاً إذا كانا قد كبرا. سترى تلك التنانين وعجائب العالم كلها.

بالخارج كانت الرِّيح تهبُّ مرجفةً لهب مصاييح الزَّيت التي تُضيء السَّاحة. ازدادت البرودة منذ غربت الشَّمس، لكن دافوس تذكَّر (القلعة الشَّرقيَّة) وكيف كانت الرِّيح تعصف صارخةً على (الجدار) ليلاً وتنفذ من أثقل الثَّياب لتُجمد دماء المرء في عروقه. (الميناء الأبيض) حَمَّام دافئ بالمقارنة.

ثمة أماكن أخرى يستطيع أن يملأ فيها أذنيه بالأخبار، منها خان مشهور ببطائر سمك السُّلوق، والحانة التي يشرب فيها الصوَّافون ورجال الجمارك، وقاعة ممثلين يستطيع المرء أن يجد فيها تسليَّةً بذِيئةٍ مقابل بضعة بنسات، إلا أن دافوس أحسَّ أنه سمعَ ما يكفي. وصلتُ متأخراً جداً. جعلته الغريزة القديمة يمدُّ يده إلى صدره حيث كان يحتفظ بعظم أصابعه في كيسٍ صغير معلق من شريطٍ جلدي، لكن لا شيء هناك الآن. لقد فقدَ حظَّه في نيران (النَّهر الأسود) مع سفينته وأبنائه.

شدَّ معطفه على جسده متسائلاً في أعماقه: ماذا أفعلُ الآن؟ هل أصعدُ التلَّ وأقدِّمُ نفسي عند بوابة (القلعة الجديدة) من أجل التماس عقيم؟ أعودُ إلى (بلدة الأخوات)؟ أرجعُ إلى ماريابا وابني؟ أشتري حصاناً وأسلك (طريق الملوك) لأخبر ستانيس بأنه بلا أصدقاء في (الميناء الأبيض) وبلا أمل؟

في الليلة السَّابقة لإبحار أسطوله أقامت الملكة سيليس وليمةً لسالا وربابنته، وانضمَّ إليهم كوتر بايك وأربعة آخرون من كبار قيِّمي حرس الليل، وسُمِحَ للأميرة شيرين بالحضور أيضاً. عند تقديم السَّلْمون سلى السير أكسل فلورنت الجالسين إلى المائدة بحكايةٍ عن أمير صغير من آل تارجارين اتَّخذ قرداً حيواناً أليفاً. أحبَّ الأمير أن يُلبس الحيوان ثياب ابنه الميت ويتظاهر

بأنه طفل، وطبقًا للسير آكسل كان يعرض زيجته من أجله كل فترة، ليرفض اللوردات الذين شرفهم بالعرض بأدب، لكنهم كانوا يرفضون بالطبع. «حتى في الحرير والمخمل يبقى القرد قردًا. كان أمير أكثر حكمة ليعلم أنه لا يستطيع أن يرسل قردًا للقيام بعمل رجل». ضحك رجال الملكة لقول السير آكسل، ومنح كثيرون منهم دافوس ابتسامات واسعة، ففكر: لست قردًا. أنا لورد مثلك، ورجل أفضل منك، غير أن الذكرى لا تزال موجعة.

أغلقت (بوابة القمات) الليلة، ولن يتمكن من العودة إلى (القابلة المرحية) حتى الفجر. رفع عينيه إلى قدم السمكة العجوز ورُمحه الثلاثي قائلاً في نفسه: لقد جئت عبر الأمطار والحطام والعواصف، ولن أعود دون أن أفعل ما أتيت لأفعله مهما بدا ميؤوساً منه. ربما فقد أصابعه وحظه، لكنه ليس قردًا يرتدي المخمل، بل يد الملك.

(سلالم القلعة) شارع مدرج، طريق أبيض عريض يقود من (عرين الذئب) على الماء إلى (القلعة الجديدة) فوق تلها، وقد رأى دافوس وهو يصعد عرائس بحر من المرمر يوضن الطريق بأوعية من زيت الحيتان المشتعل بين أذرعهن. حين بلغ القمة التفت ينظر وراه، فمن هنا يستطيع أن يرى كلا المرفأين. وراء حاجز الأمواج المسور المرفأ الداخلي مزدحم بالقوادس الحربية، وقد أحصى دافوس ثلاثة وعشرين. اللورد وايمان بدين، لكنه ليس عاطلاً عن العمل كما يبدو.

وجد بوابة (القلعة الجديدة) مغلقة، لكن باباً جانبياً انفتح على إثر صيحة منه، وخرج حارس يسأله عن شأنه، فأراه دافوس الشريط الأسود والذهبي الذي يحمل الأختام الملكية، وأجاب: «يجب أن أرى اللورد ماندرلي في الحال. إن شأني معه وحده».



دنيرس

تَأَلَّقَ الرَّاقِصُونَ، أَجْسَادَهُمُ الْحَلِيقَةَ الْمَلْسَاءَ مَصْقُولَةَ بِالزَّرِيَّتِ اللَّامِعِ،
وَالْمَشَاعِلَ الْمَتَّقَةَ تَدُورُ مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ عَلَى إِيقَاعِ الطَّبْلِ وَنَوَاحِ النَّايِ
الْمَرْتَعَشِ. مَتَى تَقَاطَعَ مَشْعَلَانِ فِي الْهَوَاءِ تَثْبُ فِتْنَةٌ عَارِيَةٌ بَيْنَهُمَا دَائِرَةٌ حَوْلَ
نَفْسِهِمَا، وَالضُّوءُ يَتَلَأَلُ عَلَى الْأَطْرَافِ وَالْأَثْدَاءِ وَالْأَرْدَافِ الْمَزِيَّتَةِ.

الرِّجَالُ الثَّلَاثَةُ مُنْتَصِبُوا الْأَعْضَاءِ، مَنْظَرُ تَهَيُّجِهِمْ فِي حَدِّ ذَاتِهِ يُهَيِّجُ، وَلَوْ
أَنَّ دَنِيرَسَ تَارِجَارَيْنِ وَجَدْتَهُ طَرِيفًا أَيْضًا. ثَلَاثَتُهُمْ مُتَسَاوُونَ فِي الطُّوْلِ، لَهُمْ
سَيْقَانٌ طَوِيلَةٌ وَبَطُونٌ مُسَطَّحَةٌ، وَكُلُّ عِضْلَةٍ كَأَنَّهَا مَنْحُوْتَةٌ مِنَ الْحَجَرِ، وَحَتَّى
وَجُوهُهُمْ تَبْدُو مُتَمَاثِلَةً بِشَكْلِ مَا... وَهُوَ الْغَرِيبُ نَوْعًا، بِمَا أَنَّ لِأَحَدِهِمْ
بَشْرَةً سُودَاءَ كَالْأَبْنُوسِ، وَالثَّانِي شَاحِبٌ كَالْحَلِيبِ، وَالثَّلَاثُ يَبْرِقُ كَالنُّحَاسِ
الصَّقِيلِ.

عَدَلْتُ دَانِي جَلِسَتَهَا بَيْنَ وَسَائِدِهَا الْحَرِيرِ مَفْكَرَةً: أَمِنَ الْمَفْتَرِضُ أَنْ
يُثْبِرَ وَنِي؟ عِنْدَ الْأَعْمَدَةِ يَقِفُ مُطَهَّرُوهَا فِي خَوْذِهِمُ الْمَدْيَبَةِ كَالْتَّمَاثِيلِ بِلَا تَعْبِيرٍ
عَلَى وَجُوهِهِمُ النَّاعِمَةِ، عَلَى عَكْسِ الرِّجَالِ الْكَامِلِينَ. فَغَرَّ رِزْنَاكَ مَوْ رِزْنَاكَ
فَاهُ وَالتَّمَعَتْ شَفْتَاهُ الْمَبْتَلَّتَانِ وَهُوَ يُشَاهِدُ، وَقَالَ هِيزْدَارُ زَوْ لُورَاكَ شَيْئًا لِلرَّجُلِ
الْمَجَاوِرِ لَهُ وَلَكِنْ دُونَ أَنْ تُبَارِحَ نِظْرَاتُهُ الرَّاقِصَاتِ، فِي حِينِ ظَلَّ وَجْهَ الرَّأْسِ
الْحَلِيقِ الدُّهْنِيِّ الْقَبِيحِ صَارِمًا كَالْمَعْتَادِ، وَإِنْ لَمْ يَفُتْ عَيْنِيهِ شَيْءٌ.

غَيْرَ أَنَّهَا وَجَدَتْ مَعْرِفَةَ مَا فِي مَخِيَلَةِ ضَيْفِهَا الْكَرِيمِ أَصْعَبَ. يَرْفُلُ الرَّجُلُ
الشَّاحِبِ النَّحِيلِ ذُو الْقِسْمَاتِ الصَّعْبِيَّةِ الْحَادَّةِ، الَّذِي يُشَارِكُهَا مَا نَدَتْهَا الْعَالِيَةَ،
فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَحْمَرِ الْمَصْفَرِّ وَقُمَاشِ الذَّهَبِ، وَيَلْتَمِعُ رَأْسُهُ الْأَصْلَعُ
فِي ضَوْءِ الْمَشَاعِلِ وَهُوَ يَأْكُلُ ثَمْرَةً مِنَ التَّيْنِ بِقِضْمَاتٍ صَغِيرَةٍ أُنَيْقَةٍ مُنْتَزِمَةٍ،

وإذ أدَارَ زارو زون داكسوس رأسه يُتَابِعُ الرَّاقِصِينَ بِرَقَّتِ حَبَّاتِ الأَوْبَالِ عَلَى أَنْفِهِ.

على شَرَفِهِ ارْتَدَّتْ دَنِيرَسُ فُسْتَانًا عَلَى الطَّرَازِ الكَارِثِينِي مِنَ السَّمِيَّتِ الأَرْجَوَانِي الشَّفَافِ، مَقْصُوبًا بِحَيْثُ يَتْرُكُ ثَدِيهَا الأَيْسَرَ مَكْشُوفًا، وَقَدْ اسْتَدَلَّ شَعْرَهَا الذَّهَبِي الفَضِّي بِخَفَةِ عَلَى كَتْفَيْهَا يَكَادُ يَلْمَسُ حَلْمَتَيْهَا. نِصْفَ الرَّجَالِ فِي القَاعَةِ اخْتَلَسُوا إِلَيْهَا النَّظْرَاتِ، وَلَكِنْ لَيْسَ زَارُو. مِثْلَمَا كَانَ فِي (كَارِثِ). لَيْسَ بِإِمكَانِهَا اسْتِمَالَةَ الأَمِيرِ التَّاجِرِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ. لَكِنْ عَلَيَّ أَنْ أُسْتَمِيلَهُ. وَصَلَ الرَّجُلُ مِنْ (كَارِثِ) عَلَى مَتْنِ القَالِيُونَ (سَحَابَةِ الحَرِيرِ) يُرَافِقُهُ ثَلَاثَةَ عَشْرَ قَادِسًا، أُسْطُولُهُ بِمِثَابَةِ دُعَاءِ أُجِيبَ. لَقَدْ شَحَّتِ التَّجَارَةُ فِي (مِيرِينِ) حَتَّى انْقَطَعَتْ تَمَامًا مِنْذُ قَضَّتْ دَانِي عَلَى العَبُودِيَّةِ، لَكِنْ زَارُو يَمْلِكُ القُدْرَةَ عَلَى إِحْيَائِهَا.

مَعَ تَعَاظُمِ دَقَّاتِ الطُّبُولِ وَثَبَّتْ ثَلَاثُ مِنَ الفَتِيَاتِ فَوْقَ اللَّهَبِ دَائِرَاتٍ فِي الهَوَاءِ، وَأَمْسَكَهُنَّ الرَّاقِصُونَ مِنَ الخَصْرِ وَأَنْزَلُوهُنَّ عَلَى أَعْضَائِهِمْ، وَشَاهَدَتْ دَانِي إِذْ قَوَّسْنَ ظُهُورَهُنَّ وَطَوَّقَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ شَرِيكَيْهَا بِسَاقِيهَا، فِيمَا نَاحَتْ النَّيَّاتِ وَدَفَعَ الرَّجَالُ أَنْفُسَهُمْ دَاخِلَهُنَّ عَلَى إِيقَاعِ المَوْسِيقَى. سَبَقَتْ لَهَا رُؤْيَا فِعْلِ الحُبِّ مِنْ قَبْلِ، فَالْدَوْتِرَاكِي يَتَزَاوَجُونَ عَلَنًا كَفَحُولِهِمْ وَأَفْرَاسِهِمْ، إِلَّا أَنَّهَا المَرَّةَ الأُولَى الَّتِي تَرَى فِيهَا الشَّهْوَةَ مَنْغَمَةً.

أَحْسَتْ بِوَجْهِهَا دَافِقًا، فَقَالَتْ لِنَفْسِهَا: إِنَّهُ النَّبِيذُ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا وَجَدَتْ أَفْكَارَهَا تَدُورُ حَوْلَ دَارِيو نَهَارِيسَ. صَبَاحَ اليَوْمِ وَصَلَ مَرْسَالُهُ يَقُولُ إِنَّ غَرِبَانَ العَاصِفَةَ عَائِدُونَ مِنْ (لَا زَارِ). قَائِدُهَا رَاجِعٌ إِلَيْهَا جَالِبًا مَعَهُ صَدَاقَةَ شَعْبِ الحَمْلَانِ. ذَكَرَتْ نَفْسُهَا: الطَّعَامُ وَالتَّجَارَةُ. لَمْ يَخْذَلْنِي، وَلَنْ يَفْعَلَ. دَارِيو سَيُسَاعِدُنِي عَلَى إِتْقَانِ مَدِينَتِي. تَشْتَاقُ المَلِكَةُ إِلَى رُؤْيَا وَجْهِهِ، إِلَى التَّمْلِيسِ عَلَى لِحِيَّتِهِ ثَلَاثِيَّةَ الشُّعْبِ، إِلَى البُوحِ لَهُ بِهَمُومِهَا... لَكِنْ غَرِبَانَ العَاصِفَةَ مَا زَالُوا يَبْعُدُونَ أَيَّامًا طَوِيلَةً وَلَمْ يَجْتَازُوا (مَمَرِ كَايزَايِ) بَعْدُ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنِ حُكْمِ البِلَادِ.

ارْتَفَعَ الدُّخَانُ فِي الهَوَاءِ بَيْنَ الأَعْمَدَةِ الأَرْجَوَانِيَّةِ، وَرَكَعَ الرَّاقِصُونَ بِرُؤُوسِ مَحْنِيَّةٍ، فَقَالَتْ لَهُمْ دَانِي: «كُنْتُمْ رَائِعِينَ. نَادِرًا مَا رَأَيْتُ هَذِهِ الرَّشَاقَةَ وَهَذَا الجَمَالَ»، ثُمَّ أَشَارَتْ إِلَى رِزْنَاكَ مَوْزِنَاكَ، فَهَرَعَ إِلَيْهَا القَهْرْمَانُ وَحَبَّاتِ

العرق تُرَقِّط رأسه الأصلح المتغصن. أمرته قائلة: «اصحب ضيوفنا إلى الحمّامات كي يغتسلوا، واجلب لهم طعامًا وشرابًا».

- «شرف عظيم لي أن أفعل يا صاحبة السُّمو».

رفعت دنيرس كأسها لتعيد إيري ملئها. النّبذ قوي حُلُو عابق برائحة التّوابل الشّرقيّة، أجود كثيرًا من النّبذ الجيسكاري الخفيف الذي يملأ كأسها في الفترة الأخيرة. مدّ زارو يده إلى صحيفة الفواكه التي قدّمها له چيكيوي واختار ثمرةً من التّين الكاكي يُشبه قشرها البُرْتقالي لون حبة المرجان في أفضه، ثم قضم منها وزمّ شفّته قائلاً: «لاذعة».

- «هل يُفضّل سيّدي شيئًا أحلى؟».

- «الحلاوة تكظّ النَّفس. ما يُعطي الحياة نكهتها الفاخرة اللاذعة والنّساء اللاذعات»، وأخذ زارو قضمهً أخرى ومضغَ وازدرد، ثم قال: «دنيرس أيتها الملكة الجميلة، لا يُمكنني أن أصف لك ابتهاجي بالتّنعّم بحضورك ثانية. من غادرت (كارث) طفلة، ضائعة مثلما هي عذبة. خشيتُ أنها مبحرة إلى حتفها، وهأنذا أجدّها الآن متوجّهة، سيّدة على مدينةٍ عريقة ومحاطةً بجيشٍ قوي أتيت به من الأحلام».

لا، بل من الدّم والنّار. «إنني سعيدة لمجيتك إليّ. تسرّني رؤية وجهك ثانية يا صديقي». لن أتق بك، لكنني محتاجة إليك، محتاجة إلى زملائك في رابطة الثّلاثة عشر، محتاجة إلى سُنْفك، محتاجة إلى تجارتك.

لقرونٍ كانت (ميرين) وأختها (يونكاي) و(أستاپور) حجر زاوية تجارة الرّقيق، المكان الذي يبيع فيه گالات الدوثرافي وقراصنة (جُزر البازيليسق) أسراهم وتأتي بقيّة العالم لتشتري، لكن بلا عبيد فليس عند (ميرين) ما تعرضه على التّجّار. النّحاس وفير في التّلال الجيسكاريّة، لكن المعدن لم يعد قيمًا كما كان لَمَّا حكمَ البرونز العالم، وأشجار الأرز الباسقة التي كانت ناميةً على السّاحل لم تعد موجودةً، بترتها فؤوس الإمبراطوريّة القديمة أو أتت عليها نيران التّنانين حين سنّت (جيس) الحرب على (فاليريا)، وما إن زالت الأشجار يبست التّربة تحت الشّمس الحارقة وذرّتها الرّيح في سُحبٍ حمراء كثيفة. في (معبد ذوات النّعم) أخبرتها جالازا جالار: «تلك المصائب

هي ما حوّل ناسي إلى نحّاسين»، فأقسّمت داني لنفسها: وأنا المصيبة التي ستحوّل هؤلاء النحّاسين إلى ناسٍ من جديد.

قال زارو بنبرة فاترة: «كان يجب أن آتي. حتى في (كارث) البعيدة بلغت سامعي حكايات مخيفة بكيّت لسماعها. يُقال إن أعداءك وعدوا من يقتلُك بالثروة والمجد ومئة أمةٍ عذراء».

- «أبناء الهاربي». كيف عرفَ هذا؟ «يضعون علامتهم على الجدران ليلاً ويذبحون المعتقّين الشرفاء وهم نيام، وحين تطلع الشمس يُسارعون بالاختباء كالصّراصير. إنهم يخافون وحوشي النحاسيّة». أعطاهما سكاهاز مو كانداك فرق الحراسة الجديدة التي طلبتها، المكوّنة بالتساوي من المعتقّين والميرينزيين حليقي الرّؤوس، ويحجب رجالها الشوارع ليل نهار بقلنسوات داكنة وأقنعة من النحاس. توعّد أبناء الهاربي أيّ خائن يتجرّأ على خدمة ملكة التّنانين بميتة بشعة، وأقاربه وأصحابه أيضاً، وهكذا يتحرّك رجال الرّأس الحليقي في صورة بنات آوى وبوم وغيرها من المخلوقات مخفين وجوههم الحقيقيّة. «قد أجدُ دافعاً لخشية الأبناء إذا رأوني أتجوّل وحدي في الشوارع، لكن فقط إن كان الوقت ليلاً وكنتُ عاريةً عزلاء. إنهم كائنات جبّانة».

- «خناجر الجبّناء تقتل الملكات بالسّهولة نفسها كخناجر الأبطال. سأنامُ قرير العين إذا عرفتُ أن بهجة قلبي تحتفظ بخيالتها الأشاوس على مقربةٍ منها. في (كارث) كان معك ثلاثة خيالّة دم لم يبرحوا جانبك قط. أين ذهبوا؟».

- «ما زال آجو وچوجو وراكارو يخدمونني». إنه يلاعبي. بإمكان داني اللّعب أيضاً، وهكذا قالت: «أنا مجرد فتاةٍ صغيرة وأعرف القليل عن تلك الأمور، لكن رجالاً أكبر وأكثر حكمةً يقولون لي إن الحفاظ على (ميرين) يستدعي الهيمنة على المناطق الدّاخليّة البعيدة عن السّواحل، أي على جميع الأراضي غرب (لازار) وجنوباً حتى التّلال اليونكيّة».

- «مناطقك الدّاخليّة لا تهمني، أنت المهمّة عندي. إذا وقع لك مكروه فسيفقد هذا العالم مذاقه».

- «لطف من سيّدي أن يهتمّ إلى هذا الحد، لكنني محميّة جيّداً»، وأشارت داني نحو باريسستان سلمي الواقف مريحاً يده على مقبض سيفه، وأضافت: «يدعونه بباريستان الباسل. لقد أنقذني مرّتين من المغتالين».

ألقي زارو نظرةً فاحصةً عابرةً على سلمى، ثم قال: «قلتِ باريستان الهرم؟ فارسكِ الدُّب كان أصغر سنًّا ومخلصًا لكِ».

- «لا أريدُ أن أتكلّم عن چورا مورمونت».

قال الأمير التَّاجر: «بالتَّأكيد. كان رجلًا خشنًا مُشعرًا»، ثم مالَ عبر المائدة مردفًا: «دعينا نتكلّم بدلًا من ذلك عن الحُبِّ، عن الأحلام والرَّغبات ودنيرس أجمل امرأةٍ في العالم. لقد أسكرتني طلعتك».

ليست مجاملات الكارثيين المبالغ فيها غريبةً عليها، فردَّت: «إذا كنت سكرانَ فلم النبيذ».

- «لا نبيذ في العالم يُسكر كجمالِك. منذ رحلت دنيرس وضيعتي تبدو خاويةً كمقبرة ومذاق مباهج ملكة المدائن كالرَّماد في فمي. لماذا هجرتني؟».

لقد خرجتُ من مدينتك مطرودةً أخشى على حياتي. «لأن وقتَ الذهاب حانَ. (كارث) أرادتِ رحيلي».

- «من؟ أنقياء الميلاد؟ إن في عروقهم ماءً لا دماء. العطَّارون؟ هؤلاء ليس في رؤوسهم عقول، والخالدون ماتوا جميعًا. كان حريًّا بك أن تتخذيني زوجًا. إنني شبه متأكّد من أنني طلبتُ يدك، بل وتوسّلتُ إليك».

قالت داني معابثةً: «عشرات المرَّات فقط. أنت من استسلمت بسهولة يا سيّدي، لأن عليّ بالفعل أن أتزوِّج كما اتَّفقت الجميع».

قالت إيرى وهي تُعيد ملء كأس الملكة: «يجب أن يكون للكاليسي غال. هذا معلوم».

تساءلَ زارو: «هل أطلبُ يدك ثانيةً إذن؟»، ثم تابعَ: «لا، إنني أعرفُ هذه الابتسامة. ملكة قاسية تلك التي تتلاعب بقلوب الرِّجال. التُّجار المتواضعون أمثالي ليسوا أكثر من حصى تحت صندلِك المحلّي بالجواهر»، وسالت دمعاً واحدة على وجنته البيضاء الشَّاحبة.

لكن معرفة داني به حالت دون أن تفتّ دمعته في عضدها، فالكارثيين يستطيعون البُكاء متى أرادوا. قالت له: «أوه، كُفَّ عن هذا»، وأخذت حبةً كرزٍ من الوعاء الموضوع على المائدة وألقته على أنفه، وتابعت: «قد أكون فتاةً صغيرةً، لكنني لستُ بالحماقة التي تجعلني أتزوِّج رجلًا يجد طبق الفواكه أكثر إثارةً من ثديي. لقد رأيتُ أيُّ الرَّاقصين كنت تُشاهد».

مسح زارو دمعته قائلاً: «نفس الذين كانت صاحبة الجلالة تُتابعهم على ما اعتقد. إننا متشابهان كما ترين. إن لم تقبليني زوجاً فأنا قانع بأن أكون عبدك». - «لا أريدُ عبيداً. إنني أعتقك». صنع أنفه المحلّى بالجواهر هدفاً مغريباً، وهذه المرّة ألقته داني بحبّة مشمش.

التقطها زارو في الهواء وأخذ منها قضمَةً، ثم قال: «من أين أتى هذا الجنون؟ هل عليّ أن أعد نفسي محظوظاً لأنك لم تعتقي عبيدي عندما كنت ضيفتي في (كارث)؟».

فكرت داني: كنتُ ملكةً شحاذةً وكنت زارو رجل رابطة الثلاثة عشر، ولم تكن تُريد إلاّ تانيي. «عبيدك بدوا راضين يتلقون معاملةً حسنةً، لكن عيني لم تفتحا حتى (أستاپور). هل تعرف كيف يُعدُّ المُطهّرون ويُدرّبون؟».

- «بقسوةٍ لا ريب. حين يصنع الحدّاد سيفاً فإنه يضع النّصل في النّار ويدقُّ عليه بمطرقة ويغمسه في الماء المثلج لتسقية الفولاذ. إذا أردت الاستمتاع بمذاق الفاكهة الحلو فعليك أن تسقي الشّجرة». - «هذه الشّجرة مسقية بالدم».

- «وهل من وسيلةٍ أخرى لإثمارها الجند؟ صاحبة الرّونق استمتعت براقصي. هل يُدهشك أن تعرفي أنهم عبيد وُلدوا ودرّبوا في (يونكاي)؟ إنهم يرقصون منذ تعلموا المشي، وإلا فكيف حقّقوا هذا الكمال؟»، ورشف زارو من النّبذ قبل أن يواصل: «إنهم متمرّسون في كلّ الفنون الحسيّة أيضاً. خطر لي أن أهديهم إلى جلالتك».

ردّت داني التي لم تندesh: «بكلّ تأكيد. سأعتقهم». أحفله ردها، وقال: «وماذا سيفعلون بالحرّيّة؟ كأنك تُعطين سمكةً بزّة مدرّعة. إنهم معدّون للرقص».

- «ومن أعددهم؟ أسيادهم؟ ربما يُؤثّر راقصوك البناء أو الخبز أو الزراعة. هل سألتهم؟».

قال زارو: «وربما تُؤثّر أفيالك أن تصير عنادل، وبدلاً من الغناء العذب ستمتلئ ليالي (ميرين) بالنهيم الهادر وتتحمّط أشجارك تحت ثقل الطيور الرّماديّة الهائل»، وتنهّد متابعاً: «دنيرس يا بهجتي، تحت هذا اللّذي الغض ينبض قلب رقيق... لكن خذي الحكمة من رأس أكبر سنّاً وأكثر حكمةً».

ظاهر الأشياء ليس كباطنها دومًا، وكثير مما قد يبدو شرًّا هو في الحقيقة خير.
فكّر في المطر».

- «المطر؟». هل يحسبني حمقاء أم مجرد طفلة؟

- «إننا نلحن المطر عندما يسقط على رؤوسنا، لكن من دونه نموت جوعًا.
العالم محتاج إلى المطر... وإلى العبيد. ترسمين على وجهك الامتعاض،
لكن ما أقوله صحيح. سأضرب لك مثلًا بـ(كأرث). في الفنّ والموسيقى
والسحر والتجارة، في كل ما يجعلنا أسمى من الدواب، تترع (كأرث)
على قمة البشرية كما تترعين على قمة هذا الهرم... لكن بالأسفل، بدلًا من
القرميد، تقوم عظمة ملكة المدائن على أكتاف العبيد. سلي نفسك، إن كان
على الجميع أن يكذبوا في الثرى في سبيل الطعام فمن سيرفع عينيه يتأمل
النجوم؟ إن كان علينا جميعًا أن نكسر ظهورنا في بناء المنازل فمن سيُسيّد
المعابد لتمجيد الآلهة؟ لكي يكون بعض الناس عظيمًا فلا مناص من استعباد
بعضهم».

كلامه أفصح من أن تردّ عليه داني إلا بالاحساس الذي لبك معدتها، لكنها
قالت بإصرار: «العبودية ليست كالمطر. لقد باعوني وأمطرت السماء عليّ
وأعرف الفرق. ليس هذا كذاك! لا أحد يريد أن يقتني!».

هزّ زارو كتفيه بفتور قائلاً: «تصادفَ عندما رسوتُ في مدينتك الجميلة
أنني رأيتُ على ضفة النهر رجلًا نزلَ ضيفًا في إيواني ذات مرة، تاجرًا اشتغلَ
في التوابل النادرة والخمور الفاخرة. كان عاري الجذع، جسده أحمر متقشر،
وبدالي أنه يحفر حفرة».

- «ليست حفرة بل قناة يجري فيها الماء من النهر إلى الحقول. إننا ننوي
زراعة البقول، والحقول محتاجة إلى الماء».

- «لطف بالغ من صديقي القديم أن يُساعد في الحفر، ولو أن هذا ليس
من ديدنه على الإطلاق. أمن الممكن أنه لم يُعطَ خيارًا؟ لا، بالتأكيد لا، فليس
عندكم في (ميرين) عبيد».

ردّت داني بوجهٍ محتقن: «صديقك يتلقَى أجره طعامًا ومأوى. لا أستطيعُ
أن أردّ إليه ثروته. (ميرين) محتاجة إلى البقول أكثر من التوابل النادرة،
والبقول محتاجة إلى الماء».

- «هل ستُكَلِّفِين راقصِيّ أيضًا بحفر القنوات؟ أيتها الملكة الجميلة، حين رأني صديقي القديم خرّ على رُكبتيه وتوسَّل إليّ أن أشتريه كعبيدٍ وأخذه معي إلى (كَارث)».

قالت شاعرةً كأنه صفعها: «اشتره إذن».

قال: «إن كان هذا يسرُّك. أعلمُ أنه سيسرُّه»، ووضعَ يده على ذراعها مواصلاً: «ثُمَّ حقائق لن يُخبرِكَ بها إلاّ صديق. لقد ساعدتك عندما جئتِ (كَارث) متسوّلةً، وقطعتُ فراسخ طويلاً وبحارًا عاصفةً لأساعدكِ ثانيةً. أهنالك مكان نستطيع الكلام فيه بصراحة؟».

فكرت داني شاعرةً بدفء أصابعه على بشرتها: كان دافئًا في (كَارث) أيضًا، إلى أن أتى يوم ولم يجد مني جدوى. نهضت قائلةً: «تعال»، وتبعها زارو بين الأعمدة إلى الدَّرجات الرُّخام العريضة التي تقود إلى مسكنها الخاص على قمّة الهرم.

قال زارو وهما يصعدان: «أوه يا أجمل النِّساء، وراءنا خطوات أقدام. هناك من يتبعنا».

- «مؤكّد أن فارسي الهرم لا يُخيفك، أليس كذلك؟ السير باريستان مقسم على الحفاظ على أسراري».

خرجت به إلى الشُرفة المطلّة على المدينة، وفي السَّماء السّوداء كان البدر التّام يسبح فوق (ميرين)، وفي الهواء تفوح رائحة الزُّهور التي تتفتح مساءً. تابّطت ذراعها قائلةً: «هلاّ تمسّينا؟ بما أنك ذكرت المساعدة فتاجر معي إذن. (ميرين) لديها ملح ونييد...».

قاطعها زارو مبدئيًا الامتعاض: «نييد جيسكاري؟ البحر يُزوّد (كَارث) بحاجتها من الملح، لكن يسرّني أن آخذ كل ما تُريدين بيعي إياه من الزّيتون وزيتته».

- «ليس عندي زيتون. النخّاسون أحرّقوا الأشجار». منذ قرون يُزرع الزّيتون على سواحل (خليج النخّاسين)، لكن الميرينيين أضرموا النّار في بساتينهم حين بدأ جيش داني يزحف عليهم تاركين لها قفرًا متفحّمًا. «إننا نُعيد زرعه، لكن شجرة الزّيتون تستغرق سبعة أعوام حتى تبدأ في طرح الثمار، وثلاثين عامًا حتى تُصبح مثمرةً فعلاً. ماذا عن النحاس؟».

- «معدن حسن، لكن متقلّب كالنساء. أمّا الذهب... الذهب صادق. سيسرّ (كآرث) أن تمنحك الذهب... نظير العبيد».

- «(ميرين) مدينة حُرّة شعبها حُر».

- «مدينة فقيرة كانت غنيّة، مدينة جائعة كانت سمينّة، مدينة دامية كانت سلميّة».

لدعتها اتّهاماته لدعًا، ففيها قدر وافر من الحقيقة. «ستعود (ميرين) غنيّة سمينّة سلميّة، وحُرّة أيضًا. اذهب إلى الدوثرافي إذا أردت العبيد».

- «الدوثرافي يصنعون العبيد والجيسكارثيون يُدربونهم، ولبلوغ (كآرث) على سادة الخيول أن يسوقوا أسراهم عبر (القفر الأحمر). مئات سيموتون إن لم يكن آلاف... وخيول كثيرة أيضًا، ولهذا السبب لا يُخاطر الكالات برحلة كذلك. ثم إن (كآرث) لا تُريد كالا سارات هائجة حول أسوارها. رائحة كل تلك الخيول... لا أقصدُ إساءةً يا كاليسي».

- «رائحة الحصان رائحة صادقة، وهذا أكثر مما يُمكن أن يُقال عن بعض اللوردات العظام والأمرء التّجار».

لم ينتبه زارو إلى تعليقها السّاخر، وقال: «دنيرس، دعيني أكونُ صادقًا معك كما يليق بصديق. إنك لن تجعلني (ميرين) غنيّة سمينّة سلميّة، وإنما ستجلبين لها الدّمار وحده، مثل (أستاپور). هل تعين أن معركةً قامَت عند (قرون هازات)؟ الملك الجزار فرّ عائدًا إلى قصره وفي أعقابه مُطهّروه الجُدّد».

- «هذا معلوم». كان بن بلوم البني قد أرسلَ خبرًا بالمعركة من الميدان. «اليونكيثون استأجروا مرتزقةً جُدّدًا، وقاتل فيلقان من (جيس الجديدة) معهم».

- «وقريبًا سيُصبح الفيلقان أربعةً، ثم عشرةً. كما أن المبعوثين اليونكيثيين ذهبوا إلى (مير) و(فولانتيس) لاستئجار المزيد من المرتزقة. جماعة القَط، الرّماح الطويلة، المذروون... ويقول بعضهم إن الأسياد الحكماء استأجروا الجماعة الذهبية أيضًا».

ذات مرّة أفام أخوها فسيرس مآدبةً لقادة الجماعة الذهبية على أمل أن

يُنَاصِرُوهُ فِي قَضِيَّتِهِ. أَكَلُوا طَعَامَهُ وَسَمِعُوا التَّمَاثِيَةَ وَضَحِكُوا فِي وَجْهِهِ. كَانَتْ دَانِي فِتْنَةً صَغِيرَةً آنَذَاكَ، لَكِنِّهَا لَمْ تَنْسَ. «إِنْ عِنْدِي مَرْتَزَقَةٌ أَيْضًا».

- «جَمَاعَتَانِ. سِيرِسِلَ الْيُونَنُكِيُّونَ عَشْرِينَ جَمَاعَةً ضِدَّكَ إِذَا لَزِمَ الْأَمْرَ، وَحِينَ يَزْحَفُونَ لَنْ يَكُونُوا وَحْدَهُمْ. (تُولُوسَ) وَ(مَانْتَارِيَسَ) وَافْتَقْنَا عَلَى التَّحَالْفِ مَعَهُمْ».

نَبَأَ سَيِّئِ إِنْ صَدَقَ. لَقَدْ أَرْسَلْتَ دَنِيرَسَ بَعَثْتَيْنِ إِلَى (تُولُوسَ) وَ(مَانْتَارِيَسَ) أَمَلَةً أَنْ تَجِدَ أَصْدِقَاءَ جَدِيدِينَ غَرِبًا لِعَمَلِ تَوَازُنِ ضِدِّ عِدَاوَةِ (يُونَنُكَايَ) فِي الْجَنُوبِ، لَكِنْ مَبْعُوثِيهَا لَمْ يَعُودُوا. «(مِيرِينَ) تَحَالَفَتْ مَعَ (لَا زَارَ)».

لَمْ يَدْفَعُهُ قَوْلُهَا إِلَّا إِلَى الْقَهْقَهَةِ، وَقَالَ: «الدُّوْثَرَاكِيُّ سَادَةُ الْخِيُولِ يَدْعُونَ اللَّازَارِينَ بِشَعْبِ الْحَمْلَانِ. عِنْدَمَا تَجْزِينَ صُوفَهُمْ لَا تَسْمَعِينَ مِنْهُمْ إِلَّا الثُّغَاءَ. إِنْهُمْ لَيْسُوا شَعْبًا مُحَارِبًا».

الصَّدِيقُ الْمَسَالِمُ أَفْضَلُ مِنْ لَا أَصْدِقَاءَ عَلَى الْإِطْلَاقِ. «عَلَى الْأَسْيَادِ الْحُكْمَاءِ أَنْ يَحْذُوا حَذْوَهُمْ. لَقَدْ عَفَوْتُ عَنْ (يُونَنُكَايَ) مِنْ قَبْلِ، لَكِنِّي لَنْ أَكْرُرَ هَذَا الْخَطَأَ. إِذَا سَوَّلَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يُهَاجِمُونِي فَسَأَسُؤِي مَدِينَتَهُمْ الصَّفْرَاءَ بِالْأَرْضِ هَذِهِ الْمَرَّةَ».

- «وَبَيْنَمَا تُسَوِّينَ (يُونَنُكَايَ) بِالْأَرْضِ يَا حُلُوتِي سَتُثَوِّرَ (مِيرِينَ) مِنْ وَرَائِكَ. لَا تُغْلِقِي عَيْنِيكَ عَنِ الْخَطَرِ الْمَحْدَقِ بِكَ يَا دَنِيرَسَ. مَخْصِيوُكَ جُنُودَ بَارَعُونَ، لَكِنَّهُمْ أَقَلُّ عِدَدًا مِنْ أَنْ يَرْدَعُوا الْجَحَافِلَ الَّتِي سَتُرْسِلُهَا (يُونَنُكَايَ) ضِدَّكَ حَالَمَا تَسْقُطُ (أَسْتَابُورَ)».

- «رَجَالِي الْمَعْتَقُونَ...».

- «عَبِيدَ الْفِرَاسِ وَالْحَلَاقُونَ وَصُنَّاعَ الْقَرْمِيدِ لَا يَرِبُحُونَ الْمَعَارِكَ».

تَمَنَّتْ أَنْ يَكُونَ مَخْطِئًا. الْمَعْتَقُونَ كَانُوا غَوْغَاءَ مِنْ قَبْلِ، لَكِنَّهَا نَظَّمَتْ الدُّكُورَ الَّذِينَ بَلَّغُوا سِنَّ الْقِتَالِ فِي جَمَاعَاتٍ وَأَمَرَتِ الدُّوْدَةَ الرَّمَادِيَّ بِأَنْ يَصْنَعَ مِنْهُمْ جُنُودًا. دَعِيهِ يَحْسَبُ مَا يَحْسِبُهُ. «هَلْ نَسِيتَ؟ إِنْ لَدَيَّ تَنَانِينَ».

- «حَقًّا؟ فِي (كَارْتِ) نَادِرًا مَا رَأَيْتُ أَحَدًا بَلَ تَنْبِيْنٍ عَلَى كَتْفِكَ... لَكِنِّي أَلَا حَظُّ الْآنَ أَنْ هَذِهِ الْكَتْفُ الْمَتَنَاسِقَةُ مَتَجَرِّدَةٌ عَارِيَةٌ كَتْدِيكَ الْجَمِيلِ».

- «تَنَانِينِي كَبُرُوا، لَكِنْ كَتَفِي لَمْ تَكْبُرَا. إِنْهُمْ يَصْطَادُونَ بَعِيدًا». سَلِمَ حِينِي يَا هَازِيَا. تَسَاءَلْتُ كَمْ يَعْلَمُ زَارُو وَمَا الْهَمْسَاتُ الَّتِي سَمِعَهَا. «سَلِّ سَادَةَ

(أستاپور) الكرام عن تنانيني إذا كنت تشكُّ في قوتهم». رأيتُ عينيَّ النَّخَّاسِ
تذوبان وتسيلان على وجهه. «اصدقني القول يا صديقي القديم، لماذا أتيت
تزورني إن لم يكن للتَّجارة؟».

- «لأجلب هديَّةً لملكة قلبي».

- «أخبرني». وما هذا الفخ الجديد؟

- «الهدية التي توسَّلتها مني في (كَارث)، السُّفن. في الخليج ثلاثة
عشر قادمًا، لك إذا أردت. أحضرتُ لك أسطولًا يحملك إلى الوطن في
(وستروس)».

أسطول. أكثر مما كانت لتأمل، وهو ما حفَّز فيها الحذر بالطبع. في
(كَارث) عرضَ عليها زارو ثلاثين سفينة... مقابل تينين. «وما الثمن الذي
تطلبه لقاء هذه السفن؟».

- «لا شيء. لم أعد أشتهي التَّنانين. لقد رأيتُ عملها في (أستاپور) الطَّرِيق
إلى هنا، عندما رسَّت (سحابة الحرير) لتعبئة الماء العذب. السفن لك أيتها
الملكة الجميلة. ثلاثة عشر قادمًا ورجال يُبحرون بها أيضًا».

ثلاثة عشر، بالتأكيد. زارو من رابطة الثلاثة عشر، ولا شك أنه أفنَع كلاً من
زُملائه الأعضاء بإعطائه سفينة. إنها تعرف الأمير التَّاجر أفضل من أن تظنَّ أنه
قد يُضحِّي بثلاث عشرة من سُفنه الخاصَّة دفعةً واحدة. «يجب أن أفكر في
الأمر. هل لي أن أفحص هذه السفن؟».

- «أصبحتِ شكَّاكةً يا دنيرس».

دائمًا. «أصبحتُ حكيمةً يا زارو».

- «افحصي كما يحلو لك، ولمَّا تشعريين بالرِّضا أقسمي لي أنك ستعودين
إلى (وستروس) من فورك وستكون السفن ملكك. أقسمي بتنانينك وبإلهك
ذي السَّبعة وجوه وبرماد أبائك وارحلي».

- «وإذا قرَّرتُ أن أبقى عامًا أو ثلاثة».

لاحت نظرة أسفة على وجه زارو، وقال: «سيُحزنني ذلك كثيرًا يا
مُهجتي... لأنك لن تعيشي طويلاً مهما بدوتِ شابَّةً قويَّةً الآن، ليس هنا».

يعرض عليَّ قرص عسلٍ بيِّدٍ ويُريني السَّوط في الأخرى. «اليونكيون
ليسوا مخيفين إلى هذا الحد».

- «ليس جميع أعدائك في المدينة الصّفاء. احذري ذوي القلوب الباردة والشّفاه الزّرقاء. لم يكن أسبوعان قد مرّا على رحيلك من (كارث) حتى خرجّ پيات پري مع ثلاثة من رفاقه الدجّالين يسعون وراءك في (پنتوس)».

قالت داني التي وجدت الخبر طريقاً أكثر من مخيف: «كان خيراً إذن أنني انعطفتُ في طريق أخرى. (پنتوس) تبعد نصف عالم عن (ميرين)».

- «صحيح، لكن عاجلاً أو آجلاً ستبلّغهم أبناء ملكة التّنانين في (خليج النّحاسين)».

- «هل يُفترض أن يُخيفني هذا؟ لقد عشتُ في خوفٍ أربعة عشر عاماً يا سيّدي، استيقظتُ خائفةً كلّ صباح وخلدتُ إلى النّوم خائفةً كلّ ليلة... لكن مخاوفي احترقت يوم خرجتُ من النّار. شيء واحد فقط يُخيفني الآن».

- «وما هذا الذي يُخيفك أيتها الملكة الجميلة؟».

قالت داني: «أنا مجرد فتاة صغيرة»، ووقفت على أطراف أصابعها لتطبع قُبلةً على خدّه متباعدة: «ولكن ليس لدرجة أن أخبرك بذلك. سيُلقني رجالي نظرةً على السّفن، ثم سأعطيك إجابتي».

قال: «كما تقولين»، ثم مسّ ثديها العاري بخفّة، وهمس: «دعيني أبقى وأساعدُ على إقناعك».

للحظة أغرّتها الفكرة. ربما أثارها الرّاقصون بالفعل. يُمكنني أن أغلق عيني وأنظّاهر بأنه داريو. داريو الخيالي أسلم من الحقيقي، لكنها نحتّ الفكرة عن بالها، وقالت: «لا يا سيّدي. أشكرك، لكن لا»، وأفلتت نفسها من بين ذراعيه بهدوءٍ مضيئةً: «ليلةً أخرى ربما».

- «ليلةً أخرى». قالها بضمّ حزين، لكن نظرة عينيه نمت عن الرّاحة أكثر من خيبة الأمل.

بعد ذهابه قالت لنفسها: لو كنتُ تبيّنةً لطرتُ إلى (وستروس) ولما احتججتُ إلى زارو وسُفنه. تساءلت داني كم رجلاً يُمكن لثلاث عشرة سفينةً أن تحمل. لقد تطلّب حملها مع كالاسارها من (كارث) إلى (أستاپور) ثلاث سفن، وكان هذا قبل أن تحصل على ثمانية آلاف جندي مُطهر وألف مرتزق وجمع غفير من المعتقّين. والتّنانين، ماذا أفعلُ بهم؟ بخفوتٍ همست:

«دروجون، أين أنت؟». ولُبْرَهة كادَتْ تراه يكنس السَّماء ويبتلع جناحه الأَسودان النُّجوم.

أدَارَتْ ظَهْرَهَا إِلَى اللَّيْلِ لِتُوجِّهَ بَارِيسْتَانَ سَلْمِي الْوَاقِفَ صَامِتًا بَيْنَ الظُّلَالِ، وَخَاطَبَتْهُ قَائِلَةً: «ذات مرَّةً أَخْبَرَنِي أَخِي بِأَحْجِيَةِ وَسْتَرُوسِيَّةٍ. مِنْ يُصْغِي إِلَى كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يَسْمَعُ شَيْئًا؟».

أَجَابَ سَلْمِي بِرِصَانَةٍ: «فَارَسَ الْحَرَسَ الْمَلَكِي».

- «هل سمعت عرض زارو؟».

- «نعم يا جلالة الملكة». بدا لها جليًّا أن الفارس العجوز يُجسِّم نفسه مجهودًا شديدًا لئلا يَنْظُرَ إِلَى ثَدْيِهَا الْمَكْشُوفِ وَهُوَ يُخَاطِبُهَا.

السَّيْرُ چُورًا لَمْ يُشِحْ بِبَصْرِهِ فَطُ. لَقَدْ أَحْبَبَنِي كَامِرًا، أَمَّا السَّيْرُ بَارِيسْتَانَ فِإِحْبَبْتِي كَمَلِكْتِهِ فَقَط. كَانَ مَورَمُونْتُ جَاسُوسًا يَشِي بِأَخْبَارِهَا إِلَى أَعْدَائِهَا فِي (وستروس)، لَكِنَّهُ اعْتَادَ أَنْ يُشِيرَ عَلَيْهَا بِمَا يُفِيدُ أَيْضًا. «ما رأيك في العرض؟ وفيه؟».

- «فيه، لا يروقني على الإطلاق. لكن تلك السُّفن... جلالة الملكة، بهذه السُّفن نستطيع الوصول إلى الوطن قبل نهاية السَّنَةِ».

لَمْ تَعْرِفْ دَانِي وَطَنًا قَطُّ. فِي (برافوس) كَانَ هُنَاكَ مَنْزِلٌ بِبَابِ أَحْمَرَ، لَكِنْ هَذَا كُلُّ شَيْءٍ. «حذارٍ مِنَ الْكَارِثِينَ حَامِلِي الْهَدَايَا، لَا سَيِّمًا تَجَارُ رَابِطَةَ الثَّلَاثَةِ عَشْرٍ. ثَمَّةُ فِخْ مَا فِي الْأَمْرِ. قَدْ تَكُونُ هَذِهِ السُّفُنُ بَالِيَةً أَوْ...».

عَلَّقَ السَّيْرُ بَارِيسْتَانَ: «إِنْ لَمْ تَكُنْ صَالِحَةً لِلإِبْحَارِ لَمَّا عَبَرْتَ الْبَحْرَ مِنْ (كَارث)، لَكِنَّهَا حِصَافَةٌ مِنْ جَلَالَتِكَ أَنْ تَصْرِيَّ عَلَيَّ فَحِصَّهَا. سَأَخْذُ الْأَمِيرَالَ جِرُولِيوَ إِلَى الْقَوَادِسِ عِنْدَ مَطْلَعِ الْفَجْرِ مَعَ رِبَابْتِهِ وَأَرْبَعِينَ مِنْ بَحَّارَتِهِ. سَنَفْحِصُ كُلَّ بَوْصِيَّةٍ مِنْ تِلْكَ السُّفُنِ».

نَصِيحَةٌ سَدِيدَةٌ. «نعم، افعل هذا». (وستروس)، الْوَطَنُ. لَكِنْ إِذَا رَحَلْتَ، فَمَاذَا سَيَحْدُثُ لِمَدِينَتِهَا؟ حُخَيْلٌ إِلَيْهَا أَنْ أَخَاهَا يَهْمَسُ لَهَا: (ميرين) لَمْ تَكُنْ مَدِينَتِكَ قَطُّ. مَدْنُكَ تَقَعُ عِبْرَ الْبَحْرِ، مِمَّا لِكِ السَّبْعِ حَيْثُ يَنْتَظِرُكَ أَعْدَاؤُكَ. لَقَدْ وُلِدْتَ لِقَمْعِهِمْ بِالْذَّمَاءِ وَالنَّيْرَانِ.

تَنْحَنُحُ السَّيْرُ بَارِيسْتَانَ، وَقَالَ: «الِدَجَّالُ الَّذِي ذَكَرَهُ التَّاجِرُ...».

- «بيات پري». حَاوَلْتُ أَنْ تَنْذِرَ مَلَامِحَهُ لَكِنَّهَا لَمْ تَرَ إِلَّا شَفْتِيهِ اللَّتَيْنِ

حَصَّبَهُمَا بِالزَّرْقَةِ نَبِيذِ الدَّجَالَيْنِ الْمَسْمَى صِبْغَةَ الْمَسَاءِ. «لَوْ أَنْ تَعَاوَيْدِ الدَّجَالَيْنِ قَادِرَةٌ عَلَى قَتْلِي لَكُنْتُ مَيِّتَةً بِالْفِعْلِ. لَقَدْ تَرَكْتُ قَصْرَهُمْ رَمَادًا». أَتَقْذَنِي دَرُوجُونَ حِينَ أَرَادُوا اسْتِزَافَ حَيَاتِي مِنِّي، أَحْرَقَهُمْ دَرُوجُونَ جَمِيعًا. - «كَمَا تَقُولِينَ يَا صَاحِبَةَ الْجَلَالَةِ، لَكُنِنِي سَابِقِي يَقْطَأُ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

لِثَمَّتِهِ عَلَى وَجْتِهِ، وَقَالَتْ: «أَعْرِفُ هَذَا. هَلَمْ، عُدْ بِي إِلَى الْمَأْدَبَةِ». فِي الصَّبَاحِ التَّالِيِ اسْتَيْقَظْتُ دَانِي مَفْعَمَةً بِأَمَلٍ لَمْ تَعْرِفْهُ مِنْذُ مَجِيئِهَا (خَلِيجِ النَّخَّاسِينَ). قَرِيبًا سَيَعُودُ دَارِيوُ إِلَى جَوَارِهَا، وَمَعًا سَيُبْجِرَانِ إِلَى (وَسْتَرُوسِ). إِلَى الْوَطَنِ. جَلَبْتُ لَهَا وَاحِدَةً مِنْ رَهَائِنِهَا الصَّغَارِ وَجِبَةَ الصَّبَاحِ، فَتَاةٌ مَمْتَلِئَةٌ خَجُولِ اسْمِهَا مِيزَارًا، يَحْكُمُ أَبُوهَا هَرَمَ مِيرِيكٍ، وَضَمَّتْهَا دَانِي بِسَعَادَةٍ وَشَكَرَتْهَا بِقَبْلَةٍ.

بَيْنَمَا تُلْبَسَانَهَا ثِيَابَ الْبِلَاطِ أَخْبَرَتْ إِيرِي وَچِيكُوي: «زَارُو زُون دَاكُوسُوسَ عَرَضَ عَلَيَّ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَادَسًا». غَمِغَمَتْ چِيكُوي بِاللُّغَةِ الدُّوْثِرَاكِيَّةِ: «ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَقْمَ مَشْؤُومِ يَا گَالِيْسِي، هَذَا مَعْلُومٌ».

أَيَّدَتْهَا إِيرِي قَائِلَةً: «هَذَا مَعْلُومٌ». وَأَيَّدَتْهُمَا دَانِي قَائِلَةً: «لَكَانَ ثَلَاثُونَ قَادَسًا أَفْضَلُ، وَثَلَاثِمِئَةٌ أَفْضَلُ وَأَفْضَلُ. لَكِنْ قَدْ يَكْفِي ثَلَاثَةَ عَشَرَ لِحَمْلِنَا إِلَى (وَسْتَرُوسِ)».

تَبَادَلَتِ الْفَتَاتَانِ الدُّوْثِرَاكِيَّتَانِ النَّظْرَ، ثُمَّ قَالَتْ إِيرِي: «الْمِيَاهُ الْمَسْمُومَةُ مَلْعُونَةٌ يَا گَالِيْسِي، الْخِيُولُ لَا تَشْرَبُهَا». قَالَتْ دَانِي مُطْمَئِنَّةً: «لَسْتُ أَنْوِي أَنْ أَشْرَبُهَا».

وَجَدَتْ أَرْبَعَةَ مَلْتَمَسِينَ فَقَطَّ فِي انْتِظَارِهَا هَذَا الصَّبَاحِ. كَالْمَعْتَادِ، كَانَ اللَّوْرْدُ جَايِلٌ أَوَّلُ مِنْ مِثْلِ أَمَامِهَا وَقَدْ بَدَأَ فِي حَالَةِ أَزْرَى مِنَ الْمَعْتَادِ. خَرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْبِلَاطِ عِنْدَ قَدَمِهَا، وَوَلَّوْ: «يَا صَاحِبَةَ الرَّوْنِقِ، جِيُوشِ (يُونَكَايِ) تَزْحَفُ عَلَى (أَسْتَاپُورِ). أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَأْتِي جَنُوبًا بِكُلِّ قُوَّاتِكَ!».

- «لَقَدْ حَدَّرْتُ مَلِكِكَ مِنْ رِعُونَةِ حَرْبِهِ هَذِهِ وَأَبَى أَنْ يُصْغِي».

- «كَلِيُونُ الْعَظِيمُ سَعَى لِلْإِطَاحَةِ بِنَخَّاسِي (يُونَكَايِ) فَحَسَبُ».

- «كَلِيُونُ الْعَظِيمُ نَفْسَهُ نَخَّاسٌ».

- «أعلم أن أمَّ التَّنَّانين لن تتخلى عنا في ساعة الخطر. أعيرينا مُطَهَّرِيكِ ليدافعوا عن أسوارنا».

وإذا فعلتُ فمن سيدافع عن أسواري؟ «كثيرون من معتقي كانوا عبيدًا في (أستاپور). قد يرغب بعضهم في المساعدة على الدفاع عن ملكك. الخيار لهم باعتبارهم رجالًا أحرارًا. لقد أعطيتُ (أستاپور) حرَّيتها، ومنوط بكم الدفاع عنها».

قال جايل: «إننا لميئون إذن. لقد أعطيتنا الموت لا الحرَّية»، وهبَّ واقفًا ولبصق في وجهها.

أطبق بلواس القوي على كتفه وهوى به على الرُّخام بعُنْفٍ بالغ لدرجة أن داني سمعت أسنانه تنكسر، وكان الرَّأس الحليق ليفعل ما هو أسوأ لكنها نهته، وقالت مجففةً وجنتها بطرف توكارها: «كفى. لم يسبق أن مات أحد من البُصاق. خذوه من هنا».

جرُّوا جايل من قدميه تاركين عدَّة أسنان مكسورة وأثرًا من الدَّم على الأرض. كان ليسرُّ داني أن تصرف باقي الملتمسين... لكنها لم تنزل ملكتهم، وهكذا سمعتهم وتفانت في محاولة تحقيق العدالة لهم.

في ساعة متأخرة من الأصيل عادَ الأميرال جروليو والسير بارستان من فحص القوادس، وجمعت داني مجلسها لسماعهما. حضرَ الدُّودة الرَّمادي عن المُطَهَّرين، وسكاهاز مو كانداك عن الوحوش النحاس، وفي غياب خيالة دمها جاءَ چاكا رهان⁽¹⁾ مسنُّ ضيق العينين مقوَّس السَّاقين اسمه رومو نيابةً عن الدوثرابي. أمَّا المعتقون فمثلهم قادة الجماعات الثلاث التي كوَّنتها؛ مولونو يوس دوب عن التُّروس المقدامة، وسايمون ذو الظُّهر المخطَّط عن الإخوة الأحرار، ومارسلن عن رجال الأم. عند مرفق الملكة حامَ رزناك مو رزناك، ووقف بلواس القوي وراءها عاقداً ذراعيه الضَّخمتين على صدره. لن تفتقر داني إلى المشورة.

كان جروليو في غاية التَّعاسة منذ فكَّكوا سفينته لبناء معدَّات الحصار التي

(1) الچاكا رهان عند الدوثرابي هم الرِّجال الذين يتولَّون القتل الرَّحيم بعد المعركة. (المُترجم).

ربحت بها (ميرين)، وقد حاولت داني مواساته بتعيينه أميرالها، لكنه تكريم أجوف، فالأسطول الميرينيزي أبحر إلى (يونكاي) عندما اقتربت داني من المدينة، أي أن الپنتوشي العجوز أميرال بلا سفن. إلا أنه يبتسم الآن ملء شذقيه من تحت لحيته الموحوطة بالأبيض، وهي الابتسامة التي كادت داني تنساها.

سألت آملّة: «السفن سليمة إذن؟».

- «سليمة بما فيه الكفاية يا جلالة الملكة. إنها سفن قديمة، لكن جيّدة الصيانة. بدن (الأميرة النقيّة) متآكل من الديدان، ولا أنصح بإبعادها كثيرًا عن اليابسة. (الناراكّا) محتاجة إلى دفةٍ وحبالٍ جديدة، (والسحليّة المطوّقة) بعض مجاذيفها مكسور، لكنهما مناسبتان. الملاحون عبيد، لكن إذا عرضنا عليهم أجرًا لاثقا سيبقى أكثرهم معنا. إنهم لا يعرفون إلا التجذيف. ومن يرحلون سنستعيز عنهم برجالٍ من أطقمي. الرحلة إلى (وستروس) طويلة شاقّة، لكن هذه السفن سليمة بما يكفي لأخذنا إلى هناك في تقديري».

أصدر رزناك مو رزناك أنينًا يثير الشفقة، وقال: «الأمر صحيح إذن. صاحبة العبادة تنوي تركنا»، وهزّ يديه ملتاعًا، وتابع: «لحظة أن ترحلي سيعيد اليونكيون الأسياد العظام إلى الحكم، ونحن من خدمنا قضيتك بكل إخلاص سنقتل، وستتصّب زوجاتنا العزيزات وبناتنا العذرات ويستعبدن».

دمدم الرأس الحليق: «لن يحدث ذلك لنسوتي. سأقتلهم أولاً بيدي»، وصفح مقبض سيفه.

وشعرت داني كأنه صفعها هي، فقالت: «إذا كنتم تخشون ما قد يقع حين أرحل فتعالوا معي إلى (وستروس)».

أعلن مارسن أخو ميسانداي الباقي: «أينما تذهب أم التنانين سيتبعها رجال الأم».

- «كيف؟»، سأل سايمون المسمّى ذو الظهر المخطّط لشبكة الندوب المتقاطعة على ظهره وكتفيه، تذكيرًا بالجلد الذي عاناه وهو عبد في (أستاپور). «ثلاث عشرة سفينة... العدد لا يكفي، وقد لا تكفي مئة سفينة».

أضاف الجاكّا رهان العجوز رومو باعتراض: «الخيول الخشبيّة لا تنفع. الدوثرافي سيركبون».

اقتَرَحَ الدُّودَةُ الرَّمَادِي قَائِلًا: «هؤلاء الآحاد يُمكنهم السَّير على اليابسة بمحاذاة السَّاحل، بحيث تُسَير السُّفن الرِّتل وتزوِّده بالمؤن».

قال الرَّأس الحليق: «قد يصلُح هذا إلى أن تَبْلُغوا أطلال (بوراش)، لكن بعدها على السُّفن أن تنعطف إلى الجنوب مرورًا بـ(تولوس) و(جزيرة الأرز)، ثم تُبحر من حول (فاليريا) فيما يُواصل المُشاة الطَّرِيق إلى (مانتاريس) على طريق التَّنَّين القديم».

عقب مولونو دوس يوب: «طريق الشَّياطين كما يُسمُّونه الآن». بيديه المصبوغتين بالحبر وكرشه الكبير يبدو قائد التُّروس المقدامة الممتلئ كنسَّاخ أكثر من جُندي، لكنه لا يفتقر إلى الذِّكاء على الإطلاق. «سيموت كثيرون منا».

ولول رزناك: «الباقون في (ميرين) سيحسدونهم على موتهم السَّهل. سنُسْتَعَبِد أو نُلقَى في الحلبات. كل شيءٍ سيعود كما كان أو أسوأ».

قال السير بارستان محتدًا: «أين شجاعتكم؟ لقد حرَّرتكم جلالتها من أغلالكم، وعليكم أتم أن تشحذوا سيوفكم وتُدافعوا عن حرَّيتكم حينما ترحل».

زمجر سايمون ذو الظَّهر المخطَّط: «كلام شجاع من واحدٍ ينوي الإبحار إلى مغرب الشَّمس. هل ستلقي نظرةً وراءك حين نموت؟».

- «صاحبة الجلالة...».

- «صاحبة السُّمو...».

- «صاحبة العبادة...».

صفقت داني المائدة قائلةً: «كفى! لن يُترك أحدٌ للموت. كلُّكم قومي». لقد أعمتها أحلامها بالوطن والحُبِّ. «لن أتخلَّى عن (ميرين) ليُحقيق بها مصير (أستاپور). يُحزنني أن أقول هذا، لكن على (وستروس) أن تنتظر».

قال جروليو مبهوتًا: «يجب أن نقبل السُّفن. إذا رفضنا هذه الهدية...».

جثا السير بارستان على رُكبته أمامها قائلاً: «مليكتي، بلادك في حاجةٍ إليك. وجودك هنا غير مرغوب، لكن في (وستروس) سيتوافد النَّاس إلى راياتك بالآلاف، اللوردات العظام والفرسان النبلاء، وسيهتف بعضهم لبعض: لقد جاءت، أخت الأمير ريجار عادت إلى الوطن أخيرًا».

قالت داني: «إذا كان حبهم لي جمًّا هكذا فسيستظرونني»، ونهضت مستطردهً: «رزنك، استدع زارو زون داكسوس».

استقبلت الأمير التاجر بمفردها جالسةً على الدكة الأبنوس فوق الوسائد التي زودها بها السير باريستان. صاحبه أربعة بحارة كارثين يحملون جداريةً ملفوفةً على أكتافهم، وأعلن زارو: «أحضرتُ هديةً أخرى لملكة قلبي. كانت في خزائن عائلتي من قبل أن يأتي الهلاك على (فاليريا)».

بسط البحارة الجدارية على الأرض، ووجدتها داني قديمةً متربةً باهتةً... وضخمةً. اضطرت إلى الوقوف إلى جانب زارو حتى تتضح الصورة، ثم قالت: «خريطة؟ إنها جميلة». غطت الخريطة نصف أرضية القاعة. البحار زرقاء، واليابسة خضراء، والجبال سوداء وبنية، والمدن نجوم من الخيوط الذهبية أو الفضية. (بحر الدخان) ليس موجودًا. لم تصبح (فاليريا) جزيرةً بعد.

قال زارو مشيرًا إلى ثلاث نجومٍ فضيةً عند أزرق (خليج النحاسين): «هنا ترين (أستاپور) و(يونكاي) و(ميرين). (وستروس) في... مكانٍ ما هناك»، ولوح بيده بإبهام نحو طرف القاعة، وواصل «أنت انعطفت شمالاً وقد كان عليك الاستمرار جنوبًا وغربًا عبر (بحر الصيف)، لكن بهديتي ستعودين إلى حيث تتمنين قريبًا. اقبلي قوادسي بقلب فرح ووجهي مجاذيفك غربًا». ليتني أستطيع. قالت: «سيدي، يسرني أن أقبل هذه السفن، لكنني لا أستطيع أن أعدك بما تطلبه»، وأمسكت يديه مردفةً: «أعطني القوادس وأقسم لك أن (كارث) ستحظى بصدقة (ميرين) حتى تنطفئ النجوم. دعني أتاجرُ بها وستنال نصيبًا لا بأس به من المكسب».

ماتت ابتسامة زارو على شفثيه، وسألها: «ماذا تعنين؟ هل تقولين لي إنك لن ترحلي؟».

- «لا يمكنني أن أرحل».

ملأت عينيه الدموع وسألت على أنفه بما فيه من زمرد وجمشت وماس سود، وقال: «قلت للثلاثة عشر إنك ستُنصتين إلى حكمتي. يُحزنني أن أعلم أنني كنتُ مخطئًا. خُذي السفن وأبحري وإلا فلا مفرَّ من أن تموتي صارخةً. لست تعرفين كم عدواً صنعت».

أعرف أن أحدهم يقف أمامي الآن يذرف الأدمع الزائفة. أحزنها أن تُدرك هذا.

تابع زارو: «حين ذهبْتُ إلى (قاعة الألف عرش) أتوسَّلُ إلى أنقياء الميلاد أن يتركوك حيَّةً قلتُ لهم إنك مجرد طفلة، لكن إيجون إمروس البهي نهَض وقال: إنها طفلة حمقاء، مجنونة نزقة وأخطر من أن تعيش. في صغرها كانت تنانيك أعجوبة، لكن بعد أن نمت فهي الموت والدِّمار، سيف وصلت على رقبة العالم»، وجفَّف دموعه مضيئاً: «كان حريًّا بي أن أقتلك في (كارث)». ردَّت: «كنتُ ضيفةً تحت سقفك، أكلتُ طعامك وشربتُ شرابك. في ذكرى كلِّ ما فعلته من أجلي سأغفرُ لك ما قلته... هذه المرَّة... لكن إياك أن تُهدِّدني ثانيةً».

- «زارو زون داكسوس لا يُهدِّد، بل يَعد».

استحالَ حُزنها إلى حنق، وقالت: «وأنا أعدك، إذا لم ترحل قبل شروق الشَّمس سنرى كيف لدموع كذاب أن تُطفى نار التَّنانين. اتركني يا زارو، بسرعة!».

وذهبَ لكنه تركَ عالمه. عادت داني تجلس على الدُّكَّة وتطلَّعت عبر البحر الأزرق الحرير إلى (وستروس) البعيدة، ووعدت نفسها: يوماً ما. في الصِّباح التَّالي رحلت سفينة زارو، لكن «الهدية» التي جلبها ظلَّت في (خليج النخاسين). على صواري القوادم الكارثينية الثلاثة عشر خفقت أعلام طويلة حمراء، وعندما نزلت دنيرس من مسكنها لتعقد البلاط وجدت رسولاً من السُّفن في انتظارها. لم ينبس الرِّجل بينت شفة، لكنه وضع عند قدميها وسادةً من الساتان الأسود عليها فردة قفَّازٍ واحدة ملطَّخة بالدماء.

تساءل سكاهاز: «ما هذا؟ قفَّاز دام...».

قالت الملكة: «... يعني الحرب».



چون

قال إِد الكُتِيب رافعًا القنديل وهو يقود چون على السَّلام إلى أسفل:
«احترس من الجردان يا سيدي. إنها تُطلق صريرًا مريعًا إذا دُستها. اعتادت أن تُصدر صوتًا مشابهًا في صغري، ويبدو لي الآن أن جزءًا منها كان جردًا. شعر بني، عينان خرزيتان صغيرتان، تحبُّ الجُبنة. ربما كان لها ذيل أيضًا، لم ألقِ نظرةً لأري».

(القلعة السوداء) كلها موصولة تحت الأرض بمتاهة الأنفاق التي يُسمِّيها الإخوة «المسالك الدوديَّة». تحت الأرض مظلم كئيب، ولذا فلمَّا تُستخدَم المسالك الدوديَّة خلال الصَّيف، لكن متى هبَّت رياح الشَّتاء وبدأت الثلوج تسقط أمست الأنفاق أيسر السُّبل للتنقل عبر القلعة. بدأ الوُكلاء يستخدمونها بالفعل، إذ رأى چون شموغًا مشتعلةً في عدَّة كُوَاتٍ في الحوائط وهما يشقان طريقهما يسبقهما صدى خطواتهما.

كان باون مارش منتظرًا في نُقطة تقاطع عندها أربعة أنفاق، ومعه ويك المهزول بقامته الفارعة وقوامه الرِّفيع كالحرية. قال مارش مناولاً چون حزمة سميكة من الورق: «هذه هي نتيجة الجرد الذي أجريناه قبل ثلاثة أعمار للمقارنة بمؤونتنا الحاليَّة. هل نبدأ بصوامع الحبوب؟».

تحركوا في العتمة الرَّماديَّة تحت الأرض. لكلِّ مخزنٍ باب متين من خشب السَّنديان موصد بقفل كبير بحجم طبق العشاء، وهو ما حصَّ چون على أن يسأل: «هل نُعاني مشكلة اختلاس؟».

أجاب مارش: «ليس بعدُ، لكنني أنصحُ حضرة اللورد بأن يضع حراسةً هنا ما إن يحلُّ الشَّتاء».

يُعلّق ويك المهزول المفاتيح من حلقةٍ حول رقبتّه، ومع أنّها بدت جميعاً متشابهةً لچون فقد وجدَ ويك مفتاح كلِّ بابٍ بسهولة، وفي الدّاخِل يأخذ قطعة طباشير بحجم القبضة من جرابه ويضع علامةً على كل قفصٍ وجوالٍ وبرميلٍ وهو يُحصيها، فيما يُقارِن مارش الأرقام القديمة بالجديدة.

في صوامع الحبوب شوفان وقمح وشعير وبراميلٍ من الدقيق المطحون الخشن، وفي الأقبية السُفليّة حُزم من البصل والثوم معلّقة من عوارض السّفف، وتملأ الرُفوف أجولة الجزر البرتقالي والأبيض والفجل واللّفن الأبيض والأصفر. في أحد المخازن قوالب جُبنة كبيرة لدرجة أن تحريك الواحد منها يحتاج إلى رجلين، وفي التّالي صفوف من براميل لحوم البقر والخنازير والخراف وسّمك القُد المملّحة ترتفع عشرة أقدام. في القبو الواقع تحت معملٍ تدهين اللحوم ثلاثمئة فخذ خنزير وثلاثة آلاف قطعة طويلة من السُّجق معلّقة من السّفف، وفي خزانة التّوابل لفلل أسود وقرنفل وقرفة وخردل وكزبرة ومراميّة تقليديّة ومتصلّبة وبقدونس وقوالب من الملح. بالإضافة إلى هذا هناك براميل من التّفاح والكمثري والبازلاء المجفّقة والتّين المجفّف، وأجولة من الجوز والكستناء واللّوز، وصناديق من السلمون المدخّن الجاف، وجرار فخّار من الزّيّتون المعبأ في زيتّه مغلقة بالشّمع، وفي مخزن آخر أرانب بريّة مطبوخة ومحفوظة وأفخاذ غزلان بالعسل ومخلّل الكرنب والبنجر والبصل والبيض والرّنجة.

ازدادت المسالك الدّوديّة برودةً بإطرادٍ مع انتقالهم من حُجرة إلى أخرى، وسرعان ما بدأ چون يرى أنفاسه تتجمّد في ضوء القنديل، فقال: «نحن تحت (الجدار)».

قال مارش: «وقريباً داخله. اللّحم لا يتلف في البرد. إنه أفضل من التّمليح في التّخزين الطّويل».

الباب التّالي من الحديد الصّديء وراءه سلالم خشبيّة. قاد إاد الكتيّب الطّريق بقنديله، وبالأعلى وجدوا نفقاً بطول قاعة (ويترفل) الكُبرى، وإن لم يكن أعرض من سائر المسالك الدّوديّة. الجُدران من الجليد الذي تبرز منه الخطاطيف الحديد، ومن كلِّ حُطّافٍ تتدلّى جُثث مسلوخة لغزلان وإلكات

وأنصاف أبقار وخنازير ضخمة وخراف وماعز بلا رؤوس، وحتى خيول ودببة، والصَّقيع يُعطيها كلَّها.

بينما يُجرون الجرد خلجَ چون قُفَّاز يده اليُسرى ولمسَ أقرب غزالة، فأحسَّ بأصابعه تلتصق ولَمَّا سحبها وجدَّها فقدتَ القليل من الجلد وسرى الخدر في أنامله. ماذا توقَّعت؟ ثَمَّة جبل من الجليد فوق رأسك، أطنان أكثر من أن يُحصيها باون مارش نفسه. وعلى الرغم من هذا كانت الحُجرة أبرد مما ينبغي.

بعد فروغهم أعلنَ مارش بنبرة أكثر كآبةً من إِد الكئيِب: «الوضع أسوأ مما خشيتُ يا سيِّدي».

كان چون يعتقد أنهم محاطون بكلِّ ما في العالم من لحوم. لستَ تعلم شيئاً يا چون سنو. «كيف؟ يبدو لي أن الطَّعام فائض».

- «كان صيفاً طويلاً حصاده وفير واللوردات أسخياء. لقد خزنا ما يكفينا ثلاث سنواتٍ من الشِّتاء، أربع بالقليل من الاقصاد، لكن الآن إذا استمررنا في إطعام رجال الملك ورجال الملكة والهمج... (بلدة المناجد) وحدها فيها ألف فم عديم الفائدة، وما زالوا يتوافدون. ثلاثة آخرون ظهروا عند البوابة أمس، ودسته أول من أمس. لا يُمكن أن يستمرَّ هذا. توطينهم في (الهدية)، لا بأس بهذا، لكن أوان زراعة المحاصيل فات. لن يبقى لنا إلا اللَّفت وثيرد البازلاء قبل نهاية السَّنة، وبعدها سنشرب دماء خيولنا».

أعلنَ إِد الكئيِب: «يَم! لا شيء أفضل من كوبٍ من دم الخيول السَّاخن في الليالي الباردة. أحبُّه بالقليل من القرفة على الوجه».

لم يُعِره قيِّم الوكلاء اهتماماً، وتابَع: «سيكون هناك مرض أيضاً، نزيف في اللثة وأسنان مخلخلة. المايستر إيْمون اعتادَ أن يقول إن عصير اللِّيْمون الأخضر واللَّحم الطَّازج يُعالِجان هذا، لكن ليموننا الأخضر نفذَ منذ عام وليس عندنا علف يكفي لإطعام قُطعانٍ من الحيوانات من أجل لحمها الطَّازج. علينا أن نذبحها جميعاً باستثناء بعض أزواج الاستيلاد، حان الوقت لهذا. في الأشتية الماضية كان الطَّعام يأتي من الجنوب على (طريق الملوك)، لكن مع الحرب... أعرفُ أننا ما زلنا في الخريف، لكنني أوصي بأن نلجأ إلى تموين الشِّتاء بعد إذن سيِّدي».

سيحبُّ الرِّجال هذا. «إن لم يكن هناك مفر». إذا كان إخواني يشتكون مني الآن فماذا سيقولون وهم يأكلون الثلج ومعجون جوز البلوط؟ قال قيِّم الوُكلاء: «سيُساعد هذا يا سيِّدي»، لكن نبرته قالت بوضوح إنه لن يُساعد بما فيه الكفاية.

قال إد الكئيب: «الآن أفهم لماذا سمحَ الملك ستانيس للهَمج بالمرور من (الجدار). إنه يُريدنا أن نأكلهم».

ابتسمَ چون رغماً عنه، وردَّ: «لن تَبُلُغَ الأمور ذلك الحد». - «أوه، عظيم. لحمهم يبدو لي قاسياً، وأسناني لم تُعدَّ حادَّةً كما كانت في شبابي».

قال مارش: «بما يكفي من مالٍ يُمكننا أن نشترى طعاماً من الجنوب ونجلبه بالسُّفن».

يُمكننا ذلك لو أن عندنا ذهباً ووجدنا من يقبل أن يبيعنا طعاماً. وهذا وذاك يفتقرون إليه. قديكون أملنا الأقوى في (العُش). (وادي آرَن) شهير بخصوبته ولم يمسه القتال. تساءلَ چون عن شعور أخت الليدي كاتلين نحو إطعام نغل ند ستارك. في طفولته كثيراً ما شعرَ بأن الليدي تبخل عليه بكلِّ قضمَةٍ من الطَّعام.

أضافَ ويك المهزول: «نستطيع الصَّيد دائماً إذا دعت الحاجة. ما زالت في الغابة فرائس».

قال مارش: «وهَمج، وأشياء أخطر. لا أنصحُ بأن تُرسل صيَّادين يا سيِّدي، لا أنصحُ بذلك بتاتاً».

نعم، بل تُريد إغلاق بواباتنا إلى الأبد وسدَّها بالحجارة والجليد. يعلم أن نصف (القلعة السوداء) يُؤيِّد قيِّم الوُكلاء في وجهة نظره، في حين يُهيل النصف الثاني عليها السُّخرية. قبل ليلتين أعلنَ الحطَّاب العجوز دايوين بصوتٍ عالٍ على العشاء: «سدُّوا البوابات وازرعوا مؤخِّراتكم السوداء فوق (الجدار)، نعم، وسيُنقِّض الأحرار عليكم بأعدادهم الغفيرة من (جسر الجماجم) أو عبر بوابية تظنونها مسدودة منذ خمسمئة عام. ليس عندنا رجال يكفون لمراقبة مئة فرسخ من (الجدار)، وتورموند إست العماليق والبكَّاء اللعين يعرفون هذا أيضاً. هل سبق أن رأيتم بطَّةً متجمِّدةً في بركةٍ بساقيها

في الجليد؟ الشيء نفسه مع الغريبان». اتَّفَقَ أكثرُ الجوّالةِ مع دايوين، فيما مألُ الوُكلاءِ والبناؤون إلى رأيِ باون مارش.

لكنه مَأزقُ ليومٍ آخر. هنا والآن المشكلة هي الطَّعام. قال چون: «لا يُمكننا أن نترك الملك ستائيس ورجاله يجوعون حتى إذا أردنا. إذا لزم الأمر فيإمكانه ببساطة أن يأخذ كلَّ هذا بحدِّ السَّيف. رجالنا لا يكفون لصدِّ رجاله. ولا بُدَّ من إطعام الهمج أيضًا».

سألَه باون مارش: «كيف يا سيِّدي؟».

ليتني أعرفُ. «سنجد وسيلةً».

لدى عودتهم إلى السَّطح كانت ظلال الأصيل قد بدأت تستطيل، وخطَّط السَّحاب السَّماء كراياتٍ رثة، رماديَّة وبيضاء وممزَّقة. خارج مستودع السَّلاح السَّاحة خالية، لكن چون وجد مرافق الملك ينتظره بالداخل. دُفان غلام نحيل في الثَّانية عشرة تقريبًا، بني الشَّعر والعينين، وقد جدوه متجمدًا عند كور الحدادة، يكاد لا يجسُر على الحركة بينما يتشمَّمه جوست من عاليه إلى سافله. قال چون: «لن يؤذيك»، لكن الغلام جنفَ لَمَّا سمعَ صوته، وجعلت الحركة المفاجئة الذُّب الرَّهيب يكشف أسنانه، فأسرَّ چون يقول: «لا! جوست، دعه وشأنه، ابتعد!»، فعاد الذُّب بخُطى صامتة إلى عظمة الثور التي كان يأكلها.

بدا دُفان بشحوب جوست وقد رطبَّ جبهته العرق وهو يقول: «سسيِّدي، جلالته يأمرك بالحضور». يرتدي الغلام ثياب عائلة باراثيون بلونيهما الذهبي والأسود، وفوق قلبه قلب رجال الملكة النَّاري.

قال إد الكئيب: «تعني أنه يَطْلُب، جلالته يَطْلُب حضور حضرة القائد. هذا ما كنتُ لأقوله».

- «لا عليك يا إد». ليس چون في مزاج يسمح بمثل هذا الجدل.

تابع دُفان: «السير ريتشارد والسير چاستن عادا. هل ستأتي يا سيِّدي؟». جوًّا الطَّريق الخطأ. ركب ماسي وهورب جنوبًا لا شمالًا، وما حصَّلاه أيا كان لا يعني حرس اللَّيل، غير أن چون شعر بالفضول رغم ذلك. قال: «تحت أمر جلالته»، وتبع المرافق الصَّغير عبر السَّاحة، ومضى جوست وراءهما إلى أن قال چون: «لا، أبق!»، لكن بدلًا من ذلك انطلق الذُّب يعدو مبتعدًا.

في (بُرج الملك) جُرِّدَ چون من أسلحته ثم سُومِحَ له بالمشول أمام صاحب الجلالة الملكيّة. وجدَّ العُرفة الشَّمسيّة حارّةً مزدحمّةً، وقد جمع ستانيس قاداته حول خريطة الشّمال. جوًّا الطّريق الخطأ بينهم، وكذا سيجورن ماجنر (ثِن) الشّاب الذي يرتدي سُترةً من الجِلد مخيطة عليها أقراص البرونز، وذو القميص المُخشِخِش الجالس يحكُّ معصمه المصفود بظُفُرٍ أصفرٍ مشقّق، تُغطِّي جُدّامة الشّعر البنيّ وجنتيه الغائصتين وذقنه المسحوب، وتتدلّى خُصل من الشّعر المتّسخ على عينيه. حين رأى چون قال: «ها هو ذا، الصّبي الشّجاع الذي قتل مانس رايدر وهو حبيس مقيد». التمعت الجوهرة المربّعة الكبيرة التي تُزيّن صفده الحديدي بلونٍ أحمر، فاستطرد: «هل تُعجبك يا قوتي يا سنو؟ إنها أمانة على الحُبّ من الليدي أحمر».

تجاهله چون وجثا، وأعلن دقان: «جئتُ باللورد سنو يا جلالة الملك».

- «أرى هذا. حضرة القائد، أعتقد أنك تعرفُ فرساني وقادتي».

- «لي هذا الشّرف». لقد تحرّى الدقّة في معرفة كلِّ ما يستطيع عن الرّجال المحيطين بالملك. كلُّهم رجال الملكة. يبدو غريباً لچون أن حول الملك لا رجال ملك، لكنه الأمر الواقع. إذا صدق ما سمعه فقد أثارَ رجال الملك حفيظة ستانيس في (دراجونستون).

- «هناك نبيذ، أو ماء مغلي بالليمون».

- «أشكرك، لكن لا».

قال الملك: «كما تشاء. لديّ هديّة لك أيها اللورد سنو»، وأشار إلى ذي

القميص المُخشِخِش مضيئاً: «هو».

ابتسمت الليدي مليساندرا، وقالت: «قلت إنك تُريد رجالاً أيها اللورد سنو. أظنُّ أن سيّد العظام ما زال أهلاً».

ردّ چون مشدوهاً: «جلالة الملك، هذا الرّجل ليس جديراً بالثقة. إذا أبقيته هنا فسيذبحه أحدهم، وإذا أرسلته يتقصّى فسيعود إلى الهَمَج».

قال ذو القميص المُخشِخِش: «ليس أنا. لقد انقطعت علاقتي بهؤلاء الملاعين الحمقى»، ونقرَ على الياقوتة على معصمه مردفاً: «سَل ساحرتك الحمراء أيها النّعل».

نطقت مليساندرا شيئاً ما بنعومةٍ بلُغةٍ غريبة، فبدأت الياقوتة على

حَلَقَهَا تَنْبُضَ بَبْطَاءٍ، وَرَأَى چُونِ الْأُخْرَى الْأَصْغَرَ عَلَى مَعْصَمِ ذِي الْقَمِيصِ
الْمُخْشِخِشِ تَبْرِقُ وَتَنْطَفِئُ أَيْضًا، ثُمَّ قَالَتْ الرَّاهِبَةُ الْحَمْرَاءُ: «مَا دَامَ يَضَعُ
الْحَلِيَةَ فَهُوَ مَرْبُوطٌ بِي دَمًا وَرُوحًا. سَيُخْدَمُكَ هَذَا الرَّجُلُ بِإِخْلَاصٍ. اللَّهْبُ
لَا يَكْذِبُ يَا لُورْدَ سَنُو».

ربما، لكنك تكذبين.

أَعْلَنَ ذُو الْقَمِيصِ الْمُخْشِخِشُ: «سَأَنْقِصِي مِنْ أَجْلِكُمْ أَيُّهَا النَّعْلُ،
وَسَأُعْطِيكُمْ نِصَائِحَ سَدِيدَةٍ أَوْ أَغْنِي لَكُمْ أَغَانِي حُلُوءَةً، كَمَا تُفْضَلُ، بَلْ وَسَأَقَاتِلُ
مِنْ أَجْلِكُمْ، لَكِنْ لَا تَطْلُبْ مِنِّي أَنْ أُرْتَدِيَ مَعْطَفَكُمْ».

فَكَرَّ چُونُ: لَسْتُ جَدِيرًا بِوَاحِدٍ، لَكِنَّهُ حَفِظَ لِسَانَهُ، فَلَا طَائِلَ مِنَ الشُّجَارِ
أَمَامَ الْمَلِكِ.

قال الملك ستانيس: «لورد سنو، حدّثني عن مورس أومبر».

أَخْبَرَ چُونُ نَفْسَهُ: حَرَسَ اللَّيْلَ لَا يَتَدْخَلُونَ، لَكِنْ صَوْتًا آخَرَ فِي دَاخِلِهِ
قَالَ: الْكَلَامُ لَيْسَ سَيْفًا. «إِنَّهُ أَكْبَرُ أَعْمَامِ چُونِ الْكَبِيرِ. يُسْمَوْنَهُ أَكْلَ الْغُرَابِ،
لَأَنَّ غُرَابًا حَسِبَهُ مَيْتًا ذَاتَ مَرَّةٍ وَنَقَرَ عَيْنَهُ ففَقَّأَهَا، فَأَمْسَكَ الطَّائِرَ بِقَبْضَتِهِ وَقَضَمَ
رَأْسَهُ. فِي شِبَابِهِ كَانَ مَورِسَ مُحَارِبًا مَهِيئًا. أَبْنَاؤُهُ مَاتُوا فِي مَعْرَكَةِ (الثَّلَاوْثِ)
وَزَوْجَتُهُ فِي فِرَاشِ الْوَضْعِ، وَابْنَتُهُ الْوَحِيدَةُ اخْتَطَفَهَا الْهَمْجُ قَبْلَ ثَلَاثِينَ عَامًا».

قال هاروود فل: «لهذا يُريدُ الرَّأسُ!».

سأل ستانيس: «هل هذا الرَّجل مورس أهل للثقة؟».

هل ركَعَ مَورِسَ أومبر؟ «على جلالتك أن تجعله يحلف يمينًا أمام شجرة
قلوب».

قَهْقَهةُ جُودَرِي قَاتِلِ الْعَمَالِقَةِ، وَقَالَ: «نَسِيْتُ أَنْكُمْ تَعْبُدُونَ الْأَشْجَارَ يَا
مَعْشَرَ الشَّمَالِيِّينَ».

وَتَسَاءَلُ كَلَايْتُونُ سَوجز صَاحِبِ فَارَنْجِ: «مَا الْإِلَهَ الَّذِي يَسْمَحُ لِلْكَلابِ
بِالتَّبَوُّلِ عَلَيْهِ؟».

اخْتَارَ چُونُ أَنْ يَتَجَاهَلَهِمَا، وَقَالَ: «جَلَالَةُ الْمَلِكِ، هَلْ لِي أَنْ أَعْرِفَ إِنْ كَانَ
أَلْ أومبر قد أعلنوا تأييدهم إياك؟».

أَجَابَهُ سَتَانِيسُ بِضِيْقٍ: «نِصْفُهُمْ، وَفَقَطُ إِذَا دَفَعْتُ الثَّمْنَ الَّذِي يَطْلُبُهُ أَكْلُ
الْغُرَابِ هَذَا. إِنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مَانَسِ رَايْدِرَ لِيَجْعَلَ مِنْهَا كَأْسًا لِلشَّرَابِ، وَيُرِيدُ

عفوًا عن أخيه الذي ركبَ جنوبًا للانضمام إلى بولتون، هذا الذي يُدعى بباقر العاهرة».

وجد السير جودري هذا أيضًا طريقًا، فقال: «يا لأسماء هؤلاء الشماليين! هل قضمَ هذا رأس عاهرةٍ ما؟».

حدّجه چون ببرودٍ مجيبًا: «شيءٌ شبيه بهذا. كانت عاهرةٌ حاولت أن تسرقه قبل خمسين عامًا في (البلدة القديمة)». على الرغم من غرابة هذا، فقد اعتقدَ هورفروست أومبر العجوز ذات يوم أن أكبر أبنائه يملك ما يُؤهِّله لأن يكون مايسترو. يطيب لمورس التّباهي بحكاية الغراب الذي سلبه عينه، في حين لا تُحكى حكاية هوتر إلا همسًا... غالبًا لأن العاهرة التي بقرَ بطنها كانت رجلاً. «هل أعلنَ لوردات آخرون تأييدهم بولتون؟».

دنت الرّاهبة الحمراء من الملك قائلةً: «رأيتُ مدينةً أسوارها من خشب وشوارعها من خشب، مليئةً بالرّجال، وفوق الأسوار رأيتُ رايات؛ موطًا⁽¹⁾، وفأسًا حربيّةً، وثلاث أشجار صنوبر، وبلطتين طويلتين متقاطعتين تحت تاج، ورأس حصانٍ ناري العينين».

شرح السير كلايتون سوجز: «هورنوود وسروين وتولهارت وريزويل وداستن. خونة جميعًا، كلاب آل لانستر الذليلة».

أخبره چون: «آل ريزويل وآل داستن أصهار عائلة بولتون. الآخرون فقدوا لورداتهم في القتال، ولا أدري من يقودهم الآن، لكن أكل الغراب ليس كلبًا ذليلاً. من صالح صاحب الجلالة أن يقبل شروطه».

قال ستانيس وهو يكرّ على أسنانه: «يقول لي إن أومبر لن يُقاتل أومبر لأيّ سبب».

ردّ چون بلا دهشة: «إذا بلغ الأمر حدّ القتال فانظر أين تخفق راية هوتر وضع مورس على الجانب الآخر من الصُّفوف».

خالفه قاتل العمالقة بقوله: «بهذا ستجعل جلالته يبدو ضعيفًا. رأيي أن نُظهر قوتنا. فلنُحرق (المستوقد الأخير) عن بكرة أبيها ونذهب إلى الحرب

(1) الموط أحد أنواع الأيائل، له عنق قوي وقرنان جريديّان، ويألف العيش في الغابات والمستنقعات. (المترجم).

برأس أكل الغراب مرفوعاً على حربةٍ كدرسٍ للورد التالي الذي يتجرأ على عرض نصف بيعته».

- «خطّة جيّدة إذا أردت أن ترتفع كلُّ يدٍ في الشّمال ضدك. النّصف أكثر من لا شيء. آل أومبر لا يكتون حُبّاً لآل بولتون. إذا انضمّ باقرِ العاهرة إلى النّغل فالسّبب الأكيد أن چون الكبير أسير عند آل لانستر».

أعلن السير جودري: «هذه ذريعته لا سببه. إذا مات ابن الأخ في الأسر فالعمّان يستطيعان أخذ أراضيهِ ولورديّته لنفسيهما».

- «لچون الكبير أبناء وبنات. في الشّمال أيضاً يسبق أولاد الرّجل أعمامه أيها الفارس».

- «ما لم يموتوا. الأولاد الموتى يأتون في النّهاية في كلِّ مكان».

- «اقترح هذا على مسمع مورس أومبر أيها السير جودري وستعرف عن الموت أكثر مما ترغب».

- «لقد قتلتُ عملاقاً يا ولد. لماذا أخشى شمالياً تسعى على جسده البراغيث ويرسم عملاقاً على ثُرسه؟».

- «العملاق كان يفرُّ. مورس لن يفرُّ».

قال الرّجل الكبير بوجهٍ احتقن: «تتكلم بجرأةٍ في عُرفة الملك يا ولد. في السّاحة كان كلامك مختلفاً».

- «أوه، هوّن عليك يا جودري»، قال السير چاستن ماسي، وهو فارس ممتلئ مرتخي الأطراف له شعر كتّاني وابتسامة حاضرة، وكان أحد جوّالي الطّريق الخطأ. «كلّنا يعلم أن سيفك كبير ضخم بالتأكيد. لا داعي لأن تُلّوح به في وجوهنا ثانية».

- «الشّيء الوحيد الذي يُلّوح به أحد هنا هو لسانك يا ماسي».

قال ستانيس بحدّة: «صمتاً!»، ثم وجّه كلامه إلى چون: «لورد سنو، انتبه إليّ. لقد لبثتُ هنا على أمل أن يكون الهمج بالحُمق الكافي لشنّ هجمةٍ أخرى على (الجدار)، لكن ما داموا لن يفعلوا ما توقّعتة فقد حان الوقت لأنّ تعامل مع أعدائي الآخرين».

ردّ چون بنبرةٍ حذرة: «مفهوم». ماذا يُريد مني؟ «إنني لا أحبُّ اللورد

بولتون أو ابنه، لكن حرس الليل لا يستطيعون أن يحملوا السلاح ضدهما. يميننا تُحرّم علينا...».

قاطعَه الملك: «أعرفُ يمينكم جيّدًا. أعفني من استقامتك أيها اللورد سنو. إن قوّاتي كافية من دونكم. إنني أفكّرُ في الزّحف على (معقل الخوف)»، فلمّا رأى الصّدمة على وجهه چون ابتسم وقال: «هل فاجأك هذا؟ عظيم. ما يُفاجئ سنو قد يُفاجئ آخر. لقد ذهب نغل بولتون جنوبًا وأخذ معه هوثر أومبر، وهو ما اتّفق عليه مورس أومبر وأرنولف كارستارك كلاهما. المعنى الوحيد لهذا هجمة على (خندق كايلن) ليفتح الطّريق لأبيه كي يعود إلى الشّمال. لا بدّ أن النّغل يحسب أنني أكثر انشغالا بالهَمْج من أن أزعجه. لا بأس. لقد كشف لي الصّبي عنقه، وأنا أنوي تمزيقه. قد يستردُّ روروس بولتون الشّمال، لكن حين يفعل فسيجد قلعته وماشيته ومحاصيله في قبضتي. إذا داهمتُ (معقل الخوف) على حين غرّة...».

اندفع چون يقول: «لن تفعل».

كأنه ضرب عُشّ دبابير بعضا. ضحك أحد رجال الملكة، وبصق آخر، وتمتم ثالث بشتيمة، وحاول الآخرون الكلام في آن واحد. قال السير جودري قاتل العمالقة: «الصّبي في عروقه لبن لا دماء»، فيما صاح اللورد سويت غاضبًا: «الجبان يرى مجرمًا وراء كلّ عود عُشب».

رفع ستانيس يده أمرًا بالصّمت، وقال: «فسّر ما تعنيه».

من أين أبدًا؟ اقترب چون من الخريطة التي وُضعت الشّموع على أطرافها لتحول دون انطوائها، وقد سأل خيط من الشّمع الدّافئ ببطء نهر جليدي صانعًا بركة صغيرة فوق (خليج الفقمات). «لبلوغ (معقل الخوف) على جلالتك السّفر على (طريق الملوك) مرورًا بـ(النّهر الأخير)، ثم تنعطف إلى الجنوب الشّرقي لعبور (التلال الوحيدة)»، وأشار متابعًا: «هذه الأراضي تابعة لآل أومبر، حيث يعرفون كلّ شجرة وصخرة. (طريق الملوك) يُحاذي تُخومهم الغربيّة لمئة فرسخ. سيُمزق مورس جيشك إربًا إربًا ما لم تقبل شروطه وتكسبه».

- «لا بأس. لنقل إنني فعلتُ».

- «ستصل إلى (معقل الخوف)، لكن ما لم يكن جيشك أسرع من الغدبان

وخطَّ من المنارات فستعلم القلعة باقترابك، وعندها سيَسْهَلُ على رامزي بولتون أن يقطع عليك طريق الانسحاب ويتركك بعيدًا عن (الجدار) بلا طعام أو مأوى ومحاطًا بأعدائك».

- «هذا إن تخلَّى عن حصار (خندق كايلن)».

- «(خندق كايلن) ستسقط قبل أن تَبْلُغَ (معقل الخوف) بزمن، وما إن يضمَّ اللورد رويس قُوَّاته إلى قُوَّات رامزي فسيفوقانك عددًا خمسة إلى واحد».

- «أخي انتصر في معارك فُرص الفوز بها أقل».

قال چاستن ماسي باعتراض: «إنك تفترض أن (خندق كايلن) ستسقط سريعًا يا سنو، لكن الحديديين مقاتلون أشاوس، كما أنني سمعتُ أن (الخندق) لم تسقط من قبل قط».

ردَّ چون: «من الجنوب. من شأن حامية صغيرة في (خندق كايلن) أن تُدمِّر جيشًا يتقدَّم على الدَّرب العالي، لكن الأطلال عُرْضة للهجوم من الشَّمال والشرق»، وعادَ يلتفت إلى ستانيس قائلًا: «مولاي، إنها ضربة جريئة، لكن المخاطرة...». حرس اللَّيل لا يتدخَّلون. المفترض ألا يكون هناك فرق عندي بين باراثيون وبولتون. «إذا لحق بك رويس بولتون عند أسواره بقوَّته الأساسية فستكون نهايتكم جميعًا».

- «المخاطرة جزء من الحرب»، أعلنَ السير ريتشارد هورپ، وهو فارس نحيف له وجه مليء بالندوب ويرتدي سُترَةً مبطنَّةً على صدرها ثلاث من عُثْ رأس الموت⁽¹⁾ على خلفيَّة من الرَّماد والعظم. «كل معركةٍ مقامرة يا سنو. من لا يفعل شيئًا يُخاطر أيضًا».

- «المخاطرات أنواع يا سير ريتشارد. هذه المخاطرة... إنها أكبر من اللازم وأسرع من اللازم وأبعد من اللازم. أنا أعرفُ (معقل الخوف). إنها قلعة قويَّة، كلها من الحجر، أسوارها سميقة وأبراجها ضخمة، ومع اقتراب الشَّتاء ستجدونها مزوَّدة بمؤنٍ وفيرة. قبل قرونٍ تمرَّدت عائلة بولتون على

(1) عُنَّةُ رأس الموت فصيلة من العُثِّ الصَّقرية، تُعرَف بهذا الاسم بسبب الشَّكل الشَّبيه بالجمجمة على صدرها. (المترجم).

الملك في الشّمال، فحاصرَ هارلون ستارك (معقل الخوف)، واستغرقَ الأمر عامين كاملين حتى نفدت مؤونتهم. كي يكون لكم أمل في الاستيلاء على القلعة فجلالتك محتاج إلى آلات حصار، إلى أبراج ومدكات...».

قال ستانيس: «يُمكننا بناء أبراج الحصار عند الحاجة، ونستطيع قطع الأشجار لعمل المدكات إذا كانت مطلوبةً. آرنولف كارستارك كتبَ قائلاً إن في (معقل الخوف) أقل من خمسين رجلاً، نصفهم من الخدم. القلعة المنيعَة التي يحميها ضعفاء ضعيفة».

- «خمسون رجلاً داخل قلعةٍ يُعادِلون خمسمئةً خارجها».

قال ريتشارد هورب: «حسب الرّجال. سيكونون مسنّين وصبيّة خُضراء، الذين لم يعتبرهم النّغل صالحين للقتال، أمّا رجالنا فأراقوا الدّماء وخضعوا للاختبار في معركة (النّهر الأسود)، ومَن يقودونهم فُرسان».

أزاح السير چاستن خُصلةً من الشّعر الكتّاني قائلاً: «لقد رأيت كيف شققنا صفوف الهَمج. آل كارستارك أقسموا على الانضمام إلينا عند (معقل الخوف)، وسيكون معنا همجننا أيضاً، ثلاثمئة رجل في سنّ القتال. اللورد هاروود أحصاهم وهم يمرون من البوابة. نسوتهم يُقاتِلن أيضاً».

رمقه ستانيس عابساً، وقال: «ليس في صفوفي أيها الفارس. لستُ أريدُ أرامل يُولولن في أثري. ستبقى النّساء هنا مع المسنّين والجرحى والأطفال، سيكون رهائن لضمّان ولاء أزواجهن وأبائهن. سيكوّن رجال الهَمج طليعة جيشي، وسيقودهم الماجنر مع زعمائهم ورُقباّتهم، لكن أولاً علينا أن نُسلّحهم».

يُريد أن يستولي على ما يشاء من مستودع السّلاح. طعام وملابس، وأرض وقلاع، والآن الأسلحة. كلّ يوم يُورّطني أكثر فأكثر. قد لا يكون الكلام سيقاً، لكن السّيف سيف! قال على مضض: «يُمكنني أن أجد ثلاثمئة حربة، وخوداً أيضاً، إذا قبلتموها قديمةً منبعجةً صدئةً».

سأل الماجنر: «وماذا عن الدُّروع؟ صفائح وحلقات المعدن؟».

أجاب چون: «لقد خسرنا صنایع السّلاح بموت دونال نوي»، ولم يشرح الباقي. أعطَ الهَمج دروعاً وسيتضاعف خطرهم على البلاد.

قال السير جودري: «لا بأس بالجلد المقوَّى. ما إن نذوق طعم المعركة فليأخذ النّاجون غنائمهم من الموتى».

مَنْ يَظَلُّ حَيًّا مِنْهُمْ حَتَّى ذَلِكَ الْحَيْنِ. إِذَا وَضَعَ سَتَانِيسَ الْأَحْرَارَ فِي طَلِيعَةِ حَيْشِهِ فَيَسِيلِقِي أَكْثَرَهُمْ مَصْرَعَهُ سَرِيعًا. «قَدْ يَسُرُّ مَوْرَسَ أَوْ مَبْرَ أَنْ يَشْرَبَ مِنْ جَمْعِمَةِ مَانَسَ رَايْدِرَ، لَكِنْ رُؤْيَا الْهَمْجِ يَعْبرُونَ أَرْضَهُ لَنْ تَسْرَهُ. الْأَحْرَارَ يُغَيِّرُونَ عَلَى آلِ أَوْ مَبْرَ مِنْذَ فَجْرِ الزَّمَانِ، يَعْبرُونَ (خَلِيجَ الْفَقْمَاتِ) رَغْبَةً فِي الذَّهَبِ وَالْخِرَافِ وَالنِّسَاءِ، وَأَحَدُ هَؤُلَاءِ اخْتَطَفَ ابْنَةَ أَكَلِ الْغُرَابِ نَفْسَهَا. انْتَرَكُ الْهَمْجِ هُنَا يَا جَلَالَةَ الْمَلِكِ. لَنْ يُفْضِي أَخْذَهُمْ إِلَّا إِلَى انْقِلَابِ حَمَلَةِ رَايَةِ أَبِي عَلِيكَ».

قال ستانيس: «حملة راية أبيك يدون كارهين لقضيتي في جميع الأحوال. عليّ أن أفترض أنهم يروني... بِمِ وَصَفْتَنِي أَيُّهَا اللورد سنو؟ مدّع آخر محكوم عليه بالهلاك؟»، ثم إنه رمق الخارطة، وللحظات طويلة لم يُسمع صوت في العُرْفَةِ إِلَّا صرير أسنان الملك، قبل أن يقول: «اتركوني جميعًا. لورد سنو، ابقَ».

لم يَلُحْ على چاستن ماسي الرضا عن الفظاظة المقتضبة التي صرفهم بها الملك، لكنه لم يجد خيارًا إِلَّا الابتسام والانسحاب، وتبعه هورب إلى الخارج بعد أن رمى چون بنظرة متأنية. أفرغ كلاتون سوجز ما تبقى من شرابه في جوفه وتمتم بشيء ما لهاروود فل جعل الرجل الأصغر يضحك، شيء احتوى على كلمة «صبي». سوجز فارس متجول ترقى، يملك قدرين متساويين من الجلافة والقوة. آخر رجل غادر كان ذو القميص المُخَشِخِشِ، وعند الباب انحنى لچون باستهزاء وعلى فمه ذي الأسنان البنية المكسورة ابتسامة عريضة.

لا يبدو أن «جميعًا» تضمّنت الليدي ملساندرا. ظلّ الملك الأحمر. طلب ستانيس من دؤان المزيد من الماء بالليمون، وحين امتلأ كوبه شرب الملك، ثم قال: «هورب وماسي يطمحان إلى مقعد أبيك، وماسي يُريد الأميرة الهمجية أيضًا. لقد خدم كمُرافق لأخي روبرت واكتسب شهيتته للحم النساء. هورب سيتزوج قال إذا أمرت، لكن ما يشتهي هو المعركة. حين كان مُرافقًا حلّم بالمعطف الأبيض، لكن سرسي لانستر اعترضت عليه فصرّف روبرت عنه النظر، وربما كان محققًا، فالسير ريتشارد شغوف بالقتل. أيهما تُفضّل سيّدًا على (ويتترف) يا سنو؟ الباسم أم القاتل؟».

قال چون: «(ويتترفل) من حقّ أختي سانزا».

- «لقد سمعتُ كلَّ ما أحتاجُ إلى سماعه عن الليدي لانستر وحقّها»، ووضعَ الملكُ كأسه جانبًا، وتابعَ: «أنت تستطيع أن تأتني بالشَّمال. سيتأزّر حَمَلَة راية أبيك حول ابن إدارد ستارك، حتى اللورد الأسمن من أن يركب حصانًا. (الميناء الأبيض) قادرة على تزويدي بمصدر مؤنّ ثابت وتأمين قاعدةٍ أستطيعُ الانسحاب إليها عند الحاجة. لم يفتْ أوان العدول عن حماقتك يا سنو. اركع أمامي وتعهد لي بسيفك النغل هذا وانهض چون ستارك، سيّد (ويتترفل) وحاكم الشَّمال».

كم مرّةً سيجعلني أقولها؟ «سيفي تعهدتُ به لحرس اللّيل».

بدا الامتعاض على ستانيس وهو يقول: «أبوك كان رجلًا عنيذًا أيضًا، ودعا هذا بالشَّرَف. حسن، للشَّرَف أيضًا ثمن، وهو ما تعلّمه اللورد إدارد. إذا كان في هذا عزاء، فهورب وماسي سيُخَيِّبان الآمال لا محالة. إنني ميّال أكثر إلى وهب (ويتترفل) لآرنولف كارستارك. إنه شمالي صالح».

- «إنه شمالي». قال چون لنفسه: كارستارك أفضل من بولتون أو جرايچوي، وإن لم يجد في الفكرة إلاّ عزاءً قليلًا. «آل كارستارك تخلوا عن أختي بين أعدائه».

- «بعد أن بترَ أخوك رأس اللورد ريكارد. آرنولف كان على بُعد ألف فرسخ حينها. إن في عروقه دماء ستارك، دماء (ويتترفل)».

- «مثله مثل نصف عائلات الشَّمال الأخرى».

- «تلك العائلات الأخرى لم تُعلن تأييدها إياي».

- «آرنولف كارستارك رجل هرمٍ محنيّ الظهر، وحتى في شبابه لم يكن المُقاتل الذي كانه اللورد ريكارد. احتمال كبير أن تقتله مشاق المعركة».

قال ستانيس محتدًا: «إن له ورثةً، ابنان وستة أحفاد وبعض البنات. لو أنجبَ روبرت أبناءً شرعيّين لكان كثيرون من الموتى أحياء الآن».

- «الاستعانة بمورس أكل الغُراب أفضل لجلالتك».

- «هذا ما سيُبت في (معقل الخوف)».

- «هل تنوي إذن أن تمضي في هذا الهجوم؟».

- «على الرغم من نصيحة اللورد سنو العظيم؟ أجل. هورب وماسي

طموحان لكن الصّواب لم يُجانِبهما. لا يُمكنني أن أتوانى فيما يسطع نجم
رووس بولتون ويأفل نجمي. عليّ أن أوجّه ضربةً وأري الشّمال أنني ما زلتُ
مهيباً».

قال چون: «عريس بحر عائلة ماندرلي لم يكن ضمن الرّايات التي رأتها
الليدي مليساندرا في نارها. إذا حظوت بـ(الميناء الأبيض) وفرسان اللورد
وايمان...».

- «إذا» كلمة للحمقى. لم يصل إلينا خبر من دافوس، وربما لم يبلغ
(الميناء الأبيض) من الأصل. آرنولف كارستارك قال ضمن ما كتبه إن
العواصف ضربت (البحر الضيّق) بشراسة. بغضّ النظر عن هذا، ليس لديّ
وقت للجداد أو انتظار ما تُسفر عنه نزوات اللورد السّمين. يجب أن أترك
(الميناء الأبيض) خارج حساباتي. دون ابن لـ(ويتترفل) يقف إلى جانبي فلا
أمل لي إلا أن أريح الشّمال بالقتال، وهو ما يتطلّب أن أستعير صفحةً من
كتاب أخي، ولو أن روبرت لم يقرأ كتاباً في حياته. لا مناص من أن أوجّه إلى
أعدائي ضربةً قاضيةً قبل أن يُدرِكوا أنني أهاجمهم».

أدرِك چون أن كلّ ما قاله هباء. سيأخذ ستانيس (معقل الخوف) أو يموت
وهو يُحاول. في داخله قال صوت: حرس اللّيل لا يتدخلون، لكن آخر ردّ:
ستانيس يُحارب في سبيل البلاد، والحديديون في سبيل الأفتان⁽¹⁾ والغنائم.
«جلالة الملك، أعرفُ أين تجد مزيداً من الرّجال. أعطني الهَمْج وسيسرّني
أن أخبرك أين وكيف».

- «لقد أعطيتك ذا القميص المُخشخِش، فاقنع به».

- «أريدهم جميعاً».

- «بعض إخوتك المحلّفين يُريدون إقناعي بأنك نصف همجي عن
نفسك. أهذا صحيح؟».

- «بالنسبة إليك الهَمْج ليسوا إلا طُعمةً للسّهام، لكنني أستطيعُ أن أستغلهم

(1) القنّانة وضع اجتماعي واقتصادي ظهر في أوروبا خلال العصور الوُسطى، فكان القنّ يُجبر
على خدمة السّادة والعمل في أراضيهم وقلاعهم مقابل المأوى والملبس والحماية، وهو
الاختلاف بينه وبين العبد. (المترجم).

استغلالاً أفضل على (الجدار). أعطني إياهم لأفعل بهم ما أشاء وسأريك أين ستجد نصرك المنشود... والرجال المطلوبين أيضًا».

فرك ستانيس مؤخره عنقه قائلاً: «تساوم كحيزبون تبع الأسماك يا لورد سنو. هل أنجبك نذ ستارك من بائعة سمك؟ كم رجلاً؟».

- «ألفان، وربما ثلاثة».

- «ثلاثة آلاف؟! من هؤلاء الرجال؟».

- «رجال معتدون بأنفسهم، فقراء، سريعو الغضب عندما يتعلق الأمر بالشرف، لكنهم مقاتلون أقوياء شجعان».

- «خيرٌ لك ألا تكون هذه خدعة نغولٍ ما. هل سأستبدل ثلاثمئة مقاتل بثلاثة آلاف؟ أجل، سأفعل، فلست أحمق كبيراً. إذا تركت الفتاة معك أيضًا فهل تُعطيني كلمتك بأن تُحافظ على أميرتنا؟».

ليست أميرةً. «كما ترغب يا جلالة الملك».

- «هل عليّ أن أجعلك تحلف يميناً أمام شجرة؟».

- «لا». أهذه دُعاية؟ مع ستانيس تصعب معرفة الفرق.

- «اتفقنا إذن. والآن، أين هؤلاء الرجال؟».

قال چون: «ستجدهم هنا»، وبسطَ يده المحروقة على الخريطة غرب (طريق الملوك) وجنوب (الهدية).

تساءل ستانيس بارتياح: «هذه الجبال؟ لا أرى علاماتٍ لقلاع هناك، لا طرق، لا بلدات، لا قرى».

- «كثيراً ما قال أبي إن الخريطة ليست الأرض. منذ آلاف السنين يعيش أناس في الوديان العالية ومروج الجبال، يحكمهم زعماء عشائريهم. لك أن تعتبرهم لوردات صغاراً، لكنهم لا يستخدمون تلك الألقاب. يُقاتل أبطال العشائر بسيفٍ عظيمة تُحمل باليدين، والعوام بالرشق بالحجارة وعصي شجر الدردار الجبلي. إنهم قوم مشاغبون، لا بُدَّ من الاعتراف بهذا. حين لا يُقاتل بعضهم بعضاً يرعون ماشيتهم ويصطادون الأسماك من (خليج الجليد) ويستولدون أمتن دواب ستركبها على الإطلاق».

- «وتعتقد أنهم سيقاتلون من أجلي؟».

- «إذا سألتهم».

- «ولِمَ أتوسَّلُ شيئًا من حَقِّي؟».

ردَّ چون: «قلتُ سَل لا توسَّل»، ورفعَ يده مواصلاً: «لا فائدة من إرسال الرِّسائل. على جلالتك أن تذهب إليهم بنفسك. كل عيشهم وملحهم واشرب مزرهم واستمع إلى زمَّاريهم واثن على حُسن بناتهم وسجاعة أبنائهم، وستنال سيوفهم. العشائر لم ترَ ملكًا منذ ركعَ تورين ستارك، وزيارتك تُشرفهم. لكن مُرهم بالقتال من أجلك وسيَنظُر بعضهم إلى بعضٍ ويقولون: من هذا الرَّجُل؟ إنه ليس مليكي».

- «عن كم عشيرة تتكلَّم؟».

- «هناك أربعون عشيرة، منها الكبير والصَّغير. فلينت، وول، نوري ليدل... اكسب فلينت العجوز والدُّلو الكبير وسيتبعهما البقية».

- «الدُّلو الكبير؟!».

- «الوول. إن عنده أكبر بطنٍ في الجبال، وأكثر رجال. آل وول يصطادون من (خليج الجليد) ويحدِّرون صغارهم من أن يختطفهم الحديدِيُّون إذا لم يُحسِنوا الأدب، لكن لبلوغهم على جلالتك أن تعبِّر أراضي نوري. إنهم الأقرب إلى (الهدية) ولطالما كانوا أصدقاءً لحرس الليل. يُمكنني أن أعطيك مُرشدين».

سأله ستانيس الذي يفوته القليل: «يُمكنك أم ستفعل؟».

- «سأفعل. ستحتاج إليهم، وإلى بعض الخيول ثابتة الخُطى أيضًا. الطُّرق هناك ليست أكثر من دروب ماعز».

ضيقَ الملك عينيه قائلاً: «دروب ماعز؟ أتكلَّم عن الحركة السريعة وتهدر وقتي بدروب الماعز؟!».

- «حين غزا التَّنين الصَّغير (دورن) استخدمَ درب ماعز لتلافي أبراج الحراسة على (طريق العظام)».

- «أعرفُ هذه الحكاية أيضًا، لكن دايرون بالغَ في تقديرها في كتابه المختال إياه. السُّفن فازت بالحرب وليس دروب الماعز. قبضة السَّنديان قهر (بلدة الأخشاب) وأبحرَ حتى منتصف (الدَّم الأخضر) فيما التحمت القُوَّات الدورية الأساسية في (ممر الأمير)»، ونقرَ ستانيس بأصابعه على الخارطة متسائلاً: «لوردات الجبال هؤلاء لن يُعيقوني عن العبور؟».

- «بالمآدب فقط. كلهم سيحاول غلبة الآخر في كرم الضيافة. قال أبي إن أطيب طعام أكله في حياته كان عند زيارته العشائر».

قال الملك: «لقاء ثلاثة آلاف رجل أظنني قادرًا على احتمال القليل من الثريد وعزف المزامير»، ولو أن نبرته وشتت بأنه يكره مجرد هذا.

التفت چون إلى مليساندرا قائلاً: «لا بدُّ من تنبيهك يا سيديتي. الآلهة القديمة قويّة في تلك الجبال، ولن يسمح رجال العشائر بإهانة أشجارهم».

قالت وقد بدا أنها وجدّت تحذيره طريفاً: «لا تخف يا چون سنو، لن أزعج بربري جبالكم وأهتتهم السوداء. إن مكاني هنا معك ومع إخوتك الشجعان».

كان هذا آخر شيء يُريده چون سنو، لكن قبل أن يعترض قال الملك: «أين تُريدني أن أهاجم بهؤلاء المغاوير إن لم يكن (معقل الخوف)؟».

رمق چون الخريطة مجيباً: «(ربوة الغابة)»، ونقر عليها بإصبعه مردفاً: «إن كان بولتون ينوي قتال الحديديين فعليك أن تفعل أيضاً. (ربوة الغابة) قلعة تتكوّن من حصن وراء خندق في قلب غابة كثيفة الأشجار، من السهل الزحف عليها خفية، قلعة خشبية يحميها خندق في الأرض وسور من الخشب. سيكون المضي عبر الجبال بطيئاً، لكن هناك يستطيع جيشك أن يتحرّك دون أن يراه أحد ثم يخرج عند بوابة (ربوة الغابة) تقريباً».

فرك ستانيس فكّه قائلاً: «عندما تمرّد بالون جرايچوي أول مرّة هزمت الحديديين في البحر حيث يكونون في ذروة قوتهم. على اليابسة وعلى حين غرّة... أجل. لقد انتصرت على الهمج وملك ما وراء الجدار، وإذا حطمت الحديديين أيضاً فسيعرف الشمال أن له ملكاً من جديد».

قال چون لنفسه: وسيكون لي ألف همجي بلا وسيلة لإطعام نصف هذا العدد.



تيريون

تحركّ (العدراء الخجول) عبر الضباب كرجلٍ ضريير يتحسّس طريقه في باحةٍ لا يألّفها.

كانت السّپتة ليمور تُصليّ بصوتٍ كتّمته الغيوم جاعلةً نبرته رفيعةً مكبوتةً، وراح جريف يذرع السّطح جيئةً وذهابًا وحلقات المعدن تُصدر صلصلةً خافتةً تحت معطفه المصنوع من فراء الدّئاب، يمسّ سيفه بين الفينة والفينة كأنما يتأكّد من وجوده على جانبه، في حين تولّى رولي حقل البط دفع القارب بالعصا من الميمنة وياندري من الميسرة، وأمسكت يسيللا الدّفة. تمتم هالدون النّصف مايستر: «لا أحبّ هذا المكان».

سأله تيريون ساخرًا: «هل يُخيفك القليل من الضباب؟»، مع أن الحقيقة أن الضباب كثيف للغاية بالفعل. عند مقدّمة (العدراء الخجول) يقف جريف الصّغير بعضا ثلاثة يدفعهم بعيدًا عن الأخطار التي تلوح من الغيوم، وقد علّق قنديلان مضاء ان على المقدّمة والمؤخّرة، لكن كثافة الضباب تجعل القزم لا يرى من موضعه في منتصف القارب إلّا ضوءًا طافياً في الهواء أمامه وآخر يتبعه من الوراء. مهمّته هو أن يُعنى بالمستوقّد ويحرص على أن تظّل النّار مشتعلةً.

خاطبته يسيللا قائلةً بإصرار: «ليس هذا ضبابًا تقليديًا يا هيو جور هيل. إنه عابق برائحة الشّعوذة، وكنت لتعرف هذا لو أن لك أنفًا. مُسافرون كثيرون ضاعوا هنا، قوارب وسفن قراصنة وقوادس نهريّة كبيرة أيضًا. يتخبّط البائسون في الغيوم بحثًا عن شمس لا يجدونها أبدًا إلى أن يستولي علي حياتهم الجنون أو الجوع. في الهواء هنا أطياف قلقلة وتحت الماء أرواح معذبة».

أشارَ تيريون قائلاً: «ها هي ذي إحداها». عند الميمنة يد كبيرة بما يكفي لسحق القارب ترتفع من الأعماق المظلمة، يبرز إصبعان فقط منها فوق سطح النهر، لكن إذ تجاوزهما القارب بهدوء رأى بقية اليد تتموج تحت الماء ووجهها شاحباً ينظر إلى أعلى. على الرغم من البساطة التي تكلم بها أحسّ القزم بالتوتر. مكان سيئ هذا، يتضوع باليأس والموت. ليست يسىلا مخطئة. هذا الضباب غير طبيعي. شيء ما كرهه ينمو في المياه هنا ويتقيح في الهواء. لا عجب أن المتحجرين يُصابون بالجنون.

قالت يسىلا محدرةً: «لا ينبغي أن تستهزئ. الموتى الهامسون يكرهون الأحياء الدافئين ويطمعون دومًا في انضواء المزيد من الأرواح الملعونة إليهم».

ردَّ القزم محرِّكًا الفحم بالمسعار: «أشكُّ في أن لديهم كفنًا بحجمي». بصوتٍ كتّمه الوشاح الأصفر الملفوف حول فمه وأنفه قال هالدون النصف مايستر: «الكراهية لا تُحرِّك المتحجرين مثلما يُحرِّكهم الجوع. لا شيء يُريد إنسان عاقل أن يأكله ينمو في هذا الضباب. ثلاث مرّات كل سنة يُرسل قناصل (فولانتيس) قادمًا محمّلًا بالمؤن في هذا الاتجاه، لكن كثيرًا ما تتأخر سفن الرّحمة، وأحيانًا تجلب أفواها أكثر من الطّعام».

قال جريف الصّغير: «مؤكّد أن في النهر أسماكًا». ردّت يسىلا: «لا أنصح أبدًا بأكل أيّ أسماكٍ من هذه المياه، أبدًا». أضاف هالدون: «خيرٌ لنا أيضًا ألا نتنفس الضباب، فلعنة جارين تُحيط بنا من كلّ جهة».

معنى ألا نتنفس الضباب ألا نتنفس. قال تيريون: «لعنة جارين ليست إلاّ الداء الأرمد». غالبًا ما تظهر اللعنة في الأطفال، خاصّة في المناخ البارد الرطب، فتتيسر بشرة المصاب وتتكلس وتشقق. غير أن القزم سبق أن قرأ أن الحيلولة دون تفاقم الداء الأرمد ممكنة بواسطة الليمون الأخضر وكمادات الخردل والاستحمام بالمياه بالغة السخونة (كما يقول المايسترات)، أو بالصلاة والصيام وتقديم القرابين (كما يؤكّد السّبتونات). بعدها يذهب المرض تاركًا ضحايا الصغار مشوهين ولكن أحياء، ويتفق المايسترات والسّبتونات على أن الأطفال الذين انتابهم الداء الأرمد بالفعل لا يمكن أن يمسه أبدًا النوع

الأندر المميت من المرض، ولا ابن عمّه الحثيث الرّهيب، الطّاعون الأرمد. يُقال إن الجاني هو الرّطوبة. في الهواء رطوبة دنسة لا لعنات».

قالت يسيلًا: «الغزاة أيضًا لم يُصدّقوا يا هيو جور هيل. رجال (فولانتيس) و(فاليريا) علقوا جارين في قفص من ذهب وسخروا منه حين استجدى أمّه (الروين) أن تُدّمّرهم، لكن في اللّيل فاضت المياه وأغرقتهم، ومنذ ذلك الحين لم يعرفوا الرّاحة. ما زالوا بالأسفل تحت الماء، هؤلاء الذين كانوا يومًا سادة النّار. أنفاسهم الباردة تتصاعد من الظلمة لتصنع هذا الضّباب، وأجسادهم تحجّرت كقلوبهم».

استحكته جدعة أنفه بشدّة فحكّها مفكّرًا: قد تكون العجوز محقّة. ليس هذا مكانًا جيّدًا. أشعر كأنني عدتُ ثانية إلى المرحاض، أشاهد أبي يموت. هو أيضًا سيجنّ جنونه لو أن عليه قضاء حياته في هذا الحساء الرّمادي فيما يتحوّل لحمه وعظمه إلى حجر.

قال جريف الصّغير الذي يبدو أنه لا يُشاركه هواجسه: «فليحاولوا أن يُزعجوننا وسنزيهم معدننا».

علقت السّبتة ليمور: «معدننا لحم وعظم، على صورة (الأب) و(الأم). لا داعي للزّهو والخيلاء أرجوك. الغرور خطيئة نكراء. المتحجّرون أيضًا كانوا مغرورين، واللورد المكفّن أكثرهم غرورًا».

سأل تيريون شاعرًا بتورّد وجهه من حرارة الفحم المتوهّج: «هل للورد المكفّن وجود حقًا أم أنه حكاية مختلفة؟».

أجابّه ياندري: «اللورد المكفّن يحكّم هذه الغيوم منذ زمن جارين. بعضهم يقول إنه هو نفسه جارين الذي قام من قبره المائي».

بإصرارٍ قال النّصف مايستر: «الموتى لا يقومون، ولا أحد يعيش ألف عام. نعم، هناك لورد مكفّن، وكان هناك زُهاء عشرين منهم. عندما يموت واحد يأخذ آخر مكانه. الحالي قُرصان من (جُزر البازيليسق) اعتقد أن في (الروين) غنائم أثنى مما في (بحر الصّيف)».

قال البطة: «أجل، سمعتُ هذا أيضًا، لكن ثمة حكاية أخرى تروقي أكثر، تلك التي تقول إنه ليس كالمتهجّرين الآخرين، إنه كان في الأصل تمثالًا حتى خرجت امرأة رمادية من الضّباب وقبّلته بشفتين باردتين كالجليد».

قال جريف: «كفى! اصمتوا جميعاً».

حبست السّپتة ليمور أنفاسها، وقالت: «ما هذا؟!».

سألها تيريون الذي لا يرى إلا ضباباً: «أين؟».

- «شيء ما تحرك. رأيت المياه تتموج».

أعلن الأمير بسرور: «سلاحفة، كسّارة عظم كبيرة، هذا كل ما هنالك»، ومدّ عصاه إلى الأمام ودفعهم بعيداً عن مسلّة خضراء شاهقة.

تشبّث بهم الصّباب البارد الرّطب. من العتمة الرّماديّة لاح لهم معبد غارق إذ مال كل من ياندري والبطة على عصاه وتحرك بتؤدّة من المقدّمة إلى المؤخّرة ليدفع، ثم مرّوا بسلم من الرّخام يرتفع من الوحل وينتهي بحافة محرّزة في الهواء، ووراءه أشكال أخرى شبه خفيّة؛ قمم مدبّبة محطّمة وتمائيل بلا رؤوس وأشجار جذورها أكبر من قاربهم.

قال ياندري: «كانت هذه أجمل مدينة على النّهر. (كرويان)، مدينة

الاحتفالات».

غنيّة جدّاً وجميلة جدّاً. ليس من الحكمة أبداً إثارة طمع الثّنائين. أحاطت بهم المدينة الغارقة، وحلّق شيء ما شبه مرثي أعلاهم وضرب جناحاه الجلديّان الشّاحبان الهواء، فلمّا أدار تيريون رأسه يُلقى نظرة أفضل اختفى الشيء فجأة كما ظهر.

بعدها بفترة قصيرة لاح أمامهم ضوء آخر طاف، وعبر الماء نادى صوت خافت: «أيها القارب، من أنتم؟».

أجاب ياندري صائحاً: «(العدراء الخجول)».

- «(الرّراف). إلى المنبع أم المصب؟».

- «المصب. جلود وعسل، ومزر وشحم».

- «المنبع. سكاكين وإبر، وحرير وكتّان ونيبذ متبل».

صاح ياندري: «ما الأخبار من (فولانتيس) العجوز؟».

- «الحرب».

زعق جريف: «أين؟ متى؟».

جاءت الإجابة: «مطلع السنّة الجديدة. نيسوس ومالاكو متحالفتان،

والأفيال ظهرت لهم خطوط»، ثم خبا الصَّوت مع ابتعاد القارب الآخر عنهم، وشاهدوا ضوءه يتضاءل ويختفي.

سأل تيريون: «أمن العقل أن ننادي قوارب لا نراها عبر الضَّبَاب؟ ماذا لو كانوا قراصنة؟». لقد حالفهم الحظُّ في ما يخصُّ القراصنة، فتسلَّلوا عبر (بُحيرة الخناجر) ليلاً دون أن يراهم أو يتعرَّض إليهم أحد. حدث أن لمحَّ البطة بدن سفينةٍ وأصرَّ على أنها تنتمي إلى أورهو الوسخ، لكن (العذراء الخجول) كان في عكس اتِّجاه الرِّيح ساعتها، ولم يُبدِ أورهو - إذا كان أورهو حقاً - اهتماماً بهم.

قال ياندري: «القراصنة لا يُبحرون إلى (الويلات)».

غمغم جريف: «أفيال بخطوط؟ ما معنى هذا؟ نيسوس وما لاكو؟ إيريو دفع للقنصل نيسوس مبلغاً يكفي لأن يملك ثمانية مثله». ساءل تيريون ساخراً: «ذهباً أم جُبنة؟».

التفت إليه جريف مغضباً، وقال: «ما لم تكن تستطيع شقَّ هذا الضَّبَاب بنكتتك التَّالية فاحفظ بها لنفسك».

كاد القزم يقول: حاضر يا أبي، سأصمتُ، شكراً لك. إنه لا يعرف أولئك الفولتانيين، ولكن يبدو له أن الأفيال والنُّمور متحالفون لسبب وجيه ما داموا يواجهون التَّانين. ربما أساء تاجر الجُبنة تقدير الموقف. يُمكنك أن تشتري رجلاً بالذهب، لكن وحدهما الدَّم والفولاذ يضمنان إخلاصه.

حرَّك الرَّجل الصَّغير الفحم ثانيةً ونفخ فيه لتتأجج النَّار أكثر. كم أكرهُ هذا، أكرهُ الضَّبَاب وأكرهُ هذا المكان، ولا يُعجبني جريف هذا على الإطلاق. ما زال مع تيريون الفطر السَّام الذي قطفه من أرض ضبعة إيريو، وثمة أيام نُغويه فيها جدًّا فكرة أن يدسه في عشاء جريف. المشكلة أن جريف نادراً ما يأكل.

دفع ياندري والبطة عصويهما، ودوّرت يسيلاً الدقَّة، وأبعد جريف الصَّغير (العذراء الخجول) عن بُرج متهدِّم ترمقهم نوافذه كأعين سوداء عمياء، وقد ارتخى شراع القارب بالأعلى، وتزايد عمق الماء بالأسفل حتى لم تعد العصي تلمس القاع، لكن التيار ظلَّ يدفعهم في اتِّجاه المصبِّ، إلى أن...

كل ما رآه تيريون شيء هائل يرتفع من النَّهر، شيء مقوس يُثير التَّوجُّس. خمن أنه تل فوق جزيرة مشجرة، أو صخرة عملاقة تنمو عليها الطَّحالب

والسراخس بكثافة ويخفيها الضباب، لكن مع دنو العذراء الخجول) أتضح شكله. رأى إلى جوار الماء حصناً من الخشب الذي تعفن ونمت عليه الحشائش والطحالب، من فوقه قمم رفيعة مدببة، بعضها مقصوم كحربة مكسورة، وظهرت أبراج بلا سقوف ترتفع عميماً واختفت، ومثروا بقاعات وشرفات ودعامات أنيقة وقناطر بديعة وأعمدة مخددة ومصاطب وظلات. كلها خرب، كلها موحش، كلها متداع.

ينمو الطحلب الرمادي بكثافة هنا، يُغطي الأحجار الساقطة بأكوام ضخمة، ويكسو الأبراج كلها، وتزحف النباتات المتسلقة السوداء من النوافذ وإليها وعبر الأبواب وفوق القناطر وعلى جوانب الجدران الحجرية العالية. أخفى الضباب ثلاثة أرباع القصر، لكن ما لمحوه أكثر مما يكفي لأن يعرف تيريون أن هذه الجزيرة القلعة كانت في الماضي أكبر عشر مرات من (القلعة الحمراء) وأجمل منها مئة مرة. أدرك أين هو الآن، وبخفوت قال: «(قصر الحب)».

قال هالدون النصف مايستر: «هذا هو الاسم الذي أطلقه عليه الروينار، لكنه معروف منذ ألف عام بـ(قصر الأسي)».

الأطلال تُحزن بما فيه الكفاية، لكن معرفة ما كانته في زمن سابق جعلتها محزنة أكثر فأكثر. ففكر تيريون: كان الضحك يتردد ها هنا ذات يوم، وكانت هناك حدائق غناء زهورها يانعة ونوافيرها تتلألأ كالذهب في الشمس. على هذه الدرجات دقت أقدام العاشقين، وتحت هذه القبة المكسورة عقدت قرانات لا تُحصى بقبلة. ثم ذهبت أفكاره إلى تايشا التي كانت السيدة زوجته لفترة وجيزة للغاية، وقال لنفسه بيأس: چايمي السبب. كان دمي، أخي الكبير القوي. في صغري كان يجلب لي اللعب، الأطواق والمكعبات وأسدًا منحوتًا من الخشب، وأعطاني حصاني القزم الأول وعلمني ركوبه. حين قال لي إنه استأجرِك من أجلي لم أشك فيه لحظة. ولم أفعل؟ لقد كان چايمي، وكنيت مجرد فتاة مثلت دورًا. كان هذا ما خشيت من البدء، منذ ابتسمت لي وتركتني أمسك يدك. أبي نفسه لم يحبني، فلم تحبيني أنت إن لم يكن في سبيل الذهب؟ عبر أصابع الضباب الرمادية الطويلة سمع من جديد صوت وتر النشابة العميق إذ انشد عن آخره، والأنين الذي أصدره اللورد تايوين إذ أصابه السهم

تحت البطن، وارتطام مؤخرته بالحجر لَمَّا هوى يجلس ليموت. قال أبوه: «أينما تذهب العاهرات»، ويُريد تيريون أن يسأله: وأين هذا؟ أين ذهبَت تايشا يا أبت؟ رفع القزم صوته يسأل: «كم علينا أن نتحمَّل هذا الضَّباب؟».

أجاب هالدون: «ساعة أخرى ونَخْرُج من (الويلات)، وبعدها ستكون نُزْهة. ثَمَّة قرية عند كلِّ منعطفٍ بطول (الروين) قُرب مصبِّه. بساتين وكروم وحقول غلال تَنْضُج في الشَّمْس، وصيَّادون على الماء، وحمَّامات ساخنة وخمور حُلوة. (سلهوريس) و(فاليسار) و(فولون ثيريس) بلدات مسوَّرة واسعة لدرجة أنهم سيعِدونها مُدناً في (الممالك السَّبْع). أعتقدُ أنني...».

قال جريف الصَّغير منبِّهاً: «أمامنا ضوء».

راه تيريون أيضاً، فقال لنفسه: (الرَّفَاف) أو قارب آخر، لكنه عرفَ بشكل ما أن هذا ليس صحيحاً، واستحكَّه أنفه فحكَّه بشراسة. ازدادَ الضَّوء مع اقتراب (العذراء الخجول)، ضوء نجمةٍ ناعمةٍ من بعيد، يلتمع بخفوتٍ عبر الضَّباب مشيراً إليهم بالدُّنو. بعد قليلٍ استحالَ إلى ضوَّأين، ثم ثلاثة، ثم إلى صفٍّ غير منتظمٍ من المنارات يرتفع من الماء.

قال جريف: «(جسر الحُلم). سيكون فوقه متحجِّرون، وقد يبدأ بعضهم في الولوجة مع اقترابنا، لكنهم لن يُزعجونا على الأرجح. معظم المتحجِّرين واهنون، كائنات خرقاء ثقيلة فقدت رُشدها. قُرب النِّهاية يُصيبهم جميعاً الجنون، لكنهم يكونون في أخطر حالاتهم عندئذٍ. إذا دعت الحاجة صدوهم بالمشاعل، وإياكم أن تدعوا أحدهم يلمسكم».

قال هالدون النصف مايستز: «قد لا يرونا من الأصل. سيحجبنا الضَّباب عنهم حتى نكاد نبلِّغ الجسر، ثم سنمرُّ قبل أن يعرفوا أننا هنا».

فكَّر تيريون: الأعين الحجرية عمياء. يعلم أن النُّوع المميت من الدَّاء الأرمد يبدأ في الأطراف، بوخزٍ في أنملة، أو ظفرٍ يسود، أو فقدان الشعور، وبينما يزحف الخدر على اليد أو يتسلَّل من القدم إلى السَّاق يتبيس الجلد ويبرد وتتخذ بشرة الضَّحِيَّة درجةً من الرَّمادي شبيهةً بالحجر. سمعَ تيريون أن للدَّاء الأرمد ثلاثة علاجاتٍ شافية: الفأس والسِّيف والسَّاطور. أحياناً يمنع بتر الأطراف المصابة انتشار المرض، ولكن ليس دائماً، فكثيرون ضُحُوا بذراعٍ أو قدم، فقط ليجدوا الأخرى تستحيل إلى الرَّمادي، وحالما يحدث

هذا فلا أمل. يشيع العمى حين يبلغ التَّحجُّر الوجه، وفي المراحل الأخيرة تنقلب اللعنة إلى الدَّاخل، إلى العضلات والعظام والأعضاء الدَّاخِلِيَّة.

تعاطمَ الجسر أمامهم. سمَّاه جريف (جسر الحُلم)، لكن هذا الحُلم محطَّم مهشَّم. من (قصر الأسي) تمتدُّ قناطر حجرية شاحبة لتغيب في الضَّباب على ضفة النَّهر الغريبة، نصفها منهار أسقطه وزن الطُّحلب الرَّمادي الذي يُغلفها جميعاً وفروع النَّباتات المتسلِّقة السَّوداء السَّميكة التي ترتفع من الماء كالشَّعابين. تعفَّن امتداد الجسر العريض عن آخره، لكن بعض المصابيح المصفوفة عليه لا يزال مضاءً، وإذ دنا القارب رأى تيريون أشكال المتحجِّرين تتحرَّك في الضَّوء، تمضي بلا هدفٍ حول المصابيح كعثِّثٍ رماديةٍ بطيئة، بعضهم عارٍ وبعضهم يرتدي الأكفان.

استل جريف سيفه الطَّويل قائلاً: «يولو، أوقد المشاعل. يا فتى، خذ ليمور إلى قمرتها وابقَ هناك معها».

قال جريف الصَّغير رامقاً أباه بعناد: «ليمور تعرف مكان قمرتها. أريدُ أن أبقى».

خاطبته ليمور قائلةً بهدوء: «لقد أقسمنا على حمايتك».

- «لستُ محتاجاً إلى حماية. أستطيعُ القتال بالسَّيف ببراعة البطة. إنني نصف فارس».

قال جريف: «ونصف غلام. افعل كما قيل لك، الآن».

أطلق الشَّاب سباباً بصوتٍ مكتوم وألقى عصاه على السَّطح، ليتردَّد صدى الصَّوت غريباً في الضَّباب، وللحظةٍ بدا كأن العصي تتساقط من حولهم. «لماذا أهربُ وأختبئ؟ هالدون سيبقى، ويسبلا أيضاً، حتى هيو جور».

قال تيريون: «أجل، لكن حجمي الصَّغير يُمكنني من الاختباء وراء بطة»، ثم إنه دسَّ نصف دسِّته من المشاعل في لهب المستوقد الوهاج وشاهد الخرق المزيَّنة تشتعل، وأخبر نفسه: لا تُحدِّق إلى النَّار. لا يُريد أن تُعشي النَّار بصره.

قال جريف الصَّغير بتهكُّم: «أنت قرم!».

- «افتضح سرِّي. أجل، أنا أقل من نصف هالدون، ولا أحد يعبأ بحياتي أو موتي». لا سيِّماً أنا. «أمَّا أنت... أنت كل شيء».

التفتَ إليه جريف قائلاً: «لقد حذرتك أيها القزم...». وقاطعه عويل راجف تردّد وسط الصّباب، عويل ضعيف مرتفع. دارت ليمور مرتعدة، وقالت: «ليحمنّا (السّبعة) جميعاً».

كان الجسر المتداعي على بُعد أقل من خمس ياردات أمامهم، حول ركائزه يتموّج الماء بالأبيض كرجوة نفيض من فم رجل مخبول، وعلى ارتفاع أربعين قدمًا أعلاهم أنّ المتحجّرون وهمهموا أسفل مصباح متذبذب دون أن يُلقي معظمهم بالأل (العدراء الخجول) كأن القارب مجرد فرع شجرة طاف. أطبق تيريون قبضته على مشعله وألقى نفسه يحبس أنفاسه، ثم إنهم أصبحوا تحت الجسر، يرتفع على جانبيهم جداران أبيضان تسدل عليهما ستائر ثقيلة من الفطريات الرّماديّة وتفور المياه بغضب حولهم. للحظة بدا أنهم سيصطدمون بالركيزة اليمنى، إلّا أن البطّة رفع عصاه ودفعهم إلى منتصف المجرى، وبعد بضع نبضات قلب مروا.

لم يكد تيريون يتنفّس الصّعداء حتى أمسك جريف الصّغير ذراعه متسائلًا: «ماذا تعني؟ أنا كل شيء؟ ماذا قصدت بهذا؟ لماذا أنا كل شيء؟». أجاب القزم: «لو أخذ المتحجّرون ياندري أو جريف أو جميلتنا ليمور لنيناهم ثم واصلنا طريقنا، لكن إذا فقدناك أنت لبطلت الغاية من هذه المغامرة وضاعت الأعوام التي قضاها تاجر الجبنة والخصي في التّخطيط المحموم سُدّي... أليس كذلك؟».

نظر الفتى إلى جريف قائلاً: «إنه يعرف من أنا». ولو لم أكن أعرف من قبل فالآن أعرف. عندئذ كان القارب قد تجاوز (جسر الحُلم) بمسافة لا بأس بها، ولم يتبقّ إلّا ضوء يتضاءل وراءهم سرعان ما سيغيب بدوره. قال تيريون: «أنت جريف الصّغير، ابن جريف المرتزق، أو قد تكون (المُحارب) متنكّرًا في هيئة إنسان. دعني ألقى نظرة أقرب»، ورفع مشعله ليغمر الصّوء وجه جريف الصّغير. قال جريف أمرًا: «توقّف وإلّا تمنيت لو أنك فعلت».

تجاهله القزم، وتابع: «الشعر الأزرق يجعل عينيك تبدوان زرقاوين، وهذا جيّد، وقصّة صبغك إياه تكريمًا لأمك التايروشيّة الميتة كانت مؤثّرة لدرجة كادت تُبكييني. ومع ذلك قد يتساءل رجل فضولي عن سبب احتياج

ابن مرتزق إلى سبيته ملوثة تُرشده في تعاليم العقيدة، أو إلى ما يستر بلا سلسلة يُعلمه التاريخ واللغات. وقد يستنكر رجل ذكي أن يطلب أبوك من فارسٍ متجول أن يدربك على السلاح بدلاً من إرسالك ببساطة للتدريب في إحدى الجماعات الحرّة. كأن أحدهم يريد أن يخفيك فيما يعدك لـ... لأي شيء؟ هذا هو اللغز، لكنني واثق بأنني سأعرف الحل مع الوقت. عليّ أن أعترف بأن لك ملامح نبيلة بالنسبة إلى شخص ميت».

احتقن وجه الفتى، وقال: «لست ميتاً!».

- «كيف؟ لقد لفّ السيّد والدي جثتك بمعطفٍ قرمزي ووضعها إلى جوار جثة أختك عند قدم العرش الحديدي، هدية للملك الجديد. من قوا على رفع المعطف قالوا إن نصف رأسك لم يكن موجوداً».

تراجع الفتى خطوة حائراً، وردّد: «السيّد...».

- «... والدي، أجل. تايوين سليل عائلة لانستر. ربما سمعت به».

تردّد جريف الصّغير لحظةً، ثم قال: «لانستر؟ أبوك...».

- «... مات، بيدي. إذا أرادَ سموّ الأمير أن يدعوني بيولو أو هيو جور فليكن، لكن اعلم أنني وُلدتُ تيريون سليل عائلة لانستر، الابن الشرعي لتايوين وچوانا اللذين قتلتهما كليهما. سيقول لك النَّاس إنني قاتل ملكٍ وقاتل أقربين وكاذب، وكل هذا صحيح... لكننا جميعاً ضحبة من الكاذبين، أم أنني مخطئة؟ أبوك الزائف مثلاً. جريف، أليس كذلك؟»، وأطلق القزم ضحكة مكتومة، ثم واصل: «عليكم أن تشكروا الآلهة لكون فارس العنكبوت جزءاً من مؤامرتكم هذه. لم يكن جريف ليخدع الأعجوبة عديم القضيب لحظةً، مثلما لم يخدعني. يقول حضرة اللورد إنه ليس لورد أو فارساً، وأنا لست قزماً. مجرد قول الشيء لا يجعله حقيقةً. من أفضل لتربية ابن الأمير ريجار الرضيع من صديق الأمير ريجار العزيز چون كوننجتون الذي كان سيّد (وكر الجرافن) ويد الملك؟».

قال جريف بتوتر: «صمتاً».

إلى ميسرة القارب لاحت يد حجرية ضخمة تحت الماء مباشرة، يبرز اثنان من أصابعها فوق السطح. تساءل تيريون: كم واحداً هناك من هذه التماثيل؟ وشعرَ بقطرة من الندى تسيل على عموده الفقري لتجعله يرتعد. مرّت

(الويلات) على جانبهم، وعبر الغيوم أبصرَ قَمَّةً مَدْبِيَّةً مكسورةً وبطلًا بلا رأسٍ وشجرةً عتيقةً اجثَّتْ من الأرضِ وانقلبت، تلتوي جذورها الصَّخْمة عبر سقْفٍ ونوافذٍ قَبِيَّةٍ مهشَّمة. لم يبدو كل هذا مألوفًا للغاية؟ أمامهم مباشرةً ارتفعَ سُلَّمٌ مائلٌ من الرُّخامِ الباهت من المياه المظلمة ملتفًا بأناقيةٍ في الهواء قبل أن ينتهي فجأةً فوق رؤوسهم بعشرة أقدام، فقال تيريون لنفسه: لا، غير ممكن.

وقالت ليمور بصوتٍ راجفٍ: «أماننا ضوء». نظروا كلهم، ورأوه كلهم، وقال جريف: «(الرِّفراف)، أو قاربٍ آخرٍ مشابه»، لكنه عاد يستل سيفه.

لم ينس أحدهم بنت شفة، وأبحرَ (العذراء الخجول) مع التيّار. منذ دخلوا (الويلات) لم يُرْفَعِ شرع القارب، وما من سبيل للحركة إلا مع مجرى النهر. وقفَ البطةٌ مضيقًا عينيهِ وقابضًا على عصاه بكلتا يديه، وبعد مُدَّةٍ كَفَّ ياندري أيضًا عن الدَّفْع. كل عينٍ على الصُّوء البعيد، ومع دنوِّهم تحوَّل إلى ضوئين، ثم ثلاثة.

قال تيريون: «(جسر الحُلْم)».

ردَّ هالدون: «مستحيل. الجسر وراءنا. الأنهار تجري في اتِّجَاهٍ واحد».

غمغم ياندري: «(الأم روين) تجري كما شاءت».

قالت ليمور: «لننقذنا (السبعة) جميعًا».

أمامهم بدأ المتحجِّرون على الجسر يُولولون وراح بعضهم يُشير إليهم، فقال جريف أمرًا: «هالدون، خذ الأمير إلى أسفل».

لكن فات الأوان. أطبق عليهم التيّار بأسنانه ومضوا بلا حيلة صوب الجسر. دفع ياندري بعصاه ليحول دون الارتطام بإحدى الرِّكائز، فدفعتهم الحركة جانبًا إلى ستار الطُّحلب الرَّمادي السَّاحِب، وشعرَ تيريون بالمحالق تمسُّ وجهه بنعومة أصابع عاهرة. ثم إنه سمع الاصطدام من ورائه، ومأل السطح بغتةً حتى إنه كاد يفقد توازنه وينطرح في الماء.

واحد من المتحجِّرين سقط على القارب.

حطَّ على سطح القمرة بثقل رَجِّ (العذراء الخجول)، وهدرَ في وجوههم بشيءٍ ما بلغةٍ يجهلها تيريون، ثم تبعه متحجِّر آخر حطَّ إلى جوار الدفة لتتحطم ألواح الخشب البالية من الصدمة وتصرخ يسيلًا.

كان البطة الأقرب إليها، ولم يُهدر الرَّجل الكبير وقتًا في استلال سيفه، وبدلاً من ذلك أدارَ عصاه وهو يها على صدر المتحجّر مسقطاً إياه من القارب في النَّهر، حيث غاصَّ في الحال بلا صوت.

وانقضَّ جريف على الثاني لحظة أن نزلَ مترنحاً من فوق سطح القمرة. بالسيف في يمينه والمشعل في يسراه أجبرَ الكائن على التراجع، وإذ دفعَ التيّار (العذراء الخجول) تحت الجسر تراقصَ ظلاهما المتبدلان على الجدارين المكسوين بالطُّحلب. حين تحركَ المتحجّر نحو المؤخرة سدَّ البطة طريقه بالعصا، وحين تحركَ نحو المقدمة لَوَّحَ النِّصْف مايستر بمشعل آخر في وجهه وأرغمه على التَّقهُر، فلم يجد خياراً إلاَّ الهجوم على جريف مباشرةً. انزاح القائد جانباً بنصل يلمع، وطارت شرارة عندما انغرس الفولاذ في لحم الرَّجل المتحجّر الرمادي المتكلّس، قبل أن تسقط ذراعه على سطح القارب. ركلَ جريف الدُّراع بعيداً، واقتربَ ياندري والبطة بعصويهما ومعاً أجبراً الكائن على السُّقوط من فوق حاجز القارب في مياه (الروين) السوداء. حينئذٍ كان (العذراء الخجول) قد خرجَ من تحت الجسر، وسألَ البطة:

«هل نلنا منهم جميعاً؟ كم واحداً ففز؟».

قال تيريون مرتجفاً: «اثنان».

لكن هالدون قال: «ثلاثة. وراءك».

والنفتَ القزم، وها هو ذا.

حطمتَ القفزة إحدى ساقيه، ونأت قطعة محززة من العظم الشاحب من قُماش سراويله العفن واللحم الرمادي من تحته، وكانت العظمة المكسورة ملطخةً بالدماء البنية، وعلى الرغم من هذا اندفعَ الكائن إلى الأمام ماداً يده نحو جريف الصَّغير، يداً رماديةً متيبسةً لكن الدَّم كان ينزُّ من بين مفاصل أصابعه وهو يُحاول إغلاق قبضته. وقفَ الفتى يُحَمَلِق كأنه هو الآخر من حجر، يده على مقبض سيفه ولكن يبدو أنه نسيَ السَّبب.

ركلَ تيريون ساق الفتى من تحته ووثبَ من فوقه مع سقوطه، ودسَّ مشعله في وجه المتحجّر ليتعثّر إلى الوراء على ساقه المهشمة وهو يضرب اللهب بيدين رماديتين متيبستين، وأقبلَ القزم على المتحجّر ملوحاً بمشعله في عينيه. أبعد قليلاً، خطوة أخرى إلى الوراء، خطوة أخرى. كانا على حافة

السَّطْحَ عندما انقَضَّ عليه الكائن وأطبَقَ على مشعله وانتزعَه من يده، وقال تيريون لنفسه: فلتحلَّ بي اللعنة.

ألقى المتحجَّر المشعل بعيدًا ليصُدِّر هسيس خافت إذ أطفأت المياه السَّوداء اللَّهب، وعوى الرَّجُل. كان من أهل (جُزر الصَّيف) من قبل، استحالَ فكُّه ونصف وجته إلى حجر، لكن بشرته سوداء كمنتصف الليل حيثما غاب الرَّمادي، وقد تشقَّق جلد يده وانفلقَ حيث أمسك المشعل، وسأل الدَّم من مفاصل أصابعه ولو أنه لا يحسُّ به على ما يبدو. خطرَ لتيريون أنها رحمة صغيرة، فمع أن الدَّاء الأرمد مميت فإنه لا يُؤلِّم.

من بعيدٍ صاحَ أحدهم: «تنحَّ جانبًا!»، وقال صوت آخر: «الأمير! احموا الفتى!»، وتقدَّم الرَّجُل الحجري يترنَّح بيدين ممدودتين. وارتطمَ تيريون به بكتفه.

شعرَ كأنه صدمَ سور قلعة، لكن هذه القلعة قائمة على ساقٍ محطَّمة، فسقطَ المتحجَّر على ظهره من فوق الحاجز ممسكًا بتيريون، ومعا ضربا النَّهر نائرينَ عمودًا طويلًا من الماء، وابتلعتهما (الأم روين).

ضربت البرودة المباغته تيريون كالمطرقة، وبينما غاصَّ شعرَ بيدٍ حجريَّة تتلمَّس وجهه، وبأخرى تقبض على ذراعه جازَّة إياه إلى الظلمات بالأسفل. بعينين أعماهما السَّواد وأنفٍ ملأته مياه النَّهر، بصدرٍ يضيق وجسدٍ يغرق، ركَل تيريون وتلوَّى وقاتلَ لانتزاع الأصابع عن ذراعه، لكن اليد الحجريَّة لم تنزحزح قيد أنملة. بقبقق الهواء من فمه، واسودَّ العالم وأخذَ يزداد سوادًا، وانكتمت أنفاسه.

ثمَّة طرائق للموت أسوأ من الغرق. والحقيقة أنه مات منذ زمنٍ طويلٍ بالفعل في (كينجز لاندنج)، ولم يتبقَّ إلَّا طيفه، شبحه المنتقم الذي خنقَ شاي وغرس سهمًا في أحشاء تايوين لانستر العظيم. لا أحد سيبيكي الشَّيء الذي صارَه، وهكذا قال لنفسه وهو يغوص في الأعماق: سيسكُن شبيحي (الممالك السَّبع). لم يخبوُّني وأنا حي. فليرتعبوا مني إذن وأنا ميت.

ولمَّا فتحَ فاه يلعنهم جميعًا ملأت المياه السَّوداء رتتيه وانطبقت عليه الظلمة.



دافوس

- «سيسمك حضرة اللورد الآن أيها المهرَّب». يرتدي الفارس درعاً فضيَّةً، وعلى وافي ساقيه وقفازيه نقوش من المينا الأسود تُحاكي الطَّحالب البحريَّة السَّابحة، وتتخذ الخوذة تحت إبطه شكل رأس ملك شعب البحار، بتاج من عرق اللؤلؤ ولحية بارزة من السَّيج واليسب، أمَّا لحيته هو فرماديَّة كبحر الشَّتاء.

نهض دافوس متسائلاً: «هل لي أن أعرف اسمك أيها الفارس؟».

- «السير مارلون ماندرلي». الرَّجل أطول قامَةً من دافوس برأسٍ وأثقل منه بستين رطلاً وعينه رماديَّتان كالأردواز، ويتكلَّم بأسلوبٍ لا يخلو من الغطرسة. «لي شرف أن أكون ابن عمِّ اللورد وإيمان وقائد حاميته. اتبعني». جاء دافوس (الميناء الأبيض) مبعوثاً، لكنهم جعلوه أسيراً. صحيحٌ أن عُرفته واسعة جيِّدة التَّهوية باذخة الأثاث، لكن خارج الباب حُرَّاساً، ومن نافذته يستطيع أن يرى شوارع المدينة وراء أسوار القلعة، لكن ليس مسموحاً له بالمشي فيها. بإمكانه أن يرى المرفأً أيضاً، وقد شاهد (القابلة المرحة) تقطع اللسان البحري مغادرةً، بعد أن انتظرَ كاسو موجات أربعة أيامٍ لا ثلاثةٍ ليرحل، ومنذ ذلك الحين مرَّ أسوعان.

يرتدي حرس أهل بيت اللورد ماندرلي معاطف من الصُّوف الأخضر المزرق، ويحملون رماحاً فضيَّةً ثلاثيَّة الشَّعب بدلاً من الحِراب التَّقليديَّة. تحرك أحدهم أمامه وأحدهم وراءه وأخران على جانبيه، ومرُّوا بالرَّيات الباهتة والتُّروس المكسورة والسُّيوف الصَّدئة المتوازئة من مئة نصرٍ مغرق

في القدم، ونحو عشرين من التماثيل الخشبية المتصدعة التي نخرها الدود، ومؤكّد أنها كانت تُزيّن مقدمات سُفنٍ في الماضي.

على جانبيّ باب بلاط حضرة اللورد يقف عريسا بحر من المرمر، ابنا عمّ قدم السمكة الأصغر حجمًا. فتح الحرس مصراعيّ الباب، فدقّ الحاجب الأرضية الخشب القديمة بكعب عصاه، وأعلن بصوتٍ رنان: «السير دافوس سليل عائلة سيورث».

خلال زيارته العديدة إلى (الميناء الأبيض) لم تطأ قدما دافوس (القلعة الجديدة) قطّ، ناهيه بـ(بلاط عريس البحر). جدران القاعة وأرضيتها من ألواح الخشب المعشقة ببراعةٍ والمزينة بصُور مخلوقات البحار كافة. مع اقترابهم من المنصة خطا دافوس على سراطين ومحار ونجوم بحرٍ مرسومة شبه متوالية بين الطحالب البحرية السوداء وعظام البحارة الغرقى، وعلى الجدران على جانبيه رأى قروشًا شاحبة تجوب أعماقًا خضراء مزرقّة، وطحابين ماءٍ وأحيايط تنزلق بين صخورٍ وسُفنٍ غارقة، وأفواجًا من الرنجة وأسماك القُد الكبيرة تسبح بين نوافذ طويلة مقلّبة. بالأعلى، قُرب شباك الصيّد القديمة المتدلّية من عوارض السقف، رُسم سطح البحر، إلى اليمين يُبحر قادم حربيّ بسلام أمام الشمس المشرقة، وإلى الشمال يُسابق كوج قديم بال مهترئ القلوع عاصفةً، ووراء المنصة معركة محتدمة بين كراكن ولويثان⁽¹⁾ رمادي تحت الأمواج المرسومة.

كان دافوس يأمل أن يتكلّم مع اللورد وايمان على انفراد، لكنه وجد البلاط مزدحمًا. عند الجدران تفوق النساء الرّجال عددًا خمسًا إلى واحد، والدُّكور القلائل الذي رآهم إمّا لهم لحي طويلة شائبة وإمّا يبدون أصغر من أن تنبت لهم لحي. رأى عددًا من السّبتونات أيضًا، وأخواتٍ مشرّفات يرتدين المسوح البيضاء والرّمادية.

قُرب رأس القاعة دسته من الرّجال في ثياب عائلة فراي الرّمادية الفضيّة.

(1) اللّويثان وحش بحريّ أسطوري هائل له سبعة رؤوس، ويُقال في عالم الرّواية إنه حوت بعد أكبر المخلوقات حجمًا في العالم على الإطلاق. (المترجم).

يستطيع الأعمى أن يرى تشابه قسماتهم، وقد وضع أكثرهم على صدره شارة (التوأمتين)، البرجين المربوطين بجسر.

تعلم دافوس قراءة وجوه الناس قبل أن يُعلمه المايستر بايلوس قراءة الحروف على الورق، وبنظرة واحدة أدرك كم سيطرب أبناء فراي هؤلاء لموته.

كما أنه لم يجد أيّ ترحابٍ في عينيّ وايمان ماندرلي الزرقاوين الباهتتين. يسع عرش حضرة اللورد المزود بالوسائد ثلاثة رجالٍ من الحجم العادي، أمّا ماندرلي فعلى وشك أن يفيض عنه. في جلسته هذه يترهل جسد حضرة اللورد، كتفاه مهتدلّتان وساقاه متباعدتان ويدها مستقرّتان على ذراعيّ عرشه كأن وزنهما يفوق احتمالهما. حين رأى دافوس وجه اللورد وايمان قال لنفسه: بحقّ الآلهة، إنه يبدو أقرب إلى جثة. بشرة الرجل صفراء ممتعة، وفيها مسحة خفيفة من الرمادي.

يقول المثل القديم إن حول الملوك والجُثث دوماً حضور، وهذه هي الحال مع ماندرلي. إلى يسار المقعد العالي يقف ماستر يُداني اللورد الذي يخدمه بدانة، رجل متورّد الوجنتين له شفتان غليظتان وشعر ذهبي، في حين أخذ السير مارلون موضع الشرف عند يد حضرة اللورد اليمنى، وعلى كرسي مزود بوسادة عند قدميه قبعت سيّدة ممتلئة متورّدة الوجه، ووراء اللورد وايمان تقف امرأتان أصغر سنّاً يبدو أنهما أختان، أكبرهما تعقص شعرها البني في ضفيرة طويلة، والصغيرة التي لا تتعدّى الخمسة عشر عاماً تصبغ ضفيرتها الأطول بالأخضر المبهرج.

لم يختر أحد منهم أن يُشرف دافوس بذكر اسمه، وكان المايستر أول من تكلم، فقال: «أنت في حضرة وايمان ماندرلي، سيّد (الميناء الأبيض) ووصي (السكين الأبيض)، مجنّ العقيدة، حامي المشرّدين، مُشير (الماندر)، فارس جماعة اليد الخضراء. جرى العرف في (بلاط عريس البحر) على أن يركع الأتباع والملتمسون».

كان فارس البصل ليركع، أمّا يد الملك فلا. لو فعل فمعنى ذلك أن الملك الذي يخدمه أدنى شأنًا من هذا اللورد السمين. ردّ دافوس: «لم آت

ملتَمَسًا. إن لي سلسلةً من الألقاب أيضًا. سيّد (الغابة المطيرة)، أميرال (البحر الضيق)، يد الملك».

أدارت المرأة الممتلئة الجالسة على الكرسي عينيها باستهانة، وقالت: «أميرال بلا سُفن ويد بلا أصابع في خدمة ملكٍ بلا عرش. أمّن أمامنا فارس أم جواب أحجية أطفال؟».

قال اللورد وايمان: «إنه رسول يا زوجة ابني، بصلة تُنذر بالشُّوم. لم تُعجِب ستانيس الإجابة التي حملتها إليه الغدبان فأرسل هذا... هذا المهرب»، ورمق دافوس مضيئًا عينين شبه مدفونتين وسط طيّات الدهون، وقال له: «أظنك زُرت مدينتنا من قبل، أخذت المال من جيوبنا والطعام من على موائدنا. كم سرقت مني يا تُرى؟».

ليس ما يكفي لجعلك تُفوّت وجبةً واحدةً. أجاب دافوس: «لقد دفعتُ ثمن اشتغالي بالتّهريب في (ستورمز إند)، وخلعُ فُفّازه ورفعُ يسراه ذات الأصابع المقصّرة الأربعة».

قالت الجالسة على الكرسي ذات الشعر الأصفر والوجه المتورّد المستدير اللّحيم: «أربع أناملٍ مقابل عُمرٍ من السَّرقة؟ دفعتُ ثمنًا بخسًا يا فارس البصل».

لم يُنكر دافوس كلامها، وخاطبَ ماندرلي قائلاً: «بعد إذن سيّدي، أطلبُ أن أتكلّم معك على انفراد».

لكن اللورد لم يأذن، وقال: «لستُ أخفي أسرارًا عن أهلي ولا عن لورداتي وفُرساني المخلصين. جميعهم أصدقاء مقربون».

قال دافوس: «سيّدي، لستُ أريدُ أن يسمع كلامي أعداء صاحب الجلالة... أو أعداؤك».

- «قد يكون لستانيس أعداء في هذه القاعة، أمّا أنا فبلا أعداء هنا».
سأله دافوس: «ولا حتى من قتلوا ابنك؟»، وأشار متابعًا: «أبناء فراي هؤلاء كانوا من ضمن مضيفيه في الزّفاف الأحمر».

تقدّم أحد أبناء فراي، فارس طويل الأطراف نحيلها، حليق الوجه باستثناء شاربٍ رفيع كخنجر مايري، وقد خاطبَ دافوس قائلاً: «الزّفاف الأحمر كان من صنّع الذّئب الصّغير. لقد تحوّل إلى ذئبٍ أمام أعيننا ومزّق حلق

ذي الجلاجل ابن عمِّي الأبله المسالم. كان لِيَقْتُلَ السَّيِّدَ والدي أيضًا لولا أن وضع السير وندل نفسه في طريقه».

قال اللورد وايمان حابسًا دموعه: «لطالما كان وندل صبيًّا شجاعًا. لم يُدهِشني أن أعلم أنه مات بطلاً».

جعلتْ جسامه الكذبة دافوس يشهق، وسأل ابن فراي: «هل تَزْعُمُ أن روب ستارك قتل وندل ماندرلي؟!».

- «وقتل كثيرين غيره. ابني تايوس كان منهم، وزوج ابنتي. حين تحوّل ستارك إلى ذئب فعلَ الشَّمَالِيُونِ مثله. علامة الوحش كانت عليهم جميعًا. الأوراج يُوجِدُونُ الأوراج بعَضَّة، هذا معلوم للجميع. أنا وإخوتي بدلنا جهدنا كلَّه لقتلهم قبل أن يفتكوا بنا جميعًا».

كان الرَّجُلُ يتكلّمُ بابتسامهٍ متكلّفة جعلت دافوس يُريد أن يُقشّر شفّتيه بسكّين. سأله: «هل لي أن أعرف اسمك أيها الفارس؟».

- «السير چارد سليل عائلة فراي».

- «چارد سليل عائلة فراي، إنني أتّهمك بالكذب».

لاح على السير چارد الاستمتاع وهو يقول: «بعض النَّاسِ يبكي وهو يُقشّر البصل، أمّا أنا فلم أعانِ هذه النّقيصة قَطُّ»، وهمسَ الفولاذ محتكًا بالجلد إذ امتشق سيفه مضيّفًا: «إذا كنت فارسًا حقًّا فدافع عن هذا الافتراء بجسدك».

اختلجت عينا اللورد وايمان إذ انفتحتا، وقال: «لن أسمح بإراقة الدّماء في (بلاط عريس البحر). أغمِد فولاذك يا سير چارد، وإلا فعليّ أن أطلب منك أن تتركّ حضرتي».

دسّ السير چارد سيفه في غمده قائلاً: «تحت سقف حضرة اللورد كلمة حضرة اللورد قانون... لكنني أريدُ تسوية حسابي مع لورد البصل هذا قبل أن يُغادر المدينة».

ولوت الجالسة على الكرسي: «الدّم! هذا ما يُريده البصلة التّالفة يا سيّدي. أترى كيف يُثير المتاعب؟ اصرفه، أتوسّل إليك. إنه يُريد دم قومك، دم أبنائك الشّجعان. اصرفه! إذا علّمت الملكة أنك اجتمعت بهذا الخائن فقد تُشكّك في ولائنا. قد... يُمكنها أن... س...».

قال اللورد وايمان: «لن تصل الأمور إلى ذلك الحدِّ يا زوجة ابني. لن يجد العرش الحديدي داعياً للشكِّ فينا».

لم يُرَقِّ دافوس وقع كلماته، لكنه لم يقطع هذه المسافة كلَّها ليلوذ بالصَّمت، وهكذا قال: «الصَّبي الجالس على العرش الحديدي غاصب، وأنا لسْتُ خائنًا، بل يد ستانيس باراثيون الأول، ملك (وستروس) الشرعي».

تنحَنح المايستر البدين، وقال: «ستانيس باراثيون أخو ملكنا الرَّاحل روبرت، عسى (الأب) أن يحكُم عليه بالعدل. تومن من صُلب روبرت، وقوانين الخلافة واضحة في هذه الحالة. الابن يسبق الأخ».

قال اللورد وايمان: «المايستر ثيومور يقول الحقَّ. إنه حكيم في مثل هذه الأمور، ولطالما أحسن المشورة».

- «الابن الشرعي يسبق الأخ، لكن تومن المدعو بباراثيون ابن حرام، تمامًا كما كان أخوه چوفري من قبله، أنجبهما قاتل الملك في تحدٍّ لجمع شرائع الآلهة والبشر».

تكلم فراي آخر قائلًا: «يتحدَّث بالخيانة بشفتيه هاتين يا سيِّدي. ستانيس أخذ أصابعه السَّارقة، فلتأخذ لسانه الكذوب».

علَّق السير چارد: «الأحرى أن تأخذ رأسه، أو تدعه يُواجِهني في مضمار الشَّرَف».

رماه دافوس بسؤاله: «ما الذي يعرفه ابن لفراي عن الشَّرَف؟».

تقدَّم أربعة من أبناء فراي إلى أن منعهم اللورد وايمان بيد مرفوعة، وقال: «تراجعوا يا أصدقاء. سأسمعه قبل أن... قبل أن أتعامل معه».

سأل المايستر ثيومور طاوياً يديه النَّاعمتين على بطنه: «هل عندك دليل على زنى المحارم المزعوم هذا أيها الفارس؟».

إدريك ستورم، لكنني أرسلته بعيداً عبر (البحر الضيِّق) لأحميه من نيران مليساندرا. «كلمة ستانيس باراثيون تشهد بأن كل ما قلته صحيح».

- «الكلام هواء»، قالت الشَّابَّة الواقعة وراء مقعد اللورد ماندري، الحسنة ذات الصَّفيرة البنيَّة الطَّويلة. «والرَّجال يكذبون لينالوا مرادهم كما تعرف كلُّ فتاة».

أعلن المايستر ثيومور: «الإثبات يتطلَّب ما هو أكثر من كلمة بلا سندٍ من لورد ما. لن يكون ستانيس باراثيون أول من يكذب ليظفر بعرش».

أشارت متوردة الوجه بإصبع سمين إلى دافوس، وقالت: «لسنا نريد أن نكون جزءاً من أيّ خيانةٍ يا هذاً. إننا قوم طيّبون في (الميناء الأبيض)، قوم مخلصون نطيع القانون. لا تصبّ مزيداً من السّموم في أذاننا وإلا أرسلك أبو زوجي إلى (عرين الذئاب)».

كيف أسأت إلى هذه بالضبط؟ «هلاً شرفنتني سيّدتي باسمها؟». تنشّقت المرأة بغضبٍ وتركت المايستر يُجيب عنها: «الليدي ليونا زوجة السير وايليس نجل اللورد وايمان، الأسير حالياً عند آل لانستر». تقول ما تقوله بدافع الخوف. إذا أعلنت (الميناء الأبيض) انضمامها إلى ستانيس فسيدفع زوجها حياته ثمناً. أتني لي أن أطلب من اللورد وايمان الحكم على ابنه بالموت؟ ماذا كنتُ لأفعل لو أن دقان رهينة؟ قال دافوس: «سيّدي، أمل ألا يمسّ سوء ابنك أو أيّ أحدٍ في (الميناء الأبيض)».

قالت الليدي ليونا من على كرسيّها: «كذبة أخرى». قرّر دافوس أن تجاهلها أفضل، وقال: «عندما أعلن روب ستارك الحرب على النّغل چوفري المدعو بباراثيون خرجت (الميناء الأبيض) معه. اللورد ستارك سقط، لكن حربه مستمرة».

قال اللورد وايمان: «روب ستارك كان وليّ أمري. من ستانيس هذا؟ لماذا يُزعجنا؟ إنه لم يشعُر بالحاجة إلى الارتحال شمالاً من قبل بحسب ما أذكرُ، ولكن ها هو ذا يظهر الآن، كلب مهزوم يحمل خوذته بيده ويتوسّل الصّدقة». ردّ دافوس بإصرار: «لقد أتى لإنقاذ البلاد، للدّفاع عن أراضيكم ضد الحديديّين والهمج».

إلى جوار المقعد العالي أطلق السير مارلون ماندرلي نخير استهتار، وقال: «مضت قرون منذ رأت (الميناء الأبيض) أيّ همج، والحديديّون لم يُزعجوا هذا السّاحل قطُّ. هل يعرض اللورد ستانيس أن يدافع عنا ضد السناركات والتنانين أيضاً؟».

اكتسح الضّحك (بلاط عريس البحر)، لكن عند قدمي اللورد وايمان أجهشت الليدي ليونا بالبكاء، وقالت: «حديديّون من الجُزر، همج من وراء (الجدار)... والآن هذا اللورد الخائن بمجرميّه ومتمرّديه ومشعوذيه»،

وأشارت بإصبعها إلى دافوس مضيفةً: «نعم، لقد سمعنا بساحر تكلم الحمراء. تُريدنا أن نقلب على آلهتنا السبعة ونركع لشيطانٍ من نار!».

لا يحبُّ دافوس الرَّاهبة الحمراء إطلاقاً، لكنه لم يجرؤ أن يدع كلام الليدي ليونا يمرُّ مرور الكرام، فقال: «الليدي مليساندرا من راهبات الإله الأحمر، وقد اعتنقت الملكة سيليس وكثيرون آخرون ديانتها، لكن أكثر تابعي جلالته ما زالوا يعبدون (السبعة)، وأنا منهم». تمنى ألا يطلب منه أحدهم أن يُفسّر ما جرى للسبت في (دراجونستون) أو أيقة الآلهة في (ستورمز إند). إذا سألوا فعلياً أن أجيبهم. لن يُريديني ستانيس أن أكذب.

أعلنت الليدي ليونا: «(السبعة) يُدافعون عن (الميناء الأبيض). لسنا نخشى ملكتك الحمراء أو إلهها. فلتعمل ما تشاء من تعاويد. ستحمينا صلوات المتديّنين من الشرور».

قال اللورد وايمان: «بالتأكيد»، وربّت على كتف الليدي ليونا، واستطرده: «اللورد دافوس، لو أنك لورد حقاً، إنني أعرف ما يُريده مني ملكك المزعوم، الفولاذ والفضة والرُكوع»، وعدّل جلسته ليتكئ على مرفقه متابعاً: «قبل مقتله عرض اللورد تاويين على (الميناء الأبيض) عفواً كاملاً عن دعماً الذئب الصّغير، ووعده بإعادة ابني إليّ حالما أدفع فديةً بقيمة ثلاثة آلاف تينٍ ذهبي وأثبت إخلاصي بما لا يدع مجالاً للشكّ. رووس بولتون، الذي عين حاكماً للشمال، يطلب أن أتخلّى عن مطالبتي بأراضي وقلاع اللورد هورنود، لكنه يُقسم أن أحداً لن يمسّ أملاكي الأخرى، وحموه والدر فراي يعرض أن تزوّجني إحدى بناته، بالإضافة إلى زوجين لابنتي ابني الواقفتين هنا ورائي. هذه الشروط تبدو لي عادلة، قاعدة قويّة لسلام عادلٍ دائم. والآن تُريد مني أن أرفضها، وعليه أسألك يا فارس البصل، ما الذي يعرضه عليّ اللورد ستانيس نظير ولائي؟».

كان دافوس ليقول: الحرب والويل وضربخ المحروقين، لكنه بدلاً من ذلك أجاب: «فرصة أن تُؤدّي واجبك». هذه هي الإجابة التي كان ستانيس يُعطيها لوايمان ماندرلي. على اليد أن يتكلّم بصوت الملك. عاد اللورد وايمان يسند ظهره قائلاً: «الواجب، مفهوم».

- «(الميناء الأبيض) ليست بالقوة الكافية للوقوف وحدها. إنك محتاج

إلى جلالته بقدر ما يحتاج إليك، ومعاً تستطيعان هزيمة أعدائكما المشتركين». قال السير مارلون الواقف بدرعه الفضيّة المنمّعة: «سيّدي، هلاً سمحت لي بإلقاء بعض الأسئلة على اللورد دافوس؟».

أجابَ ماندرلي: «كما ترغب يا ابن العم»، وأغمضَ عينيه. التفتَ السير مارلون إلى دافوس سائلاً: «كم من لوردات الشّمال أعلنَ تأييده ستانيس؟ أخبرنا بهذا».

- «آرنولف كارستارك تعهّد بالانضمام إلى جلالته».
- «آرنولف ليس لورد حقاً، بل مجرد أمين قلعة. ما القلاع التي يحتفظ بها اللورد ستانيس في الوقت الحالي؟».

- «جلالته أتخذ (قلعة الليل) مقرّاً، وفي الجنوب يحتفظ بـ(ستورمز إند) و(دراجونستون)».

تحنّحَ المايستر ثيومور، وقال: «في الوقت الرّاهن فقط. (ستورمز إند) و(دراجونستون) ضعيفتا الدّفاعات ومؤكّد أنّهما سنسقطان قريباً، و(قلعة الليل) خرابة مسكونة بالأشباح، مكان كئيب موحش».

واصلَ السير مارلون: «كم رجلاً يستطيع ستانيس أن يضع في الميدان؟ هلاً أخبرتنا بهذا؟ كم فارساً يركبون معه؟ كم رامياً ومحارباً غير نظامي وجندياً؟».

قليلون للغاية. لقد أتى ستانيس شمالاً بألف وخمسمئة رجلٍ لا أكثر... لكن إذا أخبرهم بهذا فإنها نهاية مهمّته. بحث عن ردّ ولم يجد.

قال السير مارلون: «صمتك إجابة شافية أيها الفارس. ملكك لم يأتنا إلّا بالأعداء»، والتفتَ إلى ابن عمّه قائلاً: «حضرة اللورد سأل فارس البصل عمّا يعرضه ستانيس علينا. دعني أجابُ. إنه يعرض علينا الموت والهزيمة، يُريدك أن تمتطي حصاناً من هواء وتخوض المعركة بسيفٍ من ربح».

فتحَ اللورد السّمين عينيه ببُطءٍ كأنّ المجهود يكاد يقهره، وقال: «كالمعتاد يُصيب ابن عمّي كبد الحقيقة. هل لديك أقوال أخرى يا فارس البصل أم يُمكننا أن نضع نهاية لهذه المهزلة؟ لقد بدأتُ أسأّم وجهك».

شعرَ دافوس باليأس يطعنه طعنًا. كان على جلالته أن يُرسل رجلاً آخر، أحد اللوردات أو الفرسان أو المايسترات، أحدًا يستطيع الكلام نيابةً عنه

دون أن يتعثّر في لسانه. سمع نفسه يقول: «الموت. سينال الموت من بعض النَّاس، أجل. حضرتك فقدت ابناً في الزَّفاف الأحمر، وأنا فقدت أربعة في (النَّهر الأسود). ولم؟ لأن آل لانستر سرقوا العرش. اذهب إلى (كينجز لاندنج) وألقِ نظرةً على تومن بعينيك إذا كنت تشكُّ في كلامي. بإمكان الأعمى أن يرى حقيقته. ما الذي يعرضه عليك ستانيس؟ الثَّار، الثَّار لأبنائي وابنك، لأزواجكم وأبائكم وإخوتكم، الثَّار لسيّدكم القتيل، لملككم القتيل، لأميريكم القتيلين، الثَّار!».

رفعت فتاة عقيرتها تقول: «نعم».

كان صوت الطّفلة التي لم يُوزع شبابها بعد، ذات الحاجبين الأشقرين والصّفيرة الخضراء الطّويلة، وقد تابعت: «لقد قتلوا اللورد إدارد والليدي كاتلين والملك روب. كان ملكنا! كان شجاعاً وصالحاً وآل فراي اغتالوه! إذا كان اللورد ستانيس سينتقم له فعلينا الانضمام إلى اللورد ستانيس».

جذبها ماندرلي قائلاً: «وايلا، كلّمنا فتحتِ فمك جعلتني أريد أن أرسلك إلى الأخوات الصّامات».

- «قلتُ فقط...».

قالت أختها الأكبر: «سمعنا ما قلت. إنها حماقة طفوليّة. لا تدكّري أصدقاءنا أبناء فراي بالباطل. قريباً سيصبح أحدهم سيّدك وزوجك».

هزت الفتاة رأسها معلنة: «لا، لن أتزوّجه، لن أتزوّجه أبداً. لقد قتلوا الملك!».

احتقن وجه اللورد إيمان، وقال: «ستفعلين. عندما يحلُّ اليوم المحدّد سترُدّدين نذورك، وإلّا سنضمّنين إلى الأخوات الصّامات ولا تتكلمين ثانية أبداً».

بدأت المسكينة مصدومة إذ قالت: «جدّي، أرجوك...».

قالت الليدي ليونا: «صمتاً يا صغيرتي. لقد سمعتِ السيّد جدّك. صمتاً! لستِ تعلمين شيئاً».

أكملت الفتاة بإصرار: «إنني أعرفُ بأمر الوعد. مايستر ثيومور، أخبرهم! قبل ألف عام من الغزو قُطعت وعود وحُلقت إيمان في (عرين الذئاب) أمام الآلهة القديمة والجديدة. حين ضاقت بنا الأحوال وكنا بلا أصدقاء

ومطرودين من بيوتنا وحياتنا في خطرٍ استقبلنا الذئاب ورعوننا وحمونا من أعدائنا. هذه المدينة مبنية على الأرض التي أعطوها لنا، وفي المقابل أقسمنا على أن نكون دومًا رجالهم، رجال ستارك!».

داعب المايستر السلسلة المحيطة بعنقه قائلاً: «ثمة إيمان مغلظة حُلِفَت لآل ستارك أولاد (وينترفل)، نعم، لكن (وينترفل) سقطت وعائلة ستارك انقرضت».

- «لأنهم قتلوهم جميعاً!».

تحدّث فراي آخر قائلاً: «لورد وايمان، هل تسمح لي؟». أوماً له وايمان ماندري إيجاباً، وقال: «ريجار، يسرنا دومًا أن نسمع نصيحتك النبيلة».

أجاب ريجار فراي المجاملة بانحناءة. إنه في الثلاثين أو ما يقرب منها، مستدير الكتفين ممتلئ البطن، لكنه يرتدي سترَةً فاخرةً من صوف الحملان الرمادي الناعم موشاةً بقماش الفضة. معطفه أيضًا من قماش الفضة، مبطن بالفرو ومثبت عند الياقة بدبوسٍ على شكل البرجين التوأمين. خاطب ريجار الفتاة ذات الصغيرة الخضراء قائلاً: «ليدي وايلا، الوفاء فضيلة. أتمنى أن تكوني بهذا الوفاء لوالدر الصغير عندما يُعقد قرانكما. بالنسبة إلى آل ستارك فالعائلة انقرضت من ناحية الذكور فقط. أبناء اللورد إدارد ماتوا، لكن ابنتيه حيتان، والصغيرة قادمة إلى الشمال لتتزوج رامزي بولتون الشجاع».

ردّت وايلا ماندري بعناد: «رامزي سنو!».

- «كما تشائين. بأيّ اسم سيتزوج آريا ستارك عمًا قريب. إذا أردت أن تبري بوعدك فامنحيه ولاءك، لأنه سيصبح سيّدك وسيّد (وينترفل)».

- «لن يصبح سيّدك أبدًا! لقد أجبر الليدي هورنود على الزواج به، ثم حبسها في زنزانية وجعلها تأكل أصابعها!».

تصاعدت غمغمات التأييد في (بلاط عريس البحر)، وأعلن رجل قصير مكتنز يرتدي الأبيض والأرجواني وثبّت معطفه مفتاحان من البرونز: «الفتاة مصيبة. رويس بولتون بارد وماكر، أجل، لكن المرء يستطيع التّعامل مع رويس. كلنا عرفنا رجالاً أسوأ. أمّا ابنه النّعل هذا... يقولون إنه عنيف مجنون، وحش».

قال ريجار فراي بابتسامة هازئة من تحت لحيته الملساء: «يقولون؟ خصومه يقولون، أجل... لكن الذئب الصغير كان هو الوحش. كان حيواناً أكثر من إنسان ذلك الفتى، مفعماً بالخيلاء وشهوة الدّم، كما أنه كان غادراً كما تعلم السيّد جدّي للأسف»، وبسط يديه مردفاً: «لست ألوّم (الميناء الأبيض) على دعمه، فقد ارتكب جدّي الخطأ الفادح نفسه. في كل معارك الذئب الصغير قاتلت (الميناء الأبيض) جنباً إلى جنب (التوأمتين) تحت راياته. روب ستارك خاننا جميعاً، هجر الشمال لوحشية الحديديين في سبيل أن يقتطع لنفسه مملكة أفضل على ضفاف (الثالوث)، ثم هجر لوردات النهر الذين خاطروا بكل شيء من أجله وخلف عهد الزواج مع جدّي ليتزوج أول فتاة غربيّة وقع عليها بصره. لقد كان كلباً كريهاً ومات ميتة الكلاب».

رأى الصّمت والسكون على (بلاط عريس البحر)، وشعر دافوس بالبرودة في الهواء. كان اللورد وإيمان يرمق ريجار كأنه صرصور يستدعي كعب حذاءٍ صلب... لكنه أوماً برأسه ببطء فجأةً ليهتزّ ذقنه المشقوق، وقال: «كلب، نعم. لم يجلب لنا إلاّ الموت والحزن. كلب كرية بالفعل. أكمل».

تابع ريجار فراي: «الموت والحزن، أجل... ولورد البصل هذا سيجلب المزيد بكلّامه عن الثأر. افتحوا أعينكم كما فعل السيّد جدّي. حرب الملوك الخمسة تُشارف على وضع أوزارها، وتومن ملكنا، ملكنا الوحيد. يجب أن تُساعده على تضميد جراح هذه الحرب الحزينة. باعتباره ابن روبرت الشرعي ووريث الوعل والأسد فالعرش الحديدي حقه».

قال اللورد وإيمان ماندرلي: «كلام حكيم».

دقت وإيلا ماندرلي الأرض بقدمها صائحةً: «خطأ!».

عنتها الليدي ليونا قائلةً: «صمتاً أيتها المأفونة. المفترض أن تكون الصغيرات حلية للعين لا وجعاً في الأذن»، وقبضت على ضفيرة الفتاة وجرتها تصرّخ من القاعة، ففكر دافوس: ذهبّت صديقتي الوحيدة في هذا البلاط.

قالت أختها على سبيل الاعتذار: «لطالما كانت وإيلا طفلةً عنيدةً. أخشى أنها ستكون زوجةً عنيدةً أيضاً».

هزّ ريجار كتفيه قائلاً: «لا شك أن الزواج سيُطوّعها. يد حازمة وكلمة

هادئة».

قال اللورد وايمان: «وإن لم يكن فهناك الأخوات الصّامتات»، واعتدلّ في جلسته مستطردًا: «وبالنسبة إليك يا فارس البصل فقد سمعتُ ما يكفي من كلام الخيانة اليوم. تُريدني أن أضحيّ بابني الحي الوحيد كي يضع ستانيس باراثيون مؤخرته المتغصّنة على عرشٍ لا حقّ له فيه. لن أفعلها، ليس من أجلك وليس من أجل سيّدك وليس من أجل أيّ أحد»، ودفعَ سيّد (الميناء الأبيض) نفسه ناهضًا ليحتقن عنقه بالحُمرة من المجهود، وأضاف: «ما زلت مهربًا أيها الفارس، أتيت تسرق ذهبي ودمي. تُريد أن يُقطع رأس ابني، وأظنُّ أنني سأقطع رأسك بدلًا من ذلك. أيها الحرس! اقبضوا على هذا الرّجل!». وقبل أن يفكر دافوس في مجرد الحركة أحاطت به الرّماح الفضيّة، فقال: «سيّدي، أنا مبعوث».

قال اللورد وايمان: «أأنت كذلك حقًا؟ لقد دخلت مدينتي متسللًا كالمهربيين. أقول إنك لا لورد ولا فارس ولا مبعوث، بل لصّ وجاسوس، تاجر أكاذيب وخيانة. يجدُر بي أن أقتلع لسانك بكماشةٍ ساخنة وأرسلك إلى (معقل الخوف) ليسلّخوك، لكن (الأم) رحيمة، وكذلك أنا»، وأشار إلى السير مارلون قائلًا: «يا ابن العم، خذ هذا المخلوق إلى (عرين الذئاب) واقطع رأسه ويديه. أريدُ أن تُوضع أمامي قبل أن أتناول عشايتي. لن أستطيع أن أكل قضمةً واحدةً حتى أرى رأس هذا المهرب على خازوق، وبين أسنانه الكذوب بصلة».



ريك

أعطوه حصاناً ورايةً، وألبسوه سُترَةً من الصُوف ومعطفاً ثقيلاً من الفرو، وأطلقوا سراحه.

هذه المرّة لا تفوح منه رائحة ننتة. قال ديمون ارقص -لي وهو يُساعد ريك الرّاجف على امتطاء الحصان: «عُد بهذه القلعة أو واصل طريقك، ولنرّ كم ستبتعد قبل أن نلحق بك. سيروقه هذا كثيرًا حقًا»، وبابتسامةٍ مِلاءٍ شذقيه هوى ديمون بضربةٍ من كُرباجه على كفل الحصان، لتسهل الدّابة العجوز المنهكة وتبدأ الحركة.

لم يجرؤ ريك على النّظر خلفه خشية أن يكون ديمون والقضيب الأصفر وجرونت في أعقابهِ، أن تكون هذه مجرّد دُعايةٍ أخرى من اللورد رامزي، أنه يُخضعه لاختبار قاسٍ ليرى ما سيفعله إذا أعطوه حصاناً وأفرجوا عنه. هل يظنون أنني سأهربُ؟ الفرس التي أعطوها له في حالةٍ مزرية، ملتوية القوائم ومهزولة من فرط الجوع، أي أن لا أمل له في أن يسبق الخيول المطهّمة التي سيُطارده بها اللورد رامزي وصيادوه، كما أن رامزي لا يحبُّ شيئاً أكثر من إطلاق فتياته النّابحات في أثر طريدةٍ جديدة.

وأين المهرب على كلّ حال؟ وراءه معسكرات ممتلئة برجال (معقل الخوف) والرّجال الذين جلبهم آل ريزويل من (العُدران)، وبين هؤلاء وأولئك جيش (بلدة الرّوابي)، وجنوب (خندق كايلن) ثمّة جيش آخر على الدّرب العالي، جيش من رجال بولتون وفراي يزحف تحت رايات (معقل الخوف)، وإلى شرق الطّريق ساحل أجذب موحش وبحر مالح بارد، وغرباً

مستنقعات وبرك (العُنُق) الموبوءة بالأفاعي والأسود الزواحف⁽¹⁾ وشياطين
المستنقعات بسهامهم المسمومة.

لن يَهْرُب. لا يُمكنه أن يَهْرُب.

سأعودُ إليه بالقلعة، سأفعل، لا بُدَّ أن أفعل.

النَّهار غائم ضبابي رطب، والرَّيح تهبُّ من الجنوب نديَّةً كالقُبلة. لاحَت
أطلال (خندق كايلن) من بعيدٍ عبر غيوم الصَّباح، وتحركت فرسه صوبها
مشيًّا، تُصدر حوافرها أصوات تخويضٍ خافتةً كلِّما ارتفعت من الأوحال
الخضراء الرَّمادية.

سلكتُ هذا الطَّرِيق من قبل. كان خاطراً خطراً، وقد ندمَ عليه في الحال،
وقال: «لا، لا، كان ذلك رجلاً آخر، كان ذلك قبل أن تعرف اسمك». اسمه
ريك. عليه أن يتذكَّر هذا. ريك، ريك، على قافية شريك.

عندما سلكَ ذلك الرَّجل الآخر هذا الطَّرِيق كان وراءه جيش، جيش
الشَّمال الجرَّار في طريقه إلى الحرب تحت رايات عائلة ستارك بلونيتها
الأبيض والرَّمادي، أمَّا ريك فراكب وحده رافعاً راية سلام على سارية من
خشب الصَّنوبر. عندما سلكَ ذلك الرَّجل الآخر هذا الطَّرِيق كان يمتطي
جواداً حربيًّا سريعاً نشيطاً، أمَّا ريك فيمتطي فرساً يرثى لحالها، كلُّها جلد
وعظم وضلوع، ويتحركُّ بها بتؤدَّة خشية أن يسقط. الرَّجل الآخر كان خيالاً
بارعاً، أمَّا ريك فتعوزه البراعة. مضى وقت طويل للغاية منذ ركبَ حصاناً.
إنه ليس خيالاً، وليس رجلاً حتى، بل مخلوق اللورد رامزي، أخطُ شأنًا من
كلب، دودة بجِلد بشري.

ليلة البارحة، فيما غاصَّ ريك في حوض من المياه شديدة السُّخونة،
قال له اللورد رامزي: «ستتظاهر بأنك أمير، لكننا نعرف الحقيقة. أنت ريك،
وستظلُّ دائماً ريك مهما كانت رائحتك عطرةً. قد يكذب عليك أنفك. تذكَّر
اسمك، تذكَّر من أنت».

- «ريك، مخلوقك ريك».

(1) الأسود الزواحف الاسم الذي يُطلقه الوستروسيون على التماسيح التي تعيش في
المستنقعات. (المُترجم).

وعده اللورد رامزي قائلاً: «أد هذه المهمة الصغيرة من أجلي وستكون كلبي وتأكل اللحم كل يوم»، ثم أضاف: «ستُغريك فكرة أن تخونني، أن تفر أو تُقاوم أو تنضم إلى أعدائنا. لا، صمتاً، لن أسمع إنكارك. اكذب عليّ وسأخذ لسانك. كان أيّ رجل في مكانك لينقلب عليّ، لكننا نعلم أنك لست رجلاً، أليس كذلك؟ يُمكنك أن تخونني إذا أردت، لا يهم... لكن عليك بعداً أصابعك أولاً لتعرف الثمن».

يعرف ريك الثمن. سبعة، سبعة أصابع. يستطيع المرء قضاء حاجاته بسبعة أصابع. سبعة رقم مقدّس. إنه يذكّر الألم الرهيب حين أمر اللورد رامزي السلاح بتقشير إصبع خاتمه من الجلد. الهواء ليليل ثقيل، وبرك الماء الضحل تُرْقَط الأرض. مضى ريك بينها بحذرٍ متّبِعاً الطريق الخشبي الذي أرسلته طليعة جيش روب ستارك على الأرض الطّريّة لتسريع حركة الجنود. حيث كان سور القلعة الواقي المنيع يرتفع من قبل لم يبق إلا أحجار مبعثرة، قوالب من البازلت الأسود ضخمة لدرجة أن من المؤكّد أنها احتاجت إلى مئة رجل لرفعها ورضّها في أماكنها، والآن بعضها غائص في المستنقع لا يظهر منه إلا زاوية، وبعضها منثور هنا وهناك كُعب تخلى عنها إله ما، متصدّعة تنفتّت وتُرَقِّعها الأشنة. ترك مطر الليلة الماضية الحجارة الضخمة مبتلّة تلمع، وجعلها ضوء شمس الصّباح تبدو كأنها مغلّفة بزيتٍ أسود نقي.

ووراءها تقف الأبراج.

يميل (برج السكر) كأنه على وشك السقوط، تماماً كما يبدو منذ خمسمئة عام، في حين يرتفع (برج الأطفال) إلى السّماء باستقامة الحربة، لكن قمّته المحطّمة مفتوحة للريّح والمطر. (برج البوابة) القصير العريض أكبر الثلاثة، تُغطّي الطّحالب جدرانها وتنمو شجرة كثيرة العقْد إلى الجانب من حجارة جداره الشّمالي، وإلى الشّرق والغرب لا تزال أقسام من السّور المتهدّم قائمة. نزل آل كارستارك في (برج السكر) وآل أومبر في (برج الأطفال)، وأخذ روب (برج البوابة) لنفسه.

إذا أعلّق عينيه فسيري الرّيايات بعين الخيال تخفق بإباءٍ في رياح الشّمال. كلّها راح الآن، كلّها سقطت. الرّياح على وجهه تهبّ من الجنوب، والرّيايات

الوحيدة الخافقة فوق بقايا (خندق كايلن) تُظهر كراكن ذهبياً على خلفيّة سوداء.

هناك من يُراقبونه، يَشْعُرُ بأعينهم عليه. حين رفعَ بصره لِمَحَ وجوهاً شاحبةً تُحدِّقُ من وراء سُرفات (بُرج البوابة) وعبر الأحجار المحطّمة التي تُتَوَجَّحُ قَمَّةُ (بُرج الأطفال)، حيث تقول الأسطورة إن أطفال الغابة استدعوا مطرقة المياه لتَهوي على أراضي (وستروس) وتقسمها نصفين.

الطريق الجاف الوحيد عبر (العُنق) هو الدَّرَبُ العالي، الذي تسدُّ أبراج (خندق كايلن) طرفه الشمالي مثل سداة القنينة. الطريق ضيّقٌ، والأطلال متموضعة بحيث تُجبر أيَّ عدوٍّ قادمٍ من الجنوب على المرور أسفلها وبينها، وللهجوم على أيِّ منها سيضطرُّ المُهاجمُ إلى كشف ظَهْرِهِ لسهام الاثنين الآخرين فيما يتسلَّق أسوارًا حجريةً مبتلَّةً تتدلَّى عليها أكاليل الطُّحلب الشَّبحي⁽¹⁾ الأبيض اللزج. الأرض السَّبَّخَةُ الواقعة وراء الدَّرَبُ العالي غير قابلةٍ للاجتياز، مستنقع بلا نهايةٍ من الدوامات والرّمال المتحرّكة والمروج الخضراء الملتمعة التي تبدو صُلْبَةً للعين السَّاهية ولكن تستحيلُ إلى ماءٍ لحظة أن تخطو عليها، كلها يعجُّ بالأفاعي والزهور السَّامة والأسود الزَّواحف الوحشيّة ذات الأسنان الماضية كالخناجر. أهل المنطقة لا يقلُّون خطرًا، هؤلاء الذين نادرًا ما يراهم أحدٌ لكنهم كامنون في الجوار دومًا، ساكنو المستنقعات، أكلة الضَّفادع، شعب الأوحال. فن وريد، وبيت وبوجز، وكراي وكواج، وجرينجود وبلاكماير—تلك هي الأسماء التي يُطلقونها على أنفسهم، لكن الحديديين يدعونهم جميعًا بشياطين المستنقعات.

مرَّ ريك بجيفة حصانٍ متعفّنة يبرُز من عنقها سهم، ولدى اقترابه انسلَّ نُعبان أبيض طويل داخلاً من محجر عينها الفارغ. وراء الحصان النَّافق أبصرَ الرَّاكب، أو ما تبقى منه بالأحرى. كانت الغُربان قد جرّدت وجه الرّجل من جلده، ونقّب كلب برّي تحت قميصه المعدني ليصل إلى أمعائه. على مسافةٍ أبعد رأى جثّةً أخرى غائصةً في الوحل لا يلوح منها إلا الوجه والأصابع.

(1) الطُّحلب الشَّبحي نوع من الطُّحالب من خيال المؤلف، ينمو في مناطق المستنقعات في (وستروس).

مع دنوّه من الأبراج وجدَ الجُثث متناثرةً على الأرض في كلِّ اتّجاه، من جروحها المفتوحة تنبت براعم الدّم، الزُّهور الشّاحبة ذات البتلات الممتلئة الرّطبة كقُبلة امرأة.

لن تتعرّفني الحامية أبدًا. قد يتذكّر بعضهم الفتى الذي كانه قبل أن يتعلّم اسمه، لكن ريك غريب عنهم. مضى وقت طويل منذ نظرَ في مرآة، لكنه يعرف كم يبدو عجوزًا. شعره ابيضّ وسقطَ أكثره، وما تبقى منه يابس جاف كالقشّ، وقد استنفدت الزّنازين عافيته كلّها حتى بات ضعيفًا كامرأة هريمة وأعجف لدرجة أن ريحًا قويّةً كفيّلة بطرحه أرضًا.

ويده... أعطاه رامزي قفّازين فاخرين من الجلد الأسود النّاعم المرن، محشويّين بالصّوف لإخفاء أصابعه المفقودة، لكن إذا أمعنَ أحدهم النّظر إليه فسيرى أن ثلاثةً من أصابعه لا تنشي.

دوى صوت: «لا تقرب أكثر! ماذا تريد؟».

أجاب: «الكلام»، وتقدّم بالفرس ملوِّحًا براية السّلام ليتأكّد من أن يروها، وأضاف: «جئتُ أعزل».

لم يأتِه ردٌّ، لكنه علّم أن وراء الأسوار يتناقش الحديدويون في السّماح له بالدخول أو ملء صدره بالسّهام. لا يهمُّ. الميته السّريعة أفضل مرّة مرّة من العودة إلى اللورد رامزي مخفقًا.

ثم انفتح باب مبنى البوّابة، وقال الصّوت: «أسرع!». كان ريك يلتفت نحوه حين سقّ السّهام الهواء. جاء من مكانٍ ما إلى يمينه حيث تغوص كُتل حجارة السّور المتهدّم حتى منتصفها في المياه الآسنة، واخترقت قناته طيّات رايته وعلق بها رأسه على بُعد قدم لا أكثر من وجهه، وقد هالَه هذا للغاية حتى إنه أسقط الرّاية ووقع من فوق سرّجه.

صاح الصّوت: «إلى الدّاخل، أسرع أيها الأحمق، أسرع!».

اندفع ريك يتسلّق الدّرجات مذعورًا على يديه ورُكبتيه فيما مرقّ سهم آخر من فوق رأسه. قبض أحدهم عليه وجرّه إلى الدّاخل، وسمع الباب يُصَفّق من ورائه، ثم إنه سُحب من يديه ليقف ودُفِع إلى جدار، وبعدها وجد سكينًا على حلقه ورأى وجهًا ملتحيًا قريبًا للغاية من وجهه حتى إن بإمكانه أن يعدّ شعر أنف الرّجل. «مَن أنت؟ ما شأنك هنا؟ أجب بسرعة وإلا فعلتُ بك ما فعلته

به»، ولوى الحارس رأس ريك بحدّة نحو جيثةٍ تتعفن على الأرض إلى جوار الباب، لحمها الأخضر تزحف عليه جحافل من اليرقات.

أجاب ريك كاذبًا: «أنا حديدي الميلاد». الفتى الذي كان حديديّ الميلاد، هذا صحيح، لكن ريك خرج إلى هذا العالم في زنازين (معقل الخوف). «انظر إلى وجهي. أنا ابن اللورد بالون، أميرك». كان ليقول الاسم، إلا أن الكلمة احتبست في حلقه. ريك، أنا ريك، على وزن حريك. لكن عليه أن ينسى هذا الفترة قصيرة، فمحال أن يستسلم أحد لمخلوقٍ مثل ريك مهما كان موقفه يائسًا. يجب أن يتظاهر بأنه عاد أميرًا.

حدّق القابض عليه إلى وجهه مضيئًا عينيه وقد التوى فمه ربيّة. أسنانه بيّنة، وأنفاسه الكريهة عابقة برائحة المزر والبصل. «أبناء اللورد بالون قتلوا». - «أخواي وليس أنا. اللورد رامزي أسرني بعد (ويتترفل)، وأرسلني إلى هنا لأتفاوض معكم. أنت القائد؟».

- «أنا؟». خفض الرّجل سكينه وتراجع خطوةً وكاد يتعثّر في الجثة. «ليس أنا يا سيّدي». قميصه المعدني صدئ، وثيابه الجلد تتعفن، وعلى ظهر إحدى يديه تنزّ قرحة مفتوحة الدّم. «رالف كيننج يتولّى القيادة هنا، هذا ما قاله حضرة الرّبّان القائد. أنا على الباب فحسب». ركّل ريك الجثة متسائلًا: «ومن هذا؟».

حملق الحارس إلى الرّجل الميت كأنه يراه للمرّة الأولى، ثم قال: «هو... لقد شرب الماء. اضطررت إلى شقّ حلقه ليكفّ عن الصّراخ. كان مبطونًا. لا يُمكنك أن تشرب الماء. لهذا نشرب المزر»، وفرك وجهًا عيناه محمّرتان ملتهبتان، وتابع: «اعتدنا أن نجرّ الموتى إلى الأقبية. كلُّها مغمور. لكن الآن لا يُريد أحد أن يُكلّف نفسه مشقة ذلك، فنترّكهم حيث يسقطون». - «الأقبية مكان أفضل لهم. سلّموهم للماء، للإله الغريق».

ضحك الرّجل قائلاً: «لا آلهة بالأسفل يا سيّدي، فقط الجردان وثمانين الماء. كائنات بيضاء بسّمك ساقك، أحيانًا تزحف على السّلام وتلدغك وأنت نائم».

تذكّر ريك الزّنازين تحت (معقل الخوف) والجرذ يتلوّى بين أسنانه

ومذاق الدَّم الدَّافئ على شفتيه. إذا فسلتُ فسيُعيدني رامزي إلى هناك، لكن قبل هذا سيسلُخ جلد إصبع آخر. «كم تبقى من الحامية؟».

أجابَ الحديددي: «بعضها. لا أدري. أقل مما كنا من قبل. عدد منهم في (بُرج السكَّير) أيضًا على ما أظنُّ. ليس في (بُرج الأطفال). داجون كود ذهبَ هناك قبل بضعة أيام. قال إن رجلين فقط بقيا على قيد الحياة، ويأكلان الموتى. قتلَ الاثنين إن كنت تُصدِّق هذا».

أدركَ ريك لحظتها أن (خندق كايلن) سقطت. لكن لا أحد ارتأى أن يُخبرهم. فركَ فمه ليُخفي أسنانه المكسورة، وقال: «أريدُ أن أتحدَّث مع قائدك».

بدتَ الحيرة على الحارس وهو يقول: «كيننج؟ إنه لا يقول الكثير هذه الأيام. إنه يحتضِر، وربما ماتَ بالفعل. لم أره منذ... لا أذكرُ متى...».

- «أين هو؟ خذني إليه».

- «مَن سيحرِّس الباب إذن؟».

ركلَ ريك الجئةَ مجيبًا: «هو».

أضحكَ هذا الرَّجل، وقال: «نعم، ولِمَ لا؟ تعالَ معي إذن»، وتناولَ مشعلًا من كُوة في الجِدَار ولوَّحَ به حتى تأججت ناره، ثم قال: «من هنا»، وقاده عبر بابٍ وعلى سلالم ملتفة، يلتمع ضوء المشعل على الجُدُران السَّوداء إذ صعدا.

الغُرفة عند قَمَّة السَّلالم مظلمة وملئية بالدُّخان وحارَّة للغاية، على النَّافذة الضيِّقة فروة مهترئة معلَّقة لتمنع الرُّطوبة من الدُّخول، وفي المستوقد قطعة من الخُثَّ خامدة اللهب. الرَّااحة في المكان منقُرة، خليط فاسد من العفن والبول والغائط والدُّخان والمرض، والأرض مفروشة بالحصير المتسخ، وفي الرُّكن كومة من القشَّ يعدونها سريرًا.

يتمدَّد رالف كيننج مرتعشًا تحت جبل من الأغطية الفرو، وإلى جواره أسلحته؛ سيف وفأس، وسُترة معدنيَّة طويلة، وخوذة حربيَّة من الحديد. على تُرسه السَّحابة المتخذة شكل يد إله العواصف، من أصابعها تُطْفِطِق السنة البرق ضاربة البحر الجائش، لكن الطَّلاء باهت متقشَّر، والخشب تحته بدأ يتعفن.

ورالف أيضًا يتعفن. تحت الأغطية الرَّجل عارٍ محموم، بشرته الممتقعة المتفخة مغطاة بالقروح المفتوحة والجُلب، ورأسه مشوه إذ تورّمت إحدى وجنتيه على نحوٍ بشع، وعُنقه محتقن بالدماء لدرجة أنه يكاد يتلعب وجهه، والذراع على هذا الجانب كبيرة كفرع شجرةٍ وتعجُّ بالديدان البيضاء. يبدو من منظره أن أحدًا لم يُحمّمه أو يحلق لحيته منذ أيامٍ طويلة، وإحدى عينيه تبكي قبحًا، وعلى لحيته قشرة من القيء الجاف.

سأل ريك: «ماذا جرى له؟».

- «كان على الشُرفة وأصابه أحد شياطين المستنقعات بسهم. مجرد خدش، ولكن... إنهم يُسمّمون قنوات السّهام ويُلطّخون الرُّؤوس بالخراب وما هو أسوأ. صببنا النيذ المغلي في الجرح، لكنه لم يصنع فرقًا».

لا أستطيع التفاوض مع هذا الشيء. قال ريك للحارس: «اقْتله. لقد ذهب عقله، وجسده مليء بالدم والدُّود».

حدّق الرَّجل إليه قائلاً: «حضرة الرّبّان القائد ولّاه القيادة».

- «كنت لتقتل حصانًا محتضراً».

- «أي حصان؟ لم أملك حصانًا قط».

أنا ملكتُ واحدًا. تدفقت الذُّكري في مخيلته. كان لصراخ سمايلر وقع شبه بشري. اشتعل عُرفه نارًا ورفع قائمته الأماميتين وقد أعماه الألم وراح يضرب هنا وهناك بحوافره. لا، لا، ليس حصاني، لم يكن حصاني، ريك لم يملك حصانًا قط. قال ريك: «سأقتله لك»، واختطف سيف كنينج المسنود إلى تُرسه. ما زالت لديه أصابع تكفي لإمساك المقبض. عندما وضع حافة النصل على العنق المتفتخ لهذا الكائن الممدّد على القش انفلق الجلد وانبثقت منه الدماء السوداء والصّديد الأصفر، وانتفض كنينج بعنفٍ ثم همدت حركته. أفعمت رائحة شنيعة العُرفة، وهرع ريك إلى السّلالم. الهواء بارد رطب هناك، لكنه أنظف مرارًا بالمقارنة. خرج الحديدي وراءه متعثراً بوجهٍ غاضبٍ منه الدماء مكافحًا الرّغبة في القيء، وأمسك ريك ذراعه سائلاً:

«من نائب القائد؟ أين بقيّة الرّجال؟».

- «بالأعلى في الشرفات أو في القاعة، نائمون، يشربون. سأخذك إذا

أردت».

- «الآن». لم يمنحه رامزي إلا يوماً واحداً.

القاعة من الحجارة الدآكنة، عالية السقف ومعرّضة لتيّارات الهواء ومليئة بالدخان، وجدرانها مبقّعة برقع ضخمة من الأشنة الشاحبة. ثمة نار خامدة في المستوقد الذي سوّده نيرانٌ أحمى على مدار الأعوام الماضية، وتحتل طاولة هائلة من الحجر المنحوت مساحة القاعة كما هي الحال منذ قرون. هناك جلستُ عندما كنتُ هنا آخر مرّة. كان روب على رأس الطاولة، إلى يمينه چون الكبير وإلى يساره رووس بولتون، وجلس الأخوان جلوفر إلى جوار هلمان تولهارت، وكارستارك وأبناؤه قبالتهم.

حول المائة دستتان من الحديديين الجالسين يشربون. حدّجه بعضهم بنظراتٍ فاترة لا مبالية لدى دخوله، وتجاهله الآخرون. كلهم غريب عنه، وكثيرون منهم يرتدون معاطف تُثبتها دبابيس على شكل سمكة قُد فضيّة. لا يحظى آل كود بالكثير من الاحترام في (جزر الحديد)، إذ يُقال إن رجالهم لصوص وجُبناء ونسوتهم فاجرات يُضاجعن آباءهن وإخوتهن. لم يُدهشه أن عمّه اختار أن يتّرك هؤلاء الرّجال حين عاد الأسطول الحديدي إلى الديار. سيُسَهّل هذا مهمّتي كثيراً. قال: «رالف كنينج مات. من القائد هنا؟». رمقه الشّاربون بنظراتٍ خاوية، وضحك أحدهم وبصق آخر، وأخيراً قال أحد رجال كود: «من يسأل؟».

- «ابن اللورد بالون». ريك، اسمي ريك، على قافية مُشيك. «أنا هنا بأمر رامزي بولتون، سيّد (هورنود) ووريث (معقل الخوف)، الذي أخذني أسيراً في (وينترفل). جيشه إلى شمالكم وجيش أبيه إلى الجنوب، لكن اللورد رامزي مستعد لمعاملتكم بالرّحمة إذا سلّمتم (خندق كايلى) إليه قبل غروب الشمس»، وأخرج الرّسالة التي أعطوها له وألقاها على الطاولة أمام الشّاربين. التقطها أحدهم وقلّبها بين يديه مداعباً الشّمع الوردي المختومة به بأظفاره، وبعد وهلةٍ قال: «ورق. ما قيمته؟ إننا محتاجون إلى الجُبنة واللحم». - «تعني الفولاذ»، قال الجالس إلى جواره، رجل مسنٌ تنتهي ذراعه اليسرى بجذعة. «نحتاج إلى سيوفٍ وفؤوس، أجل، وإلى أقواس، مئة قوسٍ إضافي، ورجال يُطلقون السّهام». قال صوت ثالث: «حديديو الميلاد لا يستسلمون».

- «قُلْ هذا لأبي. اللورد بالون خضعَ حين حطَّم روبرت أسواره، وإلَّا كان مات، مثلما ستموتون إذا لم تستسلموا»، وأشارَ ريك إلى الورقة متابعًا: «اكسروا الختم، اقرأوا المکتوب. هذا ضمان لسلامة المرور مکتوب بخط يد اللورد رامزي. اتركوا سيوفكم وتعالوا معي وسيطعكم حضرة اللورد ويدعكم تذهبون إلى (الساحل الحجري) دون أن يتعرَّض إليكم أحد، لتجدوا سفينةً تحملكم إلى الديار. إمَّا هذا وإمَّا الموت».

نهضَ أحد رجال كود قائلاً: «أهذا تهديد؟». رجل كبير الحجم هو، لكنه جاحظ العينين عريض الفم وله بشرة بيضاء ميتة، يبدو كأن أباه أنجبه من سمكة، وإن كان لا يزال يحمل سيفًا طويلًا. «داجون كود لا يستسلم لأحد». لا، أرجوك، يجب أن تُصغي. فكرة ما سيفعله به رامزي إذا عادَ إلى المعسكر دون استسلام الحامية تكاد تجعله يبول على نفسه. ريك، ريك، ريك، على قافية ريك. قال وكلماته ترنُّ واهيةً في أذنيه: «أهذا جوابكم؟ هل تتكلم سمكة القُد هذه نيابةً عنكم جميعًا؟».

لم تبدُ الثقة نفسها على الحارس الذي قابلَه عند الباب إذ قال: «فيكتاريون أمرنا بالصُّمود، حقًا، سمعته بأذني يقول لكنينج: اصمدوا هنا حتى عودتي». قال ذو الذراع الواحدة: «أجل، هذا ما قاله. استدعاه انتخاب الملك، لكنه أقسم على العودة بتاج من الخشب المجروف على رأسه وألف رجلٍ وراءه». أخبرهم ريك: «لن يعود عمِّي أبدًا. انتخاب الملك توجَّ أخاه يورون، وعين الغراب عنده حروب أخرى يخوضها. أتحسبون أن لكم قيمةً عند عمِّي؟ لا. أنتم من تركهم يموتون، كشطكم كما يكشط الطمي عن حذائه عندما يخوض في الماء إلى الشاطئ».

أصابت كلماته الهدف. رأى هذا في أعينهم، في الطريقة التي نظرَ بها بعضهم إلي بعضٍ أو رمق كوبه عابسًا. كلهم كان يخشى أنه تخلى عنهم، لكن الأمر تطلبني لتحويل الخشية إلى يقين. ليس هؤلاء أقرباء ربانبة مشاهير أو سليلي عائلاتٍ كبرى من (جزر الحديد)، بل أبناء أقتان وزوجات ملحيات.

تساءلَ ذو الذراع الواحدة: «إذا استسلمنا نرحل؟ أهذا هو المکتوب هنا؟»، ونقرَ الرسالة المطوية التي لم يزل ختمها سليماً.

أجاب: «اقرأ بنفسك»، مع أنه يكاد يكون واثقًا بأن أحدًا منهم لا يعرف

القراءة. «اللورد رامزي يُعامل أسراه بشرفٍ ما داموا بارئين بكلمتهم». لم يأخذ إلاّ أصابع من يديّ وقدميّ وذلك الشّيء الآخر، وكان بإمكانه أن يقطع لساني أو يسلخ ساقِي من الكعب إلى الفخذ. «سَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ تَعِيشُونَ». شهرَ داجون كود سيفه قائلاً: «كاذب. أنت من يدعونه بالمارق. لِمَ تُصدِّق وعودك؟».

إنه سكران. الممزر يتكلّم. «صدِّق ما تشاء. لقد أوصلتُ رسالة اللورد رامزي، والآن عليّ أن أرجع إليه. اللَّيلة على العشاء سنأكل الخنازير البرّيّة واللّفنوف⁽¹⁾ ونشرب التّبببذ الأحمر القوي. مَنْ يأتون معي أهلاً بهم في المأدبة، أمّا بقيتكم فستموت في غضون يوم. سيّد (معقل الخوف) سيصعد بجيشه على الدّرب العالي في حين يقود ابنه رجاله ضدكم من الشّمال. لن يُرحم أحد. من يموتون خلال القتال هم المحظوظون، ومن يعيشون سيُعطونهم لشياطين المستنقعات».

زمجرَ داجون كود: «كفي! هل تظنُّ أنك تستطيع تخويف الحديديين بالكلام؟ ارحل، اهرع إلى سيّدك قبل أن أبقّر بطنك وأخرج أحشاءك وأجعلك تأكلها».

كان ليقول المزيد، لكن فجأةً اتّسعت عيناه، ونبّت فأس صغيرة من منتصف جبهته بصوتٍ جامد مكتوم. سقط سيف كود من بين أصابعه، وانتفض جسده كسمكةٍ علقت بخُطّاف، ثم هوى على وجهه على الطّاولَة. ذو الدّراع الواحدة هو من ألقى الفأس، وإذ قام رأوه يُمسك واحدةً أخرى. سأل الرّجل الشّارين الآخرين: «مَنْ غيره يُريد أن يموت؟ تكلمّ وسأنفدُ رغبتك». كانت خيوط حمراء رفيعة تنتشر على الحجر من بركة الدّم التي استقرّ فيها رأس داجون كود. «عن نفسي أريدُ أن أعيش، وذلك لا يعني أن أبقى هنا أتعفن».

أخذَ أحد الرّجال رشفةً من الممزر، وقلبَ آخر كوبه ليغسل إصبعًا من الدّم قبل أن يبلغ موضع جلوسه. لم يتكلّم أحد، ثم عندما عاد ذو الدّراع الواحدة يدسُ فأسه في حزامه علمَ ريك أنه نال غايته. سيسرُّ اللورد رامزي بي.

(1) اللّفنوف نبات هجين بين اللّفن والكرنب أو الملفوف، تُؤكل جذوره وأوراقه، ويُعرف في عالم الواقع أيضًا باللّفن السويدي. (المترجم).

أنزلَ راية الكراكين بيديه، وإن لاقى شيئاً من العُسر بسبب أصابعه المفقودة، شاعرًا في الوقت ذاته بالامتنان للأصابع التي سمحَ له اللورد رامزي بالاحتفاظ بها. استغرقَ استعداد الحديديين للخروج أكثر الأصيل، فعددهم أكبر مما خَمَّن؛ سبعة وأربعون في (بُرج البوابة)، وثمانية عشر آخرون في (بُرج السكِّير). اثنان من هؤلاء على شفا الموت ولا أمل في نجاتهم، وخمسة غيرهم أو هن من أن يمشوا، أي أن عدد الصّالحين للقتال ثمانية وخمسون. على الرغم من ضعفهم كانوا ليقتلوا ثلاثة أضعاف عددهم لو هاجمَ اللورد رامزي الأطلال. حدّث ريك نفسه: أحسنَ البلاء يارسالي، وركبَ فرسه ليقود الطّابور البائس عبر الأرض الموحلة السّبخة إلى حيث يُعسكر السّماليون. قال للأسرى: «اتركوا أسلحتكم هنا، السيوف والأقواس والخناجر. سيقتل المسلّحون في التّوّ واللحظة».

استغرقوا ثلاثة أضعاف المُدّة التي استغرقها ريك في قطع المسافة. صُنِعَت محفّات بدائيّة مرّقة لأربعة من الرّجال العاجزين عن السّير، والخامس حملهُ ابنه على ظهره. تقدّم الحديديون ببُطء، جميعهم يعي أنهم مكشوفون تمامًا ويتحرّكون في مرمى شياطين المستنقعات وسهامهم السّمومة. إذا مِتُّ فلا مِتُّ. يتمنّى ريك فقط أن يُجيد الرّامي ما يفعله كي يأتيه الموت سريعًا نظيفًا. ميتة رجل، لا النّهاية التي قاساها رالف كيننج.

سارَ ذو الدّراع الواحدة في مقدّمة الرّكب يعرج بشدّة. ذكرَ أن اسمه أدراك همبل، وأن له زوجةً صخريّةً وثلاث زوجات ملحيّات في (ويك الكُبرى)، وقال مزهوًّا: «ثلاث من الأربع كانت بطوهن كبيرةً لَمّا أبحرنا، والتّوائم شائعون في عائلة همبل. أول شيءٍ سأفعله حين أعودُ أن أحصي أبنائي الجُدد، وقد أسمّي أحدهم على اسمك يا سيّدي».

أجل، سمّه ريك، وعندما يسيء الأدب أقطع أصابع قدميه وأعطه جردانًا يأكلها. أدارَ رأسه وبصقَ متسائلًا إن كان رالف كيننج هو المحظوظ.

عند ظهور معسكر اللورد رامزي أمامهم كانت السّماء الرّماديّة كالأردواز قد بدأت تبول عليهم مطرًا خفيفًا، وامتلاًّ الهواء بدُخان بؤر النّار التي يُغْرِقها المطر. شاهدَهم حارس يمرّون بصمت، ودارت فرقة من الخيّالة من ورائهم يقودها ابن لورد ما على تُرسه رأس حصان. أحد ابني اللورد ريزويل، روجر

أو ربما ريكارد. لا يستطيع تمييز أحدهما من الآخر. سأله الخيال من على
صهوة فحل كستنائي: «هؤلاء كلهم؟».

- «كل من لم يمّت يا سيدي».

- «حسبُ أن هناك المزيد. لقد هاجمناهم ثلاث مرّات وفي المرّات

الثلاث ردعونا».

قال لنفسه بومضة فخرٍ مباغته: إننا حديديو الميلاذ، ولأقل من لحظةٍ عادَ
أميرًا، ابن اللورد بالون، دم (بايك). على أن التفكير المحض خطر. عليه أن
يتذكّر اسمه. ريك، اسمي ريك، على قافية مسييك.

كانوا خارج المعسكر مباشرةً عندما أعلن نباحٍ قطع من الكلاب مجيء
اللورد رامزي، في صحبته باقر العاهرة ونصف دستةٍ من رجاله المفضّلين،
السّلاخ وآلن الفظ وديمون أرفص - لي والوالدران الكبير والصّغير. أحاطت
بهم الكلبات تعضّ الهواء وتزّمجّر في وجوه الأعراب، ففكّر ريك: فتيات
النّعل، قبل أن يتذكّر أنه يجب ألا يلفظ المرء هذه الكلمة في حضور رامزي
أبدًا أبدًا أبدًا.

ترجّل ريك وجثا قائلاً: «سيدي، (خندق كايلن) لك. هؤلاء آخر
المُدافعين عنها».

قال اللورد رامزي وعيناه الشّاحبتان تلتمعان: «قليلون للغاية. أملتُ أن
يكونوا أكثر. كانوا خصوصًا شديدي العناد. مؤكّد أنكم تتصوّرون جوعًا.
ديمون، آلن، اعتنينا بهم. نبذ ومزر وكل ما يستطيعون أن يأكلوا من طعام. أيها
السّلاخ، خذ جرحاهم إلى المايسترات».

- «أمرك يا سيدي».

تمتّ بعض الحديديين بعبارات الشكر قبل أن يتجهوا مترنّحين نحو بؤر
النّار في مركز المعسكر. حاول أحد رجال كود أن يلثم خاتم رامزي، لكن
كلبات الصّيد أجبرته على التراجع قبل أن يقترب، وقضمت آيسون قطعةً من
أذنه، وعلى الرغم من الدماء السّائلة على رقبتة ظلّ الرّجل يحني رأسه وظهره
ويثني على رافة حضرة اللورد.

حين ذهب آخرهم التفت رامزي بولتون بابتسامته إلى ريك، وأمسكه من
مؤخرة عنقه وقرب وجهه من وجهه وقبّله على وجنته، ثم همس: «صديقي

القديم ريك. هل حسبوك أميرهم حقاً؟ يا لهم من حمقى ملاعين هؤلاء الحديديّون. الآلهة تضحك».

- «يريدون فقط أن يعودوا إلى الدّيار يا سيّدي».

فاحت من أنفاس رامزي رائحة النّبذ المتبّل والقرنفل الحلوّة إذ غمغم بنعومة عاشق: «وما الذي تُريده أنت يا عزيزي ريك؟ خدمتك الشّجاعة تستحقّ مكافأةً. لا أستطيعُ أن أعيد إليك أصابع يديك وقدميك، لكن مؤكّد أن هناك ما ترغب فيه مني. هل أعتقك؟ أصرّفك من خدمتي؟ هل تُريد أن ترحل معهم وتعود إلى جُزركم الكثيئة في البحر البارد الغائم لتكون أميراً ثانية؟ أم تُحبّد أن تبقى خادمي المطيع؟».

حكّ سكين بارد عموده الفقري، وقال لنفسه: احذر، احذر جداً جداً. لا تروقه ابتسامه حضرة اللورد، ولا بريق عينيه واللّعب الملتمع على رُكنيّ فمه. لقد رأى هذه العلامات من قبل. أنت ريك، فقط ريك، على قافية لكيك. أعطه الإجابة التي يُريدها.

قال: «سيّدي، مكاني هنا معك. أنا مخلوقك ريك. لا أريدُ إلا أن أخدمك. كلُّ ما أطلبه... قربة من النّبذ، هذه مكافأة تكفييني... نبيذ أحمر، أقوى نبيذ لديك، كل ما يستطيع الرّجل أن يشربه من نبيذ».

ضحك اللورد رامزي قائلاً: «لست رجلاً يا ريك، إنك مخلوقي فحسب، لكنك ستحصّل على نبيذك. والدر، تولّ هذا. ولا تخف، لن أعيدك إلى الزّنازين، لك كلمتي باعتباري ابن بولتون. سنجعلك كلباً بدلاً من ذلك. لحم كلّ يوم، وسأتركّ لك أسناناً تأكله بها أيضاً. يُمكنك أن تنام إلى جوار فتياتي. بن، هل عندك طوق له؟».

قال بن بونز العجوز: «سأجعلهم يصنعون واحداً يا سيّدي».

وفعل العجوز ما هو أفضل. ليلتها، بخلاف الطّوق، أعطاه دثاراً رثاً أيضاً، بالإضافة إلى نصف دجاجة، وقد قاتل ريك الكلاب على اللّحم، لكنها كانت أشهى وجبةً أكلها منذ (ويتترفل).

والنّبذ... النّبذ قانٍ حامض لكنه قوي حقاً. جلس ريك القرفصاء بين كلاب الصّيد يشرب حتى دار رأسه، ثم تقيّاً ومسحّ فمه وشرب المزيد، وبعدها تمدّد وأسبل جفنيه. حين استيقظ كانت كلبة تلعق القيء من لحيته

والسحاب القاتم يمضي أمام وجه القمر الهلال، وفي مكانٍ ما في الليل سمع رجالاً يصرخون. دفع الكلبة جانباً وانقلب على جانبه وعادَ يغيب في النوم. في الصباح التالي أرسل اللورد رامزي ثلاثة خيالة على الدرب العالي يحملون إلى السيد والده خبر خلو الطريق، وارتفع رجل عائلة بولتون المسلوخ فوق (مبنى البوابة) حيث أنزل ريك كراكن (بايك) الذهبي. بطول الطريق الخشبي المتعفن غرست خوازيق بعمق في الأرض الموحلة، وعلقت عليها الجثث الدامية تتعفن. عرفَ عددها في الحال. ثلاث وستون، إنها ثلاث وستون. أحدهم ينقصه نصف ذراع، وبين أسنان آخر رق لم يزل ختمه الشمعي سليماً.

وبعد ثلاثة أيام شقت طليعة جيش روس بولتون طريقها بين الأطلال ومروراً بصف الحرس المريعين، أربعمئة من خيالة فراي يرتدون الأزرق والرّمادي، تتألق رؤوس جرابهم متى تخللت أشعة الشمس السحاب. يقود اثنان من أبناء اللورد والدر الطليعة، أحدهما متين البنيان له فك بارز ضخّم وذراعان مفتولتا العضلات، والثاني رأسه أصلع وعينه جائعتان متقاربتان فوق أنفه المدبب ولحيته البنية الخفيفة لم تتجح تمامًا في إخفاء الدفن الضعيف تحتها. هوستين وإينس. يذكرهما من قبل أن يتعلم اسمه. هوستين ثور، بطيء الغضب ولكن شديد العناد إذا أثيرت حفيظته، وسمعت أنه أقوى مقاتلي ذرية اللورد والدر، أمّا إينس فأكبر سنًا وأقسى وأذكى، قائد لا سيّاف، وكلاهما جندي محنك.

تقدّم الشماليون في أعقاب الطليعة مباشرة، تُرفرف راياتهم المهترئة في الريح. شاهدهم ريك يمرّون، أكثرهم سائر، وإجمالاً عددهم قليل للغاية. تذكر الجيش العظيم الذي زحف جنوبًا مع الذئب الصغير تحت راية (وينترفل). قرابة عشرين ألف رجل بالسيوف والجراب خرجوا إلى الحرب مع روب، لكن اثنين فقط من عشرة عائدون، ومعظمهم من رجال (معقل الخوف).

في الزحام في منتصف الطابور يركب رجل مدرّع بصفائح المعدن الرمادية الدّاكنة فوق سترّة مبطنّة من الجلد الأحمر الدّموي، واقيا إبطيه مطرّقان على شكل رأسين بشريّين مفتوحَي الفم في صرخة عذاب، ومن على كتفيه ينسدل

معطف من الصوف الوردى المرصع بقطرات دم حمراء، ومن قمّة خوذته المغلقة تخفق شرائط طويلة من الحرير الأحمر. حين رآه الرّجل فكّر: لا أحد من شعب المستنقعات سيقتل رروس بولتون بسهم مسموم. وراء الرّجل تتقدّم مركبة مغلقة مصدرّة صريراً، تسحبها ستّة خيول جرّ ويُدافع عنها رُماة نُشائيّة من المقدّمة والمؤخّرة، فيما تُخفي ستائر من المخمل الأزرق الدّاكن الرّاكبين عن الأعين.

على مسافةٍ أبعد وراء المركبة أقبّلت قافلة الأمتعة، عربات ثقيلة محمّلة بالمؤن وغنائم الحرب، وعربات يد مزدحمة بالجرحي والمُعاقين. في المؤخّرة المزيد من رجال فراي، ألف على الأقل، وربما أكثر، رُماة وحمّلة جراب وفلاّحون مسلّحون بالمناجل والعصي المدبّبة ومُحاربون غير نظاميين ورُماة راكبون، بالإضافة إلى مئة فارسٍ يدعمونهم.

بطوقه وسلاسله وأسماله التي عادَ يرتديها تحركَ ريك مع الكلاب الأخرى في أعقاب اللورد رامزي حين تقدّم حضرته يستقبل أباه، لكنّ لَمّا خلع الرّاكب ذو الدّرع الدّاكنة خوذته ظهرَ وجهه لا يعرفه ريك. تخشّرت ابتسامة رامزي كالحليب القديم لمرآه، وسطعَ الغضب على وجهه إذ قال: «ما هذا؟ أهي أضحوكة؟».

همسَ رروس بولتون خارجاً من وراء ستائر المركبة المغلقة: «مجرّد إجراء احترازي».

لا يُشبه سيّد (معقل الخوف) ابنه النّغل كثيراً، وجهه حليق أملس عادي، ليس وسيماً ولكن ليس تقليدي الملامح تماماً. على الرغم من أن رروس خاصّ عدّة معارك فليس على وجهه ندوب، وعلى الرغم من أنه كهل تجاوزَ الأربعين بعدّة سنواتٍ فلا تجاعيد تشي بمرور السّنين عليه، وشفثاه رفيفتان لدرجةٍ تجعلهما تبدوان خفيتين حين يُطبّقهما. لروس بولتون طابع من جمود الزّمن وثباته، وعلى قسماته يتشابه الغضب والسّعادة. الشّيء الوحيد المشترك بينه وبين رامزي هو العينان. عيناه من جليد. تساءل ريك إن كان رروس بولتون يبكي أبداً. وإذا بكى فهل يسعُر بالدموع باردةً على وجنتيه؟ ذات يوم كان فتى اسمه ثيون جرايچوي يهوى استفزاز بولتون عند اجتماع مجلس روب ستارك، يسخر من صوته الناعم ويُلقي النكات عن علقاته.

مؤكّد أنه كان معتوهاً. ليس هذا رجلاً يمزح المرء معه. ما عليك إلا أن تُلقِي نظرةً واحدةً على بولتون لتعرف أن في إصبع قدمه الصَّغير قسوة أدهى من آل فراي مجتمعين.

رَكَع اللورد رامزي أمام والده قائلاً: «أبي». تفحَّصه اللورد رُووس لحظةً، ثم قال: «لك أن تنهض»، والنفت يساعِد شابَّتين على النزول من المركبة.

الأولى قصيرة شديدة البدانة، لها وجه أحمر مستدير وثلاثة ذقونٍ تهتزُّ تحت قلنسوةٍ من فرو السَّمُور. قال رُووس بولتون: «زوجتي الجديدة. ليدي والدا، هذا ابني الطَّبيعي⁽¹⁾. قبَّل يد زوجة أبيك يا رامزي». أطاع الابن، وتابع الأب: «وأنا واثق بأنك تذكُر الليدي آريا، خطيبتك».

الفتاة نحيلة، وأطول قامَةً مما يذكُر ريك، لكن هذا متوقَّع بالطَّبع، فالفتيات يكبرن سريعاً في هذه السَّن. فُستانها من الصُّوف الرَّمادي المؤطر بالسَّتان الأبيض، وفوقه ترتدي معطفاً من فرو القاقوم مثبت برأس ذئبٍ فُضي، ويسترسل الشَّعر البني الدَّاكن حتى منتصفَ ظَهرها، وعيناها... هذه ليست ابنة اللورد إدارد.

آريا كانت لها عينا أبيها، عينا آل ستارك الرَّماديتان. قد تترك فتاة في سنِّها شَعرها يطول، وقد تُصاف بوضع بوصاتٍ إلى قامتها ويمتلئ صدرها، لكنها لا تستطيع أن تُغيِّر لون عينيها. هذه صديقة سانزا الصَّغيرة، ابنة الوكيل. حين، كان هذا اسمها، حين يوول.

قالت الفتاة: «لورد رامزي»، وانحنَت أمامه، وهذا أيضاً خطأ. كانت آريا ستارك الحقيقيةً لتبصُق في وجهه. «أتمنى أن أكون زوجةً صالحةً لك وأمنحك أبناءً أقوياء يتبعونك من بعدك». وعدَّها رامزي قائلاً: «ستفعلين، وقريباً».

(1) الطَّفل الطَّبيعي مصطلح من القرون الوُسْطى يُطلَق على الأولاد غير الشَّرعيِّين. (المترجم).



چون

كانت شمعته قد انطفأت وصارت بركةً من الشمع الذائب، لكنه وجد ضوء الصباح ينبلج عبر خصائص النافذة. مرةً أخرى غاب چون في النوم فوق عمله. تُغطّي المائدة أكوام عالية من الكتب التي أحضرها بنفسه، بعد أن قضى نصف الليل في البحث والتنقيب في الأقبية المغبرة على ضوء مصباح. كان سام محققًا، فالكتب في حاجةٍ فعليةٍ إلى الفرز والفهرسة والتنظيم، غير أنها ليست مهمةً يقوم بها الوكلاء الأميون، ولا مناص من انتظار عودة سام.

إذا عادَ. يخشى چون على سام والمياستر إيمون. كتب كوتر بايك من (القلعة الشرقية) يُبلغه بأن (غراب العواصف) رأت حطام قادس عند ساحل (سكاجوس)، لكن طاقمها لم يستطع أن يتبين إن كان الحطام لـ(الطائر الأسود) أم إحدى سفن قراصنة ستانيس أم سفينة تجارية عابرة. أردتُ أن أرسل جيلي والصغير إلى بر الأمان، فهل أرسلتهما بدلاً من ذلك إلى حتفهما؟ تخشّر عشاء الليلة السابقة الذي لم يمَسَّ منه إلا القليل عند مرفقه. كان إد الكتيب قد ملاً طبقه حتى كاد يطفح، إذ أرادَ يخنه الثلاثة لحوم سيئة السمعة التي يطبخها هوب أن تُطْرَى الخبز البائت. الدُعابة المنتشرة بين الإخوة أن اللحوم الثلاثة هي الضأن والضأن والضأن، ولو أن الجزر والبصل واللّفث أقرب إلى الواقع. على وجه ما تبقى من اليخنة تلتمع طبقة من الدهن البارد. حثّه باون مارش على الانتقال إلى مسكن الدب العجوز السابق في (برج الملك) بعدما أخلاه ستانيس، لكن چون رفض، فمن السهل للغاية تأويل انتقاله إلى مسكن الملك بأنه لا يتوقع عودة الملك.

خمول غريب استقرّ على (القلعة السوداء) منذ زحف ستانيس جنوبًا،

كأن الأحرار والإخوة الشُّود على حدِّ سواء يحسون أنفاسهم، ينتظرون ما هو آتٍ. في أغلب الأحيان الآن تخلو الأفنية وقاعة الطَّعام، و(بُرج القائد) هيكل فارغ، والقاعة العامَّة القديمة كومة من الأخشاب المتفحَّمة، و(بُرج هاردين) يبدو على وشك السُّقوط مع هبَّة الرِّيح التَّالية. صوت الحياة الوحيد الذي سمعهُ چون هو تقارُّع السُّيوف الخافت في السَّاحة خارج مستودع السِّلاح، وصياح إميت الحديدي في روبن النطَّاط أن يرفع تُرسه. خيرٌ لنا جميعاً أن نرفع تروسنا.

اغتمسَل چون وارتندي ثيابه وغادَرَ مستودع السِّلاح، وتوقَّف في السَّاحة بالخارج ليقول بعض كلمات التَّشجيع لروبن النطَّاط وغيره ممَّن يُدرِّبهم إميت. كالعادة رفضَ عرض تاي أن تصحبه حراسة، فسيكون حوله رجال كافون على كلِّ حال، وإذا وصلت الأمور إلى حدِّ إراقة الدِّماء فلن يصنع رجلاَن إضافيَّان فرقا يُدكَّر.

على أنه أخذَ مخلبه الطَّويل، ومضى جوست في أعقبه.

لدى بلوغه الاسطبل كان إاد الكتيب قد جهَّز حصان حضرة القائد بالسَّرج واللِّجام ووقفَ ينتظره، وبدأت العربات تتَّخذ تشكيل الحركة تحت عين باون مارش اليقظة. راحَ قيِّم الوُكلاء يخبُّ بمحاذاة الطَّابور يُشير ويصيح متأفِّفاً وقد احمرَّت وجنتاه من البرد، ولَمَّا لمحَ چون ازاداتا احمراراً، وخاطبه قائلاً: «حضرة القائد، أما زلت عازماً على هذه...».

- «... الحماقة؟ أرجوك أخبرني بأنك لم تكن ستقول «حماقة» يا سيِّدي. نعم، إنني عازمٌ. لقد ناقشنا هذا من قبل. (القلعة الشَّرقيَّة) تُريد مزيداً من الرِّجال، و(بُرج الظَّلال) تُريد مزيداً من الرِّجال، و(الحارس الرِّمادي) و(باب الجليد) أيضاً دون شك، وما زالت عندنا أربع عشرة قلعةً أخرى خالية، وفراسخ طويلة من (الجدار) بلا مراقبة أو حماية».

زَمَ مارش شفتيه قائلاً: «حضرة القائد مورمونت...».

- «... مات، وليس بأيدي الهَمج وإنما بأيدي إخوته المحلِّفين، رجال وثقَّ بهم. لا أنت ولا أنا نعرف ما كان ليفعله أو يمتنع عن فعله في مكاني»، ودارَ چون بحصانه مضيئاً: «كفي كلاماً. هيا بنا».

سمعَ إاد الكتيب الحوار كاملاً، وإذ خبَّ باون مارش مبتعداً أشارَ برأسه

إلى ظهره قائلاً: «الرُّمَّان! كلُّ هذه البذور تجعل المرء يختنق حتى الموت. أفضلُّ أكل اللُّفت. لم أسمع قطُّ أن اللُّفت يُؤذي أحدًا».

في أوقات كهذه يشنُّدُ افتقادِ چون المايستر إيمون عن آخره. كلايداس يُعنى بالغدبان بكفاءة، لكنه لا يملك عشر معرفة إيمون تارجارين أو خبرته، ويملك أقل من هذا من حكمته. باون رجل صالح على طريقته، لكن مزاجه اعتلَّ من جرَّاء الجرح الذي أصابه على (جسر الجماجم)، والآن يُغني على نعمةٍ واحدة هي سدُّ البوابات. وأوثيل يارويك بليد الحسِّ ضيق الأفق مثلما هو قليل الكلام، كما يبدو أن كلَّ جوالٍ أول يموت ما إن يشغل المنصب. فكَّر چون إذ بدأت العربات تتحرَّك: حرس الليل فقدوا عددًا كبيرًا من خيرة رجالهم. الدُّب العجوز، كورين ذو النصف يد، دونالد نوي، چارمان بكويل، عمي...

بدأ ثلج خفيف يسقط مع تحرك القافلة جنوبًا على (طريق الملوك)، ومضى طابور العربات الطويل مارًا بحقولٍ وجداولٍ وتلالٍ مشجَّرة، تصحبه دسته من حاملي الجراب ومثلهم من الرُّماة. شهدت الرِّحلات القليلة الأخيرة إلى (بلدة المناجد) شيئًا من القبح، القليل من التَّدافع والتَّراحم وبعض الشَّنائم والكثير من النظرات المكفهرَّة الواجمة، وهكذا شعر باون مارش أن الأفضل ألاَّ يُخاطروا، وهو ما وافقه عليه چون هذه المرَّة.

قادَ قيِّم الوُكلاء الطَّرِيق، وراءه ببضع ياردات چون وإلى جواره إد توليت الكئيب. على بُعد نصف ميل من (القلعة السوداء) اقترب إد بحصانه من چون، وقال: «سيدي، انظر هناك، السكِّير الكبير على التل».

السكِّير شجرة دردار لوتها إلى الجانب قرون من الرِّيح، والآن لها وجه... فم وقور، وأنف مصنوع من فرع مكسور، وعينان محفورتان في عمق الجذع تنظران شمالًا على (طريق الملوك) نحو القلعة و(الجدار).

جلب الهمج ألتهم معهم رغم كلِّ شيء. لم يندمش چون، فالنَّاس لا يُعرضون عن مللهم بتلك البساطة. فجأة يبدو الاستعراض الذي قدَّمته الليدي مليساندرا وراء (الجدار) خاليًا من أيِّ معنى. قال محاولًا الاستخفاف بالأمر: «يشبهك نوعًا يا إد».

- «أجل يا سيدي. لا تنبت أوراق من أنفي، لكن باستثناء هذا... لن يُسعد هذا الليدي مليساندرا».

- «لن تراها على الأرجح. اعمل على ألا يُخبرها أحد».
- «لكنها ترى الأشياء في نارها تلك».
- «ترى دُخانًا وجمارًا».

- «وأناسًا يحترقون. أنا غالبًا، بأوراق نابته من أنفي. لطالما خشيتُ أن أحترق، لكنني أملتُ أن أموت قبل ذلك».

ألقى چون نظرةً وراءه على الوجه متسائلًا من نقشه. لقد وضع حراسةً حول (بلدة المناجذ)، في آنٍ واحدٍ لمنع الغربان عن نساء الهَمَج ولمنع الأحرار من التسلُّل جنوبًا للإغارة. من نقش الوجه على شجرة الدرّدار أيا كان ضلّل حُرّاسه، وإذا كان رجل واحد يستطيع الانسلال من النطاق فغيره يستطيع أيضًا. فكّر بجهامة: أستطيع أن أضاعف الحراسة ثانيةً، أبدد ضعفي الرّجال، رجالًا يمكن استغلالهم بدلًا من ذلك في حراسة (الجدار).

واصلت العربات طريقها البطيء إلى الجنوب عبر الأوحال المتجمّدة والثَّلج المذرو. بعد ميل صادفوا وجهًا آخر محفورًا في شجرة كستناء نابته إلى جوار جدولٍ متجلّد، تُراقب عيناها الجسر الخشبي القديم الممتد فوق الماء. عند مرآها أعلن إد الكتيب: «متاعب مضاعفة».

شجرة الكستناء هيكل خشبي بلا أوراق، لكن غصونها البنية الجرداء ليست خاليةً، إذ جثم غُداف على فرع واطى فوق الجدول نافسًا ريشه ليقيه من البرد. حين لمح چون بسط جناحيه وأطلق نعيبًا، ولمّا رفع چون قبضته وصفر حلق الطائر الأسود الكبير إليه صائحًا: «ذرة، ذرة، ذرة!».

- «الذرة لشعب الأحرار، لا ذرة لك». تساءل إن كانوا سيلجأون إلى أكل

الغداف قبل نهاية الشتاء المقبل.

لا يشك چون في أن الإخوة على العربات رأوا هذا الوجه أيضًا. لم يتكلّم أحد عنه، لكن الرّسالة جليّة يقرأها كل من له عينان. ذات مرّة سمع چون مانس رايدر يذكّر أن معظم الرّكع خراف، وقال ملك ما وراء الجدار: «يستطيع الكلب أن يسوق قطيعًا من الخراف، لكن الأحرار بعضهم قَطَط ظلّ وبعضهم أحجار. أحد النوعين يجول أينما شاء ويُمزق الكلاب إربًا إربًا، والنوع الثّاني لا يتحرّك ما لم ترّكله». ليس راجحًا أن تتخلى قَطَط الظلّ أو الأحجار عن الألهة التي عبدتها طيلة حياتها لتركع لواحدٍ لا تعرف عنه إلا أقلّ القليل.

شمال (بلدة المناجد) قابلوا المُرَاقِب الثالث المحفور في جذع سَنديانَةٍ ضخمة تُحدِّد محيط القرية، عيناه العميقتان مَثَبَّتَان على (طريق الملوك). قال چون لنفسه متأملاً: ليس هذا وجهًا ودودًا. الوجوه التي نقشها البَشَر الأوائل وأطفال الغابة قبل دهور لها في أغلب الأحيان سحنة صارمة أو فظَّة، لكن هذه السَنديانة العظيمة تبدو غاضبة بصورةٍ خاصَّة، كأنها على وشك اجتثاث جذورها من الأرض والانقراض عليهم هادرة. جراحها حديثة كجراح من نقشوا الوجه. لطالما كانت (بلدة المناجد) أكبر مما تبدو، فمعظمها تحت الأرض ومحميٌّ من البرد والثلوج، ويصحُّ هذا الآن أكثر من أيِّ وقتٍ سابق. أضرمَ ماجنر (ثن) النَّار في القرية الخاوية عندما مرَّ بها في طريقه للهجوم على (القلعة السوداء)، فلم يتبقَّ فوق الأرض غير أكوام من ألواح الخشب المتفحَّمة والأحجار المسفوعة... لكن تحت التُّربة الممتجمدة ما زالت الأقبية والأنفاق والدِّهاليز العميقة قائمة، وهي ما لاذُّ به الأحرار وكمنوا معًا في الظلام كالمناجد⁽¹⁾ التي أخذت منها القرية اسمها.

توقَّفت العربات في تشكيل هلالِي أمام ما كان ورشة حدادة القرية، وعلى مقربةٍ كانت ثُلَّة من الأطفال محمَّري الوجوه تبني قلعةً من الثَّلج، لكنهم تفرَّقوا مع مرأى الإخوة المتشَّحين بالسَّواد واختفوا في جُحرٍ أو آخر. بعد لحظاتٍ قليلة بدأ الكبار يخرُجون من تحت الأرض تُصاحبهم رائحة منفرة، رائحة الأجساد المتسخة والملابس الملوثة والبراز والبول. رأى چون أحد رجاله يتقلَّص أنفه ويقول شيئًا للرجل المجاور له. دُعابة ما عن رائحة الحرِّيَّة غالبًا. كثيرون جدًّا من إخوته يتمازحون بشأن رائحة الهمجيين المقيمين في (بلدة المناجد).

جهل الخنازير. لا يختلف الأحرار عن رجال حرس الليل، بعضهم نظيف وبعضهم قدر، لكن أكثرهم نظيف في بعض الأوقات وقدر في بعضها، وليست هذه الرائحة الكريهة إلا نتاج حشر ألف شخصٍ معًا في الأقبية والأنفاق التي تكفي لإيواء مئةٍ لا أكثر.

(1) المناجد جمع الخُلد، وهو حيوان أعمى شبيه بالفأر يعيش في جحورٍ تحت الأرض. (المترجم).

مارس الهمج هذه الرقصة من قبل، وهكذا بلا كلام انتظموا في صفوف وراء العربات. مقابل كل رجل ثمة ثلاث نساء، وكثيرات معهن أطفال، مخلوقات شاحبة نحلة متمسكة بتنانيرهن، أما الرضع فقد رأى منهم چون القليل. مات الرضع خلال الزحف، ومن نجوا من المعركة ماتوا في محبس الملك. حالف المقاتلين حظ أفضل. قال چاستن ماسي في المجلس إن هناك ثلاثمئة رجل في سن القتال، وقد أحصاهم اللورد هارود فل. ستكون بينهم زوجات حراب أيضاً، خمسون أو ستون، وربما مئة. يعرف چون أن إحصاء فل شمل الرجال الجرحى أيضاً، وقد رأى نحو عشرين من هؤلاء؛ رجالاً متكتين على عكاكيز بدائية، ورجالاً بأكمام خالية وأيدٍ مفقودة، ورجالاً بعين واحدة أو نصف وجه، ورجالاً بلا ساقين محمولاً بين صديقين، وكلهم أعرج مبرد الوجه. رجال مكسورون. ليست الجثث الحية النوع الوحيد من الموتى الأحياء.

لكن ليس جميع المقاتلين مكسورين. عند سلم أحد الأقبية يقف نصف دسته من الشيين في دروعهم البرونز يُشاهدون بوجوم دون أن يحاولوا الانضمام إلى الآخرين، وبين أطلال ورشة حدادة القرية القديمة أبصر چون رجلاً كبيراً أصلع عرف أنه هاليك أخو هارما رأس الكلب، وإن لم ير خنازير هارما. أكلت لاريب. وهذان الاثنان اللذان يرتديان الفرو من ذوي الحوافر، متوحشان على الرغم من نحولهما، ويقفان بأقدام حافية حتى في الثلج. ما زالت بين هذه الخراف ذئاب.

في زيارته الأخيرة إليها ذكرته قال بهذا قائلة: «التشابهاً بين الأحرار والرُكع أكثر من الاختلافات يا چون سنو. الرجال رجال والنساء نساء بغض النظر عن الجانب الذي وُلدوا عليه من (الجدار). صالحون وطالحون، وأبطال وأشرار، وشرفاء وكذابون وجبناء وغاشمون... عندنا الكثير منهم، وعندكم أيضاً».

ليست مخطئة. الحيلة هي التمييز بين هذا وذاك، فصل الغنم عن المعاز. بدأ الإخوة السود يُناولون الطعام، وقد جلبوا معهم شرائح من اللحم البقري المملح الجامد وسمك القد المجفف والفاصوليا المجففة والجزر واللفت والبيض المخلل وأجولة من الشعير وبراميل من البصل والتفاح.

انتظرَ چون حتى خَبَتِ آخِرُ أَصْدَاءِ البوقِ، ثم همزَ حصانه متقدِّمًا ليراه الجميع، وأعلنَ: «إِنَّا نُطْعِمُكُمْ قدر استطاعتنا بكلِّ ما نقدر على الاستغناء عنه. تُفَاح وبصل ولفتوف وجزر... أماننا جميعًا شتاءً طويل، ومخازننا ليست معيَّنًا لا يَنْضَبُ».

دفعَ هاليك أحدهم ليتقدَّم، وقال: «أنتم أيها الغِربان تأكلون جيِّدًا». في الوقت الحالي. «نحن نُدافع عن (الجِدَارِ)، و(الجِدَارِ) يحمي البلاد... ويحميكم الآن. تعرفون العدوَّ الذي تُواجهه، وتعرفون ما في طريقه إلينا. بعضكم واجههم من قبل. الجُثث الحَيَّة والمُشاة البِيض، أشياء مِيتة بأعْيُنٍ زرقاء وأيدي سوداء. أنا أيضًا رأيتها وقتلتها وأرسلتُ أحدها إلى الجحيم. إنهم يَقتُلون، ثم يُرسِلون موتاكم ضدكم. لم يتمكَّن العمالقة من الصُّمود أمامهم، ولا أنتم أيها الثَّنيون، ولا عشائر الأنهار الجليديَّة وذوو الحوافر والأحرار... وبينما يقصُر النَّهار ويشتدُّ برد اللَّيْلِ يزدادون قوَّةً. لقد تركتم بيوتكم وجئتم جنوبًا بالمئات والآلاف... فلمَ إن لم يكن للفرار منهم؟ لتكونوا آمنين. حسن، (الجِدَارِ) هو ما يُحافظ على أمنكم، نحن من نُحافظ على أمنكم، الغِربان السُّود الذين تحتقرونهم».

قالت امرأةٌ قصيرة مكتنزة لُوحت وجهها الرِّيح ويبدو من منظرها أنها زوجه حربة: «نُحافظون على أمننا ونُجوِّعوننا». ردَّ چون: «تريدون المزيد من الطَّعام؟ الطَّعام للمُقاتلين. ساعدونا في الدِّفاع عن (الجِدَارِ) وستأكلون جيِّدًا كأَيِّ غُراب». أو لن تأكلوا مثلنا عندما ينفد الطَّعام.

خيِّم الصَّمت، وتبادلَ الهمج النَّظرات الحذرة، وتمتمَ الغُداف: «تأكلون، ذُرَّة، ذُرَّة!».

ارتفع صوت ثقيل اللُّكنة يقول: «نُقَاتِلْ لكم؟». يتكلَّم سيجورن ماجنر (بن) الشاب اللُّغة العاميَّة بتلعثمٍ في أفضل الأحوال. «لا نُقاتِلْ لكم. نَقْتُلْكم أفضل. نَقْتُلْ جميعًا».

ضربَ الغُداف الهواء بجناحيه مردِّدًا: «نَقْتُلْ، نَقْتُلْ!». خلال الهجوم على (القلعة السُّوداء) سحقت السَّلالم السَّاقطة الماجنر السَّابق أبا سيجورن. قال چون لنفسه: لكان هذا شعوري أيضًا إذا طلبَ مني

أحدهم أن أتخالف مع آل لانستر. «أبوك حاول أن يقتلنا جميعًا. كان الماجنر رجلاً شجاعاً، لكنه فشل، ولو نجح... فمن سيدافع عن (الجدار)؟»، والتفت عن الشينين متابعًا: «أسوار (وينترفل) كانت قويةً أيضًا، لكن اليوم (وينترفل) خرابه محترقة محطمة. أي جدار ليس قويًا إلا إذا كان من يدافعون عنه أقوىاء». قال عجوز يضمُّ ثمرة لفت إلى صدره: «تقتلوننا وتجوّعوننا، والآن تريدون أن تجعلونا عبيدًا».

وصاح رجل ممتلئ أحمر الوجه مؤيدًا: «أفضّل العُري على ارتداء واحدة من تلك الخرق السوداء».

ضحكت زوجة حربة قائلة: «زوجتك نفسها لا تريد أن تراك عاريًا يا بوتس».

بدأت دسته من الأصوات تتكلم في آنٍ واحد. كان الشينون يزعقون باللغة القديمة، وانفجر صبي صغير في البكاء، لكن چون سنو انتظر حتى هدأ الجميع، ثم التفت إلى هال المُشعر متسائلًا: «هال، ما الذي قلته لهذه المرأة؟».

لاحت الحيرة على هال إذ أجاب: «تعني بخصوص الطعام؟ تُفاحة أو بصلة؟ لم أقل إلا هذا. عليهم الاختيار».

ردّ چون سنو: «عليكم الاختيار جميعًا... لا أحد يطلب منكم حلفان يمينًا، ولا يعينني أيُّ آلهة تعبّدون. آلهتي الآلهة القديمة، آلهة الشمال، لكن يُمكنكم عبادة الإله الأحمر أو الآلهة السبعة أو أيِّ إله آخر يسمع دعواتكم. ما نحتاج إليه هو الجراب والأقواس، أعين علي (الجدار). سأخذ أيَّ صبي فوق الثانية عشرة يعرف كيف يحمل حربةً أو يشدُّ وتر قوس. سأخذ مسنّيكم وجرحاكم ومُعاقبكم، وحتى من لم يعودوا يستطيعون القتال. ثمة مهام أخرى يُمكنهم تنفيذها؛ تركيب الرّيش على السّهام، حلب الماعز، جمع الحطب، تنظيف اسطبلاتنا... العمل بلا نهاية. ونعم، سأخذ نسوتكم أيضًا. لست محتاجًا إلى الفتيات الخجلاوات المتطلّعات إلى الحماية، لكنني سأخذ كل من يرغب في المعجىء من الرّوجات الجراب».

سألته فتاة: «والبنات؟». تبدو صغيرةً كما كانت آريا حين رآها چون آخر مرة.

- «بدايةً من سنِّ السادسة عشرة فأكبر».

- «ستأخذون الصَّبيَّة بدايةً من الثَّانية عشرة».

في (الممالك السَّبع) غالبًا ما يكون الصَّبيَّة في الثَّانية عشرة من العُمُر وُصفاء أو مُرافقين، وكثيرون منهم يتدرَّبون على السُّلَّاح قبل هذا بسنوات، أمَّا البنات في الثَّانية عشرة فأطفال. لكن هؤلاء هَمَج. «كما تُريدين. الصَّبيان والفتيات بدايةً من سنِّ الثَّانية عشرة، لكن فقط من يعرفون كيف يُطيعون الأوامر. هذا ينطبق عليكم جميعًا. لن أطلب منكم أبدًا أن تركعوا لي، لكنني سأعيِّن عليكم قادةً ورُقباء يُخبرونكم متى تستيقظون ومتى تنامون، أين تأكلون ومتى تشربون وماذا ترتدون ومتى تُشهرون سيوفكم وتُطلقون سهامكم. رجال حرس اللَّيل يخدمون مدى الحياة. لن أطلب ذلك منكم، لكن ما دُتمت على (الجدار) فستكونون تحت قيادتي. من يعصي أمرًا سأقطعُ رأسه. سلوا إخوتي، لقد رأوني أفعلها».

صرخَ عُذاف الدُّب العجوز: «أقطعُ، أقطعُ، أقطعُ، أقطعُ!».

قال لهم چون سنو: «الخيار خياركم. فليُعد من يُريدون مساعدتنا على الدِّفاع عن (الجدار) معي إلى (القلعة السَّوداء) وسأحرصُ على تسليحكم وإطعامكم، ولتأخذ بقيتكم لفتها وبصلها وترجع إلى جحورها».

كانت الفتاة أول المتقدِّمين، وقالت: «أستطيعُ القتال. أمِّي كانت زوجةً حربيةً»، فأومأ لها چون برأسه، وإذ دسَّت نفسها مارةً بين رجلين مسنَّين فكَر: ربما لم تَبْلُغ الثَّانية عشرة حتى، لكنه لن يردَّ مجنَّدته الوحيدة.

تبعها مُراهقان لم يتجاوزا الرُّابعة عشرة، وبعدهما رجل أعور نديب الوجه قال: «أنا أيضًا رأيتهم، الموتى. حتى الغربان أفضل من هذا». بعده جاءت زوجة حربية طويلة، وعجوز متكى على عُكَّازين، وغُلام مستدير الوجه ضامر الدُّراع، وشاب ذكَّر شعره الأحمر چون بإيجريت.

ثم هاليك الذي دمدم: «لستُ أحبُّك أيها الغُراب، لكنني لم أحبَّ المانس أيضًا، ولا أحبَّته أختي، ومع ذلك قاتلنا من أجله، فلمْ لا نُقاتل من أجلك؟».

عندئذٍ انهدم السَّد. هاليك رجل عالي الشَّان. لم يكن مانس مخطئًا. قال له ملك ما وراء الجدار: «الأحرار لا يتبعون الأسماء أو الحيوانات القُماش الصَّغيرة المخيطة على الصُّدور، ولا يرقصون في سبيل المال ولا يهجمهم

اللَّعْبُ الَّذِي تُطَلِّقُهُ عَلَى نَفْسِكَ أَوْ مَا تَعْنِيهِ سِلْسِلَةُ مَنْصِبِكَ أَوْ مَنْ كَانَ جَدُّكَ. إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الْقُوَّةَ، يَتَّبِعُونَ الرَّجُلَ».

تَبَعَ هَالِيكَ أَبْنَاءَ عَمومتِهِ، ثُمَّ أَحَدُ حَامِلِي لَوَاءِ هَارِمَا، ثُمَّ رِجَالُ حَارَبُوا مَعَهَا، ثُمَّ آخَرُونَ سَمِعُوا حِكَايَاتٍ عَنْ بِأَسْهًا.

رِجَالُ مَسْتُونٍ وَصِيبِيَّةِ خُضْرٍ، وَمَقَاتِلُونَ فِي رِيعَانِ الشَّبَابِ، وَجِرْحَى وَمُعَاقُونَ، وَعَشْرُونَ مِنَ الزَّوْجَاتِ الْحِرَابِ، وَثَلَاثَةٌ أَيْضًا مِنْ ذَوِي الْحَوَافِرِ.

لَكِنْ لَا أَحَدٌ مِنَ الثَّنِينِ. دَارَ الْمَاجِرَ وَاخْتَفَى فِي الْأَنْفَاقِ، وَذَهَبَ أَتْبَاعُهُ الْمَدْرَعُونَ بِالْبُرُونِزِ فِي أَعْقَابِهِ.

عِنْدَمَا نَفَدَ التُّفَّاحَ الذَّابِلِ كَانَتِ الْعَرَبَاتُ قَدْ امْتَلَأَتْ بِالْهَمَجِ، وَأَصْبَحَ الْإِخْوَةُ السُّودُ أَقْوَى بِثَلَاثَةٍ وَسِتِّينَ فَرْدًا مِمَّا كَانُوا حِينَ خَرَجُوا مِنَ الْقَلْعَةِ السُّودَاءِ) هَذَا الصَّبَاحِ.

سَأَلَهُ بَاوَنُ مَارِشٍ وَهُمُ عَائِدُونَ عَلَى (طَرِيقِ الْمَلُوكِ): «مَاذَا سَتَفْعَلُ بِهِمْ؟».

- «سَأَدْرِبُهُمْ وَأَسْلِحُهُمْ ثُمَّ أَفْصَلُهُمْ. سَأُرْسَلُهُمْ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ. (الْقَلْعَةُ الشَّرِيقِيَّةُ)، (بُرْجُ الظَّلَالِ)، (الْحَارِسُ الرَّمَادِي)، (بَابُ الْجَلِيدِ). إِنِّي

أَنْوِي فَتْحَ ثَلَاثِ قِلَاعٍ أُخْرَى أَيْضًا».

نَظَرَ قِيَمَ الْوُكَلَاءِ وَرَاءَهُ قَائِلًا: «وَالنِّسْوَةُ أَيْضًا؟ إِخْوَتُنَا لَمْ يَعْتَادُوا وَجُودَ نِسَاءٍ بَيْنَهُمْ يَا سَيِّدِي. يَمِينُهُمْ... سَيَقِ قِتَالًا، اغْتِصَابًا...».

- «هُؤُلَاءِ النِّسْوَةُ يَحْمِلُنَ سَكَكِينَ وَيَعْرِفُنَ كَيْفَ يَسْتَعْمِدُنَهَا».

- «وَمَاذَا سَيَحْدُثُ عِنْدَمَا تَذْبَحُ وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الزَّوْجَاتِ الْحِرَابِ أَحَدَ

إِخْوَتُنَا؟».

أَجَابَ جُونُ: «سَنَفْقِدُ رِجَالًا، لَكِنَّا جَنِينَا ثَلَاثَةً وَسِتِّينَ لَتُونَا. أَنْتَ بَارِعٌ فِي الْعَدِّ يَا سَيِّدِي. صَحِّحْ كَلَامِي إِنْ كُنْتُ مَخْطِئًا، لَكِنِ حَسْبِي تَتَرَكْنَا مَتَفَوِّقِينَ

بِاثْنَيْنِ وَسِتِّينَ».

قَالَ مَارِشٌ بَغِيرِ اقْتِنَاعٍ: «لَقَدْ أَضْفَتُ ثَلَاثَةً وَسِتِّينَ فَمَا يَا سَيِّدِي... لَكِنِ كَمْ مِنْهُمْ مُقَاتِلُونَ وَفِي صَفٍّ مَنْ سَيُقَاتِلُونَ؟ إِذَا كَانَ (الْآخَرُونَ) عَلَى أَبْوَابِنَا

فَسَيَقْفُونَ مَعَنَا عَلَى الْأَرْجَحِ... لَكِنِ إِذَا جَاءَ تَورْمُونْدُ بَلِيَّةَ الْعَمَالِيْقِ أَوْ الرَّجُلِ الْبَاكِيِ بَعِشْرَةَ آلَافٍ مِنَ الْقَتْلَةِ الصَّارِحِينَ، فَمَاذَا سَيَحْدُثُ عِنْدَهَا؟».

- «عِنْدَهَا سَنَعْرِفُ، وَلِذَا لِنَأْمَلُ إِلَّا تَبْلُغَ الْأُمُورَ ذَلِكَ الْحَدَّ».



تيريون

حلم بالسيّد والده واللورد المكفّن، حلم بأنهما واحدا، الشّخص ذاته، وعندما احتواه أبوه بذراعين من حجرٍ ومالٍ يطبع عليه قُبَلته الرّماديّة استيقظَ بضم جاف يُفعمه مذاق الدّم الصّدئ وقلب يدقُّ بعنفٍ في صدره. قال هالدون: «قزنا الميت عاد إلينا».

هزّ تيريون رأسه يقشع غشاوة الحلم مفكّرا: (الويلات)، فُقدتُ في (الويلات). «لستُ ميتًا».

وقف النّصف مايستر فوّه قائلاً: «هذا ما ستراه. أيها البطّة، كُن داجنًا طيبًا واغل القليل من الحساء لصديقنا. مؤكّد أنه جائع جدًّا».

رأى تيريون أنه على متن (العذراء الخجول)، تحت دثار شائك رائحته خل. اجتزنا (الويلات). كان مجرد حلمٍ رأيته وأنا أغرقُ. «لماذا تفوح مني رائحة الخل؟».

- «كانت ليمور تغسلك به. بعضهم يقول إنه يُساعد على منع الإصابة بالداء الأرمد. أشكّ في ذلك عن نفسي، ولكن لم يكن هناك ما يمنع أن نُحاول. ليمور هي من أفرغت رثتيك من الماء بعد أن انتشلك جريف. كنت باردًا كالثلج وازرقت شفثاك. قال ياندري إن علينا أن نلقيك ثانيةً في النّهر، لكن الفتى حرّج ذلك».

الأمير. تدفقت الذّكري في عقله، الرّجل الحجري يمدُّ يدين رماديتين مشققتين والدّماء تنزُّ من مفاصل أصابعه. كان ثقيلاً كالجلمود وهو يجذبني إلى أسفل. «جريف انتشلتني؟». لاشكّ أنه يكرهني، وإلّا لتركني أموت. «منذ متى وأنا نائم؟ ما هذا المكان؟».

أجاب هالدون: «(سلهوريس)»، وأخرج سكينًا صغيرًا من كُمه وألقاه لتيريون بزاوية سُفلية قائلًا: «هاك».

جفل القزم، وانغرس السكين بين ساقيه ووقف يهتزُّ في خشب سطح القارب، فانتزعه متسائلًا: «ما هذا؟».

- «اخلع حذاءك وخز كلًّا من أصابع قدميك ويديك».

- «يبدو هذا... مؤلمًا».

- «وهو ما آمله، افعَل كما أخبرتك».

بحدّةٍ خلَع تيريون فردة حذاءٍ ثم الأخرى، ثم خلَع جوربه وضيق عينيه ناظرًا إلى أصابع قدميه، فلم تبدُ له أفضل أو أسوأ من المعتاد. وخز أحد الإصبعين الكبيرين بحذر، فحسَّ هالدون النصف ما يستر قائلًا: «أشد».

- «هل تُريدني أن أنزف؟».

- «إذا لزم الأمر».

- «ستُصبح على كلِّ إصبعٍ جُلبة».

- «ليس الغرض من هذه العملية أن تُحصي أصابع قدميك. أريدُ أن أراك تَجفُل. ما دامَ الوخز يُؤلم فأنت آمن. فقط عندما لا تَشعر بالنَّصل سيكون عندك داع للخوف».

الداءُ الأَرمد. كسَّر تيريون ووخز إصبعًا آخر، وعندما تكوَّنت قطرة من الدَّم حول رأس السكين أطلقَ سبَابًا، وقال: «آلمني هذا. أنت سعيد؟».

- «أرقصُ فرحًا».

قال البطة الذي عادَ بكوبٍ من الحساء: «رائحة قدميك أسوأ من رائحة قدمي يا يولو. جريف حذرِك من لمس المتحجِّرين».

- «أجل، لكنه نسي أن يُحذِّر المتحجِّرين من لمسي».

قال هالدون: «بينما تخز فتس عن رقع الجلد الرَّمادي الميت وبداية اسودادٍ في الأظفار. إذا رأيت علامة كهذه فلا تتردَّد. خيرٌ لك أن تفقد إصبعًا من أن تفقد قدمًا كاملة، أو أن تفقد ذراعًا من أن تقضي حياتك في الولوجة على (جسر الحُلم). والآن القدم الأخرى بعد إذنك، ثم أصابع يديك».

بدلَ القزم ساقًا على ساقٍ وبدأ يخز أصابع القدم الأخرى متسائلًا: «هل أخزُ قضيبي أيضًا؟».

- «لا ضرر من ذلك».

- «تعني لا ضرر لك، ولو أن لا فرق إذا قطعته بما أنني لا أستخدمه».

- «تفضّل. سندبغّه ونحطّه ونبيعه بثروة. لقضبان الأفرام قُدرات سحرية».

قال تيريون: «هذا ما أقوله للنساء منذ أعوام»، وغرس رأس السكّين في عقله إبهامه وشاهد الدّم ينبجس فامتصّه، ثم تساءل: «كم عليّ الاستمرار في تعذيب نفسي؟ متى نتيقن من كوني نظيفاً؟».

أجاب النصف مايستر: «بشكل قاطع؟ لن يحدث أبداً. لقد ابتلعت نصف مياه النهر. ربما بدأت تصطبغ بالرّمادي بالفعل، تتحوّل إلى حجرٍ من الدّاخل إلى الخارج، بدايةً بقلبك ورثيتك. إذا صحّ ذلك فلن يُنقذك وخز أصابعك وغسلك بالخلّ. حين تفرغ تعال واشرب القليل من الحساء».

كان الحساء طيبّ المزاق، وإن لاحظ تيريون أن النصف مايستر جلس إلى الجانب الآخر من المائدة وهما يأكلان. وجدّ (العذراء الخجول) مربوطاً إلى رصيفٍ أبلّته تقلبات الجوّ على ضفّة (الروين) الشّرقية، وعلى بُعد رصيفين رأى جنوداً ينزلون من قادمس نهريّ فولانتيني. أسفل سورٍ من الحجر الرّملي تزدحم المحال والأكشاك والمخازن، ومن ورائه تلوح بروج وقباب المدينة التي خضّبها ضوء الشّمس الغاربة بالحُمْرة.

لا، ليست مدينةً. على الرغم من مساحتها تعدّ (سلهوريس) بلدةً لا أكثر، كما أنها خاضعة لحكم (فولانتيس القديمة). ليست هذه (وستروس).

خرجت ليمور إلى السّطح وفي أثرها الأمير، ولمّا رأت تيريون هرعت إليه واحتضنته قائلةً: «(الأم) رحيمة. لقد صلّينا من أجلك يا هيو جور».

أنت على الأقلّ صليّت. «لن ألومك على هذا».

كانت تحيةً جريفة الصّغير أفتّر حرارةً. الأمير الصّغير في مزاج سيّء، غاضب لأنه مجبر على البقاء على القارب بدلاً من النزول إلى البرّ مع ياندري ويسيلا. قالت له ليمور: «تريد الحفاظ على سلامتك فقط. إننا في أوقات قلقلة».

شرح هالدون النصف مايستر: «في الطّريق من (الويلات) إلى (سلهوريس) لمحنا خيالاً يتحرّكون على شاطئ النهر الشّرقى ثلاث مرّات، دوثر اكي. في مرّةٍ منها كنا قريبين منهم لدرجة أننا سمعنا رنين الأجراس في

جدائهم، وأحياناً في الليل لاحت لنا نيرانهم من وراء التلال الشرقية. مررنا بسفن حربية أيضاً، قوادس نهريّة من (فولانتيس) مكتظة بالجنود العبيد. واضح أن القناصل يخشون وقوع اعتداءٍ على (سلهوريس).

استوعب تيريون الأمر سريعاً. وحدها بين بلدات النهر الكبرى تقف (سلهوريس) على ضفة (الروين) الشرقية، وهو ما يجعلها أكثر عرضةً بكثير لهجوم سادة الخيول من أخواتها عبر النهر. ومع ذلك فهي غنيمة صغيرة. لو كنتُ كالألا لأوهمتُ الفولانتينيين بهجومي على (سلهوريس) وجعلتهم يهرعون للدفاع عنها، وبعدها أدورُ من الجنوب وأطلقُ بأقصى سرعةٍ إلى (فولانتيس) نفسها.

كان جريف الصّغير يقول بإصرار: «أعرفُ كيفُ أستخدمُ السيف». قالت ليمور: «حتى أشجع أسلافك أبقى حرسه الملكي حوله في أوقات الخطر». كانت قد بدّلت رداء السّپتة بثياب تليق بزوجة أو ابنة تاجرٍ موسر. أمعن تيريون النّظر إليها. لقد تشمّم الحقيقة المتوارية تحت شعر جريف وجريف الصّغير الأزرق بسهولة، ولا يبدو أن ياندري ويسيلا يُخفيان أكثر مما يُظهران، في حين أن البطّة -بشكلٍ ما- يُظهر أقل مما يُخفي. أمّا ليمور... من هي بحق؟ ما سبب وجودها هنا؟ ليس الذهب في تقديري. ماذا يعني هذا الأمير لها؟ هل كانت سِپتة حقاً؟

لاحظ هالدون أيضاً تبديلها ثيابها، فقال: «ماذا نفعل بفقدان الإيمان المفاجئ هذا؟ كنتُ أفضلُك بمسوح السّپتة يا ليمور». قال تيريون: «كنتُ أفضلُك عارية».

رمقته ليمور بتأنيبٍ قائلة: «لأن روحك شريرة. مسوح السّپتة تُعلن بوضوح أنني من (وستروس)، وقد تجتذب إلينا نظراتٍ غير مرغوبة»، وعادت تلتفت إلى الأمير إجون مضيئةً: «لست الوحيد الذي يجب أن يتنكر».

لم يبدُ الاقتناع على الفتى. الأمير المثالي لكنه لا يزال نصف صبي، خبرته بالعالم وأحواله محدودة للغاية. قال تيريون: «أيها الأمير إجون، ما دام كلالنا عالقا على متن هذا القارب فهل تُشرّفني بمباراة سايقاس نُزجّي بها الساعات؟».

حدّجه الأمير بنظرةٍ حذرةٍ قائلاً: «سئمتُ من السايقاس».

- «تقصد سئمت من الخسارة أمام قزم؟».

تمامًا كما توقع تيريون، نخرَ قوله كبرياء الفتى، فقال: «أحضر الرُّقعة والقطع. هذه المرّة سأسحقك سحقًا».

لعبا على سطح القارب، وراء القمرة حيث جلسا مرتبّعين سيقانهما. صفّ جريف الصّغير جيشه استعدادًا للهجوم، واضعًا التينة والأفيال والخيول الثّقيلة في المقدّمة. تشكيل يليق بشابّ صغير، جريء ولكن أحمق. يُجازف بكلّ شيء من أجل قتلة سريعة. ترك الأمير يُحرّك أولى قطعه، وقد وقف هالدون وراءهما يتفرّج على المباراة.

حين مدّ الأمير يده إلى تينته تنحنح تيريون، وقال: «ما كنت لأفعل هذا لو أني في مكانك. خطأ أن تُخرج تينتك بهذه السرعة»، وابتسم ببراءة مضيفًا: «أبوك كان يعرف مخاطر الجرة المبالغ فيها».

- «هل عرفت أبي الحقيقي؟».

- «رأيتهُ مرّتين أو ثلاثًا، لكنني كنتُ في العاشرة لا أكثر عندما قتله روبرت، وكان أبي يُخفيني تحت صخرة. لا، لستُ أدعي أنني عرفتُ الأمير ريجار، ليس كما عرفه أبوك الزائف. كان اللورد كوننجتون أعزّ أصدقاء الأمير، أليس كذلك؟».

أزاح جريف الصّغير خصلة زرقاء عن عينيه مجيبًا: «كانا مُرافقين معًا في (كينجز لاندنج)».

- «صديق صدوق اللورد كوننجتون. مؤكّد أنه كذلك ما دام قد حافظ على إخلاصه لحفيد الملك الذي سلّبه أراضيهِ وألقابه ونفاه. مؤسف. لولا هذا لكان صديق الأمير ريجار حاضرًا عندما نهبَ أبي (كينجز لاندنج)، ولأقصد ابن الأمير ريجار الصّغير الغالي من تحطيم رأسه الملكي على جدار».

احتقن وجه الفتى، وقال: «لم يكن أنا. لقد أخبرتك. كان ابن صباغ ما من (شارع المراحيض) ماتت أمُّه وهي تضعه، وباعه أبوه للورد فارس مقابل إبريق من نبيذ (الكرمة) الذهبي. كان له أبناء آخرون لكنه لم يدق نبيذ (الكرمة) الذهبي قط. أعطى فارس صبي (شارع المراحيض) للسيدة أمّي وغادرت بي».

حرّك تيريون أفياله قائلًا: «أجل، ولمّا مات أمير المراحيض هربك الخصيُّ عبر (البحر الضيق) إلى صديقه البدين تاجر الجبنة، الذي خبأك على قارب»

ووجدَ لورد منفيًا مستعدًا لانتحال هويّة أبيك. إنها قصّة مبهرة، وسيصنع المغنّون من هربك ملحمةً حين تأخذ العرش الحديدي... بفرض أن تقبلك جميلتنا دنيرس زوجًا لها». - «ستفعل، يجب أن تفعل».

ردّد تيريون: «يجب؟»، وطقّق بلسانه ثم أردف: «ليست هذه بالكلمة التي تحبُّ ملكة أن تسمعا. أنت أميرها المثالي، متّفقون، ذكي وجريء ووسيم كما تتمنّى كلُّ فتاة، لكن دنيرس تارجارين ليست فتاة. إنها أرملة غال من الدوثرافي وأمُّ لتنانين وناهة مُدن، إجون الفاتح بثديين. قد لا تقبلك بالسّهولة التي تتصوّرها».

- «ستقبلني». بدا الأمير إجون مصدومًا. من الواضح أنه لم يضع في الاعتبار على الإطلاق احتمال أن ترفضه عروسه المقبلة. قال: «لست تعرفها»، والتقطَ قطعة خيوله الثّقيلة ووضعها بخبطةٍ مكتومة.

هزّ القزم كتفيه، وقال: «أعرفُ أنها قصّت طفولتها في المنفى معدمةً تتعيّش على الأحلام والائتمار، نفّرُ من مدينةٍ إلى أخرى في خوفٍ دائمٍ وغياب تام للأمان، بلا أصدقاءٍ إلّا أخ كان بكلّ الحسابات شبه مجنون... أخ باعَ بكارتها للدوثرافي مقابل وعدٍ بجيش. أعرفُ أن في مكانٍ ما على العُشب وُلدت تنانينها وولدت هي أيضًا. أعرفُ أنها معتدّة بنفسها. وكيف لا؟ ما الذي تبقى لها غير الكبرياء؟ وأعرفُ أنها قويّة. وكيف لا؟ الدوثرافي يحتقرون الضّعف. لو كانت دنيرس ضعيفةً لهلكت مع فسيرس. أعرفُ أنها شرسة. (أستاפור) و(يونكاي) و(ميرين) دليل كافٍ على هذا. لقد قطعت أراضي العُشب و(القفر الأحمر)، ونجّت من المُغتالين والمكاييد والسّعوضة البغيضة، وتحسّرت على أخ وزوج ابن، وداسّت مُدن النخاسين وحوّلتها إلى تُرابٍ تحت قدميها الرّقيقتين في صندلهما الفاخر. والآن، كيف ستكون ردة فعل هذه الملكة في رأيك حين تظهر حاملاً وعاء تسوّل وتقول: صباح الخير يا عمّتي. أنا إجون ابن أخيك الذي عاد من الموت. كنتُ مخبئًا على قارب طوال حياتي، لكنني غسلتُ شعري من الصبغة الزرقاء وأريدُ تنيّنًا من فضلك... أوه، وهل ذكرتُ أن حقّي في العرش الحديدي أقوى من حقك؟».

التوى فم إجون غيظًا، وقال: «لن أذهب إلى عمّتي متسوّلًا، سأذهب إليها باعتباري ذا قُربى، ومعى جيش».

- «جيش صغير». هكذا، ها قد غضب. رغمًا عن القزم خطرَ چوفري بباله. إنني موهوب في إغضاب الأمراء. «الملكة دنيرس جيشها كبير، وبلا فضل منك». قالها تيريون وحرك نُشايّاته.

- «قل ما تُريد. ستكون عروسي. اللورد كوننجتون سيحرص على هذا. إنني أتقُ به كما لو أنه من دمي».

- «ربما يجدرُ بك أن تكون المهرّج بدلًا مني. لا تثق بأحدٍ يا أميري، لا بمايستر ك عديم السلسلة ولا بأبيك الزائف ولا بالبطّة الشجاع أو ليمور الجميلة أو الأصدقاء الآخرين الذين ربُّوك منذ نعومة أظفارك، وفوق كلِّ شيءٍ لا تثق بتاجر الجُبنة أو العنكبوت أو ملكة التنانين التي تنوي أن تتزوَّجها. كل تلك الرّيبة ستقلب معدتك وتقض مضجعك، هذا صحيح، لكن هذا خيرٌ من النومة الطويلة التي لا تنتهي»، ودفع القزم تيننته السوداء عبر سلسلة جبالٍ متابعًا: «لكن ماذا أعرفُ أنا؟ أبوك الزائف لورد عظيم، وأنا مجرد رجلٍ قرد شائه... ومع ذلك كنتُ لأفعل الأشياء على نحوٍ مختلف».

جذب هذا اهتمام الفتى، فسأله: «مختلف كيف؟».

- «لو كنتُ مكانك؟ لذهبتُ غربًا لا شرقًا، أرسو في (دورن) وأرفع راياتي. (الممالك السبع) لن تكون مهيأةً أبدًا للغزو كما هي الآن. على العرش الحديدي يجلس ملك صبي، والفوضى ضاربة أطنابها في الشّمال، وأراضي النّهر خراب، و(ستورمز إند) و(دراجونستون) خاضعتان للورد متمرد. عندما يأتي الشّتاء ستجوع البلاد. ومن تبقى ليتعامل مع كلِّ هذا؟ من يحكّم الملك الذي يحكّم (الممالك السبع)؟ إنها أختي الجميلة، لا يوجد غيرها. أخي چايمي متعطّش للقتال لا السّلطة، وقد فرّ من كلِّ فُرصةٍ للحكّم. عمّي كيفان سيكون وصيًّا لا بأس به إذا كلّفه أحدهم بهذا الواجب، لكنه لن يطمح إليه أبدًا. الآلهة سوّته على أن يكون تابعًا لا قائدًا». الآلهة وأبي. «مايس تايرل سيقبل بكلِّ سرورٍ أن يُمسك الصّولجان، ولكن ليس واردًا أن يتنحّى أهلي ويُعطوه له. والجميع يكرهون ستانيس. من تبقى إذن؟ سرسي. (وستروس) ممزّقة وتنزف، ولا أشكُّ في أن أختي العزيزة عاكفة الآن على

تضميد الجراح... بالملح. سرسي رقيقة كالملك ميجور ومعطاءة كإجون غير الجدير ورشيدة كإيرس المجنون. إنها لا تنسى إساءةً أبداً، سواء أكانت حقيقةً أم وهميةً، وتحسب الحذر جُبناً والمعارضة عصياناً. كما أنها طماعة، تطمع في السُلطة، في الشرف، في الحُب. حُكم تو من مدعوم بالتحالفات التي شيدها أبي بمتهى العناية، لكنها ستُدّرها عمًا قريب، جميعها بلا استثناء. ارسُ وارفع راياتك وسيتوافد النَّاس إليك أفواجًا، اللوردات كبارهم وصغارهم، والعوام أيضًا. لكن لا تنتظر طويلًا يا أميرِي، فاللحظة لن تدوم، والتيار الذي يحملك الآن سرعان ما سينحسر. احرص على الوصول إلى (وستروس) قبل أن تسقُط أختي ويحلُّ أحد آخر أكفأ محلها».

تساءل الأمير إجون: «لكن من دون دنيرس وتنانينها ما أملنا في الانتصار؟».

أخبره تيريون: «لست محتاجًا إلى الانتصار. ما عليك إلا أن ترفع راياتك وتستقطب مؤيديك وتصد حتى تصل دنيرس وتضمُّ قوتها إلى قوتك».

- «قلت إنها قد لا تقبلني».

قال القزم: «ربما بالغتُ. قد تُشفق عليك عندما تذهب إليها تتسول يدها»، وهزَّ كتفيه مواصلاً: «هل تُريد أن تُقامر بعرشك على نزوة امرأة؟ لكن إذا ذهبت إلى (وستروس)... آه، عندها أنت متمرد لا شحاذ، جريء ومتهور، سليل حقيقي لعائلة تارجارين يمشي على خُطى إجون الفاتح، تنيّن. قلتُ لك إنني أعرفُ ملكتنا الصّغيرة. دَعها تسمع أن ابن أخيها ريجار القليل ما زال حيًّا، أن ذلك الفتى الشُّجاع رفعَ راية أسلافها على أرض (وستروس) من جديد، أنه يخوض حربًا يائسةً للانتقام لأبيه واسترداد عرش عائلة تارجارين والأعداء يُحاصرونه من كلِّ جانب... عندئذٍ ستهرع إليك بأقصى سرعةٍ تحملها بها الرِّياح والمياه. أنت آخر نسلها، وأمّ التنانين تلك، محطمة الأغلal تلك، فوق كلِّ شيءٍ مُنقذة. الفتاة التي أغرقت مُدن النحاسين في الدِّماء بدلًا من ترك أناسٍ أغرابٍ مكبّلين بالسلاسل لن تتخلى عن ابن أخيها في ساعة الخطر، وحين تصل إلى (وستروس) وتُقابلك للمرة الأولى ستلتقيان كُنْظيرين، كرجل وامرأة لا كملكةٍ وشخصٍ يستجدي العون. دَعني أسألك، كيف لا تحبُّك حينئذٍ؟»، وابتسم تيريون وقبض على تنيّته وطيرها

عبر الرُّقعة قائلًا: «أتمنى أن يغفر لي سمو الأمير. ملكك محاصر. الموت بعد أربع حركات».

حدَّق الأمير إلى رُقعة اللُّعب مغممًا: «تنبّيتي...».

- «... أبعد من أن تُنقِّدك. كان عليك أن تُحرِّكها إلى قلب المعركة».

- «لكنك قلت...».

- «لقد كذبتُ. لا تثق بأحد، وأبقى تنبّيتك قريبةً منك».

هَبَّ جريف الصَّغير واقفًا وركل رُقعة اللُّعب لتطير قطع السايڤاس في كلِّ جهة وترتدُّ وتندحرج على سطح (العذراء الخجول)، ثم قال الفتى أمرًا: «اجمعها».

قد يكون ابن تارجارين بالفعل. قال تيريون: «أمر سمو الأمير»، وركع على يديه ورُكبتيه وبدأ يزحف على السطح يجمع القطع.

كان الغسق يدنو عندما عادَ ياندري ويسيلا إلى (العذراء الخجول)، وراءهما شيال يدفع عربة يد محمَّلة بأكوام المؤن، ملح ودقيق وزُبدة طازجة، وشرائح سميقة من اللحم المقدَّد الملفوف بالكِتَّان، وأجولة من البرتقال والتُّفاح والكمثري. رفع ياندري على كتفه برميلًا من النّبذ، في حين حملتُ سيسيلا على كتفها سمكة كراكي تُعادل تيريون حجمًا.

حين رأت سيسيلا القزم واقفًا عند طرف لوح العبور توقَّفت فجأة ليصطدم بها ياندري وتكاد السمكة تسقط من على ظهرها في النهر. ساعدها البطة على إنقاذها، وحدَّقت سيسيلا إلى تيريون عابسةً، وبثلاثيَّة من أصابعها صنعت إشارة غريبةً كأنها تطعن. علامة لطرْد الشرِّ. قال للبطة: «دعني أساعدك على حمل السمكة».

قالت سيسيلا بحدَّة: «لا، ابتعد. لا تلمس طعامًا إلَّا ما تأكله بنفسك».

رفع القزم كلتا يديه قائلًا: «كما تأمرين».

وضع ياندري برميل النّبذ على السطح سائلًا هالدون: «أين جريف؟».

- «نائم».

- «أيقظه إذن. عندنا أخبار يجب أن يسمعها. اسم الملكة على كلِّ لسانٍ في

(سلهوريس). يقولون إنها جالسة في ميرين والأعداء يُحدِّقون بها. إذا صدق

الكلام في الأسواق فستدخُل (ثولانتيس القديمة) الحرب ضدها قريبًا».

زَمْ هالدون فمه قائلًا: «نميمة تُجَار السَّمَك لا يُعْتَمَد عليها، لكنني أظنُّ أن جريف سيُريد أن يسمع. أنت تعرفه»، ثم نزل النِّصف مايستر إلى مقصورة جريف بالأسفل.

الفتاة لم تتحرَّك غربًا من الأصل. لا شكَّ أن لديها سببًا وجيهاً. بين (ميرين) و(فولانتيس) خمسمئة فرسخ من الصَّحاري والجبال والمستنقعات والأطلال، بخلاف (مانتاريس) بسُمعتها المشؤومة. يقولون إنها مدينة أهلها وحوش، لكن إذا تحرَّكت على اليابسة فأين تذهب طلبًا للطعام والماء إن لم يكن إلى هناك؟ قد يكون البحر أسرع، لكن إذا كانت لا تملك السفن...

عند ظهور جريف على السطح كانت سمكة الكراكي تثرُ وتقدح على المستوقد وتحوم يسيلًا فوقها عاصرةً عليها اللِّيمون. ارتدى المرتزق قميصه المعدني ومعطف فرو الذئب وقُفَّازين من الجِلد الطَّري وسراويل داكنة من الصُّوف. إذا أدھشته رؤية تيريون مستيقظًا فإنه لم يُبدِ أمارةً على هذا سوى عبوسه المعهود. أخذ ياندري إلى الدفة حيث تكلم بصوتٍ أخفت من أن يسمعه القزم.

وفي النهاية أشارَ جريف إلى هالدون قائلًا: «يجب أن نعلم حقيقة هذه الشائعات. انزل إلى البرِّ واعرف ما تستطيع. كأفو سيعرف، إذا وجدته. جرب (رجل النهر) و(السُّلحفاة الملونة). تعرف الأماكن الأخرى».

- «أجل. سأخذُ القزم معي. أربع آذان أفضل من اثنتين، كما أنك تعلم كم يهوى كأفو لعب السايقاس».

- «كما ترغب. عد قبل شروق الشمس. إذا تأخرت لأيِّ سببٍ فاذهب إلى الجماعة الذَّهبيَّة».

فكَّر تيريون: يتكلَّم كما ينبغي للورد، لكنه احتفظَ بالفكرة لنفسه. ارتدى هالدون معطفًا مقلنسًا، وخلعَ تيريون ثيابه المرقعة المرتجلة ليرتدي بدلًا منها أخرى لونها رمادي زيتوني. خصَّص جريف لكلِّ منهما صُرةً من الفضة من صناديق إليرو قائلًا: «لإطلاق الألسنة».

كان الغسق يُخلي السبيل للظلمة عندما شقَّ طريقهما على ضفة النهر. بدا بعض السفن التي مرَّا بها مهجورًا وقد رُفعت ألواح العبور، في حين عَجَّ بعضها بالرجال المسلَّحين الذين رموهما بنظرات الارتياب. أسفل سور البلدة علقت

قناديل من الرُّفوق فوق الأكَشاك مغرقةً الطَّرِيقَ المعبَّدَ بِبِرِّكَ من الأضواء الملوَّنة،
وشاهدَ تيريون إذ اصطبغَ وجه هالدون بالأخضر ثم الأحمر ثم الأرجواني،
وتحت نشاز اللغات الأجنبية المتداخلة سمعَ موسيقى غريبةً آتيةً من مكانٍ ما
أمامهما، زمراً رقيقاً عاليًا يصحبه الطُّبلُ، ومن ورائهما كان كلب ينبح.

وكانت العاهرات بالخارج. على نهر أو بحر الميناء ميناء، وأينما وجدت
الملاحين وجدت العاهرات. أهذا ما عناه أبي؟ إلى البحر تذهب العاهرات؟
عاهرات (لانسپورت) و(كينجز لاندنج) نساء حُرّات، أمّا أخواتهن في
(سلهوريس) فأمات، تُنوّه بعبوديّتهن الدُموع الموشومة تحت عين كل منهن
اليُمْنى. كلهن عجائز شمطاوات قبيحات. يكاد منظرهن يكون كفيلاً بجعل
الرَّجل يعتزل البغاء. شعرَ تيريون بأعينهن عليه إذ مرَّ بخطواته المتمايلة،
وسمعهن يتهامسن ويُفقههن من وراء أيديهن. كأنهن لم يرين قزماً من قبل.

وقفت مفرزة من حملة الحراب الفولانتينيين على بوابة النهر، يبرق
ضوء المشاعل على فولاذ المخالب البارزة من قفازاتهم الواقية. خوذاتهم
أقنعة على شكل وجوه نمور، وتعلّم وجوههم من تحتها الخطوط الخضراء
الموشومة على كلتا الوجنتين. يعلم تيريون أن جند (فولانتيس) العبيد شديدي
الفخر بخطوط النُمر هذه. هل يحنون إلى الحرّية؟ ماذا يفعلون إذا منحتهم
إياها الملكة الطفلة؟ ما هم إن لم يكونوا نموراً؟ ما أنا إن لم أكن أسداً؟

لمح أحد الجنود القزم وقال شيئاً أضحك الآخرين، وعند بلوغهما البوابة
خلع قفازه المعدني ذا المخالب والقفاز الجلدي المبلل بالعرق تحته وطوق
عُنق القزم بذراعه وفرك رأسه بخشونة. باغتت الحركة تيريون لدرجة أنها
ألجمته عن المقاومة، وخلال لحظةٍ انتهى كل شيء. ثم إنه سأل النصف
مايستر: «أكان هناك سبب لهذا؟».

أجاب هالدون بعد أن سأل الحارس بلغته: «يقول إن فرك رأس القزم
يجلب حُسن الحظ».

أجبر تيريون نفسه على الابتسام للرَّجل، وقال: «قل له إن مصّ قضيب
القزم يجلب حظاً أحسن وأحسن».

- «لا يُستحسن. النُمر معروفة بأسنانها الحادّة».

أشار لهما حارس آخر بالدخول من البوابة ملوّحاً بمشعله بصبرٍ نافذ، وقادَ

هالدون النَّصْف مَإِسْتَر الطَّرِيقَ إِلَى دَاخِل (سَلْهُورِيس)، وَفِي أَعْقَابِهِ تِيرِيُون
الْمَاشِي بِتَمَائِلٍ بِحَذَرٍ.

انْفَتْحَ أَمَامَهُمَا مِيدَانٌ عَظِيمٌ، وَحَتَّى فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَجَدَاهُ مَزْدَحْمًا
صَاحِبًا مَتَوَهِّجًا بِأَسْوَاءِ الْفَنَادِيلِ الْمَتَدَلِّيَةِ مِنْ سِلَاسِلِ حَدِيدٍ فَوْقَ أَبْوَابِ
الْخَانَاتِ وَبُيُوتِ الْهُوَى، لَكِنِّهَا دَاخِلُ الْبَلَدَةِ مِنَ الزُّجَاجِ الْمَلُونِ لَا الرُّقُوقِ.
إِلَى يَسَارِهِمَا تَتَقَدُّ نَارٌ لَيْلِيَّةٌ خَارِجَ مَعْبَدٍ مِنَ الْحَجَرِ الْأَحْمَرِ، يَقِفُ فِي شُرْفَتِهِ
رَاهِبٌ يَرْتَدِي الْقَرْمِزِيَّ يَخْطُبُ فِي الْجُمُهِرَةِ الصَّغِيرَةِ الْمَجْتَمِعَةِ حَوْلَ اللَّهَبِ،
وَفِي أَمَاكِنٍ أُخْرَى جَلَسَ بَعْضُ الْمُسَافِرِينَ يَلْعَبُونَ السَّيْفِثَاسَ أَمَامَ خَانَ، وَرَاحَ
جُنُودٌ يَدْخُلُونَ وَيَخْرُجُونَ مِمَّا يَدُو بِوَضُوحٍ أَنَّهُ مَآخُورٌ، وَضَرَبَتْ أَمْرًا بَغْلًا
خَارِجَ اسْطَبْلِ، وَمَرَّتْ بِهِمَا عَرَبَةٌ ذَاتَ عَجَلَتَيْنِ يَجْرُهَا فَيْلٌ قَرْمٌ أَيْضًا. هَذَا
عَالَمٌ آخَرٌ، لَكِنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ الْعَالَمِ الَّذِي أَعْرَفَهُ.

يُشْرِفُ عَلَى الْمِيدَانِ تَمَثَالٌ أَيْضًا مِنَ الرُّخَامِ لِرَجُلٍ بَلَ رَأْسٍ يَرْتَدِي دَرْعًا
رَائِعَةً الزَّخْرَفَةَ وَيَمْتَطِي جَوَادًا حَرِييًّا لَا يَقِلُّ عَنْهُ تَمِيقًا، فَتَسَاءَلُ تِيرِيُونُ: «مَنْ
هَذَا؟».

- «الْقَنْصَلُ هُورُونُو، بَطْلٌ فُؤُلَاتِنِيٌّ مِنْ قَرْنِ الدِّمَاءِ. انْتُخِبَ قُنْصَلًا كَلَّ
سَنَةٍ طِيلَةً أَرْبَعِينَ سَنَةً، إِلَى أَنْ سَتِمَّ مِنَ الْإِنْتِخَابَاتِ وَأَعْلَنَ نَفْسَهُ قُنْصَلًا مَدَى
الْحَيَاةِ، وَهُوَ مَا لَمْ يُرْضِ الْفُؤُلَاتِنِيِّينَ الَّذِينَ قَتَلُوهُ بَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، رِبْطُوهُ بَيْنَ
فَيْلَيْنِ وَمَرْقُوهُ نِصْفَيْنِ».
- «يَبْدُو أَنَّ رَأْسًا يَنْقُصُ تَمَثَالَهُ».

قَالَ هَالْدُونُ: «كَانَ نَمْرًا. حِينَ تَبَوَّأَ الْأَفْيَالَ السُّلْطَةَ هَاجَ أَتْبَاعُهُمْ وَمَاجُوا
وَأَسْقَطُوا رُؤُوسَ تَمَثَالٍ مِنْ يَلُومُونَهُمْ عَلَى الْحُرُوبِ وَالْمَوْتِ»، وَهَزَّ رَأْسَهُ
مَسْتَطْرِدًا: «كَانَ ذَلِكَ فِي عَصْرِ آخَرَ. هَلُمَّ، الْأَفْضَلُ أَنْ نَسْمَعَ مَا يَتَكَلَّمُ عَنْهُ
الرَّاهِبُ. أَقْسَمُ أَنَّي سَمِعْتُ اسْمَ دَنِيرِسَ».

انْضَمَّ عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْمِيدَانِ إِلَى الزُّحَامِ الْمَتَنَامِي خَارِجَ الْمَعْبَدِ
الْأَحْمَرِ. مَعَ ارْتِفَاعِ السُّكَّانِ الْمَحَلِّيِّينَ فَوْقَهُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ لَمْ يَسْتَطِعِ الرَّجُلُ
الصَّغِيرُ أَنْ يَرَى أَكْثَرَ مِنْ مَوْخِرَاتِهِمْ، وَإِنْ سَمِعَ كُلَّ كَلِمَةٍ يَقُولُهَا الرَّاهِبُ تَقْرِيبًا،
لَكِنَ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ فَهَمٌ مَا يُقَالُ. سَأَلَ هَالْدُونُ بِالْعَامِيَّةِ: «هَلْ تَفْهَمُ مَا يَقُولُ؟».
- «سَأَفْهَمُ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قَرْمٌ يُزْمَرُ فِي أُذُنِي».

ردَّ تيريون: «لستُ أزمُّ!»، وعقدَ ذراعيه على صدره وتطلَّع وراءه متفحصًا وجوه الرِّجال والنِّساء الذين توقَّفوا ليسمعوا، وحيثما التفت رأى الوشوم. عبيد، أربعة من كلِّ خمسة عبيد.

أخبره النِّصف مايستر: «الرَّاهب يدعو الفولانتينيِّين إلى الحرب، ولكن في صفوف الحق، كجنودٍ لإله الضِّياء، راهلور الذي خلق الشَّمس والنَّجوم ويخوض حربًا أبديةً ضد الظَّلام. يقول إن نيسوس ومالاكو أعرضا عن النور، سوَّدت قلوبهما هاريَّيات الشرق الصِّفراء. يقول...».

- «التنانين. فهمتُ هذه الكلمة. يقول التنانين.».

- «أجل. التنانين أتت تحملها إلى المجد.».

- «تحملها. دنيرس؟».

أوماً هالدون برأسه إيجابًا، وقال: «بنيرو أرسلَ الخبر من (فولانتيس). بمجيئها تتحقَّق نبوءة عتيقة. من الملح والدخان وُلدت لتُعيد تشكيل العالم. إنها أزور آهاي العائد... وانتصارها علي الظَّلام سيَجلب صيفًا لا ينتهي أبدًا... الموت نفسه سيركع أمامها، وكل من يموتون في سبيل قضيتِّها سيولدون من جديد...».

سأله تيريون: «هل يجب أن أولد من جديد في الجسد نفسه؟». كان

الجمع يتزايد، وشعرَ بهم يتزاحمون حوله. «مَن بنيرو؟».

رفع النِّصف مايستر حاجبه مجيبًا: «راهب المعبد الأحمر الأعلى في (فولانتيس)، لهب الحقيقة، ضوء الحكمة، خادم إله الضِّياء الأول، عبد راهلور.».

الرَّاهب الأحمر الوحيد الذي عرفه تيريون كان ثوروس المايري، العرديد الممتلئ الدَّمث الملطَّخ دومًا بالنَّبِيذ، الذي اعتادَ التَّسكُّع في بلاط روبرت، يشرب أجود خمور الملك ويضرم النَّار في سيفه في الالتحامات الجماعية. قال لهالدون: «أعطني من الرُّهبان كلَّ من هو هُزأة فاسد بدين، النوع الذي يحبُّ الجلوس على الوسائد الوثيرة يأكل الحلوى ويُداعِب أجساد الغلمان. المؤمنون منهم بالألهة هم من يُسبِّون المتاعب.».

- «قد يُمكننا استغلال هذه المتاعب لصالحنا. أعرفُ أين يُمكننا العثور

على إجابات.».

قاده هالدون مارًا بالبطل مقطوع الرأس إلى حيث يطلُّ خان كبير من الحجر على الميدان. على الباب عُلقَت صدفة سلحفاة ضخمة محزّزة مطليّة بالألوان المبهجة، وبالداخل تتقدّم مئة من الشموع الحمراء المعتمة كالنجوم البعيدة في السّماء، وقد عطّرت الهواء روائح اللّحم المشوي والتّوابل، وانشغلت أمة على وجنتها وشم سلحفاة بصّبٍ خمير خضراء باهتة. توقّف هالدون في المدخل قائلاً: «هناك، هذان الاثنان».

في تجويف الحائط يجلس رجلان إلى طاولة سايقاس منقوشة من الحجر يرّمقان قطعهما على ضوء شمعة حمراء. أحدهما مهزول شاحب، شعره أسود خفيف وأنفه حاد، والثاني عريض الكتفين مستدير البطن، وتنسدل حلّقات شعره المبرومة متجاوزة ياقته. لم يكلف أيّهما نفسه مجرد أن يرفع عينيه عن اللّعبة إلى أن سحب هالدون مقعدًا ووضع بينهما مبادرًا إياهما بقوله: «قرمي يلعب السايقاس أفضل منكما معًا».

رفع أكبرهما حجمًا نظره يحدج المتطفّلين بازدراء، وقال شيئًا ما بلغة (فولانتيس القديمة) أسرع من أن يدركه تيريون، ومال النّحيل إلى الوراء على مقعده وسأل بعامية (وستروس): «أهو للبيع؟ معرض غرائب الفنّصل محتاج إلى قزم يلعب السايقاس».

- «يولو ليس عبدًا».

قال النّحيل: «يا للخسارة»، وحرّك فيلاً من الجرز.

عبر الطاولة زمّ الجالس وراء الجيش المرمرى فمه باستهجان، ثم حرّك خيوله الثّقيلة.

قال تيريون: «خطأ». لا بأس بأن يلعب دوره.

ردّ النّحيل: «بالضّبط»، وأجاب بخيوله الثّقيلة. تبعّت هذا هوجة من الحركات السّريعة، إلى أن ابتسم النّحيل أخيرًا وقال: «الموت يا صاح».

حدّق الكبير إلى الطاولة عابسًا ثم نهض ودمدم بشيء ما بلغته، فضحك مُنافسًا قائلاً: «لِمَ ترحل؟ ليست رائحة القزم سيّئة إلى هذا الحد»، ثم أشار لتيريون إلى المقعد الخالي، وقال: «اجلس أيها الرّجل الصّغير. ضع فضّتك على الطاولة وسنرى مدى إجادتك للّعبة».

كان تيريون ليسأله: أيُّ لُعبة؟ صعّد على المقعد قائلاً: «ألعبُ أفضل ببطن

مليء وكوب نبيذ في يدي»، فالتفت النحيل بكياسة ونادى الأمة طالباً منها طعاماً وشراباً.

قال هالدون: «النبيذ كأثو نوجاريس مأمور الجمارك هنا في (سلهوريس). لم يحدث قط أن هزمته في السايقاس».

فهم تيريون، وقال: «قد يكون حظي أحسن»، وفتح صرته وكدس العملات الفضة على جانب الرقعة واحدة فوق الأخرى إلى أن ابتسم كأثو أخيراً.

بينما رص كل منهما قطعه وراء حائل السايقاس سأل هالدون: «ما الأخبار من عند مصبّ النهر؟ هل ستقوم الحرب؟».

هز كأثو كتفيه قائلاً: «هذا ما يريدُه اليونكيون. يلقّبون أنفسهم بالآسياد الحكماء. ليس لي أن أتكلّم عن حكمتهم، لكنهم لا يفتقرون إلى الذكاء.

جاناً مبعوثهم بصناديق الذهب والجواهر ومثي عبد، فتيات بالغات وغلّمان ناعمي البشرة، كلهم مدرّب على فنّ التّنهّدات السّبعة. بلغني أن مادبه لا تُنسى ورشاه باذخة».

- «هل اشترى اليونكيون قناصلكم؟».

أجاب كأثو: «نيسوس فقط»، ورفع الحائل واستعرض تشكيل جيش تيريون مردفاً: «قد يكون مالاكو شيخاً سقطت أسنانه، لكنه لا يزال نمراً،

ودونيفوس لن يعود فُصلاً السّنة القادمة. المدينة تتعطّش للحرب».

تساءل تيريون: «لماذا؟ (ميرين) تقع على بُعد فراسخ عديدة عبر البحر. كيف أساءت الملكة الطّفلة العذبة إلى (فولانتيس القديمة)؟».

ضحك كأثو قائلاً: «عذبة؟ إذا صحّ نصف القصص التي نسمعها لا أكثر من العائدين من (خليج النّحاسين) فهذه الطّفلة وحش حقيقي. يقولون إنها

متعطّشة للدّماء، إن من يُعارضونها يُوضعون على الخوازيق ليموتوا ميتةً بطيئةً. يقولون إنها مشعوذة تُطعم حديثي الولادة لتنانينها، غدارة تسخر من

الآلهة وتخرق الهدن وتهدّد المبعوثين وتنقلب على من يخدمونها بإخلاص. يقولون إن شيئاً لا يُشبع شهوتها، إنها تُواقع الرّجال والنساء والمخصيين،

وحتى الكلاب والأطفال، وويل للحبيب الذي يفشل في إرضائها. إنها تمنح الرّجال جسدها لتستعيد أرواحهم».

فَكَرَّ تِيرِيون: أوه، عظيم. إذا منحتني جسدها فهنيئاً لها بروحي، ولو أنها ضئيلة ضامرة.

قال هالدون: «يقولون، وبهذا تعني النخاسين، المنفيين الذين طردتهم من (أستاپور) و(ميرين). مجرد افتراءات كاذبة».

قال كاثو: «أفضل الافتراءات متبل بالحقيقة، لكن لا سبيل لإنكار خطيئة الفتاة الحقيقية. الطفلة المغرورة أخذت علي عاتقها أن تحطم تجارة الرقيق، لكن تلك الحركة لم تقتصر علي (خليج النخاسين) فقط، بل كانت جزءاً من بحر التجارة الذي يشمل العالم كله، وملكة التنانين عكّرت الماء. وراء (السور الأسود) ينام السادة ذوو الدماء العريقة باضطراب، يسمعون عبيد مطابيحهم يشحذون سكاكينهم. العبيد يزرعون أطعمتنا ويُظفون شوارعنا ويُعلمون صغارنا، يحرسون أسوارنا ويُبحرون بقوادسنا ويُحاربون في معاركنا، والآن ينظرون شرقاً ويرون هذه الملكة الشابة تتألق من بعيد، محطمة الأغلال هذه. لا يمكن أن يسمح أصحاب الدّم القديم بهذا. والفقراء يكرهونها أيضاً. حتى أدنى الشحاذين أعلى من عبد، وملكة التنانين إياها تريد أن تحرمه هذا العزاء الوحيد».

تقدّم تيريون بحملة جرابه، فردّ كاثو بخيوله الخفيفة، ثم حرّك تيريون نُشايّاته خانةً قائلًا: «الراهب الأحمر بالخارج أراد أن تُقاتل (فولانتيس) مع الملكة الفضّية لا ضدها».

قال كاثو نوجاريس: «خيرٌ للرهبان الحُمر أن يصونوا ألسنتهم. لقد وقعت مشاحنات بين أتباعهم ومن يعبدون آلهةً أخرى بالفعل. لن تتسبب جعجعة بنبرو إلّا في إنزال غضبةٍ حاميةٍ على رأسه».

سأل القزم مداعباً قطعة عوامّه: «أي جعجعة؟».

لوح الفولانتيني بيده مجيباً: «في (فولانتيس) يتجمّع آلاف من العبيد والمعتقين في ساحة المعبد كل ليلةٍ ليسمعوا بنبرو يصرخ بكلام عن النجوم النازفة وسيف ناري سيظهر العالم. منذ فترةٍ يُحدّر من احتراق (فولانتيس) إذا حمل القناصل السلاح ضد الملكة الفضّية».

- «حتى أنا أستطيع التنبؤ بهذا. آه، العشاء».

العشاء طبق من لحم الماعز المشوي المقدّم على طبقةٍ من شرائح البصل،

واللحم متبّل فوّاح، متفحّم من الخارج وأحمر طري من الدّاخل. التقطَ تيريون قطعةً، وكانت ساخنةً لدرجة أنها لسعت أصابعه لكن لذيذةً حتى إنه أسرع يأخذ واحدةً أخرى، ثم بلّعها بالخمير الفولانتينيّة الخضراء الباهتة التي تعدّ أقرب شيءٍ للنبّيد شربه منذ عصور. قال متناولاً تنيّته: «جيدٌ جدًّا»، ثم أعلن وهو يُزيل أحد أفيال كآفو: «أكثر قطعة مفيدة في اللّعبة، ويُقال إن دنيرس تارجارين لديها ثلاثة».

علّق كآفو: «ثلاثة ضد ثلاثة أضعاف ثلاثة آلاف عدو. جرازدان مو إراز لم يكن المبعوث الوحيد الذي أرسلته المدينة الصّفراء. حين يتحرّك الأسياد الحُكماء ضد (ميرين) ستقاتل فيالق (جيس الجديدة) في صفوفهم، علاوةً على التولوسيين والإليريين، وحتى الدوثراكي».

قال هالدون «الدوثراكي خارج بوّاباتكم». عاد كآفو يلوّح بيده باستهانةً قائلاً: «الكمال بونو. يأتي سادة الخيول، نُعطيهم هدايا، يرحل سادة الخيول»، وحرك منجنيقه وقبض على تنيّة تيريون المرمرية وأزالها عن الرُّقعة.

كان الباقي مذبحه، وإن صمد القزم نحو دسّته من الحركات، وفي النهاية قال كآفو مغترفاً كومة الفضة: «حان وقت الدّموع المريرة. مباراةً أخرى؟». قال هالدون: «لا داعي. لقد تعلّم قزمي درسًا في التواضع. الأفضل أن نرجع إلى قاربنا».

في الميدان بالخارج كانت النّار اللّيلية لا تزال مشتعلةً، لكن الرّاهب رحل وتفرّق الجمع منذ مُدّة. من نافذة ماخورٍ لآح وهج الشّموع، ومن الدّاخل جاءت ضحكة امرأة، فقال تيريون: «ما زال اللّيل في أوله. ربما لم يُخبرنا كآفو بكلّ شيء، والعاشرات يسمعن الكثير من الرّجال الذين يُجامعوهن».

- «أنت محتاج إلى امرأة لهذه الدّرجة يا يولو؟».

- «الرّجل يسأم من أصابعه إذا كان لا يعرف أحبةً غيرها». قد تكون (سلهوريس) المكان الذي تذهب إليه العاهرات، قد تكون تايشا بالدّاخل الآن تحديداً وعلى وجنتها وشم الدّموع. «لقد كدتُ أغرق. الرّجل يحتاج إلى امرأة بعد شيءٍ كهذا، كما أنني أريدُ أن أتأكّد من أن قضيبِي لم يتحجّر».

ضحك النّصف مااستر قائلاً: «سأنتظرك في الحانة عند البوّابة. لا تتأخّر».

- «أوه، لا تحف. معظم النساء يُفضّلن الفروغ مني بأقصى سرعة».

وجدَ القزم المكان متواضعًا مقارنةً بالمواخير التي اعتادَ التردُّد إليها في (لانسپورت) و(كينجز لاندنج). لا يبدو أن المالك يتكلّم أيّ لغةٍ إلاّ الفولانتيّنة، لكنه فهمَ رنين الفضة وقادَ تيريون عبر مدخل مقنطرٍ إلى حُجرةٍ طويلةٍ تتصوّع برائحة البخور، حيث تجلس أربع أماتٍ باسترخاءٍ في أوضاعٍ مختلفةٍ من العُري. حمّن أن اثنتين منهن شهدن أربعين يوم ميلادٍ على الأقل، وأن الصّغيرتين في الخامسة أو السادسة عشرة. ليست أيّهن بقبح العاهرات اللائهي رأيهن على المرسي، ولكن لا يُمكن رغم ذلك وصفهن بالجمال. إحداهن واضح أنها حُبلي، وأخرى بدينة وفي حلمتها خاتمان حديدَيان، وأربعتهن موشومات بالدموع تحت أعينهن.

سألَ تيريون: «هل عندك فتاة تتكلّم لغة (وستروس)؟»، فضيّق المالك عينيه دون أن يفهم السُّؤال، ليكرّره القزم بالمألوية الفصحى، وهذه المرّة بدا أن الرّجل استوعبَ كلمةً أو ثلاثًا وأجاب بالفولانتيّنة، فلم يفهم تيريون من الجواب إلاّ «فتاة غروب الشّمس»، فحزّزَ أن هذا يعني فتاةً من (ممالك غروب الشّمس).

ثمّة واحدة فقط في المكان، وليست تايشا. للفتاة وجنتان منمّشتان وخُصل حمراء محبوكة على رأسها، وهو ما يعدّ بثديين منمّشين وشعر أحمر بين ساقها. قال تيريون: «لا بأس بها. وأريدُ إبريقًا أيضًا. نبيذ أحمر مع اللّحم الأحمر». كانت العاهرة تتطلّع إلى وجهه مجدوع الأنف باشمئزاز، فخاطبها قائلاً: «هل أزعجك يا حُلوتي. إنني مخلوق مزعج. كان ليُسعد أبي أن يؤكّد لك هذا لو لم يكن ميتًا يتعفن».

على الرغم من أن ملامحها وستروسيّة فالفتاة لا تتكلّم كلمةً من اللّغة العاميّة. ربما اختطفها نخّاس في طفولتها. عُرفه نومها صغيرة، لكن على الأرض بساط مايري وثمّة فراش محشو بالرّيش بدلًا من القش. رأيتُ أسوأ. سألتها إذ ناولته كوب النبيذ: «هل ستُخبريني باسمك؟». وجدّ النبيذ قويًا لاذعًا لا يتطلّب ترجمةً. «لا؟ سأرضى بفرجك فقط إذن على ما أظن». ثم إنه مسح فمه بظّهر كفه، وقال: «هل ضاجعتِ وحشًا من قبل؟ الآن وقت مناسب. اخرجي من ثيابك ونامي على ظهرك إذا سمحتِ، أو إذا لم تسمحي».

ظَلَّتْ تَرْمُقُهُ بِلَا فَهْمٍ إِلَى أَنْ أَخَذَ مِنْهَا الْإِبْرِيْقَ وَرَفَعَ تَنَوَّرَتْهَا فَوْقَ رَأْسِهَا،
وَبَعْدَهَا فَهَمَّتِ الْمَطْلُوبُ مِنْهَا، وَلَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ بِشَرِيكَةِ الْفِرَاشِ الْمَثَالِيَّةِ.
مَضَى وَقْتُ طَوِيلٍ لِلْغَايَةِ عَلَى تِيرْيُونِ دُونَ امْرَأَةٍ حَتَّى إِنَّهُ أْفْرَغَ نُطْفَتَهُ فِي دَاخِلِهَا
مَعَ الدَّفْعَةِ الثَّلَاثَةِ.

تَدْحَرَجَ مِنْ فَوْقِهَا شَاعِرًا بِالْخِزْيِ أَكْثَرَ مِنَ السَّبْعِ. كَانَ هَذَا خَطَأً. يَا
لِلْمَخْلُوقِ الذَّمِيمِ الَّذِي صَرَّتَهُ. سَأَلَهَا مَشَاهِدًا مِنْهُ تَقَطَّرَ مِنْ دَاخِلِهَا عَلَى
الْفِرَاشِ: «هَلْ تَعْرِفِينَ امْرَأَةً اسْمُهَا تَايْشَا؟». لَمْ تُجِبْهُ الْعَاهِرَةُ، فَسَأَلَهَا: «هَلْ
تَعْرِفِينَ أَيْنَ تَذْهَبُ الْعَاهِرَاتُ؟»، وَلَمْ تُجِبْهُ عَنِ هَذَا أَيْضًا. رَأَى عَلَى ظَهْرِهَا
خَطُوطًا مُتَقَاعَةً مِنْ نَسِيحِ النُّدُوبِ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ: الْفَتَاةُ فِي عِدَادِ الْمَوْتَى. لَقَدْ
نَكَحْتُ جِنَّةً. حَتَّى عَيْنَاهَا تَبْدُوَانِ مَيِّتَتَيْنِ. لَيْسَتْ فِيهَا قُوَّةٌ تَكْفِي لِمَجْرَدِ أَنْ
تَحْتَقِرَنِي.

يَحْتَاجُ إِلَى نَبِيذٍ، الْكَثِيرِ مِنَ النَّبِيذِ. أَمْسَكَ الْإِبْرِيْقَ بِكِلْتَا يَدَيْهِ وَرَفَعَهُ إِلَى
شَفْتَيْهِ، وَسَأَلَ النَّبِيذَ الْأَحْمَرَ فِي جَوْفِهِ وَعَلَى ذِفْنِهِ، وَقَطَرَ مِنْ لِحْيَتِهِ وَبَلَّلَ
الْفِرَاشِ. فِي ضَوْءِ الشُّمُوعِ بَدَأَ قَائِمًا كَالنَّبِيذِ الَّذِي سَمَّمَ چُوفِرِي. حِينَ أْفْرَغَ
الْإِبْرِيْقَ أَلْقَاهُ جَانِبًا وَنَزَلَ مِنْ فَوْقِ السَّرِيرِ بَيْنَ دَحْرَجَةٍ وَتَرْجٍ وَبَحِثَ تَحْتَهُ عَنِ
وَعَاءِ فَضَلَاتٍ لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ وَاحِدًا. هَاجَتْ مَعْدَتُهُ، وَأَلْفَى نَفْسَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ
يَتَقَيُّمًا عَلَى الْبَسَاطِ، ذَلِكَ الْبَسَاطُ الْمَايِرِيُّ السَّمِيكَ الرَّائِعُ الْمَرِيحُ كَالْأَكَاذِيبِ.
صَاحَتِ الْعَاهِرَةُ مَفْزُوعَةً، فَقَالَ لِنَفْسِهِ شَاعِرًا بِالْخَجَلِ: سِيلُو مَوْنَهَا عَلَى
هَذَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا: «اقْطِعي رَأْسِي وَخُذِيهِ إِلَى (كِينَجَزْ لَانْدِنْج). سَتَجْعَلُكِ أُخْتِي
لِيَدِي وَلَنْ يَجْلِدَكَ أَحَدٌ ثَانِيَةً أَبَدًا». لَمْ تَفْهَمْ هَذَا أَيْضًا، فَفَتَحَ سَاقِيهَا وَزَحَفَ
بَيْنَهُمَا وَأَخَذَهَا مَرَّةً أُخْرَى. هَذَا عَلَى الْأَقْلِ سَتَفْهَمُهُ.

بَعْدَهَا فَرَعَ النَّبِيذَ وَكَذَا هُوَ، فَكَوَّرَ فُسْتَانَ الْفَتَاةِ فِي قَبْضَتِهِ وَأَلْقَاهُ نَحْوَ الْبَابِ،
وَفَهَمَتْ هِيَ الْمُرَادَ وَهَرَعَتْ تَخْرُجُ تَارِكَةً إِيَّاهُ فِي الظُّلْمَةِ يَغُوصُ فِي رِيَشِ
فِرَاشِهِ. إِنِّي سَكْرَانٌ حَنِ النَّخَاعِ. لَا يَجْرؤُ عَلَى إِغْلَاقِ عَيْنَيْهِ خَشْيَةً أَنْ يَغِيبَ
فِي النَّوْمِ. وَرَاءَ سِتَارِ الْأَحْلَامِ تَنْتَظِرُهُ (الْوِيلَاتِ)، سَلَالِمُ حَجْرِيَّةٍ تَرْتَفِعُ بِلَا
نَهَايَةٍ، عَالِيَةٌ زَلْفَةٌ خَدَاعَةٌ، وَفِي مَكَانٍ مَا عَلَى قَمَّتِهَا اللَّوْرْدُ الْمَكْفَنُ. لَا أُرِيدُ
أَنْ أَقَابِلَ اللَّوْرْدَ الْمَكْفَنَ. عَادَ تِيرْيُونُ يِرْتَدِي ثِيَابَهُ بِصَعُوبَةٍ وَتَحَسُّسٍ طَرِيقَهُ إِلَى
السَّلْمِ. سَيَسْلُخُنِي جَرِيفٌ. وَلَمْ لَا؟ إِنْ كَانَ هُنَاكَ قَرْمٌ يَسْتَحِقُّ السَّلْخَ فَهُوَ أَنَا.

في منتصف الطريق إلى أسفل اختلَّ توازنه، لكنه استطاعَ بشكل ما أن يُوقف سقطته بيديه وتحويلها إلى عجلة خرقاء في الهواء. رفعت العاهرات في الحُجرة السُّفلية أعينهن بدهشةٍ عندما حطَّ عند قدم السَّلام، وتدرج تيريون وهبَّ واقفاً وانحنى لهن، ثم قال للمالك: «إنني أرتق وأنا سكران. أخشى أنني أتلفتُ بساطك. لا لوم على الفتاة. دعني أدفع»، وأخرج حفنة من العُملات وألقاها للرجل.

وقال صوت عميق من ورائه: «أيها العفريت».

في رُكن الحُجرة يجلس رجل في بركةٍ من الظلال، تتلوَّى في حجره عاهرة. لم أر تلك الفتاة. لو رأيتها لأخذتها إلى أعلى بدلاً من ذات النمش. الفتاة أصغر من الأخريات، نحيلة مليحة ولها شعر فضي طويل، لايسينية في تقديره... لكن الرجل الذي تجلس في حجره من (الممالك السبع)، ضخم الجثة عريض المنكبين، في الأربعين من العمر على الأقل، وربما أكبر. نصف رأسه أصلع، لكن شعراً قصيراً خشناً يُغطِّي وجنتيه وذقنه، وينمو الشعر الكثيف على ذراعيه وينبت من مفاصل أصابعه.

لم يرق تيريون منظره، ولا راقه الدب الأسود الكبير على سُترته الطويلة. صوف، يرتدي الصوف في هذا الحرِّ. من غير الفُرسان بهذا الجنون المطبق؟ جعل نفسه يقول: «يسرني أن أسمع اللغة العامية على هذه المسافة البعيدة من الوطن، لكنني أخشى أنك مخطئ. اسمي هيو جور هيل. هل لي أن أدعوك إلى كوب من النبيذ يا صديقي؟».

قال الفارس: «شربتُ ما يكفي»، ودفع الفتاة جانباً ونهض. كان حزامه معلّقاً على مشجب إلى جواره، فتناوله وأستل سيفه ليهمس الفولاذ على الجلد. تفرّجت العاهرات بنهم وضوء الشموع يلمع في أعينهن، واختفى المالك بلا أثر. «أنت لي يا هيو جور».

لا يستطيع تيريون أن يفرّ منه أكثر من أن يتغلّب عليه في القتال، وبسكوره هذا لا أمل له في أن يحتال عليه بلسانه، وهكذا بسطَ يديه قائلاً: «وماذا تنوي أن تفعل بي؟».

أجاب الفارس: «سأخذك إلى الملكة».



دنيرس

وصلت جالازا جالار إلى (الهرم الأكبر) بصُحبتها دسته من ذوات النعم البيضاء، فتيات كريمات المحدث ما زلن أصغر من أن يخدمن في حدائق الهوى التابعة للمعبد. معًا كونَّ لوحةً جميلةً، العجوز الأنوف مَشَّحة بالأخضر ومحاطة بالصَّغيرات المدرَّعات ببراءتهن في فساتينهن وبراقهن البيضاء. استقبلتهن الملكة بدفء، ثم استدعت ميسانداي لتتولى الإشراف على إ طعام الفتيات والترفيه عنهن فيما تتناول هي العشاء على انفرادٍ مع ذات النعمة الخضراء.

أعدَّ لهما طهاتها وجبةً هنيئةً من لحم الحملان المسقى بالعلس وتفوح منه رائحة النعناع المسحوق العطرة، وقُدِّمَ الطَّبَق مع التَّين الأخضر الصَّغير الذي تحبُّه كثيرًا. قدِّم اثنان من رهائن داني المفضَّلين الطعام وحافظًا على امتلاء الأكواب، فتاة صغيرة واسعة العينين داكنتهما اسمها كِزا، وصبي نحيل اسمه جرازهار، أخ وأخت، ومن أولاد عمومة ذات النعمة الخضراء التي حيتَّهما بالقبلات لدى دخولها وسألتهما إن كانا يُحسنان الأدب.

طمأنتها داني قائلةً: «إنهما شديد اللطف. كِزا تُغني لي أحيانًا، وصوتها جميل. والسير باريستان يُدرِّب جرازهار والصَّبية الآخرين على أصول الفروسية الغربية».

قالت ذات النعمة الخضراء والفتاة تملأ كأسها بالنبيذ الأحمر القاني: «إنهما من دمي. يسعدني أن أعلم أنهما سرًّا صاحبة الرنوق. أمل أن أسركِ بدوري». شعر العجوز أبيض وبشرتها رقيقة كالورق، لكن السنين لم تخصم شيئًا من حدة بصرها. عيناها خضراوان كردائها، عيان حزينتان مليئتان

بالحكمة. «أرجو أن تُسامحيني على قولِي هذا، لكن صاحبة الرُّونق تبدو... متعبّة. هل تنامين؟».

منعت داني نفسها من الصّحك بصعوبة، وأجابّت: «ليس جيّدًا. ليلة البارحة رحلت ثلاثة قوادس كارثينيّة عبر (السكاهازاذان) تحت جناح الظّلام. أطلق رجال الأمّ وابلًا من السّهام النّاريّة على أشرعتها وألقوا جراثِمًا من القار المحترق على أسطحها، لكنها ابتعدت بسرعة ولم يلحق بها ضرر دائم. الكارثين يريدون إغلاق النّهر علينا كما أغلقوا الخليج، ولم يعودوا وحدهم. ثلاثة قوادس من (جيس الجديدة) انضمت إليهم، بالإضافة إلى قرقور من (تولوس)». أجاب التولوسيون طلبها التّحالف بإعلانها عاهرةً ومطالبتها برّد (ميرين) إلى أسيادها العظام، لكن حتى هذا كان أفضل من إجابة (مانتاريس)، التي أتتها في صندوقٍ من خشب الأرز عن طريق قافلة، وفي الصّندوق وجدت رؤوس مبعوثيها الثلاثة محفوظةً في محلولٍ ملحي. «قد تُعيننا آلهتك. سَلِيها أن تُرسل إعصارًا يكتسح القوادس من الخليج».

قالت جالازا جالار: «سأصلي وأقدّم القرابين، وعسى أن تسمعي آلهة (جيس)»، ورشفت من نبيذها لكن عينيها لم تبرح داني إذ أضافت: «العواصف نائرة داخل الأسوار علاوةً على خارجها. ليلة أمس مات مزيد من المعتقّين، أو أن هذا ما بلغني».

- «ثلاثة». مجرد القول خلف طعمًا مرًّا في فمها. «الجبناء اقتحموا بيت بعض النّساجات، نساء معتقات لم يمسن أحدًا بسوء. لم يفعلن شيئًا إلّا صناعة الأشياء الجميلة. عندي جداريّة معلقة فوق فراشي أهدينها إليّ. أبناء الهاريبي كسروا نولهن واغتصبوهن قبل أن ينحروهن».

- «هذا ما سمعناه. وعلى الرغم من ذلك وجدت صاحبة الرُّونق الشّجاعة للردّ على التّدبيح بالرّحمة، ولم تُؤذ أيًّا من رهائتها الأطفال النّبلاء».

- «نعم، ليس بعد». أصبحت داني مولعةً بعهدّها الصّغار. بعضهم خجول وبعضهم جريء، وبعضهم لطيف وبعضهم فاتر، لكنهم جميعًا أبرياء. قالت محاولةً تهوين الأمر: «إذا قتلت سُقاتي فمن سيصبّ نبيذِي ويُقدّم لي العشاء؟».

لم تبسّم الكاهنة، وقالت: «يُقال إن الرّأس الحليق يُؤثّر إطعامهم لتنانينك. نفس مقابل نفس. لقاء كلّ وحشٍ نُحاسي مقتول يُريد أن يموت طفل». دفعت داني طعامها في الطّبّق، لا تجرؤ على إلقاء نظرة في اتجاه جرازهار وكزّا مخافة أن تنفجر في البُكاء. قلب الرّأس الحليق أقسى من قلبي. لقد تشاجراً بشأن الرّهائن مرّاتٍ عدّة بالفعل، وصبيحة اليوم تحديداً قال سكاهاز: «أبناء الهاربي يضحكون في أهراماتهم. ما فائدة الرّهائن إذا كنت ترفضين قطع رؤوسهم؟». في نظره ليست داني إلا امرأةً مهیضة الجناح. هازيا تكفي. ما فائدة السّلام إن كان علينا شراؤه بدماء الأطفال؟ قالت لذات النّعمة الخضراء بوهن: «إنهم لم يرتكبوا جرائم القتل هذه. لست ملكةً جرّارة».

- «و(ميرين) ممتنةً لهذا. لقد سمعنا بموت ملك (أستاפור) الجزار».

قالت بمرارة: «قتله جنوده حين أمرهم بالخروج والهجوم على اليونكيين. لم تكن جسّته قد بردت بعد عندما أخذَ واحد آخر مكانه وسمّى نفسه كليون الثاني. هذا الثاني بقي ثمانية أيام قبل أن يُذبح، ثم طالب قاتله بالتّاج، وكذا محطية كليون الأول. يُسمّيهما الأستاوريون الملك سفّاح والملكة عاهرة. أتباعهما يتقاتلون في الشّوارع فيما ينتظر اليونكيون ومرتزفتهم خارج أسوار المدينة».

- «إنها أوقات عصيبة. هل لي أن أقدم لصاحبة الرّونق المشورة؟».
- «تعلمين كم أقدّرُ حكمتك».
- «أنصتي إليّ الآن إذن وتزوّجي».
- «آه». كانت داني تتوقّع هذا.

- «كثيراً سمعتك تقولين إنك مجرد فتاة صغيرة، ومنظرِك يُوحى بأنك ما زلت طفلةً، أصغر وأشدّ هشاشةً من أن تُواجهي هذه المِحَن وحدك. إنك محتاجة إلى ملكٍ إلى جوارِك يُشاركك حمل الأعباء».

غرست داني رأس سكينها في قطعةٍ من اللّحم وقصّمت منها ومضغت بيّطء، ثم قالت: «أخبريني، هل يستطيع هذا الملك أن يُعيد قوادس زارو إلى (كارث) بنفخةٍ من فمه؟ هل يستطيع أن يكسر حصار (أستاפור) بتصفيقه من يديه؟ هل يستطيع أن يضع الطّعام في بطون أطفالِي ويُعيد السّلام إلى شوارجي؟».

- «هل تستطيعين أنتِ؟ الملك ليس إلهاً، لكن الرَّجل القوي يقدر على تحقيق الكثير. عندما يَنْظُر قومي إليك يرون غازيةً أتت عبر البحار لقتلنا واستعباد أطفالنا. يستطيع الملك أن يُغيِّر هذا، ملك كريم الأصل من الدَّم الجيسكاري الخالص قادر على المؤالفة بين المدينة وحُكمك، وإلا فأخشى أن عهدك سينتهي كما بدأ، بالدم والنَّار». عادت داني تدفع الطَّعام في طبقها قائلةً: «ومن تُريدني آلهة (جيس) أن أتخذها ملكاً وزوجاً؟».

أجابت جالازا جالار بحسم: «هيزدار زو لوراك». لم تُحاول داني أن تتصنَّع الدهشة، وقالت: «لماذا هيزدار؟ سكاهاز نبيل المولد أيضاً».

- «سكاهاز من عائلة كانداك، هيزدار من عائلة لوراك. أستميحك عُذراً يا صاحبة الرُّونق، لكن ما لم تكوني جيسكاريةً عن نفسك فلن تفهمي الفرق. كثيراً سمعتُ أنك من دم إجون الفاتح وچهيرس الحكيم ودايرون التَّين. النَّبيل هيزدار من دم مازدهان البديع وهازراك الوسيم وزاراك المحرَّر».

- «أجداده موتى كأجدادي. هل سيستحضر هيزدار أشباحهم لتُدافع عن (ميرين) ضد أعدائي؟ إنني محتاجة إلى رجلٍ يملك السُّفن والسُّيوف، وأنتِ تعرضين عليَّ الأسلاف».

- «إننا شعب عريق، الأسلاف مهمون لنا. تزوّجي هيزدار زو لوراك وأنجبي منه ابناً، ابناً أبوه الهاربي وأمه التَّينة. فيه ستحقق النبوءات ويدوب أعداؤك كالثلج».

سيكون الجواد الذي يمتطي العالم. تعرف داني ماهية النبوءات. إنها كلام، والكلام هواء. لن يكون هناك ابن للوراك، لا وريث يقرن بين التَّينة والهاربي. عندما تُشرق الشَّمس من الغرب وتغرب في الشَّرْق، عندما تجفُّ البحور وتعصف الرِّيح بالجبال كأنها أوراق الشَّجر. عندها فقط ستحمل طفلاً في رحمها ثانية...

... لكن لدنيرس تارجارين أطفالاً آخرين، عشرات الألوف الذين هتفوا لها باعتبارها أمهم حين حطمت أغلالهم. فكَّرت في التُّرس المقدام، وفي شقيق ميسانداي، وفي المرأة رايلونا ري التي كان عزفها على القيثارة في

غاية العذوبة. لا زيجة سْتُعِيدهم إلى الحياة أبداً، لكن إذا كان زوجها هذا سَيُسَاعِدُها على وضع حدٍّ للمذابح فإنها مدينة لموتها بالزَّواج.

إذا تزوجتْ هيزدار فهل سينقلب عليّ سكاهاز؟ إنها تثق بسكاهاز أكثر من هيزدار، إلا أن الرَّأس الحليق سيكون كارثةً كملك. الرَّجل سريع الغضب بطيء الصَّفح، وليست ترى مكسباً في الزَّواج بأحدٍ يكرهه النَّاسُ مثلما يكرهونها. أمَّا هيزدار فعلى قدرٍ عالٍ من الاحترام على حدِّ علمها. سألت ذات النُّعمة الخضراء: «وما رأي زوجي المرتقب في هذا؟». ما رأيهِ في؟ - «ما على جلالتكِ إلا أن تسأليه. النَّبيل هيزدار منتظر بالأسفل. أرسلي في استدعائه إذا شئتِ».

فكرت الملكة: تتجرتين كثيراً أيتها الكاهنة، لكنها ابتلعت غضبها وجعلت نفسها تبتسم قائلةً: «ولمَ لا؟». ثم إنها استدعت السير بارستان وقالت للفارس العجوز أن يأتيها بهيزدار، وأضافت: «الطَّرِيق إلى أعلى طويل. اجعل المَطْهَرين يُسَاعِدونه».

عند وصول النَّبيل كانت ذات النُّعمة الخضراء قد فرغت من الأكل، وقالت: «أستاذُن في الانصراف إذا سمحت صاحبة السُّمو. لا شك أن عندك والنَّبيل هيزدار أشياء كثيرة تُناقشونها»، ثم مسحت العجوز لطحخة من العسل عن شفيتها، وقبّلت كلاً من كِزَا وجرازهار على الجبهة وثبتت بُرقعها الحريري على وجهها، وأضافت: «سأعودُ إلى (معبد ذوات النُّعم) وأدعو الآلهة أن تهدي مليكتي إلى سبيل الحكمة».

بعد رحيلها تركت داني كِزَا تملأ كأسها مجدداً، ثم صرفت الطِّفْلين وأمرت بإدخال هيزدار زو لوراكي إليها. وإذا تجاسرَ على ذكر كلمةٍ واحدةٍ أخرى عن حلباته الثَّمينة فقد أمرُ بالقائه من الشُّرفة.

يرتدي هيزدار ثوباً أخضر بسيطاً تحت سُترةٍ مبطنَّة، ولدى دخوله انحني لها بشدةٍ بوجهٍ جاد، فسألته داني: «لا ابتسامة لي؟ أنا مخيفة إلى هذا الحد؟». - «دائماً ألترُم الجدِّيَّة في حرم هذا الجَمال».

كانت بدايةً جيِّدةً. قالت داني: «اشرب معي»، وملأت كأسه بنفسها مردفةً: «تعرف سبب وجودك هنا. يبدو أن ذات النُّعمة الخضراء ترى أن مصائبك كلها ستختفي إذا اتخذتْكِ زوجاً».

- «لا يُمكنني أبداً أن أدَّعي شيئاً بتلك الجسامة. البَشَرُ يُوكَدون ليكدحوا ويُعانوا، ومصائبنا لا تختفي حقاً إلا بموتنا. لكنني أستطيعُ أن أساعدك. إن عندي الذهب والأصدقاء والنَّفوذ، ودماء (جيس القديمة) تجري في عروقي. مع أنني لم أتزوَّج قطُّ فلي طفلان طبيعياً، صبي وفنأة، أي أنني أقدرُ على منحكِ ورثه، وأقدرُ على التوفيق بين المدينة وحُكمكِ ووضع نهايةٍ للمقتلة اللَّيلىَّة في الشَّوارع».

تفرَّست داني في عينيه متسائلةً: «حقاً؟ ولمَّ يخفض أبناء الهاربي سكاكينهم من أجلك؟ أنت واحد منهم؟»
- «لا».

- «هل كنت لتُخبرني لو أنك كذلك؟»
ضحكٌ مكرَّراً: «لا».

- «الرَّأس الحليق له أساليبه في التَّوصُّل إلى الحقيقة».
- «في تلك الحالة لا أشكُّ في أن سكاهاز سرعان ما سيجعلني أعرُفُ. يوم معه وسأكونُ أحد أبناء الهاربي. يومان وسأكونُ الهاربي نفسها. ثلاثة وسيتضح أيضاً أنني قتلتُ أباك في (ممالك غروب الشَّمس) في صباي. ثم سيضعني على الخازوق ويُمكنك أن تُشاهديني أحتضرُ... لكن بعدها سيستمرُّ القتل»، ومال هيزدار دانياً منها، وأضاف: «أو يُمكنك أن تتزوَّجيني وتدعيني أحاولُ إيقافهم».

- «ولمَّ ترغب في مساعدتي؟ من أجل التَّاج؟»
- «التَّاج يليق بي، لن أنكر. لكن المسألة أكبر من هذا. أمن الغريب حقاً أن أريد أن أحمي قومي كما تحمين معتقك؟ (ميرين) لن تحتمل حرباً أخرى يا صاحبة الرُّونق».

وجدتها إجابةً جيِّدةً وصادقةً. «لم أُرِد الحرب قطُّ. لقد هزمتُ اليونكيين وعلفوتُ عن مدينتهم حين كان بإمكانني أن أنهبها، ورفضتُ أن أنضمَّ إلى الملك كليون حين تحرَّك ضدهم، وحتى الآن ممتنعة عن قتالهم على الرغم من الحصار المفروض على (أستاپور). و(كارت)... لم ألجأ بالكارثين ضرراً على الإطلاق...».

- «ليس عمداً، لكن (كارت) مدينة تُجار، والتُّجار يعشقون رنين الفضة

وبريق الذهب. عندما حطمت تجارة الرقيق أحسن الجميع بوقع الضربة من (وستروس) إلى (أشاي). (كارث) تعتمد على عبيدها، وكذا (تولوس) و(جيس الجديدة) و(ليس) و(تايروش) و(فولانتيس)... القائمة طويلة يا مليكتي». - «فليأتوا. سيجدونني غريمًا أصلب من كليون. إنني أوثر الموت وأنا أقاتل على إعادة أطفالي إلى العبودية».

- «قد يكون هناك خيار آخر. في اعتقادي، من الممكن إقناع اليونكيين بالسماح لمعتقك جميعًا بالبقاء أحرارًا، إذا وافقت صاحبة العبادة على ترك المدينة الصفراء تتاجر في العبيد وتُدربهم دون تدخل من الآن فصاعدًا. لا داعي لسفك المزيد من الدماء».

علقت داني: «باستثناء دماء العبيد الذين سيتاجر بهم اليونكيون ويُدرّبونهم»، لكنها أدركت الحقيقة في كلامه رغم هذا. قد تكون هذه أفضل نهاية نأملها. «لم تقل إنك تحبني».

- «سأفعل إذا شاءت صاحبة العبادة».

- «ليست هذه إجابة رجل يحب».

- «وما الحب؟ الرغبة؟ لا رجل بكامل أعضائه يراك ولا يرغب فيك يا دنيرس، لكن ليس لهذا السبب أريد أن أتزوجك. قبل مجيئك كانت (ميرين) تُحتصر. كان حكامنا شيوخًا هرمين بذكور ذابلة وعجائز حيزونات بفروج جافة متغضنة، وكانوا يجلسون على قمم أهرامهم يشربون نبيذ المشمش ويتكلمون عن أمجاد الإمبراطورية القديمة، حتى مرّت عليهم القرون وتهاقت القرמיד الذي شيدت به المدينة من حولهم. كانت التقاليد والحيطة تُطبق علينا بقضية من حديد إلى أن جئت وأيقظتنا بالدم والنار. لقد بدأ عصر جديد، والآن ثمة أشياء جديدة ممكنة. تزوجيني».

فكرت داني: ليس منفر الطلعة، ويتكلم بلسان ملك، ثم إنها أمرته قائلة: «قبلي»، فأمسك يدها وقبل أصابعها، لكنها قالت: «ليس هكذا. قبلي كما لو أنني زوجتك».

أمسكها هيزدار من كتفها بمنتهى الرقة كأنها طائر صغير، ثم مال إلى الأمام وضغط شفتيه على شفتيها. كانت قبلته خفيفة وجافة وسريعة، ولم تشعر داني بتأثر.

بعدها سألتها: «هل... أقبلك ثانية؟».

- «لا». في شرفها، في بركة الاستحمام، تُعَضِّضُ الأَسْمَاكَ الصَّغِيرَةَ ساقِيها وهي غائصة في الماء، وحتى تلك الأَسْمَاكُ تُقَبِّلُ بحرارةٍ أشد من هيزدار زو لوراك. «لستُ أحبُّك».

هزَّ هيزدار كتفيه قائلاً: «قد يأتي ذلك مع الوقت. معلوم أن هذا يحدث». ليس لنا، ليس وداريو قريب. إنني أريده هو لا أنت. «يوماً ما سأريدُ أن أرجع إلى (وستروس) لأستردَّ (الممالك السَّبْع) التي كانت لأبي».

- «يوماً ما سنموت جميعاً، لكن لا جدوى من التَّفكير في الموت. إنني أفضِّلُ الحياة يوماً بيوم».

شبكت داني يديها قائلة: «الكلام هواء، حتى الكلام عن الحُبِّ والسَّلام. إنني أضعُ مزيداً من الثِّقة بالأفعال. في ممالكي السَّبْع يذهب الفُرسان في مُغامراتٍ ليُثَبِّتوا جدارتهم بالفتاة التي يحبونها، يبحثون عن السُّيوف السَّحرية أو صناديق الذهب أو تاج مسروق من كنز تينين».

قوَس هيزدار حاجبه، وقال: «التنانين الوحيدة التي أعرفها تنانينك، والسُّيوف السَّحرية أندر. سيسرُّني أن آتيك بالخواتم والتَّيجان وصناديق الذهب إذا كانت هذه رغبتك».

- «السَّلام رغبتني. تقول إنك تستطيع مساعدتي على إنهاء المقتلة الليلية في شوارعي، وأقولُ أفعَل هذا. ضَعُ نهايةً لحرب الظُّلال يا سيدي. هذه هي مُغامرتك. أعطني تسعين يوماً وتسعين ليلةً بلا جرائم قتلٍ وسأعلمُ أنك جدير بالعرش. هل يُمكنك أن تفعل هذا؟».

لأخ التَّفكير على هيزدار، وقال: «تسعون يوماً وتسعون ليلةً بلا جُثث، وفي اليوم الحادي والتَّسعين نتزوِّج؟».

أجابت داني بنظرة استحياء: «ربما، ولو أن الفتيات الصَّغيرات معروفات بتقلُّهن. قد أرغبُ في ذلك السَّيف السَّحري رغم كلِّ شيء».

ضحك هيزدار، وقال: «إذن فستنالينه أيضاً يا صاحبة الرُّوتق. أمانيك أمري. الأفضل أن تُخبري قهرمانك بالشُّروع في ترتيبات الزَّفاف».

- «لا شيء سيسرُّ النَّبيل رزناك أكثر». إذا عرفت (ميرين) أن في المستقبل القريب زفافاً فقد يمنحها هذا وحده بضع ليالٍ من الرَّاحة، حتى

إذا راحت جهود هيزدار عبثًا. لن يسعد هذا الرأس الحليق، لكن رزنالك مو رزنالك سيرفص فرحًا. لا تدري داني أيهما يقلقها أكثر. إنها في حاجةٍ إلى سكاهاز والوحوش النحاس، كما أنها صارت ترتاب في نصائح رزنالك كلها. احذري القهرمان العاطر. هل تواطأ رزنالك مع هيزدار وذات النعمة الخضراء واستدرجوني إلى شرك؟

لم يكده هيزدار زو لوراكي ينصرف حتى ظهر السير بارستان وراءها في معطفه الناصع الطويل. علمت سنوات الخدمة في الحرس الملكي الفارس الأبيض أن يتوارى عن الأظفار في وجود ضيوفها، لكنه لا يتعد أبدًا. رأت في الحال أنه يعرف. ويستنكر. كانت الخطوط حول فم الرجل قد ازدادت عمقًا. سألته: «بيدو إذن أنني قد أتزوج ثانية. أنت سعيد من أجلي أيها الفارس؟».

- «إذا كان هذا أمرًا يا صاحبة الجلالة».

- «ليس هيزدار الزوج الذي كنت لتختاره لي».

- «ليس لي أن أختار زوجك».

- «صحيح، لكن يهمني أن تفهم. قومي ينزفون، يموتون. الملكة ليست ملك نفسها وإنما ملك البلاد. الزواج أو الفوضى، هذان خياراي، الزفاف أو الحرب».

- «جلالة الملكة، هل تسمحين بأن أتكلّم بصراحة؟».

- «دومًا».

- «هناك اختيار ثالث».

- «(وستروس)؟».

أومًا برأسه إيجابًا، وقال: «إنني مقسم على خدمة جلالتيك وحماتك من الأذى أينما ذهبت، ومكاني إلى جانبك سواء أكنت هنا أم في (كينجز لاندنج)... لكن مكانك في (وستروس) على العرش الحديدي الذي كان لأبيك. (الممالك السبع) لن تقبل هيزدار زو لوراكي ملكًا أبدًا».

- «مثلما لن تقبل (ميرين) دنيرس تارجارين ملكةً أبدًا. ذات النعمة الخضراء محقة. إنني محتاجة إلى ملكٍ إلى جواراي، ملكٍ من الدّم الجيسكاري القديم، وإلا فسيروني دومًا البربرية المتوحشة التي حطمت بواباتهم وعلقتهم على الخوازيق وسرقت ثروتهم».

- «في (وستروس) ستكونين الطفلة المفقودة التي عادت لتشرح قلب أبيها. سيَهْلل قومك حين تمرين بهم ويحبك كل الصالحين». - «(وستروس) بعيدة».

- «ومكوئك هنا لن يُقربها أبدًا. كلما أسرعنا بالرحيل من هذا المكان...». - «أعلمُ هذا، أعلمه حقًا». لا تدري داني كيف تجعله يرى. إنها تُريد (وستروس) كما يُريدها، لكن عليها أولاً أن تُبرئ جراح (ميرين). «تسعون يوماً مُدَّةً طويلة. قد يفشل هيزدار، وإذا فشل فالمحاولة في حد ذاتها تُكسبني وقتًا، وقتًا لعقد التَّحالفات وتقوية دفاعاتي...».

- «وإذا لم يفشل؟ ماذا ستفعل صاحبة الجلالة وقتها؟». - «ستؤدِّي واجبها». أحسَّت بالكلمة باردةً على لسانها. «أنت شهدت زواج أخي ريجار. أخبرني، هل تزوج بدافع الحب أم الواجب؟». - «تردَّد الفارس العجوز لحظةً، ثم قال: «الأميرة إلیا كانت امرأةً صالحةً يا جلالة الملكة، كانت عطوفًا ذكيَّة، طيبة القلب حاضرة الدُّعابة. أعرفُ أن الأمير كان مولعًا بها جدًّا».

مولعًا. قالت الكلمة كلَّ شيءٍ بوضوح. قد أصبحُ مولعًا بهيزدار زو لوراكي مع الوقت.

تابع السير باريستان: «وشهدتُ زواج أبيك وأمك أيضًا. سامحيني، لكنه كان خاليًا من الولع، وقد دفعت البلاد ثمن هذا غاليًا يا مليكتي». - «لماذا تزوجا إن لم يكونا متحابين؟».

- «لأن جدك أمرهما، بعد أن أخبرته عرَّافة غابات بأن الأمير الموعود سيؤلِّد من نسلهما».

مندهشةً ردَّدت داني: «عرَّافة غابات؟».

- «جاءت البلاط مع چيني بنت (الحجر العتيق). كانت مخلوقةً ناقصة النمو، منظرها في غاية الغرابة. قال أكثر النَّاس إنها قرمة، لكنها كانت عزيزةً على الليدي چيني، التي زعمت دومًا أن المرأة من أطفال الغابة». - «وماذا حدث لها؟».

- «قلعة الصَّيف». الكلمة المترعة بالويل. - «تنهدت داني، وقالت: «أتركني الآن. إنني متعبة للغاية».

قال السير باريستان: «كما تأمرين»، وانحنى ودار مغادرًا، لكنه توقف عند الباب قائلاً: «سامحيني. هناك ضيف لجلالتك. هل أخبره بأن يعود غدًا؟».

- «من؟».

- «نهاريس. غربان العاصفة عادوا إلى المدينة».

داريو. اختلج قلبها في صدرها، وقالت: «منذ متى وهو... متى...».

وجدت نفسها لا تقدر على لفظ الكلمات.

لكن السير باريستان فهم وأجابها: «جلالتك كنت مع الكاهنة عندما وصل، وكنت أعرف أنك لا تريدين إزعاجًا. يُمكن لأخبار القائد أن تنتظر حتى الغد».

- «لا». كيف يأتيني النوم وأنا أعرف أن قائدي بهذا القرب؟ «أرسله في الحال، و... لن أحتاج إليك ثانية هذا المساء. سأكون آمنة مع داريو. أوه، وأرسل إيربي وچيكوي إذا سمحت، وميسانداي». يجب أن أبدل ثيابي، أن أتجمل.

قالت لوصيفاتها ما معناه هذا حين جئن، فسألته ميسانداي: «ما الذي ترغب جلالة الملكة في ارتدائه؟».

نور النجوم ورجوة البحر، غلالة من الحرير تكشف ثديي الأيسر ليمتد داريو بمنظره. أه، وزهورًا في شعري. في بداية لقاءهما قطف لها القائد الأزهار كل يوم طوال الطريق من (يونكاي) إلى (ميرين). «أحضري الفستان الكتان الرمادي ذا الصدر المزين باللؤلؤ. أوه، وفروة الأسد البيضاء». دائمًا تشعر بأمان أكثر وهي ملتحفة بفروة أسد دروجو.

استقبلت دنيرس القائد في شرفتها جالسة على دكة من الحجر المنقوش تحت شجرة إجاص، وقد طفا في السماء فوق المدينة هلال تُصاحبه ألف نجمة. دخل داريو نهاريس متبخرًا. يتبخر حتى في ثباته. يرتدي القائد بنطالًا مخططًا مدسوسًا في حذاء طويل الرقبة من الجلد الأرجواني، وقميصًا من الحرير الأبيض، وصدرة من الحلقات الذهبية. لحيته ثلاثية الشعب أرجوانية، وشاربه ذهبي زاه، وخصلاته الطويلة تجمع بين اللونين بالتساوي، وعلى أحد وركيه يستقر خنجر رفيع وعلى الثاني أراخ دوثراكي. خاطبها قائلاً: «أيتها الملكة المشرقة، ازددت حسنًا في غيابي. كيف يُمكن هذا؟».

تعوّدت الملكة هذا الإطراء، لكن حين تصدّر المجاملة من داريو فإن لها بشكل ما معنى أكثر من مجيئها من أمثال زرنك أو زارو أو هيزدار. «أيها القائد، بلعنا أنك أحسنت خدمتنا في (لازار)». افتقدتك كثيراً.

- «قائدك يعيش ليخدم ملكته القاسية».

- «قاسية؟».

أجاب وضوء القمر يلتمع في عينيه: «لقد انطلق يسبق رجاله ليُعجّل برؤية وجهها، فقط لتتركه جالساً فيما تأكل لحم الحملان والتين مع عجوزٍ متهاكة».

لم يُخبروني بوجودك هنا. لو فعلوا لتحامقتُ وأرسلتُ أستدعيك في الحال. «كنتُ أتناول العشاء مع ذات النعمة الخضراء». خطر لها أن من الأفضل ألا تذكُر هيزدار. «كنتُ في حاجةٍ ملحةٍ إلى نصائحها الحكيمة».

- «عندي حاجة ملحةٍ واحدة هي دنيرس».

- «هل أطلبُ لك طعاماً؟ مؤكّد أنك جائع».

- «لم أكل منذ يومين، ولكن الآن وقد أصبحتُ هنا فيكفيني أن ألتهم وليمةً من جمالك».

ردّت: «جمالي لن يملأ بطنك»، وقطفت ثمرة كمثرى وألقتهإ إليه مضيئةً: «كل هذه».

قال: «أمر مليكتي»، وأخذ قضمَةً من الثمرة وسنه الذهبيّة تلمع، وسأل العصير في لحبته الأرجوانيّة.

تريد الفتاة في داخلها أن تُقبّله لدرجةٍ تُؤلم. قالت لنفسها: قد تكون قبّلاته قاسيةً خشنَةً، ولن يبالي إذا صرخت أو أمرته بالتوقّف. لكن الملكة في داخلها تعرف أن تلك رعونة. «حدّثني عن رحلتك».

هزّ كتفيه بلا مبالاةٍ قائلاً: «اليونكيون أرسلوا سيوفاً ماجورةً لإغلاق (ممر كايزاي). يُسمون أنفسهم الرّماح الطويلة. داهمناهم ليلاً وأرسلنا بعضهم إلى الجحيم. في (لازار) قتلت اثنين من رقبائي لتأمرهما على سرقة الجواهر والأطباق الذهب التي عهدت إليّ بها مليكتي كهديةٍ لشعب الحملان. باستثناء هذا مضى كل شيء كما وعدت».

- «كم رجلاً خسرت في القتال؟».

- «تسعة، لكن دستة من رجال الرِّماح الطَّويلة قرَّروا أنهم يُؤثِّرون أن يكونوا من غِربان العاصفة على أن يكونوا جُثًّا، وهكذا تقدَّمنا بثلاثة. قلت لهم إنهم سيعيشون أطول بالقتال مع تنانينك لا ضدها، ورأوا ما في كلامي من حكمة».

جعلها هذا تقول بتحفظ: «ربما يتجسَّسون لحساب (يونكاي)».

- «إنهم أغبي من أن يكونوا جواسيس. أنت لا تعرفينهم».

- «ولا أنت. هل تثق بهم؟».

أجاب: «أثقُ برجالِي جميعاً... بقدر ما يُمكن أن تصل بصقتي»، وقرن القول بالفعل وبصق بذرة في يده، ثم ابتسم للريبة اللَّائحة على قسماتها، وأردف: «هل آتيك برؤوسهم؟ سأفعل إذا أمرت. أحدهم أصلع واثنان لهما ضفائر وأحدهم يصبغ لحيته بأربعة ألوان مختلفة. دعيني أسألك، ما الجاسوس الذي يفعل هذا بلحيته؟ النبال يستطيع أن يصيب بعوضة بحجر في عينها من بعد أربعين خطوة، والقيح موهوب في التَّعامل مع الخيول، لكن إذا قلت مليكتي أن يموتوا...».

- «لم أقل ذلك. قصدت فقط... احرص على وضع عين عليهم، هذا كل شيء». أحسَّت بالحمق لقولها. دائماً تحسُّ بشيء من الحمق عندما تكون مع داريو. بلهاء وبطيئة البديهة وتصرفاتي بنائية. ماذا يقول عني؟ غيرت الموضوع قائلة: «هل سيريسل إلينا شعب الحملان الطَّعام؟».

- «ستصل الغلال بالزُّوارق عبر (السكاهازاذان) يا مليكتي، والبضائع

الأخرى عن طريق القوافل عبر (ممر كايزاي)».

- «ليس (السكاهازاذان). لقد أغلقوا النَّهر علينا، والبحر أيضاً. لا شك أنك رأيت السُّفن في الخليج. الكارثين طردوا ثلث أسطول الصَّيد واستولوا على الثلث الثاني، والآخرون خائفون من الخروج من الميناء. التَّجارة السَّحيحة التي تبقت لنا انقطعت».

ألقي داريو لُبَّ حبة الكُمَّثرى قائلاً: «الكارثين في عروقهم لبن لا دماء.

دعهم يرون تنانينك وسيؤلُّون الأدبار».

لا تُريد داني أن تتكلَّم عن التَّنانين. ما زال المزارعون يأتون بلاطها بالعظام المحروقة مشتكين من الأغنام المفقودة، مع أن دروجون لم يرجع

إلى المدينة، وإن أبلغها بعضهم بمشاهدته شمال النهر فوق كلاً (بحر الدوثرافي). وفي الجبِّ بالأسفل كسرَ فُسيريون إحدى سلسله، وكلَّ يوم يزداد هو وريجال ضراوة. في مرّةٍ أخبرها مُطهروها بأن الباب الحديد توهج بحرارةٍ لافحة ولم يجرؤ أحد على لمسه ليومٍ بأكمله. «أستاپور) محاصرة أيضاً».

- «هذا أعرفه. أحد الرّماح الطويلة عاش بما يكفي لإخبارنا بأن النّاس يأكلون بعضهم بعضاً في المدينة الحمراء. قال إن دور (ميرين) سيأتي قريباً، فقطعتُ لسانه وأطعمته لكلبٍ أصفر. لا كلب يأكل السنّة الكاذبين، فلما أكل الكلب الأصفر لسانه عرفتُ أنه قال الحقيقة».

- «داخل المدينة أيضاً حرب». حكّت له عن أبناء الهاربي والوحوش النّحاس، وعن الدّماء على القرميد. «أعدائي محيطون بي، داخل المدينة وخارجها».

قال من فوره: «هاجمي. المحاصر بالأعداء لا يستطيع الدّفاع عن نفسه. حاولي وستُصيبك الفأس في ظهرِك فيما تُبارزين بسيفِك. لا، عندما يُواجهك كل هؤلاء الأعداء فاختراري أضعفهم واقتليه وادعسيه واهربي».

- «أهربُ إلى أين؟».

- «إلى فراشي، إلى ذراعي، إلى قلبي». مقبضاً خنجر وأراخ داريو مطرّقان على شكل امرأتين ذهبيّتين عاريتين شقيّتين، وقد داعبهما بإبهاميه بطريقةٍ في غاية البذاءة وابتسم لها بخبث.

أحسّت داني بالدم يتدفّق إلى وجهها. كأنه يُمسّدها هي بحركته هذه. هل سيحسني شبقةً أيضاً إذا سحبتّه إلى السّرير؟ يجعلها تُريد أن تكون امرأته الشبقية. لا يجدرُ بي أن أراه وحدي أبداً. إنه أخطر من أن يبقى إلى جانبي. قالت مبلّبةً: «ذات النعمة الخضراء تقول إن عليّ أن أتخذ لنفسني ملكاً جيسكارياً، وتحثني على الزّواج بالنّيبيل هيزدار زو لوراك».

قهقهة داريو قائلاً: «هو؟ ولم ليس الدّودة الرّمادي إذا كنتِ تُريدين خصياً في فراشِك؟ هل تُريدين ملكاً؟».

أريدك أنت. «أريدُ السّلام. لقد أمهلتُ هيزدار تسعين يوماً لوضع حدّ للقتل، وإذا فعل فسأتزوّجه».

- «تزوَّجيني أنا. سأفعلها في تسعة أيام».

كادَتْ تقول: تعلم أنني لا أستطيعُ.

واصلَ داريو: «إنك تُقاتلين ظللاً في حين أن عليك أن تُقاتلي من يُلقونها. اقتُلهم وخذني كنوزهم، هذا رأيي. اهمسي بالأمر وسيصنع لك رجلك داريو من رؤوسهم كومةً أعلى من هذا الهرم».

- «لو أنني أعلمُ من هُم...».

- «زاك وپال وميريك، هُم والآخرون كلُّهم، الأسياد العظام. مَنْ

غيرهم؟».

جريءٌ مثلما يحبُّ سفح الدِّماء. «ليس عندنا دليل على أن هذا عملهم.

هل تُريدني أن أذبح رعاياي؟».

- «رعاياك يودُّون ذبحك».

أمضى داريو وقتاً طويلاً بعيداً حتى إن داني نسيت حقيقته، لكنها ذكَّرت نفسها بأن المرتزقة ختارون بطبيعتهم. متقلَّبون غادرون غاشمون. لن يكون أكثر مما هو أبداً، لن يكون من معدن الملوك. شرحت له قائلةً: «الأهرام قويَّة، لا يُمكننا الاستيلاء عليها إلا بتكلفة باهظة. ما إن نُهاجم أحدها ستثور البقية علينا».

- «أخر جيهم من أهرامهم بحُجَّة ما إذن، زفاف مثلاً. ولمَ لا؟ عدي هيزدار

بيدك وسيأتي جميع الأسياد العظام ليشهدوا زواجكما، وحين يجتمعون في

(معبد ذوات النعم) أطلقينا عليهم».

فكَّرت داني مصدومةً: إنه وحش، وحش شجاع لكنه وحش. «هل

تحسبني الملك الجزَّار؟».

- «أن تكوني جزَّاراً خيراً من أن تكوني اللحم. كلُّ الملوك جزَّارون، فهل

تختلف الملكات؟».

- «هذه الملكة مختلفة».

هزَّ داريو كتفيه، وقال: «أكثر الملكات لا غاية لهن إلا تدفئة فراش ملكٍ

ما وإنجاب الأبناء له. إذا كان هذا هو نوع الملكة الذي تُريدن أن تكونيها

فالأفضل لك أن تتزوَّجي هيزدار».

اتقدت غضبتها، وقالت: «هل نسيت مَنْ أنا؟».

- «لا. هل نسيت أنت؟».

كان فسيرس ليقطع رأسه لهذه الإهانة. قالت داني: «أنا دم التنين. إياك أن تتجرأ وتُحاول تلقيني الدُّروس»، ونهضت لتنزلق فروة الأسد من على كتفيها وتَسْقُطُ أرضاً، وأضافت: «اتركني».

انحنى لها داريو بشدة قائلاً: «أعيش لأخدم». حين رحل استدعت دنيرس السير بارستان، وقالت له: «أريدُ أن يعود غربان العاصفة إلى الميدان».

- «جلالة الملكة؟ لقد عادوا لتوهم...».

- «أريدهم أن يرحلوا! دعهم يستطلعون ظهير الأراضي اليونانية ويحمون القوافل القادمة على (ممر كايزاي). من الآن فصاعداً سيقدّم داريو تقاريره إليك. عامله بالاحترام الذي يليق به واحرص على أن ينال رجاله أجورهم، لكن لا تُدخِله إلى حضرتي تحت أيِّ ظرف».

- «كما تقولين يا جلالة الملكة».

ليلتها جافاها النوم وراحت تتقلّب وتتململ في فراشها، بل وتمادت مستدعيةً إيري على أمل أن تقودها لمساتها إلى طريق الرّاحة، لكنها أبعدت الفتاة الدوثرائية عنها بعد قليل. إيري جميلة وناعمة وراغبة، لكنها ليست داريو.

متكوّرة على نفسها في فراشها الخالي ساءلت نفسها: ماذا فعلت؟ انتظرتُ عودته طويلاً جداً ثم صرفته. همست: «يُريد أن يجعلني وحشاً، ملكةً جزّارة»، لكنها فكّرت لحظتها في دروجون الغائب بعيداً وفي أخويه في الجُبِّ. على يديّ دماء أيضاً، وعلى قلبي. لا فرق كبيراً بيني وبين داريو، فكلانا وحش.



اللورد الضال

طفق جريف يذرع سطح (العذراء الخجول) جيئةً وذهابًا قائلاً لنفسه: لم يكن يُفترَض أن يستغرق كل هذا الوقت. هل فقدوا هالدون كما فقدوا تيريون لانستر؟ هل يُمكن أن الفولانتينيين قبضوا عليه؟ كان عليّ أن أرسل حقل البط معه. هالدون وحده ليس جديرًا بالثقة، وهو ما أثبتته في (سلهوريس) حين ترك القزم يهرُب.

كان القارب راسياً في أحد القطاعات الوضيعة على ضفة النهر الفوضوية الطويلة، بين قارب آخر مائل على جانبه لم يُبارح الرّصيف منذ أعوام ومركب ممثلين مطلبي بالألوان الفاقعة. الممثلون فئة صاحبة مفعمة بالنشاط، دائماً يُكلّم بعضهم بعضاً باقتباساتٍ من الخطب العصماء ويسكرون أكثر الوقت. النهار حارٌّ لزج ككلّ الأنهر منذ خرجوا من (الويلات)، وقد راحت الشمس الجنوبية القائظة تضرب رؤوس المتزاحمين على جانب النهر في (فولون ثيريس)، لكن الحرارة آخر هموم جريف وأدناها. الجماعة الذهبية مخيمة على بُعد ثلاثة أميال جنوب البلدة، أي شمال البقعة التي توقّعتها فيها بمسافةٍ طويلة، والقنصل مالاكو أتى شمالاً بخمسة آلاف من المُشاة وألفٍ من الخيالة ليقطع عليهم طريق الدلتا، ودنيرس تارجارين ما زالت تبعد عنهم عالمًا، وتيريون لانستر... قد يكون في أيّ مكان. إذا شاءت الآلهة فرأس لانستر المقطوع في منتصف الطريق إلى (كينجز لاندنج) الآن، لكن الأرجح أن القزم صحيح معافي وفي مكانٍ ما قريب، سكران حتى الثمالة ويُخطّط لمخزاةٍ جديدة.

سأل جريف الليدي ليمور متذمّرًا: «أين هالدون بحق الجحائم السبع؟ كم يُمكن أن يستغرق شراء ثلاثة أحصنة؟».

هَزَّتْ كَتْفَيْهَا إِجَابَةً، وَتَسَاءَلَتْ: «سَيِّدِي، أَلَيْسَ أَسْلَمَ أَنْ تَتْرُكَ الْفَتَى هُنَا عَلَى مَتْنِ الْقَارِبِ؟».

- «أَسْلَمَ، نَعَمْ. أَكْثَرَ حِكْمَةً، لَا. إِنَّهُ رَجُلٌ بَالِغُ الْآنِ، وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي وُجِدَ لَيْسَلُكِهِ». لَا صَبْرَ لَجْرِيفٍ عَلَى هَذِهِ الْمَرَاوِغَاتِ. لَقَدْ سَمَّ الْإِخْتِبَاءَ، سَمَّ الْإِنْتِظَارَ، سَمَّ الْحَذَرَ. لَيْسَ لَدَيَّ وَقْتُ يَكْفِي لِلْحَذَرِ.

قَالَتْ لِيَمُورٍ مَذْكُورَةً: «لَقَدْ جَسَمْنَا أَنْفُسَنَا الْكَثِيرَ لِنَبِيِّ الْأَمِيرِ إِجُونِ مَخْفِيًّا سَنِينًا طَوِيلَةً. أَعْرِفُ أَنَّ الْوَقْتَ سَيَحِينُ وَيَغْسَلُ شَعْرَهُ وَيُعلنُ هُوَيْتَهُ، وَلَكِنْ لَيْسَ الْآنَ، لَيْسَ فِي مَعْسَكِرٍ لِلْمَرْتَزِقَةِ».

- «إِذَا كَانَ هَارِي سْتَرِيكْلَانْدُ يَنْوِي أذْيْتَهُ فَلَنْ يَحْمِيهِ إِخْفَاؤُهُ عَلَى مَتْنِ (الْعُذْرَاءِ الْخَجُولِ). سْتَرِيكْلَانْدُ لَدَيْهِ عَشْرَةُ آلَافٍ مَقَاتِلٍ تَحْتَ إِمْرَتِهِ، وَنَحْنُ لَدَيْنَا الْبَطَّةُ. إِجُونُ تَجَسَّدَ لِكُلِّ مَا يُرِيدُهُ الْمَرْءُ فِي أَمِيرٍ، وَيَجِبُ أَنْ يَرَوْا هَذَا، سْتَرِيكْلَانْدُ وَالْآخَرُونَ. إِنَّهُمْ رَجَالُهُ».

- «رَجَالُهُ لِأَنَّ هُنَاكَ مِنْ اشْتَرَاهُمْ وَدَفَعَ ثَمَنَهُمْ، عَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ الْعُرْبَاءِ عِلَاوَةً عَلَى الْمُتَطَقِّلِينَ وَأَتْبَاعِ الْمَعْسَكِرَاتِ. لَا يَحْتَاجُ دِمَارَنَا جَمِيعًا إِلَّا إِلَى وَاحِدٍ فَقَطْ. إِذَا كَانَ رَأْسُ هِيَوْجُورِ يُسَاوِي لُورْدِيَّةَ بُرْمَتِهَا، فَكَمْ سَتُدْفَعُ سِرْسِي لَانْسْتِرِ لِقَاءِ وَرِيثِ الْعَرْشِ الْحَدِيدِيِّ الشَّرْعِيِّ؟ أَنْتِ لَا تَعْرِفُ هُوَ لَا الرَّجَالَ يَا سَيِّدِي. لَقَدْ مَرَّتْ أَعْوَامٌ مِنْذُ رَكَبْتِ مَعَ الْجَمَاعَةِ الذَّهَبِيَّةِ، وَصَدِيقُكَ الْقَدِيمُ مَاتَ».

الْقَلْبُ الْأَسْوَدُ. كَانَ مَائِلِزُ تَوِينٌ مَفْعَمًا بِالْحَيَاةِ عِنْدَمَا تَرَكَهَ جَرِيفٌ آخَرَ مَرَّةً، وَيَصْعَبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقْبَلَ رَحِيلَهُ. جَمْعَةُ ذَهَبِيَّةٌ عَلَى سَارِيَّةٍ، وَهَارِي سْتَرِيكْلَانْدُ الشَّرِيدُ فِي مَكَانِهِ. يَعْرِفُ أَنَّ لِيَمُورٍ لَيْسَتْ مَخْطِئَةً. أَيًّا مَا كَانَ أَبَاؤُهُمْ وَأَجْدَادُهُمْ فِي (وَسْتَرُوسِ) قَبْلَ نَفِيهِمْ فَرَجَالَ الْجَمَاعَةِ الذَّهَبِيَّةِ مَرْتَزِقَةُ الْآنِ، وَالْمَرْتَزِقَةُ لَيْسُوا أَهْلًا لِلثِّقَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ...

لَيْلَةُ الْبَارِحَةِ حَلَمَ بِ(السَّيِّتِ الْحَجْرِيِّ) مِنْ جَدِيدٍ. وَحْدَهُ، بِسَيْفٍ فِي يَدِهِ، هَرَعَ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ مُحَطَّمًا الْأَبْوَابَ وَمَنْدَفَعًا عَلَى السَّلَالِمِ وَقَافِرًا مِنْ سَطْحٍ إِلَى سَطْحٍ فِيمَا يَتَرَدَّدُ رَيْنِ الْأَجْرَاسِ الْبَعِيدَةِ فِي أُذُنِيهِ، يُدَوِّي فِي جَمْعِمَتِهِ الْهَدِيرِ الْبَرُونِزِيِّ الْعَمِيقِ وَالْجَلْجَلَةَ الْفَضِّيَّةَ، مَزِيحٌ نَشَازٌ يُثِيرُ الْجُنُونَ مِنْ الصُّوْضَاءِ ظَلٌّ يَتَفَاقَمُ حَتَّى أَحَسَّ كَأَنَّ رَأْسَهُ سَيَنْفَجِرُ.

سبعة عشر عامًا مرّت منذ معركة الأجراس، لكن رنينها لا يزال يقلب معدته متى سمعه. قد يزعم بعضهم أن البلاد ضاعت عندما سقط الأمير ريجار بمطرقة روبرت الحربية على ضفاف (الثالوث)، لكن معركة (الثالوث) ما كانت لتنشب لو أن الجريفيين قتل الوعل في (السبت الحجري). يومها دقت الأجراس لنا جميعًا، لإيرس وملكنه، لإليا الدورنية وبنتها الصغيرة، لكل رجل مخلص وامرأة شريفة في (الممالك السبع)... ولأميري الفضي.

قالت ليمور: «كانت الخطة ألاً تكشف حقيقة الأمير إجون قبل أن نبلغ الملكة دنيرس».

- «كان ذلك عندما اعتدنا أن الفتاة ستأتي غربًا، لكن ملكة التنانين أحرقت تلك الخطة عن بكرة أبيها، وبفضل الأحقق البدين في (بتوس) أمسكنا التينة من ذيلها فاحترقت أصابعنا حتى العظم».

- «لم يكن أحد يتوقع من إلبيريو أن يعرف أن الفتاة ستختار البقاء في (خليج النحاسين)».

- «كما لم يعرف أن الملك الشحاذ سيموت شابًا أو أن الكال دروجو سيتبعه إلى القبر. قليل للغاية مما توقعه الرجل البدين تحقّق»، وضرب جريف مقبض سيفه الطويل بيده المقفزة مضيغًا: «لقد رقصت على أنغام مزارم البدين سنينًا يا ليمور، فبم أفادنا هذا؟ الأمير رجل بالغ، ووقته...».

قاطعه نداء ياندرى العالي فوق رنين جرس الممثلين: «جريف، إنه هالدون».

عاد هالدون بالفعل، وبدا النصف مايستر حرّان متسخ الثياب وهو يشق طريقه على ضفة النهر إلى قدم الرصيف، وقد خلف العرق بقعتين دائريتين داكنتين تحت إبطي ثوبه الكتاني الخفيف، وحمل وجهه الطويل النظرة العابسة نفسها كما فعل في (سلهوريس) لمّا عاد إلى (العذراء الخجول) ليعترف بأن القزم اختفى. على أنه يقود ثلاثة أحصنة الآن، وهذا هو كل المهم.

قال جريف لليمور: «أحضري الفتى، وتأكّدي من استعداده».

أجابته بفتور: «كما تقول».

ليكن إذن. مع أنه أضحى شغوفًا بليمور فهذا لا يعني احتياجه إلى رضاها. كانت مهمتها أن تُلقن الأمير تعاليم العقيدة، وقد أدّتها، لكن لا قدر من

الصَّلوات سيضعه على العرش الحديدي، بل هي مهمّة جريف. لقد خذَل
الأمير ريجار مرّةً، ولن يخذل ابنه ما دامت في جسده حياة.
لم تسرّه خيول هالدون، وقال للنّصف مايستر بتبرّم: «أهذه أفضل ما
وجدت؟».

أجاب هالدون بضيق: «نعم، والأفضل ألاّ تسأل كم كلفتنا. في وجود
الدوثراكي عبر النّهر قرّر نصف أهالي (فولون ثيريس) أن خير الهم أن يكونوا
في مكانٍ آخر، وهكذا ترتفع أسعار الخيول كلّ يوم».

كان عليّ الذّهاب بنفسي. بعد (سلهوريس) وجدّ وضع القدر نفسه من
الثّقة بهالدون عسيرًا. سمح للقرم بتغفيله بفصاحة لسانه، وتركه يذهب إلى
بيت دعاة وحده وانتظره كالأبله في الميدان. أصرّ مالك الماخور على أن
القرم اختطفَ تحت تهديد السّلاح، لكن جريف ليس واثقًا بعدُ بأنه يُصدّق
ذلك. العفريت ذكي بما فيه الكفاية لتدبير هربه، ومن الممكن أن يكون
السّكران الذي قالت العاهرات إنه قبض عليه تابعًا استأجره. اللوم عليّ أيضًا.
بعد أن حالّ القرّم دون إجون والرّجل الحجري تهاونت في الحذر. كان حريًّا
بي أن أشقّ حلّقه حين رأيت أول مرّة.

قال لهالدون: «لا بأس بها على ما أظنّ. المعسكر يبعد ثلاثة أميال فقط
إلى الجنوب». كان (العذراء الخجول) ليحملهم إلى هناك أسرع، لكنه يُفضّل
أن يظلّ هاري ستريكلاند يجهل أين كان هو والأمير، كما أن فكرة الخوض
في المياه الصّحلة وتسلّق ضفّة النّهر الموحلة لا تروقه. قد يليق دخول كهذا
بمرتزق وابنه، ولكن ليس بلورد عظيم وأميره.

حين خرج الفتى من القمرة إلى جانب ليمور أمعن جريف النّظر إليه من
قمّة رأسه حتى أحمص قدميه. تمنطق الأمير بحزام السّيف والخنجر، وانتعل
حذاءً أسود مصقولًا يلمع، وارتدى معطفًا أسود مبطنًا بالحريير الأحمر
الدّموي، وبعد غسل شعره وقصّه وصبغه بالأزرق الدّاكن الطّازج بدت
عيناه زرقاوين أيضًا. على عنقه وضع ثلاث ياقوتات مربّعة ضخمة تتدلّى من
سلسلة من الحديد الأسود، هديّة من الماجستر إليريو. أحمر وأسود، لونا
التنين. جيّد هذا. قال للفتى: «تبدو كما ينبغي لأمير. كان أبوك ليفخر بك لو
رآك الآن».

مرَّ جريف الصَّغير أصابعه في شعره قائلاً: «سَمْتُ من هذه الصَّبغة الزَّرقاء. كان يجب أن نغسلها».

- «قريباً». يودُّ جريف أن يعود إلى لونه الحقيقي أيضاً، ولو أن رأسه الذي كان أحمر اشتعل شيباً. ربَّت على كتف الفتى، وقال: «هلاً تحرَّكنا؟ جيشك ينتظر وصولك».

قال الفتى: «أحبُّ وقع هذه الكلمة، جيشي»، وومضت بسمه على وجهه ثم اختفت إذ أردف: «أهم جيشي بحق؟ إنهم مرتزقة: يولو أذرنني من الثقة بأحد».

أقرَّ جريف مجيباً: «كلامه لا يخلو من حكمة». لربما اختلفت الحال لو أن القلب الأسود لا يزال القائد، لكن مايلز توين مات قبل أربعة أعوام، وهاري ستريكلاند الشريد رجل من صنفٍ مختلف. على أنه لن يقول ذلك للفتى، فالقزم زرغ ما يكفي من الشكوك بالفعل في رأسه الشاب. «ليس كلُّ امرئٍ في حقيقته كما يبدو، والأمراء على وجه الخصوص لهم الحق في اتِّخاذ الحذر... لكن اقطع شوطاً أطول من اللازم على ذلك الطريق وسيُسمِّمك سوء الظنون ويجعلك خوَّافاً نكد المزاج». هكذا كان الملك إيرس، وفي النهاية رأى ريجار نفسه هذا بوضوح. «الأفضل لك أن تسلك سبيلاً وسطاً. دَع النَّاس يكسبون ثقتك بالخدمة المخلصة... لكن حين يحدث هذا كُن كريماً سخياً معهم».

أوماً الفتى برأسه قائلاً: «سأتذكَّر هذا».

أعطوا الأمير أفضل الخيول الثلاثة، حصاناً مخصباً كبيراً يكاد لونه الرمادي شديد الشحوب يكون أبيض، وركب جريف وهالدون إلى جواره على حصانين أقل جودةً. مضى الطريق جنوباً أسفل أسوار (فولون ثيريس) البيضاء العالية لنصف ميل كامل، ثم إنهم تركوا البلدة وراءهم وأتبعوا مجرى (الروين) المتعرِّج عبر بساتين الصَّفصاف وحقول الخشخاش ومروراً بطاحونة هواءٍ خشبيَّة طويلة تصرُّ شفراتها كالعظام القديمة مع دورانها.

وجدوا الجماعة الدَّهبيَّة على ضفَّة النَّهر والشمس تنخفض في الغرب. كان آرثر داين نفسه ليرضى عن المعسكر المحكم المنظَّم المنيع، الذي حُفِر حوله خندق عميق مزوَّد بالأوتاد المدبَّبة، وتقف خيامه في صفوفٍ بينها

حارات واسعة، وقد وُضِعَت المراحِيز على النَّهر مباشرةً ليجرف التَّيار الفضلات. إلى الشَّمال صفوف الخيول، ووراءها ترعى دستان من الأفيال على ضفَّة الماء قاطفةً البوص بخراطيمها. تطلُّع جريف إلى الدَّواب الرَّماديَّة الصَّخمة مفكِّراً: ليس في (وستروس) أجمعها جواد حربي يستطيع الصُّمود أمامها.

حول محيط المعسكر تخفق رايات حربيَّة طويلة من قُماش الذهب على سوار شامخة، وأسفلها يتحرَّك الحُرَّاس المسلَّحين المدرَّعين في دورياتهم، يحملون الحراب والنُّشايَّات ويُرَاقبون كلَّ مقترب. كان جريف يخشى أن التَّراخي حاقَّ بالجماعة تحت قيادة هاري ستريكلاندا، الذي بدا دومًا أكثر اهتمامًا بتكوين الصِّداقات من فرض الانضباط، لكن يبدو أن قلقه كان في غير موضعه.

عند البوابة قال هالدون شيئًا لرقيب الحرس، وأرسلَ ساع للعثور على أحد القادة، فلمَّا ظهرَ وجدَّه جريف قبيحًا كما رآه آخر مرَّة. الممرتق رجل ضخم الجُثمان كبير البطن بطيء الحركة، تتقاطع على وجهه الندوب القديمة، وتبدو أذنه اليمنى كأن كلبًا مضغها، واليسرى مفقودة. قال جريف: «رُقوك أنت إلى مصاف القادة يا فلاورز؟ ظننتُ أن للجماعة الذهبيَّة معايير صارمةً».

ردَّ فرانكلين فلاورز: «الأمر أسوأ من هذا أيها الوغد، لقد نصَّبوني فارسًا أيضًا»، وأطبق على ساعد جريف وجذبَه إليه في عناقٍ يهشم العظم، ثم قال: «تبدو في حالةٍ مزرية، حتى بالنسبة إلى رجل ميت منذ أعوام. شعر أزرق إذن؟ حين قال هاري إنك ستأتي كدتُ أتبرُّز على نفسي. وهالدون أيها الحقيير البارد، تسرُّني رؤيتك أيضًا. أما زلت لا تعرف معنى المرح؟»، والتفت فلاورز إلى جريف الصَّغير قائلًا: «وهذا...».

- «مُرافقي. هذا فرانكلين فلاورز يا فتى».

حيَّاه الأمير بايماءة، وقال: «فلاورز اسم نغولة. أنت من (المرعى)».

- «أجل. كانت أمِّي غسَّالةً في (بهو التَّفاح) إلى أن اغتصبها أحد أبناء حضرة اللورد، وهو ما يجعلني نوعًا من فرع التَّفاحة البنيَّة من عائلة فوسواي في رأيي»، وأشار لهم فلاورز بالدخول من البوابة مردفًا: «تعالوا معي».

ستريكلاند استدعى الضَّبَّاطَ كلَّهم إلى خيمته. مجلس الحرب. القولانتيون
الملاعين يُلُوِّحون بِجِرابهم وَيُطالِبون بمعرفة نِيَّاتنا».

كان رجال الجماعة الذَّهَبِيَّة خارج خيامهم، يلعبون النرد ويشربون
ويذُوبون الذُّباب. تساءلَ جريف كم منهم يعرف مَنْ هو. قلائل. اثنا عشر
عامًا زمن طويل. حتى الرِّجال الذين ركبوا معه قد لا يتعرَّفون للورد المنفي
چون كونجتون ذا اللِّحية الحمراء النَّارِيَّة في وجه المرتزق جريف الحليق
وشعره المصبوغ بالأزرق. على حدِّ علم أكثرهم عاقر كونجتون الشَّراب
حتى الموت في (ليس) بعد طرده المخزي من الجماعة لسرقته من صندوق
الحرب. ما زالَ ما في الكذبة من هوانٍ يُشعره بغصَّةٍ في حلِّقه، لكن فُارس
وكَّد ضرورتها، وقال الخصيُّ بصوته النَّاعم إياه: «لسنا نريد أن يُغني أحد عن
المنفي الباسل. مَنْ يموتون ميتةً بطوليَّةً يذكُرهم النَّاس طويلاً، لكنهم ينسون
اللصوص والسكَّيرين والجُنَّاء سريعاً».

ما الذي يعرفه خصيُّ عن شرف الرِّجال؟ ساير جريف العنكبوت في
مخطَّطه في سبيل الفتى، لكن هذا لا يعني أنه يُعجبه إطلاقاً. فلاعش حتى
أرى الفتى على العرش الحديدي وسيدفع فُارس ثمن هذه الإهانة وغيرها
الكثير، وعندها سترى مَنْ سيُنسى سريعاً.

خيمة القائد العام من قُماش الذهب ومحاطة بحلقةٍ من الأوتاد المتوجِّعة
بالجماجم المذهَّبة. إحدى هذه الجماجم أكبر من الأخريات ومشوَّهة
التَّكوين على نحوٍ عجيب، وتحتها جمجمة أخرى لا تتعدَّى قبضة طفلٍ في
الحجم. ميليز الوحش وأخوه مجهول الاسم. الجماجم الأخرى أقرب إلى
التَّمائل، ولو أن كثيراً منها شقَّقه أو كسَّرتَه الضُّربات التي أودت بأصحابها،
ولإحداها أسنان منشورة مدبَّبة. وجد جريف نفسه يسأل: «أيُّها مايلز؟».

أشار فلاورز مجيباً: «هناك، في النَّهاية. انتظر، سأذهب وأعلن وصولك»،
ودخل الخيمة تاركاً جريف يتأمَّل جمجمة صديقه القديم المذهَّبة. في حياته
كان مايلز توين قبيحاً كالخطيئة، علي عكس سلفه الشَّهير تيرانس توين
الغامض الجذاب الذي يُغني عنه المغنُّون، والذي كان جميل المحيَّا لدرجة
أن عشيقه الملك لم تستطع أن تُقاومه. أمَّا مايلز فكان مبتلى بأذنين مفلطحتين
وفكٍّ معوج وأكبر أنفٍ رآه چون كونجتون في حياته كلِّها، لكن شيئاً من هذا

لم يهَمَّ عند ابتسامه لك. سمَّاه رجاله القلب الأسود للرمز المرسوم على
تُرسه، وأحبَّ مايلز الاسم وكلَّ ما يُوحى به، وفي مرَّةٍ اعترف له قائلاً: «على
القائد العام أن يخشاه أصدقاؤه وأعداؤه على حدِّ سواء. إذا حسبني الرِّجال
قاسياً فذلك أفضل جدًّا». لكن الحقيقة كانت خلاف ذلك. كان مايلز توين
جُندياً حتى النُّخاع، شديداً لكن عادلاً على الدَّوام، أباً لرجالهِ ودائم الكرم مع
اللورد المنفي چون كوننجتون.

سلب الموت توين أذنيه وأنفه ودِفْئه كلَّهُ، لكن الابتسامه بقيت واستحالت
إلى ضحكةٍ من الذهب البراق. كل الجماجم ضاحك، بما فيها جمجمة
الفولاذ الأليم على وتِدٍ طويل في المنتصف. ما الذي يضحكه؟ لقد مات
مدحوراً وحيداً، رجلاً مكسوراً في أرضٍ غريبة. تقول القصة الشهيرة إن
السير إيجور ريفرز أمر رجاله وهو على فراش الموت بإزالة لحم جمجمته
بالغلي وغمسها في الذهب وحملها فوقهم حين يعبرون البحر ليستردُّوا
(وستروس)، وحذا خلفاؤه حذوه.

لربما كان چون كوننجتون أحد هؤلاء الخُلفاء لو مضى منفاه في مسارٍ
آخر. لقد أمضى خمسة أعوام مع الجماعة، يترقى من صفوف المُقاتلين إلى
موضع الشرف إلى يمين توين، ولو بقي فمحمَّل أن الرِّجال كانوا ليتطلَّعوا
إليه بعد وفاة مايلز بدلاً من هاري ستريكلاند... لكن جريف ليس نادماً على
السبيل الذي اختاره. عندما أُرْجِعُ إلى (وستروس) لن أكون جمجمةً على
سارية.

خرج فلاورز من الخيمة قائلاً: «ادخلوا».

نهض كبار ضبَّاط الجماعة الذهبية من مقاعدهم لدى دخولهم، وحيى
الأصدقاء القدامى جريف بالابتسامات والأحضان، والرِّجال الجدد بأسلوب
رسمي. ليس الجميع مسرورين لرؤيتنا كما يُريدونني أن أعتقد. وراء بعض
هذه الابتسامات يشعُر بخناجر مسلولة. حتى فترةٍ قريبة للغاية اعتقد أكثرهم
أن اللورد چون كوننجتون في قبره، ولا شك أن كثيرين منهم رأوه المكان
المناسب للرِّجل الذي سرق من إخوته في السِّلاح، ولربما كان جريف
ليُشارِكهم الشعور لو أنه في مكانهم.

تولَّى السير فرانكلين التَّقديم. على غرار فلاورز يحمل بعض المرتزقة

أسماء نغول مثل ريفرز وهيل وستون، في حين يتخذ بعضهم أسماء كانت لها شنة ورنّة في تاريخ (وستروس). أحصى جريف اثنين يحملان اسم سترونج وثلاثة اسم بيك، علاوة على مود وماندريك ولوشتون واثنين اسمهما كول. يعلم أن ليس جميع هذه الأسماء أصيلاً، ففي الجماعات الحرّة يستطيع الرّجل أن يُسمّي نفسه ما يشاء. بأيّ اسم يُبدي المرتزقة نوعاً فجاً من الفخامة، فكثيرين ممّن في مهنتهم هذه يحتفظون بثراتهم الدنيويّة معهم، وهكذا انتشرت في الخيمة السيوف المحلّاة بالجواهر والدروع المزخرفة وأطواق الزينة الثّقيلة حول الأعناق، كما يضع كلُّ رجل في المكان ما يُعادل فدية لورد من حلقات الأذرع الذهب. تدلُّ كل حلقة على سنة من الخدمة في الجماعة الذهبية، وعلاوة على الحلقات يضع مارك ماندريك -الذي يحمل وجهه المجذور ثقباً في وجنته حيث أُحرقَ وسم الرّق- سلسلة من الجماجم الذهب أيضاً.

ليس كلُّ القادة هنا وستروسيّ الدماء. يقود بالاك الأسود، رجل (جُزر الصّيف) ذو الشّعر الأبيض والبشرة الفاحمة، رُماة الجماعة منذ عهد عهد القلب الأسود، ويرتدي معطفاً بالغ الأناقة من الرّيش الأخضر والبُرْتقالي. وحلّ الفولانتيني المهزول جوريس إدوريان محلّ ستريكلاند كقيمّ الأجور، يُسدلّ فروة فهدي على أحد كتفيه، وينسدلّ الشّعر الأحمر كالدم إلى كتفيه في حلقات مزيتة، وإن كانت لحيته المدبّبة سوداء. وليّ الهامسين جديد على جريف، لايسني اسمه لايسونو مار، له عيان بنفسجيتان فاتحتان وشّعر بلون الذهب الأبيض وشفتان تحسدهما عليه العاهرات. للوهلة الأولى كاد جريف يحسبه امرأة، فأظفاره مطلية بالأرجواني، ويتدلّى من شحمتي أذنيه اللؤلؤ والجمشت.

فكّر جريف وهو يستعرض وجوههم: أشباح وكاذبون، أطياف من حروب منسية وقضايا خاسرة وثورات فاشلة، أخوة من المخفقين والسّاقطين، من الموصومين والمحرومين. هذا جيّشي، هذا أفضل أمالنا.

ثم إنه التفت إلى هاري ستريكلاند.

لا يبدو هاري الشّريد كالمحاربين إلّا قليلاً. ستريكلاند ممتلئ، له رأس كبير مستدير وعيان رماديتان وديعتان وشّعر خفيف مشطه إلى الجانب ليُخفي

بقعة صلعاء، وقد جلسَ على كُرسي معسكرات غامسًا قدميه في طستٍ من الماء المالح. خاطبَ جريف قائلاً على سبيل التَّحِيَّة: «سامحني إذا لم أنهض لك. كان زحفنا متعبًا وأصابع قدمي تتفَرَّح بسهولة. إنها لعنة».

إنها علامة على الضَّعف. تتكلمُ كامرأةً مسنَّة. آل ستريكلاند جزء من الجماعة الذَّهبيَّة منذ تأسيسها، بعد أن فقدَ جدُّ هاري الكبير أراضيه حين قاتل مع التَّين الأسود خلال تمرد بلاكفاير الأول. اعتادَ هاري أن يقول بزهو: «ذهب لأربعة أجيال»، كأن أجيالاً أربعةً من المنفى والهزيمة مدعاة للفخر. قال هالدون: «يُمكِنني أن أعدَّ لك مرهمًا لهذا، وثمة أملاح معدنيَّة معيَّنة من شأنها أن تُقوي جلدك».

ردَّ ستريكلاند: «هذا لطف منك»، وأشارَ إلى مُرافقه قائلاً: «واتكين، نبذ لأصدقائنا».

قال جريف: «نشكرك، لكن لا. سنشرب الماء».

- «كما تُفضِّل»، وابتسمَ القائد العام للأمير، وقال: «ولا بُدَّ أن هذا ابنك». تساءلَ جريف في سريره: هل يعرف؟ بمَ أخبره مايلز بالضبط؟ لقد شدَّد فارس على ضرورة السريَّة، وهكذا لم يعلم بالخطط التي وضعها مع إيرييو والقلب الأسود إلَّاهم، وتُركت بقية الجماعة غافلةً، فلا يُمكن أن تزل ألسنتهم بما يجهلون.

لكن زمن هذا انتهى. قال جريف: «لا أحد يتمنَّى ابنًا أجدر، لكن الفتى ليس من دمي، واسمه ليس جريف. أيها السَّادة، أقدمُ لكم إجون تارجارين، الابن الأول لريجار أمير (دراجونستون) والأميرة إليا الدورنيَّة... وقرينًا بمساعدتكم إجون السَّادس، ملك الأنداليين والروينار والبشر الأوائل وسيِّد (الممالك السَّبع)».

قُوبِلَ إعلانه بالصَّمت. تنحنحَ أحدهم، وعادَ أحد من اسمهما كول يملأ كأسه من إبريق، وداعبَ جوريس إدوريان إحدى حُلبيقات شعره المبرومة وتمتمَ بشيء ما بلُغةٍ يجهلها جريف، وسعلَ لازويل بيك، وتبادلَ ماندريك ولوئستون نظرةً. عندها أدركَ جريف أنهم يعرفون. كانوا يعرفون طوال الوقت. التفتَ يرمُقُ هاري ستاريكلاند، وسأله: «متى أخبرتهم؟».

ثنى القائد العام أصابع قدميه في حَمَامها مجيبًا: «حين وصلنا إلى النهر».

كانت الجماعة قلقَةً، ولسببٍ وجيه. لقد رفضنا حملةً سهلةً في (أراضي النّزاع)، ومن أجل ماذا؟ كي نُظَلَّ نتصبَّبَ عَرَقًا في هذا القَيْظِ الكَرِيه ونُشَاهِد مالنا يذوب وسيوفنا تصدأ فيما أرفضُ اتِّفَاقَاتِ دسمة بالمكسب؟».

اقشعراً جلد جريف للخبر، وسأل: «مَنْ؟».

- «اليونكيون. المبعوث الذي أرسلوه يتودّد إلى (فولانتيس) أطلق ثلاث جماعاتٍ حُرّةٍ إلى (خليج النخاسين) بالفعل، ويُريدنا أن نكون الرّابعة ويعرض علينا ضِعْفِي ما كانت (مير) تُنقُدنا إياه، بالإضافة إلى عبدٍ لكلِّ رجلٍ في الجماعة وعشرةٍ لكلِّ ضابطٍ ومئةٍ من نقاوة الفتيات لي وحدي».

تبّاً! «سيتطلب ذلك آلاف العبيد. أين يتوقّع أن يجد اليونكيون تلك الأعداد؟».

أجاب ستريكلاندا: «في (ميرين)»، وأشار إلى مُرافقه قائلاً: «واتكين، منشفة. الماء بدأ يبرد وأصابع قدمي تغصّنت كالزبيب. لا، ليس هذه، النّاعمة».

قال جريف: «ورفضت طلب المبعوث».

ردّ هاري: «قلتُ له إنني سأفكّر في عرضه»، وجفّل إذ بدأ مُرافقه يُجفّف قدميه، وقال: «رفقاً بالأصابع. فكّر فيها كحباتٍ عنب رقيقة القشرة يا فتى، الهدف أن تُجفّفها دون أن تعتصرها. ربّت ولا تفرك. نعم، هكذا»، والتفت إلى جريف ثانية قائلاً: «لم يكن من الحكمة أن أرفض رفضاً قاطعاً. كان الرّجال ليسألوني - وهُم محقون - إن كنتُ فقدتُ عقلي».

- «ستجدون عملاً لنصالكم قريباً».

سأله لايسونو مار: «حقاً؟ أفترضُ إذن أنك تعلم أن ابنة تارجارين لم تتحرّك غرباً؟».

- «سمعنا القصّة في (سلهوريس)».

- «ليست قصّةً بل حقيقةً بسيطةً، لكن إدراك سببها هو الأصعب. تنهب (ميرين)، نعم، ولمّ لا؟ كنتُ لأفعل المثل في مكانها. مُدن النخاسين زاخرة بالذهب، والغزو يتطلب مالا. لكن لماذا تبقى هناك؟ أهو الخوف؟ الجنون؟ الكسل؟».

قال هاري ستريكلاندا: «السبب لا يهمّ»، وفردّ زوجين من الجوارب

الصُوف المخطَّطة متابعًا: «هي في (ميرين) ونحن هنا، حيث يزداد استياء الفولانتينيِّين من وجودنا كلَّ يوم. لقد جئنا لنرفع ملكًا وملكةً يقودانا إلى الوطن في (وستروس)، لكن ابنة تارجارين هذه تبدو عازمةً أكثر على زرع شجر الزيتون من استرداد عرش أبيها، وفي تلك الأثناء يحتشد أعداؤها، (يونكاي) و(جيس الجديدة) و(تولوس). ذو اللحية الدموية وأمير الأسماك كلاهما سيكون في الميدان ضدها... وقريبًا ستهاجمها أساطيل (فولانتيس القديمة) أيضًا. ماذا تملك هي؟ عبيد فراش يُقاتلون بالعصي؟».

قال جريف: «المُطهَّرون والتنانين».

علَّق القائد العام: «التنانين، أجل، لكنها تنانين صغيرة، فقست بيضاتها منذ مُدَّة قصيرة»، وارتدى ستريكلاند فردة جورب برقٍ مغطياً قروح قدمه وكاحله، وواصل: «ما جدوى التنانين عندما تُطبق كل هذه الجيوش على مدينتها كالقبضة؟».

نقر تريستان ريفرز على رُكبته بأصابعه قائلاً: «وهو السبب الأدهى لأن نصل إليها أولاً في رأيي. ما دامت دنيرس لن تأتي إلينا فعلينا أن نذهب إلى دنيرس».

قال لايسونو مار: «هل نستطيع المشي على الموج أيها الفارس؟ أكرُّ أننا لا نستطيع بلوغ الملكة الفضِّيَّة بحرًا. لقد تسلَّتُ إلى (فولانتيس) بنفسي متكرِّراً كتاجر لأعرف كم سفينة قد تكون متاحةً لنا. الميناء يعجُّ بالقوادس والأكواج والقراقير من كلِّ صنفٍ وحجم، وعلى الرغم من هذا سرعان ما وجدتُ نفسي أتعاملُ مع مهرِّبين وقراصنة. في جماعتنا عشرة آلاف رجل، كما يذكُر اللورد كوننجتون بلا شكٍّ من سنين خدمته معنا. خمسمئة فارس لكلِّ منهم ثلاثة خيول، وخمسمئة مُرافقٍ ومثلهم من الخيول. والأفيال، يجب ألا ننسى الأفيال. سفينة قراصنة لا تصلُح. إننا محتاجون إلى أسطول قراصنةٍ كامل... وحتى إذا وجدنا واحدًا فالأنباء من (خليج النحاسين) أن الحصار مفروض على (ميرين)».

حَثَّهم جوريس إدوريان قائلاً: «لنتظاهر بقبول عرض اليونكيين ونترُكهم ينقلوننا إلى الشَّرق، ثم نردُّ ذهبهم تحت أسوار (ميرين)».

علَّق هاري ستريكلاند الشريد: «اتَّفاق منقوض واحد يكفي لتلويث شرف

جماعتنا»، وأطرق لحظةً ممسكًا بقدمه المتقرحة بيده، ثم تابع: «دعوني أذكركم بأن مايلز توين هو من وضع ختمه على هذه المعاهدة السريّة لا أنا. سأفي باتفاقه إن استطعت، لكن كيف؟ يبدو جليًا لي أن ابنة تارجارين لن تأتي غربًا أبدًا. (وستروس) كانت مملكة أبيها، و(ميرين) مملكتها. إذا أمكنها قهر اليونكيين فستصبح ملكة (خليج النحاسين)، وإذا لم تفعل فستموت قبل أن نبلغها بكثير».

لم يُفاجئ كلامه جريف. لطالما كان هاري ستريكلاند رجلًا أنيسًا دمئًا، يُجيد صياغة العقود أكثر من سحق الخصوم. إنه موهوب في جني الذهب، أمّا تمتعه بالهمة لخوض المعركة فمسألة أخرى. اقترح فرانكلين فلاورز: «هناك الطريق البرّي».

- «طريق الشياطين يعني الموت. سنفقد نصف الجماعة بسبب التهرّب إذا حاولنا قطع ذلك الطريق، وندفن المتبقّين على جانبه. يُؤسفني أن أقولها، لكن ربما لم تُحالف الماچستر إلبريو وأصدقائه الحكمة حين وضعوا أملاً كبيرًا على هذه الملكة الطفلة».

فكّر جريف: نعم، لكنهم كانوا في منتهى الغباء حين وضعوا آمالهم عليك. في هذه اللحظة تكلم الأمير إجون قائلاً: «ضعوا آمالكم عليّ إذن. دنيرس أخت الأمير ريجار، لكنني ابن ريجار. أنا التين الوحيد الذي تحتاجون إليه». وضع جريف يده المقفزة بالأسود على كتف الأمير إجون، وقال: «كلام جريء، لكن فكّر في ما تقول».

قال الفتى بإصرار: «لقد فكّرت. لماذا أهرعُ إلى عمّتي كأني متسوّل؟ إن دعواي أقوى من دعواها. فلتأتني هي... في (وستروس)». ضحك فرانكلين فلاورز قائلاً: «يروقني هذا. نُبحر غربًا لا شرقًا، نترك الملكة الصّغيرة لزيوتونها ونضع الأمير إجون على العرش الحديدي. الفتى جريء، أقرّ بهذا».

بدا القائد العام كأن أحدهم صفعه على وجهه، وقال: «هل أذابت الشمس محكّ يا فلاورز؟ إننا محتاجون إلى الفتاة، محتاجون إلى الزّيجة. إذا قبلت دنيرس أميرنا الصّغير وأخذته زوجًا فستقبله (الممالك السبع) بدورها. من

دونها سيسخر اللوردات من دعواه ويصمونه بالزيف والادعاء. وكيف تقترح أن نصل إلى (وستروس)؟ أنت سمعت لايسونو. ليست هناك سفن». الرجل يهاب القتال. كيف اختاروه ليحل محل القلب الأسود؟ قال جريف: «لا سفن إلى (خليج النحاسين). (وستروس) أمر آخر. الشرق هو المغلق أمامنا لا البحر. لا ريب أن القناصل سيُسرون لرحيلنا، بل وقد يُساعدونا على ترتيب الرحلة إلى (الممالك السبع). لا مدينة تُريد جيشاً على أعتابها».

قال لايسونو مار: «ليس مخطئاً». وأضاف أحد الاثنين كول: «مؤكد أن الأسد اشتّم رائحة التّين بالفعل، لكن انتباه سرسي سيكون منصرفاً إلى (ميرين) والملكة الأخرى. إنها لا تعي شيئاً عن أميرنا. ما إن نرسو ونرفع راياتنا سيتوافد كثيرون إلينا». عقب هاري الشريد: «بعضهم وليس كثيرين. أخت ريجار لديها تنانين، ابن ريجار لا. لسنا نتمتع بالقوة الكافية لأخذ البلاد دون دنيرس وجيشها، دون جنودها المُطهرين».

قال لايسونو مار: «إجون الأول أخذ (وستروس) دون مخصيين، فما الذي يمنع السّادس من أن يفعلها؟». - «الخطة...».

قاطعَه تريستان ريفرز: «أي خطة؟ خطة الرجل البدين؟ تلك التي تبدّل كلّما دار القمر؟ في البدء كان فسيرس تارجارين هو من سينضم إلينا ووراءه خمسون ألف دوثراكي صارخ، ثم مات الملك الشحاذ وأخذت أخته مكانه، الملكة الطّيفة الطّيبة التي كانت في طريقها إلى (بتتوس) مع تنانينها التي خرجت من بيضاتها لتوها، وبدلاً من ذلك تظهر الفتاة في (خليج النحاسين) مخلّفة سلسلة من المُدن المحترقة في أثرها، ويُقرّر الرجل البدين أن نُقابلها عند (فولانتيس). والآن هذه الخطة انهارت أيضاً. لقد اكتفيت من حُطط إليريو. روبرت باراثيون ظفر بالعرش الحديدي دون تنانين، وبمقدورنا أن نفعل مثله. وإذا كنتُ مخطئاً ولم تُثر البلاد من أجلنا فيمكننا دوماً أن نسحب عبر (البحر الضيق) كما فعل الفولاذا الأليم من قبلنا وآخرون من بعده».

هَزَّ سْتْرِيكلاند رأسه بعنادٍ قائلاً: «المخاطرة...».

- «... لم تُعد كما كانت منذ ماتَ تايوين لانستر. (الممالك السبع) لن تكون مهياًً أبداً للغزو كما هي الآن. على العرش الحديدي يجلس ملك صبي آخر أصغر من السابق، والتمترّدون على الأرض أغزر من ورق الشجر في الخريف».

قال سْتْرِيكلاند: «ولو. وحدنا لا أمل لنا...».

هذه المرّة قاطعه جريف الذي اكتفى من جُبن القائد العام: «لن نكون وحدنا. (دورن) ستضمُّ إلينا، لا مفرّ من انضمامها إلينا. الأمير إجون ابن إليا مثلما هو ابن ريجار».

قال الفتى: «صحيح، ومن تبقى في (وستروس) ليعارضنا؟ امرأة».

ردّ القائد العام بإصرار: «امرأة من آل لانستر. سيكون قاتل الملك إلى جانب الحقيرة، لك أن تثق بذلك، وستكون ثروة (كاسترلي روك) كلها وراءهما. وإليرييو يقول إن الملك الصّبي خطبَ ابنة تايرل، وهو ما يعني أننا سنواجه قوّة (هايجاردن) أيضاً».

دقّ لازويل بيك بمفاصل أصابعه على الطاولة قائلاً: «حتى بعد قرنٍ كامل ما زال لبعضنا أصدقاء في (المرعى). قد لا تكون (هايجاردن) بالقوّة التي يخالها مايس تايرل».

قال تريستان ريفرز: «أيها الأمير إجون، نحن رجالك. أهذه رغبتك؟ أن نُبحر غرباً لا شرقاً؟».

أجاب إجون بحرارة: «نعم. إذا أرادت عمّتي (ميرين) فهنيئاً لها بها. سأخذ العرش الحديدي بنفسي، بسيفوكم وولائكم. نتحرّك بسرعة ونُوجه ضرباتٍ قويّة ونُحقّق بعض الانتصارات السهلة قبل أن يُدرك آل لانستر أننا رسونا في (وستروس) حتى، وهذا ما سيجتذب آخرين إلى قضيتنا».

ابتسم ريفرز باستحسان، وتبادلَ آخرون نظرات التّفكير، ثم قال بيك: «أفضّل أن أموت في (وستروس) لا على طريق الشّياطين»، وقهقه مارك ماندريك وأجاب: «عن نفسي أفضّل العيش ممتلكاً أراضي وقلعة عظيمة»،

وربّت فرانكلين فلاورز على مقبض سيفه مضيقاً: «ما دمْتُ سأقتلُ بعضاً من آل فوسواي فأنا موافق».

وعندما بدأوا جميعاً يتكلمون في آن واحد عرف جريف أن الوضع انعكس. لم أر هذا الجانب من إجون قط. ليس السبيل الحكيم، لكنه تعب من الحكمة، سئم من الأسرار، ملّ الانتظار. نصرًا أو هزيمة، سيرى (وكر الجرافن) ثانية قبل أن يموت، ويُدْفَن إلى جوار أبيه.

واحدًا تلو الآخر نهض رجال الجماعة الذمّية وركعوا ووضعوا سيوفهم عند قدمي الأمير الصّغير، آخرهم هاري ستريكلاند بقدميه المتقرّحتين. كانت الشمس تصبغ سماء الغرب بالحمرة وتلوّن الجماجم المذهّبة على أوتادها بالقرمزي حين انصرفوا من خيمة القائد العام. عرض فرانكلين فلاورز أن يأخذ الأمير في جولة في أنحاء المعسكر ويقدمه لبعض من دعاهم بالفيتية، فوافق جريف، وقال: «لكن تذكر، على حدّ علم الجماعة يجب أن يبقى جريف الصّغير حتى نعبُر (البحر الضيّق). في (وستروس) سنغسل شعره وندعه يرتدي درعه».

- «أجل، مفهوم»، ووضع فلاورز يده على ظهر الفتى قائلاً: «تعال معي. سنبدأ بالطهارة. إنهم رجال صالحون معرفتهم مفيدة».

بعد ذهابهما التفت جريف إلى النصف مايستر، وقال: «اركب إلى (العذراء الخجول) وعُد بالليدي ليمور والسير رولي. سنحتاج إلى صناديق إيريوي أيضًا. كلّ الأموال وكلّ الدروع. بلّغ ياندري ويسيلا شكرنا. لقد انتهى دورهما. لن نساها حين يفوز سمو الأمير بمملكته».

- «كما تأمر يا سيّدي».

تركه جريف هناك، ودخل الخيمة التي خصّصها له هاري الشريد. يعلم أن الطريق أمامهم محفوف بالمخاطر، ولكن ماذا في هذا؟ كلّ البشر يُدرِكهم الموت. إنه لا يطلب إلّا الوقت. لقد انتظرَ طويلًا جدًّا، ومؤكد أن الآلهة ستمنحه بضعة أعوام إضافية، ما يكفي من الوقت لرؤية الفتى الذي دعاه بابنه على العرش الحديدي، لاسترداد أراضيه، واسمه، وشرفه، لإخراس الأجراس التي يُدويّ رنينها الصّاخب في أذنيه متى أغمض عينيه لينام.

وحده في الخيمة، وبينما سطعت خيوط أشعة الشمس الذهبية والقرمزية عبر السديلة المفتوحة، خلع چون كونجتون معطف فرو الذئاب وقميصه المعدني، ثم استقر على مقعدٍ وخلع قفاز يده اليمنى. استحال ظفر وُسطاه إلى الأسود الحالك بالفعل، وزحف الرمادي حتى مفصل الإصبع الأول تقريباً، وبدأت أنملة إصبع الخاتم تسود أيضاً، ولما مسّها برأس خنجره لم يشعُر بشيء.

الموت، ولكن ببطء. ما زال عندي وقت. عام، عامان، خمسة. بعض المتحجرين يعيش عشرة. وقت يكفي لعبور البحر، لرؤية (وكر الجرافن) ثانية، لاستئصال شأفة الغاصب إلى الأبد ووضع ابن ريجار على العرش الحديدي.

وبعدها بإمكان چون كونجتون أن يموت راضياً.



المذروُّ

عصفَ النَّبأَ بالمعسكرِ كالرَّيحِ السَّاخنة. إنها قادمة، جيشها يزحف، تنطلق جنوباً إلى (يونكاي) لتُضرمِ النَّارَ في المدينة وتُبيد أهلها، وسنذهب شمالاً للقائها.

سمعه الضَّفدع من ديك سترو، الذي سمعه من بيل بون العجوز، الذي سمعه من بنتوشي اسمه ميريو ميراكيس، الذي سمعه من ابن عمه ساقى أمير الأسمال، وأكد ديك سترو قائلاً: «ابن العم سمعه في خيمة القيادة من كاجو شخصياً. ستتحرك قبل نهاية اليوم، ستري».

وقد كان. جاء الأمر من أمير الأسمال عن طريق قادته ورُقبائه: فكُوا الخيام، حمّلوا البغال بالعتاد، جهّزوا الخيول، سنزحف إلى (يونكاي) مع مطلع الفجر. قال له باك رامي النُشائيّة المايري الأحول الذي يعني اسمه «بقول» بلغته: «ولو أن هؤلاء اليونكيين الأوغاد لن يرغبوا في وجودنا داخل مدينتهم الصّفراء نتشمم بناتهم. سنحصل على المؤن من (يونكاي)، وربما خيول جديدة، ثم إلى (ميرين) لنرقص مع ملكة التنانين، فتوثب بسرعة أيها الضَّفدع واشحذ سيف سيّدك جيّداً، فقد يحتاج إليه قريباً».

في (دورن) كان كويتن مارتل أميراً، وفي (فولانتيس) خادم تاجر، لكن على شواطئ (خليج النحاسين) هو الضَّفدع فحسب، مُرافق الفارس الدورني الأصلع الكبير المسمّى المُصران الأخضر. يستخدم رجال جماعة المذرويين ما يُريدون من مختلف الأسماء الغريبة ويُغيّرونها متى عنّ لهم، وقد ثبّتوا عليه اسم الضَّفدع لأنه يثب بسرعة شديدة كلما رفع الرّجل الكبير عقيرته بأمر ما. حتى قائد المذرويين يحتفظ باسمه الحقيقي لنفسه. بعض الجماعات

الحُرَّة وُلِدَ خلال قرن الدِّماء والفوضى الذي تبعَ هلاك (فاليريا)، وبعضها كَوْن بالأمس وسيختفي غداً، أمَّا المذرؤون فيرجع تاريخهم ثلاثين عامًا، ولم يعرفوا إلا قائدًا واحدًا هو النَّبيل البتوشي رقيق اللسان حزين العينين المدعو بأمر الأسمال. شَعْر الرَّجُل رمادي فضِّي كتميصه المعدني، لكن معطفه الرَّث مفصَّل من القماش المجدول من شتى الألوان، أزرق ورمادي وأرجواني، وأحمر وذهبي وأخضر، وأحمر أرجواني وقرمزي ولازوردي، كلُّها أبهتته الشَّمس. تقول القصة التي حكاها ديك سترو إنه عندما كان أمير الأسمال في الثالثة والعشرين انتخبه ماجسترات (پنتوس) أميرهم الجديد بعد ساعاتٍ من قطعهم رأس الأمير السَّابق، لكنه بدلًا من القبول تمنطق بحزام سيفه وامتطى جواده المفضَّل وفرَّ إلى (أراضي النزاع) بلا رجعة، وبعدها ركَب مع الأبناء الثَّنين والثُّروس الحديد ورجال العذراء، ثم اشترك مع خمسة إخوة في السَّلاح في تكوين المذرؤين، وهو الوحيد النَّاجي من المؤسسين الستَّة.

لا يدري الضَّفدع إن كان شيء من هذا صحيحًا. منذ انضمامهم إلى المذرؤين في (فولانتيس) لم يرَ أمير الأسمال إلا من بعيد، فالدورنيون وافدون جُدد، مجتدون حديثون، طُعمة للسَّهام، ثلاثة وسط ألفين، ومن يحتفظ بهم قائدهم حوله أسمى منزلةً. كان كويتن قد قال محتجًا لجيريس درينكوتر الذي اقترح الخُدعة: «لستُ مُرافقًا. لقد استحققتُ فُروسيَّتي في (دورن). إنني فارسٌ مثلك تمامًا». يُعرَف جيريس هنا بچيروولد الدورني، للتمييز بينه وبين چيروولد ردياك وچيروولد الأسود، وأحيانًا يدعونه بدرينك منذ زلَّ الرَّجُل الكبير وناداه بهذا الاسم.

لكن جيريس كان محقًا. إنه وآرش هنا لحماية كويتن، ومعنى هذا أن يبقى إلى جانب الرَّجُل الكبير، وهو ما أوضحه درينك بقوله: «آرش أفضلُ مُقاتل بين ثلاثتنا، لكن أنت وحدك من له أمل في الزواج بملكة التَّنانين».

أزَّوجها أو أقاتلها، في كلتا الحالتين سأواجهها قريبًا. كلُّما سمعَ كويتن المزيد عن ديريس تارجارين ازدادَ تخوُّفه من اللِّقاء. يدَّعي اليونكيون أنها تُطعم تنانينها اللحم البشري وتستحمُّ في دماء العذارى لتبقى بشرتها غصَّةً ملساء، وهو ما ضحك منه بقول وإن استمتعَ رغم ذلك بحكايات انحلال

الملكة الفُضِيَّة. في مرَّةٍ أخبرهم: «أحد قادتها ينحدر من سُلالةٍ لذكورها أعضاء طولها قدم كامل، لكن حتى هو ليس كبيرًا كفايةً لها. لقد ركبت مع الدوثراكي وتعودت أن ينكحها الفحول، أي أن لا رجل يستطيع أن يُشبعها أبدًا». كما أن كُتب، المُبارز الثولانتيني الذكي الذي لا يرى إلا بأنفه مدسوسًا في مخطوطةٍ قديمة ما، يظنُّ أن ملكة التنانين سفاحة مجنونة. «غالها قتلٌ أخاها ليجعلها ملكةً، ثم قتلتُ هي غالها لتجعل نفسها الكاليسي. إنها تقدِّم قرابين الدَّم، وتكذب كما تتنفس، وتنقلب على أعوانها دون سابق إنذار. لقد خرقت الهدن وعدبت المبعوثين... وأبوها كان مجنونًا أيضًا. الجنون يجري في دمها».

يجري في دمها. (وستروس) كلُّها تعلم أن الملك إيرس الثاني كان مجنونًا حقًا، نفى اثنين من أيديه وأحرق واحدًا ثالثًا. إذا كانت دويرس دمويةً كأبيها أفما زال عليَّ أن أتزوجها؟ لم يذكر الأمير دوران هذا الاحتمال قط.

سيسعد الضفدع لوضع (أستاפור) وراءه، فالمدينة الحمراء أقرب شيء عرفه على الإطلاق إلى الجحيم. سدَّ اليونكيون البوابة المحطمة ليجسوا الموتى والمحتضرين داخل المدينة، لكن المشاهد التي رآها كوينتن مارتل وهو راكب في تلك الشوارع القرميد الحمراء ستسكن مخيلته إلى الأبد. النهر المخنوق بالجبث، والكاهنة في رداها الممزق مرفوعةً على خازوق وتحوم حولها سحابة من الذباب الأخضر اللامع، والأموات يترنحون في الشوارع دامين متسخين، والأطفال يتشاجرون على الجراء المشوية نصف الناضجة، وآخر ملكٍ حرٍ لـ (أستاפור) يصرخ عارياً في الجبِّ إذ أطلقوا عليه عشرين كلبًا جائعًا... والنيران، والنيران في كل مكان. إذا أغمض عينه فما زال بإمكانه أن يراها، اللهب يدور من أهراماتٍ قرميد أضخم من أي قلعةٍ وقع بصره عليها، وأعمدة الدُخان الرُّهم تتلوى إلى أعلى كثناعيين سوداء هائلة.

حينما تهبُّ الرِّيح من الجنوب يشمُّون رائحة الدُخان في الهواء هنا من بُعد ثلاثة أميال من المدينة. وراء أسوارها القرميد الحمراء المتفتتة لا تزال (أستاפור) تحترق بلا لهب، ولو أن أكثر الحرائق الكبرى انطفأ بالفعل، والآن تسبح ذرات الرماد في التَّسيم كندف ثلج رمادية كبيرة. الرِّحيل خير حقًا. وهو ما أيده فيه الرَّجل الكبير قائلًا: «أخيرًا!». كان الضفدع قد وجده يلعب

النَّرد مع بقول وكتب وبيل بون العجوز ويخسر مرّة أخرى. يحبُّ المرتزقة المُصران الأخضر الذي يُراهن بحميّة كما يُقاتل، ولكن بنسبة نجاح أقل بكثير. «أريدُ درعي أيها الضفدع. هل كشطت الدّم عن قميصي المعدنيّ؟».

- «أجل يا سيّدي». قميص المُصران الأخضر المعدني قديم ثقيل، مرّفع عدّة مرّات وبالٍ إلى حدّ كبير، وكذا خوذته وواقِي عنقه وواقِي ساقيه وقفّازه المعدني وبقية درعه المتنافرة. عدّة الضفدع أفضل ولكن قليلاً، وعدّة السير جيريس أسوأ بكثير. سمّاه صانع السّلاح فولاذ الجماعة، ولم يسأل كويتن كم رجلاً تدرّع به من قبله وكم رجلاً مات وهو يرتديه. كانوا قد تخلّوا عن دروعهم الفاخرة في (فولانتيس)، ومعها ذهبهم وأسماؤهم الحقيقيّة. الفرسان الأغنياء أبناء العائلات العريقة لا يعبرون (البحر الضيق) ليرتقوا بسيوفهم ما لم يكونوا منفيّين عقاباً على مخزاةٍ ما. حين شرح جيريس الخدعة لهما أعلن كويتن: «أفضّل التّظاهر بأنّي فقير لا شرّير».

استغرق المذروون أقل من ساعةٍ في حلّ معسكرهم، وأعلن أمير الأسماك بدء تحرّكهم من عليّ صهوة جواده الحربي الضّخم بالفاليريّة الفصحي الكلاسيكيّة، التي تعدّ أقرب شيءٍ للغةٍ موحّدة للجماعة. عجيبة فحله المرقطة مغطّاة بشرائط القماش المهترئة الممزّقة من سُترات الرّجال الذين قتلهم سيّده، ومعطف الأمير مفصّل من خرقٍ مشابهة. رجل مسنّ هو، تجاوز السّتين، لكنه لا يزال يجلس طويلاً القامة مشدودها على سرّجه العالي، وما زالّ صوته قوياً يصكّ مسامع كلّ رجل في الميدان. قال الأمير: «(أستابور) كانت مجرد عيّنة، لكن (ميرين) ستكوّن الوليمة»، وانفجر المرتزقة في التّهلّيل. من رماحهم تُرفرف شرائط من الحرير الأزرق الباهت، وتخفق فوق رؤوسهم رايات المذروين مشقوقة الذبول بلونها الأزرق والأبيض.

هتف ثلاثة الدورنيين مع الآخرين لأن صمتهم كان ليجذب الانتباه، ولكن إذركب المذروون شمالاً على الطريق السّاحلي على مسافةٍ قصيرة وراء ذي اللّحية الدّمويّة وجماعة القطّ انضمّ الضفدع إلى جيريولد الدورني وقال بعاميّة (وستروس): «قريباً، يجب أن نفعّلها قريباً». في الجماعة وستروسيون آخرون، لكنهم ليسوا كثيرين، وليسوا قريبين.

ردّ جيريس بابتسامةٍ ممثّلٍ خاوية: «ليس هنا. ستتكلّم اللّيلة حين نُخيم».

بين (أستاپور) و(يونكاي) مئة فرسخ على الطريق الجيسكاري السّاحلي القديم، وخمسون فرسخًا أخرى من (يونكاي) إلى (ميرين). تستطيع الجماعات الحرّة بخيولها القويّة بلوغ (يونكاي) خلال ستّة أيام من الرُّكوب الحثيث أو ثمانية بحركة أكثر اثثادًا، فيما ستستغرق فيالتي (جيس الجديدة) مرّة ونصف المُدّة في الحركة سيرًا على الأقدام، أمّا اليونكيون وجنودهم العبيد... فإنها «أعجوبة ألا يغوصوا في البحر تحت قيادة ألويتهم هؤلاء» على حدّ تعبير بقول.

لا يفتقر اليونكيون إلى القيادة العُليا لبطل عجوز اسمه يوركاز زو يونزك، ولو أن رجال المذروّين لمحوه من بعيد فحسب، يأتي ويذهب في هودج فائق الضخامة يتطلّب حمله أربعين عبدًا دُفَعًا واحدةً.

لكن لا مفرّ من رؤيتهم مرؤوسيه، فاللوردات اليونكيون الصّغار يهرعون في كلّ مكان كالصّراصير. يبدو أن نصفهم اسمه جازدان أو جرازدان أو مازدان أو جازناك، لكن التميّز بين اسم جيسكاري وآخر فنّ لا يتقنه إلاّ قلائل من المذروّين، وهكذا أطلقوا عليهم ألقابًا ساخرة من تأليفهم.

أبرزهم الحوت الأصفر، رجل مفرط في البدانة يرتدي دوّمًا توكرات صفراء موشاة بالشرايب الذهبية. الرّجل أثقل من أن يقف مجرد الوقوف دون عون، ولا يستطيع أن يحبس ماءه فتفوح منه دائمًا رائحة البول، رائحة نفاذة لدرجة أن عطوره الفاغمة لا تستطيع إخفاءها. وعلى الرغم من هذا يُقال إنه أثيرى رجل في (يونكاي)، وإنه يهوى المخلوقات الغريبة. يضمّ عبيده صبيًا له ساقا وحافرًا كبش، وامرأة ملتحية، ووحشًا برأسين من (مانتاريس)، بالإضافة إلى خنثى تدفّع فراشه ليلاً. كان ديك سترو قد أخبرهم: «أير وفرج في آن واحد. كان الحوت يملك عملاقًا أيضًا، وأحبّ أن يشاهده ينكح أماته، ثم مات العملاق. سمعتُ أن الحوت سيمنح جوالًا من الذهب مقابل واحدٍ جديد».

ثم إن هناك اللّواء الفتاة، التي تركب حصانًا أبيض له لبدة حمراء وتقود مئة من الجنود العبيد فارعي القامة متيني البنيان استولدتهم ودرّبتهم بنفسها، جميعهم يافع نحيل مفتول العضلات، عُراة إلاّ من مئزرٍ ومعطفٍ أصفر وتروسٍ برونزية طويلة مزينة بالنقوش الخلاعية. لا تتعدّى سيّدتهم السّادسة عشرة من العُمر، وتخال نفسها دنيرس تارجارين اليونكية.

الحمامة الصَّغيرة ليس قرمًا بالضَّبَط، ولكن قد يحسبه المرء كذلك في إضاءة سيئة، ومع ذلك يمشي مختلاً كأنه عملاق، مباعداً بين ساقيه الممتلئتين الصَّغيرتين ونافخاً صدره الممتلئ الصَّغير. جنوده أطول من رأهم المذرؤون علي الإطلاق، أقصرهم يبلغ الأقدام السبعة وأطولهم أدنى إلى الثمانية، وكلهم طوال الوجوه طوال السيقان، وتجعلهم الأرجل الخشبية المثبتة داخل سيقان دروعهم المنمقة أطول وأطول. تُغطي جذوعهم الأقراص المطليّة بالمينا الوردي، وعلى رؤوسهم تجثم خوذات مطوّلة مزوّدة بمناقير فولاذية مدبّبة وعُروف من الرِّيش الوردي الهفّاهف، ويضع كل منهم على ورّكه سيفاً مقوّساً ويحمل حرباً تُناهزه طولاً في كل من طرفيها نصل بشكل ورقة الشَّجر. أخبرهم ديك سترو: «الحمامة الصَّغيرة يستولدهم، يشتري العبيد الطّوال من جميع أنحاء العالم ويُزوِّج الرِّجال بالنساء ويختار الأطول قامةً من ذُرّيّتهم لبلشوناته. إنه يأمل أن يتمكّن ذات يوم من الاستغناء عن الأرجل الخشب». قال الرِّجل الكبير على سبيل الاقتراح: «بضع جلساتٍ على المخلعة كفيلة بتسريع العملية».

ضحك جيريس درينكووتر قائلاً: «مجموعة مخيفة. لا شيء يُخيفني أكثر ممّن يمشي على رجلين خشب مرتدياً الرِّيش والأقراص الورديّة. إذا طاردني أحدهم لضحك حتى أفقد السَّيطرة على مثناتي».

قال بيل بون العجوز: «بعضهم يقول إن البلشون طائر مُلوكي».

- «هذا إذا كان ملكك يأكل الضفادع وهو واقف على ساقٍ واحدة».

أضاف الرِّجل الكبير: «البلشون طائر جبان. ذات مرّة كنتُ أصطاد مع درينك وكليتوس وصادفنا بعض البلشونات. رأيناها تخوض في المياه الضحلة وتأكل أفراخ الضفادع والأسماك الصَّغيرة. كان منظرها جميلاً، نعم، لكن صقراً طار من فوقها فحلقت جميعاً في الحال كأنها رأت نينياً وحركت الهواء بعنفٍ أسقطني من فوق حصاني، لكن كليتوس ثبت سهماً إلى وتر قوسه وأصاب أحدها. كان مذاقه كالبط ولكن ليس دهنياً مثله».

حتى الحمامة الصَّغيرة وبلشوناته لا يُدانون سخافة الإخوة الذين يدعوهم المرتزة بلوردات الصَّليل. آخر مرّة واجه جُند (يونكاي) العبيد مُطهري ملكة الثنائين نكصوا وهربوا، وهو ما حدا بلوردات الصَّليل إلى ابتكار حيلة تحول دون

تكرار هذا، فسلسلوا جنودهم معاً في مجموعاتٍ من عشرة، معصماً إلى معصم وكاحلاً إلى كاحل، وهو ما فسّره ديك سترو ضاحكاً: «لا أحد من الأوباش المساكين يستطيع الفرار ما لم يفرّوا جميعاً، وإذا فرّوا جميعاً فلن يتعدوا كثيراً». علّق بقول: «والملاعين لا يتحرّكون بسرعةٍ كذلك. يُمكنك سماع صليلهم من بُعد عشرة فراسخ».

وهناك المزيد ممّن هم على القدر ذاته من الجنون أو أسوأ؛ اللورد الرّجراج، والغازي السكّير، وسيّد الوحوش، ووجه العجين، والأرنب، والحوذي، والبطل المعطر. بعضهم تحت إمّته عشرون جندياً وبعضهم مئتان أو ألفان من العبيد الذين درّبوهم وزوّدوهم بالمعدّات بأنفسهم. جميعهم ثري، جميعهم متغطرس، وجميعهم قائد لا يُؤاخذ على شيءٍ أحد إلاّ يوركاز زو يونزك شخصياً، يحتقرون المرتزقة ويجنحون إلى الانهماك في شجاراتٍ مبهمة لا نهائية على الأفضليّة.

في الوقت الذي استغرّفه المذروون في قطع ثلاثة أميال تخلّف اليونكيون عنهم ميلين ونصفاً، وهو ما دفع بقول إلى أن يقول بتذمّر: «قطع من الحمقى الصّفر كريهي الرّائحة. ما زالوا لم يُدرِكوا لماذا تركهم غريبان العاصفة والأبناء الثّانون وانضمّوا إلى ملكة الثّانين».

قال كُتب: «يعتقدون أن الذهب السّبب. لماذا تحسبهم ينفدونا أجوراً باهظة؟».

ردّ بقول: «الذهب جميل لكن الحياة أجمل. من رقصنا معهم عند (أستاپور) مُعاقون. هل تُريد أن تُواجه المُطهّرين الحقيقيّين وهؤلاء إلى جانبك؟».

قال الرّجل الكبير: «لقد قاتلنا المُطهّرين عند (أستاپور)».

- «قلت المُطهّرين الحقيقيّين. قطع خصيتي صبيّ ما بساطور جزّار وإعطاؤه قبةً مدبّبة لا يجعله مُطهّراً. ملكة الثّانين لديها الشّيء الحقيقي، النوع الذي لا يتتابه الفزع ويفرّ عندما تضطرّ في اتجاهه».

- «هم والثّانين أيضاً». قالها ديك سترو ورفّع ناظره إلى السّماء كأنما يحسب أن مجرد ذكر الثّانين خليق بأن يجعلها تهجم على الجماعة. «تأكّدوا من شحذ سيوفكم يا أولاد. سنخوض قتالاً حقيقياً قريباً».

فَكَرَّ الضَّفدَعُ: قتال حقيقي، والتصقت الكلمة بحوصلته. القتال أسفل أسوار (أستابور) بدا له حقيقياً تماماً، لكنه يعلم أن المرتزقة لا يظنون هذا. لاحقاً سَمِعَ الشَّاعرُ الْمُحارِبُ دَنْزُو داهان يُعَلِنُ. «كانت تلك مجزرةً لا معركة». دَنْزُو قائد مرسته مئة معركة، أمَّا الضَّفدَعُ فخبيرته مقتصرة على ساحة التَّدريب ومضمار النَّزال، ولذا لا يحسب نفسه أهلاً لمجادلة مُحاربٍ مخضرم كهذا في حُكْمه.

لكنها بدتْ كالمعركة حين بدأت. تذكّر كيف تقلصت معدته لَمَّا أيقظه الرَّجل الكبير بركلة في الفجر ووقفَ فوقه قائلاً بصوتٍ جهوري: «في درعك أيها الكسول. الجزارُ خارجٌ يُقاتلنا. انهض ما لم تكن تُريد أن تكون لحمًا يُقطعهُ».

اعترض الضَّفدَعُ بُعاص: «الملك الجزار ميت». هذه هي القصة التي سمعوها عندما نزلوا من السُّفن التي حملتهم من (فولانتيس القديمة)، ويُفترض أن كليون ثانياً أخذ النَّاج وماتَ بدوره، والآن تحكُّم الأستابوريين عاهرة وحلاق مجنون يتقاتل أتباعهما للسيطرة على المدينة.

ردَّ الرَّجل الكبير: «ربما كذبوا، أو أنه جزّار آخر. ربما عادَ الأولُ يصرُخ من مقبرته ليقتل بعض اليونكيين. لا يهمُّ. ارتد درعك!». كانت الخيمة تتسع لعشرة، وقد نهضوا جميعاً بالفعل، يرتدون سراويلهم ويتنعلون أحذيتهم، ويدشّون أنفسهم في سُتراتٍ طويلة من الحلقات المعدنية، ويُبْتِنون واقيات الصدور ويوثقون أربطة واقيات السِّقان والسّواعد، ويتناولون الخوذ والحِراب وأحزمة السُّيوف. أول من ارتدى درعه كاملاً جيريس بسرعته المعتادة، وسرعان ما لحق به آرش، ومعاً ساعداً كويتن علي وضع عدته.

من بعد ثلاثمئة ياردة كان مُطهَّر و (أستابور) الجُدّد يتدفقون من بوّابتهم ويُسكِّلون صفوفهم أسفل أسوار مدينتهم القرميد الحمراء، يتألّق ضوء الفجر على خوذاتهم البرونز المدببة ورؤوس جرابهم الطويلة.

اندفع الدورنيون الثلاثة من الخيمة معاً لينضمُّوا إلى المُقاتلين المهرعين إلى صفوف الخيول. المعركة. تمرّن كويتن على الحربة والسَّيف والترس منذ تعلّم المشي، لكن ذلك لا يعني شيئاً الآن. ابتهل الضَّفدَعُ: امنحني القوة أيها (المُحارب)، فيما دقت الطُّبول من بعيد، بووم بووم بووم بووم

بووم. أشار له الرَّجل الكبير إلى الملك الجَزَّار الجالس طويلًا متبَسِّسًا على صهوة حصانه المدرَّع في بَزَّةٍ من الأقراص النحاس تسطع لمعتها في شمس الصُّبح. يَدُكُر كيف اتَّخذ جِيريس وضع القتال قبل أن تبدأ المعركة مباشرةً وقال له: «ابقَ قريبًا من آرش مهما حدث. تذكَّر أنك الوحيد منا الذي يستطيع الفوز بالفتاة». عندئذٍ كان الأستابوريُّون يتقدَّمون.

حيًّا أو ميتًّا، باغتَ الملك الجَزَّار الأسياد الحُكماء بالهجوم. كان اليونكيُّون ما زالوا ينطلقون هنا وهناك في توكَاراتهم المرفرفة محاولين تنظيم جُنودهم العبيد ناقصي التَّدريب قدر الإمكان، وفي الآن نفسه هوت حِراب المُطهَّرين على خطوط الحصار. لولا حُلفاء الأسياد الحُكماء وأجيروهم المحتقرون لاكتسحهم العدو، لكن رجال المذروِّين وجماعة القِطَّ امتطوا خيولهم خلال دقائق معدودة وانقضُّوا كالرَّعد على جانبي الأستابوريِّين، في الوقت نفسه الذي تقدَّم فيه أحد فيالق (جيس الجديدة) عبر المعسكر اليونكي من الجانب الآخر وواجه المُطهَّرين حربَةً بحريةً وتُرْسًا بترس.

وما تلا هذا مذبحه، لكن هذه المرَّة كان الملك الجَزَّار ضحيَّة السَّطور. كاجو هو من فتكَّ به أخيرًا، شقَّ طريقه قتالًا عبر حُماة الملك على جواده الحربي الهائل وشقَّ جسد كليون العظيم من الكتف إلى الورك بضربة واحدة من أراخه القائلري. لم يشهد الضَّفدع ذلك بنفسه، لكن من رأوه يدَّعون أن درع كليون النحاس انشقت كالحرير، ومن الدَّاخل أتت رائحة شنيعة وخرجت مئات من ديدان القبر تلوَّى. اتَّضح أن كليون كان ميتًّا بالفعل، لكن الأستابوريِّين اليائسين نشوا مقبرته وأخرجوا جُثمانه وألبسوه درعه وربطوه إلى حصانٍ على أمل أن يُشجَّع منظره مُطهَّريهم.

كتب سقوط كليون الميت نهاية ذلك الأمل. ألقى المُطهَّرون الجُدد حِرابهم وتروسههم وفروا، فقط ليجدوا بؤابة (أستابور) مغلقة من خلفهم، ولعب الضَّفدع دوره في المذبحة التي تبعت هذا وانطلق بحصانه يدوس المخصيِّين المرعوبين مع رجال الجماعة الآخرين. ركبَ مسرعًا إلى جوار الرَّجل الكبير يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشُّمال إذ اخترقوا المُطهَّرين كرأس الحربة، وحين انبثقوا من الجانب الآخر دارَ بهم أمير الأسمال وقادهم عبرهم ثانية. بدأ الضَّفدع الآن فقط يتذكَّر أنه ألقى نظرةً مدققةً على الوجوه

تحت الحُوذ البرونز المدبَّبة، وأنه أدرك أن أكثرهم لا يتعدَّاه في السنِّ. فكَرَّ:
صبيبة خُضر يَصْرُخون منادين أمهاتهم، لكنه رغم ذلك قتلهم، وحين غادر
ميدان المعركة أخيراً كانت الدماء تكسو سيفه بالحُمرة وذراعه متعبَّة يستطيع
بالكاد أن يرفعها.

ومع ذلك لم يكن قتالاً حقيقياً. القتال الحقيقي سيشتعل قريباً، ويجب أن
نرحل قبلها وإلا وجدنا أنفسنا نقاتل مع الجانب الخطأ.
خيِّم المذروون اللَّيلة على ساحل (خليج النخاسين). وقعت مناوأة
الحراسة الأولى في نصيب الصُّفدع وأرسل لحراسة صفوف الخيول، وهناك
انضمَّ إليه جيريس بُعيد غروب الشَّمس فيما بدأ الهلال يُضيء صفحة الماء.
قال كويتن: «المفترض أن يكون الرَّجل الكبير هنا أيضاً».

قال جيريس: «ذهب يبحث عن بيل بون العجوز ويخسر ما تبقى من
فضَّته. لتتركه خارج الأمر. سيفعل ما نقوله، مع أنه لن يُعجبه كثيراً».

- «نعم». أشياء كثيرة في الأمر لا تُعجِب كويتن نفسه. الإبحار على
سفينة مكتظة بالمسافرين تتقاذفها الرِّيح والبحر البراح، وأكل الحُبز الجامد
المسوس، وشرب الرِّم الأسود القطراني ليغيب في عوالم النسيان الجميلة،
والنوم على أكوام القش العفن فيما تملأ منخريه روائح الغرباء... كل هذا
توقَّعه عندما وضع علامته على قطعة الورق في (فولانتيس) متعهِّداً بسيفه
لخدمة أمير الأسماك لمدة سنة. هذه مشاق محتملة، عماد المغامرات كلها.

لكن ما عليهم أن يفعلوه لاحقاً خيانة بيَّنة. لقد جلبهم اليونكيون من
(فولانتيس القديمة) ليقاتلوا مع المدينة الصُّفراء، لكن الدورنئين ينون
الخروج عليهم والانضمام إلى الطَّرف الآخر، ومعنى هذا بالضرورة أن
يتخلوا عن إخوتهم في السِّلاح. ليس المذروون بالرِّفاق الذين كان كويتن
لينتقيهم، لكنه عبر معهم البحر وتقاسم طعامهم وشرابهم وقاتل إلى جانبهم
وتبادل الحكايات مع القلَّة التي يفهم كلامها... وإذا كانت كل حكاياته
أكاذيب فهذا هو ثمن الرِّحلة إلى (ميرين).

ليست بوسيلة تُوصَف بالشرف. هكذا نبههما جيريس في (بيت التُّجَّار).
قال كويتن وهما سائران بين الخيول: «قد تكون دنيرس في منتصف
الطَّريق إلى (يونكاي) الآن ووراءها جيش».

قال جيريس: «ربما، لكنها ليست قادمة». سمعنا كلامًا كهذا من قبل. كان الأستابورثيون على يقين بأنها ستأتي جنوبًا بتنانينها لتكسر الحصار، ولم تأت وقتها، ولن تأتي الآن».

- «لا يمكننا الجزم بهذا. يجب أن نغادر قبل أن نجد أنفسنا نُقاتل المرأة التي أرسلت أتوددُ إليها».

- «انتظر حتى (يونكاي)»، وأشار جيريس إلى التلال متابعًا: «هذه الأراضي تنتمي إلى اليونكيين. لا أحد سيقبل أن يُطعم ويؤوي ثلاثة متهرئين، أمّا شمال (يونكاي) فمنطقة لا تتبع أحدًا».

ليس مخطئًا، وعلى الرغم من هذا ظلّ كويتن قلقًا، وقال: «الرجل الكبير كوّن صداقاتٍ عدة. إنه يعرف أن الخطّة كانت دائمًا أن نتسلّل ونذهب إلى دنيرس، لكنه لن يستريح لفكرة التخلّي عن رجالٍ قاتل معهم. إذا انتظرنا أطول من اللازم فسيشعر كأننا نتهرب منهم عشية المعركة، ولن يفعل ذلك أبدًا. إنك تعرفه كما أعرفه».

- «إنه تهرب بغضّ النظر عن حينه، وأمير الأسمال يستقبح المتهرئين. سيرسل وراءنا صيادين، وليحمينا (السبعة) جميعًا إذا قبضوا علينا. إذا كنا محظوظين فسيكتفون بتر قدم ليضمنوا عدم هروبنا ثانية، وإذا لم يُحالفنا الحظ فسيعطوننا لميريس الحسنا».

ألجمّ قوله الأخير كويتن. ميريس الحسنا تُخيفه. إنها امرأة وستروسيّة، لكنها أطول منه قامّة، بينها وبين الأقدام الستّة طول إبهامه، وبعد عشرين عامًا وسط الجماعات الحرّة لم يتوق لها أيُّ حُسن من الدّاخِل أو الخارج.

أمسكه جيريس من ذراعه قائلاً: «لنتنظر بضعة أيام أخرى فقط. لقد قطعنا نصف العالم، فاصبر بضعة فراسخ إضافية. في مكانٍ ما شمال (يونكاي) سنجد فرصتنا».

قال الضفدع: «ما دام هذا رأيك... لكن في هذه المرّة النّادرة كانت الآلهة تسمع، وحانتُ فرصتهم في وقتٍ أقرب كثيرًا.

بعد يومين توقّف هيو هنجرفورد بحصانه أمام بؤرة نارهم قائلاً: «أيها الدورني، أنت مطلوب في خيمة القيادة».

سأله جيريس: «أينا؟ كلنا دورثيون».

- «كلُّكم إذن». هنجرفورد صارم عابس وله يد مشوَّهة، وكان قيِّم الأجرور في الجماعة مُدَّةً، إلى أن ضبطه أمير الأسمال يسرق من الخزينة وقطع ثلاثة من أصابعه، والآن هو مجرد رقيب.

ما الأمر يا تُرى؟ حتى الآن لم يكن الضُّفدع يتصوَّر أن قائدهم الأعلى يعلم بوجوده من الأصل، لكن هنجرفورد كان قد ابتعدَ بالفعل ولا وقت للأسئلة، ولا يستطيعون إلا العثور على الرَّجل الكبير ويُلَبُّوا الأمر.

قال كويتن لصديقيه: «لا تُقرَّأ بشيءٍ وتهيَّأ للقتال».

قال الرَّجل الكبير: «إنني متهيَّئ دومًا للقتال».

كان السُّرادق العظيم المصنوع من قُماش الأشرعة الرَّمادي -الذي يحبُّ أمير الأسمال أن يُسمِّيه قلعته القنبيَّة- مزدحمًا عندما وصلَ الدورنيون. استغرقَ كويتن لحظةً واحدةً ليتبيَّن أن معظم الحاضرين من (الممالك السَّبْع) أو في عروقهم دماء وستروسيَّة. منفيون أو أبناء منفيين. زعمَ ديك سترو أن في الجماعة زهاء ستين وستروسيًّا، والآن ثلثهم هنا، بمن فيهم ديك سترو وهيو هنجرفورد وميريس الحسناء، بالإضافة إلى لويس لنستر ذي الشَّعر الذهبي الذي يعدُّ أفضل رُماة الجماعة.

دنزو داهان حاضر أيضًا، وإلى جواره كاجو بجسده الضَّخم، أو كاجو قاتل الجُثث كما يدعونه الآن، ولكن ليس في وجهه، فالرَّجل سريع الغضب، وسيفه الأسود المقوَّس هذا لا يقلُّ خطورةً عن صاحبه. في العالم مئات من السُّيوف الفاليريَّة الطويلة، أمَّا الأراخات الفاليريَّة فمعدودة. لا كاجو ولا داهان وستروسي، لكن كلاهما قائد رفيع المكانة عند أمير الأسمال. ذراعاه اليمنى واليسرى. شيء جسيم يحدث.

بادرَ أمير الأسمال بالكلام إذ قال: «الأوامر أتت من يوركاز. يبدو أن الأستاوريين النَّاجين خرجوا من جحورهم. لم يتبقَّ داخل (أستاپور) إلا الجُثث، ولذا يتدفقون إلى الرِّيف بالمئات وربما بالآلاف، كلُّهم جائع مريض، واليونكيون لا يريدونهم قُرب المدينة الصَّفراء. لقد أمرنا بمطاردتهم وتغيير مسارهم، ندفعهم إلى العودة إلى (أستاپور) أو شمالًا إلى (ميرين). إذا أرادتهم ملكة التَّنانين فلتهنأ بهم. نصفهم مصاب بالإسهال الدَّموي، وحتى الأصحَّاء أفواه يجب إطعامها».

قال هيو هنجرفورد معترضًا: «(يونكاي) أقرب من (ميرين). ماذا لو لم يُغيروا اتجاههم يا سيدي؟».

- «لهذا تحملون السيوف والرماح يا هيو، وإن كانت الأقواس تصلح أكثر. ابقوا بعيدًا عمّن تبدو عليهم علامات المرض. سأرسل نصف قوّاتنا إلى التلال. خمسون دوريةً قوام كل منها عشرون خيالًا. ذو اللحية الدموية وصلته الأوامر نفسها، أي أن القِططة سيكونون في الميدان أيضًا».

تبادل الرّجال النّظر وتمتم بعضهم بصوتٍ خافت. على الرغم من أن جماعتي القِطّ والمذروّين ملتزمان بعقدٍ مع (يونكاي) الآن فقد تواجّهتا في ميدان المعركة في (أراضي النزاع) قبل عام واحد، وما زالت بين الجماعتين ضغينة. قائد القِططة الوحشي المسمّى ذو اللّحية الدّمويّة عملاق هدارٍ نهم في حُبّه للقتل ولا يُخفي احتقاره لـ«المسنّين لابسِي الخِرَق».

تتحنّج ديك سترو، وقال: «معدرةً، لكننا جميعًا من مواليد (الممالك السبع) هنا. سيدي لم يقسم الجماعة حسب الدّم أو اللّغة من قبل، فلم تُرسلنا معًا؟».

- «سؤال عادل. ستركبون شرقًا إلى عمق التلال، ثم تدورون دورةً واسعةً حول (يونكاي) وتتجهون إلى (ميرين). إذا صادقتم أيّ أستاوريين فسوقوهم شمالًا أو اقتلوهم... لكن اعلّموا أن تلك ليست الغاية من مهمّتكم. وراء المدينة الصّفراء ستلتقون دوريات ملكة التّنانين على الأرجح، الأبناء الثّانين أو غربان العاصفة. أيّهما يصلح. انضمّوا إليهم».

ردّد الفارس النّغل السير أورسون ستون: «ننضمّ إليهم؟ تُريدنا أن ننشقّ؟».

أجاب أمير الأسماك: «نعم».

كادت ضحكة عالية نفلت من كوينتن مارتل. الآلهة مجنونة. اعتدلّ الوستروسيون في أماكنهم بتوتّر، وحدّق بعضهم إلى كؤوسهم كأنهم يأملون أن يجدوا في نبيذها حكمةً ما، وعقد هيو هنجرفورد حاجبيه قائلاً: «هل تحسب أن الملكة ديفرس ستقبلنا...».

- «نعم».

- «... ولكن ماذا إذا فعلت؟ أنحن جواسيس؟ مغتالون؟ مبعوثون؟! هل تفكّر في تبديل فريقك؟».

قال كاجو عابسا: «هذا قرار أميرنا يا هنجرفورد. دورك أن تفعل ما يُقال لك».

ردَّ هنجرفورد رافعا يده ذات الإصبعين: «دائما». قال الشاعر المُحارب دنزو داهان: «لنكن صُرحاء. اليونكيون لا يُوحون بالثقة. أيّا كانت نتيجة هذه الحرب فيجب أن يكون للمذروين نصيب في غنائم النصر. حكمة من أميرنا أن يُبقي الطرق كلها مفتوحة». قال أمير الأسمال: «ستقودكم ميريس. إنها تعرف خُططي ونيتي... وقد يُيسر وجود امرأةٍ أخرى أن تتقبلكم دنيرس تارجارين». ألقى كوينتن نظرةً إلى الورا على ميريس الحسنا، ولما وقعت عيناه على عينيها الباردين الميتين اقشعرَّ جلده. لا يروقي هذا.

علّق ديك سترو الذي ما زالت الشكوك تُساوره أيضا: «ستكون حماقة من الفتاة أن تثق بنا، حتى في وجود ميريس، بل تحديداً في وجود ميريس. بحق الجحيم، أنا نفسي لا أثق بميريس مع أنني ضاجعتها بضع مرّات»، وابتسم ابتسامة عريضة، لكن أحداً لم يضحك، لا سيّما ميريس الحسنا. قال أمير الأسمال: «أظنك مخطئا يا ديك. كلّمكم وستروسيون، أصدقاء من الوطن، تتكلّمون لغتها وتعبّدون آلهتها. وبالنسبة إلى الدافع فقد تعرّضتم جميعاً للأذى على يدي. ديك، لقد جلدتك أكثر من أيّ رجلٍ آخر في الجماعة، والبُرهان على ظهرك. هيو فقدَ ثلاثة أصابع بسكّيني على سبيل التّأديب. ميريس اغتصبها نصف رجال الجماعة. ليس هذه الجماعة حقاً لكن لا داعي لذكر هذا. ويل ابن (الغابة)، أنت مجرد قمامة. السير أورسون يلومني على إرسال أخيه إلى (الويلات)، والسير لوسيفر لا يزال مغتاضاً بسبب الأمة التي أخذها كاجو منه».

قال لوسيفر لونج متدّمرا: «كان يُمكنه أن يُعيدها بعدما قضى وطره منها. لم يكن عنده سبب لقتلها». ردَّ كاجو: «كانت قبيحةً. هذا سبب كافٍ».

تابع أمير الأسمال كأن أحداً لم ينطق: «وبر، أنت عندك أراضٍ مسلوبة تُطالب بها في (وستروس). لنستر، أنا قتلتُ الفتى الذي كنت مغرماً به. أنتم أيها الدورنيون الثلاثة تحسبون أننا كذبنا عليكم، الغنيمة من (أستاپور) كانت

أقل بكثير مما وعدناكم به في (قولانيس)، وأخذتُ منها نصيب الأسد». قال السير أورسون: «الجزء الأخير صحيح».

- «أفضل الخُذع فيه دومًا بذرة من الحقيقة. كلُّ منكم عنده سبب وجيه للتخلّي عني، ودينيس تارجارين تعلم أن المرتزقة قوم متلونون. أبناؤها الثانون وغربانها أنفسهم أخذوا ذهب اليونكيين لكنهم لم يتورعوا عن الانضمام إليها عندما بدأ تيار المعركة يتدفق في اتجاهها».

سأل لويس لنستر: «متى نرحل؟».

- «في الحال. احذروا من قد تقابلون من القططة أو الرماح الطويلة. لن يعرف أحد أن انشقاكم خُدعة إلا الموجودون هنا في الخيمة. عجلوا بإبداء نيّاتكم الحقيقية وستشوهون باعتباركم متهرئين أو تُبقر بطونكم باعتباركم مارقين».

لأذ ثلاثة الدورنيين بالصّمت إذ غادروا خيمة القيادة، وفكر كوينتن: عشرون خيالًا يتكلمون اللّغة العامية جميعًا. أصبح الهمس أخطر مرارًا. صفعه الرّجل الكبير على ظهره بقوة قائلًا: «أليس هذا جميلًا أيها الضّفدع؟ سنذهب لصيد التّنانين».



العروس الجَموح

كانت آشا جراجيچوي جالسةً في قاعة جالبارت جلوفر الطويلة تشرب نبيذ جالبارت جلوفر عندما جاءها ماىستر جالبارت جلوفر بالرّسالة. كما يفعل دومًا حين يُحدثها، قال المايستر بنبرة متوتّرة: «سيّدتي، طائر من (بلدة الرّوابي)»، وكأنه لا يطيق الانتظار حتى يتخلّص منه دسّ الرّقّ في يدها. وجدته مطويًا بإحكام ومختومًا بزُرٍّ من الشّمع الوردي الجامد. (بلدة الرّوابي). حاولتُ آشا أن تتذكّر من يحكّم الآن في (بلدة الرّوابي). لورد شمالي ما، ليس صديقًا لي. والختم... يدخل آل بولتون أولاد (معقل الخوف) المعركة تحت راياتٍ ورديةٍ مرشوشة بقطراتٍ صغيرةٍ من الدّم، وبطبيعة الحال من المعقول أن يستخدموا شمع أختامٍ ورديةً كذلك.

فكّرت: هذا الذي في يدي سُم. حريٌّ بي أن أحرقها، لكنها كسرت الختم بدلًا من ذلك، لتسقط قصاصة من الجلد في حجرها. لمّا قرأت الكلمات البنية الجافّة ازدادَ مزاجها المعتلّ اعتلالًا. أجنحة سوداء، أجنحة سوداء. لا تجلب الغدبان أبناءً طيبةً أبدًا. آخر رسالةٍ وصلت إلى (ربوة الغابة) كانت من ستانيس باراثيون الذي يُطالب بالبيعة، وهذه أسوأ. «الشّماليون أخذوا (خندق كايلن)».

سألها كارل الجالس إلى جوارها: «نغل بولتون؟».

- «رامزي بولتون، سيّد (ويتترفل) حسب توقيعه، لكن هناك أسماءً أخرى». الليدي داستن والليدي سروين وأربعة من آل ريزويل ذيلوا الرّسالة بتوقيعاتهم تحت توقيعه، وإلى جوارها رسم بسيط لعملاق، علامة أحد أبناء أومبر.

التَّوَقِّيعَاتِ مَكْتُوبَةً بِحَبْرِ الْمَيْسِرَاتِ الْمَصْنُوعِ مِنَ السَّنَجِ وَالْفَحْمِ الْقَارِي، لَكِنَّ الرِّسَالَةَ أَعْلَاهَا شَخْبَطَةٌ بَنِيَّةٌ بِخَطِّ مُحَرِّزٍ ضَخْمٍ، تَذَكَّرُ سِقُوطَ (خَنْدَقِ كَايَلِنَ)، وَعُودَةَ حَاكِمِ الشَّمَالِ الْمَطْفَرِّ إِلَى نِطَاقِ نَفْوَدِهِ، إِضَافَةً إِلَى زَيْجَةٍ قَرِيبَةٍ. تَقُولُ افْتِتَاحِيَّتِهَا: «أَكْتُبْ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِدِمَاءِ الْحَدِيدِيِّينَ»، وَيَقُولُ خَتَامُهَا: «أُرْسِلْ إِلَى كُلِّ مِنْكُمْ قِطْعَةً مِنَ الْأَمِيرِ. الْبَثْوَا فِي أَرْضِي تُشَارِكُونَهُ مَصِيرَهُ».

اعْتَقَدْتُ أَشَأَنَّ أَنَّ أَحَاهَا الصَّغِيرَ مَاتَ. الْمَوْتُ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا. كَانَتْ قُصَاصَةٌ الْجِلْدِ قَدْ سَقَطَتْ فِي حِجْرِهَا، فَالْتَقَطْتُهَا وَرَفَعْتُهَا إِلَى الشَّمْعَةِ وَشَاهَدْتُ الدُّخَانَ يَتَصَاعَدُ مِنْهَا إِلَى أَنَّ التَّهْمَهَا اللَّهْبَ تَمَامًا وَلَعَقَ أَصَابِعَهَا.

كَانَ مَيْسِرُ جَالْبَارَتِ جَلُوفَرٍ يَحُومُ عِنْدَ مِرْفَقِهَا مُنْتَظِرًا، فَأَخْبَرْتَهُ: «لَنْ نَرَدَّ».

- «هَلْ تَسْمَحِينَ بِأَنْ أُطَلَعَ اللَّيْدِي سَبِيلَ عَلَيَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ؟».

- «إِذَا أُرِدْتُ». تَجْهَلُ أَشَأَنَّ إِنْ كَانَتْ سَبِيلَ جَلُوفَرٍ سَتَجِدُ مَا يَسْرُ فِي سِقُوطِ

(خَنْدَقِ كَايَلِنَ). تُقِيمُ اللَّيْدِي سَبِيلَ فِي أَيَكَةِ الْأَلْهَةِ طِيلَةَ الْوَقْتِ تَقْرِيًّا، تُصَلِّيُ مِنْ أَجْلِ طِفْلَيْهَا وَعُودَةَ زَوْجِهَا الْأَمْنَةَ. دُعَاءُ آخَرَ بِلَا إِجَابَةٍ عَلَى الْأَرْجَحِ. شَجَرَةُ الْقُلُوبِ الَّتِي تُصَلِّيُ لَهَا صَمَاءٌ عَمِيَاءٌ كَالِهِنَا الْغَرِيقِ. رَكِبَ رُوبِتَ جَلُوفَرٍ مَعَ أَخِيهِ جَالْبَارَتِ جَنْوَبًا مَعَ الذُّبِّ الصَّغِيرِ، وَإِذَا صَحَّ وَلَوْ نِصْفَ مَا سَمِعُوهُ مِنْ حِكَايَاتِ عَنِ الرَّفَافِ الْأَحْمَرِ فَيَلِسُ وَارِدًا أَنْ يَعُودَا إِلَى الشَّمَالِ أَبَدًا. طِفْلَاهَا حَيَّانٌ عَلَى الْأَقْلِ، وَهَذَا بِفَضْلِي. تَرَكْتُهُمَا أَشَأَنَّ فِي (الْبُرُوجِ الْعَشْرَةِ) فِي رِعَايَةِ خَالَاتِهَا، فَابْنَةُ اللَّيْدِي سَبِيلَ لَا تَزَالُ رَضِيعَةً، وَقَدْ قَدَّرْتُ أَنَّ الْفِتَاةَ أَوْهَنَ مِنْ تَعْرِيفِهَا لِمَشَاقِ رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ عَاصِفَةٍ أُخْرَى. دَسَّتْ أَشَأَنَّ الرِّسَالَةَ فِي يَدِ الْمَيْسِرِ قَائِلَةً: «هَآكُ. دَعَاهَا تَجِدُ شَيْئًا مِنَ الْعِزَاءِ هُنَا إِذَا اسْتَطَاعَتْ. يُمَكِّنُكَ الْإِنْصِرَافَ».

حَتَّى الْمَيْسِرِ رَأْسَهُ وَغَادَرَهُ، وَبَعْدَ خُرُوجِهِ التَّفْتَتِ تَرِيسَ بُوْتَلِي إِلَى أَشَأَنَّ، وَقَالَ: «إِذَا سَقَطَتْ (خَنْدَقِ كَايَلِنَ) فَسَتَتَّبِعُهَا (مَرْبَعُ تَوْرِينِ) قَرِيبًا، ثُمَّ سَيَحِينُ دُورُنَا».

- «لَيْسَ فِي الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ. ذُو الْفَكِّ الْمَفْلُوقِ سَيُرِيقُ دِمَاءَهُمْ بِغِزَارَةٍ».

لَيْسَتْ (مَرْبَعُ تَوْرِينِ) خَرَابَةٌ كَ(خَنْدَقِ كَايَلِنَ)، وَدَا جَمْرَ حَدِيدِيٍّ قُحِّ، يُفْضَلُ الْمَوْتُ عَلَى الْإِسْتِسْلَامِ.

لو أن أبي حي لما سقطت (خندق كالين) أبداً. كان بالون جرايچوي يعلم أن (الخندق) مفتاح الشمال، وهو ما يعلمه يورون أيضاً، لكنه -ببساطة- لا يُبالي، مثلما لا يُبالي بما يحدث في (ربوة الغابة) أو (مربع تورين). «يورون ليس مهتماً بفتوحات بالون. عمي رحل يُطارِد الثَّنائين». استدعى عين الغراب كامل قوَّة الأسطول الحديدي إلى (ويك القديمة) وخاصَّ به عباب (بحر الغروب)، يتبعه أخوه فيكتاريون ككلب مجلود بالسيَّاط، ولم يتبقَّ في (بايك) أحد تلجأ إليه آشا باستثناء السيِّد زوجها. «إننا واقفون وحدنا».

قال كروم الذي لم يلتق قطُّ امرأةً أحبَّها كما يحبُّ المعارك: «داجمر سيسحقهم سحقاً. إنهم مجرد ذئاب».

داعت آشا الشمع الوردي بظفر إبهامها قائلةً: «الذئاب قتلوا. هؤلاء هم السلاخون الذين قتلوهم».

استحَّها كويتون جرايچوي قائلاً: «يجدر بنا أن نذهب إلى (مربع تورين) ونضمَّ إلى القتال». كويتون ابن عمومة بعيد، ورُبَّان (الفتاة المألحة).

أيده ابن العمومة الأبعد داجون جرايچوي: «أجل». يُسمُّونه داجون السكِّير، لكن سواء أكان ثملاً أم مستفيقاً فإنه يهوى القتال. «لماذا يحتفظ ذو الفكِّ المفلوق بالمجد كلِّه لنفسه؟».

جلب اثنان من خدم جالبارت جلوثر الشَّواء، لكن قِصاصَة الجلد سلَّبت آشا شهيتها. قالت لنفسها بكآبة: رجالي تخلَّوا عن كلِّ أمل في النِّصر. لا يتطلَّعون الآن إلَّا إلى ميته طيِّبة. لا شكَّ لديها في أن هذا ما سينالونه من الذئاب الذين سيأتون عاجلاً أو آجلاً لاستعادة القلعة.

كانت الشَّمس تغوص وراء أشجار الصَّنوبر الطويلة في (غابة الذئاب) عندما صعَدت السَّلام الخشب إلى عُرفة نومها التي كانت لجالبارت جلوثر. أفرطت في شرب النِّبيذ جدًّا، ورأسها يدق. تحبُّ آشا جرايچوي رجالها، الرِّبابة والأطقم على حدِّ سواء، لكن نصفهم حمقى. حمقى شُجعان لكنهم حمقى. نذهب إلى ذي الفكِّ المخلوق، نعم، كأننا نستطيع...

بين (ربوة الغابة) وداجمر فراسخ طويلة وتلال وعرة وغابات كثيفة وأنهار جامحة وشماليون أكثر مما تُريد أن تحسب، في حين أن مع آشا أربع سفنٍ طويلة وأقل من متي رجل... بمن فيهم تريستيفر بوتلي الذي لا تستطيع

الاعتماد عليه. على الرغم من حديثه المستمر عن الحُبِّ لا تتخيَّل تريس يهرع إلى (مربَّع تورين) ليموت مع داجمر ذي الفكِّ المفلوق.
تبعها كارل إلى عُرفة نوم جالبارت جلوثر بالأعلى، فقالت له: «اخرُج. أريدُ الانفراد بنفسِي».

ردَّ: «بل تُريدِنِي أنا»، وحاولَ أن يُقبِّلها.

دفعته أشا قائلةً: «المسني ثانيةً وس...».

قاطعها مستلاً خنجره: «ماذا؟ اخلعي ثيابك يا فتاة».

- «انكح نفسك أيها الصَّبي الحليق».

- «أفضِّل أن أنكحك أنتِ». ضربة واحدة سريعة من خنجره حلَّت أربطة سُترتها الجِلد. مدَّت أشا يدها إلى فأسها، إلَّا أن كارل أسقطَ الخنجر وقبضَ على رُسغها لاويًا ذراعها إلى أن سقطَ السُّلاح من بين أصابعها، ثم دفعها على ظهرها إلى فراش جلوثر ممطرًا إياها بالقبلات ومزَّق قميصها ليتحرَّر ثديها، ولمَّا حاولت أن تضربه برُكبتها في بين فخذيه التوى متفاديًا الضربة وأجبرها على فتح ساقِها برُكبته قائلاً: «سأنالِك الآن».

ردَّت كأنها تَبصُّق: «افعلها وسأقتلك في نومك».

حين ولجها كانت تتصبَّب بللاً، وراحت تقول: «عليك اللعنة عليك اللعنة عليك اللعنة عليك اللعنة عليك اللعنة». مصَّ حلمتها حتى صاحت ألماً ونشوةً في آنٍ واحد، واختصِرَ العالم في ما بين ساقِها، ونسيت (خندق كايلن) ورامزي بولتون وقطعة الجِلد الصَّغيرة، نسيت انتخاب الملك، نسيت فشلها، نسيت منفاها وأعداءها وزوجها. لا يهْمُ الآن إلَّا يدها، إلَّا فمه، إلَّا ذراعاه حولها ووجوده في داخلها. نكحها حتى صرخت، ومرةً أخرى حتى بكت، قبل أن يُفرغ نطفته داخل رِجَمها أخيراً.

بعدها ذكَّرتَه قائلةً: «أنا امرأة متزوَّجة. لقد انتهكت عِرْضي أيها الصَّبي الحليق. سيقطع السيِّد زوجي خصيتيك ويُلْبِسك فُستانتاً».

تدحرج كارل من فوقها، وقال: «إذا استطاع النُّهوض من مقعده».

كانت العُرفة باردةً. نهضت أشا من فراش جالبارت جلوثر وخلعت ثيابها الممزَّقة. ستحتاج الشُّترَة إلى أربطةٍ جديدة، لكن القميص تلفَ تماماً. لم يكن يُعجِبني على كلِّ حال. ألقته في النَّار وتركت بقيَّة ملابسها مكوَّمةً عند

الفراش. أوجعها ثدياها، وشعرت بمني كارل تسيل ببطء على فخذاها. عليها أن تعدد القليل من شاي القمر وإلا لخاطرت بالمجيء بكرًا إين آخر إلى العالم. لا يهيمُ أبي ميت، وأمِّي تموت، وأخي يسْلخ، وأنا عاجزة عن فعل أيِّ شيءٍ حيال أيِّ شيءٍ. كما أنني متزوِّجة... رُففتُ وضُوجعتُ... ولو أن هذا الرَّجل غير ذلك.

وجدت كارل غائبًا في النوم عندما دخلت تحت الأغطية. «حياتك لي الآن. أين وضعتُ خنجري؟». ضغطتُ آشا نفسها إلى ظهره وطوّفته بذراعيها. في (جُزر الحديد) يُعرف بكارل البكر، من ناحيةٍ للتمييز بينه وبين كارل شيفرد وكارل كنينج المُريب وكارل صاحب الفأس السريعة وكارل القن، لكن السبب الأهم وجنتاه الملساوان. في بداية لقائهما كان كارل يُحاول أن يُطلق لحيه وُصفتهَا آشا ضاحكةً بزغب الخوخ، ولمّا اعترف كارل بأنه لم يرَ خوخةً من قبل قطُّ قالت له إن عليه الانضمام إليها في رحلتها التّالية إلى الجنوب.

كان الصّيف لا يزال يسطر سلطانه آنذاك؛ روبرت على العرش الحديدي، وباللون واجم على كُرسي حجر اليم، والسّلام يعمُّ (الممالك السّبع). أبحرتُ آشا بـ(الريّح السّوداء) على السّاحل ممارسةً للتّجارة، وتوقّفوا في (الجزيرة القصية) و(لانسهورت) ونحو عشرين من المواني الأصغر قبل بلوغهم (الكرمة)، حيث ثمار الخوخ حلوة ضخمة دومًا. عندما وضعتُ واحدةً على وُجنته كارل أول مرّةٍ قالت: «أرأيت؟»، وجعلته يُجرّب قُصمةً ليسيل العصير على ذقنه، فنظّفته بقُبلاتها.

أمضى كلاهما تلك اللّيلة في التهام الخوخ وجسد الآخر، ومع عودة ضوء النّهار كانت آشا شبعانةً لزجةً وفي أسعد حالاتها. أكان هذا منذ ستّة أعوام أم سبعة؟ أمسى الصّيف ذكرى خايبة، ومرّت ثلاثة أعوام منذ استمتعتُ بمذاق الخوخ. على أنها لا تزال تستمتع بكارل. قد لا يُريدها الرّبّانة والملوك، لكنه يُريدها.

عرفتُ آشا عَشاقًا آخريين، شاركَها بعضهم فراشها نصف سنّة وبعضهم نصف ليلة، أمّا كارل فيُرضيها أكثر من الآخريين مجتمعين. ربما لا يحلق لحيته إلا مرّةً كلّ أسبوعين، لكن اللّحية المشعثة لا تصنع الرّجل، كما أنها

تحبُّ ملمس بشرته النَّاعمة تحت أصابعها، وتحبُّ حين يلمس شعره الطَّويل المفروود كنفِها، وتحبُّ قُبَلاته، وتحبُّ ابتسامته العريضة حين يُداعِب حلمتيها بإبهاميه. الشَّعر بين ساقيه درجة أعمق من الرَّملي من الشَّعر على رأسه، لكنه ناعم كالرَّيش مقارنةً بالدَّغل الأسود الخشن حول عُضوها الأثوي، وهذا تحبُّه أيضًا. لكارل جسد سَبَّاح طويل رشيق، ولا ندبة واحدة عليه.

ابتسامه خجول، وذراعان قويتان، وأصابع ماهرة، وسيفان واثقان. وهل ترغب أيُّ امرأةٍ في ما هو أكثر؟ كانت لتتزوَّج كارل وبنفس رضية، لكنها ابنة اللورد بالون وهو من أولاد العوام وحفيد قن. أوضع ميلادًا من أن أتزوَّجه، ولكن ليس أوضع من أن أمصَّ قضيبه. ثملةً مبتسمةً، زحفت تحت الأغطية الفرو وأخذته في فمها، فاختلج كارل في نومه وبعد قليل بدأ ينتصب، ولمَّا أوصلته إلى الانتصاب التام كان قد استيقظَ وابتلت هي. أسدلت أشا الأغطية على كنفِها العاريتين وامتطته ساحبةً إياه إلى داخلها إلى عمقٍ لم تُعدُّ تُميِّز معه عُضوه من عُضوها، وهذه المرَّة بلغا الذروة معًا.

بعدها غغم بصوتٍ ما زال النَّوم يُثقله: «سيدتي الجميلة، مليكتي الجميلة».

لا، لستُ ملكةً، ولن أكون أبدًا. قالت له: «عد إلى النَّوم»، وقبلته على وجته ثم قطعتُ عُرفة نوم جالبارت جلوفر وفتحت النَّافذة على مصراعها. يكاد القمر يكتمل، والليلَّة صافية تمامًا حتى إنها ترى الجبال وذراها المتوجِّة بالثلج. باردة موحشة لا تصلح للسُّكنى، لكنها جميلة في نور القمر. قِممها المحززة تتألَّق بشحوب، أمَّا التلال السَّفحِيَّة والقِمم الأصغر فغائبة في الظلال.

البحر أقرب، يبعد خمسة فراسخ فقط إلى الشَّمال، لكن أشا لا تراه من هنا، فبينها وبينه تلال كثيرة للغاية. وأشجار، وأشجار بلا عدد. يُسمِّيها الشماليون (غابة الدُّئاب)، وفي أغلب الليالي يُمكنك أن تسمع الدُّئاب يُنادي بعضها بعضًا في الظلام. محيط من أوراق الشَّجر. ليته كان محيطًا من الماء.

قد تكون (ربوة الغابة) أقرب إلى البحر من (ويتترفل)، لكنها أبعد من اللازم رغم ذلك. رائحة الهواء هنا صنوبر لا ملح، وإلى الشَّمال الشرقي من هذه الجبال الرَّماديَّة الكثبية يرتفع (الجدار) حيث رفع ستانيس باراثيون

راياته. يقول النَّاسُ: عدوُّ عدوِّي صديقي، لكن الوجه الآخر من هذه العُملَة مكتوب عليه: عدوُّ صديقي عدوِّي. الحديدِيُّونَ أعداء اللوردات الشماليِّين الذين يحتاج إليهم ابن باراثيون المدَّعي أمسَّ الحاجة. فكَّرتُ مزيحةً خُصلةً من الشَّعر عن عينيها: يُمكنني أن أعرض عليه جسدي الشَّاب البض، لكن ستانيس متزوِّج وكذا هي، وهو والحديدِيُّونَ أعداء قُدَّامي. خلال تمرُّد أبيها الأول حطَّم ستانيس الأسطول الحديدي عند (الجزيرة القصيَّة) وأخضع (ويك الكُبرى) باسم أخيه.

تُحيط أسوار (ربوة الغابة) المكسوَّة بالطَّحالب بتلَّةً مستديرة واسعة مسطَّحة القمَّة تُتوجُّها قاعة طويلة فسيحة في طرفها بُرج مراقبة يرتفع خمسين قدمًا، وأسفل التلَّة الفناء والاسطبلات ومضمار الخيل وورشة الحدادة والبئر وحظيرة الغنم، ويحميها خندق عميق وسائر تُرابي منحدرٍ وسياج من جذوع الأشجار. تصنع الدِّفاعات الخارجيّة شكلاً بيضاً ومُتبعَةً تضاريس الأرض، وثمَّة بوابتان يحمي كلًّا منهما بُرجان مربَّعان من الخشب وممشى حول محيط الأسوار. على الجانب الجنوبي من القلعة تنمو الطَّحالب بكثافةٍ على السَّياج وتزحف إلى أعلى حتى منتصف البُرجين، وإلى الشَّرق والغرب حقول خالية كان ينمو فيها الشُّوفان والشَّعير عندما أخذت أشأ القلعة، وإن سحقتها الأقدام خلال هجومها. قتلتُ سلسلة من التَّجمُّدات القاسية المحاصيل التي زرعوها بعد ذلك ولم تتركُ إلَّا الأوحال والرَّماد والسُّوق الذَّابِلة المتعفِّنة.

قلعة قديمة، لكنها ليست قويَّةً. من آل جلوفر أخذتها أشأ، ومنها سيأخذها نغل بولتون... لكنه لن يسُلخها، فأشأ جرايچوي لا تنوي أن يأخذوها حيَّةً. ستموت مثلما عاشت، بفأس في يدها وضحكةٍ على شفيتها.

أعطاهما السيِّد والدها ثلاثين سفينةً طويلةً للاستيلاء على (ربوة الغابة)، تبقَّت منها أربع بما فيها ريحها السَّوداء، وواحدة تتبع تريس بوتلي الذي انضمَّ إليها حينما كان كلُّ رجالها الآخرين يفرُّون. لا، ليس هذا عدلاً. لقد أبجروا إلى الوطن ليقدِّموا لملكهم البيعة. إذا فرَّ أحد فهو أنا. ما زالت الذِّكري تُخذيها.

- «ارحلي». هكذا حصَّها القارئ فيما حملَ الرِّبابة عمَّها يورون نازلين به (تل ناجا) ليضعوا تاج الخشب المجروف على رأسه.

- «الغُدا ف يُحَدِّثُ العُرابُ. تعالَ معي. أريدك أن تحشد رجال (هارلو)». حينئذٍ كانت تنوي القتال.

- «رجال (هارلو) هنا، مَنْ يُحسَبون منهم. بعضهم كان يهتف باسم يورون. لن أضع هارلو في مواجهة هارلو».

- «يورون مجنون وخطِر. بوق الجحيم هذا...».

- «لقد سمعته. ارحلي يا آشا. ما إن يُتَوَجَّح يورون سيبحث عنك، ولستِ

تجروئين أن تدعي عينه تقع عليك».

- «إذا وقفتُ مع عمِّي الآخريين...».

- «... فستمتويت منبوذةً وكل يد مرفوعة ضدك. حين وضعت اسمك

أمام الرِّبابة أخصعت نفسك لحكمهم، ولا تستطيعين أن تُخالفي هذا الحكم الآن. مرَّةً واحدةً فقط نُقِضَ قرار انتخاب الملك. اقرئي هايرج».

وحده رودريك القارئ يُمكنه أن يتكلَّم عن كتاب ما وحياتهما تتأرجح

على حدِّ السِّيف. قالت له بعناد: «إذا بقيت فسأبقى أيضًا».

- «لا تكوني حمقاء. اللَّيلة يورون يُري العالم عينه الباسمة، لكن بحلول

الغد... آشا، إنك ابنة بالون ودعواك أقوى من دعواه، وما دُمتِ تنتفسين

ستبقين خطرًا عليه. إذا بقيتِ فستقتلين أو تُزَوِّجين بالملاح الأحمر، ولا

أدري أيُّهما أسوأ. ارحلي. لن تنالي فرصةً أخرى».

كانت آشا قد رست بـ(الرَّيح السوداء) على طرف الجزيرة البعيد من أجل

هذا الاحتمال تحديداً. ليست (ويك القديمة) كبيرة، وكان بإمكانها أن تعود

إلى متن سفينتها قبل شروق الشَّمس وتُبحر إلى (هارلو) قبل أن يُدرك يورون

غياها، وعلى الرغم من ذلك ترددت إلى أن قال خالها: «افعلها لأجل حُبِّك

لي يا طفلي. لا تجعليني أشاهدك تموتين».

وهكذا رحلت، إلى (البُروج العشرة) أولاً لتودِّع أمَّها وتُنَبِّها قائلة: «قد

يمرُّ وقت طويل قبل أن أرجع ثانية»، فلم تفهم الليدي الأليس وسألتها: «أين

ثيون؟ أين ولدي الصَّغير؟»، أمَّا الليدي جوينيس فأرادت فقط أن تعرف متى

سيعود اللورد رودريك، وقالت: «إنني أكبره بسبعة أعوام. المفترض أن تكون

(البُروج العشرة) لي».

وصل إلى آشا خبر زواجها وهي لا تزال في (البُروج العشرة) تُحمِّل

المؤن، وبلغها أن عين الغراب قال: «ابنة أخي الجموح في حاجةٍ إلى ترويض، وأعرفُ الرَّجل الذي سيروّضها». زوّجها يورون بإريك آيرونميكرو وولّي محطّم السّنادين حُكم (جُزر الحديد) في أثناء رحيله لمطاردة التّنانين. كان إريك رجلاً عظيماً في شبابه، مُغيراً لا يعرف الخوف يتباهى بأنه أبحر مع جدّ جدّها داجون جرايچوي الذي سُمّي داجون السكّير تيمناً به. ما زالت المسنّات على (الجزيرة القصيّة) يُخفن أحفادهن بحكايات اللورد داجون ورجاله. جرحتُ كبرياء إريك في انتخاب الملك، ولا أظنّه سينسى هذا.

عليها أن تقرّ بحذق عمّها. بضريةٍ واحدة حوّل يورون غريماً إلى مؤيّد وأمنّ الجُزر في غيابه وأزاح تهديد آشا. واستمتع بالضحك ملء شديقه أيضاً. أخبرها تريس بوتلي بأن عين الغراب استعان بكلب بحريّ بديلاً لها في زفافها، فقالت: «أملُ أن إريك لم يصرّ على إتمام الزّيجة».

لا أستطيعُ العودة إلى الوطن، لكنني لا أجسرُ على المكوث هنا طويلاً. كم يُوتّرها هدوء الغابة. قصّت آشا حياتها على الجُزر والسُّفن. البحر لا يصمّت أبداً، وصوت الأمواج إذ تتكسّر على ساحل صخري في دمها، لكن ليست في (ربوة الغابة) أمواج... فقط الأشجار، أشجار بلا نهاية، صنوبر جُندي وحارس، وزان ودردار وسنديان عتيق، وكستناء وُصلب وتُوب. الصّوت الذي تُصدره أنعم من صوت البحر، ولا يُسمَع إلّا عندما تهبُّ الرّيح، وحينها يبدو الهفيف كأنما يأتي من كلِّ جهةٍ حولها، كأن الأشجار تتبادلُ الوشوشة بلُغةٍ لا تفهمها.

اللّيلة تبدو الوشوشة أعلى من قبل. قالت آشا لنفسها: حفيف الأوراق البنيّة الميتة وصرير الفروع الجرداء في الرّيح، والتفتّت عن النّافذة وعن الغابة مفكّرةً: أحتاجُ إلى سطح سفينةٍ تحت قدمي ثانيةً، وإن لم يكن ذلك فإلى طعام في بطني. لقد أسرقت في الشُّرب اللّيلة، لكنها أكلت القليل جدّاً من الخُبز ولا شيء من الشّواء الشّهوي.

مكّنها سطوع القمر من العثور على ثيابها. ارتدّت سراويل سوداء سميكةً وقميصاً مبطناً وسُترَةً جلديةً خضراء مغطّاة بصفائح الفولاذ المتداخلة، ثم تركت كارل لأحلامه ونزلت سلالم الحصن الخارجية سامعة الدّرجات تصرّ تحت قدميها الحافيتين. لمحّها أحد الواقفين حراسةً على الأسوار

ورفع حربته لها، فردّت آشا بصفير، وإذ قطعت السّاحة الدّاخلية إلى المطابخ بدأت كلاب جالبارت جلوثر تنبح، ففكّرت: عظيم، سيكنم نباحها صوت الأشجار.

كانت تقطع مثلثاً من الجبنة الصّفراء من قالب كبير كعجلة العربة حين دخل تريس بوتلي المطبخ متدنّراً بمعطفٍ سميك من الفرو وخاطبها قائلاً: «مليكتي».

- «لا تسخر مني».

- «ستحكّمين قلبي دوّمًا. لا قدر من الحمقى الهاتفين في انتخاب ملكٍ سيغيّر هذا».

ماذا أفعل بهذا الصّبي؟ لا تُشكّك آشا في إخلاصه، ذلك أنه لم يكتفِ بالوقوف نصيرًا لها على (تل ناجا) والهتاف باسمها فقط، بل عبرَ البحر أيضًا للانضمام إليها في ما بعد هاجرًا ملكه وأهله وداره. كأنه كان يجرؤ على تحدّي يورون في وجهه. حين أخذَ عين الغراب الأسطول إلى البحر تلكًا تريس ببساطة ولم يُبدل مساره إلّا عندما غابت السّفن الأخرى عن الأنظار. لكن حتى هذا التصرّف استلزم نوعًا معيّنًا من الشّجاعة، فالآن لا يستطيع العودة إلى الجزر أبدًا. قالت له: «جبنة؟ هناك لحم خنزير مملّح أيضًا، وخردل».

- «ليس الطّعام ما أريدُ يا سيّدتي، تعرفين هذا». أطلق تريس لحيّة بنيةً كثّة في (ربوة الغابة)، ويزعم أنها تُساعد على تدفئة وجهه. «رأيتك من بُرج المراقبة».

- «إذا كانت هذه مناوبتك فماذا تفعل هنا؟».

- «كروم بالأعلى، وهاجن البوق. كم عينًا نحتاج إليها لنُشاهد أوراق الشّجر تهتزّ في ضوء القمر؟ يجب أن نتكلّم».

زفرت قائلة: «ثانية؟ أنت تعرف ابنة هاجن الصّهباء، أليس كذلك؟ إنها تقود السّفن ببراعة أيّ رجلٍ ولها وجه مليح، في السّابعة عشرة، وقد رأيتها تنظر إليك».

ردّ: «لا أريدُ ابنة هاجن»، وهمّ بلمسها، قبل أن يُعيد النّظر ويقول: «آشا، حان وقت الرّحيل. (خندق كايلن) كانت الشّيء الوحيد الذي يقينا من الفيضان. إذا ظللنا هنا سيقتلنا الشماليون عن آخرنا، تعرفين هذا».

- «تريدني أن أهرب؟» .
- «أريدك أن تعيشي . إنني أحبك» .
لا، بل تحب فتاة بريئة تعيش في عقلك فقط، طفلة خائفة تحتاج إلى
حمايتك. بلا مواربة قالت له: «أنا لا أحبك، ولا أهرب» .
- «ما الذي تتمسكين به هنا غير الأشجار والأوحال والأعداء؟ إن عندنا
سُفناً. أبحري معي وسنبي حياة جديدة في البحر» .
- «كقراصنين؟» . تكاد الفكرة تُغويها. دعي الذئاب يستعيدون غابتهم
العَبوس واستردّي أنتِ البحر الرَّحِب .
أجاب بإصرار: «كتاجرئين . سنُبحر إلى الشرق مثل عين الغراب، لكننا
سنعود بالحرير والتوابل بدلاً من بوق تنانين . رحلة واحدة إلى (بحر اليشب)
ونصير ثريين كالألهة، لنا إيوان في (البلدة القديمة) أو إحدى المُدن الحرّة» .
سألته: «أنت وأنا وكارل؟»، فرأته يجفل لذكر اسم كارل، ثم أردفت:
«قد ترغب ابنة هاجن في الذهاب معك إلى (بحر اليشب). إنني ما زلتُ ابنة
الكراكين، ومكاني...» .
- «... أين؟ لا يُمكنك العودة إلى الجزر ما لم تكوني تتوين الخضوع
لزوجك» .
حاولت أشأ أن تتصوّر نفسها في الفراش مع إريك آرونميكرو، ترزح تحت
وزنه الهائل وتكابد أحضانه. هو أفضل من الملاح الأحمر أو لوكاس كود
الأعسر. في الماضي كان محطّم السّنادين عملاقاً هدّاراً عاتي القوّة شديد
الإخلاص وبلا ذرّة خوف. قد لا يكون الأمر بهذا السوء. غالباً سيموت أول
مرّة يُحاول أن يقوم بواجبه الزّوجي . وهو ما سيجعلها أرملة إريك بدلاً من
زوجة إريك، وهو ما قد يكون أفضل أو أسوأ كثيراً، الأمر مرهون بأحفاده.
وعميّ . في النهاية تدفّعي كل ربح في اتجاه يورون. ذكّرتّه قائلة: «إن عندي
رهيتين في (هارلو)، ثم إن هناك (رأس التّنين البحري)... إذا لم أستطع
نيل مملكة أبي فلم لا أقيم واحدة لنفسي؟» . لم يكن (رأس التّنين البحري)
فقير السكّان دوّمًا كما هو الآن، وما زالت وسط التّلال والمستنقعات أطلال
قديمة، بقايا معازل البشّر الأوائل العتيقة، وفي البقاع العالية دوائر من أشجار
الويروود تركّها أطفال الغابة .

- «تشبَّثين بـ(رأس التَّينِ البحري) كما يتشبَّث الغريق بقطعةٍ من حُطام. ما الذي يرغب فيه أيُّ أحدٍ في (رأس التَّينِ البحري)؟ ليست هناك مناجم أو ذهب أو فضة، ولا صفيح أو حديد حتى، والأرض أكثر ابتلاًا من أن تصلح لزراعة القمح أو الذرة».

لست أنوي زراعة القمح أو الذرة. «ما الذي هناك؟ سأخبرك. خطَّان ساحليَّان طويلان، ومئات الكهوف الخفيَّة، وثمان مائة في البحيرات، وسلمون في الأنهار، ومحار على الشواطئ، ومستعمرات من الفقمات قُربها، وشجر صنوبر طويل لبناء السفن».

- «ومن سبيني تلك السفن يا مليكتي؟ أين ستجد صاحبة الجلالة رعايا لمملكتها إذا تركك الشماليُّون تحظين بها من الأساس؟ أم أنك تنوين حُكم مملكةٍ من الفقمات وثمان مائة؟».

أطلقت ضحكةً ساخرةً مريَّة، وقالت: «حُكم ثعالب الماء أسهل من حُكم البَشَر، والفقمات أذكي. لا، لعلك على حق. ما زالت العودة إلى (بايك) أفضل سبيل أسلكه. هناك في (هارلو) من سيُرحَّبون بعودتي، وفي (بايك) أيضًا، ويورون لم يكسب أصدقاءً في (بلاكتايد) حين قتل اللورد بيلور. يُمكنني أن أجد عمِّي آرون وأستنهض الجُزر». لم يرَ أحد ذا الشعر الرطب منذ انتخاب الملك، لكن رجاله الغرقى يزعمون أنه مختبئ في (ويك الكُبرى) وسيظهر قريبًا ليستنزل غضبة الإله الغريق على يورون وتابعيه.

- «محطَّم السنادين يبحث عن ذي الشعر الرطب أيضًا، ويلاحق الرِّجال الغرقى. بيرون بلاكتايد الأعمى قبض عليه وخضع للاستجواب، وحتى النورس الرَّمادي العجوز قُيِّد بالأصفاد. كيف ستجدين الرَّاهب ورجال يورون كلهم عاجزون عن إيجاداه؟».

- «إنه دمي، أخو أبي». إجابة واهية، وآشأ تعلم هذا.

- «هل تعرفين رأيي؟».

- «أظنُّ أنني على وشك أن أعرفه».

- «رأيي أن ذا الشعر الرطب مات، رأيي أن عين الغراب ذبحه بالفعل. بحث آرونميكِر عنه ما هو إلا حيلة لجعلنا نظنُّ أن الرَّاهب فرَّ. يورون يخشى أن يراه النَّاس كقاتل أقربين».

- «إياك أن تدع عمِّي يسمعك تقول هذا. قُل لعين الغراب إنه يخشى قتل الأقربين وسيقتل أحد أبنائه لمجرد أن يُثبت خطأك». عندها كانت آشا تشعُر أنها استفاقت تقريبًا. لتريستيفر بوتلي هذا التأثير عليها.

- «حتى إذا وجدتِ عمَّكِ ذا الشعر الرطب فستفشلان. كلاكما كان جزءًا من انتخاب الملك، فلا يُمكنكما أن تقولوا إن الدَّعوة إليه كانت غير شرعيَّة مثلما فعلَ تورجون. أنتما مقيدان بقراره حسب كلِّ قوانين الآلهة والبشر. إنكِ...».

قَطَبتِ آشا جبينها وقاطعته متسائلةً: «مهلاً. تورجون؟ تورجون من؟».

- «تورجون المتأخَّر».

- «كان ملكًا في عصر الأبطال». تذكُر هذا عنه، لكنها نسيَت ما عداه.

«ماذا عنه؟».

- «تورجون جرايأبيرون كان ابن الملك الأكبر، لكن الملك كان مسنًا وتورجون لا يحبُّ المكوث في مكانٍ واحد طويلاً، فصادفَ موت الملك غيابه في الإغارة على شواطئ (الماندر) من معقله في (الترس الرمادي). لم يُرسل إليه إخوته خبرًا، وبدلاً من ذلك سارَعوا بالدَّعوة إلى انتخاب الملك حاسبين أن أحدهم سيُختار لاعتماد تاج الخشب المجروف، لكن الرِّبابة والملوك اختاروا أوراجون جودبراذر للحُكم. أول ما فعله الملك الجديد أنه أمرَ بقتل جميع أبناء الملك القديم، وقد كان، وبعدها لَقِبَه النَّاسُ بالأخ الطَّالِح، مع أنهم لم يكونوا من ذوي قُرباه في الحقيقة، وقد حكمَ سنتين تقريبًا».

قالت آشا وقد تذكَّرت: «عادَ تورجون إلى الوطن...».

- «... وقال إن انتخاب الملك غير شرعي لأنه لم يحضره ليُقَدِّم دعواه. كان الأخ الطَّالِح قد أثبت أن حِسَّتَه لا تقلُّ عن قسوته ولم يتبقَّ له على الجُزر أصدقاء كثر، فنَدَدَ به الرُّهبان وثارَ عليه اللوردات وقطَّعه ربابنته أنفُسهم أشلاءً، وأصبحَ تورجون المتأخَّر الملك وحكمَ أربعين عامًا».

أمسكتِ آشا تريس بوتلي من أذنيه وقبَلته على شفثيه مباشرة، ولمَّا تركته كان وجهه قد تورَّد وتقطَّعت أنفاسه، وسألها: «ما هذا؟».

- «اسمها قُبلة. أغرِفتني لأنني حمقاء يا تريس. كان عليَّ أن أتذكَّر...».

بترت أشا عبارتها بغتةً، وحين حاولَ تريس أن يتكلّم أسكنته مصغيةً. «صوت بوق حربي. هاجن». أول ما خطرَ لها زوجها. هل قطعَ إريك آيرونميكِر هذه المسافة كلها ليظفر بعروسه الجَموح؟ «الإله الغريق يحبُّني رغم كلِّ شيء». كنتُ أتساءلُ ماذا أفعلُ فأرسلَ إليَّ أعداءُ أقاتلهم»، ونهضتُ أشا ودستُ سكينها في غمده مضيئةً: «جاءتنا المعركة».

كانت تُهرولُ لدى بلوغها فناء القلعة وفي أعقابها مباشرةً تريس، وعلى الرغم من هذا وصلت متأخرةً. انتهى القتال بالفعل، ووجدتُ أشا رجلين شماليين ينزفان عند السور الشرقي على مقربةٍ من البوابة الجانبيّة، ويقف فوقهما لورن ذو الفأس الطويلة وهارل أبو ست أصابع قدم، وجريمتونج الذي أخبرها: «كروم وهاجن رأياهم يتسلقون السور».

سألته أشا: «هذان الاثنان فقط؟».

- «خمس. قتلنا اثنين قبل أن يستطيعوا العبور، وقتل هارل الثالث فوق الممشى. هذان بلغا الساحة».

أحدهما ميت، يُلوثُ دمه وخلايا مُحخّ فأس لورن الطويلة، لكن الثاني ما زالَ يتنفسُ بخشونةٍ مع أن حربة جريمتونج تُثبته إلى الأرض في بركة دماءٍ تتسع. كلاهما يرتدي الجلد المقوى بالزيت المغلي ومعطفًا مرقعًا من البني والأخضر والأسود، وحول رأسيهما وكففيهما غصون وأوراق شجر مخيطة.

سألته أشا الجريح: «مَن أنت؟».

- «من رجال فلينت. مَن أنت؟».

- «أشا سليلة عائلة جرايچوي. هذه قلعتي».

- («ربوة الغابة) مقرُّ جالبارت جلوثر، ليست دارًا للحباير».

سألته: «هل هناك المزيد منكم؟»، فلمّا لم يُجبَ أبطقتُ على حربة جريمتونج ودورتها، ليصرخ الشمالي توجعًا وينشق المزيد من الدّم من جرحه. «ماذا كنتم تفعلون هنا؟».

أجابَ مرتعدًا: «الليدي. بحقّ الآلهة توقفي. جئنا من أجل الليدي، لننقذها. كنا نحن الخمسة فقط».

نظرتُ أشا في عينيه ورأت ما فيهما من زور، فضغطتُ على الحربة مدوّرةً إياها، وقالت: «كم غيركم؟ أخبرني وإلا جعلتُ احتضارك يدوم حتى الفجر».

أخيراً أجاب منتحِباً بين الصَّرخات: «كثيرون، آلاف، ثلاثة آلاف، أربعة... آييسي! أرجوك...».

انترعت الحربة من جسده ورزخته بها بكلتا يديها في حلقة الكاذب. لقد ادعى مايستر جالبارت جلوفر أن عشائر الجبال أكثر مشاكسة من أن يتحدوا دون أن يقودهم أحد من آل ستارك. ربما لم يكذب، ربما كان مخطئاً فقط. هذا ما تعلمت مذاقه عند انتخاب عمها ملكاً. «هؤلاء الخمسة أرسلوا الفتح البوابة قبل الهجوم الأساسي. لورن، هارل، اجلبا لي الليدي جلوفر والمياستر».

سألها لورن ذو الفأس الطويلة: «سليمين أم داميين؟».

- «سليمين دون أذى. جريمتونج، اذهب إلى هذا البرج الملعون ثلاثاً وأوصِ كروم وهاجن باليقظة. أريدُ أن أعرف إذا رأيا ولو أرنباً».

سرعان ما امتلأ فناء (ربوة الغابة) بالخائفين. كان رجالها يُجاهدون لارتداء دروعهم والصُّعود إلى مماشى الأسوار، وشاهدتهم قوم جالبارت جلوفر بنظراتٍ وجة وتبادلوا الهمس. اضطروا إلى حمل وكيل جلوفر من القبو بما أنه فقد ساقاً عند استيلاء أشا على القلعة، واعترض المياستر بصخبٍ إلى أن وكزه لورن بشدة في وجهه بمجمع قبضته المقفزة بالمعدن، في حين خرجت الليدي جلوفر من أيقة الآلهة مستندة إلى ذراع خادمتها، وحين رأت الجثتين على الأرض قالت: «أنذرتك من مجيء هذا اليوم يا سيديتي».

تقدّم المياستر قائلاً والدّم يَقَطُرُ من أنفه المكسور: «ليدي أشا، أتوسّل إليك، أنزلي راياتك ودعيني أتفاوِّضُ على حياتك. لقد استخدمتينا بعدلٍ وشرف. سأخبرهم بهذا».

وبعينين محمّرتين من فرط الدَّمع والأرق قالت سبيل جلوفر: «سنبادلِك بالطفلين. جاون في الرَّابعة الآن. فأتني يوم ميلاده. وابتي الحبيبة... أعيدي إليّ طفلي ولا داعي لأن يمسك سوء أو يمَسَّ رجالك».

تعلم أشا أن الجزء الأخير مكذوب. قد يُبادِلونها هي، نعم، يشحنونها على سفينة إلى (جزر الحديد) وأحضان زوجها المُحب، ووارد أيضاً أن تُدفع فدية ابني عمومتهما، وكذا تريس بوتلي وقلة أخرى من رفاقها ممَّن يملك أهاليهم مالا يكفي لشراء حياتهم، أمّا الباقيون فمصيرهم الفأس أو حبل المشنقة أو (الجدار). لكن لهم حقاً في الاختيار رغم ذلك.

صعدت آشا فوق برميل كي يراها الجميع، وخاطبتهم قائلة: «الذئاب يُهاجمونا مكشّرين عن أنيابهم. سيكونون عند بوابتنا قبل مطلع الشّمس. هل نلقي حرابنا وفؤوسنا ونستجديهم أن يعفوا عنا؟».

امتشق كارل البكر سيفه هاتفاً: «لا»، وردّد لورن ذو الفأس الطويلة: «لا»، وهدر رولف القزم الذي يفوق رجال طاقمها جميعاً طولاً: «لا، مُحال»، ودوّى بوق هاجن ثانيةً من أعلى ليرنّ صوته في أرجاء السّاحة.

آوووووووووووووووووووووو! تردّد صوت البوق طويلاً واطع النّغمة، صوت يُختر الدّم في الأوردة. بدأت آشا تكره صوت الأبواق. في (ويك القديمة) جهرَ بوق الجحيم الذي أتى به عمّها بموت أحلامها، والآن يُطلق هاجن دفقة تُعلن ما سيكون ساعتها الأخيرة على الأرض على الأرجح. إذا كان الموت مقبلاً لا ريب فسأموتُ بفأس في يدي وشتيمة على شفّتي.

قالت آشا جرايچوي لرجالها: «إلى الأسوار»، واتّجهت هي إلى بُرج الحراسة ووراءها تريس بوتلي.

بُرج المراقبة الخشبي أعلى بناء على هذا الجانب من الجبال، يرتفع عشرين قدماً فوق أكبر شجرة حارس أو صنوبر في الغابة المحيطة. عندما بلغت المنصة أشارَ كروم قائلاً: «هناك أيتها الرّبّان»، لكن آشا لم ترَ إلاّ الأشجار والظلال والتلال التي يُبهرها القمر والقمم الثلجيّة البعيدة. ثم إنها أدركت أن الأشجار تزحف مقتربة، فقالت ضاحكة: «أوهو، كباش الجبال كسوا أنفسهم بغصون الصنوبر». كانت الغابة تتحرّك، تدنو من القلعة كمدّ أخضر بطيء، وقد جعلها المنظر تستعيد في ذاكرتها حكاية سمعتها في طفولتها عن أطفال الغابة ومعاركهم مع البشّر الأوائل، وكيف حوّل الأنبياء الخضر الأشجار إلى مُحاربين.

قال تريس بوتلي: «لا يُمكننا أن نُقاتل هذه الأعداد».

ردّ كروم: «يُمكننا أن نُقاتل كلّ من يأتي أيّاً كان العدد أيها الجرو. كلّما كثروا ازدادَ المجد. سيُعنيّ عنا النّاس».

أجل، ولكن هل سيُعنون عن شجاعتك أم حماقتي؟ البحر يبعُد خمسة فراسخ طويلة. هل فرصتهم أفضل إذا صمدوا وقاتلوا من وراء خندق (ربوة

الغابة) العميق وأسوارها الخشب؟ ذكّرت نفسها: أسوار (ربوة الغابة) الخشب لم تنفع آل جلوفر كثيرا حين أخذت قلعتهن، فلم تنفعني؟
ملّس كروم على فأسه كأنه لا يطيق الانتظار، وقال: «غدا نحفل تحت البحر».

خفّض هاجن بوقه قائلاً: «إذا متنا بأقدام جافة فكيف سنجد طريقنا إلى أبهاء الإله الغريق المائية؟».

قال كروم مُطمئناً: «الغابة ملاءى بالجداول الصغيرة، كلُّها يقود إلى أنهار، وكلُّ الأنهار يقود إلى البحر».

ليست أشا مستعدة للموت، ليس هنا، ليس بعد. هكذا قالت: «الحي يستطيع العثور على البحر بسهولة عن الميت. فليحتفظ الذئاب بغابتهن الموحشة. سنذهب إلى السفن».

تساءلت من يقود أعداءها. لو كنت في مكانه لاحتلكت الشاطئ وأشعلت النار في سفننا الطويلة قبل الهجوم على (ربوة الغابة). لم ترس أشا بأكثر من نصف سفنها، وتركت النصف الآخر آمناً في البحر ومعه أوامر برفع القلوع والذهاب إلى (رأس التنين البحري) إذا احتل الشماليون الشاطئ. قالت: «هاجن، انفخ في بوقك وزلزل الغابة. تريس، ارتد درعاً. حان الوقت لتجربة سيفك الأنيق هذا»، ولما رأت امتقاع وجهه قرصت خده مضيفة: «انثر الدم على وجه القمر معي وأعدك بقبلة لقاء كل فتلة».

قال تريستيفر: «مليكتي، هنا نحن وراء الأسوار، لكن إذا وصلنا إلى البحر ووجدنا أن الذئاب أخذوا سفننا أو طردوها...».

أتمت عبارته بمرح: «... فسنموت، لكن على الأقل سنموت بأقدام مبتلة. حديديو الميلاد يُحسِنون القتال أكثر ورائحة الرذاذ المالح في أنوفهم وصوت الموج إلى ظهورهم».

أطلق هاجن ثلاث دقات قصيرة متواترة، إشارة عودة الحديديين إلى سفنهم، ومن أسفل تردد الصياح وصليل الجراب والسُيوف وصهيل الخيول. خيول قليلة جداً وراكبون قليلون جداً. نزلت أشا السّلام، وفي السّاحة وجدت كارل البكر منتظراً بفرسها الكستنائية وخوذتها الحربية وفؤوسها، ورأت الرجال يقودون الخيول من اسطبلات جالبارت جلوفر.

زَعَقَ صَوْتٌ مِنْ فَوْقِ الْأَسْوَارِ: «مِدْكَ! مَعَهُمْ مِدْكَ!».
سَأَلَتْ آشَا مَمْتِطِيَةً فَرَسَهَا: «أَيُّ الْبَوَابَتَيْنِ؟».
أَتَاهَا الْجَوَابُ: «الشَّمَالِيَّةُ!»، وَمِنْ وَرَاءِ أَسْوَارِ (رَبْوَةِ الْغَابَةِ) الْمَكْسُوءَةِ
بِالطَّحَالِبِ دَوَى بَعْتَهُ صَوْتُ أَبْوَاقِ نُحَاسِيَّةٍ.

أَبْوَاقِ نُحَاسِيَّةٍ؟ ذَنَابٌ يَحْمِلُونَ أَبْوَاقًا نُحَاسِيَّةً؟ خَطَأٌ هَذَا، لَكِنْ آشَا لَا
تَمْلِكُ وَقْتًا لِلتَّفَكِيرِ. أَمَرَتْهُمْ: «افْتَحُوا الْبَوَابَةَ الْجَنُوبِيَّةَ»، فِي اللَّحْظَةِ نَفْسَهَا الَّتِي
ارْتَجَّتْ فِيهَا الشَّمَالِيَّةُ بِضَرْبَةِ الْمِدْكَ. سَحَبَتْ فَأَسَأَ قَصِيرَةَ الْمَقْبُضِ مِنَ الْحِزَامِ
الْمَعْلُوقِ عَلَى كَتْفِهَا بِالْعَرَضِ قَائِلَةً: «وَلَّتْ سَاعَةُ الْبَوْمَةِ يَا أَصْدِقَائِي وَحَانَتْ
سَاعَةُ الْحَرْبَةِ وَالسَّيْفِ وَالْفَأْسِ. اتَّخَذُوا تَشْكِيلَكُمْ. إِنَّا عَائِدُونَ إِلَى الْوَطَنِ».
وَمِنْ مِئَةِ حَلْقٍ خَرَجَتْ هَتَافَاتُ «الْوَطَنِ!» وَ«آشَا!».

هَرَوَلٌ تَرِيْسٌ بَوْتَلِيٌّ إِلَى جَوَارِهَا عَلَى مَتْنٍ فَحَلَّ أَغْبَرَ طَوِيلٌ، وَفِي الْفِنَاءِ
تَضَامٌ رِجَالُهَا حَامِلِينَ التَّرُوسَ وَالْحِرَابَ، وَأَخَذَ كَارُلُ الْبِكْرِ -الَّذِي لَا يُجِيدُ
الرُّكُوبَ- مَوْضِعَهُ بَيْنَ جَرِيْمَتُونِجٍ وَلُورِنِ ذِي الْفَأْسِ الطَّوِيلَةِ. بَيْنَمَا نَزَلَ هَاجِنٌ
سَلَامٌ بُرْجِ الْحِرَاسَةِ مَسْرِعًا أَصَابَهُ أَحَدُ سَهَامِ الذَّنَابِ فِي بَطْنِهِ وَأَسْقَطَهُ عَلَى
رَأْسِهِ أَرْضًا، وَهَرَعَتْ إِلَيْهِ ابْنَتُهُ مَوْلُوءَةٌ فَقَالَتْ آشَا أَمْرَةً: «أَحْضِرُوهَا». لَيْسَ
هَذَا وَقْتُ الْحِدَادِ. سَحَبَ رُولْفُ الْقَزْمِ الْفِتَاةَ إِلَى صَهْوَةِ حِصَانِهِ وَسَعَرَهَا
الْأَحْمَرَ يَطِيرُ، وَسَمِعَتْ آشَا الْبَوَابَةَ الشَّمَالِيَّةَ تَتَنُّ تَحْتَ ضَرْبَةِ الْمِدْكَ، وَفَكَّرَتْ
وَالْبَوَابَةَ الْجَنُوبِيَّةَ تَفْتَحُ أَمَامَهُمْ: قَدْ نَضَطَرُّ إِلَى شِقِّ طَرِيقِنَا عِبْرَهُمَ بِالْقِتَالِ. هَذَا
الطَّرِيقُ خَالٍ. وَلَكِنْ إِلَى مَتَى؟

هَمَزَتْ آشَا فَرَسَهَا بِكَعْبِيهَا صَائِحَةً: «إِلَى الْخَارِجِ!».
كَانَ الرَّجَالُ وَالذَّوَابُ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ يَخْبُونُ حِينَ بَلَّغُوا الطَّرْفَ الْبَعِيدَ مِنْ
الْحَقْلِ الْمَخْضَلِ حَيْثُ تَعَفَّنَ سَنَابِلُ الْقَمْحِ الشَّتْوِيِّ الْمِيْتَةِ تَحْتَ الْقَمَرِ. كَلَّفَتْ
آشَا خِيَالَتَهَا بِحِرَاسَةِ الْمَوْخِرَةِ لِلْحِفَافِ عَلَى حَرَكَةِ النَّازِحِينَ وَالتَّأَكُّدِ مِنْ عَدَمِ
تَرْكِهِمْ أَحَدًا، وَقَدْ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ أَشْجَارُ الصَّنُوبِرِ الْجُنْدِيِّ وَالسَّنْدِيَانِ الْعَتِيقَةِ
الْمَلْتُويَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. (رَبْوَةُ الْغَابَةِ) جَدِيدَةٌ بِاسْمِهَا، فَالْأَشْجَارُ ضَخْمَةٌ قَاتِمَةٌ
وَبَشْكَالٍ مَا تُنْذِرُ بِالْوَيْلِ، يَتَشَابَكُ بَعْضُ فُرُوعِهَا مَعَ بَعْضٍ وَتَصْرُّ مَعَ كُلِّ تَنْهِيدَةٍ
رِيحًا، وَتَخْدُشُ أَغْصَانَهَا الْعُلْيَا وَجَهَ الْقَمَرِ. كَلَّمَا عَجَلْنَا بِالْخُرُوجِ مِنْ هُنَا كَانَ
أَفْضَلَ. الْأَشْجَارُ تَكَرَّهْنَا جَمِيعًا فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهَا الْخَشْبِيَّةِ.

أسرعوا في جهة الجنوب والجنوب الغربي إلى أن غابت أبراج القلعة الخشبيّة عن أنظارهم وابتلعت الغابة أصوات الأبواق النحاس. الذئاب استعادوا قلعتهم. لعلهم يقنعون ويتركوننا نرحل.

لحقّ بها تريس بوتلي، وقال مشيراً إلى القمر اللّائح عبر مظلة الغصون: «إننا نتحرّك في الاتجاه الخطأ. يجب أن نعطف شمالاً إلى الشّفن».

ردّت بإصرار: «غرباً أولاً، غرباً حتى تُشرق الشّمس، ثم شمالاً»، وابتلعت إلى رولف القزم وروجون ذي اللّحية الصّدئة، أفضل خيالتهما، وقالت: «اسبقانا واستطلعنا الطّريق وتأكّدا من خلوه. لا أريد مفاجآت حين نبلّغ السّاحل. إذا رأيتما ذئباً فعودا وأبلغاني».

أكّد لها روجون من تحت لحيته الحمراء الضّخمة: «إذا لزم الأمر». بعد غياب الكشّافين بين الأشجار استأنف الحديديون مسيرتهم ولكن ببطء. الأشجار تُخفي عنهم القمر والنّجوم، وأرض الغابة تحت أقدامهم سوداء خدّاعة. قبل أن يقطعوا نصف ميل تعثرت فرس ابن عمومتها كويتون في حفرة وانكسرت قائمتها الأماميّة، واضطرّ كويتون إلى ذبحها ليُخرس صراخها.

حُثها تريس قائلاً: «ينبغي أن نُوقد مشاعل». ردّت آشا: «النّار ستلفت أنظار الشّماليين إلى مكاننا»، وأطلقت سباً بصوتٍ خفيض متسائلة إن كان الصّواب قد جانبها بمغادرة القلعة. لا. لو بقينا وقاومنا لكننا جميعاً موتى الآن. لكن التّوغل في الظّلام كالعميان لن يُجديهم نفعاً كذلك. ستتقلّنا هذه الأشجار إن استطاعت. خلعت خوذتها وأزاحت شعرها المبلّل عن آخره بالعرق، وقالت: «الشّمس ستُشرق خلال ساعاتٍ قليلة. سنتوقّف هنا ونستريح حتى بزوغ الفجر».

التّوقّف سهل، أمّا الرّاحة فصعبة. لم ينم أحد، ولا حتى دايل ذو الجفن المتدلّي، الملاح المعروف بالغفو بين كلّ ضربتي مجذاف. تقاسم بعض الرّجال قربةً من خمر تُفّاح جالبارت جلوثر ممرّين إياها من يد إلى يد، ومن جلبوا طعاماً تقاسموه مع من لم يجلبوا، وأطعم الخيالة خيلهم وسقوها، وأرسل ابن عمومتها كويتون جرايچوي ثلاثة رجال يتسلّقون الأشجار ليرصدوا ظهور أيّ مشاعل في الغابة، في حين شحّد كروم فأسه وكارل

البكر سيفه، ورعت الخيول في العُشب البني الميت والحشائش، وقبضت ابنة هاجن الصَّهباء على يد تريس بوتلي لتسحبه بين الشجر، فلمَّا رفضت هبت مع هارل أبي ست أصابع قدم بدلاً منه.

ليتي أستطيعُ أن أفعل مثلها. كم سيكون جميلًا لو فقدت نفسها بين ذراعي كارل مرَّةً أخيرةً. خامرَ أشأ إحساس سيئ في بطنها. هل ستشعر بسطح ريحها السوداء تحت قدميها مجددًا؟ وإذا فعلت فأين تُبحر بها؟ الجزر مغلقة في وجهي ما لم أركع وأفتح ساقي وأتحمل أحضان إريك آرونميك، ولا مكان في (وستروس) سيرُحَّب بابنة الكراكن. يُمكنها أن تحترف التجارة كما يبدو أن تريس يُريد، أو تتجه إلى (الأعتاب) وتنضم إلى القراصنة هناك. أو... تمتت: «أرسل إلى كل منكم قطعة من الأمير».

ابتسم كارل ابتسامةً واسعةً، وهمس: «أوثر أن أخذ قطعة منك، القطعة الحلوة التي...».

بتر كلامه الشبيء الذي حلَّق من الدغل ليقع بينهما بصوت مكتوم ويرتد، شيء مستدير داكن مبتل، له شعر طويل خفق حوله إذ تدرج، وحينما استقرَّ وسط جذور سنديانة قال جريمتونج: «لم يعد رولف القزم طويلًا كما كان». كان نصف رجالها قد نهضوا بالفعل وبتناولون تُروسهم وجرابهم وفؤوسهم. وجدت وقتًا يكفي لأن تُفكر: هم أيضًا لم يُوقدوا المشاعل، ويعرفون هذه الغاية أفضل منا بمراحل، قبل أن تتفجَّر الأشجار من كلِّ حذب وصوب حولهم، ويتدفق الشماليون يعوون. ذئاب، يعوون كالذئاب اللعينة، هتاف الحرب في الشمال.

صرخ حديديوها فيهم، واندلع القتال.

لن يُؤلف مطرب أغنية عن هذه المعركة أبدًا، ولن يُدون ما يستر حكايتها لأجل أحد كتب القارئ الحبيبة. لا رايات خفقت، ولا أبواق حرب أتت، ولا دعا لورد عظيم رجاله إليه ليسمعوا كلماته الأخيرة الرثانة. تقابلوا في عتمة ما قبل الفجر، ظلالًا في مواجهة ظلال، يتعثرون في الحُفر والجذور وتحت أقدامهم الطين وورق الشجر المتعفن. يرتدي الحديديون حلقات المعدن والجلد المبقع بالملح، والشماليون الفرو والجلود وغصون الصنوبر، ومن

أعلى تطلّع القمر والنجوم إلى صراعهم، يتسلّل نوره ونورها الشّاحب مكرّراً عبر شبكة الفروع الجرداء الملتوية من فوقهم.

مات أول رجل هاجم أشا جرايچوي عند قدميها بفأس بين عينيه، وهو ما منحها فرصة أن تُثبّت ثُرسها إلى ذراعها. نادّت: «إليّ!»، لكن سواء أوجّهت النداء إلى رجالها أم أعدائها فأشا نفسها لا تستطيع الجزم. وجدت شمالياً طويلاً يحمل فأساً في مواجهتها، يُلوّح بسلاحه بكلتا يديه عاوباً بغضبة بلا كلمات، فرفعت أشا ثُرسها تصدّ الضربة، ثم اندفعت مقتربة لتقبّر بطنه بخنجرها، واتخذ عواؤه نغمةً مختلفةً إذ سقط. دارت ووجدت ذنباً آخر خلفها وشقّت جبهته أسفل خوذته، وأصابته ضربته تحت ثديها لكن قميصها المعدني صدّها، فغرست رأس خنجرها في حلقه وتركته يتشحط ويغرق في دمه. أطبقت يد على شعرها، لكن قصره حال دون أن يستطيع صاحبها أن يسحب رأس أشا إلى الوراء، فهوت بكعب حذائها على مُشط قدمه وانتزعت نفسها من قبضته حين صاح الماء، ولما التفتت كان الرجل قد سقط ويحتضر وهو لا يزال قابضاً على خُصلة من شعرها، وقد وقف كارل فوقه والدم يقطر من سيفه الطويل ونور القمر يسطع في عينيه.

كان جريمتونج يعدّ الشماليين الذين يقتلهم صائحاً: «أربعة» مع سقوط أحدهم، ثم: «خمسة» بعد لحظة واحدة. صرخت الخيول ورفست وزاغت أعينها رعباً وقد أثار الذبح والدم جنونها... جميعها باستثناء فحل تريس بوتلي الأغر الكبير. اعتلى تريس سرجه وراحت مطيته ترفع قائمتيها الأماميتين وتدور فيما ضرب بسيفه هنا وهناك. قد أدب له بقبلة أو ثلاث بالفعل قبل ذهاب الليل.

صاح جريمتونج: «سبعة»، لكن إلى جواره افترش لورن ذو الفأس الطويلة الأرض وقد التوت ساقه تحته، وظلت الظلال تُهاجم مصدرة الصّباح والحفيف. فكّرت أشا إذ قتلت رجلاً تكسوه أوراق أكثر من معظم الأشجار المحيطة: إننا نُقاتل الأدغال، وجعلها هذا تضحك، واجتذبت ضحكها مزيداً من الذئاب إليها، فقتلتهم أيضاً متسائلة إن كان يُمكنها أن تبدأ عدّ القتلى بدورها. أنا امرأة متزوجة، وهذا طفلي الرضيع. أعمدّت خنجرها في صدر رجل شمالي عبر الفرو والصوف والجلد، وكان وجهه دانياً للغاية منها حتى

إنها شَمَّتْ أنفاسه الكريهة، لكن يده أحاطت بحلقها، وشعرت أشا بالحديد يحتكُ بالعظم إذ انزلقَ رأس خنجرها على أحد ضلوعه، ثم ارتعدَ الرَّجل ومات، وعندما تركته أحسَّت بضعفٍ كاد يُسقطها فوقه.

بعدها وقفت بظُهرها إلى ظهر كارل يُصغيان إلى الأنين والسباب من حولهما وإلى أصوات الرجال الشُّجعان الرَّاحفين وسط الظلال يُنادون أمهاتهم باكين. انقضَّ عليها دغل بحربةٍ يكفي طولها لاختراق بطنها وظُهر كارل في آنٍ واحد وتبثيتهما ليموتا معًا. قالت لنفسها: أفضل من الموت وحدي، لكن كويتون ابن عمومتها قتلَ حامل الحربة قبل أن يبلغها، وفي اللَّحظة التَّالية قتلَ دغل آخر كويتون غارسًا فأسًا في قاعدة جمجمته.

من ورائها زعقَ جريمتونج: «تسعة، وبسًا لكم جميعًا»، واندفعت ابنة هاجن عاريةً من بين الأشجار وفي أعقابها ذئبان، فانتزعتَ أشا فأسًا وألقتها تدور في الهواء لتُصيب أحدهما في ظُهره، وما إن سقطت هوت ابنة هاجن على رُكبتها واختطفَت سيفه وطعنتَ به الرَّجل الثَّاني، ثم نهضت من جديدٍ ملطخةً بالدم والطمي وقد استرسلَ شعرها الأحمر الطويل، واقتحمت القتال.

في مكانٍ ما خلال كَرَّ المعركة وفرَّها فقدتَ أشا كارل، وفقدتَ تريس، فقدتهم جميعًا، واختفى خنجرها أيضًا، ونفدت فؤوسها كلها، وبدلاً من ذلك وجدت في يدها سيفًا قصيرًا عريض النَّصل سميكه كأنه ساطور جزَّار، ولعمرها لا تدري كيف حصلت عليه. أو جعلتها ذراعها، وملاً مذاق الدماء فمها، وبدأت ساقها ترتجفان. كانت خيوط ضوء الفجر تتسلل من بين الأشجار، فتساءلت في أعماقها: هل مرَّ كل هذا الوقت؟ كم قضينا في القتال؟ عدوها الأخير كان شمالياً يحمل فأسًا، رجلاً كبيرًا ملتحمًا أصلع يرتدي سُترَةً مرقعةً من الحقات المعدنيَّة الصَّدئة لا تعني إلا أنه أحد الزعماء أو الأبطال. لم يسرَّ الرَّجل أن يجد نفسه يُقاتل امرأة، وكلما سدَّد إليها ضربةً هدر واللعاب يتناثر من فمه على وجنتيها: «قحبة! قحبة! قحبة!».

أرادت أشا أن تردَّ له الصَّياح، لكن شيئًا لم يخرج من حلقها الجاف كالصَّحراء غير أنين خشن. هسَّمت فأسه تُرسها، شقت الخشب بضربةٍ سفليَّة ومزقته إلى شظايا طويلة شاحبة حين انتزعها، وسرعان ما لن تجد إلا كتلةً من

الهشيم على ذراعها. تراجعت ونفضت الترس المحطم، ثم تراجعت أكثر
ورقصت يساراً ويميناً ثم يساراً ثانيةً تتفادى الفأس الهاوية عليها.
واصطدم ظهرها بجذع شجرة ولم يعد بإمكانها الرقص. رفع الذئب فأسه
فوق رأسه توطئةً لشج رأسها، وحاوكت الانزلاق يميناً لكن قدمها علقت
ببعض الجذور المتشابكة وأسقطتها. التوت آشا وفقدت توازنها، وارتطم
رأس الفأس بصدغها ليصرخ الفولاذ على الفولاذ، واحمر العالم في عينيها
واسود ثم احمر من جديد، وطقق الألم في ساقها كالبرق. من بعيد سمعت
الشمالي يقول: «أيتها القحبة الحقيرة» وهو يرفع فأسه استعداداً للضربة التي
ستجهز عليها.

ثم دوى بوق نحاسي.

خطأ هذا. ليست هناك أبواق نحاسية في أبهاء الإله الغريق المائية. تحت
الأمواج يحيي عرسان البحر سيدهم بالنفخ في الأصداف.
وحلمت آشا بقلوب حمراء أجاجة ووعل أسود في غاية ذهبية تُرفرف
ألسته اللهب من قرونه.

*



تيريون

لدى وصولهما إلى (فولانتيس) كانت السماء أرجوانية إلى الشرق سوداء إلى الغرب والنجوم بدأت تظهر.

قال تيريون لانستر لنفسه متأملاً: النجوم نفسها في (وستروس). ربما كان ليجد شيئاً من السلوى في هذا لو لم يكن مقيداً الأطراف كأوردة وموثقاً إلى سرج، وقد كف عن التلوي محاولاً التملص من قيوده المحكمة، وبدلاً من ذلك ارتخى جسده تماماً كجوالٍ من الجريش. أذخر قوتي. هكذا أخبر نفسه، مع أنه لا يدري لأي شيء يدخرها.

تُعلق (فولانتيس) بواباتها عند حلول الظلام، فراح الحرس الواقفون على البوابة الشمالية يمدِّمون بصير نافذ في العابرين. انضموا إلى الطابور وراء عربة محملة بالليمون الأخضر والبرتقال، وأشار الحرس للعربة بالمرور بمشاعلهم، وإن أقوا نظرة أكثر تفحصاً على الأندالي الكبير فوق جواده الحربي بسيفه الطويل وقمصيه المعدني، ثم استدعوا قائدهم، وبينما تبادل القائد مع الفارس بعض الكلام باللغة الفولانتينية خلع أحد الحرس قفازه الفولاذي المخالب وفرك رأس تيريون، فأخبره القزم: «إنني مليء بالحظ السعيد. أطلق سراحي يا صديقي وسأحرص على أن تنال مكافأة سخية».

سمعه آسره، ولما أشار لهما الفولانتينيون بالمرور قال له: «وفر أكاذيبك لمن يتحدثون لغتك أيها العفريت».

عادا يتحرَّكان، مروراً من البوابة وأسفل أسوار المدينة الهائلة. ردَّ تيريون: «أنت تتحدَّث لغتي. هل يُمكنني تغيير رأيك أم أنك عازم على شراء اللوردية برأسي؟».

- «كنت لُورد بالفعل بحق الميلاد. لا أريد ألقاباً جوفاء».

- «إنها كل ما ستنال من أختي على الأرجح».

- «مع أنني سمعتُ أن اللانستر يُسدّد ديونه دائماً».

- «أوه، كل بنس... ولكن لا جروت إضافياً يا سيدي. ستقدم لك الوجبة التي تترقبها، لكنها لن تكون متبلة بالعرفان، وفي النهاية لن تغديك».

- «ربما لا أريد إلا أن أراك تدفع ثمن جرائمك. قاتل الأقربين ملعون في أعين الآلهة والبشر».

- «الآلهة عمياء، والبشر لا يرون إلا ما يريدون رؤيته».

قال الفارس: «أراك بوضوح كافٍ أيها العفريت»، وتسلل شيء قاتم غامض إلى نبرته إذ أردف: «لقد فعلت أشياء لست فخوراً بها، أشياء جلبت العار على عائلتي واسم أبي... لكن تقتل أباك؟ كيف يستطيع إنسان أن يفعل هذا؟».

- «أعطني نُشابيةً وأنزل سراويلك وسأريك». بكل سرور.

- «أظنّها نكتة؟».

- «أظنّ الحياة نكتة، حياتك وحياتي وحياة الجميع».

مرّاً داخل المدينة بمقار رابطات عمّال وأسواق وحمّامات، وبنوافير تنثر مياهها وتتغنى في منتصف ميادين واسعة، حيث يجلس النَّاس إلى طاوالتٍ حجريةٍ يُحرّكون قطع السايكاس ويشربون النبيذ من كؤوسٍ رُجاجةٍ طويلة رقيقة، فيما يُشعل العبيد القناديل المنمّقة لطرد الظلام. بطول الطريق ينمو النخيل وشجر الأرز، وعند كل رُكنٍ تقف الأنصاب التذكارية، وإن لاحظ القزم أن كثيراً من التماثيل بلا رؤوس، ولكن حتى في غياب رؤوسها لا تفتقر إلى المهابة في أرجوان الغسق.

إذ مضى الجواد الحربي جنوباً بمحاذاة النَّهر بدأت المحال تصير أصغر حجماً وأكثر تواضعاً، وأصبحت الأشجار بطول الشّارع صفّاً من الجذوع المبتورة، وأفسحت حجارة الرّصف الطّريق للعُشب الشّيطاني تحت حوافر حصانها، ثم أفسح العُشب الشّيطاني الطّريق بدوره لطميّ طريّ مبتل له لون فضلات الرّضع. صرّت الجسور الصّغيرة الممتدة فوق النّهيرات التي تصبّ في (الروين) تحت ثقلهم، وحيث كان حصن يطل على النَّهر في الماضي لم يتبقّ الآن إلا بوّابة محطّمة مغمورة كغم شيخٍ يخلو من الأسنان، ولمح تيريون بعض الماعز تنظر من الشرفات.

(فولانتيس) العجوز، ابنة (فاليريا) البكر. (فولانتيس) الأبيّة، ملكة

(الروين) وسيّدة (بحر الصّيف)، موطن السّادة النّبلاء والسّيّدات الجميلات، أصحاب الدّماء الضّاربة في القدم. ولا عليك بقُطعان الأطفال العُراة الذين يجوبون الأزقة صارخين بأصواتٍ حادّة تتقّب الأذان، أو بمُبارزي البرافو الواقفين على أبواب الخمّارات مداعبين مقابض سيوفهم، أو بالعبيد بظهورهم المحنّية ووجوههم الموشومة المهرعين في كلِّ مكانٍ كالصّراصير. (فولانتيس) القويّة، أعظم المُدن الحرّة التسع وأعمرها بالسكّان. على أن الحروب العتيقة أنقصت أعدادًا كبيرةً من أهل المدينة، وبدأت قطاعات واسعة منها تغوص في الطّمي الذي كانت تقف عليه في ما سبق. (فولانتيس) الجميلة، مدينة النّوافير والأزهار. لكن نصف النّوافير جفّ ونصف أحواض السّباحة تصدّع وملاؤه المياه العكّرة، وزحفت فروع النّباتات المعترشة المزهرة من كلِّ شقٍّ في سورٍ أو رصيف، وغرست الأشجار الشّابة جذورها في جدران المحال المهجورة والمعابد المكشوفة.

ثم إن هناك الرّائحة الفوّاحة في الهواء السّاخن الرّطب، قويّة نفاذة متغلغلة. فيها أسماك وزهور، والقليل من روث الأفيال أيضًا. شيء عطرٍ وشيء أرضيٍ وشيء ميت متعفن. أعلن تيريون: «رائحة هذه المدينة كالعاهرة العجوز، كبغية مترهّلة أغرقت عورتها بالعطر لتقضي على الرّائحة التّنة بين ساقيها. لست أشكو. مع العاهرات، الشّابّات رائحتهن أفضل، لكن العجائز يعرفن حيلاً أكثر».

- «تعرف عن هذا أكثر مني».

- «آه، بالطبع. والماخور الذي التقينا فيه، هل حسبته سيّتًا؟ التي كانت تتلوّى في حجرك أختك العذراء؟».

دفعه قوله إلى العبوس، وقال: «اجفظ لسانك هذا ما لم تكن تُريدني أن أربطه لك كالعُقدة».

ابتلع تيريون رده. ما زالت شفته متورّمة منذ آخر مرّة بالغَ فيها في استفزاز الفارس. اليدان الصّلبتان وغياب حسّ الفكاهة مزيج لا يأتي منه خير. تعلم هذا على الطّريق من (سلهوريس). ذهبت أفكاره إلى حدائه والفطر المخبأ في الإصبع الكبير. لم يُفتّشه أسره بالدقّة التي يحسبها. هذا المهرب متاح دومًا. على الأقلّ لن تنالني سرسي حيًّا.

مع توغلها جنوبًا بدأت علامات الازدهار تظهر من جديد. قلت المباني المهجورة، واختفى الأطفال العُراة، وارتدى مُبارزو البرافو الواقفون في المداخل ثيابًا أكثر أناقةً، وبدا بعض الخانات التي مرَّ بها كأمكنةٍ يستطيع المرء أن ينام فيها بلا خوفٍ من الذَّبْح. على طريق النَّهر تتدلَّى القناديل من قوائم حديديةٍ وتتأرجح في مهبِّ الرِّيح، والشُّوارع أعرض والبنيات أفخم، بعضها متوجِّع بقبابٍ عظيمةٍ من الزُّجاج الملون، وفي الغسق ومع إشعال النَّار أسفلها تتوهج القباب بالأزرق والأحمر والأخضر والأرجواني.

وعلى الرغم من هذا أصاب شيء ما في الهواء تيريون بالتوتُّر. يعلم أن غرب (الروين) تكتظُّ أرصفة (فولانتيس) بالبحارة والرَّقيق والتجَّار الذين تخدمهم الخمَّارات والخانات والمواخير، لكن شرق النَّهر لا يرى الأغرَاب القادمون من وراء البحار إلا نادرًا. ليس مرغوبًا في وجودنا هنا.

أول مرَّة مرَّا بفيل لم يستطيع تيريون أن يمنع نفسه من الحملقة. في صغره كان في معرض الوحوش في (لانسپورت) فيل، لكنه مات وهو في السَّابعة... وهذا العملاق الرمادي الجسيم يبدو أكبر منه مرَّتين. بعد قليل وجدا نفسيهما وراء فيل آخر أصغر حجمًا، أبيض كالعظام القديمة ويجرُّ عربةً منمَّقة الزُّخرف. سألت تيريون أسرته: «هل تظل عربة الثيران عربة ثيران بلا ثيران؟»، فلمَّا لم يجد استجابةً لدُعابته عادَ يلوذ بالصَّمت متأملًا كفل الفيل القزم الأبيض الذي يترجرج أمامهما.

تعجُّ (فولانتيس) بالأفيال القزمية البيضاء، ومع دنوِّهما من (السُّور الأسود) والقطاعات المزدحمة قُرب (الجسر الطَّويل) رأيا دسنةً منها. كما أن الأفيال الرمادية الكبيرة ليست نادرةً بل موجودة هنا وهناك وعلى ظهورها الضَّخمة الهوادج. في ضوء المساء الخافت تخرُج عربات الرُّوث التي يجرُّها عبيد نصف عُراة مهمَّتهم أن يجرفوا الأكوام السَّاخنة التي تُخلِّفها الأفيال صغيرها وكبيرها، ولأن أسراب الذباب تتبع العربات فوجوه هؤلاء العبيد موشومة بالذباب لتمييز عملهم. حرفة تصلح لأختي. كم ستبدو جميلةً بجاروفٍ في يدها وذباباتٍ موشومة على وجنتيها الغضَّتين المتوردتين.

عندئذٍ كانت حركتهما قد تباطأت كثيرًا. تخنُّق طريق النَّهر حركة المرور التي تتدفقُ كلُّها تقريبًا جنوبًا، وقد مضى معها الفارس كجذع شجرةٍ في

تَيَّارِ الْمَاءِ. رَمَقَ تِيرِيونَ الْجُمُوعِ الْمَارَّةَ مَلَاظَةً أَنْ تَسْعَةَ مِنْ كُلِّ عَشْرَةٍ عَلَى
وَجُوهِهِمْ عِلَامَاتُ الرَّقِّ. «عَبِيدُ كَثِيرُونَ لِلْغَايَةِ... أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟».

- «الرُّهْبَانُ الْحُمْرُ يُشْعَلُونَ نيرانَهُمُ اللَّيْلِيَّةَ عِنْدَ الْغُرُوبِ. سَيَتَكَلَّمُ الرَّاهِبُ
الْأَعْلَى. كُنْتُ لِأَنْفَادَاهُ إِنْ اسْتَطَعْتُ، وَلَكِنْ لِبَلُوغِ (الْجِسْرِ الطَّوِيلِ) عَلَيْنَا
الْمَرُورَ بِالْمَعْبَدِ الْأَحْمَرِ».

بَعْدَ ثَلَاثِ بِنَايَاتِ انْفِتَاحِ الشَّارِعِ أَمَامَهُمَا عَلَى سَاحَةِ ضَخْمَةٍ تُضَيِّئُهَا
الْمِشَاعِلُ، وَهِيَ هِيَ ذَا. لِيُتَقَدَّزِي (السَّبْعَةَ)، لِأَبْدُ أَنْهُ أَكْبَرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ مِنْ (سَيْتِ
بِيلُورِ الْكَبِيرِ). يَرْتَفِعُ (مَعْبَدُ إِلَهِ الضِّيَاءِ) كَمَا (تَلُ إِجُونِ الْعَالِيِ)، صَرَحَ مِنْ
الْأَعْمَدَةِ وَالسَّلَامِ وَالذَّعَامَاتِ وَالْحُسُورِ وَالْقِيَابِ وَالْبُرُوجِ، جَمِيعُهَا مَتَدَاخِلُ
مِثْلَابِكُ كَأَنَّهَا مَنْحُوتَةٌ مِنْ صَخْرَةٍ عَمَلِاقَةٌ وَاحِدَةٌ. عَلَى جُدْرَانِ الْمَعْبَدِ تَلْتَقِي
مِئَةُ دَرَجَةٍ مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَصْفَرِ وَالذَّهَبِيِّ وَالْبُرْتَقَالِيِّ وَتَمْتَرِجُ، يَذُوبُ بَعْضُهَا
فِي بَعْضٍ كَالسَّحَابِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَتَلْتَوِي الْأَبْرَاجُ الرَّفِيعَةُ إِلَى أَعْلَى
كَأَنَّهَا لَهَبٌ مَجْمَدٌ يَمْتَدُّ إِلَى السَّمَاءِ. النَّارُ وَقَدْ اسْتَحَالَتْ إِلَى حِجْرٍ. عَلَى جَانِبِي
دَرَجَاتِ الْمَعْبَدِ تَشْتَعَلُ نيرانُ لَيْلِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، وَبَيْنَهَا بَدَأَ الرَّاهِبُ الْأَعْلَى يَتَكَلَّمُ.
بَنِيرو. وَقَفَ الرَّاهِبُ عَلَى قِمَّةِ عَمُودٍ حَجْرِيٍّ أَحْمَرَ يَرْبُطُهُ جِسْرٌ رَفِيعٌ بِشُرْفَةٍ
شَامِخَةٍ يَقِفُ فِيهَا الرُّهْبَانُ وَالْمُعَاوَنُونَ الْأَدْنَى مَرْتَبَةً، وَقَدْ ارْتَدَى الْمُعَاوَنُونَ
الْأَصْفَرُ الْبَاهِتُ وَالْبُرْتَقَالِيُّ الصَّارِخُ، وَالرُّهْبَانُ وَالرَّاهِبَاتُ الْأَحْمَرُ.

تَكَادُ السَّاحَةُ أَمَامَهُمَا تَكُونُ مَصْمُتَةً مِنْ فِرطِ الزَّحَامِ. كَانَ كَثِيرُونَ جَدًّا مِنْ
الْمَتَعَبِّدِينَ يُثَبِّتُونَ قُصَاصَاتٍ مِنَ الْقِمَاشِ الْأَحْمَرَ إِلَى أَكْمَامِهِمْ أَوْ يَرْبُطُونَهَا
حَوْلَ جِبَاهِهِمْ، وَانصَرَفَتِ الْأَعْيُنُ كُلُّهَا إِلَى الرَّاهِبِ بِاسْتِثْنَاءِ أَعْيُنِهِمْ. دَمَدَمَ
الْفَارِسُ وَحِصَانَهُ يَتَقَدَّمُ بِصُعُوبَةٍ عِبْرَ الْأَعْدَادِ الْغَفِيرَةِ: «أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ، دَعُونَا
نَمُرُّ»، فَأَذَعْنَ الْقَوْلَاتِ تَبِينُونَ بِاسْتِثْنَاءِ تَصَجُّبِهِ الهمهماتِ وَالنَّظَرَاتِ الْغَاضِبَةِ.

تَرَدَّدَ صَوْتُ بَنِيروِ الْعَالِيِ بِوَضُوحٍ. الرَّجُلُ طَوِيلٌ نَاحِلٌ، لَهُ وَجْهٌ مَسْحُوبٌ
وَبَشْرَةٌ بَيْضَاءُ كَالْحَلِيبِ، وَعَلَى وَجْهِهِ وَذِقْنِهِ وَرَأْسِهِ الْأَصْلَعُ تَصْنَعُ وَشُومٌ
الْلَّهَبُ قَنَاعًا أَحْمَرَ زَاهِيًا يُحِيطُ بِعَيْنَيْهِ وَيَلْتَفُّ إِلَى أَسْفَلٍ مَحِيطًا بِشَفْتَيْهِ الرَّفِيعَتَيْنِ
لِلْغَايَةِ. سَأَلَ تِيرِيونَ: «أَهَذَا وَشْمٌ عَبُودِيَّةٌ؟».

أَوْ مَأً الْفَارِسِ بِرَأْسِهِ مَجِيئًا: «الْمَعْبَدُ الْأَحْمَرُ يَشْتَرِيهِمْ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَيَجْعَلُ
مِنْهُمْ رُهْبَانًا أَوْ بَائِعِي هَوَى أَوْ مُحَارِبِينَ. انظُرْ هُنَاكَ»، وَأَشَارَ إِلَى الدَّرَجَاتِ

حيث يقف صفٌّ من الرِّجال في دروعٍ منمَّقة ومعاطف بُرتقاليَّةٍ أمام باب المعبد، يقبضون على حِرَابٍ تتخذُ رؤوسها شكل اللَّهب المتلوِّي. «اليد النَّاريَّة، جُنْدٌ إله الصِّياء المقدَّسون وحُماة المعبد».

فُرسان النَّار. «وكم إصبغاً في هذه اليد يا تُرى؟».

- «ألف، لا أكثر ولا أقل. كلما انطفأ لهب أحدهم أُشعلَ لهب جديد في مكانه».

أشارَ بنير ويأصبغه إلى القمر بحدَّةٍ ثم كَوَّر قبضته ثم بسطَ يديه عن آخِرهما، وحين تعاطمت نبرته وثب اللَّهب من أصابعه بصوتٍ جيَّاشٍ مبالغت جعلَ الجمهور يشهق، وبعدها بدأ الرَّاهب يكتُب حروفاً ناريَّةً في الهواء. أبجديَّةٌ فاليريَّة. تعرَّف تيريون كلمتين من عشرة ربما، إحداهما «الهلاك» والثانية «الظلام».

تفجَّر الصِّياح من المحتشدين، وانتحبت النساء ولوَّح الرِّجال بقبضاتهم. يُساورني شعور سيِّئ. ذكَّر المشهد القزم بيوم أبحرت مارسلا إلى (دورن) والشَّعب الذي اندلع وهُم يشقون طريق العودة إلى (القلعة الحمراء).

تذكَّر تيريون كلام هالدون النِّصف مايستر عن استغلال الرَّاهب الأحمر لصالح جريف الصَّغير، لكن الآن وقد رأى وسمع الرَّجل بنفسه وجدَّها فكرةً في غاية السُّوء، وأمل أن يكون جريف أكثر حصافةً. بعض الحُلفاء أخطر من الأصدقاء، لكن على اللورد كونجتون أن يكتشف هذا بنفسه، لأنني سأكون رأساً على خازوق على الأرجح.

كان الرَّاهب يُشير إلى (السُّور الأسود) وراء المعبد ويُلوح بيده نحو شرفاته حيث تقف مجموعة صغيرة من الحُرَّاس المسلَّحين تُشاهد، فسأل تيريون الفارس: «ماذا يقول؟».

- «إن دنيرس في خطر، إن عين الظَّلام وقعت عليها وأعوان اللَّيل يُخططون لدمارها، يُصلُّون لألتهم الزَّائفة في معابد الخديعة... يتأمرون على الخيانة مع الأجناب الكافرين...».

بدأت الشُّعيرات الصَّغيرة على مؤخِّرة عنق تيريون تنتصب. لن يجد الأمير إجون أصدقاءً هنا. تكلم الرَّاهب عن نبوءةٍ عتيقة، نبوءة تُبشِّر بمجيء بطل يُقنذ العالم من الظُّلمات. بطل واحد لا بطلان. دنيرس لديها تنانين، أمَّا إجون

فلا. ليس القزم محتاجًا إلى أن يكون نبياً ليتكهن برده فعل بنيرو وأتباعه حيال ظهور تارجارين آخر في الصورة. فكّر مندهشًا من قدر اهتمامه بالأمر: مؤكّد أن جريف سيرى هذا أيضًا.

عندئذ كان الفارس قد شقّ طريقهما قسرًا عبر أغلب الزحام في طرف السّاحة متجاهلاً اللّعنات التي انصبّت عليهما. وقف أمامهما رجل، لكن أسره أمسك مقبض سيفه وسحبه مظهرًا قدمًا فقط من الفولاذ المجرّد، ليختفي الرّجل في لحظة ويفتح زقاق أمامهما فجأة. همز الفارس حصانه ليتحرّك خبيًا وتركا الجماهير وراءهما، وللحظات سمع تيريون صوت بنيرو يخفت شيئًا فشيئًا من ورائهما والهدير الذي تُفجّره كلماته كالرعد.

بلغا اسطبلًا. ترجّل الفارس ودقّ الباب بعنفٍ إلى أن جاء عبد علي وجتته رأس حصان مسرعًا، ثم أنزل القزم بخشونة من فوق السّرج ورُبط إلى عمودٍ فيما أيقظ أسره مالك الاسطبل وساوّمه على ثمن حصانه وسرجه. بيع الحصان أرخص من شحنه عبر العالم. توقع تيريون سفينة في مستقبله القريب. قد يكون نبياً بالفعل.

عندما انتهت المساومة علّق الفارس أسلحته وثرسه وجراب سرجه على ظهره واستلم عن الاتجاه إلى أقرب ورشة حدادة، وحين بلغاها أتضح أنها مغلقة أيضًا، وإن انفتحت على إثر صيحة من الفارس. رمق الحدّاد تيريون مضيقًا عينيه ثم أومأ برأسه وقبل حفنة من العُملات، وقال الفارس لأسيره: «تعال هنا»، وسحب خنجره وقطع قيود القزم الذي قال فاركًا معصميه: «أشكرك»، لكن الفارس ضحك قائلاً: «وفّر امتنانك لمن يستحقّه أيها العفريت. لن يُعجبك الجزء التّالي». ولم يكن مخطئًا.

الأغلال من الحديد الأسود السّميك الثّقل، وزن كلّ منها رطلان إذا أحسن القزم التّقدير، وأصافت السّلاسل مزيدًا من الوزن. قال تيريون والحدّاد يدقّ مغلّمًا الحلقات الأخيرة: «مؤكّد أنني مخيف أكثر مما حسبت». أصابت كلّ دقّة ذراعه بصدمةٍ سرّت فيها حتى الكتف تقريبًا. «أم أنك تخشى أن أندفع هاربًا على ساقَي الصّغيرتين ناقصتي النّمواتين؟». لم يرفع الحدّاد بصره عن عمله إطلاقًا، لكن الفارس ضحك بقتامة،

وقال: «ما يهمني فمك لا ساقك. في الأصفاد ستكون عبداً، ولن يُصغي أحد إلى كلمةٍ تقولها، حتى من يتكلمون لغة (وستروس)». قال تيريون معترضاً: «لا داعي لهذا. سأكونُ سجيناً مطيعاً، حقاً، حقاً».

- «أثبت هذا إذن واخرس».

وهكذا أترق تيريون برأسه وابتلع لسانه إذ بُتت السلاسل من المعصم إلى المعصم ومن المعصم إلى الكاحل ومن الكاحل إلى الكاحل. هذه الأشياء اللعينة وزنها أثقل مني. على الأقل ما زال يتنفس. كان بإمكان أسره أن يقطع رأسه بالسهولة ذاتها، فهذا هو كل ما تتطلبه سرسي في النهاية، لكن خطأ أسره الأول أنه لم يضرب عنقه في الحال. بين (فو لانتيس) و(كينجز لاندنج) نصف عالم، وثمة أشياء كثيرة قد تحدث في الطريق أيها الفارس. أكملًا طريقهما سيراً على الأقدام، يرن تيريون ويُصلصل مكافحاً لمجارية خُطى أسره الواسعة العجول، وكلما بدا أنه سيتخلف أطبق الفارس على سلاسله وشدها بخشونةٍ ليمضي القزم متوثباً متعثراً إلى جواره. كان يُمكن أن يكون الأمر أسوأ لو حثني على الحركة بالكرباج.

تمتد (فولانتيس) فوق أحد مصبات (الروين) حيث يُقبل النهر البحر، ويربط نصفها معاً (الجسر الطويل). أقدم مناطق المدينة وأغناها شرق النهر، لكن المرتزقة والبرابرة وغيرهم من الأجانب الأجلاف لا يجدون ترحيباً هناك، وعليه فيجب أن يعبروا الجسر إلى الغرب.

مدخل (الجسر الطويل) قنطرة من الحجر الأسود المنقوشة عليه صور آباء الهول والمانتيكورات⁽¹⁾ والتنانين وكائنات أخرى أغرب، ووراء القنطرة الامتداد العظيم الذي شيده الفاليريون في أوج مجدهم وتحمل ركائز عملاقة طريقه الحجري الأملس المصمت. لا يتسع الطريق لمرور أكثر من عربتين متجاورتين، ولذا كلما تلتقي عربية متجهة غرباً واحدة ذاهبة شرقاً تضطر كلتاها إلى خفض سرعتها حدّ الزحف.

(1) المانتيكور في الأساطير الفارسية حيوان له رأس إنسان وجسم أسد وجناح كالوطواط وثلاثة صفوف من الأسنان الحادة كسمكة القرش. أمّا في عالم الرواية فيُطلق على حشرة لها رأس ووجه شبيه بالإنسان وذيل شائك مقوّس مليء بالسُم، وتستطيع أن تطوي أجنحتها كالجعران. (المترجم).

جيدٌ أنهما ماشيان، فبعد أن قطعاً ثلث الطريق وجداً عربةً محملةً بالشَّمَامِ اشتبكت عجلاتها مع عجلات واحدةٍ تتكدّس عليها البُسَطُ الحرير، وهو ما تسبّب في تعطيل حركة العربات الأخرى كلّها. توقّف كثيرون من المارّة أيضاً ليُشاهدوا السائقين يتبادلان الزّعيق والسّنائم، لكن الفارس قبض على سلسلة تيريون، وشقّ لهما طريقاً عنوةً بين الجموع. في منتصف الزّحام حاول صبيٌّ أن يمدّ يده داخل صُبرة نقوده، لكن ضربةً قويّةً بمرق الفارس حالت دون ذلك وطبقت أنف اللصّ الدّامي على وجهه.

على جانبيهما ترتفع بنايات شتى؛ محال ومعابد، وحنات وحنات، وصلات سايفاس ومواخير. أكثرها من ثلاثة أو أربعة طوابق، ويتأ كل طابق عن الذي أسفله، فيما تتقارب الطوابق العليا بشدّة حتى تكاد تتبادل القبل. شعر تيريون في أثناء عبور الجسر كأنه يمضي في ممرّ مضاء بالمشاعل. على الامتداد محال وأكشاك من كلّ صنّف، يعرض النّساجون والخياطون بضائعهم جنباً إلى جنب نافخي الزّجاج والشّماعين والسّمّاكات بائعات ثعابين الماء والمحار. يضع كل ضائع حارساً على بابه، فيما يضع كل عطار حارسين، ذلك أن بضائعهم أثمن من الذهب مرّتين. هنا وهناك بين المحال يستطيع العابر أن يرى لمحة خاطفة من النّهر. إلى الشّمال (الروين) شريط أسود عريض مزدان بانعكاسات النّجوم، أعرض خمس مرّات من (النّهر الأسود) في (كينجز لاندنج)، وجنوب الجسر يفتح النّهر ليعانق البحر المالح.

في منتصف الجسر وبطول الطّريق تُعلّق أيدي اللّصوص والنّشالين كحُزم البصل من قوائم حديدية، وقد علّقت ثلاثة رؤوس أيضاً، رجلان وامرأة جرائمهم مكتوبة على ألواح تحتهم. عند الرّؤوس يقف حارسان بخوذتين مصقولتين وقميصين من حلقات الفضة، وعلى وجناتهما خطوط نمّر خضراء كاليشب. بين الحين والآخر يُلوح الحارسان بحريتيهما لطرد العواسق والنّوارس وغربان الجيف التي أتت تتودّد إلى الموتى، لكن الطيور تعود دوماً إلى الرّؤوس خلال دقائق معدودة.

تساءل تيريون ببراءة: «ماذا فعلوا؟».

رمق الفارس المدوّن على الألواح، ثم أجاب: «المرأة كانت أمةً رفعت

يدها على سيّدتها، والرّجل الأكبر سنّاً أتهمّ بالتحريض على التّمرد والتّجسّس لحساب ملكة التّنانين». - «والأصغر سنّاً؟». - «قتل أباه».

ألقي تيريون نظرةً ثانيةً على الرّأس المتعفنّ، وفكّر: تكاد شفثاه بتسيمان. بعد مسافةٍ توقّف الفارس فترةً وجيزةً يستعرض عصابة رأس محلّاة بالجوهر معروضةً على وسادةٍ من المخمل الأرجواني، ثم تركها وتوقّف بعد بضع خطواتٍ أخرى عند كُشك دَبَاغٍ لِيُساوِمَ على ثمن زوجين من القفّازات الجلد. شعر تيريون بالامتنان لتوقّفهما، إذ تقطّعت أنفاسه وراح يلهث من الحركة المتعجّلة، وسحّجت الأصفاة معصميه.

من طرف (الجسر الطّويل) القصي سارا مسافةً قصيرةً عبر قطاعات الضفّة الغربيّة المزدهمة المطلة على الماء، وفي شوارع مضاءة بالمشاعل تعجّ بالبحّارة والعييد والمحتفلين السّكاري. مرّ بهما فيل يمشي متثاقلاً وعلى متنه دسّته من الأمّات شبه العاريات أخذن يُلوّحن من الهودج على ظهره ويُداعبن المارّة بكشف أئدائهن صائحات: «مالاكو، مالاكو!»، وكان منظرهن فاتناً لدرجة أن تيريون كاد يدوس كومة الرّوث الساخن التي خلفها الفيل وارهه، لكنّ الفارس أنقذه في اللّحظة الأخيرة إذ سحبّه جانباً بجذب سلسلته بقوة جعلته يترنّح ويتعثر.

سأل القزم: «كم تبقى؟».

- «هناك، (ميدان السّمّاكين)».

أتضح أن وجهتهما (بيت التّجار)، مبنى هائل يرتفع أربعة طوابق ويجثم بين المخازن والمواخير والحانات المشرفة على الماء كرجل بدين ضخم يُحيط به الأطفال، قاعته العامّة أوسع من القاعات الكُبرى في نصف قلاع (وستروس)، متاهة خفيضة الإضاءة تضمّ مئةً من التّجاويف الخاصّة والأركان المنعزلة، تتردّد على عوارضها المسوّدة وسقوفها المتصدّعة جلبة البحّارة والتّجار والقباطنة ومبدّلي العملة والسفّانيين والنخّاسين، يكذبون ويلعنون ويغش بعضهم بعضاً بنصفيئة لغةٍ مختلفة.

استحسن تيريون اختيار مكان المبيت. مؤكّد أن (العذراء الخجول)

سَيْبُلُغ (فولانتيس) عاجلاً أو آجلاً، وهذا أكبر خانٍ في المدينة، الاختيار الأول للسفّانين والرّبابنة والتّجار. أعمال كثيرة تُجرى في هذا الجُحر الفسيح المسمّى قاعةً عامّةً، وهو يعرف عن (فولانتيس) ما يكفي لأن يعرف هذا. فليأت جريف ومعه البطة وهالدون وسرعان ما سيعود حُرّاً من جديد.

وفي تلك الأثناء عليه أن ينتظر حتى تأتي فرصته.

الغُرف بالأعلى لا تمتُ للفخامة بصِلة، لا سيّما الرّخيص منها في الطّابق الرَّابع. غُرفة النّوم التي استأجرها أسرُه محشورة في زاوية المبنى تحت سطح مائل، وتضمُّ سقفًا واطئًا، وفِراشًا مرتخيًا محشوًّا بالرّيش له رائحة قبيحة، وأرضيّة مائلّة من ألواح الخشب ذكّرت تيريون بإقامته في (العُش). على الأقلّ لهذه الغُرفة جدران. ولها نافذتان أيضًا، وهذا أبرز مميّزاتها، بالإضافة إلى الحلقة الحديد المثبّته في الحائط، النّاجعة تمامًا إذا أرادَ أحدهم أن يُسلسل عبده. توقّف أسرُه فقط ليُشعل شمعةً من الشّحم قبل أن يُثبّت سلاسل تيريون إلى الحلقة.

اعترض القزم قائلاً وهو يهزُّ سلاسله بوهن: «أهذا ضروري؟ أين سأذهب؟ هل سأخرج من النّافذة؟».

- «ربما».

- «إننا على ارتفاع أربعة طوابق، ولا أستطيع الطّيران».

- «يمكنك أن تُلقني نفسك، وأنا أريدك حيًّا».

أجل، ولكن لماذا؟ سرسي لن تُبالي. هزّ تيريون سلاسله ثانيةً، وقال: «أعرفُ من أنت أيها الفارس». لم يكن الاستنتاج صعبًا. الدّب على سُترته، والرّمز على ثُرسه، واللوردية المفقودة التي ذكرها. «وأعرفُ ماذا تكون، وإذا كنت تعرف من أنا فمؤكّد أنك تعرف أيضًا أنني كنتُ يد الملك وكنتُ عضوًّا في مجلس واحد مع العنكبوت. هل يهّمك أن تعلم أن الخصيّ هو من أرسلني في هذه الرّحلة؟». هو وچايمي، لكنني سأترك أخي خارج الأمر. «إنني مخلوقه مثلك تمامًا، ولا يجدر بنا أن نتنازع».

لم يرض قوله الفارس الذي ردّ: «لقد أخذتُ مال العنكبوت، لن أنكر هذا، لكنني لم أكن مخلوقه قطّ، وولائي لفريق آخر الآن».

- «لرسسي؟ إذن فأنت أحقق كبير. أختي لا تتطلب إلا رأسي، وأنت تحمل سيفاً بتاراً، فلم لا تُنهى هذه المهزلة الآن وتُريحنا في آنٍ واحد؟» .
قال الفارس ضاحكاً: «أهذه حيلة أفزام ما؟ تتوسل الموت على أمل أن أتركك تعيش؟»، وذهب إلى الباب مستطرداً: «سأجلبُ لك شيئاً من المطبخ» .
- «يا للطفك. سأنتظرُ هنا» .

- «أعرفُ هذا». ورغم ذلك أوصدَ الفارس الباب وراءه حين غادرَ بمفتاحٍ حديدي ثقيل. (بيت التُّجَّار) شهير بأقفاله.

فكَّر القزم بمرارة: العُرفة مؤمَّنة كزنانة، لكن على الأقل فيها نافذتان. يعرف تيريون أن فُرص تخلصه من سلسله أقل من معدومة، وعلى الرغم من هذا وجدَّ نفسه مجبراً على المحاولة، فلم يُفصِّص المجهود الذي بذلَه في محاولة سحب إحدى يديه من أصفادها إلا إلى كشط المزيد من الجلد عنها وإغراق معصمه بالدم اللزج، ولم يُفلح كل ما أقدمَ عليه من شدِّ وليٍّ في فصل الحلقة الحديد عن الحائط، وهكذا قال لنفسه وهو يتهاوى أرضاً بقدر ما تسمح له السلاسل: سُحقاً لهذا. بدأت ساقاه تتشنجان. ستكون ليلةٌ جحيميَّة. الأولى من كثيرات لا شك.

العُرفة خانقة، ولذا فتحَ الفارس مصاريع النَّافذتين كي يدخلَ السَّيم من جهتين. الحقيقة أن على الرغم من كونها محشورة في زاوية المبنى تحت الإفريز فالعُرفة محظوظة بتمتعها بنافذتين دُفعةً واحدةً. تطل إحداهما على (الجسر الطويل) وقلب (فولانتيس القديمة) المسور بالأسود عبر النهر، والثانية تُفتح على السُّوق بالأسفل. قال مورمونت إن اسمه (ميدان السماكين)، ورغم قصر السلاسل وجدَّ تيريون أنه يستطيع الرؤية من النَّافذة الثانية إذا مال جانباً وترك الحلقة الحديد تدعم وزنه. ليست سقطةً طويلةً كالسَّقطة من زنازين لايسا آرن السماويَّة، لكنها ستقودني إلى حتفي هي الأخرى. ربما إذا كنتُ ثملاً...

حتى في هذه السَّاعة الميدان مزدحم بالبحَّارة المشاغبين والعاشرات الباحثات عن زبائن والتُّجَّار المنصرفين إلى أعمالهم. رأى راهبةً حمراء تمرَّ مسرعةً وفي صُحبتها دسنة من المُعاونين حاملي المشاعل تخفق أردتهم حول كواحلهم، وفي بقعةٍ أخرى انغمسَ لاعبا سايقاس في الحرب خارج

حانة وقد وقفَ إلى جوار طاولتهما عبد يرفع مصباحًا فوق الرُّفعة. سمعَ تيريون امرأةً تُعني بكلماتٍ غريبة على لحنٍ ناعمٍ شجي. لو عرفتُ عمَّ تُعني لبكيتُ. في بقعةٍ أقرب اجتمعت جمهرة حول حاويين يتبادلان قذف المشاعل الموقدة.

عادَ أسره بعد قليلٍ حاملًا دورقين وبطةً مشويةً. ركلَ الباب مغلقًا إياه ومزقَ البطةَ نصفين ألقى أحدهما لتيريون، الذي كان ليتلقفه في الهواء لولا أن سلسله لم تكفل له ذلك عندما حاول أن يرفع ذراعيه، وبدلاً من ذلك صدم الطائرُ صُدغه وانزلتْ بدهنه وسخوته على وجهه، واضطرَّ القزم إلى الإقعاء ومدَّ ذراعيه عن آخرهما وسلسله تُصلصل، وأخيراً مع المحاولة الثالثة ظفرَ بالطائر وغرسَ أسنانه فيه بسعادة، ثم قال: «الليل من المزر لأبلع طعامي؟». قال مورمونت مناوئاً إياه دورقاً: «نصف (فولانتيس) يسكر الليلة، فلمَ ليس أنت أيضاً؟».

وجدَ المزر حلوًا فيه مذاق فاكهة. أخذَ تيريون جرعةً كبيرةً وتجشأ بسعادة، ثم رمقَ الدورق القصدير الثقيل مفكرًا: أفرغه وألقه على رأسه. إذا حالقني الحظُّ فقد يكسر جمجمته، وإذا حالقني الحظُّ بشدة فسأخطئ الرمية ويكيل لي اللكمات حتى الموت. أخذَ جرعةً أخرى، وتساءل: «أهذا عيد ديني ما؟». - «اليوم الثالث من انتخاباتهم. تدوم عشرة أيام، عشرة أيام من الجنون. مسيرات على ضوء المشاعل، وخطب وممثلون وموسيقيون، وراقصون ومبارزو برافو يتنازلون حتى الموت على شرف مرشحيهم، وأفيال مكتوبة على جوانبها بالطلاء أسماء من يُريدون الفوز بالقبضة. هذان الحاويان يؤدبان عرضهما من أجل ميشسو».

قال تيريون: «ذكرني بأن أصوت لأحدٍ غيره»، ولعلَّ الدهن عن أصابعه. بالأسفل كان الجمهور يلقي قطع العملة للحاويين. «هل يُموّل كل من يرغبون في الفوز بالقبضة عروض ممثلين؟».

أجاب مورمونت: «يفعلون كل ما يحسبونه سيكسبهم الأصوات أيًا كان؛ الطعام والشراب والعروض المبهرة... أليوس أرسل مئة أمة إلى الشوارع لينمن مع المصوتين».

قال تيريون وقد اتخذ قراره: «سأصوت له. اجلب لي أمة».

- «إنهن للفولانتينيَّين الأحرار أصحاب الأملاك الكافية للتصويت. غرب النَّهر المصوِّتون قلائل للغاية».

سأل تيريون: «ويستمرُّ هذا عشرة أيام؟»، وضحك متابعًا: «قد أستمعُ بهذا، ولو أن ثلاثة ملوك يعني وجود اثنين أكثر من اللازم. أحاولُ أن أتخيَّل حُكم (الممالك السَّبع) مع أختي الجميلة وأخي الشُّجاع إلى جوارِي. مؤكِّد أن أحدنا سيقتلُ الاثنَيْن الآخرين خلال أقل من عام. يُدهِشني أن هؤلاء القناصل لا يفعلون ذلك».

- «بعضهم حاول. قد يكون الفولانتينيُّون هم الأذكياء والوستروسيُّون الحمقى. (فولانتيس) نالت قسطًا من الحماقات، لكنها لم تسمح قطُّ بأن يحكُمها قُصل صبي، ومتى انتخبَ رجل مجنون حجرَ عليه زميلاه إلى أن تنتهي سنتهم في الخدمة. ففكر في الموتى الذين كانوا يعيشوا حتى الآن لو أن إيرس المجنون اقتسمَ الحُكم مع ملكين آخرين».

قال تيريون في نفسه: وبدلاً من ذلك كان معه أبي.

واصلُ الفارس: «بعض أهالي المُدن الحرَّة يحسبوننا جميعًا همجيِّين على جانبنا من (البحر الضيق)، ومن لا يحسبون ذلك يظنُّونا أطفالًا نرفع عقيرتنا مطالبين بيد أبويَّة قويَّة».

- «أو يدِ أموميَّة؟». ستحبُّ سرسي هذا، خصوصًا عندما يُقدِّم إليها رأسي. «يبدو أنك تعرف المدينة جيِّدًا».

قال الفارس مدوِّرًا ثُمالة شرابه في قعر دورقه: «قضيتُ ما يقرب من عام هنا. حين دفعني ستارك إلى المنفى هربتُ إلى (ليس) مع زوجتي الثانية. كانت (برافوس) لتُناسبني أكثر، لكن لينيس أرادتُ مكانًا دافئًا، وبدلاً من خدمة البرافوسيين قاتلتهم على ضفاف (الروين)، لكن مقابل كلِّ قطعة فضيَّة كسبتها أنفقتُ زوجتي عشراً، ولدى عودتي إلى (ليس) كانت قد اتَّخذت لنفسها عشيقاً أخبرني بمرح أنه سيستعبدني تسديداً لديوني ما لم أتنازل عنها وأرحل من المدينة. هكذا جئتُ (فولانتيس) سابقاً العبوديَّة بخطوة، لا أملكُ شيئاً إلا سيفي والثياب التي أرديها».

- «والآن تُريد أن تهرع إلى الوطن».

أفرغَ الفارس ما تبقى من مزره في جوفه، وقال: «غداً سأجدُ لنا سفينةً».

الفرّاش لي. يُمكنك أن تنام على قطعة الأرض التي تسمح لك سلاسلك ببلوغها. نم إن استطعت، وإن لم تستطع فاحصِ جرائمك. ستجد ما يكفي من وقتٍ لهذا حتى الصّباح».

فكّر القزم: أنت أيضًا ارتكبت جرائم عليك أن تدفع ثمنها يا چورا مورمونت، ولكن خطرٌ له أن الحكمة تقتضي أن يحتفظ بالفكرة لنفسه.

علق السير چورا حزام سيفه على أحد أعمدة السّرير وخلعَ حذائه ركلاً، ثم خلعَ قميصه المعدني وما يرتديه من صوفٍ وجلدٍ وسُترته التّحتيّة المبقّعة بالعرق ليكشف جذعاً نديباً متيناً مغطّى بالشّعر الدّاكن. قال تيريون لنفسه إذ رمى مورمونت نفسه على الفرّاش المرتخي كرية الرّائحة: لو أنني أستطيعُ أن أسلخه لبعثُ جلده هذه باعتبارها معطفاً من الفرو.

خلال لحظاتٍ راحَ الفارس يغطُّ في نوم عميقٍ تاركاً غنيمته المسلسلة وحدها. مع فتح النّافذتين على مصاريعهما ترقّق نور القمر المُحاق داخل العُرفة وتواعدت الأصوات من الميدان بالأسفل؛ شذرات من أغنيّة سكارى، وعويلٍ قِطّة تُعاني الاحترار، ورنين الفولاذ على الفولاذ من بعيد. أحدهم على شفا الموت.

كان معصمه ينبض ألماً حيث مزّق جلده، وجعلت أصفاده الجلوس مستحيلًا، ناهيك بأن يتمدّد. أفضل ما استطاعه أنه التوى جانباً وأسند نفسه إلى الحائط، ولم يمضِ وقت طويلٍ قبل أن يبدأ في فقدان إحساسه بيديه، وحين تحرّك محاولاً تخفيف الشّدّ عنهما تدفّق الإحساس إليهما من جديدٍ ومعه الألم، واضطرَّ إلى الكزّ على أسنانه كي لا يصرّخ. تساءلَ كم تألم أبوه عندما اخترق السّهم عاتته، وما شعرت به شيّاي عندما لوى السّلسلة حول حلقها الكاذب، وما شعرت به تايشا وهم يغتصّبونها. يعلم أن معاناته لا شيء مقارنةً بمعاناتهم، لكن هذا لم يُخفّف ألمه. أريده أن يتوقّف.

كان السير چورا قد انقلب على جانبه، فلم يرَ تيريون منه إلاّ ظهره المُشعر العضلي العريض. حتى لو استطعتُ الخلاص من هذه السّلاسل فعليّ أن أمرّ من فوقه لأبلغ حزام السيّف. ربما إذا استطعتُ سحب الخنجر ببُطء... أو يُمكنه أن يُحاول أخذ المفتاح وفتح الباب والتسلّل على السّلام وعبر القاعة العامّة... وأين أذهب؟ إنني بلا أصدقاء أو مال، ولا أتكلّم اللّغة المحليّة حتى.

في النهاية طغي الإنهاك على الألم وغاب تيريون في نوم مضطرب، ولكن
 كلما استفتحل تيشنج آخر داخل ربله ساقه صاح القزم في نومه مرتجفاً.
 استيقظ وكل عضلة في جسده تُؤلمه ليجد ضوء النهار ينهمر من النافذتين
 ساطعاً ذهبياً كأسد عاتلة لانستر، ومن أسفل سمع صياح بائعي الأسماك
 وقعقة العجلات المؤطرة بالحديد على حجارة الرصف.
 كان چورا مورمونت واقفاً فوقه يسأله: «إذا خلعتك من الحلقة فهل
 ستفعل كما يُقال لك؟».

- «هل سيتضمن هذا الرقص؟ قد أجد الرقص صعباً. إنني لا أشعرُ بساقي،
 ربما سقطنا. لكن بخلاف ذلك أنا تحت أمرك، أقسمُ بشرفي كلانستر».
 قال السير چورا: «آل لانستر لا شرف لهم»، لكنه خلعه من الحلقة على
 كل حال.

أخذ تيريون خطوتين راجفتين وسقط، وجعل الدم المتدفق عائداً
 إلى معصميه عينيه تدمعان، فعصّ شفته وقال: «أينما سنذهب فعليك أن
 تُدحرجني إلى هناك».

وبدلاً من ذلك حملهُ الفارس رافعاً إياه من السلسلة بين يديه.
 قاعة (بيت التجار) العامة متاهة معتمة من التجاويف والمغارات المبنية
 حول ساحة مركزية، حيث تُلقى تعريشة من النباتات المتسلقة المزهرة نقوشاً
 متشابهة على الأرض المبلطة وتنمو الطحالب الخضراء والأرجوانية بين
 الأحجار. هرعت الأمات في الضوء والظلّ حاملات أباريق المزر والنبيد
 ومشروب أخضر مثلج تفوح منه رائحة النعنع. في هذه الساعة من الصباح
 كانت مائدة واحدة من كل عشرين مشغولةً.

إحدى الموائد يحتلها قزم حليق الوجه متورّد الوجنتين، له شعر كستنائي
 وجهته ثقيلة وأنف مفلطح، ويجلس على مقعد عالٍ وفي يده ملعقة خشبية
 ينظر إلى وعاءٍ من العصيدة بعينين محاطتين بالأحمر. بائس صغير قبيح.
 شعر القزم الآخر بنظرته، ولما رفع رأسه ورأى تيريون سقطت الملعقة
 من يده.

نبه تيريون مورمونت قائلاً: «لقد رأني».
 - «وماذا في هذا؟».

- «إنه يعرفني، يعرف من أنا».

قال الفارس: «هل أحشرك في جوال لثلا يراك أحد؟»، ومسّ مقبض سيفه الطويل مردفاً: «إذا أراد أن يأخذك فله أن يحاول».

فكّر تيريون: تعني له أن يموت. هل يُشكّل مخلوق مثله تهديداً لرجل كبيرٍ مثلك؟ إنه مجرد قزم.

جلس السير چورا إلى مائدةٍ في رُكنٍ هادئٍ وطلبَ طعاماً وشراباً. أفضراً على خُبزٍ مدوّرٍ ساخنٍ طريٍ وبطارخٍ سمكٍ ورديةٍ وسجقٍ بالعسل وجرادٍ محمّرٍ، وشراباً مع وجبتهما مزرّاً أسود حُلواً مرّاً. أكلَ تيريون كرجلٍ يتصوّر جوعاً، فعلقَ الفارس: «شهيتك مفتوحة هذا الصّباح».

ردّ تيريون: «سمعتُ أن الطّعام في الجحيم رديء»، وألقى نظرةً على الباب، حيث دخلَ للتوّ رجلٌ طويلٌ محنيُّ الظهرٍ له لحيةٌ مدبّبةٌ مصبوغةٌ بالأرجواني الملطّخ. تاجر تايروشي ما. من الخارج هبّت معه الأصوات؛ صياح النّوّارس وضحك امرأةٍ ونداء باعة الأسماك على صيدهم، ولأقل من لحظةٍ حسبَ القزم أنه رأى إليريو موباتيس، لكنه كان أحد تلك الأفيال القزمة البيضاء يمرُّ أمام الباب.

فردّ مورونت القليل من البطارخ على شريحةٍ من الخُبز وأخذَ قضمتهً، ثم قال: «هل تنتظر أحداً؟».

هزّ تيريون كتفيه قائلاً: «لا أحد يدري من قد تدرّوه الرّيح إلى هنا، سواء أكان حُبّي الحقيقي الوحيد أم شبح أبي أم بطة»، وألقى جرادةً في فمه ومضغها، ثم قال: «ليست سيّئة... بالنسبة إلى حشرة».

- «ليلة أمس كان كلُّ الحديد هنا عن (وستروس). لورد منفي ما استأجر الجماعة الدّهبيّة لتستردّ له أراضيه. نصفُ ربانبة (فولانتيس) يتسابقون قاطعين النّهر إلى (فولون ثيريس) ليعرضوا عليه سفنهم».

كان تيريون قد ابتلعَ جرادةً أخرى فكادت تسدُّ حلقه وتخنّقه. هل يسخر مني؟ كم يمكنه أن يعرف عن جريف وإجون؟ قال: «تّبأ. كنتُ أنوي استئجار الجماعة الدّهبيّة عن نفسي لتظفر لي بـ(كاسترلي روك)». هل يُحتمل أن تكون هذه حيلةٌ ما من جريف؟ أنه ينسُر الأخبار الكاذبة عمداً؟ إلّا إذا... أيمكن أن الأمير الصّغير الوسيم ابتلعَ الطعم؟ أتتجه بهم إلى الغرب بدلاً من

السَّرق متخليًا عن أمه في الزَّواج بالملكة دنيرس؟ متخليًا عن التَّنانين... أمن الممكن أن يسمح جريف بذلك؟ «يسرُّني أن أستأجرك أيضًا أيها الفارس. إن مقرَّ أبي لي شرعًا. أقسم لي بسيفك وحالما أسترده سأغرقك بالذهب».

- «رأيتُ رجلًا يغرق بالذهب ذات مرَّة، ولم يكن منظرًا جميلًا. إذا نلت سيفي أبدًا فسيكون بغرسه في أحشائك».

قال تيريون: «علاج أكيد للإمساك. سلَّ أبي»، وتناولَ دورقه وأخذَ رشفةً بطيئةً من المِزر تُساعدُه على إخفاء التَّعبير البادي على وجهه أيًّا كان. لا بُدَّ أنها حيلة مقصودة لتهدئة شكوك الثولانتينيين. يضع الرِّجال على متون السُّفن تحت ذريعة زائفة ثم يستولي عليها بعدما يخرُج الأسطول إلى البحر. أهذه خطة جريف؟ قد تنجح. الجماعة الذهبية قوامها عشرة آلاف رجل متمرس منضبط. لكن لا أحد منهم ملاح. على جريف أن يضع سيفًا على كلِّ رقبة، وإذا بلغوا (خليج النخاسين) ووجدوا أنفسهم مضطرينَّ إلى القتال...

عادَت الخادمة، وقالت: «الأرملة ستراك بعد ضيفها الحالي أيها الفارس النبيل. هل جلبت لها هديَّة؟».

أجاب السير چورا: «نعم. أشكرك»، ووضعَ عملةً في كفِّ الفتاة وصرَّفها. عقدَ تيريون حاجبيه متسائلًا: «أرملة من هذه؟».

- «أرملة الضِّفة. شرق (الروين) يدعونها بعاهرة فوجارو، ولكن ليس في وجهها أبدًا».

قال القزم الذي لم يفهم: «وفوجارو كان...؟».

- «فيلاً، انتخبَ فَنصلاً سبع مرَّاتٍ وكان فاحش الثراء وله نفوذ لا يُستهان به في الميناء. بينما شيَّد رجال آخرون السُّفن وأبحروا بها شيَّد هو الأرصفة والمخازن وتوسَّط في شحن البضائع وبدَّل العملات وأبرم عقود التَّأمين لأصحاب السُّفن ضد مخاطر البحار، وتاجرَ في العبيد أيضًا. حين فُتِنَ بواحدةٍ منهم، وكانت أمة فراشٍ مدربةً على فنِّ التَّنهدات السَّبعة، كانت فضيحةً كُبرى... وفضيحةً أكبر حين أعتقها وتزوَّجها. بعد موته واصلت ممارسة تجارتها، ولكن لأن المعتنقين ليس مسموحًا لهم بالسُّكنى وراء (السُّور الأسود) اضطرتَّ إلى بيع إيوان فوجارو وأتخذت (بيت التُّجَّار) محلَّ إقامتها. كان ذلك منذ اثنين وثلاثين عامًا، وهي باقية هنا حتى اليوم».

إنها هي الجالسة وراءك عند السّاحة، تُزاوِل مهنتها من مائدتها المعتادة. لا، لا تُنظِر. أحدهم معها الآن. بعد فروغه سيحين دورنا». - «وكيف ستُساعدك هذه الحيزبون العجوز؟».

نهَض السير چورا قائلاً: «شاهد وسترى. إنه راحل». ففَزَ تيريون من فوق مقعده وسلاسله تُصلصل مفكراً: قد يُثورني هذا. في الطّريقة التي تجلس بها المرأة في رُكنها عند السّاحة شيء ثعلبي، وفي عينيها شيء ذكّرهُ بالسّحالي. شَعرها الأبيض خفيف لدرجة أنه يرى فروة رأسها الوردية من تحته، وتحت إحدى عينيها ما زالت النُّدوب الباهتة تلوح حيث قُطعت دموعها بسكّين، وقد تناثرت بقايا وجبتها الصّباحية على المائدة؛ رؤوس سردين ونوى زيتون وقِطع من الخُبز المدوّر. لم يُفت تيريون أن يلحظ حُسن اختيارها «مائدتها المعتادة»، فإلى ظَهرها حجر مصمت، وثمّة تجويف مورق على جانب واحد للدُّخول والخروج، وموقعها مثالي لرؤية باب الخان الأمامي، لكنه في الآن نفسه غارق في الظلال حتى إنها هي نفسها تكاد تكون خفيةً.

ابتسمت العجوز لمرأى تيريون، وبصوتٍ امتزجت في نبرته النُّعومة بالوعيد قرقرت: «قزم». لا تشوب لُغتها العامية إلّا لكنة طفيفة للغاية. «يبدو أن الأقزام اجتاحوا (فولانتيس) في الفترة الأخيرة. هل يُؤدّي هذا حياً؟». أراد تيريون أن يقول: نعم. أعطيني نُشابيةً وسأريك حيلتي المفضّلة. أجاب السير چورا: «لا».

- «مؤسف. كان عندي قرد يُؤدّي مختلف أنواع الحيل الذكيّة. قزمك يُدكرني به. أهو هدية؟».

قال السير چورا: «لا. جلبتُ لك هذين»، وأخرج زوجي القفّازات ووضعهما على المائدة إلى جوار الهدايا الأخرى التي تلقّتها الأرملة هذا الصّباح، وتضمُّ كأساً فضيَّةً، ومروحةً مزخرفةً منحوتةً على شكل أوراق شجر يشبّه شديدة الرّقة تكاد تكون شفّافةً، وخنجراً عتيقاً من البرونز عليه نقوش بأبجدية قديمة. إلى جانب هذه الكنوز بدا القفّازان هديّة رخيصةً سقيمة الذوق.

قالت الأرملة: «فُفازان ليدي المتغضّنتين المسكينتين»، لكنها لم تُحاول
لمسهما.

- «ابتعتهما على (الجسر الطويل)».

- «يستطيع المرء أن يبتاع أيّ شيءٍ تقريباً على (الجسر الطويل)؛ الفُفازات
أو العبيد أو الفُرْدَة». حنّت السّنون عمود الأرملة الفقري وحدثت ظهرها،
لكن عينها تظّلان لامعتين سوداوين. «والآن أخبر هذه الأرملة العجوز كيف
يُمكنها أن تخدمك».

- «نحتاج إلى السّفْر سريعاً إلى (ميرين)».

كلمة واحدة وانقلبَ عالم تيريون لانستر رأساً على عقب.

كلمة واحدة. (ميرين). أم أنه أخطأ السّمع؟

كلمة واحدة. (ميرين)، قال (ميرين)، سيأخذني إلى (ميرين). (ميرين)

تعني الحياة، أو -على الأقل- الأمل في الحياة.

سألت الأرملة: «ولم تأتيني أنا؟ إنني لا أملكُ سُنفاً».

- «ثمة ربانة كثيرون مدينون لك».

يقول سيأخذني إلى الملكة، أجل، ولكن إلى أيّ ملكة؟ لن يبيعي

لسرسي، بل سيُعطيني لديرس تارجارين. لهذا لم يقطع رأسي. إننا ذاهبان

شرقاً، وجريف وأميرُه غرباً، الأحمقان.

أوه، كثير هذا حقاً. مؤامرات داخل مؤامرات، لكن كلّ الطُرق تقود إلى

حُلُفُوم التّنين. تفجّرت قهقهة من بين شفّته، وفجأة لم يُعد تيريون يستطيع

التّوقّف عن الضّحك.

علقت الأرملة: «فزك مصاب بنوبة».

- «قرمي سيلزم الصّمّت وإلّا كَمَمْتُ فمه».

وغطّى تيريون فمه بيديه. (ميرين)!

قررت أرملة الضّفّة أن تتجاهله، وسألت الفارس: «هل نتناول شراباً؟».

سبحت ذرّات العُبار في الهواء فيما ملأت خادمة كأسين من الزُّجاج الأخضر

للسير چورا والأرملة. كان حلق تيريون جافاً، لكن شراباً لم يُصبّب له. أخذت

الأرملة رشفة ودوّرت النّبذ في فمها وابتلعته، ثم قالت: «كلّ المنفّيين

الأخرين مبحرون غرباً، أو أن هذا ما سمعته هاتان الأذنان العجوزان، وكلّ

الرَّبَابَةَ المَدِينِينَ لِي يَدُوسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَأْخُذُوهُمْ إِلَى هُنَاكَ وَيَسْتَنْزِفُوا بَعْضَ الذَّهَبِ مِنْ خَزَائِنِ الْجَمَاعَةِ الذَّهَبِيَّةِ. قَنَاصِلُنَا النَّبْلَاءُ تَعَهَّدُوا بِأَثْنِي عَشْرَةَ سَفِينَةً حَرَبِيَّةً تُرَافِقُ الْأَسْطُولَ بِأَمَانٍ حَتَّى (الْأَعْتَابِ)، وَحَتَّى دُونِ فُوسَ الْعَجُوزِ وَافِقًا. مَغَامِرَةٌ مَجِيدَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ تُرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ فِي الْإِتِّجَاهِ الْآخَرَ أَيُّهَا الْفَارِسُ».

- «شَأْنِي فِي الشَّرْقِ».

- «وَمَا هَذَا الشَّأْنُ يَا تُرَى؟ لَيْسَ الرَّقِيقُ، فَقَدْ وَضَعَتِ الْمَلِكَةَ الْفُضِّيَّةَ نَهَائَةً لَذَلِكَ. كَمَا أَنَّهَا أَغْلَقَتِ حَلِبَاتِ الْقِتَالِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ شَهْوَةَ الدَّمِّ. مَاذَا تُقَدِّمُ (مِيرِينَ) غَيْرَ ذَلِكَ لِفَارِسٍ وَسْتَرُوسِي؟ الْقَرْمِيدُ؟ الزَّيْتُونُ؟ التَّنَانِينُ؟ آه، بِالضُّبُطِ»، وَاكْتَسَبَتْ بِسْمَةِ الْعَجُوزِ مَسْحَةً شَرِسَةً إِذْ أَضَافَتْ: «سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ الْمَلِكَةَ الْفُضِّيَّةَ تُطْعِمُهَا لَحْمَ الصُّغَارِ فِيمَا تَسْتَحِمُّ هِيَ بِدَمَاءِ الْعَذَارَى وَتُعَاشِرُ عَشِيقًا مُخْتَلَفًا كُلَّ لَيْلَةٍ».

رَدَّ السَّيْرُ چُورَا بِفَمٍ مُضْغُوطٍ: «الْيُونَكِيُّونَ يَصُبُّونَ السُّمُومَ فِي أُذُنَيْكَ. لَا يَجْدُرُ بِسَيِّدَتِي أَنْ تُصَدِّقَ تِلْكَ الْقَاذُورَاتِ».

- «لَسْتُ سَيِّدَةً، لَكِنْ حَتَّى عَاهِرَةٌ فُوجَارُو تَعْتَرِّفُ طَعْمَ الزَّيْفِ. لَكِنْ الْجُزْءُ التَّالِيَّ صَاحِيحٌ تَمَامًا... مَلِكَةُ التَّنَانِينِ لَهَا أَعْدَاءٌ... (يُونَكَايِ)، (جَيْسِ الْجَدِيدَةِ)، (تُولُوسِ)، (كَارْتِ)... أَجَلٌ، وَقَرِيبًا جَدًّا (فُولَانْتِيْسِ). تُرِيدُ السَّفَرَ إِلَى (مِيرِينَ)؟ أَنْتَظِرْ بَعْضَ الْوَقْتِ إِذْنِ أَيُّهَا الْفَارِسُ. عَمَّا قَرِيبٍ سَيَحْتَاجُونَ إِلَيَّ السُّيُوفِ عِنْدَمَا تَتَوَجَّهَ السُّفْنُ الْحَرَبِيَّةَ شَرْقًا لِلْإِطَاحَةِ بِالْمَلِكَةِ الْفُضِّيَّةِ. النُّمُورُ تَحَبُّ كَشْفَ مَخَالِبِهَا، وَحَتَّى الْفَيْلَةُ تَقْتُلُ حِينَ تَشْعُرُ بِالتَّهْدِيدِ. مَا لَا ذُو ظِمَانٍ لِمَذَاقِ الْمَجْدِ، وَنَيْسُوسُ مَدِينٍ بِالكَثِيرِ مِنْ ثَرَوَتِهِ لِتِجَارَةِ الْعَبِيدِ. فَلْيَفْزُ أَلْيُوسُ أَوْ پَارْكَلُو أَوْ بَلِيْتَشُو بِالْقَنْصَلَةِ وَسُتُجْرُ الْأَسَاطِيلِ».

قَالَ السَّيْرُ چُورَا مُتَجَهِّمًا: «إِذَا عَادَ دُونِ فُوسِ...».

- «سَيَعُودُ فُوجَارُو أَوْلًا، وَزَوْجِي الْحَبِيبُ مَيْتٌ مِنْذُ ثَلَاثِينَ عَامًا».

مِنْ وَرَائِهِمْ كَانَ بَحَارٌ مَا يَصِيحُ بِصَوْتِ جَهُورِي: «تُسْمُونُ هَذَا مِزْرًا؟ تَبًّا! الْقُرُودُ تَتَبَوَّلُ مِزْرًا أَفْضَلَ».

رَدَّ صَوْتِ آخَرَ: «وَكُنْتُ لِنَشْرَبِهِ».

النَّفْتُ تِيرِيونُ يُلْقِي نَظْرَةً أَمَلًا رَغْمَ غِيَابِ الْأَمَلِ أَنْ مِنْ سَمِعَهُمَا هُمَا الْبَطَّةُ

وهالدون، لكن من رأهما غريبان... والقزم الواقف على بُعد بضعة أقدام يُحدِّق إليه باهتمام شديد، وقد بدا مألوفًا بشكل ما.

رشفت الأرملة من نبيذها بأناقة، وقالت: «بعض الأفيال الأوائل كُن نساءً، وهن من أسقطن النُّمور ووضعن أوزار الحروب القديمة. تريانا عادت أربع مرّات، لكن ذلك كان منذ ثلاثمئة عام للأسف. لم تعرف (فولانتيس) قُنصلاً أثنى منذ ذلك الحين، وإن كان التّصويّت يحقُّ لبعض النّساء، لكنهن نساء كريمات الأصل مقيمات في القصور العتيقة وراء (السُّور الأسود) ولسن مخلوقاتٍ من أمثالي. أصحاب الدّماء القديمة سيسمحون لكلا بهم وأطفالهم بالتّصويّت قبل أن يسمحوا به للمعتقين. لا، الذي سيُتخب هو بليتشو، أو ربما ألبوس، لكن في كلتا الحالتين ستقوم الحرب... أو أن ذلك رأيهم».

سألها السير جورا: «وما رأيك أنت؟».

فكّر تيريون: عظيم، السُّؤال الصّحيح.

أجابّت العجوز: «أوه، رأيي أن الحرب ستقوم أيضًا، لكنها لن تكون الحرب التي يُريدونها»، ومالت إلى الأمام وعيناها السّوداوان تتألّقان، وتابعت: «رأيي أن لراهلور الأحمر عبادًا في هذه المدينة أكثر من جميع الآلهة الأخرى مجتمعةً. هل سمعت بنيرو يخطب؟».

- «ليلة البارحة».

- «بنيرو يرى الغد في لهبه. هل تعلم أن القُنصل مالاذو حاول استئجار الجماعة الذهبية؟ كان ينوي تطهير المعبد الأحمر وقتل بنيرو. إنه لا يجرؤ على استخدام ذوي معاطف النُّمور، فيصنفهم يعبُد إله الضّياء أيضًا. أوه، إنها أيام عصيبة في (فولانتيس القديمة)، حتى بالنسبة إلى أرملة عجوز متغضّنة، لكن الأوضاع أسوأ كثيرًا في (ميرين) في ظنّي. أخيرني إذن أيها الفارس... لمّ تسعى إلى الملكة الفضيّة؟».

- «هذا شأنِي. أستطيع أن أدفع ثمن رحلتنا وأدفع جيّدًا. إنني أملكُ الفضيّة».

فكّر تيريون: أيها الأحمق، ليست الثُّنود ما تُريد، بل الاحترام. ألم تسمع كلمةً مما قالت؟ عاد يُلقني نظرةً من فوق كتفه ليرى القزم وقد دنا من مائدتهم أكثر، ويبدو أنه يحمل سكينًا.

وبدأ الشعر على مؤخرة عنق تيريون ينتصب.

قالت الأرملة: «احتفظ بفصّتك. إنني أملك الذهب. وأعفني من نظراتك السوداء أيها الفارس، إنني أكبر من أن تُرهبني الملامح العابسة. أرى أنك رجل صلب، ولا ريب أنك موهوب في استعمال سيفك الطويل هذا، لكن هذه مملكتي. بإشارة واحدة من إصبعي قد تجد نفسك مسافراً إلى (ميرين)، ولكن مقيّداً بالسلاسل إلى مجذافٍ في بطن قادس»، ورفعت مروحتها اليسبيّة وفتحتها، وسمع تيريون حفيف أوراق، وخرّج رجل من المدخل المقنطر الزّاهر بالنباتات إلى يسارها، وجهه كُتلة من الندوب وفي يده سيف قصير ثقيل كالسّاطور. تابعت الأرملة: «أحدهم أخبرك: اذهب إلى أرملة الضفّة، وكان عليه أن يُنذرك أيضاً: احذر أبناء الأرملة. لكنه صباح جميل، ولذا سأسألك مرّةً أخرى. لماذا تسعى إلى دنيرس تارجارين التي يرغب نصف العالم في موتها؟».

اربدّ وجه چورا مورمونت غضباً، لكنه أجاب: «لأخدمها، لأدافع عنها، لأموت في سبيلها إذا لزم الأمر».

أضحك جوابه الأرملة، وقالت: «تريد أن تُنفذها؟! من أعداء أكثر من أن أذكر أسماءهم جميعاً وسيوفهم لا تُحصى... أهدأ ما تُريد أن تعتقده الأرملة المسكينّة؟ أنك فارس وستروسي مخلص شهم تقطع نصف العالم لتُعين هذه... إنها ليست عذراء، لكنها لا تزال جميلة»، وضحكت ثانيةً قبل أن تُضيف: «هل تحسب أن قزمك سيسرّها؟ هل ستستحمّ بدمه في ظنك أم تقنع بقطع رأسه فحسب؟».

قال السير چورا بتردّد: «القزم...».

قاطعته: «أعرف من يكون القزم، وماذا يكون»، والتفتت بعينها السّوداوين إلى تيريون ورمقته بنظراتٍ قاسية كالحجر مردفةً: «قاتل أفريين وقاتل ملك، سفّاح ومارق، لانستر!». جعلت الكلمة الأخيرة سباباً. «وما الذي تنوي عرضه على ملكة التّنانين أيها الرّجل الصّغير؟».

أراد تيريون أن يقول: كراهيتي، لكنه بسط يديه بقدر ما تُتيح له أصفاده قائلاً: «ما تُريده مني أيّاً كان. النصيحة الحكيمة أو السّخرية القاسية أو شيء من ألعاب المهرّجين، قضيتي إن رغبت فيه، ولساني إن لم ترغب. سأقودُ

جيوشها أو أدلك قديمها، كما تشاء. المكافأة الوحيدة التي أطلبها أن تسمح لي بأن أغتصب أختي وأقتلها».

أعادت إجابته الابتسامة إلى وجه العجوز، وأعلنت: «إنه صادق على الأقل، أمّا أنت أيها الفارس... لقد عرفتُ عددًا من الفرسان الـوستروسيين والآفا ممن هم على شاكلتهم، لكن أحدًا منهم لم يكن بالنقاء الذي تدعيه. البشر وحوش أنانيّة غاشمة، ومهما كانت كلماتهم رقيقة فإنها تُخفي تحتها دوافع سوداء. لستُ أثقُ بك أيها الفارس»، ولوحت بمروحتها طاردة إياهما كأنهما مجرد ذبابتين تطنان حول رأسها، وأضافت: «إذا أردت الذهاب إلى (ميرين) فاسبح. ليس عندي ما أساعدك به».

ثم انفتحت أبواب الجحائم السبع في آن واحد. بدأ السير چورا ينهض، وأغلقت الأرملة مروحتها بحدّة، وخرج رجلها نديب الوجه من الظلال... ومن ورائهم صرخت فتاة.

دار تيريون في الوقت المناسب ليرى القزم ينقض عليه. أدرك في الحال أنها فتاة. فتاة تر تدي ثياب الرّجال، وتريد بقر بطني بهذا السكّين.

لأقل من لحظة وقف السير چورا والأرملة والرّجل النديب ثابتين كالحجر، وشاهد الزبائن الكسالى من الموائد القريبة راشفين المزر والنبيذ دون أن يحاول أحدهم التّدخل. حرّك تيريون كلتا يديه في آن واحد، لكن سلاسله لم تسمح له إلا ببلوغ الإبريق على المائدة، فأطبق عليه ودار على عقبه ورمى محتوياته في وجه القزما المنفضّة عليه، ثم ألقى نفسه جانبًا يتفادى سكّينها. تحطّم الإبريق تحته إذ ارتفعت الأرض تضربه في رأسه، ثم عادت الفتاة تنقض عليه، وتدرج تيريون مبتعدًا لينغرس نصل السكّين في الأرض الخشبيّة، لكنها انتزعت ورفعتّه ثانية...

... وفجأة ارتفعت عن الأرض راکلةً بقدميها بشراسية محاولة التملّص من قبضة السير چورا، وبعاميّة (وستروس) ولولت: «لا! اتركني!»، وسمع تيريون قميصها يتمزق في محاولتها تحرير نفسها.

أمسكها مورمونت من ياقتها بيد واحدة، وبالأخرى انتزع السكّين من قبضتها قائلاً: «كفى».

عندها ظهر صاحب الخان ممسكًا بثبوتًا، ولما رأى الإبريق المحطّم

أطلقَ سبَابًا غاضبًا وطالبَ بمعرفة ما حدثَ هنا، فأجابَه التايروشي ذو اللحية الأرجوانيةَ مقهقها: «شجار أفرام».

رفعَ تيريون عينيه إلى الفتاة المبتلَّة المتلوِّية في الهواء، وسألها: «لماذا؟ ماذا فعلتُ بك؟».

لحظتها تسرَّبتَ منها قُدرتها على المقاومة تمامًا، وتدلَّت مرتخيةً من قبضة مورمونت وملأت الدُموعَ عينها إذ أجابت: «لقد قتلوه، أخي، أخذوه وقتلوه».

سألها مورمونت: «مَن قتله؟».

- «بحارة، بحارة من (الممالك السَّبع). كانوا خمسةً، سكرانين. رأونا نتنازل في الميدان وتبعونا، ولمَّا أدركوا أنني فتاة تركوني، لكنهم أخذوا أخي وقتلوه، قطعوا رأسه!».

أحسَّ تيريون بصدمةٍ مباغته وقد تعرَّفها. رأونا نتنازل في الميدان. الآن يعرف هُويَّة الفتاة. سألها: «أكنتِ تركبين الخنزير أم الكلب؟».

أجابت متتجبةً: «الكلب. كان أوبو يركب الخنزير دومًا».

القرمان من زفاف چو فري. عرضهما هو ما بدأ المتاعب كلَّها ليلتها. غريبٌ حقًّا أن ألقاهما ثانيةً على الجانب الآخر من العالم. ولو أن الأمر ليس بهذه الغرابة. إذا كانا يتمتَّعان بِنصف ذكاء خنزيرهما فقد فرًّا من (كينجز لاندنج) ليلة مات چوف، قبل أن تُلقني سرسي عليهما جزءًا من اللوم على موت ابنتها. قال لچورا مورمونت: «أنزلها أيها الفارس. إنها لن تُؤذينا».

ألقي السير چورا القزمة على الأرض قائلاً: «آسفٌ لما جرى لأخيك... لكننا لم نلعب دورًا في قتله».

قالت الفتاة: «هو لعب»، ودفعت نفسها إلى الجلوس على رُكبتيها ضامَّةً قميصها الممزَّق الغارق بالنبِّيد إلى تدينين صغيرين شاحبين. «لقد أرادوه هو، حسبوا أوبو هو!». كانت الفتاة تبكي، تتوسَّل المساعدة من أيِّ أحدٍ يُصغي. «يجب أن يموت كما مات أخي المسكين. أرجوكم، لِيُساعدني أحد، ليقتله أحد».

أمسكها صاحب الخان بخشونةٍ وجذبها لتنهض صائحًا بالفولانتينية يسأل عمَّن سيدفع ثمن هذه الأضرار.

رمقت أرملة الضفّة مورمونت بنظرة فاترة، وقالت: «يقولون إن الفُرسان يُدافعون عن الضُعفاء ويحمون الأبرياء، وأنا أبيع العذراوات حُسناً في (فولانتيس) كلها»، وأطلقت ضحكة ملىء بالتّهكم، ثم سألت الفتاة: «بِمَ يدعونك يا صغيرتي؟».

- «بني».

خاطبت العجوز مالك الخان بلغة (فولانتيس القديمة) التي يعرف تيريون منها ما يكفي أن يفهم أنها تأمر الرّجل بأن يأخذ الفتاة إلى مسكنها ويسقيها نبيذاً ويجد لها ثياباً ترتديها.

بعد ذهابهما حدثت الأرملة تيريون بعينين تَبْرُقان قائلة: «المفترَض أن تكون الوحوش أكبر حجماً في رأيي. إن قيمتك لوردية دُفعةً واحدةً في (وستروس) أيها الرّجل الصّغير، أمّا هنا فأخشى أنها أدنى بعض الشيء. لكن يبدو لي أن الأفضل أن أساعدكما رغم كلِّ شيء، فلا يبدو أن (فولانتيس) مكان آمن للأقزام».

منحها تيريون أعذب ابتساماته، وقال: «أنتِ في غاية اللطّف. هلاً خلعتِ هذه الأساور الحديد السّاحرة أيضاً؟ هذا الوحش له نصف أنف فقط، ويستحكّه على نحوٍ شنيع. السّلاسل أقصر من أن أستطيع حكّه. يسرّني أن أهديها إليك».

- «يا لكرمك. لكنني ارتديت الحديد في شبابي، والآن أفضل الذهب والفضّة. ويؤسفني أن أقول إن هذه (فولانتيس)، حيث الأصفاد والسّلاسل أرخص من الخُبز البائت، كما أن مساعدة عبدٍ على الهرب محرّمة».

- «لستُ عبداً».

قالت: «كلُّ مَنْ أخذَه النّخاسون يُردّد هذه الأغنية الحزينة نفسها. لستُ أجروُ على مساعدتك... هنا»، وعادت تميل إلى الأمام متابعة: «بعد يومين من الآن سيبحر الكوج (السّلياسوري كوران) إلى (كارث) عن طريق (جيس الجديدة) حاملاً صفيحاً وحديداً ولفائف من الصّوف والحريير وخمسين بساطاً مايرياً وجثةً محفوظةً في محلّولٍ ملحي وعشرين برطماناً من فلفل التّين وراهباً أحمر. كونا على متنه حين يُبحر».

قال تيريون: «سنفعل، وشكراً لك».

قال السير چورا مقطَّباً وجهه: «(كَارِث) ليست وجهتنا». .
 رَدَّت الأرملة بابتسامَةٍ ثعلبيَّةٍ مأكرة: «السَّفِينَةُ لَنْ تَبْلُغَ (كَارِث) أبداً. بنيرو
 رأى هذا في نيرانه».
 بابتسامَةٍ عريضة قال تيريون: «كما تقولين. لو كنتُ فُولانتيِنياً وحرّاً ومن
 نسل الدِّماء القديمة لانتخبتكِ قُنصلاً يا سيِّدتي».
 قالت الأرملة: «لستُ سيِّدةً، بل عاهرة فُوجارو وحسب. عليكما الذَّهاب
 من هنا قبل مجيء النُّمور. إذا وصلتما إلى ملكتكما بالفعل فبلِّغها رسالةً من
 عبيد (فُولانتيس القديمة)»، ومَسَّت النَّدْبَةَ الباهتة على تجاعيد وجنتها حيث
 قُطِعَت دموعها، وأتبعَت: «قولا لها إننا منتظرون، قولا لها أن تأتي قريباً».



چون

حين سمع السير أليسر الأمر التوى فمه في ما يشبه الابتسامة، لكن عينيه ظلّتا باردتين فاسيتين كالصوّان، وقال: «إذن سيُرسلني النّغل لأموت».

صاحّ غُذاف مورمونت: «أموت، أموت، أموت، أموت!».

خاطبَ چون الطّائر في داخله: لست تُساعدني، وطرده بضربةٍ من يده قائلاً للفارس: «النّغل يُرسلك لتتقصّى، لتعثرُ على أعدائنا وتقتلهم إذا دعت الحاجة. إنك بارع في القتال بالسّيف، وكنت قيّم السّلاح هنا وفي (القلعة الشّرقية)».

مسّ ثورن مقبض سيفه الطّويل، وقال: «أجل، بددتُ ثلث حياتي في محاولة تعليم الأجلاف والأغبياء والأوباش مبادئ المبارزة. لن ينفعني هذا كثيرًا في تلك الغابة».

- «دايوين سيكون معك، وجوّال آخر محنك».

قال دايوين لثورن ضاحكًا: «سنلقنك ما تحتاج إلى معرفته أيها الفارس، ونعلّمك كيف تمسح مؤخرتك الكريمة بأوراق الشّجر، تمامًا مثل الجوّال الأصيل».

ضحك كِدج ذو العين البيضاء، وبصقَ چاك بولوار الأسود، أمّا السير أليسر فقال: «تودُّ أن أرفض، وعندها ستقطع رأسي كما فعلت بسلينت. لن أعطيك فرصة التلذذ بذلك أيها النّغل، لكن يُستحسن أن تدعو أن يقتلني أحد نصال الهمج، فمن يقتلهم (الآخرون) لا يظّلون موتى... ويتذكرون. إنني عائد أيها اللورد سنو».

- «أمنّي أن تعود». لن يعدّ چون السير أليسر ثورن من أصدقائه أبدًا، لكنه لا يزال أخًا. لم يقل أحد قط إن على المرء أن يحبّ إخوته.

ليس سهلاً عليه إن يُرسل رجالاً إلى البراري عالمًا أن احتمال ألا يرجعوا قائم. أخبرَ چون نفسه: إنهم رجال مخضرمون... لكن عمّه بنجن وجوالته كانوا رجالاً مخضرمين أيضًا، ومع ذلك ابتلعنهم (الغابة المسكونة) بلا أثر، ولما عادَ اثنان منهم أخيرًا إلى (الجدار) عادا جثتين حيتين. ليس للمرأة الأولى، ولا الأخيرة، يتساءل چون سنو عمًا جرى لبنجن ستارك. قال لنفسه: قد يعثر الجوّالة على أثرٍ لهم، غير أنه لم يُصدّق ذلك حقًا.

سيقود داويون إحدى الجولات، وچاك بولوار الأسود وكِدج ذو العين البيضاء الاثنان الآخرَين. هؤلاء على الأقل متحمسون لأداء واجبهم. عند البوّابة قال داويون وهو يمضُ أسنانه الخشبيّة: «جميل أن أشعر بحصانٍ تحتي ثانية. عُدْرًا يا سيّدي، لكن مؤخراتنا جميعًا امتلأت بشظايا الخشب من كثرة الجلوس». لا أحد في (القلعة السوداء) يعرف الغابة مثلما يعرفها داويون؛ الأشجار والجداول، والنباتات الصّالحة للأكل، ويسكك الصّواري والفرائس. ثورن بين يدين أفضل مما يستحقّ.

شاهدَ چون الرّاكبين يرحلون من فوق قمّة (الجدار)، ثلاث فرق يتألّف كلّ منها من ثلاثة رجال يحملون زوجين من الغدبان. من هذا الارتفاع الشّاهق لم تبدُ خيولهم أكبر من النّمل، ولم يستطع چون التّمييز بين جوالٍ وآخر... لكنه يعرفهم، وكل اسمٍ من أسمائهم منقوش على قلبه. ثمانية رجال صالحون، وواحد... سنرى.

عندما غابوا بين الأشجار ركّبَ چون سنو القفص إلى السّفح مع إد الكئيب. كانت نُدْف ثلج قليلة متفرّقة تسقط في أثناء نزولهما البطيء وتراقص في الرّيح العاصفة، وقد تبعّت إحداها القفص إلى أسفل طافيةً في الهواء خارج القضبان مباشرةً، سقوطها أسرع من نزولهما وبين الحين والآخر تخنفي تحتهما، ثم تلحق بها هبةً ريح وتدفعها إلى أعلى من جديد. كان بإمكان چون أن يمد يده بين القضبان ويقبّض عليها إذا أراد.

اعترفَ له إد الكئيب قائلاً: «رأيتُ حُلماً مخيفاً ليلة البارحة يا سيّدي. كنت وكيلي، تجلب لي طعامي وتُنظّف فضلاتي، وكنتُ أنا القائد، لا أعرفُ لحظة سلام».

لم يتسم چون وقال: «كابوسك حياتي».

منذ مُدَّةٍ تُرْسِلُ قوادسَ كوتر پايك تقارير بأعدادٍ تتزايد من الأحرار على السَّواحل المشجرة شمال (الجدار) وشرقه. شُوهِدَت مخيَّمات عدَّة، وأطواف تُبنى، بل وبدن كوج قديم محطَّم بدأ أحدهم يُصلِّحه. دائماً يخفني الهَمَج في الغابة حين يُشاهدون، وبلا شك يُعاودون الظهور بمجرد مرور سُفن پايك. وفي تلك الأثناء لا يزال السير دينس مالمِستر يرى نيراناً في الليل شمال (الغور).

وكلا القائدين يَطْلُبُ مزيداً من الرِّجال.

وأيْنُ أجدُ مزيداً من الرِّجال؟ أرسلَ چون لكلِّ منهما عشرةً من هَمَج (بلدة المناجد)، صبيَّة خُضراً ومسنَّين وبعض الجرحى والعاجزين، لكن جميعهم قادر على أداء عملٍ أو آخر، إلا أن هذا لم يسرَّ پايك ومالمِستر على الإطلاق، وردَّ كلاهما يشتكِي. كتبَ السير دينس: «حين طلبتُ رجالاً كنتُ أعني رجالَ حرس اللّيل، رجالاً مدرَّبين منضبطين لا أجدُ سبباً للتشكيك في ولائهم». أمَّا رسالة كوتر پايك فكانت أكثر فظاظَةً، وكتبَ المالمِستر هارميون نيابةً عنه قائلاً: «يُمكنني أن أشنقهم على (الجدار) تحذيراً للهَمَج الآخرين من الاقتراب، لكنني لا أرى جدوى أخرى منهم. لسْتُ أأتمنُّ أمثالهم على تنظيف وعاء فضلاتي، وعشرة عدد لا يكفي!».

تحركَ القفص إلى أسفل معلِّقاً من سلسلته الطويلة، يصرُّ ويُصلِّص إلى أن توقَّف بحركةٍ حادَّة على ارتفاع قدم عند قاعدة (الجدار)، ففتحَ إدا الكتيب الباب ووثبَ إلى الأرض ليكسر حدَّأوه قشرة الثلج الذي سقطَ في الفترة الأخيرة، وتبعه چون.

خارج مستودع السِّلاح كان إميت الحديدي يُوجِّه متدريِّبه في السَّاحة. أيقظتُ أغنيَّة الفولاذ على الفولاذ جوعاً في نفس چون، ذكَّرتَه بأيام أبسط وأكثر دفئاً حين كان صبيّاً صغيراً في (وينترفل) يُقارع روب تحت عينِ السير رودريك كاسل اليقظة. سقطَ السير رودريك أيضاً، قتله المارق ثيون ورجاله الحديديُّون عندما حاولَ استعادة (وينترفل)، والآن معقل عائلة ستارك العظيم خراب محروق.

لمحّه إميت الحديدي فرفعَ يده ليتوقَّف القتال، وقال: «حضرة القائد، كيف نخدمك؟».

- «بأفضل ثلاثة رجال عندك».

ابتسم إميت ابتسامةً واسعةً قائلاً: «أرون، إمریک، چایس».

جلبَ الجواد وروبِن النطَّاط بطانةً لحضرة القائد، ومعها قميصاً من الحلقات المعدنية يرتديه فوقها، وواقِي ساقين وواقِي عنقٍ وخوذةٌ قصيرةٌ، بالإضافة إلى تُرسٍ أسودٍ مؤطَّر بالحديد لذرعه اليسرى، وسيفٍ طويلٍ مثلومٍ ليده اليمنى. في ضوء الفجر التمتع السيف بالرَّمادي الفضي كأنه جديد. أحد آخر الأسلحة التي خرجت من ورشة دونال. مؤسفٌ أنه لم يعيش حتى يشحذه. السيف أقصر من (المخلب الطويل)، لكنه مصنوع من الفولاذ التقليدي، وهو ما يجعله أثقل، أي أن ضرباته ستكون أبطأً بعض الشيء. قال چون: «لا بأس به»، والتفت إلى خصومه قائلاً: «هيا».

سأله أرون: «مَن تُريد أولاً؟».

- «ثلاثتكم معاً».

قال چایس بارتياب: «ثلاثة ضد واحد؟ لن يكون هذا منصفاً». إنه واحد من آخر من جندهم كونوي، ابن إسكاف من (الجزيرة القصية). قد يُفسَّر هذا الأمر.

- «صحيح. هلمَّ إذن».

ولمَّا فعلَ هوى چون بنصله على رأسه طارحاً إياه أرضاً، وفي غمضة عينٍ وجدَ الصَّبي حذاءً على صدره ورأس سيفٍ على عنقه.

قال له چون: «الحرب لا تعرف العدل. اثنان ضد واحد الآن، وأنت ميت». حين سمعَ الحصى ينسحق عرفَ أن التَّوأمين ينقضَّان عليه. سيبلغُ هذان الاثنان مصافَ الجوّالة. دارَ على عقبيه يصدُّ ضربة أرون بحافة تُرسه ويُعيق ضربة إمریک بسيفه، ثم صاحَ: «لسنا نتقاتل بالجراب. اقتربا»، وكرَّ عليهما يُريهما أصول القتال.

إمریک أولاً. سدَّد چون ضرباته إلى رأسه وكتفيه، يميناً ويساراً ويميناً ثانيةً، ورفع الصَّبي تُرسه وحاولَ تسديد ضربةٍ مضادةٍ خرقاء، فصدَّم چون تُرسه بترسه وأسقطه بضربةٍ على قصبة ساقه... وفي اللحظة المناسبة تماماً، لأن أرون انقضَّ عليه بضربةٍ ساحقة على مؤخِّرة فخذِه أسقطته على رُكبته. سترَّك كدمةً. صدَّ الضربة التالية بترسه، ثم هبَّ واقفاً وأجبرَ أرون على

التَّراجُعِ عبر السَّاحة، وإذ تبادلَ السَّيفان الطَّويلان قُبلةً واثنتين وثلاثًا قال لنفسه. إنه سريع، ولكن عليه أن يُصبح أقوى. عندما رأى الارتياح في عيني أرون عرف أن إمریک وراه، فدارَ وهوى بضربةٍ على مؤخرة كتفيه دفعته إلى الارتطام بأخيه، وعندئذٍ كان چایس قد نهَض، فطرحه چون أرضًا من جديد قائلاً: «أكرهُ أن ينهض الموتى من رقدتهم. هذا ما ستشعر به أيضًا يوم تلقي جثةً حيَّةً»، ثم تراجعَ وخفض سيفه.

دمدمَ صوت من ورائه: «يستطيع الغراب الكبير أن ينقر الغرابان الصَّغيرة، لكن هل يقوى على قتال الرِّجال؟».

كان ذو القميص المُخشخِش مستندًا إلى حائط، تُغطي لحيه قصيرة خشنة وجنتيه الغائبتين ويطير الشعر البني الخفيف على عينيه الصَّفراوين الصَّغيرتين.

قال چون: «إنك تطري على نفسك».

- «أجل، لكنني أستطيع أن أسوي بك الأرض».

- «ستانيس أحرق الرِّجل الخطأ».

ابتسم له الهمجي ابتسامةً عريضةً بغم من الأسنان البنية والمكسورة، وقال: «لا، بل أحرق الرِّجل الذي عليه أن يحرقه على مرأى من العالم كله. جميعنا نعمل ما علينا أن نفعله يا سنو، حتى الملوك».

- «إميت، جد له درعًا. أريده مرتديًا الفولاذ لا العظام القديمة».

ما إن تدرَّع بحلقات وصفائح المعدن بدت قامة سيّد العظام أكثر انتصابًا نوعًا، وبدا أطول أيضًا، وكتفاه أغلظ وأقوى مما توقع چون. قال لنفسه: إنها الدرَّع لا الرِّجل. سام نفسه كان يبدو أقرب إلى الهيبة إذا تدرَّع من رأسه إلى قدميه بفولاذ دونال نوي. رفض الهمجي الترس الذي عرضه عليه الجواد، وبدلاً منه طلب سيفًا يُحمل باليدين، ولمَّا ناله راح يشق به الهواء قائلاً: «صوت عذب. حلّق إليّ يا سنو. سأطيّر ريشك».

وانقضَّ عليه چون بكلِّ قوته.

تراجعَ خصمه خطوةً ولاقى الهجمة بضربةٍ بكلتا يديه، ولولا أن چون اعترضها بترسه لاخرقت واقى صدره وكسرت نصف ضلوعه، لكن وقعها العنيف جعله يترنح لحظةً وأصاب ذراعه بلسانٍ من البرق سرى فيها. ضرباته

أقوى مما ظننتُ. وسرعته مفاجأة أخرى لا تسرُّ. دارَ كلاهما حول الآخر يتبادلان الصُّرْبَاتِ وَيُسَدُّ سَيِّدَ العِظَامِ مِنْهَا كَمَا يَتَلَقَّى. الحَقِيقَةُ أَنَّ سَيْفَهُ العَظِيمَ الَّذِي يُحْمَلُ بِالْيَدَيْنِ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَثْقَلَ وَأَكْثَرَ إِرْهَاقًا مِنْ سَيْفِ چُونِ الطَّوِيلِ، لَكِنَّ الِهْمَجِي سَيَطَرَ عَلَيْهِ بِسُرْعَةٍ تُعْمِي.

فِي البَدَايَةِ هَتَفَ مَتَدَرَّبُو إِمِيَتِ الحَدِيدِي الصَّغَارِ لِقَائِهِمْ، لَكِنَّ سُرْعَانَ مَا أُرْغَمَتْهُمْ سُرْعَةُ هِجُومِ ذِي القَمِيصِ المُخْشِخِشِ العَنِيدَةِ عَلَى الصَّمْتِ. قَالَ چُونُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَصْدُ ضَرْبَةً أُخْرَى: لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى هَذِهِ الحَالِ طَوِيلًا. جَعَلَتْهُ صَدْمَتُهَا يَثْنُ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ مِثْلُومٌ فَقَدْ شَقَّقَ السَّيْفَ العَظِيمَ تُرْسَهُ المِصْنُوعَ مِنْ خَشَبِ الصَّنُوبَرِ وَثَنِي حَافَتَهُ الحَدِيدِ. سَيَتَعَبُ قَرِيبًا، حَتْمًا سَيَتَعَبُ. هُوَ چُونُ بِسَيْفِهِ عَلَى وَجْهِ الِهْمَجِي فَسَحَبَ رَأْسَهُ إِلَى الوَرَاءِ، وَهُوَ بِهَ عَلَى رِبْلَةٍ سَاقِهِ لِيَثِبَ فَوْقَ النَّصْلِ بِرِشَاقَةٍ، ثُمَّ نَزَلَ السَّيْفَ العَظِيمَ عَلَى كَتْفِ چُونِ بِقُوَّةٍ قَرَعَتْ وَاقِي كَتْفِهِ وَخَدَّرَتْ ذِرَاعَهُ مِنْ تَحْتِهِ. تَقَهَّقَرَ چُونُ، وَأَقْبَلَ سَيِّدَ العِظَامِ ضَاحِكًا بِجَذَلٍ. قَالَ چُونُ لِنَفْسِهِ مَذْكَرًا: إِنَّهُ لَا يَحْمَلُ تُرْسًا، وَسَيْفِ الوَحُوشِ هَذَا أَثْقَلُ مِنْ أَنْ يَصْدَّ بِهِ الضَّرْبَاتِ. المِفْتَرَضُ أَنْ أَسُدُّ لَهُ ضَرْبَتَيْنِ مُقَابِلَ كُلِّ وَاحِدَةٍ.

عَلَى أَنَّهُ بِشَكْلِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْ، وَالضَّرْبَاتِ الَّتِي أَصَابَتْ هَدَفَهَا لَمْ تُحَدِّثْ أَثْرًا. طَوَالَ الوَقْتِ بَدَأَ أَنَّ الِهْمَجِي يَبْتَعِدُ أَوْ يَنْزَلِقُ جَانِبًا، فَلَمْ يَحْدِثْ أَكْثَرَ مِنْ احْتِكَاكِ سَيْفِ چُونِ الطَّوِيلِ بِكَتْفِهِ أَوْ ذِرَاعِهِ، وَلَمْ يَمِضْ وَقْتٌ طَوِيلٌ قَبْلَ أَنْ يَجِدَ نَفْسَهُ يَتَرَاوَعُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ مُحَاوَلًا تَفَادِي ضَرْبَاتِ الِآخِرِ العَنِيفَةِ وَيَفْشَلُ نِصْفَ الوَقْتِ. تَحَوَّلَ تُرْسُهُ إِلَى هَشِيمٍ فَنَفَضَهُ عَنِ ذِرَاعِهِ، وَشَعَرَ بِالعَرَقِ يَجْرِي عَلَى وَجْهِهِ وَيَلْسَعُ عَيْنَيْهِ تَحْتَ خَوْذَتِهِ. إِنَّهُ قَوِيٌّ وَسَرِيعٌ لِلغَايَةِ، وَبِهَذَا السَّيْفِ العَظِيمِ يَتَفَوَّقُ عَلَيَّ فِي الوِزْنِ وَالمَدَى. كَانَ القِتَالُ لِيخْتَلِفُ لَوْ أَنَّ چُونٌ مَسَلَحَ بِمِخْلَبِ الطَّوِيلِ، وَلَكِنَّ...

جَاءَتْ فُرْصَتُهُ مَعَ ضَرْبَةِ خِصْمِهِ المِعَاكِسَةِ التَّالِيَةِ. أَلْقَى چُونُ نَفْسَهُ إِلَى الأَمَامِ مَنقُضًا بِكَامِلِ وَزْنِهِ عَلَى الرَّجْلِ الِآخِرِ، وَمَعًا سَقَطَا وَقَدْ تَشَابَكَتْ سَيْقَانُهُمَا، وَارْتَطَمَ الفُولاذُ بِالفُولاذِ، وَقَدَّ كِلَاهُمَا سَيْفَهُ إِذْ تَدَحَّرَجَا عَلَى الأَرْضِ الصُّلْبَةِ. ضَرْبَةُ الِهْمَجِي بَرُكْبَتِهِ بَيْنَ سَاقَيْهِ، وَرَدَّ چُونُ الضَّرْبَةَ بِقَبْضَةٍ مَقْفُزَةٍ بِالمِعدِنِ، وَبِشَكْلِ مَا انْتَهَى الأَمْرُ بِذِي القَمِيصِ المُخْشِخِشِ فَوْقَهُ

وبرأس چون بين يديه، يضرب به الأرض مرّة ثم يفتح مقدّمة خوذته بحركة خاطفة ويُزْمَجِر: «لو كنتُ أحملُ خنجراً لتقصّت عيناك واحدة الآن»، قبل أن يجرّه الجواد وإميت الحديدي من فوق القائد وهو يهدر: «دعوني أيها الغربان الملاعين!».

اعتدل چون جالساً على رُكبتيه بصعوبة. كان رأسه يدقّ وفمه مليئاً بالدمّ، فبصقه ثم قال: «أحسنّت القتال».

- «تُثني على نفسك أيها الغرّاب. لم تسيل مني قطرة عرق واحدة».
قال إميت الحديدي: «سيّدي، لقد هدّدك، كلنا سمعناه. قال إنه لو كان يحمل خنجراً...».

- «إنه يحمل خنجراً بالفعل، هناك في حزامه». ذات مرّة قال السير رودريك لچون وروب: هناك من هو أسرع وأقوى دائماً، وهو الرّجل الذي تُريدان مواجهته في السّاحة قبل أن تواجها أمثاله في ميدان المعركة.
قال صوت هادئ: «لورد سنو؟».

التفت ليري كلايداس واقفاً تحت قنطرة مكسورة وفي يده ورقة، فسأله: «من ستانيس؟». كان چون يأمل أن يصل خبر ما من الملك. حرس اللّيل لا يتدخلون، وهو يعلم هذا، ولا ينبغي أن يهّمه أيّ ملكٍ ينتصر، وعلى الرغم من هذا يجد نفسه مهتماً. «أهي (ربوة الغابة)؟».

أجاب كلايداس: «لا يا سيّدي»، ومدّ يده بالرّق المطوي بإحكام والمختوم بزّر من الشّمع الوردي الجامد. وحدها (معقل الخوف) تستخدم شمع أختام وردياً. خلع چون قفّازه وتناول الرّسالة وكسر الختم، وحين رأى التّوقيع نسي الصّرب الذي انهال به عليه سيّد العظام.

بخطّ محزّز ضخم كُتِب: رامزي بولتون، سيّد (هورنود). تقشّر الحبر البني عندما تحسّسه چون بإبهامه، وتحت توقيع بولتون وجد أن كلّ من الليدي داستن والليدي سروين وأربعة من آل ريزويل ذيلوا الرّسالة بتوقيعاتهم ومهروها بأختامهم، وإلى جوارها رسم بسيط لعملاق عائلة أومبر.

سأله إميت الحديدي: «هل لنا أن نعرف ماذا تقول يا سيّدي؟».
لم ير چون ما يمنع أن يُخبره، فقال: «(خندق كايلن) سقطت، وجُثث الحديديّين المسلوخة معلّقة على أعمدة على (طريق الملوك). روروس

بولتون يستدعي جميع اللوردات المخلصين إلى (بلدة الروابي) ليؤكّدوا
ولاءهم للعرش الحديدي وحضور زفاف ابنه إلى...». أحسّ كأن قلبه توقّف
لحظةً. لا، غير ممكن، لقد ماتت في (كينجز لاندنيج) مع أبي.

رمقه كلايداس بإمعانٍ بعينه المحمّرتين الغائمتين قائلاً: «لورد سنو؟ هل
أنت... معتل؟ تبدو...».

- «سيتزوج آريا ستارك، أختي الصّغيرة». كادَ چون يراها أمامه في هذه
اللحظة، بوجهها الطّويل وخرقها ورُكبتها المتورّمتين ومرفقيها الحادّين،
بوجهها المتسخّ وشعرها المتشابك. لا شكّ أنهم سيغسلون هذا ويُمسّطون
ذاك، لكنه لا يتخيّل آريا في فُستان زفاف أو في فراش رامزي بولتون. مهما
كانت خائفةً فلن تُبدي خوفها، وإذا حاول أن يضع يده عليها فستقاومه.
قال إاميت: «أختك. كم عمّ...».

أجاب چون في سريره: بلغت الحادية عشرة، لا تزال طفلةً، ثم إنه قال:
«ليست لي أخت. لي إخوة فقط، أُنتم فقط». كانت الليدي كاتلين لتطرب
لسماع هذه الكلمات، لكن ذلك لم يجعل نُطقها أسهل. انغلقت أصابعه على
الورقة مفكّراً: ليثني أستطيع أن أسحق رقبة رامزي بولتون بهذه السهولة.
تنحّح كلايداس، وسألّه: «هل سنرذ؟».

هزّ چون رأسه نفيّاً وابتعدَ.

بحلول المساء كانت الكدمات التي أصابه بها ذو القميص المُخشخِش
قد اصطبغت بالأرجواني، فقال لغُذاف مورمونت: «ستصفرُّ قبل أن تختفي.
سأبدو شاحباً كسيد العظام».

أيده الطّائر مردّداً: «عظام، عظام، عظام!».

تناهت إلى مسامعه من الخارج همهمة الأصوات الخافتة، لكنها أضعف
من أن يميّز ما تقول. كأنهم يبعُدون ألف فرسخ. إنها الليدي مليساندرا
وأتباعها عند نارهم الليلية. كل ليلةٍ عند الغسق تقود المرأة الحمراء أتباعها
في صلاة الشّفق، تسأل إلهها الأحمر أن يحميهم من الظلام. فالليل مظلمٌ
ومفعمٌ بالأهوال. بعد رحيل ستانيس وأكثر رجال الملكة انخفض عدد
رعيتها كثيراً، فلم يتبقّ منهم إلا نحو نصفمئة من الأحرار الذين أتوا من (بلدة

المناجذ)، ومجموعة الحُرَّاس الصَّغيرة التي تركَّها الملك معها، وُزَّهَاءِ دَسْتِيَّ
من الإخوة السُّود الذين اعتنقوا ديانة إلهها الأحمر.

أحسَّ چون بجسده متيسِّسًا كأنه شيخ في السِّتين. الأحلام المظلمة،
والذُّنب. ظلَّت أفكاره تعود إلى آريا. إنني عاجز عن مساعدتها. حين حلفتُ
يميّني نحيبُ أهلي جميعهم جانبًا. إذا أخبرني أحد رجالي بأن أخته في خطرٍ
لقلتُ له إن هذا ليس من شأنه. حالما حلفَ الرَّجل اليمين أمست دماؤه
سوداء. سوداء كقلوب النُّغول. يذكُر عندما جعلَ ميكن يصنع سيفًا لآريا،
سيف مُبارزي براقو صغيرًا يُلائم يدها. (الإبرة). تساءل إن كانت لا تزال
محفوظةً به. قال لها: اطعنيهم بالطرف المدبَّب، ولكن إذا حاولتُ أن تطعن
النَّغل فقد يُكلِّفها ذلك حياتها.

تمتَّ عُذاف اللورد مورمونت: «سنو، سنو، سنو!».

وفجأةً لم يعد چون يطيق الاحتمال لحظةً أخرى.

وجد جوست خارج بابه يقضم عظمة ثورٍ ليبلغ النُّخاع، فسأله: «متى
عُدت؟»، ونهض الذُّنب الرَّهيب متخلِّيًا عن العظمة ليضمي في أعقاب چون.
كان مولى وكجز واقفين داخل باب مستودع السِّلاح مستندين إلى
حربتيهما، ونبَّه مولى قائلاً من تحت لحيته البرتقاليَّة المتشابكة: «البرد
قارس بالخارج يا سيِّدي. هل ستغيب طويلًا؟».

أجابته: «لا، أريد القليل من الهواء الطَّلَق فقط»، وخرج إلى اللَّيل. السَّماء
مرصَّعة بالنُّجوم، والرَّيح تعصف بطول (الجدار)، وحتى القمر يبدو باردًا،
تجتاح وجهه القشعريرة. ثم أطبقت عليه هبة الرِّيح الأولى ونفدت من طبقات
الصُّوف والجِلد على جسده جاعلةً أسنانه تصطك. تحرك عبر السَّاحة واضعًا
نفسه بين أسنان الرِّيح ليخفق معطفه بإزعاج على كتفيه، وتبعه جوست. أين
أذهب؟ ماذا أفعل؟ (القلعة السُّوداء) ساكنة هادئة، قاعاتها وأبراجها مظلمة،
وقال چون سنو لنفسه متأملًا أرجاءها: مقرِّي، مِثْواي، داري، قيادتي...
خراب.

في ظلِّ (الجدار) مسَّ الذُّنب الرَّهيب أصابعه، وللحظةٍ أو دونها دبَّت
الحياة في اللَّيل بألف رائحة، وسمع چون سنو طقطقة قشرة رُقعة ثلج قديمة
تتكسر، وأدرك فجأةً أن أحدهم خلفه، أحدًا دافئ الرَّائحة كنهارٍ صيفيِّ.

ولمَّا التفتَ رأى إيجريت.

كانت واقفةً أسفل حجارة (برج القائد) المسفوعة، مَشْحَةً بِالظَّلام والذِّكريات، في شَعْرها نور القمر، شَعْرها الأحمر الذي قَبَلته النَّار، ولمرَّه وثَبَّ قلبِ چون إلى فمه، وقال: «إيجريت».

أجابَه صوت مليساندرا: «لورد سنو».

جعلته المفاجأة يَنْكُص منها، وأخذَ خُطوةً إلى الوراء قائلاً: «ليدي مليساندرا، حسبتكِ أحدًا آخر». في اللَّيْلِ كُلِّ الثَّيَابِ رمادِيَّة. ومع ذلك رأى ثوبها فجأةً أحمر. لا يدري كيف حسبها إيجريت. إنها أطول قامَةً وأنحل قوامًا وأكبر سنًا، ولو أن نور القمر غسَلَ من وجهها سنينًا. تصاعدَ البُخار من طاقتي أنفها ومن يديها الشَّاحبتين المكشوفتين للَّيْلِ، فحدَّرها قائلاً: «ستتجمَّد أصابعك».

- «إذا كانت هذه مشيئة راهلور. قُوَى اللَّيْلِ لا تمسُّ من تدنُّر فؤاده بنار الإله المقدَّسة».

- «فؤادك ليس من شأني، بل يدالك فقط».

- «الفؤاد كل ما يهيمُّ. لا تياس أيها اللورد سنو، فالياس سلاح العدو الذي يجب ألا يُذكر اسمه. أختك لم تضع منك».

- «ليست لي أخت». كلمات كالخناجر. ماذا تعرفين عن فؤادي أيتها الرَّاهبة؟ ماذا تعرفين عن أختي؟

لاَحِ الاستمتاع على مليساندرا إذ سألته: «وما اسم تلك الأخت الصَّغيرة التي ليست لك؟».

أجابها بصوتٍ مبحوح: «أريا. إنها أختي غير الشَّقِيقة في الواقع...».

- «... لأنك نغل المولد. لم أنس. لقد رأيت أختك في نيرانني، نفرُّ من هذه الزَّيْجَة التي ربَّبوها لها، آتيةً هنا، إليك. فتاة ترتدي الرَّمادي على حصانٍ يُحتَضِر، رأيتها بوضوح النَّهار. لم يحدث ذلك بعد، لكنه سيحدث»، ثم رمقت مليساندرا جوست متسائلةً: «هل لي أن ألمس... ذئبك؟».

وثرَّت الفكرة چون، فقال: «الأفضل ألا تفعلني».

- «لن يُؤذيني. تدعوه بجوست، أليس كذلك؟».

- «بلى، ولكن...».

قالت مليساندرا: «جوست» جاعلة الكلمة أغنيّة.
أقبل إليها الذئب الرّهيب، وبحذرٍ دارَ حولها في دائرةٍ متشمّماً، ولمّا مدّت
يدها تشمّمها أيضاً، ثم دسّ أنفه في أصابعها.
وأطلقَ چون نفساً أبيض قائلًا: «ليس دائماً بهذا...».
- «... الدّف؟ الدّف يُنادي الدّف يا چون سنو». عيناها نجمتان
حمرّوان تَبْرُقان في الظلمة، وعلى عنقها تلتمع الياقوتة كعينٍ ثالثة أسطع
من الآخرين. سبقَ أن رأى چون عيني جوست متوقّدين بالحُمْرة ذاتها حين
يَسْقُط عليهما الصّوء بزوايية معيئة.
نادى: «جوست، إليّ».

ونظرَ إليه الذئب الرّهيب كأنه غريب.
قَطَبَ چون وجهه مصدومًا، وغمغم: «هذا... غريب».
قالت: «أَظنُّ هذا؟»، وانحنت وحكّت جوست وراءه أذنه متابعَةً:
«جداركم مكان غريب، لكن ثمة قوّة هنا إذا أقدمت على استغلالها، قوّة فيك
وفي هذا الحيوان. إنك تُقاومها، وهذه غلطتك. اعتنقها، استخدمها».
لستُ ذنبًا. «وكيف أفعل ذلك؟».

قالت مليساندرا: «يُمكنني أن أريك»، وطوّقت جوست بذراعٍ نحيلة فلحقَ
وجهاها. «إله الضّياء بحكمته خلقنا ذكراً وأنثى، جزأين من كيانٍ أعظم، وفي
اتّحادنا قوّة، قوّة لصنع الحياة، قوّة لإشعال النّور، قوّة لإلقاء الظّلال».
- «الظّلال». بدا العالم أشدّ حلكتة حين قالها.

- «كلُّ امرئ يمشي على أديم الأرض يُلقي على العالم ظلًا. بعض الظّلال
رقيق ضعيف، وبعضها طويل داكن. انظر وراءك أيها اللورد سنو. لقد قبّلك
القمر ونقشَ ظِلُّك على الجليد بارتفاع عشرين قدمًا».

نظرَ چون من وراء كتفه. الظّل هناك، تمامًا كما قالت، منقوش في نور
القمر على (الجدار). فتاة ترتدي الرّمادي على حصانٍ يُحتضّر، آتية هنا،
إليك. آريا. عادَ يلتفت إلى الرّاهبة الحمراء شاعرًا بدفئها. إنها تتمتّع بقوّة.
خطرت له الفكرة بلا حيلةٍ منه أو دعوة، وأطبقت عليه بأسنانٍ من حديد، لكن
هذه ليست امرأةٌ يُريد أن يدين لها بشيء، ولا حتى من أجل أخته الصّغيرة.

قال لها: «ذات مرّة أخبرتني دالا بشيء، أخت قال، زوجة مانس رايدر. قالت إن السّعوذة سيف بلا مقبض، ليست هناك وسيلة آمنة للمقبض عليه». نهضت مليساندرا قائلة: «امرأة حكيمة. لكن سيفاً بلا مقبض يظل سيفاً، ومفيد للغاية أن تحمل سيفاً حين يُحيط بك الأعداء. اسمعني الآن يا چون سنو. تسعة غربان طاروا إلى الغابة البيضاء ليَعثروا لك على أعدائك. ثلاثة منهم أموات. إنهم لم يموتوا بعد، لكن موتهم في انتظارهم، ويركبون الآن لملاقاته. أرسلتهم ليكونوا أعينك في الظلام، لكن عندما يعودون إليك سيكونون بلا أعين. لقد رأيت وجوههم الميتة الممتعة في لهبي، محاجر جوفاء تبكي دمًا»، وأزاحت شعرها الأحمر وتألقت عيناها الحمران إذ واصلت: «لست تُصدّقني، لكنك ستفعل، وتكلفة هذا التصديق حياتهم. قد يقول بعضهم إنه ثمن بخس لشراء الحكمة... لكنك لم تكن مضطراً إلى دفعه. تذكّر هذا حين ترى وجوه موتاك العمياء المشوّهة، وحين يأتي هذا اليوم خذ يدي». تصاعد البخار من بشرتها الشاحبة، وللحظة بدا كأن لها سحرياً باهتاً يتراقص حول أصابعها، وثانية قالت: «خذ يدي... ودعني أنقذ أختك».



دافوس

حتى في عتمة (عرين الذئاب) كان باستطاعة دافوس سيوورث أن يشعر بأن شيئاً ما في غير محله صبيحة اليوم.

استيقظ على وقع الأصوات وذهب إلى باب زنزانه، لكن الخشب السميك لم يمكّنه من تمييز الكلام الدائر بالخارج. كان الفجر قد بزغ، وإن لم يأتِه جارث بشريد الإفطار كما يفعل كل صباح، وقد وتره هذا. داخل (عرين الذئاب) تمضي الأيام جميعاً على الوتيرة نفسها، وعادةً إذا تغير شيء في هذا فهو تغيير إلى الأسوأ. قد يكون اليوم يوم مماتي، قد يكون جارث جالساً الآن بمشحذه يزيد (الليدي لو) حدةً.

لم ينسَ فارس البصل كلمات وايمان ماندرلي الأخيرة له. قال للورد البدين: خذ هذا المخلوق إلى (عرين الذئاب) واقطع رأسه ويديه. أريد أن توضع أمامي قبل أن أتناول عشايتي. لن أستطيع أن أكل قضمة واحدة حتى أرى رأس هذا المهرب على خازوق، وبين أسنانه الكذوب بصلة. كل ليلة يخلد دافوس إلى النوم وهذه الكلمات تتردد في رأسه، وكل صباح يستيقظ عليها، وإذا نسي فمن دواعي سرور جارث دوماً أن يذكّره، إذ لا يدعو السجان دافوس إلا بالرجل الميت، فكلما أتى صباحاً قال: «هاك، ثريد للرجل الميت»، وليلاً يقول: «أطفئ الشمعة أيها الرجل الميت».

في مرة جلب امرأته يُعرّف الرجل الميت إليهما، وقال مداعباً قضيبياً من الحديد الأسود البارد: «(العاهرة) لا تبدو مثيرة للإعجاب، لكن حين أسخّنها حتى تحمرُّ وأدعها تلمس ذكرك ستصرخ منادياً أمك»، وأشار إلى امرأته الأخرى متابعاً: «وهذه هي (الليدي لو). إنها من ستقطع رأسك ويديك حين

يُرْسِل اللورد وإيمان الأوامر». لم ير دافوس قَطُّ فأسًا أكبر من (الليدي لو) أو أمضى. يقول السجّانون الآخرون إن جارث يقضي جُلَّ وقته في شحذها. قال دافوس لنفسه بتصميم: لن أتوسَّل الرَّحمة. سيذهب إلى حتفه فارسًا، ولن يَطْلُب إلا أن يقطعوا رأسه قبل يديه. حتى جارث لن يكون بتلك القسوة ويأبى عليه هذا، أو هكذا يأمل.

الأصوات الآتية من خلال الباب خافتة مكتومة. نهَض دافوس وشرعَ يذرع زنزانتة ذهبا وإيابًا. بالنسبة إلى ما خبره من الزنازين فهذه واسعة مريحة على نحوٍ مدهش، وقَدَّر أنها كانت غرفة نوم أحد اللوردات الصَّغار في الماضي. إنها أكبر ثلاث مرَّات من قمرة الرُّبَّان على سفينته (بِثا السَّوداء)، بل وأكبر أيضًا من القمرة التي يتمتع بها سالادور سان على متن قادسه (فَاليريان)، وعلى الرغم من أن نافذتها الوحيدة مسدودة بالحجارة منذ أعوام فعند أحد جدرانها مستوقدٌ كبير بما يكفي لأن يضع فوقه مرجلاً، وفي أحد الأركان مرحاض. الأرضية من ألواح الخشب الملتوية المملأى بِشُدْف الخشب، وفي سريره المتواضع رائحة عفونة، لكن هذه المضايقات طفيفة مقارنة بما كان دافوس يتوقَّعه.

فاجأه الطَّعام أيضًا، فبدلاً من العصيدة والخُبز البائت واللَّحم الفاسد -طعام الزنازين المعتاد- يجلب له سجّانوه أسماكاً طازجةً وخُبزاً دافئاً وضائناً متبلاً ولفناً وجزراً، وحتى سرطان البحر. على أن جارث ناقم عليه لما يأتيه من أظعمة جيِّدة، وأكثر من مرَّة قال متذمِّراً: «لا يُفترَض أن يأكل الموتى أفضل من الأحياء». يحظى دافوس بأغطيةٍ فرو يستدفعُ بها ليلاً، وحطب يُطعم به النَّار، وملابس نظيفة يرتديها، وشمعةٍ من الشَّحم، وحين طلبَ ورقةً وريشةً وحبراً جلبها لثري في اليوم التَّالي، وحين طلبَ كتاباً كي يُواظب على القراءة أحضر له لثري نسخةً من (النَّجمة السُّباعية).

ولكن على الرغم من كلِّ سُبُل الرَّاحة هذه تظلُّ زنزانتة زنزانتة. الجدران من الحجر المصمت السَّميك لدرجةٍ لا تُتيح له أن يسمع شيئاً من العالم الخارجي، والباب من خشب السَّنديان والحديد، ويضع السجّانون عليه مزلاجاً طيلة الوقت، ومن السَّقْف تتدلى أربع مجموعاتٍ من الأغلال الحديدية الثقيلة، تنتظر يوم يأمر اللورد ماندرلي بتقييده وإعطائه (العاهرة).

قد يكون اليوم هذا اليوم. عندما يفتح جارت باي المرة التالية قد لا يكون آتياً بالثريد.

كان بطنه يُقرقر، وهي علامة أكيدة على أن الصّباح يمرُّ، وما زال الوالم يجلبوا له طعامًا. أسوأ ما في الأمر ليس الموت نفسه، وإنما جهلي متى أو كيف. لقد نزل بعددٍ من الزنازين في أيام التّهريب، إلا أن سُجناء آخرين شاركوه إياها دومًا، وهكذا وجد من يُكلّمه ويوح له بمخاوفه وآماله، ولكن ليس هنا. باستثناء سجّانیه فدافوس سيورث وحيد في (عرين الذّئاب) تمامًا.

يعلم أن في أقبية القلعة زنازين حقيقيّة؛ دياميس⁽¹⁾ وعُرف تعذيب وحُفر رطبة تتخبّط فيها الجرذان السوداء الضّخمة في الظلام. يدّعي سجّانوه أن جميعها شاغر في الوقت الرّاهن، وقال له السير بارتيروس: «نحن فقط هنا أيها البصلة». إنه رئيس السجّانين، فارس مهزول له ساق واحدة ووجه نديب وعين عمياء. حين يسكر السير بارتيروس -والسير بارتيروس يسكر كل يوم تقريبًا- يحبُّ أن يتباهى بإنقاذه حياة اللورد وإيمان في معركة (الثالوث)، وكيف كافأه ماندرلي بـ(عرين الذّئاب).

تتكوّن بقية «نحن» من طاه لم يره دافوس قط، وستّة حُرّاس في نُكثات الطّابق الأرضي، وامرأتين تتوليان غسل الثياب، وسجّانين يعتنيان بالسّجين. ثري أصغر الاثنین سنًا، ابن إحدى الغسّالتين، صبي في الرّابعة عشرة، وأكبرهما جارت الأصلح الضّخم قليل الكلام، الذي يرتدي السّتره الجلد المبقعة بالشّحم نفسها كل يوم وتبدو الجهامة على ملامحه على الدّوام.

زوّدت أعوام التّهريب دافوس سيورث بحاسّة تُحوّل له أن يعرف إذا كان أحدهم سيّئًا، وجارت سيّئ، ولذا يحرص فارس البصل على أن يصون لسانه في حضوره. أمّا مع ثري والسير بارتيروس فهو أقلّ تحفظًا، يشكرهما على الطعام، ويُشجّعهما على الحديث عن آمالهما وتاريخهما، ويُحجب عن أسئلتهما بتهديب، ولا يلحّ عليهما بأسئلته، وحين يطلب منهما شيئًا يكون شيئًا صغيرًا، كحوض ماء وقطعة من الصّابون، أو كتاب يقرأه، أو المزيد من الشّمع، وهي الطّلبات التي يُلبّي معظمها فيبدي دافوس خالص امتنانه.

(1) الدّيماس زنازة رأسية شديدة الضّيق لا يُمكن الوصول إليها إلاّ من فتحة في السّفوف، وكانت شائعة الاستخدام في قلاع القرون الوسطى. (المترجم).

لا هذا ولا ذاك يتكلم عن اللورد ماندريلي أو الملك ستانيس أو أبناء فراي، لكنهما يتكلمان عن أشياء أخرى. يُريد ثري أن يذهب إلى الحرب حين يكبر، ليشارك في المعارك ويصير فارساً، ويحبُّ أيضاً الشكوى من أمه التي تُضاجع اثنين من الحرس. كل منهما مناوئته مختلفة ولا يدري بالآخر، لكن يوماً سيأتي ويستنتج أحدهما ما يحدث، وعندها ستراق الدماء. في بعض الليالي يجلب الصبي قربةً من النبيذ إلى الزنزانة ويسأل دافوس عن حياة المهريين فيما يشربان.

والسير بارتي موس ليس مهتماً بالعالم في الخارج أو بأي شيءٍ حدث فيه منذ فقد ساقه بسبب حصانٍ بلا راكب ثم منشار المايستر، لكنه أحبَّ (عرين الذئب) مع الوقت، ولا يروقه أكثر من أن يتحدث عن تاريخها الدامي الطويل. أخبر الفارس دافوس بأن القلعة أقدم من (الميناء الأبيض)، وقد شيدها الملك چون ستارك للدفاع عن مصبِّ (السكين الأبيض) ضد مُغيري البحر، وبعدها اتخذها كثير من أبناء الملك في الشمال الأصغر مقرّاً لهم، وكثير من الإخوة، وكثير من الأعمام، وكثير من أبناء العمومة، كما ورث بعضهم أبناءه وأحفاده القلعة، فتشعبت فروع جديدة من شجرة عائلة ستارك، منها آل جراي ستارك الذين بقوا زمناً أطول من غيرهم وحافظوا على (عرين الذئب) خمسة قرون، إلى أن تجرأوا على الانضمام إلى (معقل الخوف) في التمرّد على آل ستارك أولاد (وينترفل).

بعد أن انقطع دابهم تنوَّقت القلعة بين أيادي أخرى عديدة، فحكّمها آل فلينت قرناً، وآل لوك قرنين تقريباً، وكان لكل من آل سليت ولونج وهولت وأشوود نفوذ هنا إذ كلّفهم (وينترفل) بتأمين النهر. ذات مرّة استولى مُغرون من (الثلاث أخوات) على القلعة وجعلوها موطن قدمهم في الشمال، وخلال الحروب بين (وينترفل) و(الوادي) حاصرهما الصّقر العجوز أوزجود آرّن وأحرقها ابنه الذي يذكّره الناس بلقب البرثن، وحين بات الملك العجوز إدريك ستارك أو هن من أن يُدافع عن مملكته استولى على (عرين الذئب) نخاسون من (الأعتاب) اعتادوا وسم أسراهم بالحديد الساخن وكسر إرادتهم بالجلد قبل أن يشحنوهم عبر (البحر الضيق)، وهذه الأحجار السوداء عينها تشهد.

قال السير بارتيموس: «ثم جاءَ شتاءَ قارسٍ طويلٍ. تجمَّدَ (السكَّين الأبيض) عن آخره، وحتى اللسان البحري تجلَّد. هبَّت الرِّيح تعوي من الشَّمال ودفَعَت النخَّاسين إلى الدَّاخِل ليجمِّموا حول نيرانهم، وبينما دَفَّأوا أنفُسهم هاجمهم الملك الجديد على حين غرَّة. كان براندون ستارك، ابن حفيد إدريك لحية الثلج الملقَّب بعين الجليد، وقد استعادَ (عرين الذئاب) وجرَّد النخَّاسين من ثيابهم وأعطاهم للعبيد الذين وجدهم مسلسلين في الرِّنازين. يُقال إنهم علَّقوا أحشاءهم على فروع شجرة القلوب قُرْبانًا للآلهة، الآلهة القديمة لا تلك الآلهة الجديدة من الجنوب. سبعتكم لا يعرفون الشَّتاء، والشَّتاء لا يعرفهم».

لم يستطع دافوس أن يُجادله في هذه الحقيقة، فبعد ما رآه في (القلعة الشَّرقيَّة) لا يرغب هو أيضًا في معرفة الشَّتاء. سأل الفارس ذا السَّاق الواحدة: «مَنْ الآلهة التي تَعْبُدُها؟».

أجاب السير بارتيموس بابتسامته العريضة التي تجعله أشبه بالجمجمة: «القديمة. وأنا وأهلي كنا هنا قبل آل ماندري، وعلى الأرجح علَّق أسلافي تلك الأحشاء على الشَّجرة».

- «لم أكن أعرف أن الشَّماليين يُقدِّمون قرابين الدَّم لأشجار القلوب».

- «ثمَّة أشياء كثيرة جدًّا لا تعرفونها عن الشَّمال أيها الجنوبيون».

وليس الرِّجل مخطئًا.

جلس دافوس عند شمعته ونظرَ إلى الرِّسائل التي خطَّها كلمةً كلمةً خلال أيام الحبس. كتبَ لزوجته: كنتُ مهرَّبًا أفضل من فارس، وفارسًا أفضل من يد ملك، ويد ملك أفضل من زوج. آسفٌ للغاية يا ماريا. لقد أحببتك. أرجوك اغفري لي إساءاتي إليك. إذا خسرت ستانيس الحرب فستضيع أراضينا أيضًا. خُذي الصَّبِيَّين عبر (البحر الضيِّق) إلى (برافوس) وعلميهما أن يذكُراني بالخير. وإذا ظفَرَ ستانيس بالعرش الحديدي فستستمرُّ عائلة سيوورث ويبقى دَفان في البلاط. سيُساعِدك على إيجاد موقع مناسب للصَّبِيَّين الآخريْن عند لوردات بُلاء، حيث يخدمان كو صيفيْن ومُرافقيْن ويفوزان بالفُرُوسية. إنها أفضل نصيحة لها عنده، مع أنه يتمنَّى لو كانت أكثر حكمةً.

كتبَ لكلِّ من أبنائه الثلاثة الباقيْن على قيد الحياة أيضًا لِيُساعِدَهم على

تذكر الأب الذي اشترى لهم أسماءهم بأطراف أصابعه. رسالته لستفون وستانيس الصغير قصيرتان جامدتان تعوزهما البلاغة، والحقيقة أنه لا يعرفهما جيداً مثلما عرف أبناءه الآخرين الأكبر، الذين احترقوا أو غرقوا في معركة (النهر الأسود). أمّا دثان فكتب له أكثر، يُخبره كم هو فخور برؤية ابنه مُرافقاً للملك ويُذكره باعتباره الابن الأكبر أن يحمي السيدة والدته وأخويه الصغيرين، وختَم رسالته كاتباً: بلغ جلالته أنني بذلتُ أفضل ما بوسعي. آسفٌ لأنني خذلتُه. لقد فقدتُ حظي مع عظم أصابعي يوم احترق النهر أسفل (كينجز لاندنج).

تصفح دافوس الرسائل بأناةٍ معيذاً قراءة كلِّ منها مرّاتٍ عدّة، متسائلاً إن كان عليه أن يُعيّر كلمةً هنا أو يُضيف كلمةً هناك، وقد جالَّ بباله أن من المفترض أن تكون عند المرء أشياء أكثر يقولها حينما يُواجه نهاية حياته، لكن الكلمات أتته بصعوبة. حاول أن يقول لنفسه: لم أبلِ بلاءً سيئاً، ارتقيتُ من (جحر البراغيث) لأصبح يد ملك، وتعلّمتُ القراءة والكتابة.

كان لا يزال مائلاً فوق رسالته عندما سمع صوت مفاتيح حديد تُصلصل في حلقة، وبعد أقل من لحظةٍ انفتح باب زنارته.

ليس الذي دخل أحد سجانیه، بل رجل معروق طويل القامة له وجه تنتشر فيه التجاعيد وشعر بني شائب، يُعلّق على وركه سيفاً طويلاً ويثبت معطفه المصبوغ بالقرمزي دبوس فضي ثقيل على شكل قبضة مقفزة بحلقات المعدن. قال الرجل: «لورد سيورث، لسنا نملك وقتاً طويلاً. تعال معي من فضلك».

حدج دافوس الغريب بحذر، وقد حيرته كلمة «من فضلك». من يوشكون على فقدان رؤوسهم وأيديهم لا يُعاملون بهذه الكياسة. «من أنت؟».

- «روبت جلوثر، بعد إذن سيدي».

- «جلوثر. كان مقرّك في (ربوة الغابة)».

- «مقرّ أخي جالبارت. كان كذلك وما زال بفضل ملكك ستانيس. لقد

استردّ (ربوة الغابة) من الحديدية الحقيبة التي سرقها ويعرض أن يُعيدها إلى أصحابها الشرعيين. أشياء كثيرة حدثت منذ احتجزوك في هذه الزنّانة أيها اللورد دافوس. (خندق كايلن) سقطت، وروس بولتون عاد إلى الشّمال

ومعه ابنة ندى ستارك الصَّغيرة، وصاحبه جيش من آل فراي. بولتون أرسل الغدبان يستدعي جميع لوردات الشمال إلى (بلدة الرّواي)، ويطلب بالبيعة والرّهائن... وبالشهود على زفاف آريا ستارك إلى نغله رامزي سنو، وهي الرّيجة التي ينوي آل بولتون عن طريقها المطالبة بحقّ في (وينترفل). والآن، هل ستأتي معي أم لا؟».

- «وهل أملك خيارًا يا سيّدي؟ أذهبُ معك أو أبقى مع جارث و(الليدي لو)؟».

تساءل جلوثر: «من هذه؟ إحدى الغسّالات؟»، ثم أردف وقد بدأ صبره ينفد: «ستفهم كلّ شيءٍ إذا أتيت».

نهض دافوس قائلاً: «إذا كنتُ ساموتُ فألتمسُ من سيّدي أن يحرص على توصيل رسائلي».

- «لك كلمتي... مع أنك إذا متّ فلن يكون ذلك بيد جلوثر أو اللورد وايمان. هيا بسرعة معي».

قاده جلوثر عبر رواقٍ معتم وأعلى سلالم بالية، ثم مرّا من أيكة آلهة القلعة حيث تعاضم حجم شجرة القلوب وتشابكت فروعها حتى إنها خنقت جميع أشجار السنديان والدردار والبتولة النامية في الأيكة، واخترقت أغصانها السميكة الشاحبة الجدران والنوافذ التي تطل عليها. جذورها غليظة كخاصرة رجل، وجذعها عريض لدرجة أن الوجه المحفور عليه يبدو سمينًا غاضبًا. وراء الوريد وود فتح جلوثر بوابةً حديديةً صدئةً وتوقّف يُوقد مشعلًا، ولما تأججت النار نزل دافوس مجموعةً أخرى من السلالم إلى قبو مقنطر السقف حيث يكسو الجدران الباكية الملح الأبيض ويتناثر ماء البحر تحت أقدامهما مع كلّ خطوة. مرّا من عدّة أقبية وبصفٍ من الزنازين الصَّغيرة الرطبة كريهة الرائحة تختلف بشدّة عن الغرفة التي حُبس بها دافوس، ثم بلغا جدارًا من الحجر الأسود تحرك عندما دفعه جلوثر ليكشف عن نفقٍ طويل ضيق، ثم المزيد من السلالم التي تقود إلى أعلى هذه المرّة.

سأل دافوس وهما يصعدان: «أين نحن؟»، ليردّد صدى سؤاله بخفوتٍ في الظلام.

- «السلالم تحت السلالم. الممرّ يمضي تحت (سلالم القلعة) إلى

(القلعة الجديدة). إنه طريق سرّي. لن ينفع أن يراك أحد يا سيّدي. المفترَض أنك ميت».

واصلٌ دافوس الصُّعود مفكّرًا: ثريد للرجل الميت.
خرجا من جِدارٍ آخَر، لكن وجهه المواجه للنّاحية الأخرى من الجصّ
وشرائح الخشب الرّقيقة، والغرفة وراءه وثيرة دافئة فاخرة الأثاث، يفترش
أرضها بساط مايري وثمة شمعة مشتعلة على منضدة. ترامت إلى مسامع
دافوس أنغام مزامير وكمنجات من مكانٍ ليس ببعيد، ورأى على الحائط فروة
خروفٍ مرسومة عليها خريطة الشّمال بألوانٍ باهتة، وتحت الخريطة يجلس
وايمان ماندردلي سيّد (الميناء الأبيض) ضخم الجثة.

قال اللورد ماندردلي: «تفضّل بالجلوس». يرتدي الرّجل ثياباً أنيقة؛ سترته
من المخمل الأخضر المزرق الهادئ، وموشاةً بخيطٍ ذهبي عند الحاشية
والكُميين والياقة، ومعطفه من فرو القاقوم المثبّت عند الكتف برُمحٍ ثلاثي
الشّعب من الذهب. «أأنت جائع؟».

- «لا يا سيّدي. سجّانوك أطعموني جيّدًا».

- «هناك نبيذ إذا كنت ظمآن».

- «سأتعامل معك يا سيّدي، فقد أمرني مليكي بهذا، لكنني لست مضطرّاً

إلى الشُّرب معك».

تنهّد اللورد وايمان، وقال: «أعلمُ أنني عاملتك معاملةً مخزيةً. كانت
لي أسبابي، ولكن... أرجوك، اجلس واشرب، أتوسّل إليك. اشرب نخب
عودة ولدي آمنًا، وإيليس ابني الأكبر ووريثي. لقد عادَ إلى بيته. ما تسمعه
مأدبة استقباله. في (بلاط عريس البحر) يأكلون فطائر الشُّلق ولحم الغزلان
بالكستناء المشويّة، وترفُص وإينا فريد مع ابن فراي الذي ستتروّجه، ويرفع
أبناء فراي الآخرون كؤوس النّيذ ويشربون نخب صداقتنا».

تحت الموسيقى سمع دافوس همهمة أصواتٍ عديدة وجلبة الأكواب
والأطباق، لكنه لم يُعلّق.

تابع اللورد وايمان: «كنتُ جالسًا لتويّ إلى المائدة العالية. أسرفتُ في
الأكل كالمعتاد، و(الميناء الأبيض) كلّها تعرف أن أمعائي معتلّة. نأمل أن
أصدقائنا أبناء فراي لن يرتابوا في زيارةٍ طويلة مني إلى المرحاض»، وقلّب

كوبه مواصلاً: «حسن، اشرب أنت ولن أشرب أنا. اجلس. الوقت قصير وثمة أشياء كثيرة يجب أن تُقال. روبت، نبيذ لليد إذا سمحت. لورد دافوس، لست تعلم هذا، لكنك ميت».

ملاً روبت جلوفر كوباً بالنبيذ وناولته لدافوس، فأخذته وتشممه وشرب، قبل أن يسأل: «وكيف ميت إذا سمحت لي بالسؤال؟».

- «بالفأس. علقنا رأسك ويديك فوق (بوابة الفقمات) بحيث تنظر عيناك عبر المرفأ. حالياً تعفنت إلى حد كبير، ولو أننا غمسنا رأسك في القار قبل أن نضعه على خازوق. يقولون إن غربان الجيف وطور البحر تشاجرت على عينيك».

اعتدل دافوس بتوتر. شعور غريب أن يكون ميتاً. «بعد إذن سيدي، من مات بدلاً مني؟».

- «وهل يهم هذا؟ إن لك وجهًا تقليدياً يا لورد دافوس. أمل ألا يُسيء إليك قلبي هذا. كان للرجل لون بشرتك وشكل أنفك وأذنان متماثلتان ولحية طويلة شُدبت لتُشبه لحيتك. لك أن تثق بأننا طليناه جيداً بالقار، والبصلة المحشورة بين أسنانه ساعدت على تحريف ملامحه، كما أن السير بارتيموس حرص على تقصير أصابع اليد اليسرى لتكون كيدك تماماً. كان الرجل مجرمًا إذا كان في هذا عزاء لك، وقد يُحقق موته خيرًا أكثر من أي شيء فعله في حياته. إنني لا أكنُّ لك ضغائن على الإطلاق يا سيدي، والعداوة التي أظهرتها لك في (بلاط عريس البحر) كانت مسرحية أدّيناها لإرضاء أصدقائنا أبناء فراي».

قال دافوس: «يجدرُّ بحضرة اللورد أن يحترف التمثيل. أنت وأهلك كنتم مقنعين لأقصى درجة. بدا أن زوجة ابنك ترغب في موتي بشدة، والفتاة الصغيرة...».

مبتسمًا قال اللورد وايمان: «وايلا. هل رأيت شجاعتها؟ حتى عندما هددتُ بقطع لسانها ذكرتني بدين (الميناء الأبيض) لآل ستارك أولاد (وينترفل)، وهو الدين الذي لا يُمكن أن يُسدّد أبدًا»، وبعد لحظة تابع: «وايلا تكلمت من القلب، مثلها مثل الليدي ليونا. سامحها إن استطعت يا سيدي. إنها امرأة حمقاء خائفة، ووايليس حياتها كلها. ليس من شأن كل رجل أن يكون الأمير

إيمون الفارس التّين أو سيميون ذا العينين النّجمتين، ولا يُمكن لكلّ امرأة أن تكون بسّجاعة عزيزتي وإيلا أو أختها وإينا فريد... التي كانت تعلم بالتمثيلية ولعبت دورها بمتهى الإفدام. حتى الصّادقين عليهم أن يكذبوا عند التّعامل مع الكاذبين. لم أجرؤ على تحدّي (كينجز لاندنج) ما دام ابني الحي الأخير أسيرًا. اللورد تايوين لانستر كتب لي بنفسه أن وإيليس سجينه، وقال إنني إذا أردت إطلاق سراحه دون أذى فعليّ أن أثوب عن خيانتني وأسلمّ مدينتي وأعلن ولائي للملك الصّبي على العرش الحديدي... وأرّكع لرووس بولتون الذي عينه حاكمًا للشمال. إذا رفضتُ فسيموت وإيليس ميتة الخونة وتُقتحم (الميناء الأبيض) وتُنهب وينال قومي مصير آل راين أولاد (كاستامير). إنني بدين، ويعتقد كثيرون أن هذا يجعلني ضعيفًا أحمق، وربما كان تايوين لانستر من هؤلاء. أرسلتُ له عُداً فأخبره بأنني سأركع وأفتحُ بواباتي بعد عودة ابني وليس قبلها، وكان الأمر معلقًا عند هذا الحدّ حين مات تايوين. بعدها جاء أبناء فراي برفات وندل... لعقد صلح وإبرامه باتّفاق زواج كما ادّعوا، لكنني لم أنو أن أعطيهم ما يُريدون إلى أن يرجع وإيليس سليماً أمناً، ولم ينووا هم إعطائي وإيليس حتى أبرهن على إخلاصي. وصولك مدّني بالوسيلة لفعل ذلك. هذا هو سبب الفظاظة التي عاملتك بها في (بلاط عريس البحر)، وسبب الرّأس واليدين التي تتعفن الآن فوق (بوابة الفقعات)».

قال دافوس: «خاطرت مخاطرةً عظيمةً يا سيّدي. إذا استشفّ أبناء فراي أنك تخدعهم...».

- «لم أخاطر على الإطلاق. إذا أراد أيُّ من أبناء فراي أن يتسلّق بوابتي ليُلقي نظرةً من كتب على الرّجل ذي البصلة في فمه للمتّ سجانني على الخطأ وجلبتك لإرضائهم».

شعر دافوس برعدة في عموده الفقري، وقال: «مفهوم».

- «أمل هذا. قلت إن لك أبناءً عن نفسك».

فكر دافوس: ثلاثة، لكنني أنجبتُ سبعةً.

واصل ماندرلي: «عليّ أن أعود قريباً إلى المأدبة لأشرب نخب أصدقائي أبناء فراي. إنهم يُراقبونني أيها الفارس، ليل نهار أعينهم عليّ وأنوفهم تشمّم بحثاً عن أيّ نفحةٍ من الخيانة. أنت رأيتهم بنفسك، السير چارد المتعجرف

وريجار ابن أخيه، ذلك الدودة المغرورة التي تحمل اسم تنين، ووراءهما يقف سايموند ملوحًا بصُبر النُفود. لقد اشترى عددًا كبيرًا من خدمني واثنين من فُرساني، ووجدت إحدى وصيفات زوجته طريقها إلى فراش مهرجي. إذا كان ستانيس يتساءل لِمَ تقول رسائلي أقل القليل فالسبب أنني لا أثق ببايستي نفسيه. ثيومور عقل بلا قلب. أنت سمعته يتكلم في قاعتي. المفترض أن يُنحّي المايسترات ولاءاتهم القديمة جانبًا حين يضعون سلاسلهم، لكنني لا أستطيع أن أنسى أن ثيومور من مواليد آل لانستر أولاد (لانسهورت)، ويمت بصلة قرابة بعيدة لآل لانستر أولاد (كاسترلي روك). الأعداء والأصدقاء الزائفون يُحيطون بي من كل جهة يا لورد دافوس، يغزون مدينتي كالصراصير وأشعرُ بهم يزحفون عليّ ليلاً»، وكوّر الرّجل البدين قبضته وارتجفت ذقونه إذ أكمل: «ابني وندل ذهب إلى (التوأمتين) ضيفًا، أكل عيش اللورد والدر وملحه وعلّق سيفه على الحائط ليحتفل مع أصدقائه... وقتلوه غيلةً، أقول قتلوه غيلةً وعسى أن يخنتك آل فراي بخُرافاتهم. إنني أشربُ مع چارد وأمزحُ مع سايموند وأعدُّ ريجار بيد حفيدتي الحبيبة... لكن لا تحسب أبدًا أن هذا يعني أنني نسيْتُ. الشّمال يذكُر أيها اللورد دافوس، الشّمال يذكُر وهذه المهزلة على وشك الانتهاء. لقد عادَ ابني إلى بيته».

شيء ما في أسلوب اللورد وايمان جمّد النُخاع في عظم دافوس الذي قال: «إذا كنت تنشد العدالة يا سيّدي فتطلّع إلى الملك ستانيس، فلا أحد أعدل منه».

تدخل روبت جلوفر ليُضيف: «إخلاصك يُشرّفك يا سيّدي، لكن ستانيس باراثيون يبقى ملكك أنت لا ملكنا».

ذكّرهما دافوس قائلاً: «ملككم مات، اغتيل في الزّفاف الأحمر مع ابن اللورد وايمان».

قال ماندريلي: «الذئب الصّغير مات، لكن ذلك الفتى الشجاع لم يكن ابن اللورد إدارد الوحيد. روبت، اجلب الصّبي».

قال جلوفر: «حالا يا سيّدي»، وخرج من الباب.

الصّبي؟ أيمن أن أحد أخوي روب ستارك نجا من دمار (ويتنرفل)؟ هل يُخبئ ماندريلي وريثًا لعائلة ستارك في قلعته؟ أهو صبيّ عثروا عليه أم

لَفَقُوا هُوَيْتَهُ؟ سيثور الشَّمال من أجل هذا أو ذاك على ما يظنُّ... لكن ستانيس باراثيون لن يتحالف مع مدَّع أبداً.

الصَّبي الذي تبعَ روبيت جُلوفر إلى الدَّاخِل ليس من آل ستارك ولا يُمكن أن يحسبه أحد منهم على الإطلاق. إنه أكبر سنًّا من أخوي الذُّب الصَّغير القتيلين، في الرَّابعة أو الخامسة عشرة من العُمَر كما يُوحى منظره، وعيناه أكبر سنًّا. تحت لحيَّة من الشَّعر البني الدَّاكن المتشابك يكاد وجهه يبدو بهيميًّا بفمه العريض وأنفه الحاد وذقنه المدبَّب.

سأله دافوس: «مَنْ أنت؟».

نظرَ الغريب إلى روبيت جُلوفر الذي قال: «الصَّبي أحرص، لكننا نُعلمه الحروف. إنه سريع التَّعلم»، وسحبَ من حزامه خنجرًا ناوله للصَّبي قائلاً: «اكتب اسمك للورد سيورث».

ليس في العُرْفَة ورق، وهكذا نقش الصَّبي اسمه على عارضةٍ خشبيَّة في الحائط. و... ك... س. ضغطَ بشدَّةٍ على الحرف الأخير، ولمَّا فرغ ألقى الخنجر في الهواء والتقطه، ثم وقفَ يتطلَّع بإعجابٍ إلى عمل يده. قال جُلوفر: «وكس حديدي الميلاذ، كان مرافق ثيون جرايچوي. وكس كان في (وينترفل)»، وجلسَ متسائلاً: «كم يعرف اللورد ستانيس عمًّا وقع في (وينترفل)؟».

استعادَ دافوس الحكايات التي سمعوها، وقال: «أَنْ (وينترفل) احتلَّها ثيون جرايچوي الذي كان ربيب اللورد ستارك، وأمَرَ بقتل ابني ستارك الصَّغيرين وعلَّقَ رأسيهما فوق أسوار القلعة، ولمَّا جاءَ الشَّماليون يطردونه قتلَ أهل القلعة حتى آخر طفل قبل أن يُقتل هو نفسه بيد نغل اللورد بولتون».

- «لم يُقتل، بل أُسِرَ وأُخذَ إلى (معقل الخوف). النُّغل يسلُخه».

أوماً اللورد وايمان برأسه قائلاً: «الحكاية التي تحكيها سمعناها جميعاً، لكنها ملأى بالأكاذيب امتلاء الغابة بالأشجار. نغل بولتون هو من قتلَ أهل (وينترفل)... رامزي سنو كما كان اسمه آنذاك قبل أن يجعله الملك الصَّبي بولتون. سنو لم يقتلهم جميعاً، بل أبقى على النِّساء وقيدهن معاً وساقهن إلى (معقل الخوف) من أجل تسليته».

- «تسليته؟».

قال وايمان ماندرلي: «إنه صياد عظيم، والنساء فرائسه المفضلة. يُجرِّدهن من ثيابهن ويطلقهن في الغابة ويُعطينهن نصف يوم قبل أن يخرج يطاردهن بكلاب الصيد والأبواق. بين الحين والآخر تتمكن فتاة ما من الهرب وتعيش لتحكي الحكاية، لكن أكثرهن لسن محظوظات. حين يقبض عليهن رامزي يغتصبهن ويسلخنهن ويُطعم جثثهن لكلايه ويعود بجلودهن إلى (مقل الخوف) كتذكار. إذا سلينه بما فيه الكفاية فإنه يذبحهن قبل سلخنهن، لكن إذا لم يفعلن فإنه يفعل العكس».

امتقَ وجه دافوس، وقال: «يا للآلهة. كيف يستطيع أحد أن...». قاطعه روت جلوفر: «الشَّرُّ في دمائه. إنه نغل وليد الاغتصاب، سنو، الثلج فيه مهما قال الملك الصَّبي».

قال اللورد وايمان: «وهل من ثلج بهذا السواد؟ رامزي أخذ أراضى اللورد هورنوود عندما تزوج أرملته بالإكرأه، ثم حبسها في برج ونسي أمرها. يُقال إنها التهمت أصابعها قرب النهاية... وفكرة آل لانستر عن عدالة الملك أن يُكافئوا قاتلها بابتنة ند ستارك الصَّغيرة».

قال جلوفر: «لطالما كان آل بولتون قُساءً ماكرين، لكن رامزي هذا يبدو وحشًا في هيئة إنسان».

مال سيّد (الميناء الأبيض) إلى الأمام قائلًا: «وآل فراي ليسوا أفضل. إنهم يتكلمون عن الأوراج ومبدلي الجلد ويؤكدون أن روب ستارك هو من قتل ولدي وندل. يا للخطرسة! ليسوا يتوقعون أن يُصدّق الشمال أكاذيبهم حقًا، لكن رأيهم أن علينا التظاهر بالتصديق أو الموت. رروس بولتون يكذب بشأن دوره في الزفاف الأحمر، ونغله يكذب بشأن سقوط (وينترفل)، ومع ذلك ما دام وايليس في أيديهم لم أكن أملك خيارًا إلا أن أكل خراءهم وأمدح الطعم».

سأله دافوس: «والآن يا سيدي؟».

كان يأمل أن يسمع اللورد وايمان يقول: والآن سأعلنُ تأييدي ستانيس، لكن بدلًا من ذلك تلالأت ابتسامة غريبة على شفتي الرّجل البدن، وقال: «والآن عندي زفاف أحضره. إنني أسمن من أن أركب حصانًا كما يرى كل من له عينان. في صباي أحببتُ الرُّكوب، وفي شبابي أجدته لدرجة استحقاق

القليل من الاستحسان في مضامير النَّزال، لكن تلك الأيام وُلَّت، وأصبح جسدي سجنًا ألعن من (عرين الذئاب). وعلى الرغم من هذا لا مناص من ذهابي إلى (وينترفل). رروس بولتون يُريدني على رُكبتِي، ومن تحت كياسته المخملية يُظهر قبضةً من حديد. سأذهبُ بالزُّورق والنقالة وفي صُحبتِي مئة فارس وأصدقائي الأعزَّاء من (التوأمتين). أبناء فراي أتوا بحرًا وليست معهم خيول، ولذا سأقدمُ لكلِّ منهم حصانًا على سبيل هدية الضيافة. أما زال المضيفون يُعطون ضيوفهم هدايا في الجنوب؟».

- «بعضهم يفعل يا سيدي يوم يُغادر ضيوفهم».

قال ماندرلي: «لعلك تفهم إذن»، ونهض بحركة ثقيلة مردفًا: «إنني أبنِي السُّفن الحربية منذ أكثر من عام. بعضها رأيته، لكن أكثرها محببًا في أعالي (السكِّين الأبيض). على الرغم من الخسائر التي مُنيتُ بها ما زالت تحت إمرتي خيول ثقيلة أكثر من أيِّ لورد آخر شمال (العنق)، وأسواري قويَّة وخزائني ملأى بالفصَّة. ستأخذ (القلعة العتيقة) و(قلعة الأرملة) زمام المبادرة مني، وحملة رايتي يتضمَّنون دسنةً من صغار اللوردات ومئةً من الفُرسان مُلاك الأرض. بإمكانني أن أمنح ستانيس ولاء جميع الأراضي شرق (السكِّين الأبيض)، من (قلعة الأرملة) إلى (بوابة الكباش) إلى (تلال رأس الخروف) و(منابع (الفرع المكسور)). كلُّ هذا أتعهَّدُ به إذا استطعت دفع الثمن الذي أطلبه».

- «يُمكنني أن أنقل شروطك إلى الملك، ولكن...».

قاطعه اللورد وايمان: «قلتُ إذا استطعت دفع الثمن الذي أطلبه، أنت لا ستانيس. لستُ محتاجًا إلى ملكٍ وإنما إلى مهرِّب».

التقط منه رويت جلوثر طرف الحديث قائلًا: «قد لا نعلم كلَّ ما جرى في (وينترفل) أبدًا حين حاول السير رودريك كاسل استعادة القلعة من حديدي ثيون جرايچوي. نغل بولتون يدَّعي أن جرايچوي اغتال السير رودريك في أثناء مفاوضة، ووكس يقول لا. إلى أن يتعلَّم مزيدًا من الحروف لن نعرف أكثر من نصف الحقائق... لكنه أأنا يعرف «نعم» و«لا»، ومن شأن هاتين الكلمتين أن تقوداك إلى الكثير ما إن تجد الأسئلة الصَّحيحة».

قال اللورد وايمان: «النَّغل هو من قتل السير رودريك ورجال (وينترفل)،

وقتلَ حديدِيَّ جرايچوي أيضًا. وكس رأى رجالًا يُقتلون فيما يُحاولون الاستسلام، ولمَّا سأله كيف هربَ أخذَ قطعةً من الطِّبَّاشير ورسمَ شجرةً لها وجه».

فكَّرَ دافوس لحظةً، ثمَّ سألَ: «الآلهة أنقذته؟».

- «بشكل ما. لقد تسلَّقَ شجرة القلوب وأخفى نفسه بين الأوراق. رجال بولتون فتشوا أيكة الآلهة مرَّتين وقتلوا الرِّجال الذين وجدوهم هناك، لكن أحدًا منهم لم يخطر له أن يبحث فوق الأشجار. أهذا ما حدث يا وكس؟».

ألقي الصَّبي خنجرِ جلوفر في الهواء والتقطه، ثم أومأ برأسه إيجابًا. قال جلوفر: «وظلَّ فوق الشَّجرة وقتًا طويلًا، نامَ بين الفروع لا يجرؤ على النزول، وأخيرًا سمعَ أصواتًا من أسفل».

أضافَ وإيمان ماندريلي: «أصوات الموتى».

رفعَ وكس خمسة أصابع ونقرَ على كلِّ منها بالخنجر، ثم طوى أربعةً ونقرَ على الإصبع الأخير ثانيَّةً.

قال دافوس: «ستَّة، كانوا ستَّة».

- «اثنان منهما ولدا ندم ستارك القتيلان».

- «كيف تسنَّى لأخرس أن يُخبركم بهذا؟».

- «بالطِّباشير. رسمَ صبيِّين... وذئبين».

قال جلوفر: «الصَّبي من (جُزر الحديد)، فكَّرَ أن الأفضل ألاَّ يريهم نفسه، وظلَّ في مكانه بُنِصت. لم يمكُث الستَّة طويلًا بين أطلال (وينترفل). أربعة منهم ذهبوا في اتِّجاهٍ واثنان في اتِّجاهٍ آخر، فتسلَّل وكس وراء الاثنين، امرأة وصبي. مؤكَّد أنه بقيَ في اتِّجاه الرِّيح كي لا يشمَّ الذئب رائحته».

قال اللورد وإيمان: «إنه يعرف أين ذهب».

فهمَ دافوس، وقال: «تريد الصَّبي».

- «رووس بولتون لديه ابنة اللورد إدارد، وإلحباط مخطَّطه لا بُدَّ من أن يكون لدى (الميناء الأبيض) ابن ند... والذئب الرَّهيب. سيُثبت الذئب أن الصَّبي هو مَنْ يقول حقًا إذا حاولتَ (معقل الخوف) إنكاره. هذا تُمني أيها اللورد دافوس. هربَ لي وليَّ أمري وسأقبلُ ستانيس باراثيون ملكًا لي».

سأقت الغريزة القديمة دافوس سيوورث إلى رفع يده إلى عنقه. كان

عظم أصابعه حظّه، وبشكل ما يشعُر بأنه سيحتاج إلى الحظّ ليُنقذ ما يطلبه منه وايمان ماندرلي. لكن العظام ضاعت، وهكذا قال: «في خدمتك رجال أفضل مني، فُرسان ولوردات ومايسترات. لماذا تحتاج إلى مهرّب؟ إن عندك سُفنًا».

- «عندي السُفن، لكن رجال أطقمي ملاحون نهرثيون أو صيَّادون لم يتجاوزوا (الخليج الطويل) قَط. لأجل هذه المهمّة أحتاج إلى رجل سبق له أن خاض مياهاً أخطر ويعرف كيف ينسلّ مبتعداً عن المخاطر من دون أن يراه أو يتعرّض له أحد».

- «وأين الصّبي؟». بوسيلةٍ ما يعلم دافوس أن الجواب لن يروقه. «أين تُريدني أن أذهب يا سيّدي؟».

قال روبت جلوثر: «وكس، أره».

ألقي الأخرس الخنجر في الهواء من جديدٍ والتقطه، ثم صوّبه إلى خريطة فروة الخروف التي تُزيّن حائط اللورد وايمان وألقاه، لينغرس فيها مهتزّاً ويبتسم الصّبي ابتساماً واسعةً.

لأقل من لحظةٍ خطر لدافوس أن يطلب من وايمان ماندرلي أن يُعيده إلى (عرين الذئب)، إلى السير بارتموس بحكاياته وجارث بامرأته المميتين، ففي (عرين الذئب) يأكل السُجناء الثريد في الصّباح، لكن في العالم أماكن أخرى معروفة بأهلها الذين يُفطرون على اللحم البشري.



دنيرس

كُلُّ صباحٍ تَنْظُرُ الملكة من سُرفتها الغربية وتعدُّ الأشرعة في (خليج النخاسين).

اليوم أَحْصَتْ خمسةً وعشرين، وإن كان بعضها بعيداً ويتحرَّك، فلم يُمكنها التَّأكُّد من العدد. أحياناً يفوتها واحد، وأحياناً تعدُّ واحداً مرَّتين. وما الفرق؟ كَلُّ ما يلزم الخنَّاق أصابع عشرة. كسدت التَّجَّارة تماماً، وصيَّادوها لا يَجسُّرون على الخروج إلى الخليج. ما زال أجرهم يُلقى صنابير قليلة في النَّهر على الرغم من أن هذه في حدِّ ذاتها مخاطرة، في حين تبقى قوارب أكثرهم مربوطة إلى المراسي أسفل أسوار (ميرين) القرميد عديدة الألوان. في الخليج سُفن ميرينزيَّة أيضاً، سُفن حربيَّة وقوادم تجاريَّة أخذها ربابنتها إلى البحر حين حاصر جيش داني المدينة، والآن عادت لتُعزِّز أساطيل (كَارث) و(تولوس) و(جيس الجديدة).

وكانت نصيحة أميرها أردأ من رديئة إذ قال لها: «أريهم تنانينك، أذبيقي اليونكيين النَّار وستعود حركة التَّجَّارة من جديد».

قالت داني: «هذه السُّفن تخنُّقنا خنقاً وكلُّ ما بوسع أميرالي أن يتكلَّم عن التَّنانين؟ إنك أميرالي، أليس كذلك؟».

- «أميرال بلا سُفن».

- «ابن سُفناً».

- «السُّفن الحربيَّة لا تُبنى بالقرميد. النخاسون أحرقوا كلَّ خشبة على

مدى عشرين فرسخاً».

- «اركب اثنين وعشرين فرسخًا إذن. سأعطيك عرباتٍ وعاملين وبغالًا، أيًا كان ما تتطلبُبه».

- «أنا بحارٌ لا سفَّان. لقد أرسلتُ لآخذ جلالتكِ إلى (پنتوس)، وبدلًا من ذلك جئتُ بنا هنا وحطمتُ سفيتتي (سادوليون) من أجل بعض المسامير وقطع الخشب. لن أرى لها مثيلًا أبدًا، وربما لا أرى وطني ثانيةً أبدًا، ولا زوجتي العجوز. ليس أنا من رفضُ السفن التي عرضها داكسوس هذا، ولا أستطيعُ أن أقاتل الكارثين بقوارب الصيد».

رُوِّعت مرارته داني لدرجة أنها وجدَّت نفسها تتساءل إن كان الپنتوشي الأشيب أحد الخائنين الثلاثة. لا، إنه مجردُ رجلٍ مُسن سقيم القلب بعيد عن وطنه. «لا بُدَّ أن هناك شيئًا نفعله».

- «أجل، وقد أخبرتكِ به. هذه السفن مصنوعة من الجبال والقار والقب، من الصنوبر الكوهوري والسَّاج السوثوريوسي والسنديان القديم من (نورفوس الكبرى)، من أخشاب الطقسوس والدردار والتنوب. خشب يا جلالة الملكة. الخشب يحترق. التنانين...».

- «لن أسمع المزيد عن تنانيني. اترُكني. اذهب وادعُ آهتك الپنتوشية أن تُرسل عاصفة تُغرق أعداءنا».

- «لا بحار يسأل الآلهة العواصف يا صاحبة الجلالة».

- «تعبتُ من سماع ما لن تفعله. اذهب».

مكث السير بارستان الذي قال لها مذكرًا: «مؤننا وفيرة في الوقت الحالي، وجلالتكِ زرعَت الحبوب والعب والقمح، ورجالكِ الدوثراكي أجلوا النخاسين من التلال و ضربوا قيود عبيدهم. إنهم يزرعون أيضًا، وسيأتون بمحاصيلهم إلى الأسواق في (ميرين)، كما أنك ستحظين بصداقة (لازار)». داريو ظفر لي بها على الرغم من قيمتها الزهيدة. «شعب الحملان. ألا ليت للحملان أسنان».

- «لا شك أن ذلك سيجعل الذئب أكثر حذرًا».

أضحكها قوله، وسألته: «كيف حال أيتامنا أيها الفارس؟».

ابتسم الفارس العجوز مجيبًا: «بخير يا صاحبة الجلالة. لطف منك أن

تسألني». هؤلاء الصبية مفخرته. «أربعة أو خمسة منهم يملكون مقومات الفرسان، وربما دستة كاملة».

- «واحد فقط يكفي إن كان مخلصًا مثلك». قد يأتي يوم قريب تحتاج فيه إلى كل فارس. «هل سيتبارون من أجلي؟ سيروقني هذا». حكى لها فسيرس عن دورات المباريات التي شهدها في (الممالك السبع)، لكن داني لم تر نزالًا على الطراز الوستروسي قط.

- «ليسوا مستعدين بعد يا جلالة الملكة. حين يستعدون سيسرهم أن يستعرضوا كفاءتهم».

- «أمل أن يأتي ذلك اليوم سريعًا». كانت لتطبع قبلة على خد فارسها النبيل لولا أن ميسانداي ظهرت في المدخل المقنطر، فقالت: «ميسانداي؟».

- «جلالة الملكة، سكاهاز ينتظر أن تأذني له في اللقاء».

- «أرسليه».

رافق الرأس الحليق اثنان من وحوشه النحاسية، يضع أحدهما قناع صقر والثاني قناع ابن آوى، ولا يرى من تحت النحاس الأصفر إلا أعينهما. قال سكاهاز: «صاحبة الروتق، هيزدار شوهد يدخل هرم زاك مساء أمس، وغادر بعد حلول الظلام بفترة طويلة».

سألته داني: «كم هرمًا زار؟».

- «أحد عشر».

- «وكم مضى منذ آخر جريمة قتل؟».

قال الرأس الحليق وعيناه تقدحان شرًا: «ستة وعشرون يومًا». كان تتبع الوحوش النحاس خطيبتها في تحركاته وتسجيلهم كل ما يُقدم عليه من بنات أفكار سكاهاز.

- «حتى الآن أوفى هيزدار بوعوده».

- «كيف؟! أبناء الهاربي وضعوا سكاكينهم، لكن لماذا؟ لأن النبيل هيزدار سألهم بلطف؟ إنه واحد منهم، أو كد لك، ولذا يُطيعونه، بل وقد يكون الهاربي نفسه».

- «إذا كان هناك هاربي». سكاهاز على يقين بأن لأبناء الهاربي سيدًا أعلى من ذوي الحسب والنسب في مكان ما في (ميرين)، لواء سرّيًا يقود جيشًا

من الظلال، لكن داني لا تُشاركه اعتقاده. لقد قبضَ الوحوش النحاس على عشراتٍ من أبناء الهاربي، ومن نجوا من عمليّة الاعتقال أدلوا بأسماء عند استجوابهم بالشّدّة... أسماء كثيرة جدًّا في رأيها. لكانت فكرة سارّة أن كلّ هذا الموت عمل عدوٍّ واحد يُمكن التّوصّل إليه وقتله، لكن داني تظنُّ أن الواقع مختلف. أعدائي جحافل. «هيزدار زو لوراك رجل مُقنع له أصدقاء كثر، كما أنه ثري. ربما اشترى لنا هذا السّلام بذهبه، أو أقنع النبلاء الآخرين بأن زواجنا في صالحهم».

- «إن لم يكن الهاربي فإنه يعرفه. أستطيعُ اكتشاف الحقيقة بسهولة. اسمحي لي باستجواب هيزدار وسأجلبُ لك اعترافًا».

- «كلّا. لسْتُ أثقُ بهذه الاعترافات. لقد جلبت لي كثيرًا جدًّا منها، وجميعها عديم القيمة».

- «صاحبة الرّونق...».

- «قلتُ كلّا».

زاد عبوس الرّأس الحليق وجهه القبيح قبحًا، وقال: «خطأ. السيّد العظيم هيزدار يستحقّ صاحبة العبادة. هل تُريدين أفعوانًا في فراشكِ؟».

أريدُ داريو في فراشي، لكنني صرفته من أجلك أنت وقومك. «لك أن تستمرّ في مراقبة هيزدار زو لوراك، لكن أدّى لن يمسه، مفهوم؟».

قال سكاهاز: «لسْتُ أصمّ يا صاحبة السّمو. سأطيعُ الأمر»، وأخرج رَقًّا مطويًّا من كُمّه مستطردًا: «على صاحبة العبادة أن تُلقِي نظرةً على هذه. إنها قائمة بالسّفن الميرينيزيّة المشاركة في الحصار وأسماء رابنتها. جميعهم من الأسياد العظام».

قرأت داني الورقة التي تضمُّ أسماء جميع العائلات الحاكمة في (ميرين): هازكار، ميريك، كوازار، زاك، رازدار، پال، وحتى رزناك ولوراك. «ماذا أفعلُ بقائمة أسماء؟».

- «لكلّ رجل على هذه القائمة أقرباء في المدينة؛ أبناء وإخوة، وزوجات وبنات، وأمّهات وآباء. دعي الوحوش النحاس يقبضون عليهم. بحياتهم ستستردّين تلك السّفن».

قالت داني: «إذا أرسلتُ الوحوش النحاس إلى الأهرامات فسيعني هذا

حربًا مفتوحةً داخل المدينة. يجب أن أثق بهيزدار، يجب أن أمل أن يقوم
السَّلام»، ووضعت الورقة فوق شمعةٍ وشاهدت الأسماء تحترق فيما حدَّق
إليها سكاهاز بتجهم.

بعدها قال لها السير باريستان إن أخواها ريجار كان ليفخر بها، وتذكَّرت
داني قول السير چورا في (أستاپور): ريجار قاتلٌ ببسالته، ريجار قاتلٌ ببئبل،
ريجار قاتلٌ بشرف... ومات ريجار.

حين نزلت إلى القاعة الرُّخام الأرجوانية وجدتها خاليةً تقريبًا، فسألت
رزنالك مو رزنالك: «لا ملتسون اليوم؟ لا أحد يصبو إلى العدالة أو ثمن
خروفٍ فضَّة؟».

- «لا أحد يا صاحبة العبادة. المدينة خائفة».

- «ليس هناك ما يستدعي الخوف».

على أن ثمة أشياء كثيرة تستدعي الخوف كما أدركت داني هذا المساء.
بينما وضعت أمامها رهيتها الصَّغيرتان ميكلاز وكزميزا عشاءً بسيطاً من
الخضراوات الخريفية وحساء الزنجبيل جاءتها إيري تقول إن جالازا جالار
عادت ومعها ثلاث من ذوات النعم الزرقاء من المعبد، وأضافت: «الدودة
الرَّمادي أتى أيضًا يا كاليبسي. إنهم يطلبون الإذن في لقاء عاجل».

- «خذيهم إلى قاعتي، واستدعي رزنالك وسكاهاز. هل ذكرت ذات النعمة
الخضراء السَّبب؟».

أجابت إيري: «(أستاپور)».

بادر الدودة الرَّمادي بحكاية القصة: «خرج من ضباب الصُّباح، راكب
يُحتضِر على متن حصانٍ شاحب. كانت فرسه تترنح إذ اقتربت من بوابة
المدينة، جانبها ورديان من الدَّم والرَّغوة⁽¹⁾، وعيناها تدوران في محجريهما
رُعبًا. صاح راكبها: إنها تحترق، إنها تحترق، ثم سقط من فوق سرجه.
استدعى الحرس هذا الواحد فأمر بأخذ الرَّاكب إلى ذوات النعم الزرقاء،
ولمَّا حمله خدمك إلى داخل المدينة صاح ثانية: إنها تحترق. تحت توكاره
كان هيكلًا عظيمًا، جلدًا محموماً على عظم».

(1) عندما تعرق الخيول نتيجةً للمجهود الشديد تُخرج من مسامها مادةً رغويةً يتسبب بروتين
معين في إفرازها. (المترجم).

التقطت منه إحدى ذوات النعم الزرقاء طرف الكلام قائلة: «أخذ المظهورون هذا الرجل إلى المعبد، حيث خلعنا ثيابه وحممناه بالماء الفاتر. كانت ثيابه ملوثةً ووجدت أخواتي نصف سهم في فخذه، ورغم أنه كسر القناة فقد ظل الرأس في داخله، وتعفن الجرح ليملاً جسده بالشم. مات خلال ساعة وهو لا يزال يصيح أنها تحترق».

رددت دنيرس: «إنها تحترق... من التي تحترق؟».

أجابتها أخرى من ذوات النعم الزرقاء: «(أستاپور) يا صاحبة الرونق. قالها مرة، قال: (أستاپور) تحترق».

- «ربما قال هذا بسبب الحمى».

قالت جالازا جالار: «صاحبة الرونق تتكلم بحكمة، لكن إزارا رأت شيئاً آخر».

طوت ذات النعمة الزرقاء المسماة إزارا يديها، وغمغمت: «مليكتي، لم يكن السهم السبب في الحمى. لقد قضى حاجته على نفسه، ليس مرة بل عدة مرات. بلغت البقع ركبتيه، وكان في برازه دم جاف».

- «الدودة الرمادي قال إن حصانه كان ينزف».

أمّن الخصي على تعليقها قائلاً: «هذا صحيح يا جلالة الملكة، كانت الفرس الشاحبة داميةً من مهمازيه».

قالت إزارا: «قد يكون هذا صحيحاً يا صاحبة الرونق، لكن الدم كان مختلطاً ببرازه ولوث ملابسه الداخلية».

أضافت جالازا جالار: «كان ينزف من أحشائه».

قالت إزارا: «لا نستطيع الجزم بهذا، ولكن قد يكون في مواجهة (ميرين) ما تخافه أكثر من حراب اليونكيين».

قالت ذات النعمة الخضراء: «علينا أن نُصلي. الآلهة أرسلت إلينا هذا الرجل. لقد جاءنا نذيراً، جاءنا آية».

سألها داني: «آيةً لماذا؟».

- «آيةً للثبور والدمار».

لم تُرد أن تُصدّق ذلك، فقالت: «كان رجلاً واحداً، رجلاً واحداً مريضاً بسهم في ساقه. ما أتى به هنا حصان لا إله». فرس شاحبة. نهضت داني

فجأةً قائلةً: «أشكركن على نصيحتكن وعلى كلِّ ما فعلتن من أجل الرَّجُل المسكين».

لثَمَّت ذات النُّعمة الخضراء أصابع داني قبل أن تنصرف، وقالت: «سُنْصُلِي من أجل (أستاپور)».

ومن أَجْلِي. أوه، صلي من أَجْلِي ياسيِّدتي. إذا سقطت (أستاپور) فلا شيء يمنع (يونكاي) عن التَّوجُّه شمالاً. التفتت داني إلى السير باريستان، وقالت: «أرسل رجالاً إلى التلال ليجدوا خيَّالة دمي، واستدع بن البني والأبناء الثَّانين أيضًا».

- «وغيران العاصفة يا جلالة الملكة؟» -

داريو. «نعم، نعم». منذ ثلاث ليالٍ فقط حلَّمت بداريو ميتاً على جانب الطَّرِيق، يَرْمُقُ السَّماءَ بلا بصر فيما تشاجرت الغُربان على جثته. في ليالٍ أخرى تتقلَّب في فراشها متخيَّلةً أنه خانها كما خان زميليه قائدي غُربان العاصفة من قبل. أأناني برأسيهما. ماذا لو أخذ جماعته إلى (يونكاي) لبييعها لقاء جرَّة من الذهب؟ لا يُمكنه أن يفعلها، أليس كذلك؟ «غُربان العاصفة أيضًا. أرسل خيَّالة وراءهم على الفور».

عادَ الأبناء الثَّانون أولاً، بعد ثمانية أيام من إرسال الملكة في استدعائهم، وحين أخبرها السير باريستان بأن قائدها يرغب في لقاءها حسبت لحظةً أنه يعني داريو، واختلج قلبها في صدرها، لكن القائد المقصود كان بن بلوم البني.

لبن البني وجه متغصن لوجه الأجرء وبشرة بلون خشب السَّاج القديم وشعر أبيض وتجاعيد عند أركان عينيه. فرحت داني للغاية لرؤية وجهه البني المتين لدرجة أنها عانقته، فالتمعت عيناه استمتاعاً إذ قال: «سمعتُ كلاماً عن اتِّخاذ جلالتيك زوجاً، لكن أحداً لم يُخبرني بأنه أنا»، وضحكاً معاً فيما همهم رزناك استهجاناً، لكن الضحك توقَّف عندما قال بن: «قبضنا على ثلاثة أستاپوريين. الأفضل أن تسمع صاحبة العبادة ما لديهم».

- «أحضِرهم» -

استقبلتهم ديرس في أبهة قاعتها والشموع الطويلة مشتعلة بين الأعمدة الرُّخام، وعندما رأتهم يتصوِّرون جوعاً أرسلت تطلب لهم طعاماً في

الحال. هؤلاء الثلاثة هم الباقون من دستة من الأستاپوريين خرجوا معاً من المدينة الحمراء، بنّاء ونسّاجة وإسكاف. سألتهم الملكة: «ماذا جرى لبقية مجموعتكم؟».

أجابها الإسكاف: «قتلوا. مرتزقة (يونكاي) يجوبون التلال شمال (أستاپور) ويتصيّدون الهاريين من النيران».

- «هل سقطت المدينة إذن؟ كانت أسوارها سميكة».

قال البنّاء ذو الظّهر المحني والعينين الدّامعتين: «صحيح، لكنها كانت قديمةً تفتت أيضاً».

رفعت النّسّاجة رأسها قائلة: «كلّ يوم قال بعضنا لبعض إن ملكة التّنانين عائدة». للمرأة شفتان ريفعتان وعينان فاترتان ميتينان في وجهٍ ضيقٍ ممصوص. «قيل إن كليون أرسل يطلبك وإنك ستأتين».

فكرت داني: أرسل يطلبني. هذا الجزء صحيح على الأقل.

واصل الإسكاف: «خارج أسوارنا أتى اليونكيون على محاصيلنا وذبحوا قُطعاننا، وداخل المدينة تصوّرنا جوعاً. أكلنا القُطط والجردان والجلد، وكانت جلدة الحصان بمثابة وليمة. الملك سفّاح والملكة عاهرة تبادلّا الاتّهامات بالتهام لحم القتلى، في حين اجتمع الرّجال والنّساء سرّاً للسّحب بالقرعة وأكل لحم من يسحب الحجر الأسود، ونهب هرم نوكلوز وأحرقه من زعموا أن كرازنس مو نوكلوز هو الملام على كل مصائبنا».

أضافت النّسّاجة: «ولام آخرون دنيرس، لكن أكثرنا ظلوا يُحبونك، وقال بعضنا لبعض: إنها في الطّريق، إنها قادمة على رأس جيش جرّار ومعها طعام للجميع».

أسطيع إطعام قومي بالكاد. لو زحفتُ على (أستاپور) لفقدتُ (ميرين). حكى لهم الإسكاف كيف نُبش قبر الملك الجزّار ودُرّعت جثته بالبرونز بعد أن رآته ذات النّعمة الخضراء الأستاپورية في رؤيا يُخلصهم من اليونكيين، وهكذا رُبطت جثة كليون العظيم المدرّعة ننتة الرّائحة على ظّهر حصانٍ أعجف لتقود بقايا مُطهّريه الجُدد في غارة، لكنهم وجدوا أنفسهم بين أسنان أحد فيالق (جيس الجديدة) الحديدية وقتلوا حتى آخر رجل.

- «بعد ذلك علقت ذات النّعمة الخضراء على خازوق في (ساحة العقاب)

وُتِرَكَتْ حَتَّى مَاتَتْ، وَفِي هَرَمٍ أَوْلَهُورِ أَقَامَ النَّاجُونَ مَأْدَبَةً عَظِيمَةً دَامَتْ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَبَلَعُوا آخِرَ طَعَامِهِم بِالنَّبِيدِ الْمَسْمُومِ كِي لَا يَسْتَيْقِظُ أَحَدُهُمْ ثَانِيَةً عِنْدَ طُلُوعِ النَّهَارِ. بَعْدَهَا بِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ بَدَأَ الْمَرَضُ، إِسْهَالٌ دُمُويٌّ قَتَلَ ثَلَاثَةً مِنْ كُلِّ أَرْبَعَةٍ، إِلَى أَنْ جُنَّ جُنُونٌ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُحْتَضِرِينَ وَقَتَلُوا الْحُرَّاسَ عَلَى الْبُؤَابَةِ».

تَدَخَّلَ الْبِنَاءُ الْعَجُوزَ قَائِلًا: «لَا، مِنْ فَعَلٍ هَذَا أَصَحَّاءُ أَرَادُوا الْفِرَارَ مِنَ الْمَرَضِ».

رَدَّ الْإِسْكَافُ: «وَهَلْ يَهْمُ هَذَا؟ الْحُرَّاسُ مُرَّقُوا إِرْبًا إِرْبًا وَفُتِحَتْ الْبُؤَابَةُ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا. تَدَفَّقَتْ فَيَالِقُ (جَيْسُ الْجَدِيدَةِ) إِلَى دَاخِلِ (أَسْتَاپُورِ)، وَتَبِعَهَا الْيُونُوكِيُّونَ وَالْمَرْتَزِقَةُ عَلَى خِيُولِهِمْ. مَاتَتْ الْمَلِكَةُ عَاهِرَةٌ وَهِيَ تُقَاتِلُهُمْ لِأَعْنَةَ إِيَاهُمْ، وَاسْتَسَلَمَ الْمَلِكُ سَفَّاحٌ وَأَلْقَوْهُ فِي إِحْدَى حَلِبَاتِ الْقِتَالِ حَيْثُ مَزَّقَهُ قَطِيعٌ مِنَ الْكِلَابِ الْجَائِعَةِ».

قَالَتْ النَّسَّاجَةُ: «وَرَعْمَ كُلِّ هَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّكَ قَادِمَةٌ، أَقَسَمُوا أَنَّهُمْ رَأَوْكَ عَلَى مَتْنِ تَنْيْنٍ، تُحَلِّقِينَ عَالِيًا فَوْقَ مَعْسَكَرَاتِ الْيُونُوكِيِّينَ. كُلُّ يَوْمٍ تَطَّلَعْنَا إِلَى مَجِيئِكَ».

فَكَّرَتْ الْمَلِكَةُ: لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ آتِي، لَمْ أَجْرُؤْ.
سَأَلَ سَكَاهَا: «وَلَمَّا سَقَطَتِ الْمَدِينَةُ؟ مَاذَا حَدَثَ عِنْدَيْدِي؟».

- «بَدَأَتْ الْمَجْزَرَةُ. كَانَ (مَعْبَدُ ذَوَاتِ النَّعْمِ) مَلِيئًا بِالْمَرْضَى الَّذِينَ ذَهَبُوا يَدْعُونَ الْآلِهَةَ أَنْ تَشْفِيَهُمْ، فَأَوْصَدَتِ الْفَيَالِقُ الْبَابَ وَأَضْرَمَتِ النَّارَ فِي الْمَعْبَدِ بِالْمِشَاعِلِ، وَخِلَالَ سَاعَةٍ شَبَّتِ الْحَرَّاتُ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ، وَمَعَ انْتِشَارِهَا امْتَزَجَتْ مَعًا. كَانَتْ الشُّوَارِعُ مَلِيئَةً بِالْأَهَالِيِّ الْهَارِبِينَ فِي هَذَا الْاِتِّجَاهِ وَذَلِكَ مِنَ النَّيْرَانِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَخْرَجٌ مَعَ سَيْطَرَةِ الْيُونُوكِيِّينَ عَلَى الْبُؤَابَاتِ».

قَالَ الرَّأْسُ الْحَلِيقُ: «لَكِنكُمْ هَرَبْتُمْ، فَكَيْفَ؟».

أَجَابَهُ الْعَجُوزُ: «إِنْ حَرَفْتِي صِنَاعَةُ الْقَرْمِيدِ كَمَا كَانَتْ حَرَفَةُ أَبِي وَأَبِيهِ مِنْ قَبْلِي، وَقَدْ بَنَيْتُ جِدِّي مَنزِلَنَا عِنْدَ سُورِ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ سَهْلًا أَنْ أَخْلُجَلَ بَعْضَ قِطْعِ الْقَرْمِيدِ كُلِّ لَيْلَةٍ، وَحِينَ أُخْبِرْتُ أَصْدِقَائِي سَاعِدُونِي عَلَى وَضْعِ دَعَامَاتٍ فِي النَّفْقِ كِي لَا يَنْهَارُ. كُلْنَا اتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ فِي صَالِحِنَا أَنْ يَكُونَ لَنَا طَرِيقُنَا الْخَاصُّ لِلْخُرُوجِ».

فَكَرَّتْ دَانِي: لَقَدْ تَرَكْتُ لَكُمْ مَجْلَسًا يَحْكُمُكُمْ، نِطَاسِيًّا وَمَعْلَمًا وَرَاهِبًا. مَا زَالَتْ تَدْكُرُ الْمَدِينَةَ الْحَمْرَاءَ كَمَا رَأَتْهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، جَافَةً مَتْرِبَةً وَرَاءَ أَسْوَارِهَا الْقَرْمِيدِ الْحَمْرَاءِ، تَحْلُمُ أَحْلَامًا قَاسِيَةً وَلَكِنْ مَلَأَى بِالْحَيَاةِ. كَانَتْ فِي (النَّهْرِ الدَّوْدِيِّ) جُزْرٍ يَتْبَادَلُ فِيهَا الْعُشَّاقُ الْقُبُلَاتِ، لَكِنْ فِي (سَاحَةِ الْعُقَابِ) كَانُوا يُجْرَدُونَ النَّاسَ مِنْ جِلْدِهِمْ وَيَتْرُكُونَهُمْ عُرَاةً لِلذَّبَابِ. قَالَتْ لِأَسْتَاپُورِيِّينَ: «أَحْسَنْتُمْ بِالْمَجْجِيِّ. سَتَكُونُونَ آمِنِينَ فِي (مِيرِينَ)».

شَكَرَهَا الْإِسْكَافُ، وَلَثِمَ الْبِنَاءَ الْعَجُوزَ قَدَمَهَا، إِلَّا أَنْ النَّسَاجَةَ رَشَقَتْهَا بِنَظْرَةِ قَاسِيَةِ كَالْحَجَرِ، فَقَالَتْ الْمَلِكَةُ لِنَفْسِهَا: تَعْلَمُ أَنِّي أَكْذِبُ، تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ الْحِفَاطَ عَلَى أَمْنِهِمْ. (أَسْتَاپُورِ) تَحْتَرِقُ، وَ(مِيرِينَ) التَّالِيَةَ. بَعْدَمَا خَرَجَ الْحَرَسُ بِالْأَسْتَاپُورِيِّينَ أَعْلَنَ بَنُ بِلُومِ الْبَنِيِّ: «الْمَزِيدُ مِنْهُمْ فِي الطَّرِيقِ. هُوَ لَاءُ الثَّلَاثَةِ رَكَبُوا الْخِيُولَ، لَكِنْ أَكْثَرُهُمْ سَائِرُونَ». سَأَلَهُ رَزْنَاكُ: «كَمْ عَدَدُهُمْ؟».

هَزَبَ بَنُ الْبَنِيِّ كَتَفِيهِ قَائِلًا: «مِائَاتٌ، آلَافٌ. بَعْضُهُمْ مَرِيضٌ، بَعْضُهُمْ مَحْرُوقٌ، بَعْضُهُمْ جَرِيحٌ. الْقِطْطَةُ وَالْمَذْرُوءُونَ يَطُوفُونَ التَّلَالَ بِالرُّمَحِ وَالسَّوْطِ، يَسُوقُونَهُمْ شِمَالًا وَيَقْتُلُونَ الْمُتَلَكِّثِينَ».

فَرَكَ رَزْنَاكُ يَدَيْهِ مَعًا، وَقَالَ بَتَوَثُّرٍ: «أَفْوَاهٌ عَلَى أَقْدَامٍ. وَتَقُولُ إِنَّهُمْ مَرَضَى؟ يَجِبُ أَلَّا تَسْمَحَ صَاحِبَةَ الْعِبَادَةِ بِدُخُولِهِمُ الْمَدِينَةَ».

قَالَ بَنُ بِلُومِ الْبَنِيِّ: «لَمْ أَكُنْ لِأَسْمَحَ بِذَلِكَ عَنْ نَفْسِي. إِنَّنِي لَسْتُ مَيَاسْتِرَ بِالطَّبْعِ، لَكِنِّي أَعْرِفُ أَنَّ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَفْصَلَ التَّفَاحَ التَّالِفَ عَنِ السَّلِيمِ».

رَدَّتْ دَانِي: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا تُفَاحًا يَا بَنُ، بَلْ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ، مَرَضَى وَجِياعٌ وَخَائِفُونَ». أَطْفَالِي. «كَانَ وَاجِبِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى (أَسْتَاپُورِ)».

قَالَ السَّيْرُ بَارِيَسْتَانَ: «لَمْ تَكُونِي تَسْتَطِيعِينَ إِنْقَازَهُمْ يَا جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ. لَقَدْ حَذَّرَتِ الْمَلِكُ كَلْيُونَ مِنَ الْحَرْبِ مَعَ (يُونَكَايِ). كَانَ الرَّجُلُ أَحْمَقُ تُلُوْتُ يَدِيهِ الدِّمَاءَ».

وَهَلْ يَدَايِ أَنْظَفُ؟ تَذَكَّرْتُ مَا قَالَهُ دَارِيوُ، إِنَّ الْمُلُوكَ جَمِيعًا إِمَّا جَزَّارُونَ وَإِمَّا لِحْمٍ. «كَلْيُونَ كَانَ عَدُوًّا عَدُوْنَا. لَوْ انْضَمَمْتُ إِلَيْهِ عِنْدَ (قُرُونِ هَازَاتِ) لَسَحَقْنَا الْيُونَكَايِينَ بَيْنَنَا».

خالفها الرأس الحليق بقوله: «لو أخذت المُطَهَّرين جنوبًا إلى (هازات) لكان أبناء الهاريبي...».

- «أعرف، أعرف! إنها إيرو من جديد».

سألها بن پلوم البني حائرًا: «من إيرو؟».

- «فتاة حسبتي أفذتها من الاغتصاب والتعذيب، لكن كل ما فعلته أنني سوأت عليها الأمور قرب النهاية، وكل ما فعلته في (أستاپور) أنني صنعت عشرة آلاف إيرو».

- «لم تكن صاحبة الجلالة تعلم...».

- «إني الملكة. المفترض أن أعلم».

قال رزناك: «ما حدث حدث. صاحبة العبادة، أتوسل إليك أن تتزوجي النبيل هيزدار في الحال. يُمكنه أن يتكلم مع الأسياد الحكماء ويُقيم لنا السلام».

- «بأي شروط؟». قالت كويث: احذري القهرمان العاطر، وتنبأت المرأة المقنعة بمجيء الفرس الشاحبة، فهل هي محقة بشأن النبيل رزناك أيضًا؟ «قد أكون فتاة صغيرة لا أفقه شيئًا عن الحرب، لكنني لست حَمَلًا يثغو لأدخل وكر الهاريبي طواعية. ما زال لدي المُطَهَّرون، ولدي غربان العاصفة والأبناء الثانون، ولدي ثلاث جماعاتٍ من المعتمقين».

أضاف بن پلوم البني بابتسامة عريضة: «هُم والثنانين».

ولول رزناك مو رزناك: «في الجُب، اثنان منها مقيدان بالسلاسل. ما جدوى ثنانين لا يُمكن التحكُّم فيها؟ المُطَهَّرون أنفسهم يتتابهون الخوف حين يفتحون الأبواب لإطعامهما».

التمعت عينا بن البني استمتاعًا إذ سأل: «مِمَّ؟ من حيوانات الملكة الأليفة الصَّغيرة؟». قائد الأبناء الثانين الأشيب من مخلوقات الجماعات الحرَّة، هجين تجري في عروقه دماء دسنةٍ من الشعوب المختلفة، ولكن لطالما كان مولعًا بتنانينها، وهُم به.

زَعَقَ رزناك: «حيوانات أليفة؟ إنها وحوش، وحوش تلتهم الأطفال. لا يُمكننا أن...».

صاحت دنيرس: «صمًّا. لن نطرَّق إلى ذلك».

انكمشَ رزناك منها وأجفله الحنق في صوتها، وقال: «سامحيني يا صاحبة السُّمو، لم...».

قاطعَه بن مخاطبًا الملكة: «صاحبة الجلالة، اليونكيون لديهم ثلاث جماعات حُرَّة ضد جماعتينا، وثمة كلام عن إرسالهم مبعوثين إلى (فولانتيس) لاستئجار الجماعة الذهبية. هؤلاء الأوغاد قوامهم عشرة آلاف رجل. كما أن (يونكاي) حصلت على أربعة فيالق جيسكارية، وربما أكثر، وسمعت أنهم أرسلوا خيالة عبر (بحر الدوثرافي) ليأتوا بگالاسار كبير يُهاجمنا. إننا في حاجة إلى التنانين في رأيي».

تنهَّدت داني، وردت: «أسفة يا بن، لا أستطيع أن أطلق التنانين»، فرأت أنه ليس الجواب الذي رغبَ فيه.

حكَّ بلوم لحيته الموحوطة بالشَّيب قائلاً: «إن لم يكن في ميزان القوى تنانين... فعلينا أن نرحل قبل أن يُحكِّم الأوغاد اليونكيون الفخ... لكن عليك أولاً أن تجعلني النحاسين يدفعون ثمن رحيلنا. إنهم يدفعون للگالات ليدعوا مَدنهم وشأنها، فلمَ ليس نحن أيضاً؟ بيعيهم (ميرين) وابدئي الرحلة غرباً بعرباتٍ محمَّلة بالذهب والجواهر وما شابه».

- «تريدني أن أنهب (ميرين) وأفرّ؟ لا، لن أفعل ذلك. أيها الدودة الرَّمادي، هل معتقِّي جاهزون للمعركة؟».

عقدَ الخصيُّ ذراعيه على صدره مجيباً: «إنهم ليسوا مُطهَّرين، لكنهم لن يُخزوك. هذا الواحد يُقسِم بالحربة والسيف يا صاحبة العبادة».

قالت دنيرس: «جيد، هذا جيد»، وتطلَّعت إلى وجه الرِّجال المحيطين بها... الرأس الحليق العابس، والسير باريستان بتجاعيد وجهه وعينه الزرقاوين الحزبتين، ورزناك مو رزناك بشحوبه وعرقه، وبن النبي بشعره الأبيض ومئاته كالجلد القديم، والدودة الرَّمادي بوجنتيه النَّاعمتين وتبلده وغياب أيِّ تعبيرٍ عن ملامحه. المفترَض أن يكون داريو هنا، وخيالة دمي أيضاً، إذا كانت المعركة ستندلع فيجب أن يكون دم دمي معي. وتفتقد السير چورا مورمونت أيضاً. كذبَ وتجنَّس عليّ، لكنه أحبَّني، ودائماً منحني مشورةً سديدةً. «لقد هزمتُ اليونكيين مرَّةً وسأهزمهم ثانيةً. لكن أين؟ كيف؟».

قال الرَّأس الحليق بصوتٍ أفعَمته الصَّدمة: «تتوين النُّزول إلى الميدان؟ إنها حماقة. أسوارنا أعلى وأغلظ من أسوار (أستاپور)، والمدافعون عنها أشجع. لن يأخذ اليونكيُّون هذه المدينة بسهولة».

خالفه السير باريستان: «لا أظنُّ أن علينا السَّمّاح لهم بمحاصرتنا. إن جيشهم جيش مرقع في أحسن الأحوال. هؤلاء النخاسون ليسوا جنودًا. إذا داهمناهم على حين غرّة...».

قاطعه الرَّأس الحليق: «فرصة ضعيفة. لليونكيِّين أصدقاء كُثر داخل المدينة، وسيعرفون».

سألت داني: «ما حجم الجيش الذي نستطيع حشده؟».

أجابها بن البني: «ليس كثيرًا بما فيه الكفاية، بعد إذن صاحبة السُّمو الملكي. ماذا يقول نهاريس؟ إذا كنا سنخوض المعركة فسنحتاج إلى غربانه».

- «ما زال داريو في الخارج». أوه، ماذا فعلت بحق الآلهة؟ هل أرسلته إلى حتفه؟ «بن، أريد أن يستطلع أبنائك الثَّانون أخبار أعدائنا، أين هم وبأيّ

سرعة يتقدّمون وكم رجلاً لديهم وكنه تجهيزاتهم».

- «سنحتاج إلى مؤن، وإلى خيول جديدة أيضًا».

- «بالطبع. سيتولّى السير باريستان هذا».

حكَّ بن البني ذقنه قائلاً: «قد نستطيع شراء بعضهم. إذا استغنت صاحبة الجلالة عن بعض صُور الذهب والجواهر... فقط لنري قادتهم عيَّنة... من

يدري؟».

قالت داني: «نشتريهم، ولم لا؟». تعلم أن هذا ما يحدث طول الوقت بين الجماعات الحُرّة في (أراضي النُّزاع). «نعم، لا بأس. رزناك، تولِّ هذا. ما إن

يخرُج الأبناء الثَّانون أغلق البوابة وضاعف الحراسة على الأسوار».

قال رزناك مو رزناك: «أمر صاحبة السُّمو. وماذا عن الأستاپوريِّين؟».

أطفالي. «إنهم قادمون ناشدين المساعدة والغوث والحماية، ولا يمكننا أن نُدير لهم ظهورنا».

قطب السير باريستان وجهه قائلاً: «جلالة الملكة، لقد شهدتُ الإسهال الدَّموي يدُمّر جيوشًا بأكملها حين يُترك للانتشار بلا رقيب. القهرمان محقٌّ،

لا يمكننا السَّمّاح للأستاپوريِّين بدخول (ميرين)».

رمقته داني بلا حول ولا قوة. جيّد أن التّنّانين لا تبكي. «كما تقول. سنّبقيهم خارج الأسوار إلى أن تجري هذه... هذه اللّعة مجراها. أقم لهم مخيمًا على ضفة النّهر غرب المدينة، وسنرسل إليهم ما نستطيع من طعام، وقد نستطيع فصل الأصحّاء عن المرضى». كانوا ينظرون إليها جميعًا، فقالت: «هل ستجعلونني أقولها مرّتين؟ اذهبوا ونفّذوا أوامري»، ثم نهضت متجاوزةً بن البني وصعدت الدّرجات إلى عزلة شرفتها الجميلة.

ممتًا فرسخ تفصل (ميرين) عن (أستاپور)، ومع ذلك بدا لها أن السّماء أغمق إلى الشّمال الغربي، ملطّخة مغبشة بدُخان المدينة الحمراء الهالكة. ربّت الأنشودة القديمة في عقلها: من الدّم والقرميد فُذّت (أستاپور)، ومن الدّم والقرميد أهلها فُذوا، وفكّرت مضيّفةً إليها: رمادًا وعظمًا صارت (أستاپور)، ورمادًا وعظمًا أهلها صاروا. حاولت أن تتذكّر وجه إيرو، لكن ملامح الفتاة الميتة ما انفكّت تتحوّل إلى دُخان.

حين التفتت دنيرس أخيرًا وجذت السير باريستان واقفًا قربها محتميًا بمعطفه الأبيض من برد المساء، فسألته: «هل نستطيع أن نخوض هذه المعركة؟».

- «يستطيع البشّر القتال دومًا يا جلالة الملكة. سلّيني إن كنا نستطيع الفوز بالأحرى. الموت سهل، لكن النّصر يأتي بصعوبة. معتفوك لم يكتمل تدريبهم ولم يُختبروا، ومرترقتك كانوا يخدمون أعداءك من قبلك، وما إن يُبدّل المرء ولاءه فلن يتورّع عن تبديله ثانية. إن لديك تينين لا يمكن التّحكّم فيهما وتينين ثالثًا ربما ضاع منك، ووراء هذه الأسوار أصدقاؤك الوحيدون هم اللازارين الذين لا يستسيغون الحرب».

- «لكن أسواري قويّة».

- «ليست أقوى مما كانت ونحن خارجها، وأبناء الهاربي في الدّاخل معنا، وكذا الأسياد العظام، من لم تقتلهم وأبناء من قتلهم».

زفرت الملكة قائلةً: «أعرف. ما نصيحتك أيها الفارس؟».

أجاب السير باريستان: «المعركة. (ميرين) شديدة الازدحام وملأى بالأفواه الجائعة، وداخلها تُواجهين أعداء كثيرين للغاية. أخشى أننا لا

نستطيع احتمال الحصار طويلاً. دعيني أقابل العدو حين يأتي شمالاً على أرضٍ من اختياري».

- «تقابل العدو... بالمعتقين الذين قلت إن تدريبهم لم يكتمل ولم يُختبروا!».

- «كلنا كنا كذلك ذات يوم يا جلالة الملكة. سيساعد المُطهرون على تعضيدهم. لو كان لديّ خمسمئة فارس...».

- «أو خمسة... وإذا أعطيتك المُطهرين فلن يبقى إلا الوحوش النحاس للدِّفاع عن (ميرين)»، فلماً لم يُعارضها السير باريستان أغلقت داني عينيها وصلت: آلهتي، لقد أخذت الكال دروجو الذي كان شمسي ونجومي، وأخذت ابنا الباسل قبل أن يلتقط نفساً واحداً. لقد نلت قسطك من دمي، فساعديني الآن أرجوك، امنحيني الحكمة لأرى الطريق أمامي والقوة لأفعل ما عليّ أن أفعله للحفاظ على أمن أطفالي. ولم تُجِب الآلهة.

عندما فتحت دنيروس عينيها ثانية قالت: «لا يُمكنني أن أحارب عدوَّين أحدهما بالداخل والثاني بالخارج. إذا أردتُ الحفاظ على (ميرين) فيجب أن تكون المدينة ورائي، المدينة كلها. إنني محتاجة إلى... محتاجة إلى...». بترت عبارتها غير قادرة على قولها.

استحثها السير باريستان برفق: «جلالة الملكة؟».

الملكة ليست ملك نفسها وإنما ملك شعبها. «محتاجة إلى هيزدار زو لوراك».



مليساندرا

لا يعرف الظلام الدّامس سبيلاً إلى مسكن مليساندرا أبداً.
على عتبة النّافذة تتقد ثلاث شموع من الشّحم لتندراً أهوال اللّيل، وعلى
جانبي فراشها يرتعش لهب أربع أخريّات، وفي المستوقد تضطرم النّار طيلة
النّهار والليل. أول درس يتعلّمه من يخدمونها ألاّ يسمحوا للنّار بالانطفاء أبداً
وتحت أيّ ظرف.

أغلقت الرّاهبة الحمراء عينيها وردّدت صلاةً، ثمّ عادت تفتحهما لتواجه
نار المستوقد. مرّة أخرى. يجب أن تتيقن. رُهبان كثيرون وراهبات كثيرات
من قبلها أودت بهم الرّؤى الرّائفة إلى التهلكة، إذ رأوا ما أرادوا أن يروه بدلاً
من رؤية ما أرسله إليهم إله الضّياء. ستانيس يزحف جنوباً إلى الخطر، الملك
الذي يحمل مصير العالم على عاتقه، أزور آهاي المولود من جديد. مؤكّد أن
راهلور سيُنعم عليها بلمحة مما ينتظره. أرني ستانيس يا إلهي، أرني ملكك،
أداتك.

ترافقت الرّؤى أمامها ذهبيّة وقرمزيّة، تتذبذب، تتكوّن وتذوب ويخالط
بعضها بعضاً، أشكال غريبة ومرعبة وفاتنة. رأت الوجوه عديمة الأعين ثانيةً،
تُحدّق إليها من محاجر خالية تبكي دماً، ثمّ الأبراج على البحر تتهاوى إذ
يكتسحها الطوفان الأسود الفائر من الأعماق. ظلال على شكل جماجم،
وجماجم تستحيل إلى سديم، وجثث متعانقة تتلوّى وتندحرج وتخمش
بشهوة، وعبر حُجب النّيران ظلال مجنّحة عظيمة تدور في سماء زرقاء قاسية.
الفتاة، يجب أن أجد الفتاة ثانيةً، الفتاة الرّماديّة على الحصان المائت. هذا
ما سيتوقّعه چون سنو منها، وقريباً. لن يكفي أن تقول إن الفتاة هاربة. سيريد

المزيد، سيُريد أن يعرف الزَّمان والمكان، وذلك لا تعلمه بعدُ. لقد رأت الفتاة مرَّةً واحدةً فقط. فتاة بلون الرَّماد، وبينما أشاهدُ تفتَّتت وذابت.

تجسَّد وجهه في نار المستوقد، وللحظةٍ لا أكثر تساءلت: ستانيس؟ لكن لا، ليست هذه ملامحه. وجه خشبي، أبيض كالجُثث. أهذا هو العدو؟ في اللَّهب المتأجج سبحت ألف عين حمراء، فقالت لنفسها: إنه يراني، وإلى جواره ألقى صبيُّ برأس ذئب رأسه إلى الورا وراح يعوي.

ارتجفت الرُّاهبة الحمراء، وسأل الدم على فخذاها قطرةً قطرةً، أسود يتصاعد منه الدُّخان. النَّار في داخلها، عذاب وحرقة، نشوة ووجد، تُفعمها، تلفحها، تُحوِّلها. رسم وميض الحرارة أشكالاً منتظمةً على جِلدها بإصرار يد العاشق، ونادتها أصوات غريبة من أيام أدبرت وولت. سمعت امرأةً تصيح: «ميلوني»، وصوت رجلٍ يزعق: «الدُّفعة 7». كانت تبكي، ودموعها لهب، ولم تزل تشربه.

نزلت رقائق الثلج تدور من سماءٍ مدلهمةً وارتفع الرَّماد يلاقيها، يدور الرَّمادي حول الأبيض والأبيض حول الرَّمادي فيما تحلّق السُّهام النَّارية فوق سور خشبي، وتتقدّم أشياء ميتة بخطى ثقيلة صامتة عبر البرد أسفل جُرف رمادي حيث تشتعل النَّار داخل مئة كهف. ثم اشتدت الرِّيح وجاء الضُّباب الأبيض يكتسح الموجودات، برودته مستحيلة، وواحدة تلو الأخرى همدت النَّيران، وبعدها لم يبق إلا الجماجم.

الموت، الجماجم تعني الموت.

طقطق اللَّهب بنعومة، وفي طقطقته سمعت اسم جون سنو يُهمس، وسيح وجهه أمامها مرسومًا بالسنّة من الأحمر والبُرْتقالي، يتبدّى ويتلاشى ثانية، ظلُّ شبيه مرئي وراء ستار مهزوز. الآن هو رجل، والآن ذئب، والآن رجل من جديد. لكن الجماجم هنا، الجماجم تُحيط به من كلِّ اتجاه. رأت مليساندرا الخطر المحدق بالفتى من قبل، وحاولت أن تُحدّره منه. أعداء يطوّقونه، خناجر في الظلام. غير أنه رفض أن يُصغي.

لا يُصغي غير المؤمنين أبدًا إلا بعد فوات الأوان.

سألها الصّبي بخفوت: «ماذا ترين يا سيّدي؟».

جماجم، ألف جمجمة، والفتى النّعل ثانية، جون سنو. متى سيُلت عمّا

تراه في نيرانها تُجيب مليساندرا: «الكثير»، لكن الرؤية ليست بالبساطة التي تُوحى بها الكلمة إطلاقاً. إنه فنٌّ، وككلِّ الفنون يستلزم إتقاناً وانضباطاً ودراسةً. وألمًا أيضاً. يُحدِّث راهلور مختاربه من خلال النَّار المباركة بلُغةٍ من رمادٍ وجمرٍ ولهبٍ يتلوى، لُغةٍ لا يستطيع امتلاك مفاتيحها سوى إله. منذ سنين لا تُحصى تمارِس مليساندرا فنّها، وقد دفعت الثَّمَن. لا أحد على الإطلاق - حتى في طائفاتها - يتمتّع بمهارة رؤية الأسرار نصف المنجلية نصف الخبيثة في اللهب المقدّس.

لكن الآن لا يبدو أنها تستطيع العثور على ملكها حتى. أصليّ من أجل لمحّة من أزور آهاي فلا يُريني راهلور إلا سنو. نادّت: «دثان، شراب». حلّقها جاف تماماً وعطشها شديد.

قال الصّبي: «نعم يا سيّدتي»، وصبَّ لها كوباً من الماء من الإبريق الحجري الموضوع عند النافذة وجلبه لها.

قالت مليساندرا: «أشكرك»، وأخذت رشفةً وابتلعته ومنحت الصّبي ابتساماً خضّبت وجهه بالحُمرة. تعلم أنه شبه واقع في غرامها. يخشاني ويريدني ويعبّدني.

وعلى الرغم من هذا لا يشعُر دثان بالرّضا عن وجوده هنا. من دواعي فخر الصّبي العظيم أن يخدم كمرافقٍ للملك، وقد جرّحه أن أمره ستانيس بالبقاء في (القلعة السوداء)، فككّل صبيّ في سنّه يمتلئ عقله بأحلام المجد، ولا ريب أنه كان يتخيّل البسالة التي سيُبدّها في (ربوة الغابة). صبيان آخرون في سنّه ذهبوا جنبواً ليخدموا كمرافقين لفُرسان الملك ويدخلوا المعركة إلى جانبيهم، ومؤكّد أن استبعاد دثان بدا كتبكيّت، كعقابٍ على فشلٍ ما منه، أو ربما على فشلٍ ما من أبيه.

لكن الحقيقة أنه هنا لأن مليساندرا طلبته. لقد مات أبناء دافوس سيورث الأربعة الكبار في معركة (النَّهر الأسود)، حين التهمت النَّار الخضراء أسطول الملك، ودثان هو الابن الخامس، وفي أمانٍ أكثر هنا معها من جانب الملك. لن يشكرها اللورد دافوس على هذا، مثلما لن يشكرها الصّبي نفسه، ومع ذلك بدا لها أن سيورث قاسى ما يكفي من أحزان، وعلى الرغم من ضلاله فإخلاصه لستانيس لا يرقى إليه الشُّك، وقد رأت هذا في لهبها.

دفان سريع وذكي وبارع أيضًا، وهذا أكثر مما يُمكن أن يُقال عن معظم تابعيها. ترك ستانيس دسنة من رجاله لخدمتها عندما تحرّك جنوبًا، لكن أكثرهم عديم الفائدة. جلالته في حاجة إلى كلِّ مُقاتل، فلم يستطع الاستغناء إلا عن المسنّين والمُعاقين. أحد الرّجال أعمته ضربة على رأسه خلال المعركة عند سفح (الجدار)، وآخر كسّحه سقوط حصانه عليه محطّمًا ساقيه، ورقبها أفقدته ذراعه هراوة عملاق، وثلاثة من حُرّاسها مخصّيون عقابًا من ستانيس على اغتصاب نساء همجيات، وفي خدمتها سكيّران وفتى جبان أيضًا. كان المفروض أن يُسْتَق هذا الأخير - كما أقرّ الملك نفسه - لكنه من عائلة نبيلة، وأبوه وإخوته ثابتون على العهد من البداية.

تعلم الرّاهبة أن الاحتفاظ بحراسة حولها سيجعل الإخوة السّود يلزمون الاحترام المطلوب، لكن أحدًا من الرّجال الذين أعطاهم ستانيس لها لن يكون ذا عونٍ كبير إذا وجدت نفسها في خطر. لا يهمُّ، فمليساندرا الأشاوية لا تخاف على نفسها، وسيحميها راهلور.

أخذت رشفة أخرى من الماء ووضعت الكوب جانبًا، ثم أغمضت عينيها وفتحتهما عدّة مرّات وتمطّت ونهضت من مقعدها محسّة بتبيّس عضلاتها. بعد التّطلّع إلى اللهب طويلاً استغرقت بضع لحظات حتى تكيفت بصرها مع الظلام. عيناها جافتان متعبتان، لكن إذا فركتها فسيزداد الألم. رأت أن نارها خمدت، فقالت: «المزيد من الحطب يا دفان. ما السّاعة؟».

- «قُبيل الفجر يا سيّدي».

الفجر. مُنحنا نهارًا آخر بنعمة راهلور. أهوال اللّيل تنجلي. أمضت مليساندرا اللّيلة في مقعدها عند النّار كما تفعل أكثر الوقت. بعد رحيل ستانيس لم تُعد تستخدم فراشها إلا قليلًا، فليس لديها وقت للنّوم الآن وهموم العالم كلّهُ على كاهلها. كما أنها تخشى أن تحلم. النّوم موت صغير، والأحلام همس (الأخر) الذي يودُّ أن يجرّنا جميعًا إلى ليله السّرمدى. تُؤثر أن تتحمّم بالوهج المحمر الذي يبعثه لهب ربّها الأحمر المبارك، تحتقن وجنتها من اللهب كأن حبيبًا يغمرها بالقبلات. في بعض اللّيالي تغفو، لكن غفوتها لا تدوم أكثر من ساعة، وتدعو مليساندرا أن يأتي يوم تنتهي حاجتها إلى النّوم تمامًا. ميلوني. الدّفعة 7.

أذكي دثان النَّار بقطع الحطب إلى أن استعزَّ لهبها من جديدٍ بعثوَّ وشراسةٍ دافعًا الظلال إلى الانسحاب إلى أركان العُرْفَة وملتهمًا أحلامها المرفوضة. الظلام ينحسر مجددًا... لبعض الوقت، لكن وراء (الجدار) يزداد العدو قوَّةً، وإذا انتصر فلن يطلع الفجر ثانيةً أبدًا. تساءلت إن كان وجهه ما رأته يُحَدِّق إليها من اللهب. لا، قطعًا لا. مؤكَّد أن مُحيَّاه أكثر إثارةً للخوف، بارد وأسود وأشنع من أن يقع عليه بصر إنسان ويعيش. أمَّا الرَّجل الخشبي الذي رأته والصَّبي ذو وجه الذئب... لا شكَّ أنهما خادماه... نصيراه، كما أن ستانيس نصيرها.

ذهبت مليساندرا إلى نافذتها وفتحت مصراعها. في الخارج بدأ الشَّرق يُنير، ولا تزال نجوم الصُّبح تُرْصع السَّماء الحالكة. بدأت (القلعة السوداء) تتحرَّك بالفعل إذ قطع الرَّجال ذوو المعاطف السوداء السَّاحة ليُفطِّروا على أوعية الثريد قبل أن يحلُّوا محلَّ إخوتهم على قَمَّة (الجدار). كانت نُدْف ثلجٍ قليلة تتطاير عند النَّافذة المفتوحة محمولةً على الرِّيح.

سألها دثان: «هل تُريد سيِّدتي أن تتناول الإفطار؟».

الطَّعام. نعم، عليَّ أن أكل. في بعض الأيام تنسى. يمدُّها راهلور بكلِّ ما يحتاج إليه جسدها من غذاء، لكن الأفضل أن يبقى شيء كهذا مجهولًا للفاينين.

إنها محتاجة إلى چون سنو، لا إلى الخُبز المحمَّر واللَّحم المقدَّد، ولكن لا جدوى من إرسال دثان إلى حضرة القائد، فلن يُلبِّي استدعاءها. ما زال سنو مقيمًا وراء مستودع السِّلاح في مسكنٍ متواضع من عُرفتين كان يحتلُّهما حدَّاد حرس اللَّيل الرَّاحل. ربما لا يحسب نفسه جديدًا بـ(بُرج الملك)، وربما لا يكثرث. هذه هي غلطته، تواضع الشَّبَاب الزائف الذي يعدُّ في حدِّ ذاته نوعًا من الغرور. ليس من الحكمة أبدًا أن يتجنَّب القائد زُخرف السُّلطة، فالسُّلطة نفسها تناسب بقدرٍ ليس بالقليل من هذا الزُخرف.

على أن الفتى ليس ساذجًا بالكامل. إنه أذكي من أن يأتي مليساندرا في مسكنها مستجديًا، ويصرُّ على ذهابها إليه بدلًا من ذلك إذا أرادت أن تتحدَّث معه، وفي أغلب الأحيان إذا ذهبت إليه يتركها منتظرةً أو يرفض رؤيتها. على الأقل يتمتَّع في هذا بالفطنة.

- «سأشربُ شاي القُرَّاصِ⁽¹⁾ وأكلُ بيضةً مسلوقةً وخُبْزًا بالزُّبْدة، خُبْزًا طازجًا وليس محمَّرًا إذا سمحت. جدُّ الهمجي أيضًا. قُلْ له إنني أريدُ أن أتكلَّم معه».

- «ذو القميص المُخشِخِش يا سيِّدتي؟».

- «وبسرعة».

بعد ذهاب الصَّبِي اغتسلتُ مليساندرا وبدَّلت ثيابها. تملأ كُمِّيها الجيوب الخفيَّة، وقد تفقدتها بعناية كما تفعل كلُّ صباح لتتأكَّد من أن مساحيقها كلُّها في مكانها. لديها مساحيق تُكسب النَّارَ لونًا أخضر أو أزرق أو فضيًّا، ومساحيق تجعل اللهب يتأجج ويفُحُّ وتبُّ ألسنته أعلى من قامة أيِّ رجل، ومساحيق لعمل الأدخنة، منها دُخان للحقيقة، ودُخان للشهوة، ودُخان للخوف، والدُخان الأسود الثَّقيل القادر على أن يقتل إنسانًا. تُسلِّح الرَّاهبة الحمراء نفسها بحفنةٍ من كلِّ من هذه المساحيق.

فرغَ أكثر من ثلاثة أرباع الصُّندوق المنقوش الذي جلبته معها عبر (البحر الضيق)، ولئن كانت مليساندرا تتمتع بالمعرفة لعمل المزيد من المساحيق فإنها تفتقر إلى الكثير من المكونات النادرة. ستكفي تعاويذي. إنها أقوى عند (الجدار)، أقوى مما كانت في (أشاي) نفسها. كل كلمةٍ وحركةٍ منها أكثر فاعليَّةً، وبإمكانها أن تفعل أشياء لم تكن تقدر عليها من قبل. الظلال التي سأتمخضُ عنها هنا ستكون رهيبهً، ولن يقوى أيُّ من مخلوقات الظلام على الصُّمود أمامها. في وجود شعوذة كهذه تحت إمرتها فمن المفترض أن تنتفي حاجتها قريبًا إلى حيل الخيميائيين والبايرومانسرات⁽²⁾ الواهية.

أغلقتُ الصُّندوق وأوصدتُ القفل وخبَّأت المفتاح داخل تنورتها في جيب سرِّي آخر. ثمَّ إنها سمعتُ طرقهً على الباب، فخمَّنت من وقعها الواجب أنه رقيبها ذو الذراع الواحدة، الذي قال لها: «ليدي مليساندرا، سيِّد العظام أتى».

(1) القُرَّاص نبات عُشبي معمَّر يُستخدَم كدواء منظِّف للمعدة. (المترجم).

(2) البايرومانسر كلمة يونانية تعني «كاهن النَّار»، وكانت تُستخدَم قديمًا للإشارة إلى كلِّ من يحترف فنَّ التَّعامل مع النَّار لمختلف الأغراض. (المترجم).

قالت: «أَدْخِلْهُ»، وعَادَتْ تَسْتَقِرُّ عَلَى مَقْعِدِهَا عِنْدَ الْمَسْتَوْقَدِ.
يرتدي الهمجي سُتْرَةً بِلَا كُمَيْنِ مِنَ الْجِلْدِ الْمَقْوَى الْمَطْعَمَ بِالْبُرُونِزِ، تَحْتَ
مِعْطَفٍ رَثٍ تَخْتَلِطُ فِي أَقْمَشْتِهِ دَرَجَاتُ الْأَخْضَرِ وَالْبَيْيِ. لَا عِظَامَ. وَيَتَشَحَّحُ
بِالظَّلَالِ أَيْضًا، بِخِيوطٍ مَمَزَّقَةٍ مِنَ الصُّبَابِ الرَّمَادِيِّ، شَبِهَ مَرِيئَةَ، تَنْزَلِقُ عَلَى
وَجْهِهِ وَقَدْهُ مَعَ كُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا. أَشْيَاءٌ قَيْبِحَةٌ، قَيْبِحَةٌ قُبْحُ عِظَامِهِ. مَقْدَمَةٌ
شَعْرَهُ مَسْحُوبَةٌ إِلَى الْوَرَاءِ، وَعَيْنَاهُ دَاكِنَتَانِ مَتَقَارِبَتَانِ، وَوَجْتَاهُ مَمْصُوصَتَانِ،
وَفَوْقَ فَمِهِ الْمَلْيَاءُ بِالْأَسْنَانِ الْبَنِيَّةِ الْمَكْسُورَةِ يَتَلَوَّى شَارِبَهُ كَالدُّودَةِ.
شَعَرَتْ مَلِيْسَانْدَرَا بِالْدَّفَاءِ فِي تَجْوِيفِ حَلْقِهَا إِذْ اهْتَزَّتْ يَاقُوتَتِهَا لَدَى
قُرْبِ عَيْدِهَا، وَعَلَّقَتْ: «خَلَعْتَ الْعِظَامَ».

- «الخشخشة كانت على وشك إصابتي بالجنون».
- «العظام تحميك. الإخوة السود لا يُحبُّونك. دقان أخبرني بأنك
تسأخنت مع بعضهم على العشاء ليلة البارحة».

قال الهمجي: «مع بعضهم. كنتُ أَشْرَبُ حَسَاءَ الْفَاصُولِيَا وَاللَّحْمَ الْمَقْدَّدَ
فِيمَا رَاحَ بَاوَنُ مَارِشٌ يُثَرِّثُ عَنِ الْمَوْقِعِ الْعَالِي. حَسْبَنِي الرُّمَانَةُ الْعَجُوزُ
أَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ لَنْ يَسْمَحَ لِلْقِتْلَةِ بِسَمَاعِ مَدَاوِلَاتِهِمْ، فَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُ
لَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا فَلَا يَجْدُرُ بِهِمْ أَنْ يَتَدَاوَلُوا عِنْدَ النَّارِ. احْتَقَنَ وَجْهَ بَاوَنٍ
وَأَصْدَرَ صَوْتًا مَخْنُوقًا مَا، لَكِنِ الْأَمْرُ لَمْ يَتَعَدَّ هَذَا»، وَجَلَسَ عَلَى حَافَةِ النَّافِذَةِ
وَسَحَبَ خَنْجَرَهُ مِنْ عِمْدِهِ مَضِيْفًا: «إِذَا أَرَادَ أَحَدُ الْغُرَبَانِ أَنْ يَغْرَسَ سَكِينًا بَيْنَ
ضِلْوَعِي وَأَنَا أَتَنَاوَلُ عَشَائِي فَلَهُ أَنْ يُحَاوِلَ. سَيَكُونُ طَعْمُ عَصِيدَةِ هُوبٍ أَطِيبُ
إِذَا تَبَلَّتْ بِقَطْرَةٍ مِنَ الدَّمِ».

لَمْ تُعْرِ مَلِيْسَانْدَرَا الْفُلُوزَ الْمَجْرَدَ اهْتِمَامًا. لَوْ كَانَ الْهَمْجِيُّ يُضْمِرُ لَهَا
الْأَذَى لَرَأَتْ هَذَا فِي لَهْبِهَا. الْخَطَرُ عَلَى شَخْصِهَا أَوَّلُ شَيْءٍ تَعَلَّمَتْ رُؤْيَتَهُ
وَهِيَ لَا تَزَالُ طِفْلَةً صَغِيرَةً، أُمَّةٌ مَرَهُونَةٌ بِالْمَعْبَدِ الْأَحْمَرِ الْعَظِيمِ مَدَى الْحَيَاةِ،
وَمَا زَالَ هَذَا أَوَّلُ شَيْءٍ تَتَرَصَّدُهُ مَتَى حَدَقَتْ إِلَى النَّارِ. نَهَيْتَهُ قَائِلَةً: «أَعَيْنِهِمْ هِيَ
مَا يُفْتَرَضُ أَنْ يَهْمَكَ، لَا سَكَكِيْنِهِمْ».

- «السُّحْرُ، نَعَمْ». بَدَأَ كَأَنَّ الْيَاقُوتَةَ الصَّغِيرَةَ فِي الصَّفْدِ الْحَدِيدِيِّ الْأَسْوَدِ
حَوْلَ مَعْصَمِهِ تَبْضُ، وَقَدْ نَقَرَ عَلَيْهَا الْهَمْجِيُّ بِحَافَةِ الْخَنْجَرِ لِيَصْدُرَ رَيْنٌ
خَافَتْ مِنَ التَّقَاءِ الْفُلُوزَ وَالْحَجَرَ الْكَرِيمِ، وَقَالَ: «أَشْعُرُ بِهَا فِي نَوْمِي، دَافِئَةٌ

على جلدي، يتخلّل دفنها الحديد، ناعمة كقُبلة امرأة، كقُبلتكِ. لكن أحياناً في أحلامي تبدأ تلسعني، وتحوّل شفتاكِ إلى أسنان. كلُّ يوم أفكّرُ أن نزعها في منتهى السّهولة، وكل يوم لا أنزعها. أيجب أن أرثدي العظام اللّعينة أيضاً؟». - «التعويذة قوامها الظلال والإيحاء. النَّاس يرون ما يتوقّعون رؤيته، والعظام جزء من هذا». هل جانبتي الصّواب بالإبقاء عليه؟ «إذا خاب السّحر فسَيقتلونك».

بدأ الهمجي يكشط الوسخ من تحت أظفاره بطرف خنجره قائلاً: «لقد غنيتُ أغانيّ وخضتُ معاركي وشربتُ نبيذ الصّيف وذقتُ زوجة الدورني. المفترض أن يموت الرّجل كما عاش، وبالنسبة إليّ يعني هذا أن أموت وفي يدي الفولاذ».

هل يحلّم بالموت؟ أيّمكن أن العدوّ مسّه؟ إن الموت ملكوته، والموتى جُنده. «ستجد عملاً لفولاذك قريباً. العدوّ يتحرّك، العدوّ الحقيقي، وجوالة اللورد سنو سيعودون قبل آخر النّهار بأعينهم العمياء الدّامية».

ضيق الهمجي عينيه، عينين رماديتين، عينين خضراوين، ترى مليساندرا لونها يتبدّل مع كلّ نبضة من الياقوتة. قال الرّجل: «اقتلاع الأعين عمل البكّاء. يحبُّ أن يقول إن الغراب الأعمى أفضل الغرaban. أحياناً يخطر لي أنه يودُّ أن يقتلع عينيه هو من جرّاء نضوحهما وحكاكهما الدّائمين. سنو افترض أن الأحرار سيقصدون تورموند ليقودهم، لأن هذا ما كان ليفعله. لقد أحبّ تورموند وأحبه المحتال العجوز أيضاً. لكن إذا كان البكّاء... ليس هذا جيّداً، لا له ولا لنا».

أومأت مليساندرا برصانة كأنها أصغت إليه بكلّ جوارحها، لكن البكّاء لا يهتمُّ حقّاً، لا أحد من الأحرار يهتمُّ. إنهم شعب ضائع، شعب هالك، مصيرهم الانقراض من على وجه البسيطة كما انقرض أطفال الغابة. على أنه لن يرغب في أن يسمع كلاماً كهذا، ولا تستطيع أن تُغامر بخسارته الآن، وهكذا سألته: «ما مدى معرفتك بالشّممال؟».

دسّ خنجره في غمده مجيباً: «كأنيّ مُغير. بعض البقاع أفضل من غيرها. الشّممال كبير. لماذا؟».

قالت: «الفتاة، فتاة ترتدي الرّمادي على ظهر حصانٍ مائت، أخت چون

سنو». ومن يُمكن أن تكون غيرها؟ إنها تهرع إليه بُغية الحماية كما رأت
مليساندرا بوضوح. «لقد رأيتها في لهبي، لكن مرّةً فقط. يجب أن نكسب ثقة
حضرة القائد، والسبيل الوحيد إلى ذلك أن نُنقذها».

قال: «تعين أن أنقذها أنا؟ سيّد العظام؟»، وضعك متابعًا: «لم يحدث
قطُّ أن وثق أحد بذي القميص المُخشخِش إلا الحمقى، وسنو ليس أحق.
إذا كانت أخته في حاجةٍ إلى إنقاذ فسيرسل غربانه. هذا ما كنتُ لأفعله».

- «إنه ليس أنت. لقد حلفَ يمينه ويعزم على الحياة بها. حرس اللّيل لا
يتدخلون، لكنك لست من حرس اللّيل، وتستطيع أن تفعل ما لا يستطيعه».

- «إذا سمحَ قائدك المتمزّت بذلك. هل أرتك نارك أين أجدُ هذه الفتاة؟».

- «رأيتُ مياهًا عميقةً زرقاء ساكنةً تكوّنَت عليها طبقة رقيقة من الجليد

للتوّ. بدا كأنها تمتدُّ إلى ما لا نهاية».

- «(البُحيرة الطويلة). ماذا رأيتَ غيرها حول الفتاة؟».

- «تلاّ وأحقولًا وأشجارًا. رأيتُ غزالًا، ورأيتُ أحجارًا. إنها تُحافظ

على مسافةٍ لا بأس بها بينها وبين القرى. حين تستطيع تمضي مع الجداول
الصغيرة كي تُضلل الصيادين عن أثرها».

قطب وجهه قائلاً: «سيصعب هذا الأمر. قلتُ إنها آتية شمالًا. هل كانت

البُحيرة إلى شرقها أم غربها؟».

أغلقت مليساندرا عينيها متذكّرةً، ثم أجابت: «غربها».

- «ليست آتيةً على (طريق الملوك) إذن. فتاة ذكيّة. الحُرّاس أقل على

الجانب الآخر، والتّغطية أكثر، وثمّة بعض المنخابي التي استخدمتها عن
نفسى بين الحين...». بتر الهمجي عبارته مع صوت البوق الحربي الذي تردّد

وهبّ واقفًا، وعلّمت مليساندرا أن الصّمت المفاجئ نفسه ران على جميع
أنحاء (القلعة السوداء)، وأن كلّ رجلٍ وصبيّ التفت إلى (الجدار) يُنصت،

ينتظر. دفقة واحدة طويلة من البوق تعني عودة الجوّالة، ودفقتان...

فكّرت الرّاهبة الحمراء: أتى اليوم، وسيُصغي اللورد سنو إليّ رَغْمًا عنه

الآن.

بعد خفوت صيحة البوق النّائحة الطويلة بدا كأن الصّمت استمرّ ساعةً،

وأخيرًا بتره الهمجي بقوله: «نفخة واحدة إذن. جوّالة».

قالت مليساندرا: «جَوَّالة موتى»، ونهَضت بدورها مردفةً: «أذهب وارْتِدِ عظامك وانتظر. سأعودُ».

- «عليَّ أن أذهب معك».

- «لا تكن أبله. ما إن يجدوا ما سيجدونه سيُحْنِقهم منظر أيِّ همجي. ابقِ هنا حتى تبرد دماؤهم».

وجدت دقان يصعد سلالم (بُرج الملك) وهي نازلة بين اثنين من الحرس الذين تركهم لها ستانيس. كان الصبي يحمل الإفطار الذي نسيته تقريباً على صحيفة، وقد خاطبها قائلاً: «انتظرتُ حتى أخرج هوب الأرغفة الطازجة من الفرن يا سيديتي. ما زال الخبز ساخناً».

- «اثرُكه في مسكني». سيأكله الهمجي على الأرجح. «اللورد سنو في حاجةٍ إليَّ وراء (الجدار)». ليس يعرف هذا بعدُ، ولكن قريباً...

كان ثلج خفيف قد بدأ يتساقط بالخارج، وتجمهر بعض الغربان عند البوابة لدى وصول مليساندرا وحارسها، لكنهم أفسحوا الطريق للرَّاهبة الحمراء. سبقها حضرة القائد عبر الجليد، يصحبه باون مارش وعشرون من حاملي الجراب، وعلاوةً على هذا أرسل سنو دستةً من الرُّماة إلى قمة (الجدار) تحسباً لاختباء عدوٍّ ما في الغابة القريبة. ليس الحرس على البوابة من رجال الملكة، لكنهم سمحوا لها بالمرور رغم ذلك.

تحت الجليد برد وظلام، في الممرِّ الضيق الذي يتعرَّج عبر (الجدار). مضى مورجان أمامها بمشعل ومريل خلفها بفأس. كلا الرّجلين سَكَّير لا أمل في شفائه من داء الخمر، لكنهما مستفيقان في هذه السَّاعة من الصُّباح، وكلاهما من رجال الملكة -اسماً على الأقل- وكلاهما يخشاها إلى حدٍّ بعيد، ومريل تحديداً مرعب حين لا يكون سكران. لن تحتاج مليساندرا إليهما اليوم، إلا أنها تحرص على الاحتفاظ باثنين من الحُرَّاس حولها أينما ذهبت، ففي هذا رسالة معيَّنة. زُخرف السُّلطة.

لدى خروج ثلاثتهم شمال (الجدار) كان الثلج يَسْقُط بثبات، وغطَّى بساط ممزَّق من الأبيض الأرض الخراب الممتدَّة من (الجدار) إلى حافة (الغابة المسكونة)، وقد التفتَّ چون سنو وإخوانه السُّود حول ثلاث جِرابٍ تبعدُ عشرين ياردةً أو نحوها.

تَبْلُغُ الحِرَابُ المصنوعة من خشب الدردار الأقدام الثمانية طولاً. الموضوعه على اليسار فيها اعوجاج بسيط، لكن الأخرين ملساوان مستقيمان، وفوق كل منها رأس مقطوع. اللحي مليئة بالجليد، وكسا الثلج المتساقط الرؤوس بقلنسوات بيضاء، وحيث كانت الأعين لم يبق إلا محاجر خاوية، ثقوب سوداء دامية تنظر من أعلى باتهام صامت. سألت مليساندرا الغريبان: «من كانوا؟».

أجابها باون مارش بجمود: «چاك بولوار الأسود وهال المشعر وجارث جرايفيدر. الأرض شبه متجمدة. لا بُدَّ أن الهمج استغرقوا نصف الليل في غرس الحراب على هذا العمق. وارد أنهم ما زالوا قريبين، يُراقبوننا». قالها قيم الوكلاء وزرَّ عينيه متطلعاً إلى خط الأشجار. قال الأخ الأسود ذو الوجه الكالح: «قد يكون مئات منهم قريبين، أو آلاف».

ردَّ چون سنو: «لا. لقد تركوا هديتهم في جوف الليل ثم فرُّوا». دار الذئب الرهيب الأبيض الضخم حول الحراب متشمِّماً، ثم رفع ساقه وبأل على التي تحمل رأس چاك بولوار الأسود. «كان جوست ليشمهم لو أنهم ما زالوا في الجوار».

قال الكالح المسمي إد الكتيب: «آمل أن البكاء أحرق الجُثث، وإلا لأتت تبحث عن رؤوسها».

أطبق چون سنو على الحربة التي تحمل رأس جارث جرايفيدر واجتثها بعنف من الأرض قائلاً: «اخلعوا الآخرين»، فأسرع أربعة من الغريبان يلبون الأمر.

قال باون مارش بوجنتين محمَّرتين برداً: «ما كان يجب أن نرسل جواله إطلاقاً».

- «ليس هذا الوقت أو المكان المناسب لك ذلك الجرح. ليس هنا يا سيدي، ليس الآن»، ثم قال سنو للرجال الذين ينتزعون الحراب بصعوبة: «خذوا الرؤوس وأحرقوها. لا تتركوا إلا العظام العارية»، وعندها فقط بدا أنه لاحظ مليساندرا، فخاطبها قائلاً: «سيدي، امشي معي إذا سمحت». أخيراً، «كما يرغب حضرة القائد».

تأبّطت ذراعه إذ بدأ يمشيان تحت (الجدار)، يمضي مورجان ومريل وراءهما وجوست في أعقابهما. لم تتكلم الرّاهبة، لكنها أبطأت حركتها عمداً ليبدأ الجليد في الدّوبان مع مرورها. لن يفوته هذا.

تحت الشّبكة الحديدية لكوة دفاعٍ بترٍ چون سنو صمته كما توقّعت، وقال: «ماذا عن السنّة الآخريْن؟».

- «لم أرهم».

- «هلا بحثتِ؟».

- «بالطّبع يا سيّدي».

أخبرها چون سنو: «وصل إلينا عُداًف من السير دينس ماليستر في (بُرج الظلال). رجاله رأوا نيراناً في الجبال على الجانب البعيد من (الغور). يعتقد السير دينس أن الهمج يحتشدون، ويظنّ أنهم سيحاولون عبور (جسر الجماجم) ثانية».

- «قد يُحاول بعضهم». هل تُشير الجماجم في رؤياها إلى هذا الجسر؟ بشكل ما لا تظنّ مليساندرا ذلك. «إذا وقع ذلك الهجوم فلن يكون أكثر من تشييتٍ للانتباه. لقد رأيتُ أبراجاً على البحر، أبراجاً يُغرقها طوفان أسود دموي. هناك ستهوي الضّربة الأثقل».

- «(القلعة الشّرقيّة)؟».

أكانت هي؟ رأت مليساندرا (القلعة الشّرقيّة) على البحر مع الملك ستانيس، وهناك ترك صاحب الجلالة الملكة سيليس وابنتهما شيرين حين حشد فرسانه للزّحف على (القلعة السّوداء). كانت الأبراج في نارها مختلفة، لكن هذا هو سمت الرّؤى في أغلب الأحيان. «نعم، (القلعة الشّرقيّة) يا سيّدي».

- «متى؟».

بسّطت يديها قائلة: «غداً، خلال دورة قمر، خلال عام... وإذا تصرّفت فقد تحاشى ما رأيته بالكامل». وإلّا فما جدوى الرّؤى؟ قال سنو: «جيد».

كان عدد الغربان الواقفين عند البوّابة قد ارتفع إلى نحو أربعين لدى خروجهم من تحت (الجدار)، وتجمّع حولهم الرّجال. بعضهم مليساندرا

تعرفه اسمًا؛ الطَّاهِي هوب ذو الثلاثة أصابع، ومولي بشعره البُرْتقالي الدُّهني،
والصَّبِي بطيء الفهم المسمَّى أوين الجحش، والسِّبْتون سلا دور السكِّير.

سأل هوب ذو الثلاثة أصابع: «هل ما سمعناه صحيح يا سيدي؟».

وسأل أوين الجحش: «من؟ ليس دايوين، أليس كذلك؟».

- «ولا جارث»، قال الرَّجُل الذي تعرفه باسم ألف ابن (مجرى الطَّمي)،
أحد أول من استبدلوا ألتهم السبعة الزائفة بحقيقة راهلور. «جارث أذكى من
هؤلاء الهمج بكثير».

سأل مولي: «كم؟».

أخبرهم چون: «ثلاثة. چاك الأسود وهال المُشعر وجارث».

أطلق ألف ابن (مجرى الطَّمي) عويلاً خليقاً بايقاظ النيام في (بُرج
الظلال)، فقال چون لهوب: «ضعه في فراشٍ واسقه القليل من النَبِيذ المتبَّل».

قالت له مليساندرا بهدوء: «لورد سنو، هلا ذهبت معي إلى (بُرج الملك)؟

عندي أشياء أخرى أخبرك بها».

تطلَّع إلى وجهها لحظةً طويلةً بهاتين العينين الرَّماديتين الباردتين،
وانغلقت يده اليمنى وانفتحت وانغلقت ثانية، ثم قال: «كما تُريدين. إد، خذ

جوست إلى مسكني».

اعتبرتها علامةً وصرفت حارسها بدورها. قطعاً السَّاحة معاً، هما الاثنان
فقط، والثلج يسقط حولهما، وسارت مليساندرا على أقرب مسافةٍ تجرؤ

عليها من چون سنو، قريبة بما يكفي للشعور بسوء الظنون ينصبُّ منه كضباب
أسود. ليس يُحِبُّني ولن يُحِبُّني أبداً، لكنه سيستغلي. لا بأس. سبق أن رقصت

مليساندرا الرِّقصة نفسها مع ستانيس باراثيون في البداية. الحقيقة أن القائد
الشَّاب ومليكهيا يشتركان في أشياء كثيرة على الرغم من رفضهما الاعتراف

بهذا. كان ستانيس أحمًا أصغر يعيش في ظلِّ أخيه الكبير، مثلما احتجِبَ چون
سنو ابن الزنى وراء أخيه الشرعي، البطل القتيل الذي كانوا يدعونونه بالذئب

الصَّغير. كما أن كلا الرَّجلين غير مؤمن بطبيعته، ظنون، شكَّاك، لا يعبد من
ألهةٍ حقاً إلا الشرف والواجب.

قالت مليساندرا فيما صعدا سلالم (بُرج الملك) الملتفة: «لم تسأل عن

أختك».

- «قلتُ لكِ إن لا أخت لي. إننا نُنحِّي أهلنا جانبًا حين نحلف اليمين، ولا يُمكنني أن أساعد آريا بقدر ما...».

قطعَ كلامه إذ دخلا مسكنها. كان الهمجي هناك، جالسًا إلى منضدتها يفرد الزبدة بخنجره على قطعةٍ ممزقةٍ من الخبز الدافئ. سرَّها أنه ارتدى اللدَّرع العظميَّة، وقد استقرَّت جمجمة العملاق المكسورة التي يستخدمها كخوذةٍ على مقعد النافذة خلفه. توثَّر چون سنو، وقال: «أنت».

قال الهمجي: «لورد سنو»، وابتسمَ لهما ابتسامَةً واسعةً بفمه المليء بالأسنان البنيَّة المكسورة، والتمعت الياقوتة على معصمه في ضوء الصُّباح كنجمةٍ حمراء خافية.

- «ماذا تفعل هنا؟».

- «أفطر. يُمكنك أن تُشارِكني طعامي».

- «لن أكل معك عيشًا».

قال الهمجي: «أنت الخسران. ما زال الرَّغيف دافئًا. هوب يُجيد الخبز على الأقل»، ومزَّق لُقمةً متابعًا: «أستطيعُ أن أزورك بالسهولة نفسها سيدي. الحرس على بابك دُعابة رديئة. مَنْ تسلَّق (الجدار) عشرات المرَّات يستطيع الدُّخول من نافذةٍ ببساطة. لكن ما الجدوى من قتلِك؟ سيختار الغِربان أحدًا أسوأ لا محالة»، ومضغَ وابتلعَ، ثم أضاف: «سمعتُ بما جرى لجوالتك. كان عليك أن تُرسلني معهم».

- «كي تخونهم لصالح البكَّاء؟».

- «هل نتكلَّم عن الخيانة؟ ماذا كان اسم زوجتك الهمجيَّة يا سنو؟ إيجريت، أليس كذلك؟»، والتفت الهمجي إلى مليساندرًا قائلاً: «سأحتاجُ إلى خيول، نصف دستةٍ من الخيول القويَّة، وليس هذا شيئًا أستطيعُ أن أفعله بمفردي. ستصلُّح بعض الزَّوجات الحِراب المحتجِّزات في (بلدة المناجذ). النِّساء أفضل في هذه الحالة. أرجحيَّة أن تثقِ بهن الفتاة أكبر، وسيُساعدنني على تنفيذ حيلةٍ معيَّنة أفكَّرُ بها».

- سألها اللورد سنو: «عمَّ يتكلَّم؟».

وضعتَ مليساندرا يدها على ذراعه مجيبةً: «أختك. لست تستطيع مساعدتها، لكنه يستطيع».

انترعَ سنو ذراعه قائلاً بحدّة: «لا أظنُّ. حتى إذا غسلَ ذو القميص المُخشِخِشَ يديه مئة مرّةً يوميًّا فستظلُّ تحت أظفاره دماء. الأرجح أنه سيغضب آريا ويقتلها من أن يُقذها. لا. إن كان هذا ما رأيتَ في نارِك يا سيديتي فموكّد أن على عينيك غشاوة. إذا حاولَ أن يُغادر (القلعة السوداء) دون إذني فسأضربُ عنقه بنفسِي».

لم يتركَ لي خيارًا. ليكن. قالت: «دثان، اتركنا»، فخرجَ المُرافق وأغلقَ الباب وراءه.

ومستَ مليساندرا الياقوتة على رقبتها ولفظتَ كلمةً. تردّدت أصداء الصّوت على نحوٍ عجيبٍ من أركانِ الغرفة وتلوّت كدودة في آذانهم. سمعَ الهمجي كلمةً، وسمعَ الغرابُ أخرى، وكلتاها ليست الكلمة التي خرجتَ من بين شفثيها. انطفتَ الياقوتة على معصم الهمجي، وتمعّجت خيوط الضّوء والظّل حوله وخبّت.

ظلتَ العظام؛ الضّلع المُخشِخِشَة، والمخالب والأسنان على الذّراعين والكتفين، والرّقوة المصفرّة الكبيرة عبر كتفيه، وبقيتَ جمجمة العملاق المكسورة جمجمة عملاقٍ مكسورةٍ مصفرّة، تبتسم ابتسامتها الملوثة الشّرسة.

لكن الشّعر المسحوب ذاب، والشّارب البني، والدّقن البارز، والبشرة المصفرّة الشّاحبة، والعينين القاتمتين الصّغيرتين، وزحفتَ أصابع رماديّة عبر شّعر بنيّ طويل، وظهرت تجاعيد الضّحك عند رُكني فمه، وعلى حين غرّة أصبحَ أكبر حجمًا مما كان، وأعرض صدرًا وكتفين، وأطول قامةً وأرشق، وجهه حليق لوّحته الرّيح.

وأتسعت عينا چون سنو الرّماديتان إذ قال مشدوهاً: «مانس!؟».

ردّ مانس رايدر دون أن يبتسم: «لورد سنو».

- «لقد أحرقتك!».

- «بل أحرقت سيّد العظام».

التفتَ چون سنو إلى مليساندرا قائلاً: «ما هذه الشّعوزة؟».

- «سمّها كما تشاء؛ سحرًا، إيحاءً، وهما. راهلور إله الضياء يا چون سنو، يُخَوِّل لخدمه أن ينسجوا بالنور كما ينسج آخرون بالخيط».

قهيقة مانس رايدر، وقال: «أنا أيضًا ساورتي الشكوك يا سنو، ولكن لِمَ لا أَدْعُهَا تُجَرِّب؟ كان إمّا هذا وإمّا أن أترك ستانيس يشويني».

قالت مليساندرا: «العظام تُسَاعِد، العظام تتذكّر. أقوى السحر قائم على أشياء شبيهة؛ حذاء رجل ميت أو خُصَلَة من الشَّعر أو جراب من عظم الأصابع. بالكلمات المهموسة والصلاة من الممكن أن يُسحب ظل المرء من شيء كهذا ويُسرّبَل به امرؤ آخر كالمعطف. جوهر اللّابس لا يتغيّر، بل مظهره فقط».

جعلت الأمر يبدو بسيطًا سهلاً. لا داعي لأن يعرفا كم كان صعبًا أو كم جسّمها. إنه درس تعلّمته مليساندرا قبل (أشاي) بزم من طويل: كلّمَا بدا السحر هيئًا خاف الناس السّاحر أكثر. عندما لعقت السنة اللّهب ذا القميص المُخشِخش تَلَطَّت الياقوتة على حلّقها لدرجة أنها خشيت أن يسودّ جلدها ويخرج منه الدخان، لكن الفضل للورد سنو إذ أنقذها من هذا الألم الممض بسهامه، وبينما استشاط ستانيس غضبًا من التّحدّي ارتجفت هي الصُّعداء.

خاطبت مليساندرا چون سنو قائلةً: «ملكنا الزّائف شائك الطّباع، لكنه لن يخونك. تذكّر أن ابنه عندنا، كما أنه مدين لك بحياته ذاتها».

مندهشًا قال سنو: «أنا؟».

قالت مليساندرا: «ومن غيرك يا سيّدي؟ قوانينكم تقول إن دمائه وحدها يُمكنها أن تُكفّر عن جرائمه، وستانيس باراثيون ليس بالرجل الذي يُخالف القانون... لكن كما قلت أنت نفسك بمنتهى الحكمة، قوانين البشر تنتهي عند (الجدار). قلتُ لك إن إله الضياء سيسمع دُعاءك. لقد أردت وسيلةً لإنقاذ أختك الصّغيرة وفي الآن نفسه تتمسك بالشرف الذي يعني لك الكثير، بالقسم الذي أقسمته أمام إلهك الخشبي»، وأشارت بإصبع شاحب متابعه: «ها هو ذا أيها اللورد سنو، خلاص آريا، هديّة من إله الضياء... ومني».



ريك

سمع نباح الفتيات أولاً وهن يركُضن عائدات، ثم دفعه وقع الحوافر على البلاط إلى الهبوب ناهضاً بسرعةٍ وسلاسله تُصَلِّصِل. تلك المربوطة بين كاحليه لا تتجاوز القدم طويلاً، وهو ما يُقصرُ خطواته ويُصعبُ الحركة السريعة، لكنه حاولَ قدر الإمكان إذ نزلَ من فوق سريره الحقيقر ومشى حجلًا. لقد عادَ رامزي بولتون، وسيُريد مخلوقه ريك على مقربةٍ ليعلمه.

تحت السماء الخريفية الباردة بالخارج كان الرَّاكبون يتدفقون من البوابة. قادَ بن بونز الطَّرِيق وحوله الفتيات ينبحن ويعوين، ووراءه السِّلَاح وآلن الفظ وديمون ارفص-لي بسوطه المشحَم الطَّويل، ثم الوالدران على ظَهري المُهرين الرَّماديين اللذين تلقَّيانهما هديَّةً من الليدي داستن، أمَّا حضرة اللورد فقد امتطى دَم، الفحل الأحمر الضَّخم ذا المزاج الذي يتماشى مع مزاجه. كان يضحك، وعلى حدِّ علم ريك فقد يكون هذا جيِّدًا للغاية أو سيئًا للغاية.

قبل أن يستتج أيُّهما انقضَّت عليه الكلبات وقد اجتذبتهن رائحته. إنهن مولعات بريك، إذ ينام معهن أكثر الوقت، وأحيانًا يسمح له بن بونز بمشاركتهن عشاءً هن. انطلق القطيع على البلاط ينبح ويدور حوله ويشب ليلق وجهه المتسخ ويُعضِّص ساقيه، وأطبقت هليسننت على يده اليُسرى بأسنانها وجذبتها بشراسةٍ لدرجة أنه خشي أن يفقد إصبعين آخرين، وارتطمت چاين الحمراء بصدره بعنْفٍ مسقطه إياه على ظهره. إنها كلبة رشيقة قويَّة العضلات، في حين أن ريك جلد رمادي رخو على عظمٍ هش، مهزول أبيض الشعر.

كان الرَّاكبون يترجَّلون حين دفعَ چاين الحمراء عنه واعتدلَ على رُكبتيه

بصعوبة. دستتان من الخيالة خرجوا ودستان من الخيالة عادوا، وهو ما يعني أن البحث فشل. سيئ هذا. رامزي لا يحب مذاق الفشل. سيريد أن يؤذي أحداً.

في الفترة الأخيرة وجد سيده أن عليه أن يكبح جماح نفسه، ف(بلدة الروابي) ملأى بالرجال الذين تحتاج إليهم عائلة بولتون، ورامزي يعلم أن عليه اتخاذ الحذر في حضور آل داستن وآل ريزويل وأنداده من صغار اللوردات، وهكذا يعاملهم دومًا بدمائةٍ وابتسامة، أمّا ما يفعله وراء الأبواب المغلقة فمسألة أخرى.

يرتدي رامزي بولتون ثيابًا تليق بسيده (هورنوود) ووريث (معقل الخوف)؛ معطفه مخيط من فراء الذئب، وتُغلقه وقايةٌ من برد الخريف الأسنان المصفرة البارزة من رأس الذئب على كتفه اليميني. على أحد وركيه يُعلّق منجلًا⁽¹⁾ نصله سميك ثقيل كالسّاطور، وعلى الآخر يُعلّق خنجرًا طويلًا وسكين سلخ صغيرًا رأسه معقوف وشفرته حادة كال موسى، وللأسلحة الثلاثة مقابض متماثلة من العظم الأصفر. ناداه سيده من فوق سرج دمّ العالي قائلاً: «رائحتك بشعة يا ريك. يُمكنني أن أشمّها عبر السّاحة بوضوح».

ردّ ريك مضطرباً: «أعرف يا سيدي. أستمحك العذر».

قال رامزي: «جلبتُ لك هديّة»، والتوى ومدّ يده وراه وأخرج شيئاً من جراب سرجه، ثم ألقاه مردفاً: «القف!».

جعلت السّلاسل والأصفاذ والأصابع المفقودة ريك أكثر خرقاً مما كان قبل أن يتعلّم اسمه، فارتطم الرأس بيديه المشوهتين وارتدّ عن جدعات أصابعه وسقط عند قدميه ممطراً البرقات، وقد غطّته الدماء الجافة تماماً جاعلةً تمييز الملامح مستحيلاً.

قال رامزي: «قلتُ لك أن تتلقّفه. التقطه».

حاول ريك أن يرفع الرأس من أذنه لكنه لم يُفلح، فاللحم أخضر متعفن، وتمزّقت الأذن بين أصابعه. ضحك والدر الصّغير، وبعد لحظة انضمّ إليه

(1) المنجلُ سيف معقوف عريض النّصل، وكان أحد السّيوف التي يستخدمها المغول. (المترجم).

الآخرون في الضحك، وقال رامزي: «أوه، دعه. اعتن بدم فقط. لقد أجهدتُ
الوغد بشدة».

ردَّ ريك: «حاضر يا سيدي، سأفعل»، وهرعَ إلى الحصان تاركًا الرأس
المبتور للكلبات.

قال رامزي: «رائحتك كخراء الخنازير اليوم يا ريك».

قال ديمون أرقص -لي وهو يلفُّ سوطه: «بالنسبة إليه هذا تطور».

ترجَّل والدر الصَّغير قائلاً: «اعتن بحصاني أيضًا يا ريك، وبحصان ابن
عمِّي الصَّغير».

قال والدر الكبير: «أستطيعُ العناية بحصاني بنفسي». أصبح والدر الصَّغير
صبيَّ اللورد رامزي المفضل، وكلُّ يوم يتمثل به أكثر، لكن فراي الآخر
الأصغر حجمًا من معدنٍ مختلف، ونادرًا ما يُشارك في ألعاب ابن عمِّه
وأفعاله القاسية.

لم يُعر ريك المُرافقين انتباهًا وقادَ دم إلى الاسطبلات، ووثبَ جانبًا حين حاولَ
الفحل الأحمر أن يرفُسه، فيما توجه الصيَّادون إلى القاعة، جميعهم باستثناء بن
بونز الذي راح يشتم الكلبات ليمنعهن من الشَّجار على الرأس المقطوع.
تبعه والدر الكبير إلى الاسطبلات قائداً حصانه بنفسه، واختلس ريك
النَّظر إليه وهو يخلع حديدة لجام دم، وتساءل بخفوتٍ كي لا يسمعه العُمَّال
الآخرون: «من كان؟».

أجاب والدر الكبير وهو يخلع السَّرج عن مُهره الرَّمادي: «لا أحد، مجرد
رجل عجوز قابلناه على الطَّريق. كان يسوق معزاةً عجوزًا وأربعة جِديان».

- «حضرة اللورد قتله من أجل الماشية؟».

- «حضرة اللورد قتله لأنه دعاه باللورد سنو. لكن الماشية كانت طيبة
المذاق. حلينا المعزاة وشوينا الجِديان».

اللورد سنو. أوماً ريك برأسه فيما حلَّ أحزمة سرج دم بصعوبة. بأيِّ اسم
ليس رامزي رجلاً يُريد المرء أن يكون في حضرته وهو غاضب... أو وهو
هادئ. «هل عثرت على أبناء عمومك يا سيدي؟».

- «لا. لم أحسب قط أننا سنجدهم. لقد ماتوا. اللورد وايمان أمر بقتلهم.
هذا ما كنتُ لأفعله لو أني في مكانه».

لم يُعلّق ريك. ثَمّة أشياء معيّنة ليس قولها مأمونًا، حتى هنا في الاسطبل وفي وجود حضرة اللورد في القاعة. كلمة واحدة خطأ من شأنها أن تُكلّفه إصبع قدم آخر، أو إصبع يد. ولكن ليس لساني. لن يقطع لساني أبدًا. إنه يحبُّ أن يسمعني أتوسّل إليه أن يعينني من الألم، يحبُّ أن يجعلني أقولها. أمضى الرّاكبون ستّة عشر يومًا في الصّيد، وباستثناء جدي مسروق من هنا أو هناك لم يأكلوا إلاّ الخبز الجامد واللّحم البقري المملّح، وهكذا أمر اللورد رامزي ليلتها بإقامة مأدبة احتفالًا بعودته إلى (بلدة الرّوايي). كان مضيفهم، اللورد الصّغير المسنُّ ذو الدّراع الواحدة المسمّى هاروود ستاوت، أعقل من أن يرفُض، ولو أن من المؤكّد أن مؤنه على وشك النّفاد، وقد سمع ريك بالفعل خدم ستاوت يُهمهمون أن النّغل ورجاله يستهلكون مؤن الشّتاء، وفي مرّة قالت طاهية ستاوت بتدبّر غير مدركة أن ريك يسمعها: «يقولون إنه سيضّاجع ابنة اللورد إدارد، لكننا نحن من سننّك حين تبدأ الثلوج في السّقوط. سترون أنني محقّة».

لكن اللورد رامزي أمر بمأدبة، ولا مناص من إقامتها، فُنصبت الموائد في قاعة ستاوت، ودُيخ ثور، وليلتها مع غروب الشّمس أكل الصيّادون الذين عادوا خاليي الوفاض اللّحم المشوي والضّلوع وخبز الشّعير وهريس الجزر والبازلاء، وشربوا مع كلّ هذا كمّيّات هائلة من المِزر.

كُلّف والدر الصّغير بالحفاظ على امتلاء كأس اللورد رامزي، في حين صبّ والدر الكبير الشّراب للأخريين على المائدة العالية، وقبّد ريك بالسّلاسل عند الباب بعيدًا عن المحتفلين كي لا تُفقدهم رائحته شهيتهم. سيأكل لاحقًا من البقايا التي يُرسلها إليه اللورد رامزي. أمّا الكلبات فقد استمتعن بالحركة الطليقة في القاعة، وكن أفضل مصدرٍ للتّسلية خلال اللّيلة، حين هاجمت مود وچاين الشّهباء أحد كلاب صيد اللورد ستاوت بسبب عظمةٍ عليها قدر أكثر من المعتاد من اللّحم ألقاها ويل شورت. كان ريك الرّجل الوحيد في القاعة الذي لم يُشاهد شجار الكلاب الثلاثة، إذ أبقى ناظره على رامزي بولتون.

لم ينته القتال حتى مات كلب مضيفهم. لم يكن كلب صيد ستاوت العجوز يملك فرصةً في الفوز على الإطلاق. كان واحدًا ضد اثنتين، وكلبات رامزي صغيرات قويّات ضاربات. سبق أن قال بن بونز -الذي يحبُّ الكلبات

أكثر من سيدهن نفسه - لريك إنهن يحملن جميعاً أسماء فتيات فلاحات اصطادهن رامزي واغتصبهن وقتلهن عندما كان نغلاً يُصاحب ريك الأول. «من سلبه كفاية على الأفل. اللاتي يبكين ويتوسلن ويرفضن الجري لا يعدن ككلبات». لا يشك ريك في أن مجموعة الجراء الجديدة التي ستولد في أوجرة (معقل الخوف) ستضم واحدة اسمها كايرا. أخبره بن بونز: «لقد درّبها على قتل الذئاب أيضاً»، ولم يعلّق ريك، فهو يعلم أيّ ذئاب المفترض أن تقتلها الفتيات، لكنه لا يرغب في مشاهدة الكلبات يتساجرن على إصبع قدمه المبتور.

كان خادمان يحملان جثة الكلب النافق، وجلبت امرأة عجوز ممسحة ومدمة ودلوا لتنظيف الحصائر الغارقة بالدم، حين انفتحت باب القاعة فجأة لتندفق الريح إلى الداخل، وتقدّمت دسته من الرجال مرتدي حلقات المعدن الرمادية والخوذ القصيرة الحديد، مارين بحرس ستاوت الشبان بوجوههم الشاحبة وستراتهم الجلد ومعاطفهم بلونها الذهبي والخمري. خيم صمت مبالغ على المحفلين... جميعهم باستثناء اللورد رامزي، الذي ألقى العظمة التي كانت في فمه جانباً ومسح فمه بكفه ورسم على شفثيه المبتلّتين ابتسامة لزجة، وقال: «أبت».

بفتور رمق سيّد (معقل الخوف) بقايا الوليمة والكلب الميت والمنسوجات المعلّقة على الجدران وريك بسلاسله وأغلاله، ثم قال للمحتفلين بنبرة ناعمة كالهمس: «اخرّجوا، الآن، جميعكم».

نهض رجال اللورد رامزي متخليين عن أكوابهم وأطباقهم، وزعق بن بونز في الفتيات فذهبن في أعقابهن وبين فكوك بعضهن عظام، وانحنى هاروود ستاوت بجمودٍ وتنازل عن قاعته دون كلمة واجدة.

دمدم رامزي لآلن اللفظ: «حلّ وثاق ريك وخذه معك»، إلا أن أباه لوّح بيده الشاحبة قائلاً: «لا، اترّكه».

انسحب رجال اللورد روكس أنفسهم مغلقين الباب وراءهم، ولما تلاشى وقع أقدامهم وجد ريك نفسه وحده في القاعة مع الأب والابن بولتون.

- «لم تَعثر على أبناء فراي المفقودين». قالها روكس بولتون بلهجة الإقرار لا السؤال.

- «ركبنا حتى البُقعة التي يدعى اللورد شلق أنهم افرقوا عندها، لكن الفتيات لم يجدن أثرًا لهم».

- «وسألت عنهم في القرى والمعازل».

قال رامزي: «مضيعة للكلام. هؤلاء الفلاحون لا يرون شيئاً أبداً، كأنهم عميان»، وهزَّ كتفيه مضيئاً: «وهل يهْمُ هذا؟ لن يفتقد العالم بضعة رجالٍ من آل فراي. هناك المزيد منهم في (التوأمتين) في حال احتياجنا إلي أحدهم».

مَرَّق اللورد رووس قطعةً صغيرةً من رغيف خُبزٍ وأكلها قائلاً: «هوستين وإينس مغتَمَّان».

- «فليذهبا ويبحثا إذا أرادا».

- «اللورد وايمان يلوم نفسه. حسب كلامه فقد أصبح مغرماً بريجار تحديداً».

بدأ اللورد رامزي يغضب، ورأى ريك هذا في فمه، في التواءة هاتين الشفتين ونفور الأوتار في عنقه. «كان يجدر بالحمقى البقاء مع ماندرلي».

هزَّ رووس بولتون كتفيه، وقال: «نقالة اللورد وايمان يتحرك بمهنتي البُطء... وبالطبع لا تُتيح صحّة حضرة اللورد وحجمه أن يتحرك أكثر من ساعاتٍ قليلة في اليوم، كما أنه يتوقف باستمرارٍ لتناول وجباته. كان أبناء فراي يتوقون إلى بلوغ (بلدة الروابي) واجتماع شملهم بأقربائهم. هل يُمكنك أن تلومهم على سبق الآخرين؟».

- «إذا كان ذلك ما فعلوه حقاً. هل تُصدّق ماندرلي؟».

التمعت عينا أبيه الباهتتان، وأجابته: «هل أعطيتك هذا الانطباع؟ على كلّ حال، حضرة اللورد مهموم للغاية».

- «ليس مهموماً لدرجة الامتناع عن الطعام. لا بُدَّ أن اللورد خنزير جلب معه نصف ما في (الميناء الأبيض) من طعام».

- «أربعون عربةً من الأطعمة. براميل من النّبذ والهيوكراس⁽¹⁾، وبراميل من سمك الشُّلق الطَّازج، وقطيع من الماعز، ومئة خنزير، وصناديق من

(1) الهيوكراس مشروب صحّي يعُدُّ من النّبذ المخلوط بالسُّكَّر والتَّوابل، وعادةً ما يتضمَّن القرفة، ابتكره أبقرات وسمِّي نسبةً إليه. (المُترجم).

السَّرطان والمحار، وسمكة قُد عملاقة... اللورد وايمان يحبُّ الأكل. ربما لاحظت هذا».

- «ما لاحظته أنه لم يجلب رهائن».

- «لاحظتُ هذا أيضًا».

- «وماذا تنوي أن تفعل؟».

قال اللورد رووس: «إنها ورطة»، ووجد كوبًا خاليًا ومسحَه بمفرش المائدة وملاه من إبريقٍ مردفًا: «ليس ماندرلي الوحيد الذي يُقيم المآدب على ما يبدو».

ردَّ رامزي بتبرُّم: «كان ينبغي أن تُقيم أنت المأدبة ترحيبًا بعودتي، وكان ينبغي أن تكون في (بهو الرّواي) لا في هذه القلعة الشَّبهة بالمبولة». قال أبوه بكياسة: «(بهو الرّواي) ومطابخها ليست ملكي لأتصرّف فيها. إنني مجرد ضيفٍ هناك. القلعة والبلدة تنتميان إلى الليدي داستن، وهي لا تطيقك».

اربدَّ وجه رامزي إذ قال: «إذا قطعتُ ثديها وأطعمتها لفتياتي فهل ستطيقني؟ هل ستطيقني إذا جرّدتها من جلدِها لأصنع لنفسني حذاءً؟». قال رووس بولتون: «غير وارد، وستدفع في هذا الحذاء ثمنًا باهظًا. سيكلّفنا (بلدة الرّواي) وعائلة داستن وعائلة ريزويل»، وجلس إلى المائدة قباله ابنه متابعًا: «باربري داستن أخت زوجتي الثانية الصَّغيرة، وابنة رودريك ريزويل وأخت روچر وريكارد وسميَّ رووس، وابنة عمومة آل ريزويل الآخرين. كانت مولعةً بابني الرّاحل، وتشكُّ في أنك لعبت دورًا في موته. الليدي باربري امرأة تعرف كيف تُغذِّي ضغائنِها، وحرِيَّ بك أن تمتنَّ لهذا. السَّبب الأكبر في وفاء (بلدة الرّواي) لعائلة بولتون أنها ما زالت تلوم ند ستارك على موت زوجها».

قال رامزي وقد اشتعل غضبه: «وفاء؟! إنها تبصق عليَّ فحسب. سيأتي يوم أوقد فيه النّار في بلدتها الخشبيّة الغالية. فلتبصق عليها حينئذٍ ولنر إن كانت تستطيع إخماد الحريق».

لاح الامتعاض عليَّ رووس كأن المِزر الذي يشربه فسد فجأةً، وقال: «أحيانًا تجعلني أتساءل إن كنت من صُلبي حقًا. أسلافي كانت عيوبهم

كثيرةً، لكنهم لم يكونوا حمقى فَطُّ. لا، صمتًا، لقد سمعتُ ما يكفي. إننا نبدو أقوياء في الوقت الحالي، نعم، ولنا أصدقاء قديرون في آل لانستر وآل فراي، ونحظى بدعم الشَّمال على مضض... لكن ما الذي تحسبه سيحدث عندما يظهر أحد أبناء ند ستارك؟».

فكَّر ريك: أبناء ند ستارك ماتوا جميعًا. روب اغتيلَ في (التَّوأمَتين)، وبران وريكون... غمسننا رأسيهما في القطران... كان رأسه يدق. لا يُريد أن يُفكَّر في أيِّ شيءٍ حدثَ قبل أن يتعلَّم اسمه. ثَمَّة أشياء أكثر إيلامًا من أن يتذكَّرها، أفكار تُداني سكين سلخ رامزي في الوجع...

صبَّ رامزي المزيد من المِزر في كأسه قائلاً: «ذُبا ستارك الصَّغيران ماتا، وسيبقيان ميتين. فليُريا وجهيهما القبيحين وسُتمزَّق فتيتاي ذئبيهما أشلاءً. متى ظهرا سأقتلهما ثانيةً».

تنهَّد بولتون الكبير، وقال: «ثانية؟ مؤكَّد أنك أسأت التَّعبير. إنك لم تقتل ابني اللورد إدارد، هذين الصَّبيَّين العزيزين اللذين أحببناهما جميعًا. ثيون المارق هو من فعلها، أتذكَّر؟ كم من أصدقائنا المكرَّهين تخالنا سنحتفظ به إذا عرَّفت الحقيقة؟ فقط الليدي باربي التي تُريد أن تصنع منها حذاءً... حذاءً رديئًا. جلد الإنسان ليس بمتانة جلد الأبقار، وليس مريحًا مثله. أنت بولتون الآن بمرسوم ملكي، فحاول أن تتصرَّف على هذا الأساس. ثَمَّة حكايات تُحكى عنك يا رامزي، أسمعها في كلِّ مكان».

- «جيد».

- «أنت مخطئ. ليس جيدًا. لا حكايات تُحكى عني أبدًا. أنتحسبني كنت لأجلس هنا الآن لو كان الأمر غير ذلك؟ تسليتك تخصُّك، ولن أوبِّخك بشأنها، لكن عليك أن تتوخَّى التَّحفظ. أرض مسالمة وشعب هادئ. لطالما كانت هذه قاعدتي. اجعلها قاعدتك».

- «ألهدا تركت الليدي داستن وزوجتك الخنزيرة البدينة؟ لتأتي هنا وتقول لي أن أُلزم الهدوء؟».

- «إطلاقًا. هناك أخبار عليك أن تسمعها. اللورد ستانيس ترك (الجدار) أخيرًا».

دفعَ قوله رامزي إلى النهوض بابتسامية على شفثيه العريضتين المبتلّتين،
وسألَ أباه: «هل يزحف على (معقل الخوف)؟».

- «لا للأسف. آرنولف لا يفهم، ويُقسِم أنه بذلَ كلَّ ما بوسعه كي يتتلع
ستانيس الطُّعم».

- «أشكُّ في ذلك. إذا خدشت كارستارك فستجد ستارك».

- «لم يعد هذا صحيحًا كما كان قبل أن يخدش الذئب الصَّغير اللورد
ريكارد. على كلِّ حال، اللورد ستانيس أخذَ (ربوة الغابة) من الحديديين
وأعادها إلى عائلة جلوفر. الأدهى أن عشائر الجبال انضمت إليه، وول
ونوري وليدل والبقية. قوّته تنمو».

- «قوّتنا أكبر».

- «حاليًا».

- «الآن الوقت المناسب لدحره. دعني أزحف إلى (ربوة الغابة)».

- «بعد زفافك».

هوى رامزي بكأسه على المائدة لتُغرق ثُمالة شرابه المفرش، وقال:
«سممتُ الانتظار. إن عندنا فناةٌ وعندنا شجرةٌ وعندنا لوردات كافين للشهادة.
سأتزوَّجها غدًا وأزرعُ ابنًا بين ساقِها وأرحلُ قبل أن يجفَّ دم بكارتها».

فكَّر ريك: ستُصلي الفتاة أن ترحل ولا تعود إلى فراشها أبدًا.

قال رويس بولتون: «ستزرع ابنًا في بطنها، ولكن ليس هنا. لقد قرَّرتُ أن
تُزفَّ إليك الفتاة في (وينترفل)».

بدا أن الفكرة لم تُرضِ اللورد رامزي الذي قال: «لقد خربتُ (وينترفل)
تخريبًا، أم أنك نسيت؟».

- «لا، لكن يبدو أنك أنت من نسي... الحديدِيُّون هم الذين خربوا
(وينترفل) وقتلوا أهلها، ثيون المارق».

رمقَ رامزي ريك بارتيا ب، ثم قال: «نعم، هو من فعلها، ولكن... زفاف
في تلك الأطلال؟».

- «حتى بعد خرابها وانكسارها تظلُّ (وينترفل) دار الليدي آريا. هل من
مكانٍ أفضل للزواج بها ومضاجعتها ووضع ركيذة قويَّة لدعواك؟ لكن هذا
نصف المسألة لا أكثر. سنكون حمقى إذا زحفنا على ستانيس. فليزحف ستانيس

علينا. إنه أشدُّ حذرًا من أن يأتي إليّ (بلدة الرّوابي)... لكن لا مفرّ من ذهابه إليّ (وينترفل). رجال العشائر لن يتخلوا عن ابنة عزيزهم نذل شخصٍ مثلك، أي أن على ستانيس أن يزحف وإلا خسروهم... ولأنه قائد حذر فسيستدعي جميع أصدقائه وحلفائه حين يزحف، سيستدعي آرنولف كارستارك».

لعوّ رامزي شفّتيه المشقّقتين قائلاً: «وعندها سننال منه». قال رووس: «إذا شاءت الآلهة»، ونهض مردفاً: «سيُعقد قرانك في (وينترفل). سأخبر اللوردات بأننا ستتحرك خلال ثلاثة أيام وأدعوهم لاصطحابنا».

- «أنت حاكم الشّمال. مُرهم».

- «الدّعوة ستحقّق الشّيء ذاته. مذاق السّلطة أطيب حين تُحلّى بالكياسة. خيرٌ لك أن تتعلّم هذا إذا كنت تأمل أن تحكّم يوماً»، ورمق سيّد (معقل الخوف) ريك مضيئاً: «أوه، وحلّ وثاق حيوانك المدلّل. سأخذه».

- «تأخذه؟ إلى أين؟ إنه ملكي. لا يُمكنك أن تأخذه».

بدا أن رووس وجد الرّدّ طريفاً، وقال: «كلُّ ما تملكه أعطيتك إياه. من صالحك أن تتذكّر هذا أيها النّعل. وبالنّسبة إلى... ريك هذا... إذا لم تكن قد دمّرتة بلا رجعة فقد يكون ذا نفع لنا. أحضِر المفاتيح واخلع سلاسله قبل أن تجعلني أندم على اليوم الذي اغتصبتُ فيه أمّك».

رأى ريك كيف التوى فم رامزي والتمع اللّعباب بين شفّتيه، وخشي أن يقفز من فوق المائدة رافعاً خنجره، لكن بدلاً من ذلك احتقن وجهه وغصّ عينيه الشّاحبتين عن عينيّ أبيه الأكثر شحوباً وذهب يُحضِر المفاتيح. غير أنه حين انحنى يحلّ الأصفاد حول معصميّ ريك وكاحليه مألّ عليه وهمس: «لا تُخبره بشيءٍ وتذكّر كلّ كلمةٍ يقولها. سأستعيدك مهما قالت لك زوجة داستن الحقيرة. من أنت؟».

- «ريك يا سيّدي، رجلك، أنا ريك، على قافية شريك».

- «نعم. حين يُعيدك أبي سأخذُ إصبعاً آخر. سأتركك تختاره».

رغمًا عنه بدأت الدّموع تسيل على وجنتيه، وصاح بصوتٍ منكسرٍ: «لماذا؟! لم أطلب منه أن يأخذني منك. سأفعلُ كلَّ ما تُريده، سأخدمُ وأطيع... إنني... أرجوك، لا...».

لطمه رامزي على وجهه، وقال لأبيه: «خُذه. إنه ليس رجلاً حتى. رائحته تُقْرِفني».

كان القمر يرتفع فوق أسوار (بلدة الرّوابي) الخشبيّة حين خرجا، وسمع ريك الرّيح تكس السّهول المائجة وراء البلدة. المسافة أقل من ميل بين (بهو الرّوابي) وقلعة هاروود ستاوت المتواضعة عند البوّابة الشّرقية. قدّم إليه اللورد بولتون حصاناً متسائلاً: «هل يُمكنك الرّكوب؟».

- «أنا... سيّدي، إنني... أظنُّ هذا».

- «والتون، ساعده على الرّكوب».

حتى بعد خلع أغلاله تحرّك ريك كرجل عجوز. جلده رخو على عظمه، ويقول ألن الفظ وبن بونز إنه يختلج، كما أنّ رائحته... حتى الفرس التي جلبوها له نكصت منه حين حاول امتطاءها.

على أنها فرس طيبة، وتعرف الطّريق إلى (بهو الرّوابي). لحقّ به اللورد بولتون إذ خرجا من البوّابة، وتراجع الحُرّاس وراءهما محافظين على مسافة مناسبة. سأله اللورد إذ خبّأ عبر شوارع (بلدة الرّوابي) المستقيمة العريضة: «بأيّ اسم تُريدني أن أدعوك؟».

ريك، أنا ريك، على قافية أُرديك. «ريك، بعد إذن سيّدي».

- «سيّدي». قالها بولتون وافتقرت شفتاه كاشفتين عن رُبع بوصة لا أكثر من أسنانه في ما قد يكون ابتساماً.

لم يفهم ريك، وقال: «سيّدي؟ قلتُ...».

- «قلتُ: «سيّدي» فيما كان عليك أن تقول «سيّدي». لسانك يشي بميلادك مع كلّ كلمة تقولها. إذا أردت أن تتكلّم كفلّاح حقيقي فقلها كأن في فمك طيناً أو كأنك أغبي من أن تنطقها نطقاً صحيحاً».

- «كما يأمر... سيّدي».

- «هذا أفضل. رائحتك شنيعة حقاً».

- «نعم يا سيّدي. أرجو المغفرة يا سيّدي».

- «لماذا؟ رائحتك من صنّع ابني لا صنّعك. أعني هذا جيّداً». مرّاً باسطبل وخانٍ مغلق النوافذ على لافتته سُنبله قمح، وسمع ريك موسيقى آتية من الدّاخل. «لقد عرفْتُ ريك الأول. كانت رائحته فظيعة، ولو أنّ السّبب لم

يكن الحاجة إلى الاستحمام. الحقيقة أنني لم أعرف مخلوقاً أنظف منه قطُّ. اعتادَ أن يستحمَّ ثلاث مرَّاتٍ يومياً ويضع الزُّهور في شعره كالفتيات، وذات مرَّة، حين كانت زوجتي الثانية على قيد الحياة، ضُبطَ يسرق العطر من عُرفة نومها، فأمرتُ بمعاقبته باثنتي عشرة جلدَةً. رائحة دمه نفسها كانت سيئةً. في العام التَّالي حاولَ ثانيةً، وتلك المرَّة شربَ العطر وكاد يموت. لم يصنع هذا فرقا، فقد وُلِدَ بتلك الرَّائحة. قال العموم إنها لعنة، إن الآلهة خلقتَه برائحته التَّنينة كي يعرف النَّاس أن روحه تتعفن. أكَّد مايستري القديم أنها دلالة على مرض، لكن باستثناء هذا كان الفتى قوياً كثوَرٍ شاب. لم يكن أحد يطيق البقاء على مقربةٍ منه، فكان ينام مع الخنازير... إلى أن أتى اليوم الذي ظهرت فيه أمُّ رامزي على بابي مطالبةً بأن أزودَّ نغلي بخادم لأنه أصبحَ مشاغباً عنيفاً، فأعطيتها ريك. كان المفترض أن يكون الأمر طريفاً، لكن علاقةً وطيدةً نشأت بينه وبين رامزي. على أنني أتساءل... هل أفسدَ رامزي ريك أم أفسدَ ريك رامزي؟»، وحَدِّجَ حضرة اللورد ريك الجديد بعينين شاحبتين غريبتين كقمرين أبيضين، وسأله: «بِمَ همسَ لك حين حلَّ سلاسلك؟».

- «قال... قال...». قال ألا أخبرك بشيء. احتبست الكلمات في حلقة، وبدأ يسأل ويختنق.

قال بولتون: «خذ نفساً عميقاً. أعرف ما قاله. ستتجنَّس عليّ وتحفظ أسرار»، وقهقهة مواصلاً: «كأن له أسراراً. أكن الفظ ولوتون والسلاخ والآخرين، من أين يحسبهم أتوا؟ أيصدِّق حقاً أنهم رجاله هو؟».

بدا لريك أن اللورد ينتظر منه تعليقا ما، لكنه لم يدرِ ماذا يقول، فردَّد: «رجاله».

- «هل حكى لك نغلي كيف أنجبتَه؟».

أراحه أن عرفَ إجابة هذا السُّؤال، وقال: «نعم ياس... سيدي. التقيت أمه في أثناء رحلة ركوب وفتنك جَمالها».

ضحك بولتون قائلاً: «فتنني؟ هل استخدمت هذه الكلمة؟ يبدو أن الفتى يتمتَّع بروح مغنٍ... لكن إذا كنت تُصدِّق هذه الأغنية فأنت أغبي كثيرًا من ريك الأول. حتى الجزء الخاص بالركوب خطأ. كنتُ أصطادُ ثعلبًا على ضفاف (النَّهر الباكي) حين صادفتُ طاحونةً ورأيتُ امرأةً شابَّةً تغسل

الملابس في الماء. كان الطحَّان العجوز قد اتَّخذ لنفسه زوجةً جديدةً، فتاةً لا تَبْلُغُ نِصْفَ سِنِّه. كانت مخلوقةً فارعةً هيفاءً، وتبدو في صحَّةٍ ممتازة، ساقاها طويلتان وتدياها صغيران بضَّان كبرقوتين ناضجتين، جميلة جمال نسوة العوام. لحظة أن وقع عليها بصري رغبتُ فيها، وكان هذا حقِّي. سيقول لك المايسترات إن الملك جهيرس أبطلَّ حقَّ اللورد في اللَّيلة الأولى إرضاءً لمملكته المتطولة، لكن حيث تَحْكُمُ الآلهة القديمة يبقى التَّقْلِيدُ القديم. ما زال آل أومبر يُمارسون حقَّ اللَّيلة الأولى مهما أنكَروا هذا، وبعض عشائر الجبال أيضًا، وفي (سكاجوس)... وحدها أشجار القلوب ترى نِصْفَ ما يفعلونه في (سكاجوس). عَقِدَ قران الطحَّان دون إذني أو معرفتي، أي أن الرَّجُل غشني، وهكذا أمرتُ بشنقه وأخذتُ حقِّي تحت الشَّجرة التي تدلِّي منها. الحقيقة أن قيمة الفتاة كانت أدنى من الجبل، وهربَ الثعلب أيضًا، وفي طريق العودة إلى (معقل الخوف) كُسِرَت قائمة حصاني المفضَّل، فكان يومًا سيئًا إجمالًا. بعد عام تمتَّعت الفتاة بنفسها بالسَّلاطة الكافية للمجيء إلى (معقل الخوف) بوَحشٍ صَغيرٍ صارخ أحمر الوجه، وقالت إنه ابني. كان حريًّا بي أن أمر بجلد الأم وإلقاء الصَّغير في بئر... لكنني رأيتُ أن له عيني بالفعل. أخبرتني بأن شقيق زوجها الميت رأى هاتين العينين فضربها حتى أدماها وطردها من الطَّاحونة. ضايقتني هذا، فأعطيتها الطَّاحونة وأمرتُ بقطع لسان الأخ كي أضمن ألا يهرع إلى (ويترفل) بحكاياتٍ قد تُزعج اللورد ريكارد. كلَّ عام اعتدتُ أن أرسل إلى المرأة بعض الخنازير الصَّغيرة والدَّجاج وُصْرَةً من النُّجوم النُّحاسية، بشرط ألا تُخبر الولد بهويَّة أبيه الحقيقي أبدًا. أرض مسالمة وشعب هادئ. لطالما كانت هذه قاعدتي».

- «قاعدة موفَّقة يا سيدي».

- «لكن المرأة عصتني. إنك ترى رامزي. إنه صنيعتها، هي وريك. كانا يهمسان في أذنيه دائمًا بكلام عن حقوقه، ولكن كان عليه أن يقنع بطحن الدُّرة. هل يحسب حقًا أنه يستطيع أن يحكمُ الشَّمال؟».

اندفع ريك يقول: «إنه يُقاتل من أجلك. إنه قوي».

- «الثيران قويَّة، والدُّببة. لقد رأيتُ نغلي يُقاتل. ليس اللوم عليه بالكامل».

ريك كان معلّمه، ريك الأول، وريك لم يتمرن على السّلاح قطّ. رامزي شرس، أعترف بهذا، لكنه يضرب بالسيف كجزّارٍ يُقطع اللحم».

- «إنه لا يخاف أحدًا يا سيدي».

- «يجدرّ به أن يخاف. الخوف هو ما يبقي المرء حيًّا في عالم الخيانة والخداع هذا. حتى هنا في (بلدة الرّواي) تدور الغربان منتظرةً أن تلتهم وليمةً من لحمنا. آل سروين وآل تولهارت لا يُعتمد عليهم، وصديقي البدن اللورد وايمان يكيد لي، وباقرٍ العاهرة... قد يبدو آل أومبر بُسطاء، لكنهم لا يفنقرون إلى نوع معيّن من اللؤم. المفترّض أن يخافهم رامزي جميعًا مثلما أخافهم. أخبره بهذا عندنا تراه المرّة القادمة».

- «أخبره... أخبره بأن يخاف؟». أشعرت الفكرة المحضة ريك بالغثيان.

«سيدي، إنني... إذا فعلت ذلك فس...».

زفر اللورد بولتون قائلاً: «أعرف. إن دمائه ملوّثة، ويحتاج إلى أن يُعلّق له العلق⁽¹⁾. العلقات تمتصّ الدماء الملوّثة وكلّ الغضب والألم. لا أحد يقوى على التّفكير القويم وهو مفعم بالغضب. أمّا رامزي... أخشى أن دمائه الملوّثة ستسّم العلق نفسه».

- «إنه ابنك الوحيد».

- «في الوقت الرّاهن. كان لي ابن آخر من قبل، دومريك. كان ولدًا هادئًا لكن متفوقًا لأقصى حد، خدم كوصيف عند الليدي داستن أربعة أعوام، ثم أمضى ثلاثة أعوام في (الوادي) كمُرافق اللورد ردفورت. كان يعزف على القيثارة السّامية⁽²⁾ وقرأ التّاريخ ويركب الخيل بسرعة الرّيح. الخيل... كان الولد مجنونًا بها كما ستخبرك الليدي داستن. ابنة اللورد ريكارد نفسها لم تستطع قطّ أن تسبقه، وقد كانت هي نفسها نصف حصان. قال ردفورت إن إنجازاته في مضمار النّزال تُبشّر بمستقبلٍ واعد. على المُنازل العظيم أن يكون خيالًا عظيمًا أولًا».

(1) العلقات كائنات طفيلية تُشبه الديدان وتمتصّ الدماء، وبدأ استخدامها قبل ألفي عام بغرض تطهير الجسد من الدّم الفاسد بعملية كانت تُعرف بتعليق العلق، بالإضافة إلى الحفاظ على الدّم من التّجلط في أثناء الجراحة. (المترجم).

(2) القيثارة السّامية آلة موسيقية من خيال المؤلّف. (المترجم).

- «نعم يا سيدي. دومريك، لقد... لقد سمعتُ اسمه...».

- «رامزي قتلَه. المايستر أو ثور يقول إنه كان داءً في الأمعاء، لكنني أقولُ إنه السُّم. في (الوادِي) استمتعَ دومريك برفقة أبناء ردفورت. أرادَ أخوا إلى جانبه، فركبَ على ضفة (النَّهر الباكي) سعيًا إلى نغلي. نهيته، لكن دومريك كان رجلًا بالغًا يحسب أنه أعقل من أبيه، والآن يرقُد رُفاته تحت (معقل الخوف) إلى جوار إخوته الذين ماتوا في المهده، ولم يتبقَّ لي إلا رامزي. أخبرني يا سيدي... إذا كان قاتل الأقربين ملعونًا، فماذا يفعل الأب حين يقتل أحد أبنائه أخاه؟».

أرعبه السُّؤال. لقد سمعَ السِّلَاحَ مرَّةً يقول إن النعلَ قتلَ أخاه الشَّرعي، لكنه لم يجسُرَ على تصديقه. قد يكون مخطئًا. الإخوة يموتون أحيانًا، ولا يعني هذا بالضرورة أنهم قُتلوا. أخواي ماتا ولم أقتلها. «لسيدي زوجة جديدة تمنحه أبناءً».

- «ولكم سيحبُّ نغلي هذا. الليدي والدا من آل فراي، ويبدو أنها تتمتع بالخصوبة. لقد أصبحتُ مولعًا على نحوٍ غريبٍ بزوجتي الصَّغيرة البدينة. الاثنان الأخريان لم تُصدرا صوتًا في الفراش قط، لكن هذه تصرُخ وترتجف، وهو ما أجده حميميًا للغاية. إذا أنجبتَ الأبناء كما تلتهم الكعك فقريبًا ستمتلي (معقل الخوف) بأبناء بولتون الصَّغار. سيقتلهم رامزي جميعًا بالطبع، وهذا خير، فلن أعيش حتى أشهد بلوغَ أبنائي الجُدُد مبلغ الرجال، واللوردات الصَّغار آفة عائلي، لكن والدا ستحزن لرؤيتهم يموتون».

كان حلق ريك جافًا، وسمعَ الرِّياح تهزُّ فروع أشجار الدَّردار العارية المزروعة على جانبي الشَّارع. «سيدي، إنني...».

- «سيدي، أتذكُر؟».

- «سيدي، إذا كان لي أن أسأل... لماذا تُريدني؟ إنني لستُ ذا نفعٍ لأيِّ أحد، لستُ رجلًا حتى، إنني مكسور، و... الرَّاثة...».

- «حالما تستحمُّ وتبدلُ ثيابك ستتحسَّن رائحتك».

قال ريك وقد انقلبت معدته: «أستحمُّ؟ أ... أفضلُ ألا أستحمُّ يا سيدي. أرجوك، إنني مصاب... بجروح... وهذه الثَّياب أعطاها لي اللورد رامزي، وقال... قال ألا أخلعها أبدًا إلا بأمره...».

قال اللورد بولتون بمتتهى الصَّبْر: «إنك ترتدي أسملاً، أسملاً قدرةً ممزقةً ومبقعةً ورائحتها دم وبول. كما أنها خفيفة. مؤكِّد أنك بردان. سنلبسك صوف الحملان النَّاعم الثقيل، وربما معطفاً مبطناً بالفرو. هل تحبُّ هذا؟» - «كلا». لا يُمكنه أن يدعهم يأخذون الملابس التي أعطها له اللورد رامزي، لا يُمكنه أن يدعهم يرونه.

- «هل تُفَضِّل ارتداء الحرير والمخمل؟ أذكرُ أنك كنت شغوقاً بهما في الماضي».

قال بإصرارٍ حاد: «كلا، كلا، أريدُ هذه الثياب فقط، ثياب ريك. أنا ريك، على قافية أشويك». كان قلبه يدقُّ كالطُّبَل وارتفعَ صوته واكتسبَ صريراً مذعوراً. «لا أريدُ أن أستحمَّ. أرجوك يا سيدي، لا تأخذ ثيابي».

- «هلاً تركتنا نغسلها على الأقل؟».

- «كلا، كلا يا سيدي، أرجوك!». ضمَّ سترته إلى صدره بكلتا يديه وانكمشَ على نفسه فوق سرجه، يكاد يخشى أن يأمر روس بولتون حرسه بخلع ملابسه قسراً هنا في الشَّارع.

- «كما تُريد». بدت عينا بولتون الباهتتان خاويتين في نور القمر، كأن لا نفس وراءهما على الإطلاق. «لستُ أريدُ أن أُوذيك. إنني مدين لك بالكثير».

- «حقاً؟». كان جزء في داخله يصرُخ: هذا فخ، إنه يتلاعب بك، ما الابن إلَّا ظلٌّ لأبيه. طوال الوقت يتلاعب اللورد رامزي بأماله. «بِم... بِم... بِم تدين لي يا سيدي؟».

أجاب بولتون: «الشَّمال. آل ستارك انتهوا وهلكوا ليلة أخذت (ويتترفل)»، ولوَّح بيده الشَّاحبة بلا مبالاةٍ مضيئاً: «كل هذا ليس إلَّا صراعاً على الغنائم». بلغت رحلتها القصيرة نهايتها عند أسوار (بهو الرّوايي) الخشبيَّة. على أبراج القلعة الطَّويلة ترتفع الرّايات وتخفق في الرِّيح؛ رجل (معقل الخوف) المسلوخ، وفأس سروين الحربيَّة، وصنوبرات تولهارت، وعريس بحر ماندرلي، ومفتاحا اللورد لوك العجوز المتقاطعان، وعملاق أومبر، ويد فلينت الحجريَّة، وموظ هورنوود. راية عائلة ستاوت مرفوعة أيضاً بشرائطها الخمرية والذهبيَّة، وراية عائلة سليت بإطاريها الأبيضين على خلفيَّة رماديَّة، في حين تُعبر أربعة رؤوس خيول عن أربعة آل ريزويل أولاد (العُدران)؛

رمادي وأسود وذهبي وبنيّ. الطّريف أن آل ريزويل لا يتفقون على مجرد لون رايتهم. وفوق الجميع يرتفع الوعل والأسد، راية الصّبيّ الجالس على العرش الحديدي على بُعد ألف فرسخ.

أصغى ريك إلى ريشات طاحونة الهواء القديمة تدور إذ دخلا من مبنى البوّابة إلى ساحةٍ معشوشبة، حيث هرّع عاملو الاسطبلات لأخذ حصانيهما. قال اللورد بولتون: «من هنا من فضلك»، وقادّه إلى الحصن الذي ترتفع عليه رايتا اللورد داستن الرّاحل وزوجته. رايته تاج مدبّب الأطراف فوق فأسين طويلتين متقاطعتين، ورايتها مقسومة إلى أربع خانات، اثنتين فيهما رمز زوجها واثنتين فيهما رأس حصان رودريك ريزويل الدّهبي.

في أثناء صعودهما السّلام الخشب العريضة إلى القاعة بدأت ساقا ريك ترتجفان، فتوقّف رغماً عنه ليثبّتهما وقد رفع عينيه إلى منحدرات (الرّابية العظمية) العشيبة، التي يزعم بعض النّاس أنها قبر الملك الأول الذي قادّ البشّر الأوائل إلى (وستروس)، فيما يقول آخرون إن حجمها يُرجّح أن أحد ملوك العمالقة هو المدفون هناك، ويقول غيرهم إن لا قبر هنالك على الإطلاق، بل هي مجرد رابية، لكن إن كانت كذلك فهي رابية وحيدة، ذلك أن أكثر أراضي الرّوايي مسطح سوّته الرّيح.

دخل القاعة كانت امرأة واقفة إلى جوار المستوقد تُدْفئ يديها فوق جِمار نارٍ هامدة. ترتدي المرأة الأسود من رأسها إلى قدميها، ولا تتحلّى بذهبٍ أو جواهر، وإن بدا بوضوح أنها كريمة المحتد، وعلى الرغم من التّجاعيد عند رُكنيّ فمها وحول عينيها فلا تزال طويلة القامة مشدودتها، ولا يزال في ملامحها حُسن. شعرها بنيّ ورمادي بالتساوي، وقد عقصته وراء رأسها على غرار الأرامل.

قالت المرأة: «مَن هذا؟ أين الفتى؟ هل رفض نغلك التّخلّي عنه؟ أهذا العجوز... أوه، بحقّ الآلهة، ما هذه الرّائحة؟! هل قضى هذا المخلوق حاجته على نفسه؟».

- «لقد كان مع رامزي. ليدي باربري، اسمحي لي بأن أقدم لك سيّد (جُزر الحديد) الشّرعي، ثيون سليل عائلة جرايچوي».

لا، لا، لا تقل ذلك الاسم، سيسمك رامزي، سيعرف، سيعرف، سيؤذيني.

زَمَّتْ فَمَهَا قَائِلَةٌ: «ليس كما توقَّعتَه».

- «إنه ما لدينا».

- «ماذا فعلَ به نغلك؟».

- «جَرَّده من القليل من جِلده على ما أظنُّ، وبضعة أعضاء صغيرة، لا

شيء حيويًا».

- «أهو مجنون؟».

- «ربما. هل يهْمُ هذا؟».

لم يَعدْ ريك يقوى على سماع المزيد، فقال: «أرجوك يا سيدي، أرجوك يا سيدي، هناك خطأ»، وخرَّ على رُكبتيه مرتجفًا كورقةٍ في مهبِّ عاصفةٍ شتويَّةٍ والدموع تنهمر على وجنتيه المشوهتين، وتابع: «لستُ هو، لستُ المارق. لقد ماتَ في (ويتترفل). إن اسمي ريك». عليه أن يتذكَّر اسمه. «ريك، على قافية ريك».



تيريون

سبعة أيام كاملة مرّت على إقلاع (السلياسوري ذوران) من (فولانتيس) قبل أن تبرح بطني قمرتها أخيراً وتنسلّ إلى السطح كمخلوق غاباتٍ خجول خارج من بياتٍ شتوي طويل.

كان الوقت غسقاً. أشعل الرّاهب الأحمر ناره الليلية في المستوقد الحديدي الكبير في منتصف السفينة، واجتمع أفراد الطاقم حوله للصلاة. لموكورو صوت جهير مدوّ ينبع من مكانٍ ما في أعماق جذعه الهائل، وقد رفعه يُصلي: «نشكرك على شمسك التي تُدفئنا، نشكرك على نجومك الساهرة علينا ونحن مبحرون في هذا البحر الأسود البارد». الرّاهب رجل ضخم، أطول قامّة من السير چورا وأعرض منه مرّتين، يرتدي ثوباً قرمزيّاً مطرّراً عند الكمّين والحاشية والياقة بالسنّة لهب برتقالية من الساتان. بشرته سوداء كالقار، وشعره أبيض كالثلج، واللّهب الموشوم على وجنتيه وجبهته أصفر وبرتقالي. ثمائله عصاه الحديد التي يتوجّها رأس تنين طويلاً، وحين يدقّ بكعبها سطح السفينة ينثف فم التنين لهباً أخضر يُطقطق.

قاد حرسه الإجابة، خمسة عبيد مُحارِبين من اليد النارية يُشيدون بلغة (فولانتيس القديمة)، لكن تيريون سمع الصلوات مرّاتٍ تكفي لأن يفهم مغزاها. أشعل نارنا واحمنا من الظلام، إلخ إلخ، أنر طريقنا ودفئنا كالخبز المحمّص، الليل مظلم ومفعم بالأهوال، أنقذنا من الأشياء المخيفة، إلخ إلخ إلخ وما إلى ذلك.

على أنه أعقل من أن يُحوّل هذه الأفكار إلى ألفاظ. عند تيريون لانستر لا قيمة لأيّ إله، لكن على متن هذه السفينة من الحكمة أن يُبدي قدرًا معيّنًا من

الاحترام لراهلور الأحمر. كان چورا مورمونت قد خلَعَ سلاسله وأصفاده ما إن تحرَّكوا من الميناء، ولا يُريد القزم أن يُعطيه سببًا لتكيله بها مرَّةً أخرى.

(السلياسوري كوران) كوج ضخم متمایل یزن خمسمة طن، له مخزن عمیق وسلوقیتان⁽¹⁾ عالیتان في المقدِّمة والمؤخِّرة بينهما شرع واحد. عند سلوقیتة الأمامیة یقف تمثال مقدِّمة منفر الشَّكل، شخص مهم ما من الخشب الذي نخره الدُّود، یبدو على ملامحه كأنه یعاني الإمساك، وتحت إبَّطه رقوق ملفوفة. لم یر تیریون سفینةً أقبح من هذه على الإطلاق... وليس طاقمها أجمل بحال، فرُبَّانها رجل سلیط اللسان غلیظ الطَّباع ممتلئ البطن له عینان متقاربتان طماعتان، خائب في لعب السابَّاس وأخيب في تقبُّل الهزيمة. تحته یخدم أربعة وكلاء معتقون من العبودیة جمیعًا، وخمسون عبدًا مقیدًا بالعمل على السفینة، على وجه كلِّ منهم وشم بدائي لتمثال المقدِّمة القبیح. تحلو للبحَّارة دعوة تیریون بـ«لا أنف» مهما كرَّر أن اسمه هیو جور هیل.

ثلاثة من الوكلاء وأكثر من ثلاثة أرباع البحَّارة عباد متعصِّبون لإله الضَّیاء، وإن لم یکن تیریون متأكدًا من میول الرُّبان الدینیة، إذ یظهر الرُّجل دائمًا لیشهد صلاة المساء، لكنه لا یشارك فیها أبدًا. غیر أن موکورو هو سیّد (السلياسوري كوران) الحقيقي، على الأقل خلال هذه الرِّحلة.

دوى صوت الرَّاهب الأحمر: «أیا إله الضَّیاء، بارک عبدك موکورو وأنر طریقه فی أصقاع العالم المظلمة، ودافع عن عبدك البار بنیرو. هب له الشَّجاعة، هب له الحکمة، املاً قلبه بالنَّار».

عندها لاحظَ تیریون بني التي وقفت تُشاهد التَّمثیلیة على السُّلم الخشبي شديد الانحدار الذي یقود إلى أسفل السُّلوقیة الخلفیة. كانت واقفةً على إحدى الدَّرجات السُّفلیة، فلم یظهر منها إلا قَمَّة رأسها، وتحت قلنسوتها التمتعت عیناها الكبیرتان البیضاوان فی ضوء نار اللیل، وقد جلبت کلبها معها، كلب الصَّید الرمادي الكبیر الذي تركبه فی التَّزلات الفُكاهیة. ناداها تیریون بهدوء: «سیّدتي»، مع أن الحقیقة أنها لیست سیّدَّة، لكنه لا یستطیع أن

(1) كانت السُّفن القديمة، خصوصًا الحربي منها، تُجهَّز ببناءین محصَّنین فی المقدِّمة والمؤخِّرة، یُطلق على كلِّ منهما سلوقیة. (المترجم).

يدفع نفسه إلى نُطق اسمها السَّخيف، كما أنه لن يدعوها بـ«يا فتاة» أو «أيتها القزمة».

جفَلتُ منه قائلةً: «لم... لم أرك».

- «إنني صغير الحجم».

قالت: «كنتُ... كنتُ متوعكةً...»، ونبحَ كلبها.

تعين أنكِ كنتِ سقيمةً حُزناً. «إذا كان بإمكانني أن أساعد...».

قاطعتَه: «لا»، ولم تلبث أن اختفت ثانيةً، انسحبت إلى أسفل حيث قمرتها التي تقتسمها مع كلبها وخنزيرتها. لم يستطع تيريون أن يلومها. بالنسبة إليه سرُّ طاقم (السلياسوري كوران) حين صعدَ إلى متن سفينتهم، فلا أقزام يجلبون الحظَّ السعيد رغم كلِّ شيء، وقد فُركَ رأسه مرارًا وبقوَّة لدرجة أنها أعجوبة أن الصَّلع لم يُصبه. أمَّا ردَّة الفعل على وجود بني فشابها القلق. قد تكون قزمةً، لكنها امرأة كذلك، والنساء على متن السفن طالع سيِّئ، ومقابل كلِّ رجل يُحاول أن يَفركَ رأسها يُمطرها ثلاثة بلعناتهم همسًا عندما تمرُّ.

ومؤكَّد أن مجردَ منظرِي يصبُّ الملح على جرحها. لقد قطعوا رأس أخيها على أمل أنه رأسي أنا، وهأنذا ما زلتُ هنا ككركلٍ⁽¹⁾ لعين، أعرضُ عليها التعازي الجوفاء. لو كنتُ في مكانها لما أردتُ شيئاً أكثر من إلقائي في البحر.

لا يَشعرُ نحو الفتاة إلا بالشفقة. إنها لا تستحقُّ الرُّعب الذي نزلَ بها في (فولانتيس)، ولا استحقَّه أخوها. آخر مرَّة رأها قبيل إقلاعهم من الميناء وجدَ عينيها ملتتهبتين من البكاء، ثقبين أحمرين مريعين في وجهٍ شاحبٍ ذابل، ولدى رفع شرع الكوج كانت قد حبست نفسها في قمرتها مع كلبها وخنزيرتها، وإن كان بإمكانهم سماع نحيبها في الليل. البارحة فقط سمع أحد الوكلاء يقول إن عليهم أن يلقوها في الماء قبل أن تُغرق دموعها السَّفينة، وليس تيريون واثقًا تمامًا بأن الرَّجل كان يمزح.

(1) الكراجل مخلوقات أسطورية ذات مظهرٍ مشوهٍ مخيف مصوَّرة في منحوتات عدَّة، وبالأخص على الجدران الخارجيّة لعددٍ من كنائس العصور الوسطى، حيث تتخذ شكل ميزاب ناتئ. (المترجم).

انتهت صلاة المساء وانصرف أفراد الطَّاقم إلى حال سبيلهم من جديد، بعضهم إلى مناوبته وبعضهم إلى الطَّعام والرَّم والأسرَّة، فيما ظلَّ موكُورو إلى جوار ناره كما يفعل كلُّ ليلة. ينام الرَّاهب الأحمر نهارًا ويظلُّ ساهرًا طيلة ساعات الظَّلام لُبعنى بلهبه المقدَّس حتى تعود إليهم الشَّمس فجراً.

أقعى تيريون قبَّالته يُدفعى يديه من برد اللَّيل، ولم ينتبه موكُورو إليه لعدَّة دقائق إذ حدَّق إلى اللَّهب المتذبذب غائبًا في رؤيا ما. هل يرى المستقبل حقًا كما يزعم؟ إن صحَّ هذا فإنها لموهبة مخيفة. بعد مُدَّة رفع الرَّاهب عينيه لتُلاقى نظراته نظرات القمر، وحنى رأسه برزانة قائلاً: «هيو جور هيل، هل جئتُ تُصليَّ معي؟».

- «أحدهم أخبرني بأن اللَّيل مظلم ومفعم بالأهوال. ماذا ترى في هذا اللَّهب؟».

أجاب موكُورو بعامية (وستروس): «تنانين». يتكلَّمها الرَّاهب بطلاقة ودون أثرٍ للكنة تقريبًا، ولا ريب أن هذا أحد الأسباب التي حدت بالرَّاهب الأعلى بنيرو إلى اختياره لتبشير دنيرس تارجارين بديانة راهلور. «تنانين عجوزًا وصغيرةً، حقيقيَّة وزائفة، فاقعة وقاتمة. وأراك أيضًا، رجلًا صغيرًا يُلقى ظلًّا كبيرًا ويُرْمَج في خضمِّ كلِّ هذا».

- «أزْمَجُرُّ؟ شخصٍ وديعٍ مثلي؟». كاد تيريون يعده إطرًا. ولا شكَّ أن هذه بالضبط نيته. كلُّ أحقَّ يحبُّ أن يسمع أنه مهمُّ. «ربما رأيتَ پني. إننا في حجم واحدٍ تقريبًا».

- «لا يا صديقي».

صديقي؟ تُرى متى حدثَ هذا؟ «هل رأيتَ كم سنستغرق حتى نبلُغ (ميرين)؟».

- «أنت متشوق إلى مرأى مخلَّصة العالم؟».

نعم ولا، فقد تقطع مخلَّصة العالم رأسي أو تُعطيني لتنانينها على سبيل فاتح الشَّهية. «ليس أنا. بالنسبة إليَّ لا يهمني إلَّا الزَّيتون، ولو أنني أخشى أن أهرم وأموت قبل أن أذوق واحدة. يُمكنني أن أعوم عوم الكلاب أسرع من هذه السَّفينة. أخبرني، هل كان سِلياسوري كُوران هذا قنصلًا أم سُلحفاة؟».

قهقهة الرَّاهب الأحمر مجيبًا: «لا هذا ولا ذاك. الكوران... ليس حاكمًا، بل

شخص يخدم الحاكم ويُشير عليه ويُساعدُه على مزاولة أعماله، ما قد يُعادل الوكيل أو الماچستر عندكم أيها الوستروسيون».

يد الملك؟ وجدَ هذا طريقًا. «وسلياسوري؟».

مسّ موكور و أنفه قائلاً: «المشعّ بالأريج. كيف تقولونها؟ ذاك؟ زهري؟».

- «إذن فـ«السلياسوري ذوران» معناها تقريباً «الوكيل الزنخ»؟».

- «بل «الوكيل الذّاكي» بالأحرى».

منحه تيريون ابتسامَةً معوجَّةً قائلاً: «أعتقدُ أنني سألتزمُ قول «الزنخ»، لكنني أشكرك على الدرس».

- «يسرُّني أنني نورتك. أتمنّى أن تدعني أعلمك حقيقة راهلور أيضًا ذات

يوم».

- «ذات يوم». عندما أكونُ رأسًا على خازوق.

يُسَمَّى السّكن الذي يتقاسمه مع السير چورا قمرَةً من باب المجاملة لا أكثر، فليست في الخزانة المظلمة الرّطبة كريمة الرّائحة مساحة إلا لتعليق شبكتي نوم، إحداهما فوق الأخرى. وجدَ مورمونت متمدّدًا فوق السّفلى التي تتأرجح ببطءٍ مع حركة السّفينة، وأخبره: «الفتاة ظهرت أخيرًا على السّطح. نظرة واحدة إليّ وهرعت عائدةً إلى أسفل».

- «ليس منظرٌ جذابًا».

- «ليس جميعنا بهيّ الطّلعة مثلك. الفتاة ضائعة. لن يدهشني إن كان

غرض المسكينة أن تتسلل إلى السّطح لتلقي نفسها من فوق الحاجز وتغرق».

- «المسكينة اسمها پني».

- «أعرفُ اسمها». ويكره اسمها. كان أخيها معروفًا باسم جروت، ولو

أن اسمه الحقيقي كان أوپو. البني والجروت، أصغر العُملات على الإطلاق وأقلّها قيمةً، والأسوأ أنهما اختارا الاسمين بنفسيهما. خلّفت هذه الحقيقة مذاقًا سيئًا في فم تيريون. «بأيّ اسم، الفتاة محتاجة إلى صديق».

اعتدل السير چورا جالسًا على شبكته، وقال: «صادقها إذن، أو تزوّجها.

لستُ أبالي».

خلّف هذا أيضًا مذاقًا سيئًا في فمه. «القرين للقرين، أهذه فكرتك؟ وهل

تنوي أن تجد لنفسك ذبّةً أيها الفارس؟».

- «أنت من أصرَّ على أن نجلبها معنا».
- «قلت إنه لا يجدر بنا أن نتخلَّى عنها في (قولانتييس). ليس معنى هذا أنني أريد أن أنكحها. هل نسيت أنها ترغب في موتي؟ إنني آخر شخص تُريد أن تتخذة صديقًا».
- «كلاكما قزم».
- «نعم، وكذا كان أخوها الذي قُتِلَ لأن بعض الحمقى السَّكارى حسبوه أنا».

- «هل تشعر بالذنب؟».
أجاب تيريون مغضبًا: «كلا. إن لي خطايا كافيةً أكفِّرُ عنها، لكن هذه لا دور لي فيها. ربما شعرت بشيءٍ من الحقد عليها هي وأخيها للدور الذي لعباه ليلة زفاف چوفري، لكنني لم أتمنَّ لهما الأذى قطَّ».

قال السير چورا: «أنت مخلوق حلیم حقًا، بريء براءة الحملان»، ونهَضَ مضيضًا: «القزمة عبوك أنت. قبلها أو اقتلها أو تحاشاها، كما ترغب. الأمر برؤمته لا يعني لي شيئًا»، وتجاوزَ تيريون مغادرًا القمرة.

منفيٌّ مرَّتين ولا غرو في هذا. كنتُ لأنفيه أيضًا لو أن الأمر بيدي. الرَّجل بارد نكد جهيم، لا يملك مقدار خردلةٍ من حسِّ الدُّعابة، وهذه هي صفاته الحميدة. يقضي السير چورا أكثر ساعات يقظته ذارعًا السلوقية الأمامية جيئةً وذهابًا أو مستندًا إلى الحاجز يتطلَّع إلى البحر. يبحث عن ملكته الفضية، يبحث عن ديزرس، يُناشد السفينة بالإبحار أسرع. ربما كنتُ لأفعل مثله لو أن تايشا في (ميرين).

أيمكن أن (خليج النحاسين) المكان الذي تذهب إليه العاهرات؟ لا يبدو ذلك محتملاً. حسب ما سمعته فمُدن النُّخاسة هي المكان الذي تُصنع فيه العاهرات. كان حرياً بمورمونت أن يشتري لنفسه واحدة. كانت أمة حسناء لتصنع المعجزات لتحسين مزاجه... تحديداً واحدة يميل لون شعرها إلى الفضي، كالعاهرة التي رآها جالسةً على قضيبه في (سلهوريس).

خلال الرحلة النهريَّة كان تيريون مرغماً على تحمُّل جريف، لكنه -على الأقل- وجد ما يلهيه في لُغز هوية الرُّبَّان الحقيقيَّة، وفي الرِّفقة الأكثر وُدًا لأفراد مجموعة القارب الصَّغيرة الآخرين، أمَّا على متن هذا الكوج فالجميع

للأسف كما يدون، ولا أحد منهم يُبدي له وُدًا خاصًا، ووحده الرَّاهب الأحمر يُثير اهتمامه. هو وپني ربما، لكن الفتاة تمقتني، ويجدرُ بها أن تمقتني.

وجدت تيريون الحياة على (السلياسوري كوران) رتيبةً مملَّةً. أكثر الأوقات إثارةً في يومه حين يخز أصابع يديه وقدميه بسكِّين. في النَّهر كانت هناك عجائب يُشاهدها؛ سلاحف عملاقة ومدائن خربة وبشراً متحجِّرين وسپتوات عاريات، ولم يكن المرء يدري أبدًا ما قد يكون قابعاً في انتظاره عند المنعطف التَّالي. أمَّا في البحر فالليالي والأنهر كلها واحد. عندما أقلعوا من (فولانتيس) أبجر الكوج على مرأى من اليابسة في البداية، فتفرَّج تيريون على الألسنة الأرضية، وشاهد سحابات الطيور البحرية تُحلَّق من الجروف الحجرية وأبراج المراقبة المتهدِّمة، وأحصى الجُزر البنية الجرداء التي مرَّوا بها، ورأى سفنًا كثيرةً أخرى أيضًا؛ قوارب صيدٍ وسفنًا تجاريةً ثقيلةً وقوادس فخورًا تضرب مجاذيفها الموج محوِّلةً إياه إلى رغوَّة بيضاء... لكن ما إن توغَّلوا في المياه الأعمق لم يعد هناك إلا البحر والسَّماء والماء والهواء. يبدو الماء كالماء، والسَّماء كالسَّماء، وأحيانًا يرى سحابةً. أزرق كثير جدًا.

والليل أسوأ. في أفضل الأحوال لا يحظى تيريون بنوم جيِّد، والنوم هنا أبعد ما يكون عن ذلك. النوم يعني الأحلام في أغلب الأحيان، وفي أحلامه تنتظره (الويلات)، وملك متحجِّر له وجه أبيه. كالشحاذ الذي لا يملك خيارًا وجد نفسه يتمدَّد فوق شبكته ويصغي إلى غطيظ جورا مورمونت من تحته، أو يبقى فوق السطح يتأمل البحر. في الليالي التي يغيب فيها القمر يُصبح البحر بسواد جبر المايسترات من الأفق إلى الأفق، مظلمًا سحيقًا منذرًا بالويل، جميلًا جمالًا مخيفًا، لكن حين يتطلَّع إليه طويلًا يجد تيريون لانستر نفسه يُفكِّر كم من السَّهل أن يتسلَّق الحاجز ويلقي نفسه في الظلمات. وثبة واحدة صغيرة وتنتهي الحكاية الصَّغيرة الحزينة التي كانت حياته. لكن ماذا لو أن هناك جحيمًا وكان أبي ينتظرني هناك؟

العشاء أفضل جزءٍ من كلِّ أمسية. ليس الطَّعام جيِّدًا على نحوٍ خاص، لكنه وافر، وهكذا ذهب القزم يأكل. مطبخ السَّفينة الذي يتناول فيه وجباته ضيق غير مريح، يُعرِّض سقفه الواطئ للغاية المُسافرين الأطول قامَّةً لخطر خبط رؤوسهم، وهو الخطر المحدق تحديداً بجنود اليد النَّارية العبيد الفارعين.

بقدر ما استمتع تيريون بالضحك سخريّةً من هذا فقد جنح إلى تناوُل وجباته وحده، فالجلوس إلى مائدة مزدحمة مع رجالٍ لا يتحدّثون لغته، وسماعهم يتكلّمون ويتمارّحون دون أن يفهم كلمةً، سرعان ما أصبح متعباً، خصوصاً منذ بدأ يتساءل إن كان هو موضوع المزاح والضحك.

المطبخ هو المكان الذي تُحفظ فيه الكتب أيضاً. بما أن الرُبان محبٌ كبير للقراءة فالسّفينة تحمل ثلاثة كُتب؛ ديواناً من أشعار الملاحين التي تنحدر من سيّئ إلى أسوأ، ومجلدًا متفسّخ الصّفحات عن المغامرات الجنسيّة لأمةٍ شابّة في بيت هوى لايسيبي، والمجلد الرابع والأخير من (حياة القنصل بليتشو)، وهو مناضل فولانتيني شهير انتهت سلسلة غزواته وانتصاراته فجأة حين أكله العمالقة. فرغ تيريون من قراءة ثلاثة الكُتب في يومهم الثالث في البحر، ولأنها الوحيدة على متن السّفينة شرع في قراءتها من جديد. قصّة الأمة هي الأردأ كتابةً لكنها الأكثر استحواذاً على الانتباه، وقد أخذها معه هذا المساء ليُطالعها فيما يتناول عشاءً من البنجر بالزبدة ويخنة السمك الباردة والبسكويت الذي يصلح من فرط صلابته لدقّ المسامير.

كان يقرأ حكاية الفتاة عن اليوم الذي وقعت فيه مع أختها في برائن النخاسين حين دخلت بطني المطبخ، ولمّا رأته قالت: «أوه، حسبت... لم أقصد أن أزعج سيّدي. س...».

- «لست تُزعجيني. أمل أنك لن تُحاولي قتلي ثانية».

أشاحت بوجهها الذي بدأ يحتقن قائلةً: «نعم».

قال تيريون: «في هذه الحالة أرحبُ بالضحبة. إنها قليلة على هذه السّفينة»، وأغلق الكتاب مردفاً: «تعال، اجلسي وكُلي». كانت الفتاة قد تركت أكثر وجباتها خارج باب قمرتها دون أن تأكل منها شيئاً، ومؤكّد أنها تتصوّر جوّاً الآن. «اليخنة شبيهة صالحة للأكل. السمك طازج على الأقل».

- «لا. لقد... لقد اختنقتُ بشوكة سمكة ذات مرّة. لا يمكنني أن أكل

السمك».

قال: «اشربي القليل من النبيذ إذن»، وملاً كوباً ودفعه نحوها مضيفاً: «تحية من رُباننا. الحقيقة أنه أقرب إلى البول من نبيذ (الكرمة) الذهبية، لكن

حتى البول أفضل مذاقًا من ذلك الرّم الأسود القطراني الذي يشربه البحّارة.
قد يُساعدك على النّوم».

لم تُحاول الفتاة أن تمسّ الكوب، وقالت متراجعةً: «أشكرك يا سيّدي،
لكن لا. لا يجدر بي أن أزعجك».

سألها تيريون قبل أن تخرُج من الباب: «هل تنوين قضاء بقيّة حياتك في
الفرار؟».

أوقفها سؤاله، وتخصّبت وجنتاها بالوردي الزّاهي. خشّي تيريون أن
تُجهش بالبكاء مجددًا، لكنها مطّت شفّتها بتحدّي، وقالت: «أنت أيضًا تفرّ».

- «صحيح، لكنني فارٌّ إلى، وأنتِ فارّة من، وشتّان ما بين هذا وذاك».

- «لولاك لما اضطررنا إلى الفرار من الأصل».

تطلّب قولها هذا في وجهي قدرًا من الشّجاعة. «هل تتكلّمين عن (كينجز

لاندينج) أم (فولانتيس)؟».

التمعت العبرات في عينيها إذ قالت: «عن الاثنتين، عن كلّ شيء. لماذا لم

تأتي تتنازل معنا كما أراد الملك؟ لم يكن ليصيبك أذى. ما الضّرر الذي كان

لينال سيّدي لو ركب الكلب إرضاءً للصبّي؟ كان قليلًا من المرح فقط. كانوا

ليضحكوا منك لا أكثر».

ردّد تيريون: «كانوا ليضحكوا مني». وبدلًا من ذلك أضحكتم من خوف.

أولم تكن هذه حيلةً بارعةً؟

- «أخي يقول إن هذا شيء حسن، إضحاك النّاس، شيء نبيل شريف.

أخي يقول... إنه...». لحظتها غادرت الدّموع مقلّتها وسالت على وجهها.

- «آسفٌ لما حدث لأخيك». قال لها تيريون الكلمات نفسها من قبل في

(فولانتيس)، لكنها كانت مستغرقةً في لوعتها تمامًا هناك حتى إنه شكّ أنها

سمعتها.

على أنها سمعتها الآن، وقالت: «آسف، أنت آسف». كانت شفّتها

ترتعدان، ووجنتاها مبتلّتين، وعيناها ثقيبتين مؤطّرين بالأحمر. «لقد تركنا

(كينجز لاندينج) في اللّيلة نفسها. قال أخي إن هذا أفضل، قبل أن يتساءل

أحدهم إن كنا لعبنا دورًا في موت الملك ويُقرّر أن يُعدّنا ليعرف الحقيقة.

ذهبنا إلى (تايروش) أولاً. حسبَ أخي أنها بعيدة بما فيه الكفاية، لكنها لم

تكن كذلك. كنا نعرف حاويًا هناك. طوال أعوام وأعوام اعتاد أن يمارس حيله يوميًا عند (نافورة الإله السكّير). كان عجوزًا، فلم تُعد يده بالرّشاقة التي كانتنا عليها من قبل، وأحيانًا كان يُسقط كُراته ويُطاردها عبر الميدان، ورغم ذلك كان التايروشيون يضحكون ويُلقون له قطع العُملة. ثم جاء صباح وسمعنا أنهم عثروا على جثته عند (معبد تريوس). كانت لتريوس ثلاثة رؤوس، وله تمثال كبير أمام باب المعبد. وجدوا العجوز مقطّعًا إلى ثلاث قطع مدموسة في أفواه تريوس الثلاثة، لكن حين خاطوا القطع معًا كان رأسه مفقودًا.

- «هدية لأختي الجميلة. كان قزمًا آخر».

- «كان رجلًا صغيرًا، أجل، مثلك ومثل أوبو، جروت. أنت آسف لما حدث للحاوي أيضًا؟».

- «لم أكن أعرف أن الحاوي كان له وجود حتى هذه اللحظة... لكن نعم، إنني آسف لموته».

- «لقد مات من أجلك. دمه على يديك».

لدغّه الاتّهام لدغًا إذ جاء في أعقاب كلام چورا مورمونت مباشرة. قال تريون: «دمه على يدي أختي وأيدي البهائم الذين قتلوه. يداي أنا...»، وقلبهما وأمعن النظر إليهما ثم كورهما متابعًا: «... يداي ملطختان بدماء قديمة، أجل. يُمكنك دعوتي بقاتل الأقربين ولن تكوني مخطئة، أو بقاتل الملك وسأجيب عن هذا أيضًا. لقد قتلت أمهات وآباء وأولاد إخوة وأحباء، رجالًا ونساءً، ملوكًا وعاهرات، وذات مرّة ضابقتني مطرب فطبخت الوغد في يخنة، لكنني لم أقتل حاويًا أو قزمًا قط، ولست الملام على ما جرى لأخيكَ اللعين».

أمسكت بني كوب النبيذ الذي صبّه لها وألقته في وجهه. تمامًا مثل أختي الجميلة. سمع باب المطبخ يُصقّق لكنه لم يرها تُغادر. كانت عيناه تلسعانه والعالم مشوشًا. هيهات أن أصادقها.

خبرة تريون لانستر بالأقزام الآخرين محدودة للغاية. لم يكن السيّد والده يُرحّب بأيّ تذكرة بتشوّهات ابنه، وسرعان ما تعلّم الممثلون الذين تضمّ فريقهم أقزامًا أن يبقوا على مبعدة من (لانسپورت) و(كاسترلي روك) خشية إثارة نقمته. في أثناء نشأته سمع تريون أخبارًا عن مهرج قزم في مقرّ

اللورد الدورني فاوُلر، وعن ماِستر قزم يخدم في (الأصابع)، وعن قزمية ضمن الأخوات الصّامات، لكنه لم يَشعُر بأدنى حاجةٍ إلى زيارتهم. تناهت إلى مسامعه أيضًا حكايات لا يُعوّل عليها كثيرًا عن ساحرة قزمية تُسكُن تلاً في أراضي النهر، وعن عاهرة قزمية في (كينجز لاندنج) مشهورة بجماع الكلاب. أخته الجميلة هي من أخبرته عن تلك الأخيرة، بل وعرضت أن تجد له كلبَةً تُعاني الاحترار إذا أراد أن يُجرّب، ولَمّا سألها بأدب إن كانت تقصد نفسها ألقت سرسي كوبًا من النّبيذ في وجهه. كان أحمر على ما أذكر، وهذا ذهبي. جفّ تيريون وجهه بكُمّه، وإن ظلّ يَشعُر بالسّعة في عينيه. لم يرَ بني ثانيةً حتى يوم العاصفة.

في ذلك الصّباح كان الهواء المالح خاملاً ثقيلًا، لكن سماء الغرب حمراء ناريةً موحوطة بسُحبٍ خفيفة تتوهّج كقمرز راية لانستر. هرعَ البحّارة هنا وهناك يسدّون المنافذ والكوى ويشدّون الحبال ويخلون السّطح ويثبتون كلّ ما هو غير مثبت، وأنذر أحدهم تيريون قائلاً: «ريح سيئة تقترب. على لا-أنف أن ينزل إلى قمرته».

تذكّر العاصفة التي كابدها وقت عبوره (البحر الضيّق)، وكيف كان السّطح يثب تحت قدميه، والصّرير الشّنيع الذي أصدرته السّفينة، ومذاق النّبيذ والقيء. «لا-أنف سيقى هنا». إذا أرادته الآلهة فإنه يُؤثر أن يموت غرقًا لا اختناقًا بقيئه. من فوقه تموج شراع الكوج القنبي بتؤدة كفرو حيوانٍ عظيم بدأ يتحرّك قيامًا من نوم طويل، ثم ملأه الهواء بصوتٍ حاد مباغت أدار كلّ رأس على متن السّفينة.

سأقت الرّيح الكوج أمامها بعيدًا عن مساره المختار، ومن ورائهم تكوّمت السّحب السوداء بعضها فوق بعض في سماءٍ بحمرة الدّم، ومع انتصاف النّهار رأوا البرق يسطع في الغرب، يتبعه هزيم الرّعد البعيد. هاج البحر وماج، وارتفعت الأمواج القاتمة تنكسر على بدن (الوكيل الرّنخ)، وفي هذا الوقت تقريبًا بدأ الطّاقم ينزل الشّراع. كان تيريون بين الأقدام في منتصف السّفينة، فصعد إلى السّلوقيّة الأماميّة وجلس القرفصاء هناك مستمتعًا بسياط المطر البارد الهاوية على وجهه. ارتفع الكوج وانخفض، يتقلّب بضراوة أشد من أيّ حصانٍ ركبه في حياته، تنهض به كل موجة قبل أن ينزلق إلى غور بين

أترابها فيرنج تيريون ارتجاجاً حتى النُخاع، وعلى الرغم من هذا أفضل له أن يبقى هنا حيث يُمكنه أن يرى من أن يحبس نفسه بالأسفل في قمرة بلا تهوية. حين انجابت العاصفة أخيراً كان المساء يدنو وابتل تيريون لانستر حتى ثيابه الداخليّة، ومع ذلك أحسّ بالانشاء... وانتشى أكثر لاحقاً عندما وجدَ چورا مورمونت سكران في بركة من القيء في قمرتهما.

مكث القزم في المطبخ بعد العشاء، يحتفل بنجاته بمشاركة بضع جرعاتٍ من الرّم الأسود القطراني مع طاهي السفينة، وهو رجلٌ ثولانتيني ضخم جلف ملوِّث بالشحم دوماً، يعرف كلمةً واحدةً فقط من اللغة العاميّة هي «نكاح»، لكن براعته في لعب السابثاس عظيمة، لا سيّما حين يكون ثملاً. لعبا ثلاث مبارياتٍ ليلتها، كسبَ تيريون أولاها وخسرَ الاثنتين الأخيرتين، وبعدها قرّر أنه اكتفى وصعد متعزّراً إلى السطح كي يُصفّي رأسه من الرّم والأفيال على حدّ سواء. وجدَ بني فوق السلوقيّة الأماميّة، حيث تعود أن يجد السير چورا واقفاً عند الحاجز إلى جوار تمثال مقدّمة السفينة البشع شبه المتعفن، شاخصاً ببصره إلى البحر الجبر.

من وراء بدت الفتاة كطفلةٍ صغيرة مستضعفة. خطر لتيريون أن الأفضل ألا يُزعجها، لكنها كانت قد سمعته بالفعل، والفتت إليه قائلةً: «هيو جور هيل».

- «إذا أردت». كلانا يعلم الحقيقة. «آسفٌ لاقتحامي خلوتك. سأخذُ إلى النّوم».

- «لا». رأى صحيفة وجهها شاحبةً حزينةً، وإن لم يبد أنها كانت تبكي. «أنا أيضاً آسفة لأنني سكتُ النّبيذ في وجهك. ليس أنت من قتل أخي أو ذلك العجوز المسكين في (تايروش)».

- «لقد لعبتُ دوراً، وإن لم يكن باختيارِي».

- «أفتقده للغاية، أخي. إنني...».

- «مفهوم». وجدَ نفسه يُفكّر في چايمي، وقال لها في سريره: اعتبري نفسك محظوظةً. أخوك مات قبل أن يخونك.

قالت: «ظننتُ أنني أريدُ أن أموت، لكن اليوم عندما ضربتُنا العاصفة وحسبتُ أن السفينة ستغرق...».

- «... أدركت أنك تُريدين الحياة رغم كل شيء». مررت بهذا أيضًا. شيء آخر نشترك فيه.

لپني أسنان معوجّة، وهو ما يجعلها تخجل من الابتسام، لكنها ابتسمت الآن، وسألته: «هل طهوت مطربًا في يخبنة حقًا؟».

- «من؟ أنا؟ لا، لست أظهو».

حين قهقهت پني بدت كنفسها، كفتاة عذبة صغيرة... في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، في التاسعة عشرة على الأكثر. «ماذا فعل هذا المطرب؟».

- «كتب أغنية عني». هي عاره ونعيمه، هي كنزه وسرُّ الأسرار. وهل تُقارن سلسلة من الأيدي وقلعة بقبله امرأة؟ أدهشته السرعة التي استعاد بها الكلمات. ربما لم ينسها قط. الأيدي الذهب دوماً باردة، لكن يدي المرأة تشعان دفئًا.

- «مؤكّد أنها كانت أغنية رديئة للغاية».

- «ليس بالضبط. لم تكن (أمطار كاستامير) طبعًا، لكن بعض آياتها كان...».

- «ماذا كانت تقول؟».

ضحك مجيبًا: «لا، لست تُريدين سماعي أغني».

- «في طفولتنا تعودت أمي الغناء لنا، أنا وأخي. قالت دوماً إن صوتك لا يهّم ما دمت تحبُّ الأغنية».

- «هل كانت...؟».

- «... شخصًا صغيرًا؟ لا. لكن أبي كان كذلك. حين كان في الثالثة باعه أبوه لنحاس، لكنه كبر وأصبح ممثلًا شهيرًا واشترى حرّيته. سافر إلى جميع المُدن الحرّة، وإلى (وستروس) أيضًا. في (البلدة القديمة) كانوا يدعونه بالفولة النطّاطة».

طبعًا! حاول تيريون ألا يُبدي امتعاضه من الاسم.

تابعت پني: «لقد مات، وأمّي أيضًا. أو... كان آخر من تبقى من أسرتي، والآن مات أيضًا»، وأشاحت بوجهها تتطلع إلى البحر، وقالت: «ماذا أفعل؟ أين أذهب؟ إنني لا أعرف أيّ حرفة، فقط استعراض النزال الذي يحتاج إلى شخصين».

فَكَرَّ تِيرِيون: لا، ليس هذا شيئاً تُريدين التَطَّرُقُ إليه يافِثَة. لا تَطَّلِبْه مِنِّي. لا تُفَكِّرْ بِي فِيه حَتَّى. قال على سبيل الاقتراح: «جدي لنفسك فتى يتيماً ملائماً». لم يبدُ أن يني سمعته، إذ واصلت: «كان النزال فكرة أبي. لقد درَّب الخنزيرة الأولى بنفسه، لكن المرض كان قد اشتدَّ عليه ولم يستطع أن يركبها، فأخذَ أُوپو مكانه، وركبْتُ أنا الكلب دائماً. قدّمنا عرضاً أمام أمير البحر في (برافوس) مرَّةً، وضحك بشدَّةٍ حتى إنه أعطى كلاً منا لاحقاً... أه، هديَّةً فاخرةً».

- «وهناك وجدتكما أختي؟ في (برافوس)؟».

تساءلت الفتاة حائرةً: «أختك؟».

- «الملكة سرسي».

هزَّت رأسها نفيًا، وقالت: «إنها لم... مَنْ جاءنا رجل، في (بنتوس). أوزوموند. لا، أوزوالد. شيء من هذا القبيل. أُوپو قابله وليس أنا. أُوپو هو مَنْ كان يُرتَّب اتِّفاقاتنا كلِّها. كان أخي يعرف ما يفعله دائماً، وأين وجهتنا التَّالية».

- «(ميرين) وجهتنا التَّالية».

رمقته باستغرابٍ قائلَةً: «تعني (كارث). إننا ذاهبون إلى (كارث) عن طريق (جيس الجديدة)».

- «(ميرين). ستركيين كليكٍ أمام ملكة التَّنانين وتخرُجين بوزنك ذهبًا. عليك أن تأكلي المزيد من الطَّعام كي تمتلئي وتبدي لاثقةً وقت نزالِك أمام جلالتها».

لم تردِّ يني الابتسامة التي منحها إياها، وقالت: «كلُّ ما يُمكنني أن أفعله بمفردي أن أدور في دوائر. وحتى إذا ضحكت الملكة، فأين أذهبُ بعدها؟ إننا لا نُطيل البقاء في مكانٍ واحد. أول مرَّة يُشاهدوننا يضحكون ويضحكون، لكن مع المرَّة الرَّابعة أو الخامسة يكونون قد عرفوا ما سنفعله قبل أن نفعله، وعندها يكفون عن الضَّحك، ونضطرُّ إلى الدَّهاب إلى مكانٍ جديد. نجني أكثر المال في المُدن الكبيرة، لكنني أحببتُ البلدات الصَّغيرة أكثرَ دومًا. في تلك الأماكن لا يملك النَّاسُ فضَّةً، لكنهم يُطعموننا على موائدهم ويتبعنا الأطفال في كلِّ مكان».

لأنهم لم يروا قزمًا من قبل في بلداتهم البائسة القذرة. لو ظهرَت معزاة

برأسين لتبعها الصغار الملاعين أيضًا، إلى أن يملؤا نغاءها ويذبحوها للعشاء. على أن تيريون لا يرغب في جعلها تبكي ثانية، فبدلاً من الإفصاح عن أفكاره قال: «دنيرس طيبة القلب ومعطاءة بطبيعتها». هذا ما تحتاج إلى سماعه. «لا أشك في أنها ستجد مكاناً لك في البلاط، مكاناً آمناً بعيداً عن متناول أختي». عادت تلتفت إليه قائلة: «وأنت ستكون هناك أيضًا».

ما لم تقرر دنيرس أنها تريد أن تسفك القليل من دماء لانستر ثمناً لدماء تارجارين التي سفكها أخي. «نعم».

بعدها بدأت القزمة تُشاهد على سطح السفينة أكثر. في اليوم التالي صادفها تيريون ومعها خنزيرتها المرقطة في منتصف السفينة عند انتصاف الظهيرة، وقت دفء الهواء وهدأة البحر. أخبرته الفتاة بخجل: «اسمها الجميلة».

الخنزيرة الجميلة والفتاة بني. على أحدهم أن يدفع الثمن غالباً. ناولت بني تيريون بعض جوزات البلوط، وترك الجميلة تأكلها من يده، وبينما خنت الخنزيرة الكبيرة وقبعت فكر: لا تحسبي أنني لا أرى ما تفعلينه يا فتاة.

سرعان ما بدأ يتناولان وجباتهما معاً. في بعض الليالي يجلسان وحدهما، وفي بعضها يُزاحمان حرس موكورو، الذين يُسميهم تيريون «الأصابع النارية»، بما أنهم من رجال اليد النارية وهناك خمسة منهم. ضحكت بني لما سمعت هذا، وكان صوتاً حلواً، ولو أنه لا يسمعه كثيراً. ما زال جرحها حديثاً، وما زال حُزنها عميقاً.

لم يستغرق وقتاً طويلاً حتى جعلها تُسمي السفينة (الوكيل الزنخ) بدورها، وإن اغتازت منه نوعاً متى دعي الجميلة بـ«اللحم المقدد»، وكي يُكفر تيريون عن هذا حاول أن يُعلمها لعب السايقاس، لكنه أدرك بعد قليل أنها قضية خاسرة. مراراً قال لها: «لا، التنين يطير، لا الأفيال».

في الليلة نفسها سألته بلا مواربة إن كان يريد أن يُواجهها في النزال، فأجابها: «لا»، ولم يخطر له إلّا لاحقاً أنها ربما لم تعن بـ«النزال» نزالاً فعلياً. لم تكن إجابته لتختلف، ولكن لكانت أقل فظاظاً.

في القمرة التي يقسمها مع چورا مورمونت ظلّ تيريون يتقلب فوق شبكته ساعاتٍ في نومٍ متقطع. امتلأت أحلامه بأيادٍ رمادية متحجرة تمتد إليه من الصباب، وبسُلّمٍ يقود إذا صعده إلى أبيه.

بعد لأي كفّ عن المحاولة وصعدَ إلى السطح طلباً لهواء الليل النقي.
كانت (السلياسوري كوران) قد طوّت شراعها المخطّط الكبير وخلا سطحها
تقريباً. يقف أحد الوكلاء فوق السلوقية الأمامية، وفي منتصف السفينة يجلس
موكورو عند المستوقد، حيث تتراقص ألسنة لهب قليلة بين الجذوات.
ليس جلياً من النجوم إلّا أسطعها، وكلّها إلى الغرب، أمّا السماء إلى
الشمال الشرقي فينبورها وهج أحمر باهت ككدمية دامية. في حياته لم يرَ
تيريون قمراً أكبر قط، قمراً هائلاً يبدو كأنه ابتلع الشمس ابتلاعاً واستيقظَ
مصباحاً بحمّى، فيما يتوهج توأمه المنعكس على صفحة الماء وراء السفينة
بالحمرة مع كل موجة. سأل موكورو: «ما الساعة؟ لا يمكن أن يكون هذا
شروق الشمس ما لم يكن الشرق قد تحرك. لماذا تتوهج السماء بالأحمر؟»
- «السماء حمراء دائماً فوق (فاليريا) يا هيو جور هيل».

شعرَ بقشعريرة باردة تسري على ظهره، وقال: «أنحن قرييون؟»
أجاب موكورو بصوته العميق: «أقرب مما يُريد الطاقم. هل تعرفون
القصص في (ممالك غروب الشمس)؟».

- «أعرف أن بعض البحارة يقول إن من كل من يقع ناظراه على هذا
الساحل هالك». لا يُصدّق تلك الحكايات عن نفسه، تماماً مثلما لم يُصدّقها
عمّه. حين كان تيريون في الثامنة عشرة أبحر جيريون لانستر إلى (فاليريا)
عازماً على استعادة سيف عائلة لانستر المتوارث المفقود وأي كنوز أخرى
ربما نجت من الهلاك. أراد تيريون بشدة شديدة أن يذهب معه، لكن السيّد
والده دعا الرحلة بـ«المسعى الأحمر» وحرّج عليه الاشتراك فيها.

وربما لم يكن مخطئاً. عقد كامل تقريباً مرّ منذ أفلعت (الأسد الضاحك)
من (لانسپورت)، ولم يعد جيريون. اقتفى الرجال الذين أرسلهم اللورد
تايوين للبحث عنه أثره حتى (فولانتيس)، حيث هجره نصف أفراد طاقمه
فاشترى عبيداً لاستبدالهم، إذ لم يجد رجلاً حُرّاً مستعداً للالتحاق بطاقم
سفينة يتكلّم ربّانها علناً عن نيّته الإبحار إلى (بحر الدخان). تساءل تيريون:
«ما نراه منعكساً على الشحب إذن نيران (الأربع عشرة شعلة)؟».

- «أربع عشرة شعلة أو أربعة عشر ألفاً. من يجروء على عدّها؟ ليس من

الحكمة أن يتطَّلع الفانون طويلاً إلى تلك النَّيران يا صديقي. إنها نيران غضبة الإله، ومُحال أن يُضاهيها لهب بشري. إننا بنو الإنسان مخلوقات ضئيلة».

- «بعضنا أضال من غيره». (فاليريا). مكتوب أن في يوم الهلاك انشطر كلُّ تلٍّ على مسافة خمسمئة ميل وامتلاً الهواء بالرَّماد والدُّخان والنَّار، بسعيرٍ جحيميٍّ جائعٍ ابتلعَ التَّنَّانينَ نفسَهَا في السَّمَاءِ والتَّهَمَهَا. انفتحت في الأرض فلولق عظيمة مبتلعة القصور والمعابد وبلداتٍ بأكملها، وغلَّت مياه البحيرات أو تحوَّلت إلى حمض، وتفجَّرت الجبال، ونفثت نوافير نارِيَّة صخرًا مصهورًا على ارتفاع ألف قدم في الهواء، وانهمرت من السَّحاب الأحمر أمطار من زُجاج التَّنِّين ودماء الشَّياطين السُّوداء، وإلى الشَّمال تشقَّقت الأرض وتهاوت وانهارت على نفسها وتدفق البحر الغاضب يملأها. زالت دُرَّة مدائن العالم في لحظة، واختفت إمبراطوريَّتها الأسطوريَّة في يوم، واحترقت (أراضي الصَّيف الطَّويل) وغرقت وبارت.

إمبراطوريَّة مبنِيَّة على الدَّم والنَّار. الفاليريُّون حصدوا ما زرعه. «هل ينوي رُبَّاننا اختبار اللِّعنة؟».

- «رُبَّاننا يُحبِّد أن يتوغَّل خمسين فرسخًا أخرى في البحر بعيدًا عن هذا السَّاحل الملعون، لكنني أمرته بأن يسلك الطَّرِيق الأقصر. ثمة آخرون غيرنا يسعون إلى (دنيرس)».

جريف وأميره الشَّاب. أيُّمكن أن حكايات إبحار الجماعة الذَّهبيَّة غربًا خدعة؟ عن لَثيريون أن يقول شيئًا لكنه أحجم، إذ بدا له أن النُّبوءة التي تُحرِّك الرُّهبان الحُمُر تتسع لبطل واحدٍ فحسب، ولن يُضفي وجود تارجارين ثانيٍ إلَّا إلى إرباكهم. بحذرٍ سأل: «هل رأيت هؤلاء الآخريين في نيرانك؟».

أجابَه موكُورو: «ظلالهم فقط، أحدها أكثر من غيره، شيء طويل شائه له عين سوداء واحدة وعشر أذرع طويلة، يَمخُرُ عباب بحرٍ من الدَّم».



بران

القمر هلال رفيع حاد كنصل السكّين. تطلع شمس شاحبة وتغرّب وتطلع
من جديد، وتوشوش الأوراق الحمراء في الرّيح، ويملاً السّحاب القاتم
السّماوات ويستحيل إلى عواصف، ويسنى البرق ويُقعقع الرّعد، وحول
صدع في جانب التّل يحوم موتى سود الأيدي زرق الأعين لكنهم لا يقدرّون
على الدّخول.

وتحت التّل يجلس الصّبي المكسور على عرش من الويروود، يُصغي إلى
الهمس في الظلام فيما تتمشي الغدبان على ذراعيه.
قطع الغراب ذو الأعين الثلاث له وعددا حين قال: «لن تمشي ثانية أبداً،
لكنك ستطير».

أحياناً ينساب صوت أغنية من مكان ما بعيد بالأسفل. كانت العجوز نان
لتدعو المغنين بأطفال الغابة، إلا أن الاسم الذي يُطلقونه على أنفسهم يعني
«الذين يترنمون بأغنية الأرض» في اللغة الحقّة التي لا يستطيع أن يتكلّمها إنسان.
لكن الغدبان تتكلّمها. أعينها السوداء الصّغيرة زاخرة بالأسرار، وعندما
تسمع الأغاني تنعق في وجهه وتنفّر جلده.

القمر بدر تام. تدور النجوم في سماء سوداء، ويسقط المطر ويتجمّد،
وتنقصم فروع الأشجار تحت وطأة الجليد. اختلق بران وميرا لمن يترنمون
بأغنية الأرض أسماء على غرار رماد وورقة الشّجر وحراشف والسكّين
الأسود وحُصل الثّلج وفحم، بعد أن ذكّرت لهم ورقة الشّجر أن أسماءهم
الحقيقيّة أطول من أن تلفظها ألسنة البشّر. وحدها تتكلّم اللغة العاميّة، فلم
يعرف بران قطّ رأي الآخرين في أسمائهم الجديدة.

بعد ما عانوه في أراضي ما وراء (الجدار) من بردٍ يطحن العظم طحنًا
وجدوا الكهوف تتنعم في الدّفء، وحين تسلّل البرودة من الصّخر يُشعل
المغنون نارًا تطرّدها من جديد. هنا بالأسفل لا ريح ولا ثلج ولا جليد، لا
أشياء ميتة تمدّ أيديها باغيةً القبض عليك، فقط الأحلام وضوء المشاعل
وقبّلات الغدقان.

والهامس في الظلام.

يدعوه المغنون بأخر الأنبياء الخضر، لكنه لا يزال في أحلام بران غرابًا ذا
أعين ثلاث. عندما سألته ميرا ريد عن اسمه الحقيقي أطلق صوتًا مريعًا ربما
كان قهقهةً، وقال: «حملتُ أسماء كثيرةً حين كنتُ قادرًا على الحركة، لكن
حتى أنا كانت لي أم ذات يوم، والاسم الذي أطلقتَه عليّ رضيعًا هو برايندن». قال
بران: «لي عمُّ اسمه برايندن. إنه عمُّ أمي في الحقيقة، يُسمّى برايندن
السّمكة السوداء».

- «ربما سُمّي عمُّك على اسمي. ما زال بعضهم يُسمّي هكذا، ولكن ليس
كثيرًا كما من قبل. الناس ينسون. وحدها الأشجار تذكُر». صوته خفيض
للغاية حتى إن بران يُرهف إليه سمعه كلّ كي يسمع.
شرحت له المغنية التي تُسمّيها ميرا ورقة الشجر: «أكثره ذهب إلى داخل
الشجرة. لقد تجاوزَ سِنِي عمره البشري، ورغم ذلك ما زال باقيًا، من أجلنا
ومن أجلكم ومن أجل بلدان البشر. ما تبقى في جسده من قوّة زهيد. إن له
ألف عينٍ وعين، لكن ما عليه أن يُشاهده كثير. يومًا ما ستعلم».

بعدها جاء الأخوان ريد وفي يد كلّ منهما مشعل وهُاج ليحملاه إلى
التجويف الصّغير عند الغار الكبير، حيث أعدّ لهم المغنون أسرةً ينامون
عليها. عندئذٍ سألهما: «ماذا سأعلم؟ ما الذي تذكُرُه الأشجار؟».

أجابّه چوچن ريد: «أسرار الآلهة القديمة». ردّ الطّعام والدّفء والرّاحة
إليه عافيته بعد صعاب رحلتهم، وإن بدا الآن أكثر حُرنا، مكتئبًا، في عينيه
نظرة تعبٍ مسكونة بالأسى. «حقائق عرفها البشر الأوائل ومنسيّة الآن في
(وينترفل)... ولكن ليس في البراري البليلة. إننا نعيش أدنى إلى الخُصرة
في مستنقعاتنا وبركنا، ونذكُر. الأرض والماء، والتربة والحجارة، والسّنديان
والدرّدار والصّفصاف، كلها هنا من قبلنا جميعًا وستبقى هنا بعد رحيلنا».

قالت ميرا: «وكذلك أنت».

أحزنَ قولها بران، وكادَ يسألها: وماذا لو أنني لا أريدُ أن أبقى بعد رحيلكم؟ لكنه ابتلعَ الكلمات قبل أن يلفظها. إنه على شفا بلوغ مبلغ الرجال، ولا يُريد أن تحسبه ميرا طفلاً بكاءً، وهكذا قال بدلاً من ذلك: «قد يُمكنكما أن تصيرا من الأنبياء الخضر أيضاً».

هذه المرّة كانت نبرة ميرا هي الحزينة إذ رَدَّت: «لا يا بران». أضافَ چوچن: «قلائل يُمنحونُ فرصة أن يشربوا من هذه النَّافورة الخضراء وهم أحياء في أحسادهم الفانية، أن يسمعوا همس ورق الأشجار ويرون كما ترى، كما ترى الآلهة. أكثر النَّاس ليس ميموناً هكذا. الآلهة أعطتني الأحلام الخضراء وحسب. كانت مهمّتي أن آتي بك هنا، وبعد ذلك انتهى دوري». القمر ثقب أسود في السَّماء. تعوي الذُّباب في الغابة وتقتفي آثار الأشياء الميتة بأنوفها عبر أكوام الثلج، وينبثق سرب من الغدّافان من جانب التلّ بأجنحةٍ سوداء تخفق فوق عالم أبيض، وتُشرق شمس حمراء وتغيب وتُشرق مجدّداً صابغةً الثلوج بدرجاتٍ الوردية والقرنفلي، وتحت التلّ يجلس چوچن بوجوم وتتململ ميرا ويجول هودور في الأنفاق المظلمة بسيفٍ في يمينه ومشعلٍ في يسراه. أم أن بران هو من يجول؟ يجب ألا يعرف أحد أبداً.

الغار العظيم الذي يفتح على الهاوية أسود كالفار، أسود كالقطران، أحلك سواداً من ريش الغربان، يدخله الصّوء متطفلاً فقط، غير مرغوب فيه وغير مرحّب به، وسرعان ما يغيب ثانيةً. تشتعل بؤر الطّهو والشموع وأوراق نبات الأسلة فترةً قصيرةً ثم تنطفئ من جديد وقد بلغت حياتها الوجيزة منتهاها. صنع المغنون لبران عرشه الخاص، كذلك الذي يجلس عليه اللورد برايندن، عرشاً من خشب الـويروود المبرقش بالأحمر، تنفذ فيه الفروع الميتة من الجذور الحيّة، ووضعوه في الغار العظيم عند الهاوية، حيث تتردّد في الهواء الأسود أصداء مياه تجري بعيداً بالأسفل. وصنعوا له وسادةً من الطحالب الخضراء النَّاعمة، وما إن أنزلوه في مكانه دثروه بالأغطية الفرو الثّقيلة.

وهناك يجلس يُصغي إلى همسات معلّمه المبحوحة. «إياك أن تخاف

الظُّلْمَةُ يا بران». يصحب كلام اللورد حفيف الأوراق الخافت، وميل خفيف في رأسه. «أشد الأشجار بأسًا جذوره موغلة في بقاع الأرض المظلمة. ستكون الظُّلْمَةُ معطفك وتُرْسك ولبن أمك. الظُّلْمَةُ ستجعلك قويًا».

القمر هلال رفيع حاد كنصل السكّين. من السماء تنزل نُدف الثلج بلا صوتٍ لتكسو شجر الحارس والصنوبر الجندي بالأبيض، وتتراكم الثلوج حتى تغطّي مدخل الكهوف تاركةً جدارًا أبيض يضطرُّ سمر إلى الحفر فيه متى خرج لينضمَّ إلى قطيعه ويصطاد. في تلك الأيام لا يُرافق بران الذئاب، لكنه يُشاهدها في بعض الليالي من أعلى.
الطيران أفضل من التسلق حقًا.

أصبح تلبس سمر بسهولة ارتداء سراويله قبل انكسار ظهره، أمّا تبديل جلده بريش غُدافٍ أسود كالليل فأصعب، ولكن ليس بالصعوبة التي خشيتها، ليس مع هذه الغُدفان التي قال عنها اللورد برايندن: «الفحل البرّي يُقاوم ويرفُس عندما يُجرَّب رجل امتطاءه، ويُحاول أن يعضَّ اليد التي تضع حديده اللجام بين أسنانه، لكن الحصان الذي عرفَ راكبًا واحدًا سيقبل غيره. كبيرها وصغيرها، هذه الطيور كلها عرفت راكبين سابقين. اختر أحدًا الآن وطر».

اختار طائرًا ثم آخر بلا نجاح، لكن الغُداف الثالث رمقه بعينين سوداوين نبيهتين وحنى رأسه جانبًا ونعب، وفي غمضة عين لم بعد بران صبيًا ينظر إلى غُدافٍ وإنما صار غُدافًا ينظر إلى صبي. تعاظمت أنشودة النهر فجأةً، وتأجج وهج المشاعل، وأفعمت الهواء روائح غريبة. حين حاول أن يتكلم خرج كلامه صرخةً، وانتهت تجربة طيرانه الأولى باصطدامه بحائطٍ وعودته إلى جسده المكسور. لم يتأذَّ الغُداف، وحلَّق إليه وحطَّ على ذراعه، ليُمسك بران على ريشه ويتلبسه من جديد، ولم يمض وقت طويل قبل أن يجد نفسه طائرًا في أنحاء الغار متفاديًا الأسنان الحجرية الطويلة المتدلية من السقف، بل وحلَّق فوق الهاوية وغاصَّ في أعماقها السوداء الباردة.

ثم إنه أدرك أنه ليس وحده، ولمَّا عاد إلى جلده أخبر اللورد برايندن: «أحد آخر كان في داخل الغُداف، فتاة ما. لقد شعرتُ بها».

قال معلّمه: «إنها امرأة ممَّن يترنمون بأغنية الأرض، ماتت منذ زمنٍ

طويل، لكن جزءاً منها يبقى، تماماً كما سيبقى جزء منك في سمر إذا مات جسدك الصّبي غداً. إنه ظلّ على الرّوح. لن تُؤذيكَ.»
- «هل داخل جميع الطيور مغنون؟»

أجاب اللورد برايندن: «جميعها. المغنون هم من علّموا البشّر الأوائل إرسال الرّسائل عن طريق الغدّان... لكن في تلك الأيام كانت الطيور تنقل الرّسالة شفاهةً. الأشجار تذكّر، أمّا البشّر فينسون، والآن يكتبون رسائلهم على ورقٍ ويربطونها حول أرجل طيورٍ لم يُشارِكوا جلدتها قطّ.»

يذكّر بران أن العجوز نان حكّت له هذه القصة من قبل، لكن حين سأله روب عن صحّتها ضحك أخوه وسأله إن كان يعتقد في وجود الجرامينات أيضاً. كم يتمنى لو كان روب معهم الآن. كنت لأخبره بأنني أستطيع الطيران. ما كان ليصدّقني، وكنت لأريه. أراهن أنه كان ليستطيع الطيران أيضاً، هو وأريا وسانزا، وحتى يكون الصّغير وچون سنو. لأصبحنا غدّاناً جميعاً وعشنا في مغدفة المايستر لوين.

مجرد حلمٍ سخيفٍ آخر. في بعض الأيام يُسأل بران نفسه إن كان كلُّ هذا أضغاث أحلام. ربما غاب في النّوم على الثلج بالخارج ويحلّم بنفسه في مكان آمنٍ دافئ. عندها يقول لنفسه: يجب أن تستيقظ، يجب أن تستيقظ الآن والإظلمت تحلّم حتى الموت. مرّةً أو مرّتين قرصّ ذراعه بشدّة فآلمها لا أكثر. في البداية حاول عدّ الأيام بملاحظة متى ينام ومتى يصحو، لكن ها هنا يتمارّج النّوم واليقظة، فأمسّت الأحلام دروساً، والدروس أحلاماً، والأشياء تحدث في آنٍ واحدٍ أو لا تحدث على الإطلاق. هل فعلَ هذا أو ذاك حقاً أم رآه في المنام فقط؟

ذات يوم بعد أن تعلّم بران الطيران قال اللورد برايندن: «إنسان واحد في الألف يُولّد مبدلّ جِلدة، ومبدلّ جِلدة واحد في الألف يُصبح نبياً أخضر.»
- «ظننتُ أن الأنبياء الخضر سحرة الأطفال، أعني المغنين.»

- «بشكل ما. من تُسمّيهم أطفال الغابة لهم أعين ذهبية كالشمس، لكن كلّ حينٍ من الدّهر يُولّد أحدهم بعينين حمراوين كالدم أو خضراوين كالطحلب على شجرة في قلب الغابة. بهذه الأمانة تسمّ الآلهة من اختارتهم لتلقّي الهبة. ليس المختارون أقوياء، وسني حياتهم على الأرض معدودة، فلا بُدّ

لكلِّ أغنيّةٍ من ميزان، ولكن حالما يذهبون إلى داخل الأشجار تمتدُّ حياتهم طويلاً حقاً. ألف عين، ومئة جسد، وحكمة عميقة كجذور الأشجار الصّارية في القِدم. إنهم الأنبياء الحُضر».

لم يفهم بران، وهو ما قادَه إلى استفسار الأخوين ريد، فسأله چوچن: «هل تحبُّ قراءة الكُتب يا بران؟».

- «بعضها. أحبُّ قصص القتال. أختي سانزا تحبُّ قصص التّقيل، لكنها قصص بلهاء».

قال چوچن: «القارئ يعيش ألف حياةٍ قبل أن يموت، ومن لا يقرأ أبداً يعيش حياةً واحدةً. لم يكن عند مغنّي الغابة كُتب أو أحبار أو رقوق أو لغة مكتوبة، وبدلاً منها كانت عندهم الأشجار، وعلى رأسها الويروود. حين يموتون يذهبون إلى داخل الأشجار، إلى داخل الأوراق والأعصان والجذور، والأشجار تذكُر أغانيهم وتمائمهم وتوارихهم وصلواتهم كلّها، تذكُر كلَّ ما عرفوه عن هذا العالم. المايسترات يقولون إن أشجار الويروود مقدّسة عند الآلهة القديمة، والمغنّون مؤمنون بأنها هي نفسها الآلهة القديمة، وعندما يموتون يصيرون جزءاً من هذه الألوهيّة».

اتّسعت عينا بران، وتساءل: «سيقتلوني؟».

أجابته ميرا: «لا. چوچن، إنك تُخيفه».

- «ليس هو من عليه أن يخاف».

القمر بدر تام. يجوب سمر الغابة الصّامّة، ظلُّ رمادي طويل يزداد هزلاً مع كلّ رحلة صيدٍ لانعدام الفرائس الحيّة. ما زالت الحماية على مدخل الكهوف راسخة، والموتى لا يستطيعون الدُخول، وقد دفنت الثلوج أكثرهم ثانية، لكنهم لا يزالون هناك، محبّين، متجمّدين، منتظرين. أشياء ميتة أخرى أتت تنضمُّ إليهم، أشياء كانت من قبل رجالاً ونساءً وأطفالاً أيضاً. على الفروع البنية الجرداء تجثم غِدفان ميتة يكسو أجنحتها الجليد، وجاء دُبُّ ثلوج ضخم مهزول مقتحماً الدّغل، نصف لحم رأسه مفقود. يكشف عن الجمجمة أسفله. انقضَّ سمر وقطيعه عليه ومزقوه أشلاءً، وبعدها التهموه مع أن اللّحم كان متعقماً شبه متجلّد، وراح يتحرّك حتى وهم يأكلونه. عندهم تحت التلّ طعام يأكلونه. هنا ينبت مئة نوع مختلف من الفطر،

وتسبح أسماك بيضاء عمياء في النَّهر الأسود، لكن مذاقها حين تُطهى لا يقلُّ جودةً عن مذاق الأسماك ذات الأعين، كما أنهم يأتون بالجُبنة والحليب من الماعز التي تُشارك المغنِّين سُكنى الكهوف، ووجدوا أيضًا القليل من الشوفان والشعير والفواكه المجففة وغيرها من المؤن التي أُدخِرَت خلال الصَّيف الطَّويل. كلُّ يوم تقريبًا يأكلون يخنة الدَّم المثخنة بالشعير والبصل وقطع من اللحم الذي يرى چوچن أنه لحم سناجب، فيما تقول ميرا إنه لحم جردان، لكن بران لا يُبالي. إنه لحم وطيب المذاق، وقد جعله الطَّهو الطَّبيء طريًّا.

الكهوف سرمدية شاسعة صامتة، تُؤوي أكثر من ستين من المغنِّين الأحياء وعظام ألف من الموتى، وتمتدُّ بعيدًا تحت التلُّ الأجوف. حذرتهم ورقة الشَّجر قائلة: «لا ينبغي أن يتجول البشر بلا هدى في هذه الكهوف. النَّهر الذي تسمعونه أسود سريع، ويتدفق إلى أسفل وأسفل نحو بحر لا يرى الشَّمس. وثمة ممرات أعمق من هذا، حُفر بلا قرار وآبار لا تتوقعون وجودها، طُرق منسية تقود إلى مركز الأرض ذاته. قومي أنفسهم لم يستكشفوها كلها مع أننا نعيش هنا منذ ألف ألف عام من أعوامكم البشريَّة».

على الرغم من أن بشر (الممالك السَّبْع) يدعونهم بأطفال الغابة فإن ورقة الشَّجر وقومها أبعد ما يكون عن الطُّفولة. ربما كان اسم «قوم الغابة الحُكماء الصَّغار» أدنى إلى الصَّواب. إنهم صغار الحجم مقارنةً بالبشر، كالذئب العادي الذي يقلُّ حجمه عن الذئب الرَّهيب، لكن هذا لا يعني أنه جرو. لهم بشرة بنيَّة كالجوز مبرقشة ببقاع أبهت كجلد الغزلان، وأذان كبيرة تسمع ما لا يسمعه الإنسان، وأعين كبيرة أيضًا، أعين قطبيَّة ذهبية مستديرة ترى ممراتٍ لا يُبصر الصَّبي فيها إلا ظلامًا، وفي أيدي كلِّ منهم ثلاثة أصابع وإبهام فقط، ومنها تبرز مخالب سوداء حادة بدلًا من الأظفار.

كما أنهم يُغنَّون... يُغنَّون باللغة الحقة فلا يفهم بران كلماتهم، لكن أصواتهم نقيَّة كهواء الشَّتاء.

في مرَّة سأل ورقة الشَّجر: «ماذا جرى لبقيتكم؟».

أجابته: «ذهبوا إلى باطن الأرض، إلى الأحجار والأشجار. قبل مجيء البشر الأوائل كانت كل هذه الأرض التي تُسمونها (وستروس) ووطننا،

لكن حتى في تلك الأيام كنا قليلين. الآلهة منحتنا الأعمار الطويلة ولكن ليس الأعداد الغفيرة، وإلا لاجتحننا العالم كما تجتاح الغزلان غابة عندما لا تُوجد ذئاب تصطادها. كان ذلك في فجر العصور وقت أن كانت شمسنا في مشرقها، لكنها تغوص الآن في الغرب، وهذا هو اضمحلالنا الطويل. يكاد العماليق يختفون أيضًا، هؤلاء الذين كانوا بليّنا وإخوتنا، وأسود التلال الغريبة العظيمة قُتلت، واليونيكورنات تكاد تنقرض، والماموثات انخفضت أعدادها لبضع مئات. ستبقى الذئاب الرهيبة بعدنا جميعًا، لكن أجلها سيأتي أيضًا. في العالم الذي بناه الإنسان لا مكان لها أو لنا».

بدأت حزينة حين قالت هذا، وأحزنَ حُزنها بران بدوره، ولاحقًا فقط فكر: ما كان البشر ليحزنوا. كان البشر ليغضبوا ويغضوا ويقسموا على الانتقام الدامي. المغنون يُردّدون الأغاني الحزينة، والبشر يُقاتلون ويقتلون. في أحد الأيام قرّرت ميرا وچوچن الذهاب لرؤية النهر على الرغم من تحذيرات ورقة الشجر، فقال بران: «أريد أن آتي أيضًا».

رمقته ميرا بأسى، وشرحت له أن النهر يبعد ستمئة قدم بالأسفل، تقود إليه منحدرات حادة وممرات ملتوية، والجزء الأخير يتطلّب استخدام الحبال. «لن يستطيع هودور النزول بك على ظهره أبدًا. آسفة يا بران».

تذكّر بران الماضي حين لم يكن أحد يُباريه في التسلق، حتى روب وچون. أراد جزء منه أن يزعق فيهما لتركه، وأراد جزء آخر أن يبكي، لكنه يكاد يُصبح رجلاً بالغًا، فلم يقل شيئًا. فقط بعد ذهابهم انسل إلى داخل هودور وتبعهما. لم يعد عامل الاسطبلات الكبير يُقاومه كما فعل أول مرة في بُرج البحيرة خلال العاصفة، وككلب أفرغته صاحبه من المقاومة بالسوط يتكور هودور على نفسه ويختبئ كلما مدّ بران نفسه إليه. في مكانٍ ما في أعماقه يختبئ، في حُفرة لا يستطيع بران نفسه أن يمسه فيها. قال بصمتٍ للرجل الطفل الذي استولى على جسده: لا أحد يُريد أن يؤذيك يا هودور. أريد فقط أن أشعر بالقوة ثانية لبعض لوقت. سأعيده إليك كما أفعل دومًا.

لا أحد يعرف أبدًا حين يتلبس هودور. ما على بران إلا أن يبتسم ويفعل ما يُقال له ويَتَمَتِّم: «هودور» بين الحين والآخر، وبإمكانه أن يتبع ميرا وچوچن مبتسمًا بسعادةٍ دون أن يشك أحد في أنه هو في الحقيقة. غالبًا ينضمُّ إليهما

سواء أكان مرغوبًا في وجوده أم لا، وفي النهاية سُرَّ الأخوان ريد لمجيئه. نزلَ چوچن على الحبل بسهولة، لكن بعد أن صادت ميرا سمكة بيضاء عمياء برُمح الضفادع وحانَ وقت التسلُّق بدأت ذراعه ترتجفان ولم يقوَ على بلوغ القمَّة، فربطته بالحبل وجعلت هودور يسحبه إلى أعلى، وكلما شدَّ همهم: «هودور، هودور، هودور، هودور».

القمر هلال رفيع حاد كنصل السكِّين. نبشَ سَمَر الأرض وأخرجَ ذراعًا ميتورَةً سوداء مكسوَّة بالصَّقيع، تفتح أصابعها وتغلق إذ تسحب نفسها على الثلج المتجلد. وجدَ فيها لحمًا يكفي لملء معدته الفارغة، وبعدها كسرَ العظم ليتمتصَّ النُخاع، وعندئذٍ فقط تذكَّرت الذُّراع أنها ميتة.

يأكل بران مع سَمَر وقطيعه كذئب، وكغُدافٍ يطير مع السَّرب، يدور حول التلِّ عند الغروب ويترصَّد الأعداء ويشعر بلمسة الهواء الجليديَّة، وكهودور يستكشف الكهوف. وجدَ حُجراتٍ مملأى بالعظام وآبارًا طبيعيَّةً سحيقةً غائرةً في باطن الأرض، ومكانًا تتدلَّى فيه هياكل خفافيش عملاقة بالعكس من السَّقْف، كما عبرَ الجسر الحجري الرِّفيع الذي يمتدُّ مقوَّسًا فوق الهوَّة واكتشفَ مزيدًا من الحُجرات والممرَّات على الجانب الآخر. كان أحدها مليئًا بالمغنيِّين المعشَّشين مثل برايندن على عروشٍ من جذور الويروود الملثوية تحت وعبر وحول أجسادهم. بدا له معظمهم ميتًا، لكن إذ مرَّ أمامهم انفتحت أعينهم وتبعَت ضوء المشعل، وفتحَ أحدهم فمه وأغلقه كأنه يُحاول الكلام، فقال له بران: «هودور»، وشعرَ بهودور الحقيقي يتحرَّك في حُفرتِه.

جالسًا على عرش الجذور في الغار العظيم، نصف جثَّة ونصف شجرة، يبدو اللورد برايندن أقرب إلى تمثالٍ مخيف من الأخشاب الملثوية والعظام القديمة والصُّوف البالي. الشَّيء الوحيد الذي تلوح فيه حياة في خراب وجهه الشَّاحب هو عينه الواحدة الحمراء، تتقد كالجمرة الأخيرة في نارٍ محتضرة، وتُحيط بها الجذور وقطع الجِلد اليابس العالقة بجمجمةٍ مصفرة.

ما زالَ منظره يُخيف بران... جذور الويروود السَّاعية كالحيَّة من لحمه الدَّاوي وإليه، والفطر النَّابت من وجنتيه، والدَّودة الخشبيَّة البيضاء البارزة من محجر عينه الخاوي. يرتاح بران أكثر عندما تنطفئ المشاعل، ففي الظلام يُمكنه أن يتظاهر بأن محدَّته هو الغراب ذو الأعين الثلاث لا جثَّة متكلمة رهيبه.

يومًا ما سأكون مثله. أفعمّ الخاطر بران بالخوف. سيئ بما فيه الكفاية أنه مكسور، أن ساقيه عديمتا الفائدة، فهل محكوم عليه بأن يفقد البقية أيضًا ويقضي ما تبقى من حياته مع شجرة ويروود تنمو في داخله ومن خلاله؟ أخبرته ورقة الشجر بأن اللورد برايندن يستمد حياته من الشجرة، وبأنه لا يأكل أو يشرب، بل ينام ويحلم ويشاهد. كنت سأصبح فارسًا. اعتدت أن أجري وأتسلق وأقاتل. كان ألف سنة مرّت منذ ذلك الحين.

وماذا يكون الآن؟ بران الصبي المكسور فحسب، براندون سليل عائلة ستارك، أمير مملكة مفقودة، سيد قلعة محروقة، إرثه أطلال. لقد حسب أنه سيجد الغراب ذا الأعين الثلاث مشعوذًا، ساحرًا عجوزًا حكيماً يستطيع أن يشفي ساقيه، لكنه يدرك الآن أن ذلك كان حلم طفل سخيف. كبرت على تلك الخيالات. ألف عين، ومئة جسد، وحكمة عميقة كجذور الأشجار الضاربة في القدم. كأنه في حكم الفارس. أو أدنى إليه على كل حال.

القمر ثقب أسود في السماء. خارج الكهف يمضي العالم، خارج الكهف تطلع الشمس وتغيب ويدور القمر وتعوي الرياح الباردة، وتحت التلّ بات چوچن ريد أكثر وجومًا وانعزًا. كثيرًا ما تجلس أخته المكروبة مع بران عند نارهم الصغيرة تتكلم عن كل شيء ولا شيء، تُداعب سمر حين ينام بينهما فيما يجوب أخوها الكهوف بمفرده. تعود چوچن أيضًا أن يتسلق إلى مدخل الكهوف إذا كان النهار ساطعًا، وهناك يقف ساعات يتطلع إلى الغابة وقد تدثر بالفرو، ومع ذلك يرتجف.

أخبرت ميرا بران: «يريد أن يعود إلى الديار. إنه يرفض أن يُقاوم مصيره حتى، ويقول إن الأحلام الخضراء لا تكذب».

ردّ بران: «إنه يتصرّف بشجاعة». ذات مرّة منذ ربح من الرّمن قال له أبوه: ليس من الممكن أن يكون الرّجل شجاعًا إلا وهو خائف. كان هذا يوم عثروا على جِراء الذّئبة الرّهيبية في ثلوج الصّيف. ما زال يذكّر.

قالت ميرا: «إنه يتصرّف بحماقة. كنتُ أملُ حين نجد غُرابك ذا الأعين الثلاث أن... الآن أتساءل لِمَ أتينا من الأصل».

فكّر بران: من أجلي، وقال: «أحلامه الخضراء».

ردّدت ميرا بمرارة: «أحلامه الخضراء».

وقال هودور: «هودور».

وأجهشت ميرا بالبكاء.

كرة بران إعاقته لحظتها، وقال لها: «لا تبكي». أرادَ أن يحتويها بين ذراعيه، أن يضمَّها إليه بشدَّةٍ كما كانت أمُّه تضمُّه في (ويترفل) عندما يُؤذي نفسه. إنها هناك، أمامه مباشرةً، لا يفصل بينهما إلا أقدام قليلة، ولكن بعيدة عن متناوله كأن بينهما مئة فرسخ. لكي يمسَّها عليه أن يسحب نفسه على الأرض بيديه ويجرَّ ساقيه خلفه، والأرض صلبة وغير مستوية، وستكون رحلته طويلةً ملاًى بالاحتكاك والارتطام. يُمكنني أن أضع جِلدة هودور. سيحتضنها هودور ويُرَبَّت على ظهرها. أشعرت الفكرة بران بالغرابة، لكنه كان لا يزال يُفكِّر فيها عندما اندفعت ميرا مبتعدةً عن النَّار إلى ظِلِّمة الأنفاق، وسمع خطواتها تخفَّت إلى أن غابت وتبَّت أصوات المغنَّين.

القمر هلال رفيع حاد كنصل السكِّين. تتوالى الأيام واحداً تلو الآخر، كلُّ نهارٍ أقصر من سابقه وكلُّ ليلةٍ أطول. لا يصل ضوء الشَّمس إلى الكهوف تحت التلُّ أبداً، ولا يبلغ ضوء القمر هذه الأبهاء الحجرية أبداً، وحتى النجوم هنا كالغُرباء. تلك الأشياء تنتمي إلى العالم بالأعلى، حيث يمضي الزَّمَن في دوائره الحديدية من نهارٍ إلى ليلٍ إلى نهارٍ إلى ليلٍ إلى نهارٍ.

قال اللورد برايندن: «حان الوقت».

أرسلَ شيء ما في صوته أصابع جليديةً تجري على ظهر بران الذي تساءل: «حان الوقت لماذا؟».

- «للخُطوة التالية، أن تتجاوزَ تبديل الجِلدة وتتعلم معنى أن تكون نبياً أخضر».

قالت ورقة الشَّجر: «الأشجار ستُعَلِّمُه»، وأشارت لتتقدَّم واحدة أخرى من المغنَّين، ذات الشَّعر الأبيض التي تدعوها ميرا بخُصل الثلج، في يدها وعاء من خشب الويروود منقوشة عليه دسنة من الوجوه كأشجار القلوب، وفي الوعاء معجون أبيض ثخين ثقيل تتخلَّله عروق حمراء قانية. قالت ورقة الشَّجر: «يجب أن تأكل هذا»، وناولت بران ملعقةً خشبيةً.

حدج الصَّبِي الوعاء بريبةً متسائلاً: «ما هذا؟».

- «معجون من بذور الويروود».

أشعر شيء ما في منظر المعجون بران بالغثيان. العروق الحمراء هي نُسغ الويروود على ما يبدو، لكنها تُشبه الدَّم للغاية في ضوء المشاعل. غمسُ الملعقة في المعجون، ثم تردّد لحظةً ليسأل: «هل سيجعلني هذا نبيًّا أخضر؟».

قال اللورد برايندن: «دماؤك تجعلك نبيًّا أخضر، أمّا هذا فسيُساعدك على إيقاظ مواهبك وتزويجك بالأشجار».

لا يُريد بران أن يتزوَّج شجرةً... ولكن من غيرها يتزوَّج صبيًّا مكسورًا مثله؟ ألف عين، ومئة جسد، وحكمة عميقة كجذور الأشجار الضاربة في القدم. نبي أخضر. وأكل بران.

للمعجون مذاق مُر، ولكن ليس بمرارة معجون جوز البلوط. كانت الملعقة الأولى الأضعب في الابتلاع وكاد يتقيأها، لكنه وجد الثانية أفضل، والثالثة أقرب إلى الحلاوة، والبقية التهمها بنهم. لماذا حسب المعجون مرًّا؟ إن له طعم العسل والثلج الساقط لتوه، طعم الفلفل والقرفة وآخر قبلة ذاقها من أمّه. انزلق الوعاء الخالي من يده وسقط على أرض الغار، وقال بران: «لا أشعرُ باختلاف. ما المفترض أن يحدث الآن؟».

مسّت ورقة الشجر يده، وقالت: «الأشجار ستعلّمك، الأشجار تذكّر»، ورفعت يدها، وبدأ المغنون الآخرون يتحرّكون في أرجاء الغار مطفيين المشاعل، واشتدّت الظلمة وزحفت نحوهم.

قال الغراب ذو الأعين الثلاث: «أغلق عينيك واخرج من جلدتك كما تفعل عندما تتوحّد مع سمر، لكن هذه المرّة اذهب إلى داخل الجذور، اتبعها إلى أعلى عبر التربة، إلى الأشجار فوق التلّ، وأخبرني بما تراه».

أغلق بران عينيه وخرج من جسده مفكّرًا: إلى داخل الجذور، إلى داخل الويروود. للحظة رأى الغار الملتحف بالأسود وسمع النهر المتدفّق بعيدًا بالأسفل.

وعلى حين غرّة عادَ إلى داره.

كان اللورد إدارد ستارك جالسًا على صخرة إلى جوار البركة السوداء العميقة في أيكة الآلهة، تلتوي جذور شجرة القلوب الشاحبة حوله كأذرع

رجل عجوز متغصّنة، وقد استقرّ السِّيف العظيم (جليد) على حجر اللورد إدارد وهو يُنظّف النّصل بقطعةٍ من القُماش المشمّع.

همسَ بران: «(وينترفل)!».

رفع أبوه رأسه، وسأل ملتفتًا: «مَن هناك؟»... وانسحبَ بران مذعورًا. تلاشى أبوه والبركة السوداء وأيكة الآلهة، وعادَ إلى الغار وجذور عرش الـويروود الشّاحبة تحتضن أطرافه كأُمّ وطفلها، ودبّت الحياة في مشعل أمامه. - «أخبرنا بما رأيت». من بعيدٍ تكاد ورقة الشّجر تبدو كفتاةٍ بشريّة لا تتعدّى بران أو إحدى أختيه في السنّ، لكنها تبدو أكبر من قريب. سبق أن زعمت أنها شهدت منّي عام على قيد الحياة.

أحسّ بران بحلقه جافًا تمامًا، فازدردَ لُعبه قائلاً: «(وينترفل)، كنتُ في (وينترفل). رأيتُ أبي. إنه لم يمُت، لم يمُت! لقد رأيته. إنه في (وينترفل)، ما زال حيًّا».

قالت ورقة الشّجر: «لا. لقد رحلَ أيها الصّبي. لا تُحاول أن تستدعيه من الموت».

بإصرارٍ قال بران شاعرًا بجذريّ خشنٍ يضغظ على خدّه: «لقد رأيته، كان يُنظّف (جليد)».

- «بل رأيت ما تمنّيت أن تراه. قلبك يحنُّ إلى أبيك ودارك، ولذا رأيت ما رأيت».

قال اللورد برايندن: «على الإنسان أن يتعلّم كيف ينظر قبل أن يأمل في الرؤية. ما رأيته ظلال الأيام الخوالي يا بران. كنت تنظر من خلال عيني شجرة القلوب في أيكة الآلهة في قلعتكم. بين الزّمن عند الشّجرة وعند الإنسان فرق. الشّمس والتّربة والماء، هذه هي الأشياء التي تفهمها شجرة الـويروود، وليس الأيام والسّنين والقرون. بالنّسبة إلى البشر الزّمن نهر ونحن سُجناء في تياره، نتدفّق من الماضي إلى الحاضر في الاتجاه عينه دومًا. حيوات الأشجار تختلف. إنها تغرس جذورها وتنمو وتموت في مكانٍ واحد، والنّهر لا يحركّها. السّنديانة هي الجوزة، والجوزة هي السّنديانة. والـويروود... ألف من سنين الإنسان عند الـويروود لحظة، وعبر تلك البوّابات نستطيع أنا وأنت اختلاس النّظر إلى الماضي».

قال بران: «لكنه سمعني!».

- «بل سمع همسةً في الرِّيح، حفيف الأوراق. لا يُمكنك أن تُكلِّمه مهما حاولت. إنني أعرفُ. إن لي أشبَاحي أيضًا يا بران؛ أختًا أحببته، وأختًا كرهته، وامرأةً رغبتُ فيها. ما زلتُ أراهم من خلال الأشجار، لكن كلمةً مني لم تصل إليهم قط. الماضي يبقى الماضي، نستطيع أن نتعلَّم منه، ولا نستطيع أن نُغيِّره».

- «هل سأرى أبي ثانية؟».

- «ما إن تُتقن استخدام مواهبك سيُمكنك أن تنظرَ حيثما شئت وترى ما رأته الأشجار، سواء أكان البارحة أم العام الماضي أم قبل ألف سنة. البشَر يقضون حياتهم حبيسي حاضر دائم بين غيوم الذكريات وبحر الظلال الذي لا نرى مما هو آتٍ إله. ثمَّة أنواع معيَّنة من العُثِّ تدوم حياتها كُلُّها يومًا واحدًا، ولكن من المؤكَّد أن بالنسبة إليها تبدو تلك المُدَّة القصيرة كما تبدو لنا الأعوام والعقود. شجرة السَّنديان تعيش حتى ثلاثمئة عام، وشجرة الخشب الأحمر حتى ثلاثة آلاف، وشجرة الويروود تعيش أبد الدهر إذا تُركت وشأنها. بالنسبة إليها تمرُّ الفصول كخفقةٍ من جناح عثة، والماضي والحاضر والمستقبل واحد. ثم إن رؤيتك لن تقتصر على الويروود. لقد نقش المغنون أعيانًا في أشجار القلوب ليوقظوها، وهي أول أعين يتعلَّم النَّبي الأخضر أن يرى بها... لكن مع الوقت ستتجاوز رؤيتك الأشجار نفسها».

سأل بران: «متى؟».

- «خلال عام أو ثلاثة أو عشرة. لم أبصر ذلك. أعدك بأنك ستتعلَّم مع الوقت. لكنني متعب الآن، والأشجار تُناديني. سنستأنف غدًا».

حمل هودور بران إلى تجويفه متممًا بهودراته بصوتٍ خفيض فيما قادتهما ورقة الشجر بمشعل. كان يأمل أن يجد ميروا وچوجن هناك كي يحكي لهما ما رآه، لكن تجويفهما الصَّغير في الصَّخر خالٍ بارد. أنزل هودور بران بهدوءٍ على سريره ودثره بالأغطية ثم أشعل له نارًا. ألف عين، ومئة جسد، وحكمة عميقة كجذور الأشجار الصَّارية في القدم.

بينما يُشاهد اللهب قرَّر بران أن يظلَّ مستيقظًا حتى ترجع ميروا. يعلم أن چوجن سيكون محزونًا، لكن ميروا ستسعد من أجله.

لا يَذْكُر متى غمضت عيناه...

... لكنه عادَ بوسيلةٍ ما إلى (وينترفل)، إلى أَيْكة الآلهة يَنْظُرُ إلى أبيه. بدا اللورد إدارد أصغر كثيرًا هذه المرّة، شعره بُنيّ بلا أثرٍ للرّمادي، ورأسه منحني، وكان يُصَلِّي: «... اجعليهما يكبران كأخوين لا يجمع بينهما إلّا الحب، واجعلي السيّدة زوجتي تجد في قلبها القدرة على المغفرة...».

- «أبي». كان صوت بران همسةً في الرّيح، حفيف أوراق. «أبي، إنه أنا، بران، براندون».

رفع إدارد ستارك رأسه وتطلّع طويلًا إلى شجرة الويروود مقطّبًا وجهه، لكنه لم يتكلم، وقال بران لنفسه بيأس: لا يُمكنه أن يراني. يُريد أن يمدّ يده ويلمسه، لكنه لا يقدر إلّا على النّظر والسّمع. إنني في الشجرة، داخل شجرة القلوب، أنظرُ عبر عينيها الحمرّاوين، لكن الويروود لا تتكلم، فلا يُمكنني أن أتكلّم.

واصل إدارد ستارك صلّاته، وأحسّ بران بالدموع تملأ عينيه، لكن أهي

دموعه أم دموع الويروود؟ إذا بكيتُ فهل ستدرف الشجرة الدّمع؟

فجأةً أغرقت بقيّة كلمات أبيه قرقعة الخشب على الخشب، وذاب إدارد ستارك كالصّبّاب في شمس الصّباح، والآن يرُقّص طفلان في أنحاء أَيْكة الآلهة ويتبادلان الصّياح وهما يتبارزان بغُصنين مكسورين. الفتاة أطول قامةً وأكبر سنًا من الصّبي. آريا! ومضّ الاسم في خاطره إذ شاهدها تثب فوق صخرةٍ وتهوي بضربةٍ على الصّبي، ولكن لا يُمكن أن يكون هذا صحيحًا.

إذا كانت الفتاة آريا فالصّبي هو بران نفسه، وبران لم يتركّ شعره يطول هكذا قطّ. وآريا لم تغلبنني في اللّعب بالسّيف من قبل كما تغلبه هذه الفتاة. ضربت الصّبي على فخذه بقوةٍ أفقدته توازنه وأسقطته في البركة، فبدأ يثّر الماء ويصيح، لكن الفتاة ألقت غُصنها جانبًا وقالت له: «اهدأ أيها الأحمق. إنه ماء فقط. هل تُريد أن تسمعك العجوز نان وتهرع لتُخبر أبانا؟»، وركعت وسحبّت أchaها من البركة، لكن قبل أن تُخرجه اختفى كلاهما.

بعدها تسارعت اللّمحات وتسارعت حتى شعر بران بالدوار والصّياح. لم ير أباه ثانيةً، ولا الفتاة التي تُشبه آريا، لكن امرأةً بطنها ثقيل بالحمل خرجت عاريةً من البركة السّوداء وركعت أمام الشّجرة وتوسّلت إلى الآلهة القديمة أن تمنّ عليها بابنٍ يثار لها.

وبعدها رأى فتاةً بنية الشعر رفيعةً كالحرية تقف على أطراف أصابع قدميها لتقبّل شفّتيّ فارس شاب يُعادِل هودور طولًا.

وتبرّ شاب داكن العينين يبدو عليه الشحوب والقوّة ثلاثة من أغصان الـويروود وصنّع منها سهامًا.

كانت الشجرة نفسها تتقلّص، تصغر مع كلّ رؤيا، فيما استحالت الأشجار الأخرى الأدنى شأنًا إلى شتلات واختفت، فقط لتحلّ محلّها أشجار أخرى تضاءلت واختفت بدورها. والآن اللوردات الذين يراهم بران طوال قُساء، رجال صارمون يرتدون الفرو وحلقات المعدن. بعضهم يذكّر وجهه من التماثيل في السراديب، لكنهم اختفوا قبل أن يستعيد أسماءهم.

ثم، وبينما يُشاهد، أجبرَ رجل ملتجأ أسيرًا على الرُّكوع على رُكبتيه أمام شجرة القلوب، وتقدّمت منهما امرأة بيضاء الشعر عبر فجوة في الأوراق الحمراء القانية وفي يدها منجل من البرونز.

قال بران: «لا، لا، لا تفعلوا هذا!»، لكنهما لم يسمعا مثلما لم يسمعه أبوه. أمسكت المرأة الأسير من شعره ووضعت المنجل المعقوف على حلّقه ونحرتّه، وعبر سديم القرون ما كان بإمكان الصبي المكسور إلا أن يُشاهد إذ دقّت قدما الرّجل الأرض... ولكن إذ تدفّقت حياته منه في نهْرٍ أحمر شعرَ براندون ستارك بمذاق دمائه على لسانه.



چون

نفذت أشعة الشمس من السحب قرب منتصف النهار، بعد سبعة أيام من تلبُّد السماء بالغيوم وانهمار الثلوج. بعض أكوام الثلج أطول من قامة رجل، لكن الوكلاء عملوا على جرفها طوال النهار، وصارت طرق القلعة في أنظف حالة ممكنة. التمعت الانعكاسات على (الجدار)، وبرق كل شق وصدع في وجهه بالأزرق الباهت.

وعلى ارتفاع سبعمئة قدم وقف چون سنو يتطلع إلى (الغابة المسكونة)، حيث تدور ريح شرقية بين الأشجار مطيرةً أعمدةً من بلورات الثلج من أعلى الأغصان كرايات من الجليد، لكن باستثناء هذا فلا حركة في الغابة. لا علامة على الحياة. ليس هذا مطمئنًا تمامًا، فليست الكائنات الحية ما يخشى، ومع ذلك...

الشمس ظهرت والثلوج توقفت. قد يدور القمر دورةً كاملةً قبل أن نجد فرصةً مواتيةً كهذه ثانية، بل قد يمرُّ فصلٌ بأكمله. قال چون لإد الكتيب أمرًا: «اجعل إमित يجمع مجنديه. سنحتاج إلى حراسةٍ معنا، عشرة جِوالة مسلحين بزجاج التين. أريدهم جاهزين للرحيل خلال ساعة».

- «نعم يا سيدي. ومن سيقودهم؟».

- «أنا».

انقلبَ فم إد أكثر من المعتاد، وقال: «قد يرى بعضهم أن الأفضل أن يبقى القائد آمنًا دافعًا جنوب (الجدار). لن أقول ذلك عن نفسي، لكن قد يقوله بعضهم».

قال چون مبتسمًا: «خيرٌ لبعضهم ألا يقول هذا في حضوري».

جعلت هبة ريح مفاجئة معطف إدِيرْفِرِف بصوت مزعج، فقال: «يُستحسن أن نزل يا سيدي. هذه الرِّيح كفيلة بدفعنا من فوق (الجدار)، وأنا لم أتعلم ملكة الطَّيران قَط».

ركبا القفص إلى السَّفح والرِّيح تهبُّ ببرودة أنفاس تئين الجليد في الحكايات التي تعودت العجوز نان حكايتها في صغر جون. كان القفص الثقيل يتأرجح، وبين الحين والآخر يحتك بـ(الجدار) مسببًا سيولًا بلوريَّة صغيرة من الجليد تلالأت في ضوء الشَّمس إذ سقطت كشظايا الزُّجاج المكسور.

حدّث جون نفسه متأملًا: قد يكون الزُّجاج مفيدًا هنا. (القلعة السوداء) محتاجة إلى صوية زُّجاجية خاصة بها، كذلك التي في (وينترفل). يمكننا أن نزرع الخضراوات حتى في قلب الشتاء. أجود الزُّجاج يأتي من (مير)، لكن اللوح الجيد النقي يُباع بما يُعادل وزنه من التَّوابل، والزُّجاج الأخضر والأصفر لا يصلحان مثله. ما نحتاج إليه هو الذهب. بما يكفي من مال نستطيع أن نشترى عملاً لنفخ الزُّجاج وتركيبه من (مير)، ونأتي بهم شمالاً ونعرض عليهم حرّيتهم مقابل أن يُعلموا بعض مجدّينا فنهم. هذا هو السَّبيل الأمثل. إذا كنا نملك الذهب، ونحن لا نملكه.

وجد جوست عند قاعدة (الجدار) يتمرّغ في كومة ثلج. يبدو أن الذئب الرّهيب الأبيض الكبير يحبُّ الثلج الطَّازج، لكن حين رأى جون هبَّ على أقدامه ونفض الثلج عن نفسه.

سأل إد الكتيب: «هل سيذهب معك؟».

- «سيذهب معي».

- «ذئب ذكي. وأنا؟».

- «لن تذهب معي».

- «قائد ذكي. جوست اختيار أفضل. لم تُعد لديّ أسنان قويّة أعضُّ بها

الهمج».

- «إذا شاءت الآلهة فلن تُصادف أيّ همج. سأريدُ الحصان الرّمادي

المخصي».

انتشر الخبر سريعًا في (القلعة السوداء). كان إد ما زال يضع السَّرج على

الحصان الرّمادي عندما تقدّم باون مارش بخطى قويّة عبر السّاحة ليواجه
چون في الاسطبلات، حيث قال: «أتمنّى أن تُعيد النّظر يا سيّدي. الرّجال
الجُدّد يستطيعون حلف اليمين في السّبت ببساطة».

- «السّبت بيت الآلهة الجديدة، أمّا القديمة فمكانها الغابة، ومن يتعبّدون
إليها يحلفون يمينهم بين أشجار الويرود. إنك تعلم هذا مثلي تمامًا».

- «ساتان أتى من (البلدة القديمة)، وأرون وإمريك من أراضي الغرب.
الآلهة القديمة ليست آلهتهم».

- «لست أفرص على الرّجال أيّ آلهة يعبّدون. إنهم أحرار في اختيار
(السّبعة) أو إله المرأة الحمراء، لكنهم اختاروا الأشجار بما يتضمّن هذا من
مخاطر».

- «قد يكون الرّجل الباكي ما زال هناك، يُشاهد».

- «البستان لا يبعد أكثر من ساعتين من الرّكوب، حتى في الثّلج. سنعود
في حدود منتصف اللّيل».

- «مُدّة طويلة للغاية. ليس تصرّفًا حكيمًا».

قال چون: «ليس حكيمًا، لكنه ضروري. هؤلاء الرّجال على وشك
التّعهد بحياتهم لحرس اللّيل والانضمام إلى أخوة تعود بلا انفصام إلى
آلاف السّنين. القسّم مهمّ، وكذا التّقاليد. إنها تربطنا جميعًا معًا، عليه ألقوم
وعموهمم، والصّغار والكبار، والنّبلاء والوُضعاء، تجعلنا إخوانًا»، وربّت
على كتف مارش مضيّفًا: «أعدك بأننا سنعود».

قال قيّم الوُكلاء: «أجل يا سيّدي، ولكن هل ستعودون رجالًا أحياء أم
رؤوسًا على حرابٍ بأعينٍ مقلوعة؟ ستقطعون رحلة العودة في سواد اللّيل.
أكوام الثّلج ترتفع حتى الخصر في بعض البقاع. أرى أنك ستأخذ معك رجالًا
مخضرمين، وهذا جيّد، لكن چاك بولوار الأسود كان يعرف هذه الغابة جيّدًا
أيضًا، وحتى عمك بنچن ستارك نفسه...».

ردّ چون: «إن معي شيئًا لم يكن معهم»، والتفت برأسه وصرّف ونادى:
«جوست، إليّ»، فنفض الدّثب الرّهيب الثّلج عن ظهره وهرول إلى چون.
أفسح له الجوّالة الطّريق، ولو أن فرسًا سهلت ونكصت إلى أن شدّ روري
عنانها بحدّة. قال چون: «(الجدار) تحت قيادتك أيها اللورد باون»، وجذب

حصانه من لجامه وسارَ به حتى البوابة والنفق الجليدي الذي يتمعج عبر (الجدار).

وراء الجليد تقف الأشجار الطويلة الصامته متشحة بمعاطف بيضاء سميكة. مضى جوست إلى جوار حصان چون فيما أتخذ الجوّالة والمجنّدون تشكيلهم، ثم توقّف وتشمّم الهواء الذي يتجمّد فيه زفيره، فسألّه چون: «ما الخطب؟ هل هناك أحد بالجوار؟». الغابة خالية على مدى بصره، لكن مدى بصره ليس بعيداً.

اندفع جوست نحو الأشجار، ودخل من بين صنوبرتين ملتحتين بالأبيض واختفى في سحابة من الثلج. يُريد أن يصطاد، ولكن يصطاد ماذا؟ لا يخشى چون على الذئب الرّهيب بقدر ما يخشى على أيّ همجيّ قد يقابله. ذئب أبيض في غابة بيضاء، صامت كالظلال. لن يشعروا بقدمه أبداً. لا حاجة إلى أن يطارده، فجوست سيعود حين يُريد العودة وليس قبلها. همز چون حصانه بكعبيه وانتظّم رجاله حوله لتكسر حوافر أحصنتهم قشرة الجليد المتكوّنة فوق الثلج الطري، وإلى الغابة ذهبوا بمشيّة ثابتة فيما نضّاءل (الجدار) من ورائهم.

يرتدي شجر الصنوبر الجُندي والحارس معاطف بيضاء ثقيلة، وتتدلّى كتل الجليد كالسّتائر من فروع الأشجار عريضة الأوراق، وإن غابت الأوراق تماماً الآن تاركةً الفروع بيّنةً جرداء. أرسلَ چون توم بارليكورن يسبقهم للاستطلاع، مع أن الطريق إلى البستان الأبيض مطروق ومألوف، في حين انسلَّ ليدل الكبير ولووك ابن (البلدة الطويلة) إلى الأدغال شرقاً وغرباً، ليتقدّما على جانبي الرّكب ويحدّراه من اقتراب أيّ أعداء. جميعهم جوّالة محنّكون مسلّحون بالرّجاج البركاني علاوةً على الفولاذ، ويُعلّق كل منهم بوقاً حربياً من سرّجه تحسُّباً لاحتياجهم إلى طلب الغوث.

الأخرون رجال صالحون أيضاً. رجال صالحون للقتال على الأقل، ومخلصون لإخوتهم. يجهل چون ما كانوه قبل وصولهم إلى (الجدار)، لكنه لا يشكُّ في أن لأكثرهم ماضياً أحلك سواداً من معاطفهم. ها هنا هم نوع الرّجال الذي يُريده وراء ظهره. كانوا قد رفعوا قلنسواتهم وقايةً من الرّيح القارسة، ولفّ بعضهم وجوههم بوشاحاتٍ تُخفي ملامحهم. إلّا أن چون

يعرفهم أجمعين، وكلُّ اسمٍ من أسمائهم منقوش على قلبه. إنهم رجاله، إخوته.

ركب ستة آخرون معهم، مزيج من الشُّبان والشيوخ وصغار الحجم وكباره والمتمرسين والمستجدين. ستة سيحلفون اليمين. الجواد وُلِدَ ونشأ في (بلدة المناجد)، وأرون وأمريك جاءا من (الجزيرة القصية)، وساتان من مواخير (البلدة القديمة) في طرف (وستروس) الآخر، وكلهم صبية. ليذرز وچاكس أكبر سنًا، تجاوزا الأربعين بعدة سنوات، ابنا (الغابة المسكونة)، ولكلُّ منهما أبناء وأحفاد. الاثنان من الثلاثة وستين همجياً الذين تبعوا چون سنو إلى (الجدار) يوم ناشدهم، وحتى الآن هما الاثنان الوحيدان اللذان قررا أنهما يُريدان معطفاً أسود. قال إميت الحديدي إنهم جميعاً مستعدون، أو في أتمّ درجة استعدادٍ يُمكنهم بلوغها، وقد قيّم هو وچون وباون مارش كلا منهم بدوره وألحقه بجماعة؛ ليذرز وچاكس وإمريك بالجوّالة، والجواد بالبنايين، وأرون وساتان بالوكلاء.

والآن حان وقت حلف اليمين.

ركب إميت الحديدي في مقدّمة الطّابور على صهوة أقيح حصانٍ رآه چون على الإطلاق، حيوان أشعث لا يظهر منه إلا شعره الكثيف وحوافره. قال قيّم السلاح: «ثمة كلام عن متاعب في (برج المومسات) ليلة أمس».

- «(برج هاردين)». من الثلاثة والستين الذين عادوا معه من (بلدة المناجد) هناك تسع عشرة امرأة وفتاة، وقد أسكنهن چون البرج المهجور نفسه الذي نام فيه في بداية مجيئه إلى (الجدار). اثنتا عشرة منهن زوجات حراب، قادرات وأكثر على الدفاع عن أنفسهن وعن البنات الأصغر سنًا ضد تجاوزات الإخوة السود، وبعض الرجال الذين رفضنهم هم من أطلقوا على (برج هاردين) اسمه الملهب الجديد، وهي السُّخرية التي قرّر چون أنه لن يتغاضى عنها. «ثلاثة حمقى سكرانين حسبوا (برج هاردين) ماخوذاً لا أكثر. إنهم في زنازين الجليد الآن، يُفكّرون ملياً في غلظتهم».

كشّر إميت الحديدي قائلاً: «الرجال رجال، واليمين كلام، والكلام هواء. عليك أن تضع حراسةً على النساء».

- «ومن سيحرس الحراس؟». لستَ تعلم شيئاً يا چون سنو. لكنه تعلم،

وكانت إيجريت معلّمة. إذا لم يستطع هو التمسك بقسمه فكيف يتوقع المزيد من إخوته؟ لكن في العبت مع نسوة الهمج خطراً. ذات مرّة أخبرته إيجريت: من الممكن أن يمتلك الرجل امرأة، ومن الممكن أن يمتلك سكيناً، لكن لا رجل يُمكنه أن يمتلك الاثنين. على أن باون مارش لم يكن مخطئاً بالكامل، ف(برج هاردين) هشيم ينتظر شرارة فحسب. قال چون: «إنني أنوي فتح ثلاث قلاع أخرى، (البُحيرة العميقة) و(بهو السُمور) و(الرّابية الطويلة)، حامياتها كلّها من شعب الأحرار تحت قيادة ضباطنا. (الرّابية الطويلة) ستقيم بها النساء فقط، باستثناء القائد وكبير الوكلاء». لا يشك في أن شيئاً من الاختلاط سيحدث، لكن المسافات أبعد بما فيه الكفاية لتصعب ذلك على الأقل.

- «ومن الأحمق المسكين الذي سيؤلّي تلك القيادة الممتازة؟».

- «إنني راكبٌ إلى جواره».

استحقت النظرة التي اختلطَ فيها الرُعب بالسرور على وجه إميت أكثر من جوال ذهب، وسأله: «ما الذي فعلته لأجعلك تكرهني هكذا يا سيدي؟». ضحك چون قائلاً: «لا تخف، لن تكون وحدك. سأعطيك إدا الكتيب ليكون نائبك ووكيلك».

- «ستسعد الزّوجات الحراب للغة. قد يجدر بك أن تمنح الماجنر قلعة».

ماتت ابتسامه چون، وقال: «ربما إذا استطعت أن أثق به. أخشى أن سيجورن يلومني على موت أبيه، والأدهى أنه ترعرع وتمرن على إلقاء الأوامر لا تلقّيها. لا تخلط بين الثّنيين والأحرار. «ماجنر» تعني «لورد» في اللّغة القديمة كما قيل لي، لكن ستير كان أقرب إلى إله عند قومه، وابنه من الطيّنة نفسها. لسْتُ أطلب من أحدٍ أن يركع، ولكن عليهم أن يطيعوا».

- «أجل يا سيدي، لكن الأفضل أن تفعل شيئاً بشأن الماجنر. سيُسبب لك الثّنيون المتاعب إذا تجاهلتهم».

كان چون ليقول: المتاعب نصيب القائد. زيارته إلى (بلدة المناجد) ولّدت له الكثير منها بالفعل، والنساء أهون ما في الأمر. أتضح أن هاليك بالشّراسة التي خشيتها چون بالفعل، وثمة بعض الرّجال بين الإخوة السّود

يَمَقْتُونَ الأحرار حتى النُخاع. أحد أتباع هاليك قطعُ أذن بناءً في السَّاحة، وهذه على الأرجح مجرد عيَّنة من الدِّماء التي سَتَسْفِكُ بعد ذلك. يجب أن يفتح القلاع القديمة قريباً كي يُرسل أخا هارما لإقامة حامية في (البُحيرة الطويلة) أو (بهو السَّمُور)، لكن في الوقت الرَّاهن لا هذه ولا تلك صالحة لسكنى البَشَر، وأوثيل يارويك وبنأووه ما زالوا غائبين في محاولة تجديد (قلعة اللَّيل). ثَمَّة ليالٍ يتساءل فيها چون إن كان قد ارتكب خطأ فادحاً لَمَّا منع ستانيس من الفتك بالهَمَج جميعاً. لستُ أعلمُ شيئاً يا إيجريت، وربما لن أعلم أبداً.

على بُعد نصف ميل من البُستان كانت خيوط شمس الخريف الحمراء الطويلة تترقِّق من بين فروع الأشجار العارية ملوَّنة أكوام الثلج بالوردية. عبرَ الرَّاكبون جدولاً متجمِّداً بين صخرتين محزَّزتين مدرَّعتين بالجليد، ثم أتبعوا درب فرائس متعرِّج إلى الشَّمال الشرقي، ومتى اشتدَّت الرِّيح ملاً رذاذ الثلج المتناثر الهواء ولسع أعينهم. غطَّى چون فمه وأنفه بوشاحه ورفع قلنسوته على رأسه، وقال لرجاله: «اقتربنا»، لكن أحداً لم يردَّ.

شمَّ چون توم بارليكورن قبل أن يراه. أم أن جوست هو من شمَّه؟ في الفترة الأخيرة يشعُر چون سنو كأنه والدُذب الرَّهيب واحد، حتى في يقطته. ظهرَ الذُّب الأبيض الكبير أولاً نافضاً الثلج عن جسمه، وبعد لحظاتٍ قليلة تلاه توم الذي أخبرَ چون: «هَمَج في البُستان».

أوقفَ چون الرَّاكبين متسائلاً: «كم؟».

- «أحصيتُ تسعةً. لا حراسة. بعضهم ميت، أو نائم. يبدو أن أكثرهم نساء. طفل واحد، لكن معهم عملاقاً أيضاً. رأيتُ واحداً فقط. عندهم نار مشتعلة يرتفع دُخانها بين الأشجار. حمقى».

تسعة، ومعني سبعة عشر. لكن أربعة منهم صبيان، وليس بينهم عمالقة. غير أن چون لا ينوي أن يعودوا أدراجهم إلى (الجِدَار) خالي الوفاض. إذا كان الهَمَج أحياءً فقد يُمكننا أن نأخذهم معنا، وإذا كانوا موتى... فيمكننا الاستفادة بجثَّة أو اثنتين. قال واثباً بنخفةٍ إلى الأرض المتجلِّدة حيث يرتفع الثلج إلى كاحله: «سَنُواصل على الأقدام. روري، بايت، ابقيا مع الخيول». كان بإمكانه أن يُكلِّف المجنِّدين الجُدد بهذا الواجب، لكنهم في حاجةٍ إلى

الخصوع للاختبار قريباً، والوقت مناسب تماماً. «انتشروا وشكّلوا هلاًلاً. أريد أن نُقبِل على البُستان من ثلاث جهات. ابقوا على مرأى من الرّجال إلى يمينكم ويساركم كي لا تتّسع الثُّغرات. سيكتم الثَّلج وقع خُطواتنا. ستراق دماء أقل إذا داهمناهم دون أن ينتبهوا لاقتربنا».

كان اللّيل يدنو بسرعة. اختفت خيوط الضّوء حين ابتلعَ غرب الغابة آخر شريحة من الشّمس، وبدأت الأكوام الوردية النّاعمة تستردّ بياضها، يتسرّب منها اللّون مع إظلام العالم، واصطبغت سماء المساء بالرّمادي الباهت كمعطفٍ قديم غُسل مراراً وتكراراً، وبدأت النُّجوم الخجول الأولى تطلع. لمحوا أمامهم جذعاً أبيض شاحباً لا يُمكن أن يكون إلّاً لشجرة ويروود، يتوجّه رأس من الأوراق الحمراء الدّاكنة. مدّّ چون سنو يده وراء ظهره واستلّ مخلبه الطّويل، ونظر إلى يمينه ويساره مومئاً لساتان والجواد، وشاهدهما يوميّان بدورهما للرّجال الآخرين. ثم انقضّوا على البُستان معاً راكبين أكوام الثَّلج القديم دون أن يصدر منهم صوت إلّاً أنفاسهم، وركض معهم جوست كظل أبيض إلى جانب چون.

النّار في مركز البُستان صغيرة بائسة، رماد وجذوات وغصون مكسورة مشتعلة بوهج خفيض وتبثُّ دُخاناً أكثر من الحرارة، وعلى الرغم من هذا فيها حياة أكثر من الهمج المتلملمين حولها. واحد فقط منهم صدرت منه ردّة فعل حين خرج چون من الدّغل، الطّفل الذي بدأ يُولول متمسّكاً بمعطف أمّه المهترئ. رفعت المرأة عينها وشهقت، وعندها كان الجوّالة قد طوّقوا البُستان وانسلّوا من بين الأشجار البيضاء كالعظم، يلتمع الفولاذ في أيديهم المقفّزة بالأسود آخذاً وضع القتل.

آخر من شعر بهم العملاق الذي كان نائماً متكوّراً على نفسه إلى جوار النّار، لكن شيئاً أيقظته؛ بكاء الطّفل أو انسحاق الثَّلج تحت الأحذية السّوداء أو الشّهيق المفاجئ. بدا لهم عندما تحرك كأنه جُلمود دبّت فيه الحياة. سحب العملاق نفسه إلى وضع الجلوس مطلقاً نخيراً، وراح يفرّك النّعاس من عينيه بيدين ضخمتين... إلى أن رأى إميت الحديدي بسيفه البراق، وهادراً هبّ يقف وأطبقت إحدى هاتين اليدين الضّخمتين على مطرقةٍ واحتطفتها.

كشّر جوست عن أنيابه جواباً، لكن چون أمسك الدّئب من قفاه قائلاً:

«لسنا نريد قتلاً هنا». يعلم أن رجاله قادرون على إسقاط العملاق، ولكن ليس دون ثمن. ما إن تُراق قطرات الدّم الأولى سينضمُّ الهَمَج إلى القتال، وسيموت أكثرهم إن لم يكن كلُّهم هنا، وبعض إخوته كذلك. «هذا مكان مقدّس. استسلموا...».

هدرَ العملاق ثانيةً بصوتٍ هزّ الأوراق على الشَّجر، ودقَّ الأرض بمطرقتة. مقبضها سنّة أقدام من خشب السَّنديان الملتوي، ورأسها حجر بحجم رغيف خُبز، فرجّت الصّدمة الأرض، وهرعَ بعض الهَمَج الآخرين إلى أسلحتهم. كان چون سنو على وشك القبض على مخلبه الطّويل حين بدأ ليذرز يتكلّم من طرف البُستان القصي. خرجت كلماته بوقع حلقي غليظ، لكن چون سمعَ ما فيها من موسيقى وتعرّف اللُّغة القديمة. تكلم ليذرز مُدَّةً طويلةً، ولمّا فرغَ أجابه العملاق، فبدأ كلامه كزمجرة يتخلَّلها خوار، ولم يفهم چون كلمةً. ثم إن ليذرز أشار إلى الأشجار وقال شيئاً آخر، وأشار العملاق إلى الأشجار وكزّ على أسنانه وأفلتَ مطرقتة.

قال ليذرز: «قُضِيَ الأمر. ليسوا يُريدون القتال».

- «أحسنت. ماذا قلت له؟».

- «إنها آلهتنا أيضاً، إننا جننا للصّلاة».

- «سنفعل. أغمِدوا أسلحتكم جميعاً. لن تُسَفَح دماء هنا الليلة».

قال توم بارليكورن إنهم تسعة، وهم تسعة، لكن اثنين منهم موتى وواحدة في غاية الوهن حتى إن الصّباح كان سيطلع على جثتها. يتضمّن السنّة الباقون أمّاً وطفلها، ورجلين مسنّين، وثبّاً جريحاً يرتدي البرونز المنبجح، وواحداً من ذوي الحوافر أتلّفت قضمه الصّقيع قدميه الحافيتين للغاية، حتى إن چون يقنَ بأنه لن يمشي ثانيةً أبداً. علمَ لاحقاً أن معظمهم كانوا أغراباً حين وصلوا إلى البُستان. عندما حطّم ستانيس جيش مانس رايدر لاذوا بالفرار من المعمعة إلى الغابة وجالوا هنا وهناك بعض الوقت وفقدوا أصدقاءً وأهلاً بسبب البرد والجوع، وأخيراً أخذهم الطّريق إلى هنا وقد صاروا أضعف وأشدّ تعباً من أن يُواصلوا. قال أحد المسنّين: «الآلهة هنا. مكان مناسب جدّاً للموت».

قال چون: «(الجدار) يبعُد ساعاتٍ قليلة. لماذا لم تسعوا إلى المأوى هناك؟ آخرون استسلموا، حتى مانس نفسه».

تبادل الهمج النظرات، ثم قال أحدهم: «الغربان أحرقوا كل من استسلم». أضافت المرأة: «حتى مانس نفسه». مليساندرا، عليك وإلهك الأحمر أن تدفعا ثمن أشياء كثيرة. «نحن نُرحب بكل من يرغب في العودة معنا. في (القلعة السوداء) طعام ومأوى، و(الجدار) سيحميكم من الأشياء التي تسكن هذه الغابة. لكم كلمتي، لا أحد سيحترق». قالت المرأة محتضنة طفلها: «كلمة غراب، لكن من يدري إن كنت ستفي بها؟ من أنت؟».

أجابها: «قائد حرس الليل وابن إدارد ستارك سيّد (ويتترفل)»، والتفت إلى توم بارليكورن قائلاً: «اجعل روري وبايت يجلبان الخيول. لا أنوي أن نبقى هنا لحظة أطول مما يجب». - «كما تقول يا سيدي».

شيء واحد تبقى قبل أن يرحلوا، الشيء الذي أتوا من أجله في المقام الأول. أمر إميت الحديدي المجندين بالتقدم، وإذ شاهدت بقية المجموعة من مسافة محترمة ركعوا أمام أشجار الويروود. كانت خيوط النهار الأخيرة قد اختفت، والضوء الوحيد الآن يأتي من نجوم السماء ووهج النار المحتضرة الأحمر الباهت في مركز البستان.

بقلنسواتهم السوداء السميكة بدا الستة كأنما نُحتوا من ظلال. ارتفعت أصواتهم معاً صغيرة في فسحة الليل، وقالوا كما قال آلاف من قبلهم: «اللّيل يزداد حلكتة، والآن تبدأ حراستي، ولن تنتهي حتى مماتي». صوت ساتان عذب كأغنية، وصوت الجواد مبسوح ومتلعم، وصوت أرون صرير عصبي. عسى أن يتأخر مماتكم طويلاً. جثا چون سنو على ركبته في الثلج، وصلى: يا آلهة أبي، احمي هؤلاء الرّجال، وأريا أيضاً، أختي الصغيرة، أينما كانت. أنضغ إليك أن تجعلي مانس يجدها ويأتيني بها آمنة.

تعهد المجنّدون بأصواتٍ ترددت أصداؤها عبر السنين والقرون: «لن أتخذ لنفسي زوجة، أو أملك أرضاً، أو أنجب أبناء، ولن أعتمر تاجاً أو أظفر بمجد، وسأعيش في موقعي وأموت فيه».

وصلى چون سنو بصمت: يا آلهة الغابة، امنحيني القوة لأفعل المثل، امنحيني الحكمة لأعرف ما يجب أن يفعل والشجاعة لأفعله.

قال الستة وقد بدا لچون أن أصواتهم تتغير، تقوى وترسخ: «أنا السيف في الظلمات، أنا الحارس على الأسوار، أنا النار التي تشتعل لتطرُد البرد، الضوء الذي يأتي بالفجر، النّير الذي يوقظ النّيام، الدرع التي تقي بلدان البشّر».

الدرع التي تقي بلدان البشّر. مرّغ جوست أنفه في كتفه وأحاطه چون بذراعه. شمّ سراويل الجواد المتسخة، والعطر الباذخ الذي يضعه ساتان في لحيته حين يمشطها، ورائحة الخوف الزّنخة النفاذة، ومسك العملاق الطّاعي، وسمع دقات قلبه في صدره، وحين تطلّع عبر البستان إلى المرأة وطفلها والشّخين ورجل ذوي الحوافر بقدميه الشّائيتين لم يرَ إلاّ بشراً.

- «لحرس اللّيل أتعهدُ بحياتي وشرفي، بدايةً من اللّيلة وطوال جميع اللّيالي القادمة».

نهضَ چون سنو أولاً قائلاً: «انهضوا الآن رجالاً في حرس اللّيل»، ومدّ يده للجواد يساعده على النهوض.

كانت الرّيح تشتدّ، وأنّ أوان الرّحيل.

استغرقت رحلة العودة من البستان وقتاً أطول من رحلة الذهاب. تحرّك العملاق بخطى بطيئة للغاية على الرغم من طول ساقيه ومحيطهما، وما برح يتوقّف ليُسقط الثلج عن الفروع الواطئة بمطرقته. ركبت المرأة مع روري، وابنها مع توم بارليكورن، والعجوزان مع الجواد وساتان، في حين خاف الثّني أن يركب حصاناً وفضّل أن يمشي ويعرج على الرغم من جروحه، أمّا رجل ذوي الحوافر فلم يكن بإمكانه أن يعتلي سرجاً فربطوه على ظهر حصانٍ كجوالٍ من الحبوب، وكذا السّمطاء الشّاحبة ذات الأطراف الرّفيعة كالعصا التي لم يستطيعوا أن يوقظوها.

وفعلوا المثل بالجتّين، وهو ما أدهش إميت الحديدي، فقال لچون: «ستبطين حركتنا لا أكثر يا سيّدي. علينا أن نُقطّعهما ونُحرقهما».

ردّ القائد: «لا، اجلبهما. إن عندي استخداماً لهما».

لم يكن في السّماء قمر يهديهم في طريق العودة، وأحياناً تظهر كوكبة من النجوم هنا أو هناك. العالم أسود وأبيض وساكن، والرّحلة بطيئة طويلة لا نهائية. التصق الثلج بأحذيتهم وسراويلهم، ورجّت الرّيح شجر الصّنوبر ومضعت معافطهم مضغاً. لمحّ چون النّجم المسّمى (الرّحال الأحمر)

بالأعلى، يُشاهددهم من بين فروع الأشجار العظيمة الخالية من الأوراق التي يمرُّون أسفلها. يُسمِّيهِ الأحرار (اللِّص)، ولطالما زعمت إيجريت أن أفضل وقتٍ لاختطاف امرأةٍ حين يقع (اللِّص) في (عذراء القمر)، لكنها لم تذكر أنه أفضل وقتٍ لاختطاف عملاق. أو رجلين ميتين.

كان الفجر يُوشك على البزوغ عندما رأوا (الجِدَار) من جديد.

لدى اقترابهم حيَّاهم بوق حارسٍ من أعلى كصيحة طائرٍ ضخم قوي الحنجرة، دفقة واحدة طويلة تعني عودة الجوّالة، وحلٌّ ليدلّ الكبير بوقه الحربي ونفخ الرِّدِّ. عند البوابة اضطروا إلى الانتظار قليلاً حتى ظهر إد توليت ليفتح الترابيس والبوابة الحديد، ولَمَّا رأى إد مجموعة الهَمَج البائسة زمَّ شفثيه ورمق العملاق بنظرة طويلة، ثم قال: «قد نحتاج إلى دهانه بالزُبدة ليستطيع الانزلاق في النفق يا سيّدي. هل أرسل أحدكم إلى مخزن المون؟». - «أوه، أظنّه سيُدخل بلا زُبدة».

وقد فعل... زاحفًا على يديه ورُكبتيه. صبي كبير، أربعة عشر قدمًا على الأقل، أضخم من ماج الجبَّار. مات ماج تحت هذا الجليد ذاته في قتال فتاك مع دونالد نوي. رجل صالح. حرس اللَّيل خسروا رجالاً صالحين كثيرًا. انتحى جون بليدزر جانبًا، وقال له: «تولَّ أمره. إنك تتحدّث لغته. احرص على إطعامه وجد له مكانًا دافئًا قرب النَّار. ابق معه ولا تدع أحدًا يستفزه». قال ليدرز: «نعم»، وتردّد لحظةً قبل أن يُضيف: «يا سيّدي».

أرسل جون الهَمَج الأحياء لمداواتهم من الجروح وقضمة الصَّقيع، أملاً أن يُعيد الطَّعام السَّاخن والدَّفء إلي أكثرهم عافيته، ولو أن رجل ذوي الحوافر سيفقد كلتا قدميه غالبًا. أمَّا الجثتين فأودعهما زنازين الجليد.

بينما يُعلّق معطفه على مشجب مجاور للباب لاحظَ جون أن كلايداس جاءً وذهبٌ، إذ وجد رسالةً على المنضدة في عُرفته الشَّمسيَّة. حَمَن من أول نظرةٍ أنها من (القلعة الشَّرقيَّة) أو (بُرج الظُّلال)، لكنه رأى أن الشَّمع ذهبي لا أسود، وعلى الختم رأس وعل داخل قلبٍ ملتهب. ستانيس. كسر الشَّمع المتصلَّب وبسط الورقة المطوية وقرأ. خطُّ مايستر، لكنه كلام الملك.

استولى ستانيس على (ربوة الغابة)، وانضمت إليه عشائر الجبال؛ وول وفلينت ونوري وليدل والآخرون جميعًا.

ونلنا عوناً آخر غير متوقع لكننا قبلناه على الرَّحْب والسَّعة، من ابنة
لـ(جزيرة الدُّببة). أخفت أليسان مورمونت، التي يدعوها رجالها بالدُّببة،
مُحاربين داخل مجموعة من المراكب الشراعية وباغتت الحديديين بالمهجوم
حيث رسوا عند السَّاحل. احترقت سفن جرايچوي الطويلة أو أُخذت، وقُتل
بحارتها أو استسلموا. سنطلب فديةً مقابل الرِّبابة والفُرسان والمُحاربين
البارزين وغيرهم من أبناء الأعيان أو نجد لهم استخداماً آخر، والباقون أنوي
أن أشتقهم...

حرس الليل مقسمون على عدم التَّدخُّل في صراعات ونزاعات البلاد،
وعلى الرغم من هذا شعرَ چون سنورغمًا عنه بنوعٍ معينٍ من الرِّضا.
وواصل القراءة.

... مزيد من الشماليين ينضمُّون إلينا مع انتشار خبر انتصارنا، صيادون
ومُحاربون غير نظاميين وسكَّان تلال، ومزارعون من أعماق (غابة الدُّتاب)،
وقرويون خرجوا من بيوتهم على (السَّاحل الحجري) هرباً من الحديديين،
وناجون من المعركة التي دارت خارج (ويتترفل)، ورجال كانوا مقسمين
على الولاء لعائلات هورنوود وسروين وتولهارت. بينما أكتبُ عددنا خمسة
آلاف، ويزداد كلَّ يوم. وبلغنا خبر بأن رويس بولتون يتحرَّك نحو (ويتترفل)
بقواته كلها، ليُزوِّج نغله بأختك غير الشقيقة هناك. يجب ألا نسمح له بإعادة
القلعة إلى قوتها السابقة. إننا نرحف عليه. أرنولف كارستارك ومورس أومبر
سينضمُّان إلينا. سأنقذُ أختك إن استطعتُ، وأجدُّ لها زوجاً أفضل من رامزي
سنو. عليك وإخوتك أن تُحافظوا على (الجدار) حتى عودتي.
وجدتُ الرِّسالة موقَّعةً بخطِّ آخر.

تمَّ في نور الإله مهوراً بتوقيع وختم ستانيس الأول سليل عائلة باراثيون،
ملك الأنداليين والروينار والبشر الأوائل، سيِّد الممالك السَّبْع وحامي البلاد.
لحظة أن وضعَ چون الرِّسالة جانباً انطوت الورقة على نفسها ثانيةً كأنها
تبغي حماية ما فيها من أسرار. ليس متأكِّداً على الإطلاق من مشاعره نحو
ما قرأه. سبق أن دارت معارك عند (ويتترفل) من قبل، ولكن لم يحدث قطُّ
أن غابَ ابن لعائلة ستارك عن طرفٍ أو الآخر. «القلعة هيكل فارغ، ليست

(وينترفل) بل شبحها». مؤلمٌ أن يُفكر في هذا مجرد تفكير، ناهيك بأن يقوله بصوتٍ مسموع. ورغم ذلك...

تساءل كم رجلاً يستطيع أن يدخل بهم أكل الغراب العجوز القتال، وكم سيفاً بإمكان أرنولف كارستارك أن يستحضر. نصف رجال أومبر سيكونون على الجانب الآخر من ميدان المعركة مع باقر العاهرة، يُقاتلون تحت راية رجل (معقل الخوف) المسلوخ، والسواد الأعظم من قوّات كلتا العائلتين ذهب جنوباً مع روب بلا رجعة. حتى في خرابها ستمنح (وينترفل) المسيطر عليها أيّاً كان أفضليةً لا يُستهان بها. كان روبرت باراثيون ليرى هذا في الحال ويتحرك سريعاً لتأمين القلعة، وقد اشتهر بإجبار جنوده على الزحف والرُّكوب خلال منتصف الليل، فهل يتمتع أخوه بالجرأة نفسها؟

ليس محتملاً. ستانيس قائد متمهّل، وجيشه وجبة نصف مهضومة من رجال العشائر والفُرسان الجنوبيين ورجال الملك ورجال الملكة، مملّحة بالقليل من لوردات الشمال. عليه أن يُسرع بالذهاب إلى (وينترفل) أو لا يذهب على الإطلاق. ليس له أن ينصح الملك، ولكن...

عادَ ينظر إلى الرسالة. سأنقذُ أختك إن استطعتُ. عاطفة رقيقة مدهشة من رجل كستانيس، ولكن يُضعفها إتباعها بـ«إن استطعتُ» القاسية، وإضافة «وأجدُّ لها زوجاً أفضل من رامزي سنو» في النهاية. ولكن ماذا لو لم تكن آريا هناك ليُنقذها؟ ماذا لو قالت نيران الليدي مليساندرا الحقيقة؟ أيُمكن أن أخته فرّت من سجانيتها حقاً؟ وكيف تفرّ؟ لطالما كانت آريا ذكيّةً سريعةً، لكنها مجرد فتاة صغيرة في النهاية، ورووس بولتون ليس رجلاً يتهاون في الحفاظ على غنيمة عظيمة القيمة مثلها.

ماذا لو لم تكن أخته عند بولتون من الأصل؟ قد يكون الزفاف مجرد حيلة لاستدراج ستانيس إلى شرك. على حدّ علمٍ چون لم يملك إدارد ستارك سبباً للشكوى من سيّد (معقل الخوف) قطُّ، وعلى الرغم من ذلك لم يثق به البتّة، بصوته الهامس وعينيهِ بالغتِي الشحوب.

فتاة رمادية على حصانٍ مائت تفرُّ من زواجها. استناداً إلى هذه الكلمات وحدها أطلقُ چون مانس رايدر وستّ زوجاتٍ حراب على الشمال. قال مانس: «أريدن شابّات وحسناوات»، وزوّده الملك الذي لم يحترق ببعض

الأسماء، وتولّى إِد الكئيب البقيّة وهربهن من (بلدة المناجد). يبدو له الأمر جنونياً الآن. ربما كان الأفضل أن يفتك بمانس لحظة أن أفصح عن نفسه. يشعُر چون بنوع من الإعجاب على مضض بملك ما وراء الجدار السّابق، لكن الرّجل مارّق حانث بالقسم. أمّا مليساندرًا فتقته بها أقل، ومع ذلك ها هو ذا يُعلّق آماله عليهما. كلُّ هذا لأنّقد أختي، لكن رجال حرس الليل ليست لهم أخوات.

حينما كان چون صبيّاً في (ويترفل) كان بطله المفضّل التّين الصّغير، الملك الصّبي الذي فتح (دورن) في سنّ الرّابعة عشرة، وعلى الرغم من نغولته -أو ربما بسببها- حلم چون سنو بقيادة الرّجال إلى المعجد كما فعل الملك دايرون، بأن يكبر ليصبح فاتحاً. والآن ها هو ذا رجل بالغ و(الجدار) تحت قيادته، ولكن ما من شيء يملكه إلّا الشُّكوك، وحتى هذه لا يبدو أنه قادر على التّغلب عليها.



دنيرس

انبعثت من المخيم رائحة شنيعة لدرجة أن داني منعت نفسها من إفراغ معدتها بصعوبة.

تقلص أنف السير باريستان، وقال: «لا يجدر بجلالتك أن تكوني هنا وتتنفسي هذه السُّموم».

ردت تُذكره: «أنا دم التنين. هل رأيت تنينًا مصابًا بالإسهال من قبل؟». كثيرًا ما زعم فسيرس أن آل تارجارين آمنون من الأمراض التي يُبتلى بها غيرهم من البشر التقليديين، وهذا صحيح على حدّ خبرتها. إنها تذكّر معاناتها البرد والجوع والخوف، ولكن ليس المرض قَطُّ.

قال الفارس العجوز: «ولو، سأطمئن أكثر إذا عادت جلالة الملكة إلى المدينة». كانت أسوار (ميرين) بألوانها المتنوعة وراءهم ينصف ميل. «الإسهال الدموي آفة كل جيش في العالم منذ فجر العصور. دعينا نحن نُورِّع الطعام يا جلالة الملكة».

قالت داني: «غداً. إنني هنا. أريد أن أرى»، وهمزت فرسها الفضيّة بكعبها وتحركت، وخبّ الآخرون وراءها. ركبَ چوجو أمامها وأجو وراكارو وراءها مباشرةً، في أيديهم سياط الدوثراكي الطويلة لإبعاد المرضى والمحتضرين، وإلى يمينها السير باريستان على متن حصان رمادي أرقط، وإلى يسارها سايمون ذو الظهر المخطط من الإخوة الأحرار ومارسلن من رجال الأم، وعلى مسافة قصيرة وراء القادة تقدّم ستون من الجنود لحماية عربات الأطعمة. جميعهم على صهوات الخيول، الدوثراكي والوحوش النحاس والمعتقون، ولا يُوحّدهم إلا نفورهم من أداء هذا الواجب.

تحرّك الأستاپوريون في أعقابهم في طابورٍ رهيب يزداد طولاً مع كلّ ياردة يقطعونها، يتكلّم بعضهم بلغاتٍ تجهلها في حين لم يعدّ آخرون يقوون على الكلام. رفع كثيرون منهم أيديهم لداني أو ركعوا إذ مرّت بهم فرسها الفضيّة، ونادوها: «أمّاه». بلهجات (أستاپور) و(ليس) و(فولانتيس القديمة)، بلغة الدوثراكي الحلقية وألفاظ (كآرث) المائعة، وحتى بلغة (وستروس) العامية نادوها: «أمّاه، أرجوك... أمّاه، ساعدي أختي، إنها مريضة... أعطيني طعاماً لصغاري... أرجوك، أبي العجوز... أغيبه... أغيبها... أغيبني...».

يبأس أجايتهم في قرارة نفسها: لست أملك شيئاً آخر أغيثكم به. لا مكان يذهب إليه الأستاپوريون، وما زال آلاف منهم باقين خارج أسوار (ميرين) المتينة؛ رجال ونساء وأطفال، شيوخ وفتيات ورُضع. كثيرون منهم مرضى، وأكثرهم يتصوّر جوعاً، وجميعهم محكوم عليه بالفناء. لا تجسّر دنيرس على فتح بواباتها وإدخالهم إلى المدينة، لكنها حاولت أن تفعل ما بمقدورها من أجلهم، فأرسلت لهم مُعالجين، فتيات من ذوات النعم الزرقاء ومرنّمي تعاويد وحلّاقين جرّاحين⁽¹⁾، لكن بعض هؤلاء مرض بدوره، ولم ينجح أيٌّ من فنونهم في عرقلة الانتشار الحثيث للوباء الذي أتى على متن الفرس الشاحبة. واتّضح أيضاً أن فصل المرضى عن الأصحاء غير فعّال، رغم أن رجالها من التروس المقدامة حاولوا، وانتزعوا أزواجاً من زوجاتهم وأطفالاً من أمّهاتهم فيما انتحب الأستاپوريون ورفسوا ورجمّوهم بالحجارة. بعد أيام قليلة كان المرضى قد ماتوا والأصحاء مرضوا، ولم يُسفر تقسيمهم عن فائدة. حتى إطعامهم باتّ صعباً. كلّ يوم تُرسل إليهم ما تستطيع، لكن كلّ يوم تتعاطم أعدادهم ويتناقص ما تُعطيهم إياه من طعام. وأصبح العثور على حودّيين يقبلون توصيل الطّعام أصعب أيضاً، فكثيرون من الرّجال الذين أرسلوهم إلى المخيم أصابهم الإسهال الدّموي، وآخرون هوجموا في طريق العودة إلى المدينة. البارحة قلبت عربة وقُتِل جُنديان، ولذا عزمت الملكة

(1) الحلاق الجرّاح مهنة تعود إلى العصور الوسطى في أوروبا. في ذلك الحين لم يكن الأطباء عموماً يُجرون العمليّات الجراحية وإنما كان يُجريها الحلاقون الذين اعتادوا أن يحملوا معهم أدوات الحلاقة والجراحة في آبن واحد. (المترجم).

على أن تجلب الطَّعام بنفسها، وهو القرار الذي عارضه مُستشاروها جميعًا بحرارة، من رزناك والرَّأس الحليق إلى السير باريستان، إلا أن دنيرس لم تتزحزح، وقالت بعناد: «لن أنصرف عنهم. يجب أن تعلم الملكة ما يُعانيه شعبها».

والمعاناة هي الشَّيء الوحيد الذي لا يفتقرون إليه. أبلغها مارسلن: «تكاد لا تتبقَّى عندهم خيول أو بغال، مع أن كثيرين جاءوا من (أستابور) راكبين. لقد أكلوها يا صاحبة الجلالة، هي وكلَّ جردٍ وكلِّ ضال استطاعوا الإمساك به. والآن بدأ بعضهم يأكلون موتاهم».

قال آجو: «يجب ألا يأكل الإنسان لحم الإنسان». أيده راكارو: «هذا معلوم. ستحلُّ بهم اللعنة». قال سايمون ذو الظَّهر المخطَّط: «لقد تجاوزوا اللعن بالفعل».

جر جرَّ أطفال ببطونٍ منتفخة أنفُسهم وراءهم، صغار أضعف أو أكثر خوفًا من أن يتوسَّلوا، وقرصص مسنون مهزولون بأعينٍ غائصة وسط الرَّمال والحجارة يتبرَّزون حياتهم في سيولٍ ننته من البني والأحمر. كثير منهم الآن يتبرَّز حيث ينام، وقد صاروا أو هن من أن يزحفوا إلى المصارف التي أمرتهم بحفرها. رأت امرأتين تتشاجران على عظمة متفحمة، يقف قُربهما صبيٌّ في العاشرة يأكل جردًا بييدٍ واحدة، فيما قبضت الأخرى على عصا مدببة خشية أن يُحاول أحد اختطاف غنيمته. في كلِّ مكانٍ موتى غير مدفونين. رأت داني رجلًا منظرًا في الوسخ تحت معطفٍ أسود، لكن إذ مرَّت به استحال معطفه إلى ألف ذبابة، وعلى الأرض جلست نساء ضاويات يضمَّن ولدانهن المحتضرين. تبعثها أعينهن، ومن قوين على الكلام ناديتها: «أمَّاه... أرجوك يا أمَّاه... بُوركِت يا أمَّاه».

بمرارةٍ قالت داني لنفسها: بُوركِت حقًا. مدينتكم أصبحت رمادًا وعظامًا، وقومكم يموتون حولكم. ليس عندي لكم ملجأ، أو دواء، أو أمل. فقط الحُبز الباتت واللحم الفاسد والجُبنة الجامدة والقليل من الحليب. بُوركِت، بُوركِت.

ما الأم التي لا تملك لبنًا لتسقي أطفالها؟ قال آجو: «الموتى كثيرون للغاية. يجب أن يُحرقوا».

عَلَّقَ السَّيْرَ بَارِيَسْتَانَ: «وَمَنْ سَيُحْرِقُهُمْ؟ الْإِسْهَالُ الدَّمَوِيُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَكُلَّ لَيْلَةٍ يَمُوتُ مِئَةٌ».

قال چوجو: «ليس خيراً أن نلمس الموتى».

وافقه آجو وراگارو معاً: «هذا معلوم».

قالت داني: «قد يكون هذا صحيحاً، ولكن علينا أن نُحْرِقَهُمْ رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ»، وَفَكَّرَتْ لِحِظَةً ثُمَّ أَضَافَتْ: «المُطَهَّرُونَ لَا يَخْشَوْنَ الجُثثَ. سَأَكُلُّمُ الدُّودَةَ الرَّمَادِيَّ».

قال السَّيْرَ بَارِيَسْتَانَ: «جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ، المُطَهَّرُونَ أَفْضَلُ مُقَاتِلِيكَ. لَسْنَا نَجْرُؤُ عَلَى الْمَخَاطِرَةِ بِانْتِشَارِ هَذَا الْوَبَاءِ بَيْنَهُمْ. اجْعَلِي الْأَسْتَابُورِيِّينَ يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ».

ردَّ سايمون: «إنهم ضِعْفَاءٌ لِلْغَايَةِ».

قالت داني: «قد يجعلهم المزيد من الطَّعَامِ أَقْوَى».

هَزَّ سايمون رَأْسَهُ نَفِيًّا، وَقَالَ: «لَا يَنْبَغِي تَبْدِيدَ الطَّعَامِ عَلَى الْمُحْتَضِرِينَ يَا صَاحِبَةَ الْعِبَادَةِ. لَيْسَ عِنْدَنَا مَا يَكْفِي لِإِطْعَامِ الْأَحْيَاءِ».

تَعَلَّمَ أَنَّهُ لَيْسَ مَخْطِئًا، لَكِنْ هَذَا لَمْ يَهْوُنْ عَلَيْهَا قَوْلُهُ. قَرَّرَتْ الْمَلِكَةُ أَنَّهُمْ تَقَدَّمُوا بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ، وَقَالَتْ: «سَنُطْعِمُهُمْ هُنَا»، وَرَفَعَتْ يَدَهَا لِتَتَوَقَّفَ الْعَرَبَاتُ مِنْ وَرَائِهَا وَيَنْتَشِرَ خِيَالُهَا حَوْلَهَا لِمَنْعِ الْأَسْتَابُورِيِّينَ مِنَ الْإِنْدِفَاعِ نَحْوِ الطَّعَامِ. مَا كَادُوا يَتَوَقَّفُونَ حَتَّى بَدَأَ الزَّحَامُ يَشْتَدُّ مِنْ حَوْلِهِمْ إِذْ أَقْبَلَ الْمَزِيدَ وَالْمَزِيدَ مِنَ الْمَوْبُوتِيِّينَ الْبَائِسِينَ يَعْرجُونَ وَيَتَعَثَّرُونَ، لَكِنْ الْخِيَالَةَ حَالُوا دُونَهُمْ وَالْعَرَبَاتُ زَاعِقِينَ: «انْتَظِرُوا دُورَكُمْ. لَا تَدَافِعْ. إِلَى الْخَلْفِ. ارْجِعُوا إِلَى الْخَلْفِ. الْخُبْزُ لِلْجَمِيعِ. انْتَظِرُوا دُورَكُمْ».

لَمْ تَكُنْ بِيَدِ دَانِي حِيلَةٌ إِلَّا أَنْ تَجْلِسَ وَتُشَاهِدَ. ثُمَّ إِنَّهَا التَّفَتَّتْ إِلَى بَارِيَسْتَانَ سَلْمِي مِتْسَائِلَةً: «أَلَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَفْعَلَ الْمَزِيدَ أَيُّهَا الْفَارَسُ؟ إِنْ عِنْدَكَ مَوْئًا».

- «إِنَّهَا مَوْئٌ لِحُنُودِ جَلَالَتِكَ. قَدْ نَضَطَّرْتُ إِلَى الْخِضُوعِ لِحِصَارِ طَوِيلٍ. غَرِبَانَ الْعَاصِفَةِ وَالْأَبْنَاءَ الثَّانُونَ يَسْتَطِيعُونَ الْإِغَارَةَ عَلَى الْيُونَكِيِّينَ، لَكِنْهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِجْبَارِهِمْ عَلَى الْإِنْسِحَابِ. إِذَا سَمَحْتَ لِي صَاحِبَةَ الْجَلَالَةِ بِأَنْ أَحْشِدَ جَيْشًا...».

قَاطَعَتِ الْمَلِكَةَ: «إِذَا كَانَتِ الْمَعْرَكَةُ مُحْتَمَّةً فَأَوْثِرُ أَنْ أُخَوِّضَهَا مِنْ وَرَاءِ

أسوار (ميرين). فليُحاول اليونانيون اقتحام تحصيناتي»، وجاست ببصرها في المشهد حولها، وقالت: «إذا تقاسمنا الطعام بالتساوي...».

- «... فسيأتي الأستابوريون على حصّتهم خلال أيام، الحصّة التي سننقّصنا وقت الحصار».

تطلّعت داني عبر هواء المخيم المليء بالصياح والذباب إلى قريميد (ميرين) بألوانه العديدة قائلة: «الآلهة أرسلت هذا الوباء لإذلالني. موتي كثيرون للغاية... لن أتركهم يأكلون الجُثث»، وأشارت إلى آجو بالاقتراب، وأخبرته: «اركب إلى البوابة واثنني بالدودة الرّمادي وخمسين من مُطهّريه».

أجاب آجو: «كاليسي، على دم دمك الطّاعة»، وهمز حصانه بكعبيه وهرول مبتعدًا.

راقب السير بارستان بوجل لم ينجح في إخفائه، وقال: «يجب ألا تُطيلي البقاء هنا يا جلالة الملكة. الأستابوريون يتلقون الطّعام كما أمرت. لا يمكننا أن نفعّل المزيد من أجل هؤلاء المساكين. علينا أن نعود إلى المدينة».

ردّت داني: «أذهب إذا أردت أيها الفارس. لن أمنعك. لن أُمع أيًا منكم»، ووثبت من فوق فرسها مواصلة: «لا أستطيع أن أشفيهم، لكنني أستطيع أن أريهم أن أمهم تعبأ بهم».

شهقّ چوجو، وصاح: «كاليسي، لا»، ورنّ الجرس في جدينته بخفوتٍ إذ ترجّل متابعًا: «يجب ألا تقتربي. لا تدعيهم يلمسونك! لا تدعيهم!».

مرّت به بلا اهتمام. على بُعد أقدام قليلة على الأرض رجل عجوز يتأوّه محمّلًا إلى بطون السُّحب الرّمادية، وقد ركعت داني إلى جواره بأنفٍ تقلّص من الرّائحة، وأزاحت الشعر الشائب المتسخ عن جبهته وتحسّستها، ثم قالت: «إنه مشتعل. أريد ماءً لغسله. لا بأس بماء البحر. مارسلن، هلاّ جلبت لي ماء؟ وأريد زيتًا أيضًا للمحرقة. من سيُساعِدني على إحراق الموتى؟».

لدى عودة آجو بالدودة الرّمادي وخمسين من المطهّرين مسرعين في أعقابه كانت داني قد أخجلتهم جميعًا بمبادرتها حتى بدأوا يُساعِدونها. شرعّ سايمون ذو الظّهر المخطّط ورجاله يسحبون الموتى من بين الأحياء ويرصّون الجُثث، في حين عاونّ چوجو وراكارو والدوثراكي من ما زالوا قادرين على المشي على الدّهاب إلى الشّاطئ للاستحمام وغسل ملابسهم.

حدَّقَ آجور إليهم كأنما انتابهم الجنون عن بكرة أبيهم، لكن الدودة الرمادي ركع إلى جوار الملكة قائلاً: «هذا الواحد يريد أن يساعِد».

قبل انتصاف النَّهار كانت دسّته من المحارق مشتعلةً، وارتفعت أعمدة الدُّخان الدُّهني الأسود تُطخِّع وجه السَّماء الزَّرقاء التي لا تعرف الرَّحمة. حين تراجعت داني عن النيران وقد اتَّسخت ثياب ركوبها واسودَّت قال لها الدودة الرمادي: «صاحبة العبادة، هذا الواحد وإخوته يلتمسون إذنك في الاستحمام في البحر المالح عندما نَفْرُغ من عملنا، لنُظَهِّر أنفسنا حسب شرائع إلهتنا العُظمى».

لم تكن الملكة تعرف أن للمخصَّبين إلهتهم الخاصَّة، فسألته: «مَن هي؟ إحدى آلهة (جيس)؟».

لاح الاضطراب على الدودة الرمادي إذ جاوب: «للإلهة أسماء عدَّة. إنها سيِّدة الحِراب وعروس المعارك وأمَّ الحيوش، لكن اسمها الحقيقي مقصور على هؤلاء الأحاد المساكين الذين أحرَقوا ذكورتهم على مذبحها. ليس سمومًا لنا أن نُحدِّث عنها الآخرين. هذا الواحد يستميحك العُذر».

- «كما تريد. نعم، يُمكنكم الاستحمام إذا أردتم. شكرًا على مساعدتكم».

- «هؤلاء الأحاد يحيون لخدمتك».

حين عادت داني إلى هرمها مضعضة الأوصال سقيمة القلب وجدَّت ميسانداي تقرأ مخطوطةً قديمةً فيما تجادلت إيرى وچيكوي حول راگارو. كانت چيكوي تقول: «أنتِ نحيلة للغاية، أقرب إلى صبي. راگارو لا يُضاجع الصَّبية. هذا معلوم»، فردَّت إيرى مغضبةً: «المعلوم أنك أقرب إلى بقرة. راگارو لا يُضاجع البقر».

أخبرتهما داني: «راگارو دم دمي، حياته تنتمي إليَّ لا إليكما». خلال غيابه عن (ميرين) ازداد طول راگارو نحو نصف قدم، وعادَ بذراعين وساقين غليظتي العضلات وأربعة أجراس في شعره، والآن يشمخ فوق آجور وچوجو، وهو ما لم يفت الوصيفتين. «والآن صمتًا. أريد أن أستحم». لم تُشعر من قبل بأنها ملوثة هكذا. «چيكوي، ساعديني على خلع هذه الثياب ثم خذيها وأحرقها. إيرى، قولي لكِّزَا أن تجد لي شيئًا خفيفًا أردتديه. النَّهار كان حارًا للغاية».

كانت رياح فاترة الحرارة تهبُّ في سُرفتها، وتنهَّدت داني مسرورةً إذ نزلت في مياه البركة، وبأمرها خلعت ميسانداي ثيابها وانضمت إليها. قالت المترجمة الصَّغيرة وهي تغسل ظهر داني: «هذه الواحدة سمعت الأستاپوريين يخذشون الأسوار ليلة أمس».

تبادلت إيرري وچيكوي نظرةً، وقالت الثانية: «لا أحد كان يخذش. يخذشون... كيف يخذشون؟».

أجابت ميسانداي: «بأيديهم. القرميد قديم ومتفتت. إنهم يُحاولون أن يحفروا طريقاً إلى داخل المدينة».

قالت إيرري: «سيستغرق هذا منهم سنيناً عدَّةً. الأسوار سميكة جداً. هذا معلوم».

رددت چيكوي: «هذا معلوم».

أمسكت داني يد ميسانداي قائلةً: «أنا أيضاً أحلمُ بهم. المخيمَّ يبعد نصف ميل كامل عن المدينة يا حلوتي. لم يكن أحد يخذش الأسوار».

قالت ميسانداي: «صاحبة الجلالة خير العارفين. هل أغسلُ شعركِ؟ حان الوقت تقريباً. رزناك مو رزناك وذات النعمة الخضراء قادمان لمناقشة...».

- «... تجهيزات الزفاف». اعتدلت داني جالسةً تنثر الماء، وقالت: «كدتُ أنسى». ربما أردتُ أن أنسى. «وبعدها سأتناولُ العشاء مع هيزدار»، وتنهَّدت مردفةً: «إيرري، اجلبي التوكار الأخضر الحرير المهدَّب بشرائط الزينة المايريَّة».

- «الخباطات يُصلحنه يا گاليسي. كانت شرائط الزينة ممزقةً. التوكار الأزرق نظيف».

- «الأزرق إذن. هذا أيضاً سيسرُّهم».

لم تكن مخطئةً، لكنها لم تكن مصيبةً تمامًا كذلك. سعدت الكاهنة والقهرمان لرؤيتها ترتدي توكارًا وتبدو كسيِّدةٍ ميرينيزيَّة أصيلة هذه المرَّة، لكن ما أراداه حقًا أن يُجرِّداها من ثيابها تمامًا. أنصتت دنيرس إليهما مصدومةً، ولمَّا فرغا قالت: «لا أفصدُ إساءةً، لكنني لن أقدم نفسي عاريةً لأُم هيزدار وأخواته».

قال رزناك مو رزناك محدِّقًا: «لكن... لكن يجب أن تفعلني هذا يا صاحبة

العبادة. التّقاليد تنصّ على أن تفحص نساء بيت الزّوج رحم العروس قبل الزّواج وه، آه... وأعضاءها الأثويّة، للتّأكد من أنها مكتملة التّكوين وه، آه...». أتمتّ جالازا جالار عبارته: «... خصيبة. إنه طقس عريق يا صاحبة الرّونق. ستحضر ثلاث من ذوات النّعم للشّهادة على الفحص وأداء الصّلوات اللازمة».

قال رزناك: «نعم، وبعدها ثمة كعكة خاصّة، كعكة نسائيّة تُخبز خصيصًا بمناسبة الخطبة. ليس مسموحًا للرجال بتذوّقها. قيل لي إنها شهية، ساحرة». وإذا كانت رحمي ذابلةً وأعضائي الأثويّة ملعونة فهل ثمة كعكة خاصّة لهذه المناسبة أيضًا؟ «يستطيع هيزدار زو لوراكي أن يفحص أعضائي الأثويّة بعد زواجنا». الكال دروجو لم يجد فيها عيبًا، فلم يجد هيزدار؟ «لنفحص أمّه وأخواته بعضهم بعضًا ويتقاسمن الكعكة الخاصّة، فلن آكل منها، ولن أغسل قدمي النّيبيل هيزدار النّيبيلتين!».

ردّ رزناك معترضًا: «يا صاحبة السّموم، لست تفهمين. غسل الأقدام تقليد مقدّس يدلّ على أنك صرتِ وصيفة زوجك. ثوب الزّفاف حافل بالمعاني أيضًا. العروس تضع براقع حمراء داكنة فوق توكار من الحرير الأبيض مهدّب باللالكي الصّغيرة».

لا يجب أن تتزوّج ملكة الأرانب دون أذنيها الرّخوتين. «كلّ هذا اللؤلؤ سيجعلني أخشخش حين أمشي».

- «اللؤلؤ يرمز للخصوبة. كلّمنا وضعت صاحبة العبادة لالكي أكثر أنجبت أطفالًا أصحاء أكثر».

سألّت داني: «ولم قد أريدُ مئة طفل؟»، والتفتت إلى ذات النّعمة الخضراء قائلة: «إذا تزوّجنا بالشّعائر الوستروسية...».

- «... فلن نعدّه آلهة (جيس) قرانًا حقيقيًا». كان وجه جالازا جالار مختفيًا وراء بُرّقع حريري أخضر، ولا يبدو منه إلّا عيناها الخضراوان الحكيمتان الحزبتتان. «في أعين المدينة ستكونين محظية النّيبيل هيزدار لا زوجته الشرعيّة، وسيكون أطفالكما نغولًا. يجب أن تتزوّج صاحبة العبادة هيزدار في (معبد ذوات النّعم) في حضور بُبلاء (ميرين) جميعًا لشّهادة قرانكما».

سبق أن قال لها داريو: آخر جي رُعماء العائلات النّيبيلة جميعًا من أهراهم

بِحُجَّةٍ ما. قالت لنفسها: النَّارُ والدَّمُ كلمتا التَّينِ، لكنها أزاخت الخاطر الذي لا يليق بها جانبًا، وزفرت قائلةً: «كما ترغبان. سأترَوِّجُ هيزدار في (معبد ذوات النِّعم) ملفوفةً بتوكار أبيض مهدَّب باللَّآلئِ الصَّغيرة. هل من شيءٍ آخَر؟».

قال رزناك: «مسألة واحدة صغيرة يا صاحبة العبادَة. احتفالًا بالعُرس سيكون مستحسنًا للغاية أن تسمحي بفتح حلبات القتال ثانيةً. ستكون هديَّة زفافكِ لهيزدار وشعبكِ المحب، دلالةً على أنكِ اعتنقتِ عادات وتقاليد (ميرين) العريقة».

أضافت ذات النِّعمة الخضراء بصوتها النَّاعم الرَّخيم: «ومرضاةٌ عظُمي للآلهة أيضًا».

ثَمَّن العروس المدفوع دمًا. سئمت دنيرس من خوض هذه المعركة. حتى السير باريستان لا يظنُّ أنها تقدر على الفوز بها، وأخبرها: «لا حاكم يستطيع أن يجعل شعبه صالحًا. بيلور المبارك صلَّى وصامَ وشيَّد لـ(السَّبعة) معبدًا رائعًا يتمنَّاه أيُّ إله، لكنه لم يستطيع أن يضع نهايةً للحرب والفاقة». قالت داني لنفسها مذكِّرةً: على الملكة أن نَصغي لشعبها. «بعد الزَّفاف سيُصبح هيزدار الملك. فليُعد فتح حلبات القتال إذا شاء. لا أريدُ أن تكون لي صِلَة بالأمر». فلتلوثُ الدَّماء يديه لا يدي. نهضت قائلةً: «إذا أرادني زوجي أن أغسل قدميه فليغسل قدمي أولاً. سأخبره بهذا مساء اليوم».

تساءلت كيف ستكون ردَّة فعل خطيبتها، ولكن لم يكن هناك داع للقلق. وصلَ هيزدار زو لوراك بعد ساعةٍ من غروب الشَّمس، يرتدي توكارًا خمريًا بشريطٍ ذهبي وحاشيةٍ من الخرز الذهبي، وبينما صبت له داني النيِّد أخبرته بمحادثتها مع رزناك وذات النِّعمة الخضراء، فأعلن: «إنها طقوس فارغة، بالضَّبَط الشَّيء علينا أن نطرحه جانبًا. (ميرين) استغرقت في هذه التَّقاليد الحمقاء القديمة زمنًا طويلًا للغاية»، ولثمَ يدها، وأردف: «دنيرس يا مليكتي، يسرُّني أن أغسلِك من رأسِك إلى قدميك إن كان هذا ما عليَّ أن أفعله لأكون ملكك وزوجك».

- «ما عليك لتكون ملكي وزوجي إلَّا أن تأتيني بالسَّلام. سكاهاز أبلغني بوصول رسائل إليك في الآونة الأخيرة».

قال هيزدار: «صحيح»، ووضع ساقًا طويلةً على ساقٍ طويلةٍ وقد بدا مسرورًا بنفسه، وتابع: «ستمحننا (يونكاي) السّلام، ولكن مقابل ثمن. تعطيل تجارة العبيد سبب أضرارًا عظيمةً في أنحاء العالم المتحضّر. (يونكاي) وحلفاؤها سيطلبون منا تعويضًا يُدفع بالذهب والأحجار الكريمة».

الذهب والأحجار الكريمة شرط سهل. «وماذا أيضًا؟».

- «سيستأنف اليونكيون النّخاسة كما من قبل، وسيُعاد بناء (أستاپور) كمدينة عبيد، ولن تتدخلني».

- «اليونكيون استأنفوا النّخاسة قبل أن أبتعد فرسخين عن مدينتهم، فهل عدت؟ الملك كليون ناشدني أن أنضمّ إليه ضدهم، وصممتُ أذني عن مناشدته. لست أريدُ حربًا مع (يونكاي)! كم مرّة يجب أن أقولها؟ ما الوعد التي يطلبونها؟».

قال هيزدار زو لوراك: «آه، هنا تكمن أشواك الزّهرة يا مليكتي. يؤسفني أن أقول إن (يونكاي) لا تثق بوعودك. إنهم لا يكفون عن العزف على وتر القيثارة نفسه، عن مبعوثٍ ما أحرقتَه تنانينك».

قالت داني بازراء: «لم يحترق إلّا توكاره».

- «على كلِّ حال، إنهم لا يثقون بك، وهذا هو شعور رجال (جيس الجديدة) أيضًا. الكلام هواء كما قلتِ بنفسك مرارًا، ولا كلام منك سيؤمن هذا السّلام لـ(ميرين). أعداؤك يطلبون أفعالًا. يريدوننا أن نتزوَّج، ويريدون رؤيتي متوجًّا ملكًا أحكمُ إلى جانبك».

أعادت داني ملء كأسه رغبةً بشدّة في أن تسكُب الإبريق على رأسه لتغرّق ابتسامته الرّاضية القانعة هذه، وقالت: «الزّواج أو المعمرة، الزّفاف أو الحرب. أهدان خياراي؟».

- «أرى خيارًا واحدًا فقط يا صاحبة الرّونق. لنردّد ندورنا أمام آلهة (جيس) ونبني (ميرين) جديدةً معًا».

كانت الملكة تصوغ جوابها في عقلها حين سمعتُ خطوةً خلفها، ففكرت: الطّعام. كان طهاتها قد وعدوا بتقديم وجبة النّبيل هيزدار المفضّلة، لحم الكلاب بالعسل، محشوًّا بالبرقوق المجفّف والفلفل. لكن حين التفتت رأّت السير باريستان واقفًا وراءها وقد تحمّم وارتدى الأبيض، وعلى جانبه

سيفه الطَّويل. قال منحنيًا: «جلالة الملكة، آسفٌ لإزعاجك، لكن خطرَ لي أنك ستريدين أن تعرفي في الحال. غربان العاصفة عادوا إلى المدينة بأخبار عن العدو. اليونكيون يزحفون كما خشينا».

ومَضَّ الضَّيقُ لحظَّةً على وجه هيزدار زو لوراكَ النَّبيل، وقال: «الملكة تتناول عشاءها. فلينتظر المرتزقة».

تجاهله السير باريستان، وتابع: «سألت اللورد داريو أن يُقدِّم تقريره لي كما أمرت صاحبة الجلالة، فضحك وقال إنه سيكتبه بدمه إذا أرسلت جلالة الملكة مترجمتها الصَّغيرة لثريه كيف يكتب الحروف».

مذعورةً قالت داني: «بدمه؟ أهذه دُعاة؟ لا، لا، لا تُخبرني. يجب أن أراه بنفسي». إنها فتاة صغيرة، ووحيدة، والصَّغيرات يُغيِّرن آراءهن. «استدع قادتي. هيزدار، أعلم أنك ستسامحني».

ابتسم هيزدار بكياسةً قائلاً: «يجب أن تأتي (ميرين) أولاً. سنحظى بليالٍ أخرى، ألف ليلة».

قالت داني: «السير باريستان سيصحبك إلى الخارج»، وأسرعت تُنادي وظيفاتها. لم ترغب في التَّرحيب بعودة قائدها مرتديَّة التوكار، وفي النهاية جرَّبت دستةً من الفساتين قبل أن تجد واحدًا أعجبها، لكنها رفضت التَّاج الذي عرضته جيكيوي عليها.

وثب قلبها في صدرها حين جثا داريو نهاريِس أمامها، شعره متلبَّد بالدمِّ الجاف، وعلى صُدغه جرح بليغ يلمع بالأحمر، وكُمه الأيمن دام حتى المرفق تقريبًا. قالت لاهثةً: «أنت جريح».

مسَّ داريو صُدغه قائلاً: «هذا؟ رامي نُسائيَّة حاول أن يغرَس سهمًا في عيني، لكني سبقته بحصاني. كنت مسرعًا إلى ملكتي لأتعمَّ بدفء بسمتها»، ونفَضَ كُمه نائراً فطيراتِ حمراء، وأضاف: «الدم ليس دمي. أحد رُقباي قال إن علينا أن نُنقل إلى اليونكيين، فمددتُ يدي في حلقه وانتزعتُ قلبه. أردتُ أن أجلبه هديةً لمليكتي الفضيَّة، لكن أربعةً من القُططة قطعوا عليَّ الطَّريق وهاجموني مزمجرين. كاد أحدهم يقبض عليَّ، فألقيتُ القلب في وجهه».

- «يا لشهامتك»، قال السير باريستان بنبرةٍ تُوحى بأنه لا يظنُّ هذا على الإطلاق. «هل لديك أخبار لصاحبة الجلالة؟».

- «أخبار صعبة يا جدِّي الفارس . (أستاپور) ضاعت، والنحاسون قادمون شمالاً بأعدادٍ غفيرة» .

دمدم الرَّأس الحليق: «أخبار قديمة بائنة» .

ردَّ داريو: «هذا ما قالته أمُّك عن قُبلات أبيك»، والتفتَ إلى داني قائلاً: «أيتها الملكة العذبة، كنتُ لأعجِّل بالمجيء، لكن التَّلال تعجُّ بمرتزقة اليونكيين، أربع جماعاتٍ حُرَّة. غربان العاصفة اضطروا إلى شقِّ طريقهم بينها جميعاً تفتيناً. هناك المزيد، وأسوأ. اليونكيون يزحفون بجيشهم على الطَّرِيق السَّاحلي وقد انضمت إليهم أربعة فيالق من (جيس الجديدة). إن معهم أفيالاً، مئة من الأفيال المدرَّعة ذات الأبراج. ومعهم نبالة تولوسيون أيضاً، وكتيبة من سلاح الجِمال الكارثيني. وثمة فيلقان جيسكاريان آخران ركبا سَفناً في (أستاپور). إذا قال أسرانا الحقيقة فإنهم يتنون إرسالهم وراء (السكاهازاذان) لقطع الطَّرِيق بيننا وبين (بحر الدوثراكي)» .

بينما حكى حكايته سقطت منه بين الحين والآخر قطرة من الدَّم الأحمر على الأرض الرُّخام لتجفل داني، وعندما فرغَ سألته: «كم رجلاً قُتلوا؟» .
- «منا؟ لم أتوقَّف لأحصي . لكننا كسبنا أكثر مما فقدنا» .

- «مزيد من المارقين؟» .

- «مزيد من الشُّجعان الذين اجتذبتهم قضيتك النَّبيلة . سيُعجبون مليكتي . أحدهم مُقاتل فؤوس من (جُزر البازيليسق)، بهيمة أكبر من بلواس . يجدر بك أن تربه . وبعض الوستروسيين أيضاً، عشرون أو أكثر، متهرَّبون من المذروين، لم يشعروا بالرُّضا عن اليونكيين . سيكونون غربان عاصفةٍ صالحين» .
- «إذا كان هذا رأيك» . لن تُجادله داني، فقد تحتاج (ميرين) قريباً إلى كلِّ رجل .

رمقَ السير بارستان داريو عابساً، وقال: «أيها القائد، ذكرت أربع جماعاتٍ حُرَّة، لكننا نعرف بوجود ثلاث فقط . المذروون والرِّماح الطَّويلة وجماعة القِط» .

قال داريو: «جدِّي الفارس يعرف العدَّ . الأبناء الثَّانون انقلبوا إلى اليونكيين»، وأشاح بوجهه وبصقَ، ثم أردفَ: «هذه لبن بلوم البني . حين أرى وجهه القبيح ثانية سأشقه من الحلق إلى العانة وأقتلع قلبه الأسود» .

حاولت داني أن تتكلم لكنها لم تجد كلمات. تذكرت وجه بن كما رأته آخر مرة. كان وجهًا دافئًا، وجهًا وثقتُ به. البشرة الدّاكنة والشعر الأبيض، والتجاعيد عند أركان عينيه. حتى التنانين كانوا مولعين ببن البني العجوز الذي أحب أن يزهو بأن في عروقه قطرة من دماء التنين أيضًا. ثلاث خياناتٍ ستعرفين، واحدة من أجل الذهب وواحدة من أجل الدم وواحدة من أجل الحب. هل يلوم الخيانة الثالثة أم الثانية؟ وفي هذه الحالة ماذا يكون السير جورا دُبها الغليظ؟ أَلن تحظى أبدًا بصديقٍ يُمكنها أن تُودعه ثقتها؟ ما جدوى النبوءات إن كنتُ لا أستطيعُ أن أدرك المغزى منها؟ إذا تزوجتُ هيزدار قبل شروق الشمس فهل ستذوب تلك الجيوش كندى الصّباح وتترُكني أحكمُ في سلام؟

أشعل إعلان داريو الهرج والمرج. كان رزناك يُولول، والرأس الحليق يمتّم بجهامة، وخيالة دمها يُقسّمون على الانتقام، ودق بلواس القوي بطنه النديب بقبضته وأقسم أن يأكل قلب بن البني مطهوءًا بالبرقوق والبصل. قالت داني: «أرجوكم»، ولكن لم يسمعها إلا ميسانداي، فنهضت الملكة ورفعت عقيرتها قائلة: «صمتًا! سمعتُ ما يكفي».

جثا السير باريستان على رُكبته قائلاً: «جلالة الملكة، نحن رهن إشارتك. ماذا تُريدنا أن نفعل؟».

- «واصلوا كما خططنا. اجمعوا كل ما تقدرّون عليه من طعام». إذا نظرتُ ورأيي فأنا ضائعة. «علينا أن نُغلق البوابات ونضع كل رجلٍ مقاتل على الأسوار. لا أحد يدخل ولا أحد يخرج».

ران الصّمت على القاعة لحظة إذ تبادل الرّجال النّظر، ثم سألهَا رزناك: «وماذا عن الأستابوريين؟».

أرادت أن تصرّخ، أن تكزّ على أسنانها وتُمزق ثيابها وتدقّ على الأرض، لكنها بدلًا من ذلك قالت: «أغلقوا البوابات. هل ستجعلونني أقولها ثلاثًا؟». إنهم أطفالها، إلا أنها لا تستطيع أن تمدّهم بالعون الآن. «اتركوني. داريو، ابق. لا بدّ من غسل هذا الجرح، ولديّ أسئلة أخرى لك».

انحنى الآخرون وانصرفوا، وأخذت داني داريو نهاريس إلى مسكنها بالأعلى، حيث غلست إيري جرحه بالخلّ وضمدته چيكنوي بالكثان، وبعدها صرفت وصيفاتها أيضًا، ثم قالت لداريو: «ثيابك ملوثة بالدماء. اخلعها».

قال: «بشرط أن تخلعي ثيابك أيضاً»، وقبلها.
في شعره روائح الدّم والدُّخان والخيول، وشعرت داني بفمه قوياً حارّاً
على فمها. ارتجفت بين ذراعيه، ولمّا افتَرَقا قالت: «حسبتك أنت خائني.
الدجالون قالوا مرّةً من أجل الذهب ومرّةً من أجل الدّم ومرّةً من أجل الحُب.
تصوّرتُ... لم أتصوّر قطّ أن يكون بن بلوم. حتى تنانيني بدا أنهم يثقون
به»، وأمسكت قائدها من كتفيه مردفةً: «عدني بأنك لن تنقلب عليّ أبداً. لن
أحتمل ذلك. عدني».

- «مستحيل يا حبيبتى».

وصدّقتّه داني، وقالت: «أقسمتُ أن أتزوِّج هيزدار زو لوراكي إذا منحني
تسعين يوماً من السّلام، لكن الآن... لقد أردتك منذ رأيتك أول مرّة، لكنك
كنت مرتزقاً خدّاعاً خوّاناً، وتباهيت بأنك جامعت مئة امرأة».
قهقهة داريو من تحت لحيته الأرجوانية قائلاً: «مئة؟ كذبتُ يا مليكتي
الجميلة. كُنّ ألفاً، ولكن ولا واحدة منهن كانت تنيّة».
رفعت شفيتها إلى شفّتيه متسائلةً: «ماذا تنتظر؟».



أمير وينترفل

الرِّمَادُ الأسود متكتل في المستوقد، ولا حرارة في الغُرفة إلا تلك المنبَعثة من الشموع التي متى انفتحَ باب تراقصٍ لَهَا وارتجفَ. كانت العروس ترتجف أيضًا. ألبسوها فُستَانًا من صوف الحملان الأبيض المزركش بشرائط الزَّيْتِنة وعلى كُمِّيهِ وصدره لآلئ المياه العذبة، وانتعلت حُفَّين من جلد الطُّبَاء الأبيض، جميل شكلهما لكنهما لا يُدْفئَان قَدَميها.

وجهها ممتع غاصت منه الدَّماء، وقد فكَّر ثيون جرايچوي وهو يضع معطفاً مزِينًا بالفرو على كتفيها: وجه منحوت من الجليد، جثة مدفونة في الثلج. «حان الوقت يا سيِّدتي». كانت الموسيقى تُناديها من وراء الباب، العود والمزمار والطُّبلة.

رفعت العروس عينيها، عينين بنيتين تلمعان في ضوء الشموع، وقالت: «سأكونُ زوجةً صالحَةً له، وممخْلِصةً. س... سأرضيه وأنجبُ له أبناءً. سأكونُ زوجةً أفضل من آريا الحقيقيَّة، سيري».

مثل هذا الكلام سيؤدِّي بك إلى القتل أو أسوأ. لقد تعلمَ هذا الدَّرْس وهو ريك. «أنتِ آريا الحقيقيَّة يا سيِّدتي، آريا سليلة عائلة ستارك، ابنة اللورد إدارد، وريثة (وينترفل)». اسمها، يجب أن تعرف اسمها. «آريا المُداسة. أختكِ اعتادت دعوتكِ بآريا وجه الحصان».

قالت: «أنا من ابتكرتُ هذا الاسم. كان وجهها طويلًا كوجه الخيل. وجهي ليس كذلك. كنتُ جميلةً»، وانسكبت الدَّموع من عينيها أخيرًا إذ واصلت: «لم أكن بحُسن سائزاً قطُّ، لكنهم قالوا جميعًا إنني جميلة. هل يراني اللورد رامزي جميلة؟».

أجاب كاذبًا: «نعم، لقد أخبرني بنفسه».
- «لكنه يعرف من أنا، من أنا حقًا. أرى هذا كلِّما نظر إليَّ. يبدو غاضبًا جدًا، حتى وهو مبتسم، لكنها ليست غلظتي. يقولون إنه يحبُّ إيداء النَّاسِ».
- «لا يجدرُ بسيدتي أن تُصغي إلى هذه... الأكاذيب».
- «يقولون إنه أذاك. يداك و...».

قال بفم جاف: «اسم... استحققتُ هذا. لقد أغضبتَه. يجب ألا تُغضِبه. اللورد رامزي رجل... حليم وعطوف. أرضيه وسيعاملك بلُطف. كوني زوجةً صالحةً».

قالت متشبِّهةً به: «ساعدي، أرجوك. لقد اعتدتُ مشاهدتك في السَّاحة تلعب بالسُّيوف. كنتِ وسيماً للغاية»، واعتصرت ذراعه متابعَةً: «إذا فررنا فيمكنني أن أكون زوجتك أو... أو عاهرتك... كما تُريد. يُمكنك أن تكون رجلي».

انتزع ثيون ذراعه قائلاً: «لستُ... لستُ رجلُ أحد». كان رجلٌ ليساعدها. «فقط... فقط كوني آريا، كوني زوجته. أرضيه وإلا... أرضيه فقط، وكفِّي عن هذا الكلام عن كونك واحدةً أخرى». چين، اسمها چين، على قافية حزين. كانت الموسيقى ترتفع بإصرار، فقال لها: «حان الوقت. امسحي هذه الدُموع من عينيك». عينان بيتَّان. المفترَض أن تكونا رماديتين. أحدهم سيرى، أحدهم سيتذكَّر. «عظيم. والآن ابتمسي».

حاولت الفتاة. اختلجت شفتاها وانفجرتا وتجمدتا على هذا الوضع فرأى أسنانها. أسنان بيضاء نضيدة، لكن إذا أغضبتَه فلن تظلَّ نضيدةً طويلاً. حين فتح الباب انطفأت ثلاث من الشَّمعات الأربع، وقاد ثيون العروس إلى الصُّباب حيث ينتظر ضيوف الرِّفاف.

عندما أخبرته الليدي داستن بأن عليه تسليم العروس سألها: «لماذا أنا؟».
- «أبوها وإخوتها ماتوا جميعاً، وأمُّها قُتلت في (التَّوأميتين)، وعمَّها أحدهما مفقود والثاني ميت، وخالها أسير».

- «ما زال لها أخ». كان ليقول: ما زال لها ثلاثة إخوة. «چون سنو مع حرس اللَّيل».

- «أخ غير شقيق ونغل ومرهون بـ(الجدار). أنت كنت ربيب أبيها، أقرب شيءٍ إلى ذي قُربى حي. واجبك أن تُسلم يدها للزَّواج».

أقرب شيء إلى ذي فُربي حي. ثيون جرابجوي نشأ مع آريا ستارك، وكان يعرف إن كانت الفتاة زائفة، وإذا شوهدَ يقبل فتاة بولتون باعتبارها آريا فلن يجد اللوردات الشماليون الذين اجتمعوا لشهادة الرِّاف أساسًا للتشكيك في شرعيتها. ستاوت وسليت، وباقر العاهرة أومبر، وآل ريزويل المشاكسون، ورجال هورنوود وأبناء عمومة سروين، واللورد البدين وإيمان ماندري... لا أحد منهم يعرف ابنة ند ستارك كما يعرفها ثيون، وإذا كانت الشكوك تُساور بعضهم فمؤكَّد أنهم بالحكمة الكافية للاحتفاظ بها لأنفسهم.

يستغلونني لستر خديعتهم، يضعون وجهي على كذبتهم. لهذا السبب أبسه رروس بولتون ثياب السادة ثانية، ليلعب دوره في هذه التمثيلية الهزلية، وما إن يتم هذا، ما إن تُزفَ آريا الزائفة إلى رامزي ويُصاحبها، فلن تعود لدى بولتون حاجة إلى ثيون المارق. كان حضرة اللورد قد أخبره بصوته الناعم المخلوق للهمسات والأكاذيب: «اخدمنا في هذه المسألة، وحين يُهزم ستانيس سنناقش أفضل وسيلة لاستعادتك مفرَّ أبيك». لم يصدِّق ثيون كلمة، لكنه سيرقص هذه الرقصة من أجلهم لأنه لا يملك خيارًا، وبعدها... سيُعديني إلى رامزي، وسيأخذ رامزي بضعة أصابع أخرى ويحوِّلني إلى ريك ثانية. ما لم تنكِّم الآلهة ويهجم ستانيس باراثيون على (وينترف) ويقتلهم جميعًا، بمن فيهم هو. ذلك أقصى ما يمكنه أن يتمنى.

من الغريب أن الجوَّ أدفأ في أيقة الآلهة، لكن وراء ثخومها يُغشي (وينترف) تجمد أبيض صلد. الطرقات خداعة مكسوة بالجليد الأسود، والصقيع يبرق في ضوء القمر المنعكس على ألواح الصوبة الزجاجية المكسورة، وقد ارتفعت أكوام الثلج القديم عند الجدران مائة كلَّ تجويفٍ وشق، بعضها عالٍ لدرجة أنها تُخفي الأبواب وراءها. تحت الثلج رماد وخبث، وهنا وهناك عارضة سقفٍ مسودة أو كومة من العظام المزوقة ببقايا الجلد والشعر. من الشرفات تتدلى كتل جليدٍ طويلة كالرِّماح وتهدِّب الأبراج كشوارب رجل عجوز بيضاء يابسة، لكن داخل أيقة الآلهة لم تتجلد الأرض، والبُخار يتصاعد من البرك الساخنة دافئًا كأنفاس رضيع.

ارتدت العروس الأبيض والرَّمادي، اللّونين اللذين كانت آريا الحقيقية لترتديهما لو عاشت لتتزوَّج، في حين ارتدى ثيون الأسود والذهبي، وثبت

معطفه إلى كتفه دُبوس غير متقن الصُّنع لكرّاكن من الحديد صنعه له حدّاد (بلدة الرّوابي). لكن تحت قلنسوته شعره أبيض خفيف، ولبشرته لون رمادي باهت كالهرمين. من آل ستارك أخيراً. متأبّطه ذراعاه، مرّت العروس معه من باب حجري مقنطر فيما تراقصت خيوط الصُّباب حول أقدامهما. صوت الطُّبل واجف كقلب فتاة صغيرة، والمزامير عالية عذبة تجتذبك إليها. فوق قمم الأشجار يطفو هلال في السّماء المظلمة ويُواري الصُّباب نصفه، كعين تنظر عبر حجاب من الحرير.

ليست أيكة الآلهة هذه غريبة على ثيون جرايچوي. لقد لعب هنا في صباه، يُنطط الأحجار على سطح البركة السوداء تحت شجرة الويروود، ويخبّي كنوزه في جذع سنديانة عتيقة، ويتدبّص بالسّناجب بقوس صنعه بنفسه. ولاحقاً، وقد كبر بعض الشّيء، كثيراً ما كان يغمس رضوضه في الينابيع السّاخنة بعد التّدريب في السّاحة مع روب وچوري وچون سنو. وسط أشجار الكستناء والدردار والصنوبر الجُندي هذه وجد أماكن سرّية يختفي فيها حين يبغى العزلة، وأول مرّة قبل فتاة كانت هنا، ولاحقاً جعلت فتاة مختلفة منه رجلاً فوق لحافٍ رث في ظلّ شجرة الحارس الطويلة هذه.

بيد أنه لم ير أيكة الآلهة في هذه الصّورة قط، رمادية شاحبة ملأى بالغيوم الدّافئة والأضواء الطّافية والأصوات الهامسة التي تأتي في آنٍ واحدٍ من كل مكانٍ ولا مكان. تحت الأشجار تبعث الينابيع السّاخنة بُخارها، وترتفع أبخرة دافئة من الأرض مكفّنة الأشجار بأنفاسها الرّطبة وزاحفة على الجدران تُسدل ستائر رمادية على النّوافذ المطّلة.

ثمّة طريق -نوَعاً- هنا، ممشى من الحجارة المتشقّقة التي تنمو منها الطّحالب بكثافة ويدفنها جُزئياً التُّراب المذرّو والأوراق السّاقطة، وتجعلها خداعةً الجذور البنية الغليظة البارزة من أسفل. قادّ ثيون العروس على الممشى مفكراً: چين، اسمها چين، على قافية حزين. لكن يجب ألا يفكر في ذلك. إذا خرج الاسم من بين شفثيه فقد يكلفه إصبعاً أو أذنًا. مشى على مهل حارصاً على كلّ خُطوة، فأصابع قدميه المفقودة تجعله يعرج إذا أسرع، ولن يصلح أن يتعثر. أفسد زفاف اللورد رامزي بزلّة وقد يتدارك اللورد رامزي ذلك الخرق بسلخ القدم المخطئة.

الصَّبَابُ كثيفٌ للغاية حتى إن المرئيَّ من الأشجار أقربها فقط، ووراءها ظلالٌ طويلةٌ وأضواءٌ واهنةٌ، وعلى جانب الممشى وبين الأشجار تنبذُ الشُّمُوعُ كِيرَاعَاتٍ شاحبةً طافيةً في حَسَاءِ رماديٍ دافئ. شعرُ كأنه في عالمٍ سُفليٍّ غريبٍ، في مكانٍ ما بين العوالم لا يعرف الزَّمن، حيث يتسكَّعُ الملعونون الحزانيُّ بعض الوقت قبل أن ينزلوا إلى الجحيم التي أفصَّت بهم إليها خطاياهم. أنحن موتي جميعاً إذن؟ هل جاء ستانيس وقتلنا ونحن نائمون؟ هل ستقوم المعركة أم أنها قامت بالفعل وانتهت بالهزيمة؟

هنا وهناك يتقد مشعل بجوعٍ ملقياً وهجاً محمراً على وجوه حاضري الزَّفاف، وقد جعل الصُّوء المتبدل المنعكس على الصَّبَاب ملامحهم تبدو حيوانيةً، شبه بشريةً، مشوهةً. أصبح اللورد ستاوت درواسا، واللورد لوك عَقَابًا، وباقر العاهرة أومبر كَرَجَلًا، ووالدر فراي الكبير ثعلبًا، ووالدر الصَّغير ثورًا أحمر يفتقر فقط إلى خاتم في أنفه. أمَّا وجه رويس بولتون فقناع باهت، وحيث يجب أن تكون عيناه نَمَّة رُقَاقَتان من الثلج المتسَخ.

فوق رؤوسهم تمتلئ الأشجار بالغدِفاء الجاثمة بريشٍ منفوش على الفروع البنية الجرداء تُشاهد الاحتفال بالأسفل. طيور المايستر لوين. مات لوين واحترق بُرج المايستر، لكن الغدِفاء باقية. هذا موطنها. تساءل ثيون عن كنه ذلك الإحساس، أن يكون له موطن.

ثم انشقَّ الصَّبَاب كستارٍ يُفْتَح في مسرحيةٍ ليكشف عن مشهدٍ جديد. ظهرت شجرة القلوب أمامهما بأسطة أطرافها العظمية المتشعبة، تتراكم أوراقها الساقطة حول الجذع الأبيض في أكوام من الأحمر والبني، وفوق الشجرة الغدِفاء كثرةٌ كاثرة، تتبادل التمتمة بلُغة السَّرْب السريَّة. وقف رامزي بولتون تحتها منتعلًا حذاءً طويل الرِّقبة من الجلد الرَّمادي اللدن، ومرتدياً سِتْرَةً من المخمل الأسود المشرَّط بالحرير الوردي الذي تلتصق عليه قطرات دموع من العقيق الأحمر. تلاعبت ابتسامته على وجهه فوق عنقه الأجرم البارز من ياقته، وبشفيتين رطبتين سأل: «مَن يأتي؟ مَن يأتي أمام الآلهة؟».

أجاب ثيون: «أرى سليلة عائلة ستارك أتت هنا تتزوَّج، امرأة بالغة مزهرة وابنة شرعية نبيلة أتت تتوسَّل بركات الآلهة. مَن يأتي بطلها؟».

أجاب رامزي: «أنا، رامزي سليل عائلة بولتون، سيّد (هورنود) ووريث (معل الخوف). أنا أطلبها. من يُسلمها؟».

- «ثيون سليل عائلة جرابچوي، الذي كان ربيب أبيها»، والتفت إلى العروس متسائلاً: «ليدي آريا، هل تقبلين هذا الرَّجل؟».

رفعت عينها إليه. عيناها بنيتان لا رماديتان. أهما عمي جميعاً؟ للحظة طويلة لم تتكلم، لكن الصّراعة لاحت في هاتين العينين. ها هي ذي فرُصتك. أخبرهم، أخبرهم الآن، ارفعي صوتك باسمك الحقيقي أمام الجميع، قولي لهم إنك لست آريا ستارك، أخبري الشمال كله كيف أجبروك على لعب هذا الدور. سيعني هذا موتها حتماً، وموته أيضاً، ولكن قد يقتلها رامزي سريعاً في غضبته. قد تهب لهما آلهة الشمال القديمة هذه العطيّة الصّغيرة.

أجابت العروس هامسةً: «أقبل هذا الرَّجل».

في كلّ اتجاهٍ حولهم ثومض الأضواء عبر الغيوم، مئة شمعةٍ شاحبة كالنجوم المحتجة. تراجع ثيون، وأمسك رامزي يد عروسه وركعا أمام شجرة القلوب خافضين رأسيهما دلالةً على الخضوع، وحدقت إليهما عينا الوريود الحمران المنقوشتان، فمها الأحمر الكبير مفتوح كأنما يضحك، ووسط الفروع بالأعلى نعى عُداً.

بعد لحظةٍ من الصّلاة الصّامته نهض الرَّجل والمرأة، وخلع رامزي المعطف الذي وضعه ثيون على كتفي العروس قبل دقائق، المعطف الصّوف الأبيض الثّقل المؤطّر بالفرو الرّمادي والمزين بذئب عائلة ستارك الرّهب، وبدلاً منه وضع معطفاً وردياً مزيناً بالعقيق الأحمر كسُترته، على ظهره رجل (معل الخوف) المسلوخ المطرّز بجلدٍ أحمر يابس يبدو كالحاقيصا.

وبهذه السّرعة قُضي الأمر. تستغرق الزّافات وقتاً أقصر في الشّمال، ويظنُّ ثيون أن هذا يرجع إلى عدم وجود رُهبان، لكن أيّاً كان السّبب فإنها تبدو له رحمةً. حمل رامزي بولتون زوجته بين ذراعيه وتقدّم بها مقتحماً الضّباب، وتبعه اللورد بولتون وزوجته الليدي والدا ثم الآخرون. بدأ الموسيقيّون يعزفون من جديد، وشرع الشّاعر إيبيل يُعني (قلبان ينبضان كواحد)، وانضمّت إليه اثنتان من نسوته ليصنعوا معاً لحناً متناغماً عدباً.

وجد ثيون نفسه يتساءل إن كان عليه أن يُصلي. هل ستسمعي الآلهة

القديمة إذا صليتُ؟ ليست هذه آلهته ولم تكن كذلك قطُّ. إنه حديدي
الميلاد، ابن (بايك)، إلهه إله الجُزر الغريق... لكن (ويتترفل) تبعد فراسخ
طويلة عن البحر. لقد مضى عُمر كامل منذ سمعه إله، ولا يدري من يكون
وماذا يكون ولم لا يزال حيًّا ولم ولِد من الأصل.

ثم خيَّل إليه أن صوتًا يهمس: «ثيون».

بحدّة رفع رأسه سائلًا: «من قال هذا؟»، ولم يرَ إلاّ الأشجار والضّباب
الذي يكسوها. كان الصّوت خافتًا كحفيف الأوراق، باردًا كالكراهية. صوت
إله، أو صوت شيخ. كم شخصًا مات يوم استولى على (ويتترفل)؟ وكم يوم
فقدّها؟ يوم مات ثيون جرايچوي ليؤلّد ثانيةً في صورة ريك. ريك، ريك،
على قافية أرديك.

فجأة لم يعد يُريد البقاء هنا.

فور أن خرج من أيقة الآلهة انقضّ عليه البرد كذئب مفترس وأطبق عليه
بأسنانه، فخفض رأسه في الرّيح وشقّ طريقه نحو القاعة الكُبرى مسرعًا وراء
طابور الشُّموع والمشاعل الطويل. انسحقّ الجليد تحت حذائه، ودفعت هبةً
مفاجئة قلنسوته كأن شبحًا انتزعها بأصابع متجلّدة متجوّعًا لرؤية وجهه.

(ويتترفل) ملأى بالأشباح في عين ثيون جرايچوي.

هذي ليست القلعة التي يذكّرها من صيف شبابه. المكان مشوّه مكسور،
خراب أكثر من معقل، مثنى للغدقان والجُثث. ما زال السُّور الواقي
المزدوج العظيم قائمًا، فالجرانيت لا يستسلم بسهولة للنّار، لكن غالبية
الأبراج والحصون بالداخل بلا سقوف، وبعضها انهار. التهمت النيران
القش والأخشاب كليًّا أو جزئيًّا، وتحت ألواح الصُّوبة الرّجائية المحطّمة
الخضراوات التي كانت لتُطعم القلعة خلال الشّتاء ميتة وسوداء ومتجمّدة.
تملأ السّاحة الخيام شبه المدفونة في الثلج، إذ جلب رروس بولتون جيشه
إلى داخل القلعة ومعه أصدقاؤه أبناء فراي، فتزاحم الآلاف بين الأطلال
شاغلين كلّ باحة وفناء، ينامون في الأقبية وتحت أبراج عديمة السُّقوف
وداخل مباني مهجورة منذ قرون.

تصاعدت أعمدة الدُّخان الرّمادي من المطابخ المعاد بنائها والثكنات

المزودة بسقوفٍ جديدة، وتُوَجِّحُ الشُّرَفَاتِ والشُّرَافَاتِ⁽¹⁾ بالثلج وتدلَّت منها كُتَلُ الجليد، فغَابَتِ الألوانُ كُلُّهَا من (وينترفل) حتى تَبَقِيَ الأبيض والرَّمادي وحدهما. لونا عائلة ستارك. لا يدري ثيون إن كان حريًّا به أن يجد في هذا مدعاةً للتشاؤم أم التثاؤل. حتى السَّمَاءِ رَمَادِيَّة. رمادي هنا وهناك وفي كلِّ مكان. العالم كله رمادي أينما نظرت، كلُّ شيءٍ رمادي باستثناء عينيَّ العروس. عينا العروس بنيتان. كبيرتان وبنيتان ومفعمتان بالخوف. لم تكن فكرةً سديدةً أن تتطَّلِعَ إليه ليُقْبِذَهَا. ماذا كانت تحسب؟ أنه سيُطْلَقُ صَفِيرًا يُنادي حصانًا مجنَّحًا ويطير بها من هنا كأحد أبطال القِصص التي أَحَبَّتْهَا سانزا؟ إنه لا يستطيع أن يُسَاعِدَ نفسه حتى. ريك، ريك، على قافية ريك.

في كلِّ أنحاء السَّاحَةِ يتدلَّى الموتى شبه متجمِّدين من حبال القنْب، وجوههم المنتفخة مبيضة من الصَّقيع. كانت (وينترفل) تعجُّ بواضعي اليد حين بلغت طليعة جيش بولتون القلعة. طُرِدَ أكثر من دستين منهم بحدِّ الحربة من الأعشاش التي صنعوها بين الحصون والأبراج الخربة، وشُنِقَ أجراهم وأُشْرَسَهُمْ وكُلِّفَ الباقيون بالعمل، وقال لهم اللورد بولتون أن يُحْسِنُوا الخدْمَةَ وسُيَعَامِلُهُمْ برحمة. الأحجار والأخشاب وفيرة في (غابة الذئاب) القريبة، فقامت بوابات جديدة قويَّة أولاً بدلاً من تلك التي احترقت، ثم أزيلَ سقف القاعة الكبرى المتهاوي ووُضِعَ واحد جديد في مكانه على عجل، وحين انتهتِ العمل شتق اللورد بولتون العمَّال، وقد برَّ بكلمته وأبدى الرَّحْمَةَ ولم يَسْلُخْ أحدًا منهم.

في ذلك الحين كانت بقيَّة جيش بولتون قد وصلت. رُفِعَ وعل تومن وأسده فوق أسوار (وينترفل) فيما هبَّت الرِّيح تعوي من الشَّمال، وتحت راية الملك رُفِعَ رجل (معقل الخوف) المسلوخ. وصل ثيون مع موكب باربري داستن، مع حضرة الليدي نفسها وجُنْد (بلدة الرُّواي) والعروس، إذ أصرَّت الليدي داستن على أن تظلَّ الليدي آريا تحت وصايتها حتى الرِّفاف، وقد تمَّ هذا. إنها تنتمي إلى رامزي الآن. لقد ردَّدت النُّدور. بهذه الرِّيجة يُصبح رامزي سيِّد

(1) الشُّرَافَاتُ هي الرُّوَادُ الحجريَّة التي تُبنى وبينها فراغات تُسمَّى الثُّلمات على قمم الأبراج والأسوار والحصون. (المترجم).

(ويتترفل)، وما دامت چين حريصةً على عدم إغضابه فمن المفترض ألا يجد سبباً لإيذائها. آريا، اسمها آريا.

حتى في قفازيهما المبطنين بالفرو بدأت يدا ثيون تنبضان ألماً. غالباً ما يحسُّ بأسوأ الألم في يديه، بالذات في أصابعه المفقودة. هل كان هناك وقت حقاً اشتاقت فيه النساء إلى لمستته؟ جعلتُ نفسي أمير (ويتترفل)، ومن ذلك جاء كلُّ هذا. لقد تصوّر أن الناس سيُغنون عنه مئة عام ويحكون الحكايات عن جراته، لكن إذا تكلموا عنه الآن فإنهم يذكرونه باعتباره ثيون المارق، وحكاياتهم عن خيانته. لم تكن هذه داري قط. كنتُ رهينةً هنا. لم يُعامله اللورد ستارك بقسوة، ولكن لطالما ظلَّ ظلُّ سيفه الفولاذي العظيم بينهما. عاملني بكياسة ولكن ليس بدفءٍ إطلاقاً. كان يعلم أنه قد يضطرُّ إلى قتلي ذات يوم.

أبقى ثيون عينيه منخفضتين وهو يقطع السّاحة شاقاً طريقه بين الخيام. تعلّمتُ القتال في هذه السّاحة. تذكّر الأيام الصّيفيّة الدافئة التي قضاها في التّزال مع روب وچون سنو تحت عيني السير رودريك اليقظتين. كان ذلك وهو كامل يستطيع الإمساك بمقبض سيفٍ كأني رجل طبيعي. إلا أن السّاحة تحمل له ذكريات سيئة أيضاً. هنا جمع قوم ستارك ليلة فرار بران وريكون من القلعة. كان رامزي هو ريك آنذاك، يقف إلى جانبه ويهمس أن عليه أن يسلخ بعض أسراه ليجعلهم يُخبرونه بمكان الصّبيين، فردّ ثيون: لن يسلخ أحد هنا ما دمتُ أمير (ويتترفل)، ولم يكن يخال كم سيكون عهده قصيراً. لم يتحرّك أحد منهم ليُساعدي. عرفتهم نصف حياتي ولم يتحرّك أحد منهم قيد أنملة ليُساعدي. وعلى الرغم من ذلك بذلَّ قصارى جهده ليُساعدهم، ولكن بمجرد أن خلع رامزي قناع ريك قتل الرّجال جميعاً وحديديّ ثيون أيضاً. وأشعل النّار في حصاني. كان ذلك آخر مشهدٍ رآه يوم سقطت القلعة، سمائلر يحترق، يرتفع اللّهب من لبدته إذ رفع قائمته الأماميتين يرفس ويصرخ وقد ابيضّت عيناه رعباً. هنا في هذه السّاحة.

لاخ باب القاعة الكُبرى أمامه، باب جديد حلَّ محلّ الذي احترق، وبدت له ألواح الخشب الخام المثبّته معاً على عجل بدائيّة قبيحة. يقف حاملاً حِراب حراسةً، وقد انكمشا على نفسيهما وراحا يرتجفان تحت معطفيهما

الفرو السَّميكين واكتسبت لحيتهما بقشرة من الجليد. رمقا ثيون بامتعاضي وهو يحجل صاعداً السَّلام، قبل أن يدفع مصراع الباب الأيمن ويخطو إلى الدَّاخل.

وجد القاعة دافئةً على نحوٍ محبَّبٍ وتسطع في أرجائها أضواء المشاعل، وأشدُّ ازدحاماً من أيِّ مرَّةٍ رآها فيها. ترك ثيون الحرارة تغمره ثم شقَّ طريقه إلى مقدِّمة القاعة. جلس الرَّجال محشورين على الدَّكك، ملتزِّين لدرجة أن الخدم يمرُّون من بينهم بعُسر، وحتى الفرسان واللوردات فوق الملح تمَّعوا بمساحةٍ أضيق من المعتاد.

قُرب المنصَّة كان إيبل يَنقُر على أوتار عوده ويُغني (حسناوات الصَّيف). يُسمِّي نفسه شاعراً، والحقيقة أنه أقرب إلى قوَّاد. جلب اللورد ماندرلي معه موسيقيَّين من (الميناء الأبيض)، لكن أحداً منهم لا يُغني، وهكذا حين ظهر إيبل عند البوابة ومعه عود وستُّ نساء فُوبل بالترحاب. «أختان وابنتان وزوجتي وأمِّي العجوز». هكذا ادَّعى المغني، ولو أن ولا واحدة منهن تُشبهه. «بعضهن راقصات، وبعضهن مغنَّيات، وإحداهن تعزف على المزمار وأخرى على الطُّبلة. إنهن غسَّالات جيِّدات أيضاً».

سواء أكان شاعراً أم قوَّاداً فصوت إيبل مقبول وعزفه طيب، وهذا أفضل ما يُمكن أن يتوقَّعه المرء بين الأطلال.

على الجُدران رايات معلَّقة: رؤوس خيول آل ريزويل بالذهبي والبنِّي والرَّمادي والأسود، وعملاق عائلة أومبر الهادر، ويد آل فلينت أولاد (إصبع فلينت) الحجريَّة، وموظ عائلة هورنوود وعريس بحر عائلة ماندرلي، وفأس سروين الحربيَّة السَّوداء وصنوبرات تولهارت... لكن ألوانها الزَّاهية لم تُفلح في إخفاء الجُدران المسوَّدة ورائها تماماً، ولا الألواح التي تُغلق الفتحات التي كانت من قبل نوافذ. حتى السَّقْف خطأ، ألواحه الخام الجديدة فاتحة اللون، على عكس العوارض القديمة التي سوَّدها الدُّخان عن آخرها تقريباً على مرِّ القرون.

أكبر الرِّايات وراء المنصَّة، حيث عُلق ذئب (وينترفل) الرَّهيب ورجل (مقل الخوف) المسلوخ ورائ العروس والعريس. أصاب مشهد راية ستارك ثيون بضربةٍ أعنف مما توقع. خطأ، هذا خطأ، خطأ كعينيها. راية عائلة پوول

طبق أزرَق على خلفيّة بيضاء داخل إطارٍ رمادي مثلث. تلك هي الرّاية التي كان عليهم تعليقها.

بينما مرّ قال أحدهم: «ثيون المارق»، وأشاح بعضهم بوجهه لمرآه، ووصق آخر. ولم لا؟ إنه الخائن الذي استولى على (ويتترفل) غدراً وقتل أخويه بالتربية وقاد قومه إلى السِّلخ في (خندق كايلن) وسلّم أخته بالتربية إلى فراش اللورد رامزي. قد يستغله رروس بولتون، لكن مؤكّد أن السّماليين الحقيقيين يحتقرونه.

جعلت الأصابع المفقودة من قدمه اليسرى مشيته منحرفة خرقاء هزليّة المنظر. من ورائه سمع امرأة تضحك. حتى هنا في هذه القلعة المقبرة شبه المتجمّدة، ووسط الثلوج والجليد والموت، ما زالت هناك نساء. غسّلات. إنها الطريفة المهذّبة لقول «تابعات معسكرات»، وهي الطريفة المهذّبة لقول «عاهرات».

لا يدري ثيون من أين يأتين، ويبدو له أنهن يظهرن فحسب، كاليرقات على جثة أو الغدبان بعد معركة. كل جيش يجتذبهن. بعضهن عاهرات متمرّسات يستطعن مضاجعة عشرين رجلاً في الليلة ومباراتهم في الشرب حدّ العمى، وأخريات تبدو عليهن براءة العذارى لكنها مجرد واحدة من حيل مهنتهن، وبعضهن عرائس معسكرات مرتبطات بالجنود الذين يتبعنهم بكلمات هُمست لإليه أو غيره، ولكن محكوم عليهن بالنسيان حالما تضع الحرب أوزارها. أولئك يدفئن سرير الرّجل ليلاً، ويرتقن حذاء المثقوب صباحاً، ويطبّخن عشاءه عند الغسق، ويسرقن متعلّقاته من جسّته بعد المعركة، وبعضهن يغسل الثياب أيضاً. في أغلب الأحيان يأتي معهن أطفال نغول، مخلوقات قذرة بائسة مولودة في معسكر أو آخر... وحتى أمثالهن يسخرن من ثيون المارق. فليضحكوا. لقد ماتت كبرياؤه هنا في (ويتترفل)، فلا مجال لها في زنازين (معقل الخوف). إن خبر المرء قبلة سكين السِّلخ فقد الصّحك قُدرته كلّها على إيلامه.

منحه دمه وميلاده مكاناً على المنصّة في طرف المائدة العالية عند الحائط. جلست إلى يساره الليدي داستن متّشحة كدأبها بالصفوف الأسود المحتشم

الخالي من الزينة، وإلى يمينه لا أحد. يخشون جميعاً أن يُصابوا بعدوى العار. لو يجرؤ لضحك.

اتَّخذت العروس موضع الشرف الأسمى بين رامزي وأبيه، وجلست خافضةً عينها فيما طلب رروس بولتون من ضيوفه أن يشربوا نخب الليدي آريا، وقال: «في أطفالها ستصبح عائلتنا العريقتان واحدةً وتنتهي العداوة الطويلة بين ستارك وبولتون». صوته خفيض لدرجة أن القاعة لاذت بالصمت وأرهف الرجال آذانهم ليسمعوا. واصل: «يُؤسفني أن صديقنا العزيز ستانيس لم ينضم إلينا بعد»، فتفجّر الضحك. «أعلم أن رامزي كان يأمل أن يُقدّم رأسه لليدي آريا هديةً»، وتضاعف الضحك. «حين يصل سُرْحَب به ترحيباً عظيماً، ترحيباً يليق بالشماليين الحقيقيين. حتى ذلك الحين دعونا نأكل ونشرب ونمرح... فالشّاء على الأبواب أيها الأصدقاء، وكثيرون منا هنا لن يعيشوا حتى يروا الرّبيع».

زوّد سيّد (الميناء الأبيض) المأدبة بالمأكولات والمشروبات. كان قد جلب معه بيرةً سوداء وبيرةً صفراء وخموراً حمراء وذهبيّة وأرجوانيّة مشحونةً من الجنوب الدّفيء على سفنٍ واسعة المخازن ومعتقةً في أقبية عميقة، والتهم ضيوف الزّفاف كعكات سمك القُد والقرع الشّتوي، وتلاّلاً من الكرنب وقوالب دائريّة ضخمةً من الجُبنة، وشرائح الصّان المدخن وضلوع البقر المسفوعة حتى الاسوداد، وأخيراً ثلاث كعكات زفافٍ هائلة قُطر كل منها كعجلة العربة، قشرتها الهشّة محشوةً حتى الانفجار بالجزر البرتقالي والأبيض والبصل واللّفث والفطر وقطع لحم الخنزير المتبل السّابحة في مرقٍ بنيّ شهّي. قطع رامزي من الكعكات بينجليّة، وقدم وإيمان ماندرلي الأطباق بنفسه حاملاً الحصّة السّاخنة الأولى إلى رروس بولتون وزوجته ابنة فراي المدينة، ثم إلى السير هوستين والسير إينس ابنيّ والدر فراي، وأعلن اللورد السّمين: «أفضل كعكةٍ ستأكلونها في حياتكم كلّها أيها السّادة. اشربوا معها نبيذ (الكرمة) الذهبي واستمتعوا بكلّ قطعةٍ مثلما سأستمتع».

مخلصاً لكلمته، أتى ماندرلي على ستّ حصصٍ كاملة، اثنتين من كلّ كعكة، طوال الوقت يتلَمّظ ويُرَبّت على بطنه ويتخِم نفسه إلى أن تلتخّ وجه سُترته ببقع المرق وأتسخت لحيته بالفئات، وحتى الدا فراي السّمين لم

تستطع أن تُباريه في شراسته، وإن أكلت ثلاث قطع وحدها. أكل رامزي بشهيةً أيضًا، أمّا عروسه الشّاحبة فلم تفعل أكثر من التّحديق إلى القطعة الموضوعة أمامها، ولمّا رفعت رأسها ترنو إلى ثيون رأى الخوف في عينيها البنيتين الكبيرتين.

لم يُسمح بالسيوف الطويلة داخل القاعة، لكن مع كلّ رجل خنجر، حتى ثيون جرابيچوي، وإلا فكيف يُقطع اللحم؟ كلّما نظر إلى الفتاة التي كانت حين بول شعرَ بحضور هذا الفولاذ عليّ جانبه. لا أمّلكُ وسيلةً لمساعدتها، لكنني أستطيع أن أقتلها بسهولة. لن يتوقع أحد ذلك. يُمكنني أن ألتمس منها شرف رقصيةٍ وأشقّ خلقها. ستكون رحمةً، أليس كذلك؟ وإذا سمعت الآلهة القديمة دُعائي فقد يفتك بي رامزي في خضمّ غضبته أيضًا. لا يخشى ثيون أن يموت، فلقد تعلّم في أعماق (معقل الخوف) أن ثمة أشياء أنكى كثيرًا من الموت. لئن رامزي هذا الدّرس إصبعًا إصبعًا من يديه وقدميه، درسًا مُحال أن ينساه أبدًا.

علّقت الليدي داستن قائلةً: «لست تأكل».

- «نعم». الأكل صعب عليه، إذ كسر رامزي كثيرًا من أسنانه حتى إن مجرد المضغ أصبح عذابًا. الشرب أسهل، مع أن عليه إمساك الكوب بكلتا يديه كي لا يسقطه.

قالت: «ألا تحبّ كعك الخنزير يا سيّدي؟ أفضل كعك خنزيرٍ أكلناه على الإطلاق كما يقول صديقنا البدين»، وأشارت نحو اللورد ماندرلي بكوبها مردفةً: «هل رأيت رجلًا بدينًا بهذه السعادة من قبل؟ يكاد يرقص، ويُقدّم الطّعام بيديه».

إنها محقّة. يبدو سيّد (الميناء الأبيض) اللبيلة نموذجًا للرجل البدين المرح، يضحك ويتسم ويمزح مع اللوردات الآخرين ويربّت على أكتافهم وينادي المغنين أمرًا بأن يعزفوا هذا اللحن أو ذاك. بصوتٍ جهوري قال ماندرلي: «أعطينا (اللبل الذي انتهى) أيها المغني. أعرف أنها ستروق العروس. أو غنّ لنا عن الشّابّة الشّجاعة داني فلينت وأبكِنا». كان المرء ليتصوّر إذا نظر إليه أنها ليلة عرسه هو.

قال ثيون: «إنه سكران».

- «يُغرق مخاوفه. هذا الرَّجل جبان حتى النُّخاع».
حقاً؟ ليس ثيون متأكداً. كان ابناه بدينين أيضاً، لكنهما لم يُهينا نفسيهما
في ميدان المعركة. قال: «حديديو الميلاد يُقيمون وليمةً قبل المعركة أيضاً.
مذاق أخير من الحياة في حال كان الموت منتظراً. إذا أتى ستانيس...».
قاطعته الليدي داستن: «سيأتي، لا بُدَّ أن يأتي»، وقهقهت متابعه: «وعندما
يأتي سيول الرَّجل البدين على نفسه. لقد مات ابنه في الرَّفاف الأحمر،
وعلى الرغم من هذا تقاسمَ عيشه وملحه مع أبناء فراي ورحب بهم تحت
سقفه ووعد أحدهم بحفידته، بل ويُقدِّم لهم الكعك. سبق أن فرَّ آل ماندري
من الجنوب وقد طردهم أعداؤهم من أراضيهم ومعاقلمهم. الدَّم لا يتبدَّل.
لا أشكُّ في أن الرَّجل البدين يودُّ أن يقتلنا جميعاً، لكنه لا يملك الشَّجاعة
رغم حجمه. تحت هذا اللَّحم المتصبَّب عرفاً ينبض قلب جبان ذليل ك...
كقلبك».

كانت كلمتها الأخيرة بمثابة جَلدة كُرباج، لكن ثيون لم يجروء على ردِّ
الإهانة بالإهانة، فذلك خليق بأن يُكلِّفه شيئاً من جلده. قال: «إذا كانت
سيديتي تعتقد أن اللورد ماندري يُريد أن يخوننا فعليها إخبار اللورد بولتون».
- «أتحسب أن رروس لا يعلم؟ يالك من سخيف. انظر إليه، شاهد كيف
يُراقب ماندري. لا صنف يمسُّ شفتي رروس حتى يرى اللورد وايمان يأكل
منه أولاً، ولا يأخذ رشفةً من النِّبذ حتى يرى ماندري يشرب من البرميل
نفسه. أظنُّه سيبتهج إذا بدت من الرَّجل البدين بادرة خيانة. سيُسليهِ ذلك.
رروس عديم المشاعر كما ترى. تلك العَلقات التي يهواها امتصَّت عواطفه
كلِّها منذ سنوات. إنه لا يحبُّ ولا يكره ولا يحزن. هذه بالنسبة إليه لعبةٌ مُلهية
قليلاً. بعض الرَّجال يُمارس القنص وبعضهم الصِّيد وبعضهم يلعب النَّرد،
أمَّا رروس فيلعب بالنَّاس. أنت وأنا، وأبناء فراي هؤلاء، واللورد ماندري،
وزوجته الجديدة السَّمينة، وحتى نغله، كلُّنا لُعبه». مرَّ خادم، فمدَّت الليدي
داستن كوبها وجعلته يملأه بالنِّبذ، ثم أشارت له أن يملأ كوب ثيون أيضاً،
وبعدها تابعت: «الحقيقة أن اللورد بولتون يطمح إلى ما هو أكثر من مجرد
اللوردية. لِمَ لا يصير ملكاً في الشَّمال؟ تايوين لانستر مات، وقَاتِل الملك
فقدَّ يده، والعِفريت هارب. آل لانستر قوَّة مثخنة بالجراح، علاوةً على أنك

تلطّفت بتخليصه من آل ستارك أيضًا. لن يعترض والدر فراي العجوز على أن تُصبح ابنته البدينة والدا ملكة. قد تتسبّب (الميناء الأبيض) في المتاعب إذا نجنا وإيمان ماندري من المعركة المقبلة... لكنني واثقة تمامًا بأنه لن يفعل، لا هو ولا ستانيس. كلاهما سيُزيحه رروس كما أراح الذئب الصغير. من يتبقّى عندها إذن؟».

قال ثيون: «أنت، هناك أنتِ، سيّدة (بلدة الروابي)، من آل داستن بالزواج ومن آل ريزويل بالميلاد».

سرّها قوله. أخذت رشفةً من النّبذ، ثم قالت وعيناها الدّاكتتان تلمعان: «أرملة (بلدة الروابي)... ونعم، إذا اخترتُ فيمكنني أن أكون مصدر إزعاج. بالطبع يرى رروس هذا أيضًا، ولذا يحرص على إرضائي».

كانت لتقول المزيد لولا أنها أبصرت المايسترات في هذه اللّحظة. كان ثلاثة منهم قد دخلوا معًا من باب اللورد خلف المنصّة؛ أحدهم طويل والثاني ممتلئ والثالث في ريعان الشّباب، لكنهم بدوا متماثلين بأرديتهم الرّماديّة وسلاسلهم. قبل الحرب خدمَ مديرك اللورد هورنود، ورودري اللورد سروين، وهنلي اليافع اللورد سليت، وقد أحضرَ رروس بولتون ثلاثهم معه إلى (وينترفل) ليعتنوا بـغدفان المايستر لوين كي ترجع حركة الرّسائل إلى القلعة من جديد.

بينما جثا المايستر مديرك ليهمس في أذن بولتون التوى فم الليدي داستن ازدراءً، وقالت: «لو أنني ملكة لأمرتُ أول ما أمرتُ بقتل هؤلاء الجرذان الرّماديّة جميعًا. إنهم يزحفون في كلّ مكانٍ ويعيشون على فضلات موائد اللوردات، يصرُّ بعضهم لبعضٍ ويهمسون في أذان سادتهم. لكن من السّادة ومن الخدم حقًا؟ لكلّ لورد كبير مايستر، وكلّ لورد صغير يطمع في واحد. إن لم يكن عندك مايستر فالنّاس يأخذون هذا على محمل ضالّة أهميّتك. الجرذان الرّماديّة يقرأون ويكتبون رسائلنا، بعضهم للوردات لا يعرفون القراءة، فمنّ يُمْكِنه أن يقول يقينًا إنهم لا يُحرّفون الكلام لأغراضهم الخاصّة؟ دعني أسألك، ما جدواهم؟».

أجاب ثيون وقد بدا الجواب متوقّعًا منه: «إنهم يُعالجون».

- «يُعالجون، نعم. لم أقل إنهم يفتقرون إلى الحدق. إنهم يعتنون بنا

حين نكون مرضى أو جرحى أو مضطربين لمرض أب أو ولد. متى كنا في أضعف حالاتنا وأوهاها هم أولاء. أحياناً يُعالجوننا وُبدى لهم الامتنان، ولمّا يفشلون يُواسوننا في حُزنا وُبدى امتناننا لهذا أيضاً. على سبيل العرفان بالجميل نُعطيهم مكاناً تحت سقفنا ونُطلعهم على عيوبنا وأسرارنا ونجعلهم جزءاً من كل مجلس، ولا يمضي وقت طويل قبل أن يُمسي الحاكم المحكوم. هكذا كان الأمر مع اللورد ريكارد ستارك. كان اسم جرذ الرّمادي المايستر وليس. أوليس ذكاءً أن المايسترات يُعرفون باسم واحد، حتى الذين كان لهم اسمان لدى التحاقهم بالقلعة؟ بهذه الطريقة لا يمكننا أن نعلم من يكونون حقاً ومن أين أتوا... لكن المرء يستطيع أن يعرف إذا تحلّى بالإصرار الكافي. قبل تكوين سلسلته كان المايستر وليس معروفاً باسم وليس فلاورز. فلاورز، هيل، ريفرز، سنو... إننا نُطلق تلك الأسماء على أولاد الزّنى بمثابة العلامة، لكنهم سرعان ما يتخلّصون منها دوماً. وليس فلاورز كانت أمّه فتاةً من عائلة هايتاور... وأشيح أن أباه كان مايستر رئيساً في (القلعة). الجرذان الرّماديّة ليسوا بالعفة التي يُريدون أن نعتقدها. مايسترات (البلدة القديمة) أسوأهم. ما إن كوّن سلسلته لم يهدر أبوه السّرّي وأصدقائه وقتاً قبل إرساله إلى (ويتترفل) ليملاً أذني اللورد ريكارد بالسّم المدسوس في الكلام المعسول. كانت مصاهرة عائلة تلي فكرته، إياك أن تشكّ في...». بترت عبارتها إذ نهض روروس بولتون وعيناه الباهتتان تلمعان في ضوء المشاعل، وبدأ يتكلّم قائلاً: «أيها الأصدقاء»، لينزل على القاعة صمت شامل تام لدرجة أن ثيون سمع الرّيح بالخارج تُحاول اقتلاع ألواح النّوافذ. «ستانيس وفرسانه تركوا (ربوة الغابة) رافعين راية إلهه الأحمر الجديد، ورجال عشائر التّلال الشّماليّة يتحرّكون معه على خيولهم المشعثة الصّغيرة. إذا استمرّ الطّقس على حالته فقد يصلون إلينا في غضون أسبوعين. وأكل الغراب أومبر يزحف على (طريق الملوك) فيما يقترب كارستارك من الشّرق. إنهما نيويان الانضمام إلى اللورد ستانيس هنا وأخذ هذه القلعة منا».

قام السير هوستين قائلاً: «علينا أن نخرُج لمواجهتهم. لماذا نسمح لهم بضمّ قوّاتهم؟».

فكر ثيون: لأنّ آرنولف كارستارك ينتظر إشارة اللورد بولتون قبل أن

ينقلب، في حين رفع اللوردات الآخرون عقائرهم بالنصائح، إلا أن اللورد بولتون رفع يده طالباً الصمت، وقال: «ليست القاعة المكان المناسب لهذا النقاش أيها السادة. لنذهب إلى العُرفة الشمسية فيما يتمُّ ابني زيجته، وليبقَ بقيتكم ويستمتعوا بالطعام والشراب».

مع خروج سيّد (معقل الخوف) في صُحبة ثلاثة المايسترات نهض اللوردات والقادة الآخرون يتبعونه. ذهب هوتر أومبر العجوز الضّاوي المسمّى باقر العاهرة بوجه متجهّم ونظرة عابسة، وكان اللورد ماندرلي ثملاً لدرجة أنه احتاج إلى مساعدة أربعة رجالٍ أقوياء للخروج من القاعة، وبينما مرّ بثيون مترنّحاً متكئاً على فُرسانه تمتّم: «علينا أن نسمع أغنيةً عن الطّاهي الجرذ. أيها المغني، غنّ لنا عن الطّاهي الجرذ».

كانت الليدي داستن من أواخر من قاموا، وحين ذهبت شعرت ثيون بالقاعة خانقةً على حين غرة. لم يدرك كم شرب حتى دفع نفسه ناهضاً، ولمّا ترك المائدة متعثراً أسقط إبريقاً من يدي إحدى الخادِمات، ليتناثر النيّذ على حدائه وسراويله كسيل أحمر قانٍ.

أطبقت يد على كتفه وانغرست خمسة أصابع صلبة كالحديد في لحمه، وقال آلن اللفظ بأنفاسه الكريهة من أسنانه المتعفّنة: «أنت مطلوب يا ريك». كان القضيب الأصفر وديمون ارقص -لي معه. «رامزي يقول أن تأخذ عروسه إلى فراشه».

سرت في جسده رعدة خوف، وقال لنفسه: لقد أدّيت دوري. لماذا أنا؟ غير أنه أعقل من أن يعترض.

كان اللورد رامزي قد غادر القاعة بالفعل، أمّا عروسه فجلست كأنها منسيّة، بائسة صامتة منكمشة على نفسها تحت راية ستارك، تُمسك كأساً فضيّة بكلتا يديها. قدّر من الطّريقة التي نظرت بها إليه عندما اقترب أنها أفرغت هذه الكأس في جوفها أكثر من مرّة. ربما أملت أن تتجاهلها بلواها إذا شربت بما فيه الكفاية، لكن ثيون يعلم عبث هذا. قال: «ليدي آريا، تعالي. حان الوقت لأداء واجبك».

اصطحبهما ستّة من صبيان النّعل إذ قادها ثيون من مؤخرة القاعة وعبّر السّاحة قارسة البرودة إلى (الحصن الكبير). تقود ثلاث مجموعات من

السَّلام الحجريَّة إلى عُرفة نوم اللورد رامزي، وهي واحدة من العُرف التي لم تمسَّها النَّار إلا قليلاً، وفي أثناء صعودهما أخذَ ديمون ارفُص -لي يصفر وقال السَّلاخ بتهابه إن اللورد رامزي وعده بقطعةٍ من الملاءة الدَّائمة علامةً على صنيع خاص.

جُهِّزَت عُرفة النَّوم جيِّداً. الأثاث كلُّه جديد، جاءَ من (بلدة الرَّوابي) في قافلة الأمتعة. للفراش المظلل حشِيَّة مبطَّنة بالرَّيش وستائر من المخمل الأحمر الدَّموي، والأرض الحجريَّة مغطَّاة بفراء الذَّناب، وفي المستوفد نار مشتعلة، وعلى المنضدة المجاورة للفراش شمعة، وعلى الخوان إبريق نبيذ وكوبان ونصف قالب مستدير من الجُبنة البيضاء المعرَّقة.

في العُرفة أيضاً مقعد منحوت من السَّنديان الأسود له وسادة من الجِلد الأحمر، وحين دخلوا كان اللورد رامزي جالساً عليه. التمتع اللُّعاب على شفثيه، وقال: «ها هي ذي فتاتي الجميلة. أحسستم يا أولاد. يُمكنكم تركنا الآن. ليس أنت يا ريك. ابق.»

ريك، ريك، على قافية شريك. أحسَّ بأصابعه المفقودة تتشجج، اثنان في يُمناه وواحد في يُسراه، وعلى وَرَكَه يستقرُّ خنجره نائماً في غِمدته الجِلدي لكن ثقيلًا، أوه، كم هو ثقيل. لم أفقد من يدي اليُمْنى إلاَّ الخنصر. ما زلتُ أستطيعُ أن أمسك سكينًا. «سيِّدي، كيف أخدمك؟»
- «أنت سلِّمتني الفتاة، فَمَنْ أفضل منك يفُضُّ غلاف الهدية؟ لنلقِ نظرةً على ابنة ند ستارك الصَّغيرة».

كادَ ثيون يقول: ليست تمتُّ للورد إدارد بصلة قرابة، ثم إنه فكَّر: رامزي يعرف، مؤكَّد أنه يعرف. ما هذه اللُّعبة الوحشيَّة الجديدة؟ كانت الفتاة واقفةً عند عمود الفِراش ترتجف كظبية صغيرة. «ليدي آريا، إذا سمحتِ بأن تُديري لي ظهركِ لأحلِّل أربطة فُستانك».

قال اللورد رامزي وهو يصبُّ لنفسه كوبًا من النَّبيذ: «لا. الأربطة تستغرق وقتًا طويلاً. مزَّق الفُستان عنها».

سحبَ ثيون خنجره. ما عليَّ إلاَّ أن أدور وأطعنه. السكِّين في يدي. لكنه أصبحَ عليمًا باللُّعبة، وأخبر نفسه متذكِّراً كايبرا ومفاتيحها: فُخ آخر. يُريدني أن أحاول أن أقتله، وعندما أفشلُ سيَسْلُخ جِلد اليد التي حملتُ بها السكِّين.

قبض على جزءٍ من تُورَة العروس قائلاً: «قفي بثباتٍ يا سيّدي». الفُستان فضفاض أسفل الخصر، وهناك دسّ النّصل قاطعاً إلى أعلى بتؤدّة كي لا يجرحها، فهمسّ الفولاذ شاقاً الصّوف والحريير بصوتٍ خافتٍ ناعم. كانت الفتاة ترتعش، واضطرّ ثيون إلى إمساك ذراعها لتثبت. چين، چين، على قافية حزين. شدّ قبضته أكثر بقدر ما سمحت له يسراه المشوّهة، وقال لها: «اثبتي». أخيراً سقط الفُستان في كومةٍ باهتة حول قدميها، فقال رامزي أمراً: «ثيابها الدّاخليّة أيضاً»، وأطاع ثيون.

لمّا فرغَ وقفت العروس عاريةً، ثياب زفافها الفاخرة كومة من الخرق البيضاء والرّماديّة عند قدميها. ثدياها صغيران مدبّبان، ووركاها ضيّقان، وساقاها رفيعتان كسبّقان الطيور. طفلة. كان ثيون قد نسيّ كم هي صغيرة. في سنّ سانزا، وآريا أصغر. على الرغم من النّار في المستوقد سادت البرودة غرفة النّوم، واقشعر جلد چين الشّاحب. مرّت لحظة رفعت فيها يديها كأنما تُريد أن تَسْتُرْ ثدييها، إلّا أن ثيون حرّك شفّتيه بـ«لا» صامتة، فرأت وتوقّفت من فورها.

سأل اللورد رامزي: «ما رأيك فيها يا ريك؟».

- «إنها...». ما الإجابة التي يُريدها؟ ما الذي قالته الفتاة قبل أيكة الآلهة؟ قالوا جميعاً إنني جميلة. لكنها ليست جميلة الآن، ويرى على ظهرها شبكةً من الخطوط الباهتة الرّفيعَة حيث جلدّها أحدهم. «... إنها جميلة... رائعة الجمال».

ابتسم رامزي ابتسامته المبتلّة قائلاً: «هل تجعل قضيبك ينتصب يا ريك؟ هل يضغط على أربطة سراويلك؟ هل ترغب في نكاحها أو لا؟»، وضحك مردفاً: «المفترض أن يكون لأمير (وينترفل) هذا الحقّ كاللوردات قديماً، الليلة الأولى. لكنك لست من اللوردات، أليس كذلك؟ فقط ريك. لست رجلاً من الأصل في الحقيقة»، وأخذ جرعةً أخرى من النّبذ ثم ضرب بكوبه عرض الحائط ليتحطّم ويسيل الأحمر على الحجر، وأتبع: «ليدي آريا، على الفراش. نعم، على الوسائد. زوجة صالحة أنت. والآن افتحي ساقيك. دعينا نرى فرجك».

أطاعته الفتاة دون أن تنبس ببنت شفة، وتراجع ثيون خطوةً نحو الباب.

جلس اللورد رامزي إلى جوار عروسه وحرك يده على فخذها من الداخل، ثم دس إصبعين في داخلها، وأطلقت الفتاة شهقة ألم. قال رامزي: «إنك جافة كالعظام القديمة»، وسحب يده وشفعها مضيئاً: «قيل لي إنك تعرفين كيف تسرينني، فهل كانت هذه كذبة؟».

- «للا يا سيدي. إنني ممدربة».

نهض رامزي قائلاً والنار تتوهج على وجهه: «ريك، تعال هنا. جهّزها لي».

للحظة لم يفهم، وغمغم: «إنني... هل تعني... سيدي، إنني بلا... أنا...». قال اللورد رامزي: «بفمك، وأسرع. إذا لم أجدها مبتلة حين أفرغ من خلع ثيابي فسأقطع لسانك هذا وأمسمره في الحائط». في مكان ما في أيكة الآلهة صرخ غُداً. كان الخنجر لا يزال في يده. ودسه في غمده.

وقال ريك لنفسه: ريك، ريك، على قافية ريك، وانحنى يلبّي الأمر.



المُراقب

قال الأمير آمراً: «فلنلقِ نظرةً على هذا الرَّأس». دون أن يكفَّ عن المراقبة لحظةً مرَّ آريو هوتا يده على قناة فأسه الطويلة الملساء، زوجته المصنوعة من خشب الدردار والحديد. راقبَ الفارس الأبيض السير بالون سوان والآخريين الذين أتوا معه، وراقبَ أفاعي الرِّمال الجالسات إلى موائد مختلفة، وراقبَ اللوردات والليديئات والخدم، والقهرمان العجوز الصَّير، والمَياستر مايلز الشَّاب بلحيته الحريريَّة وابتسامته الصَّاغرة. من حيث يقف، نصفه في الضَّوء ونصفه في الظلِّ، رآهم جميعاً. اخِدم، احم، أطع. هذه مهمَّته.

كلُّ الأعيُن الأخرى كانت على الصُّندوق المنحوت من الأبنوس والمزود بأبازيم ومفصلات من الفضة. صندوق أنيق بلا شك، لكن حسب محتوياته فقد يكون الموت مصير كثيرين من المجتمعين هاهنا في (القصر القديم) بـ(سنسبير). قطع المَياستر كاليوت القاعة نحو السير بالون سوان، يُصدِر خُفاه صوتاً هامساً مع احتكاكهما بالأرض، وقد بدا الرَّجل الصَّغير المستدير بهيئاً في رداءه الجديد، بشرائطه العريضة بلونيهما البني الداكن والجوزي الرمادي وشرائطه الرِّفيعة بلونها الأحمر. منحنيًا، تناول الصُّندوق من الفارس الأبيض وحمله إلى المنصَّة، حيث يجلس دوران مارتل على مقعده المتحرِّك بين ابنته آريان وخليفة أخيه الميت الحبيبة إلاريا. تُطَيَّب مئة شمعةٍ معطرةٍ الهواء، وتلتمع الأحجار الكريمة على أصابع اللوردات ونطاقات وشباك شعر الليديئات، وكان آريو هوتا قد لَمَع قميصه المصنوع من أقراص النُّحاس حتى صارَ كالمرآة، كي يتألَّق هو الآخر في ضوء الشموع.

رَأَى الصَّمْتِ عَلَى الْقَاعَةِ. (دورن) تحبس أنفاسها. وضع الُمَايِستِر كاليوت الصُّنْدُوقِ عَلَى الْأَرْضِ عِنْدَ مَقْعَدِ الْأَمِيرِ دُورَانَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ثَبَاتِ أَصَابِعِهِ وَرَشَاقَتِهَا عَادَةً فَقَدْ لَاحَ عَلَيْهَا الْخَرَقُ إِذْ فَتَحَ الرَّتَاجَ وَرَفَعَ الْغَطَاءَ لِيَكْشِفَ عَنِ الْجَمِجِمَةِ بِالذَّاخِلِ. سَمِعَ هَوْتَا أَحَدَهُمْ يَتَنَحَّحُ، وَهَمَسَ أَحَدُ التَّوَامِينِ فَاوَلَّرَ بِشَيْءٍ مَا لِلْآخِرِ، وَأَغْلَقَتِ الْإِرْيَا سَانِدَ عَيْنَيْهَا وَتَمَتَّتْ بِصَلَاةٍ.

لَا حَظَّ قَائِدِ الْحَرَسِ أَنْ السَّيْرَ بِالْوَنِ سَوَانَ مَشْدُودِ كَوْتِ الْقَوْسِ. لَيْسَ الْفَارِسُ الْأَبْيَضُ الْجَدِيدُ طَوِيلًا أَوْ وَسِيمًا كَالْقَدِيمِ، لَكِنَّهُ أَعْرَضَ صَدْرًا وَأَضْخَمَ جَنَّةً وَذِرَاعَا مَفْتُولَتَا الْعِضَلَاتِ. يُثَبَّتُ مَعْطَفُهُ الثَّلْجِي النَّاصِعَ عِنْدَ الْحَلْقِ مَشْبِكَ فِضِّيٍّ عَلَى شَكْلِ بَجْعَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا مِنَ الْعَاجِ وَالثَّانِيَةُ مِنَ الْجَزْعِ، وَقَدْ بَدَأَ لِأَرِيوِ هَوْتَا كَأَنَّهُمَا مَشْتَبِكَتَانِ فِي قِتَالٍ، كَمَا أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَضَعُهُمَا يَبْدُو مُقَاتِلًا أَيْضًا. لَنْ يَمُوتَ هَذَا بِسَهُولَةٍ كَالْآخِرِ، لَنْ يَنْقُضَ عَلَى فَأْسِيٍّ كَمَا فَعَلَ السَّيْرُ أَرِيْسَ، بَلْ سَيَقِفُ وَرَاءَ تَرْسِهِ وَيَدْعُنِي أَنْقُضَ عَلَيْهِ. إِذَا بَلَغَتِ الْأُمُورُ ذَلِكَ الْحَدَّ فَيَسِيكُونَ هَوْتَا مُسْتَعْدًّا. فَأَسَهُ الطَّوِيلَةَ حَادَّةً مَاضِيَةً تَصْلُحُ لِأَنْ يَحْلُقَ بِهَا.

سَمَحَ لِنَفْسِهِ بِنَظَرَةٍ عَابِرَةٍ عَلَى الصُّنْدُوقِ. تَسْتَقِرُّ الْجَمِجِمَةُ عَلَى وَسَادَةٍ مِنَ اللَّبَادِ الْأَسْوَدِ مَبْتَسِمَةً ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. الْجَمَاجِمُ كُلُّهَا تَبْتَسِمُ، لَكِنْ هَذِهِ تَبْدُو أَسْعَدَ مِنَ الْمَعْتَادِ. وَأَكْبَرَ. لَمْ يَرَ قَائِدَ الْحَرَسِ جَمِجِمَةً أَكْبَرَ قَطُّ، جَبْهَتُهَا غَلِيظَةٌ ثَقِيلَةٌ، وَفَكُّهَا هَائِلٌ، وَقَدْ التَمَعَ عَظْمُهَا فِي ضَوْءِ الشُّمُوعِ بِيَاضِ مَعْطَفِ السَّيْرِ بِالْوَنِ. قَالَ الْأَمِيرُ وَالذُّمُوعُ تَتَلَأَأُ فِي عَيْنَيْهِ: «ضَعَهَا فَوْقَ الْعُمُودِ».

الْعُمُودُ مِنَ الرُّخَامِ الْأَسْوَدِ، يَفُوقُ كَالْيُوتَ طَوِيلًا بِثَلَاثَةِ أَقْدَامٍ، وَقَدْ وَقَفَ الْيُمَايِستِرُ الصَّغِيرُ الْبَدِينُ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ قَدَمَيْهِ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصِلَ إِلَى قِمَّةِ الْعُمُودِ. كَانَ أَرِيوِ هَوْتَا عَلَى وَشِكِ الذَّهَابِ لِمُسَاعَدَتِهِ، لَكِنْ أُوْبَارَا سَانِدَ تَحَرَّكَتْ أَوْلًا. حَتَّى مِنْ دُونَ سَوْطِهَا وَتُرْسِهَا مَا زَالَتْ مَحْتَفِظَةً بِمَظْهَرِهَا الْغَاضِبِ الْمَسْتَرْجِلِ. بَدَلًا مِنَ الْفُسْتَانَ تَرْتَدِي سِرَاوِيلَ الرَّجَالِ وَسُتْرَةً طَوِيلَةً مِنَ الْكَتَّانِ تَبْلُغُ رِبْلَتِي سَاقِيهَا، يَرِبْطُهَا عِنْدَ الْخَصْرِ حَزَامَ مِنَ الشُّمُوسِ النُّحَاسِ، وَشَعْرُهَا الْبَنِي مَعْقُوضٌ وَرَاءَ رَأْسِهَا. اخْتَطَفَتْ أُوْبَارَا الْجَمِجِمَةَ مِنْ يَدِي الْيُمَايِستِرِ الْمَتُورِّدَتَيْنِ النَّاعِمَتَيْنِ، وَوَضَعَتْهَا عَلَى قِمَّةِ الْعُمُودِ الرُّخَامِ. أَعْلَنَ الْأَمِيرُ بِجَهَامَةٍ: «لَمْ يَعُدَّ الْجَبَلُ يَرْكَبُ».

تساءلت تايين ساند: «هل كانت ميته طويلةً قاسيةً أيها السير بالون؟»، وكانت نبرتها نبرة فتاةٍ صغيرةٍ تسأل إن كان فُستانها أبيضًا.

أجابها الفارس الأبيض: «ظَلَّ يَصْرُخُ أَيامًا يا سيّديتي»، وإن بدا عليه بوضوح أنه ليس مسرورًا بالجواب. «سمعناه في جميع أنحاء (القلعة الحمراء)».

سأته الليدي نيم: «هل يُزعجك هذا أيها الفارس؟». ترتدي نايميريا فُستانًا من الحرير الأصفر شديد النعومة والشفافية حتى إن ضوء الشموع يتخلله كاشفًا عن الذهب المغزول والجواهر من تحته، والحقيقة أن ثيابها فاضحة لدرجة أن الارتباك من مجرد النظر إليها لآخ على الفارس الأبيض، لكن هوتا استحسّن هذا، فنايميريا أقلّ خطورةً حين تكاد تكون عاريةً، أمّا فيما عدا ذلك فمن المؤكّد أنها تُخفي دسّته من الأسلحة. «الكلُّ يعلم أن السير جريجور كان رجلًا غاشمًا دوميًا. إذا استحقَّ أحد أن يُعاني فهو كليجاين».

قال بالون سوان: «قد يكون هذا صحيحًا يا سيّديتي، لكن السير جريجور كان فارسًا، والمفترض أن يموت الفارس بسيفٍ في يده. السّم وسيلة ذنيّة قذرة للقتل».

ابتسمت الليدي تايين لقوله. فُستانها بلوني القشدة والعُشب، كُمّاه الطويلان من شرائط الرّينة، بالغ الاحتشام والبراءة لدرجة تجعل أيّ أحدٍ ينظر إليها يحسبها أشدّ الفتيات تبتلاً، لكن آريو هوتا يعرف حقيقتها تمام المعرفة، أن يديها الناعمين الشّاحبتين هاتين مميتتان كبدي أوبارا الخشتين، إن لم يكن أكثر، ولذا راقبها مراقبةً لصيقةً منتبهًا لكلّ خلجةٍ ضعيفةٍ من أصابعها.

قطّب الأمير دوران وجهه قائلاً: «ما تقوله صحيح أيها السير بالون، لكن الليدي نيم محقة. إذا استحقَّ أحد أن يموت صارحًا فهو جريجور كليجاين. لقد فتك بأختي الكريمة وحطّم رأس رضيعها على حائط. أدعو فقط أنه يحترق الآن في جحيم ما، وأن ترُقّد إليها وطفلاها في سلام. هذه هي العدالة التي تعطّشت لها (دورن)، ويسرّني أنني عشتُ لأذوقها. أخيرًا أثبت آل لانستر حقيقة قولهم المزهو وسدّدوا دين الدّم القديم».

ترك الأمير لقهرمانه الكفيف ريكاسو أن ينهض ويرفع النّخب قائلاً: «أيها السّادة والسّيّدات، لنشرب جميعًا في صحّة تومن الأول، ملك الأنداليين والروينار والبشر الأوائل، وسيّد (الممالك السّبع)».

بينما تكلم القهرمان بدأ الخدم يتحرّكون بين الضيوف مالتين أكوابهم من الأباريق. النبيذ دورني قوي، فإن كالدّم وحُلُو كالانتقام، لكن القائد لم يشرب منه، ذلك أنه لا يشرب في أثناء المآدب أبدًا. كما أن الأمير نفسه لم يُشارك في الشُّرب أيضًا، فله نيّذه الخاص الذي يعده المايستر مايلز ويضيف إليه عصير الخشخاش لتهدئة الألم في مفاصله الملتهبة.

شرب الفارس الأبيض على سبيل التّهذيب، وكذا رفاقه والأميرة آريان والليدي چورداین وسيّد (عطية الآلهة) وفارس (غابة اللّيمون) وسيّدة (تل الأشباح)... وحتى إالاريا ساند خليّة الأمير أوبرين الحبيبة، التي كانت معه في (كينجز لاندنج) عندما مات. انتبه هوتا أكثر لمن لم يشربوا: السير ديمون ساند واللورد تريموند جارجالن والتّوأمين فاوُلر وداجوس مانوودي وآل أولر سادة (هضبة الجحيم) وآل وايل سادة (طريق العظام). إذا وقعت متاعب فقد تبدأ بأحدهم. (دورن) أرض غاضبة منقسمة، وقبضة الأمير دوران عليها ليست محكمة كما ينبغي، وكثيرون من لورداته يعدّونه ضعيفًا وكانوا ليُرخبوا بحرب مفتوحة مع آل لانستر والملك الصّبي على العرش الحديدي.

من أبرز هؤلاء أفاعي الرّمال، نغلات الأفعوان الأحمر أوبرين شقيق الأمير الرّاحل، اللائي تحضر ثلاث منهن المأدبة اللّيلة. دوران مارتل أحكم الأمراء، وليس لقائد حرسه أن يُراجعه في قراراته، غير أن آريو هوتا يتساءل لماذا اختار إطلاق سراح الليديهات أوبارا ونايميرا وتايين من وحدة زنازينهن في (برج الحربة).

رفضت تايين نخب ريكاسو بغمغمّة خفيضة، والليدي نيم بتلويحة من يدها، أمّا أوبارا فتركت كوبها يمتلئ حتى الحافة ثم قلبته لتسكب النبيذ الأحمر على الأرض، ولما انحنت خادمة تمسح النبيذ المسكوب غادرت أوبارا القاعة، وبعد لحظة استأذنت الأميرة آريان وذهبت في أعقابها. لن تصبّ أوبارا غضبتها على الأميرة الصّغيرة. إنهما ابتاعم، وتجهّأ حبًا جمًّا. استمرت المأدبة حتى ساعة متأخرة من اللّيل، تُشرف عليها الجمجمة الباسمة من فوق العمود الرّخامي الأسود. قدّمت سبعة أصناف تكريمًا للآلهة السّبعة وإخوة الحرس الملكي السّبعة. الحساء من البيض واللّيمون، والفلفل الأخضر الطّويل محشو بالجينة والبصل، وثمّة فطائر شلق، ودبوك بالعسل، وسمكة قُرموط من قاع (الدّم الأخضر) ضخمة لدرجة أن أربعة

رجال حملوها معاً إلى المائدة، وبعدها قُدِّمَت يَخنة مشهية تحتوي على قطع من سبعة أنواع من الثعابين مطبوخة بالطهو البطيء مع فلفل التين والبرتقال الدموي، بالإضافة إلى قدر قليل من الزعاف يمنحها لذة طيبة. يعرف هوتا أن اليخنة حريفة نارية مع أنه لم يذُقها. بعدها قُدِّمَت الشربات لتخفيف الحرارة على اللسان، وبالنسبة إلى طبق الحلو قُدِّمَت إلى كل ضيف جمجمة من السكر المعقود، وحين كسروا قشرتها وجدوها محشوة بالكاسترد المحلى وقطع البرقوق والكرز.

عادت الأميرة آريان مع تقديم الفلفل المحشو. فكّر هوتا: أميرتي الصغيرة. لكن آريان امرأة الآن. الحرير القرمزي الذي ترتديه لا يدع مجالاً للشك في هذا. في الفترة الأخيرة تغيرت في نواح أخرى كذلك. مؤامرتها لتتويج مارسلا افتضحت وقُمت، ومات فارسها الأبيض مئة دموية بيد هوتا، واحتجرت هي نفسها في (برج الحربة) وحكم عليها بالانزواء والصمت. كل هذا هذبها، لكن هناك شيئاً آخر أيضاً، سرّاً ما باح لها به أبوها قبل أن يُطلق سراحها، إلا أن القائد يجهل ماهيته.

أجلس الأمير ابنته بينه وبين الفارس الأبيض في موضع شرف سام، وابتسمت آريان إذ اتخذت مقعدها من جديد وغمغمت بشيء ما في أذن السير بالون، غير أن الفارس اختار ألا يستجيب. لاحظ هوتا أنه أكل القليل؛ ملعقة من الحساء وقضمة من الفلفل وساق ديك والقليل من السمك، لكنه لم يمس فطير الشلق وجرب ملعقة صغيرة واحدة من اليخنة، وعلى الرغم من هذا راحت جبهته تتصبب عرقاً، وهو ما جعل هوتا يتعاطف معه، ففي بداية مجيئه إلى (دورن) كان الطعام الحريف يقلب معدته ويحرق لسانه. على أن ذلك كان منذ أعوام طويلة، والآن ابيض شعره ويستطيع أن يأكل أي شيء يأكله الدورنيون.

عند تقديم جماجم السكر المعقود توتر فم الفارس ورمق الأمير بنظرة طويلة ليرى إن كان يتعرض للشخيرة. لم يلحظ دوران مارتل، لكن ابنته فعلت، وقالت آريان: «إنها دُعابة صغيرة من الطاهي. حتى الموت ليس مقدساً عند الدورنيين. أتمنى ألا تستاء منا»، ومست ظهر كف الفارس الأبيض بأصابعها مضيئة: «أمل أنك استمتعت بوقتك في (دورن)».

- «الجميع كانوا في غاية الكرم يا سيديتي».

لمست مشبك البجعين المتقاتلتين الذي يُثبَّت معطفه قائلة: «لطالما كنت مغرمةً بالبجع. لا طائر آخر يُضاهيه جمالاً على هذا الجانب من (جزر الصَّيف)».

- «قد تحتجُّ طواويسكم على ذلك».

- «وارد، لكن الطواويس مخلوقات مغرورة مختالة تمشي تبختر بألوانها المبهجة. أوثر البجع الأبيض الرائق أو الأسود الجميل».

أوماً السير بالون برأسه ورشف من نبيذه. هذا الرجل لا يقع بسهولة في حبال الإغراء كأخيه المحلف. السير آريس كان صبيّاً على الرغم من سنّه، أمّا هذا فرجل حذر. ما على القائد إلا أن ينظر إلى الفارس الأبيض ليرى ارتبائه. المكان غريب عليه، ولا يروقه إلا قليلاً. يتفهم هوتا هذا، إذ بدت له (دورن) مكاناً غريباً أيضاً حين وصل إليها مع أميرته قبل سنواتٍ عديدة. كان الرهبان الملتحون قد لقنوه لغة (وستروس) العامية قبل إرساله، لكنه وجد كلام الدورنيين أسرع من أن يستوعبه، ووجد النساء الدورنيات خليعات والنيذ الدورني لاذعاً والطعام الدورني مليئاً بالتوابل الغربية الحارّة، كما أن الشمس الدورنية أحمى من شمس (نورفوس) الشاحبة الوديعة، تتوهج في سماء زرقاء يوماً بعد يوم.

يعلم القائد أن رحلة السير بالون كانت أقصر من رحلته ولكن مكدرّة على طريقتهما الخاصّة. ثلاثة فرسان وثمانية مرافقين وعشرون جندياً وعدد من السائسين والخدم اصطحبوه من (كينجز لاندنج)، لكن ما إن عبروا الجبال إلى (دورن) أبطأت حركتهم سلسلة من المآدب ورحلات الصيد والاحتفالات في كل قلعة تصادف أن عرجوا بها، والآن وقد بلغوا (صنسيير) أخيراً لم يجدوا الأميرة مارسلا أو السير آريس أو كهات في استقبالهم. الفارس الأبيض يعرف أن شيئاً ما ليس على ما يُرام، لكن الأمر لا يقتصر على هذا. ربما يُزعجه وجود أفاعي الرمال، وإن صحّ ذلك فمؤكّد أن عودة أوبارا إلى القاعة صبّت على جرحه خلاً. عادت تستقر في مكانها دون كلمة، وجلست هناك واجمة عابسة، لا تبسم ولا تتكلّم.

كان منتصف الليل يدنو عندما التفت الأمير دوران إلى الفارس الأبيض، وقال: «سير بالون، لقد قرأت الرسالة التي جلبتها لي من ملكتنا السّمحة. هل لي أن أفترض أنك مطلع على محتواها؟».

رأى هوتا الفارس يتوتّر إذ أجاب: «نعم يا سيّدي. صاحبة الجلالة أخبرتني بأن أصطحب ابنتها إلى (كينجز لاندنج). الملك تومن مشتاق إلى أخته ويرغب في عودة الأميرة إلى البلاط في زيارة قصيرة». ارتسم الحُزن على وجه الأميرة آريان، وقالت: «أوه، لكننا أُغرَمنا جميعاً بمارسلا أيها الفارس. هي وأخي تريستان أصبحا لا ينفصلان».

ردّ السير بالون: «مرحباً بالأمير تريستان أيضاً في (كينجز لاندنج). إنني واثق بأن الملك تومن يرغب في لقائه. لجلالته رفاق قلائل للغاية في سنّه». قال الأمير دوران: «من شأن روابط الصّبا أن تدوم مدى الحياة. حين يتزوَّج تريستان ومارسلا سيكون هو وتومن كالإخوة. الملكة سرسي محقّة، يجب أن يلتقي الصّبيّان ويكوّنا صداقةً. لا ريب أن (دورن) ستفتقده، لكن حان الوقت لأن يرى تريستان العالم وراء أسوار (صنسير)». - «أعرفُ أن (كينجز لاندنج) ستستقبله بمنتهى الترحاب».

تساءل القائد في نفسه وهو يراقب: لماذا يتصبّب عرفاً الآن؟ القاعة فاترة الحرارة، كما أنه لم يمسّ اليخنة.

كان الأمير دوران يقول: «بالنسبة إلى المسألة الأخرى التي تطرحها الملكة سرسي فهذا صحيح، مقعد (دورن) في المجلس الصّغير شاغر منذ موت أخي، وأنّ أو أن يشغله أحد من جديد. إنني ممتن لشعور جلالتها بأن نصيحتي قد تكون مفيدة لها، غير أنني أتساءل إن كنت أتمتّع بالقوّة الكافية لاحتمال الرّحلة. ربما إذا سافرنا بحرّاً؟».

بدا أن السير بالون بوغِت بالقول، وردّ: «بالسّفينيّة؟ هذا... هل سيكون هذا أمناً يا سموّ الأمير؟ عواصف الخريف سيّئة، أو أن هذا ما سمعته... القراصنة في (الأعتاب)، إنهم...».

قال الأمير دوران: «القراصنة، بالتأكيد. لعلك محقّ أيها الفارس. أكثر أمناً أن تعود من الطّريق الذي جئت منه»، وابتسم ببشاشةٍ مضيقاً: «لنتكلّم ثانيةً غداً. يُمْكِننا أن نُخبر مارسلا حين نصل إلى (الحدائق المائيّة). أعرفُ أنها ستحمّس للغاية. لا أشكّ في أنها تفتقد أباها أيضاً».

قال السير بالون: «إنني متشوّق إلى رؤيتها ثانيةً، وإلى زيارة (الحدائق المائيّة). سمعتُ أنها في غاية الجمال».

قال الأمير: «في غاية الجمال والسّلام. نسيم بارد ومياه رقراقه وأطفال

ضاحكون. (الحدائق المائيّة) مكاني المفضّل في هذا العالم أيها الفارس. أحد أسلافي شيدها لإسعاد عروسه ابنة تارجارين وعتقها من غبار (صنسيبر) وحرّها. كان اسمها دنيرس، أخت الملك دايرون الصّالح، وزواجها هو ما جعل (دورن) جزءاً من (الممالك السّبع). كانت البلاد أجمعها تعلم أن الفتاة تحبّ ديمون بلاكفاير أخت دايرون النّعل وأنه يحبّها، لكن الملك تحلّى بالحكمة الكافية لرؤية أن صالح الألوّف يجب أن يسبق رغبات اثنين، حتى إذا كانا غاليين عليه. دنيرس هي من ملأت الحدائق بالأطفال الصّاحكين، أطفالها هي في البدء، ولاحقاً ضمّت إليهم أبناء وبنات اللوردات والفُرسان مُلاك الأراضي ليكونوا رفاقاً للبنين والبنات أصحاب الدّماء الأميريّة. ثم في يوم صيفي حين كان القيظ شديداً أشفقت على أطفال سائسها وطهايتها وخدمها ودعتهم لاستخدام المسابح والنّوافير بدورهم، وهو التّقليد المستمرّ حتى يومنا هذا، وأمسك الأمير عجلتي مقعده المتحرّك ودفع نفسه عن المائدة مستطرداً: «لكن أرجو أن تعدّرنى الآن أيها الفارس. كل هذا الكلام أرهقني، وعلينا أن نتحرّك عند مطلع الفجر. أوبارا، هلاً تلتفت بمساعدتي على الذهاب إلى فراشي؟ نايميريا، تايين، تعالياً أيضاً وتمنيّاً لعمكما العجوز ليلةً طيِّبةً».

وهكذا وقع على عاتق أوبارا ساند أن تدفع مقعد الأمير من قاعة مادب (صنسيبر) وتقوده عبر رواقٍ طويلٍ إلى عُرفته الشّمسيّة. تبعهما هوتا وأختها، بالإضافة إلى الأميرة آريان وإلاريا ساند، وأسرع المايستر كالوت وراءهم متعللاً خفيّه ومحتضناً الجمجمة كأنها طفل.

قالت أوبارا وهي تدفع الأمير: «لا يُمكن أنك تنوي إرسال تريستان ومارسلا إلى (كينجز لاندنج) حقاً». حُطواتها طويلة غاضبة، وأسرع من اللازم، فأخذت عجلتا المقعد الخشبّيتان الكبيرتان تُطَقطان بصخبٍ على الأرض الحجريّة. «افعل ذلك ولن نرى الفتاة ثانية أبداً، وسيقضي ابنك حياته رهينةً للعرش الحديدي».

تنهّد الأمير قائلاً: «هل تحسبيني أبله يا أوبارا؟ هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها، أشياء يُفضّل ألاّ تُناقش هنا حيث يُمكن لأيّ أحد أن يسمع. اعتصمي بالصّمّت وقد أنورك»، وجفل مردفاً بالَم: «تمهلي بحقّ حبّك لي. الرّجّة الأخيرة غرست سكيناً في رُكبتي».

حفّضت أوبارا سرعتها إلى النّصف سائلةً: «ماذا ستفعل إذن؟».

أجابت أختها تابين كهرةً تُخرخر: «ما يفعله دومًا، يُسوِّف ويتكتم ويُراوغ. أوه، لا أحد يُجيد هذا كعمنا الشجاع».

قالت الأميرة آريان: «أنتِ مخطئة».

وقال الأمير بنبرة أمرة: «صمتًا جميعًا».

لم يدُر بمقعدة مواجهها النساء حتى أغلق باب غرفته الشمسية عليهم، لكن حتى هذا المجهود المحدود أعياه، وعلق الدثار المائري الذي يُغطي به ساقه بين اثنين من أشعة إحدى العجلتين، فتشبث به كي لا يتمزق. تحت الغطاء ساقاه شاحبتان خرعتان شنيعتا المنظر، وكلتا رُكبيته ملتهبة محمرة، وأصابع قدميه متورمة إلى ضعف حجمها الطبيعي وتكاد تكون أرجوانية. رأى هوتا آثار النقرس هذه آلاف المرّات، ومع ذلك ما زال يجد النَظر إليها صعبًا.

تقدّمت الأميرة آريان قائلة: «دعني أساعدك يا أبي».

ردّ الأمير مخلصًا الدثار: «ما زلتُ أستطيع تحريك دثاري، أستطيع هذا على الأقل». وهو قليل. ساقاه عديمتا الفائدة منذ ثلاث سنوات، لكن في يديه وكففيه شيئًا من القوة حتى الآن.

سأل المايستر كاليوت: «هل أحضرُ لأميري كوبًا صغيرًا من حليب الخشخاش؟».

- «مع هذا الألم سأحتاجُ إلى دلو. أشكرك، لكن لا. أريدُ الاحتفاظ بعقلي. لن أحتاج إليك ثانية الليلة».

قال المايستر كاليوت: «رهن إشارة يا أميري»، وانحنى وهو لا يزال ممسكًا رأس السير جريجور بيديه المتورّدين الناعمين.

قالت أوبارا ساند: «سأخذُ هذه»، واختطفّت منه الجمجمة ومدّت ذراعها رافعةً إياها، وتساءلت: «ماذا كان شكل الجبل؟ كيف نعلم أن هذا هو حقًا؟ كان بإمكانهم أن يغمسوا الرأس في القار. لماذا يُجرّدونه حتى العظم؟».

أجابت الليدي نيم فيما خرج المايستر كاليوت: «كان القار ليُسبّد الصُنْدوق. لا أحد رأى الجبل يموت، ولا أحد رأى رأسه يُقطع. أعتزفُ بأن هذا يُزعجني، لكن ما الذي قد تأمل الملكة الحقيرة في تحقيقه بخداعنا؟ إذا كان جريجور كليجايين حيًّا فعاجلاً أو آجلاً ستكتشف الحقيقة. الرّجل كان يبلغ الأقدام الثمانية طولًا، ولا أحد مثله في (وستروس) كلّها. إذا ظهر رجل

كهذا ثانيةً فسيفتح كذب سرسي أمام (الممالك السَّبع) أجمع. إنها في غاية الحماقة إذا خاطرت بشيء كهذا. ما الذي قد تأمل في كسبه؟».

قال الأمير: «الجمجمة كبيرة بما فيه الكفاية بلا شك، ونحن نعلم أن أوبرين أصاب جريجور بجروح بليغة. كل تقرير بلغنا منذ ذلك الحين يقول إن كليجائين ماتَ ببطءٍ وألمٍ ممضٍ».

قالت تايين: «تماماً كما انتوى أبونا. حقاً يا أختي، إنني أعرفُ السَّم الذي استخدمه أبونا. إذا خدشت الحربة جلد الجبل مجرد خدش فهو ميت لا محالة، ولا أبالي كم كان حجمه. لكما أن تشكاً في أختكما الصَّغيرة إذا أردتما، لكن إياكما أن تشكاً في أبنينا».

ردت أوبارا مغضبةً: «لم ولن أفعل ذلك أبداً»، وقبَّلت الجمجمة هازئةً، ثم قالت: «إنها بداية، أفرُّ بهذا».

مذهولةً قالت إلاريا ساند: «بداية؟! حاشا للآلهة، لعلها النهاية. تايوين لانستر مات، وكذا روبرت باراثيون وأموري لورك، والآن جريجور كليجائين، كل من كانت لهم يد في مقتل إليا وطفليها، وحتى چوفري الذي لم يكن قد وُلد بعدُ حين ماتت إليا. لقد رأيتُ الصَّبي يموت بأُم عيني، يخمش حلقة محاولاً التقاط أنفاسه. مَنْ تبقَّى ليقتل؟ هل يجب أن تموت مارسلا وتومن ليعرف شبحا رينيس وإجون السَّلام؟ أين ينتهي كل هذا؟».

قالت الليدي نيم: «ينتهي بالدم كما بدأ، ينتهي عندما تُفلق (كاسترلي روك) لتسطع الشَّمس على اليرقات والديدان في قلبها، ينتهي بالدمار التَّام لتايوين لانستر وصنائعه جميعاً».

ردت إلاريا بحدة: «الرَّجل ماتَ بيد ابنه. ما الذي تتمنِّيه أكثر من هذا؟». أجابت الليدي نيم: «أتمنِّي لو أنه ماتَ بيدي أنا»، واستقرت في مقعدٍ وانسدلت ضفيرتها السوداء الطويلة من فوق كنفها إلى حجرتها. لنايميريا مقدِّمة شعر أبيها المسحوبة، وأسفلها عيناها واسعتان نيرتان. ارتسمت على شفثيها الخمريتين بسمة حريية إذ أردفت: «لو حدث ذلك لما كانت ميتته سهلة».

قالت تايين بصوت السِّبوتات العذب: «السير جريجور يبدو وحيداً. سيرحَّب بالصُّحبة، إنني واثقة».

كانت الدُموع تُبَلِّل عَيْنِي إِلا رِيَا وتلمع في عينيها الدَّاكتنِين. حتَّى في بُكَائِهَا تبدو عليها القوَّة. قالت: «أوبرين أَرَادَ الثَّأْرَ لِإِليَا، وَالآنَ تُرِيدُ ثَلَاثَتَكُنِ الثَّأْرَ لِه. أَذَكَّرَكُنِ بِأَن لِي أَرْبَعُ بَنَاتٍ، أَخَوَاتَكُنِ. إِليَا فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ، تَكَادُ تَبْلُغُ مَبْلَغَ النِّسَاءِ. أُوْبَلَا فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ، عَلَيَّ وَشَكَّ أَنْ تُزَهِّرَ. إِنِهْمَا تَعْبُدَانِكُنِ كَمَا تَعْبُدُهُمَا دُورِيَا وَلُورِيَا. إِذَا هَلَكْتُنِ فَهَلْ عَلَيَّ إِلْ وَأُوْبَلَا السَّعْيُ إِلَى الثَّأْرِ لَكُنِ؟ ثُمَّ دُورِيَا وَلُورِيَا لِهْمَا؟ أَهَكَذَا تَدُورِ الدَّائِرَةُ إِلَى الأَبَدِ؟ أَسَأَلُكَ ثَانِيَةً، أَيْنَ يَنْتَهِي كُلُّ هَذَا؟»، وَوَضَعْتَ إِلا رِيَا يَدَهَا عَلَيَّ رَأْسَ الْجَبَلِ مُتَابِعَةً: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَبَاكَنِ يَمُوتُ، وَهِيَ هِيَ ذَا قَاتِلِهِ. هَلْ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَخْذُ جَمِجَمَةً مَعِيَ إِلَى الْفِرَاشِ لَتُوَاسِينِي فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ؟ هَلْ سَتُضْحِكُنِي وَتَكْتُبُ لِي الأَغَانِي وَتَعْتَنِي بِي وَأَنَا عَجُوزٌ مَرِيضَةٌ؟».

سَأَلْتُهَا اللَّيْذِي نِيمَ: «مَاذَا تُرِيدِينَا أَنْ نَفْعَلَ يَا سَيِّدَتِي؟ نَضَعُ حِرَابِنَا وَنَبْتَسِمُ وَنَنْسَى كُلَّ مَا تَعَرَّضْنَا إِلَيْهِ مِنْ إِسَاءَاتٍ؟».

قَالَتْ أُوْبَارَا: «الْحَرْبُ سَتَقُومُ سِوَاءِ أَرْدُنَا هَذَا أَمْ لَمْ تُرِدْهُ. الْعَرْشُ الْحَدِيدِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ مَلِكٌ صَبِي، وَاللُّورْدُ سَتَانِيْسُ عَلَيَّ (الْحِجَارُ) وَيَجْمَعُ الشَّمَالِيْنَ لِذَعْمِ قَضِيَّتِهِ، وَالْمَلِكَتَانِ تَتَشَاجِرَانِ عَلَيَّ تُوْمَنْ كَكَلْبَتَيْنِ عَلَيَّ عَظْمِيَّةٍ طَرِيَّةٍ، وَالْحَدِيدِيُّونَ اسْتَوْلَوْا عَلَيَّ (الثَّرُوسُ) وَيُغَيِّرُونَ عَلَيَّ ضَفَافَ (الْمَانْدِرُ) فِي قَلْبِ (الْمَرَعِي)، أَيُّ أَنْ (هَاجَارْدَنْ) سَتَكُونُ مَلْهِيَّةً أَيْضًا. أَعْدَاؤُنَا مَشْتَتُونَ وَالْفُرْصَةُ سَانِحَةٌ».

سَأَلْتُ إِلا رِيَا: «سَانِحَةٌ لِمَاذَا؟ لِعَمَلِ الْمَزِيدِ مِنَ الْجَمَاجِمِ؟»، وَالتَفَتَتْ إِليَّ الأَمِيرِ قَائِلَةً: «يَرْفُضُنِ أَنْ يَرِيْنَ. لَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَسْمَعُ مَزِيدًا مِنْ هَذَا». أَخْبَرَهَا الأَمِيرُ: «عُودِي إِلَى بَنَاتِكَ يَا إِلا رِيَا. أَقْسَمُ لَكَ أَنْ أَدَى لَنْ يَمَسَّهَنْ». قَالَتْ: «أَمِيرِي»، وَقَبَّلَتْهُ عَلَيَّ جَبْهَتَهُ ثُمَّ انْصَرَفَتْ، وَشَعَرَ آرِيُو هُو تَا بِالْحُزْنِ لِرُؤْيَيْهَا تَذَهَبُ. إِنِهَا امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ.

عِنْدَمَا غَادَرَتْ إِلا رِيَا قَالَتْ اللَّيْذِي نِيمَ: «أَعْرَفْتُ أَنَّهَا كَانَتْ تَهِيْمُ حُبًّا بِأَبِينَا، لَكِنْ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهَا لَمْ تَفْهَمْ قَطُّ».

رَمَقَهَا الأَمِيرُ بِفَضُولٍ قَائِلًا: «إِنَّهَا تَفْهَمُ أَكْثَرَ مِمَّا سَتَفْهَمِينَ فِي حَيَاتِكَ كُلِّهَا يَا نَايْمِيرِيَا، وَلَقَدْ أَسْعَدَتْ أَبَاكَ. فِي النِّهَايَةِ قَدْ تَكُونُ لِلْقَلْبِ الطَّيِّبِ قِيْمَةً أَعْلَى

من الكبرياء أو الشجاعة. على كلِّ حال، ثمة أشياء لا تعرفها إلاريا ولا ينبغي أن تعرفها. الحرب بدأت بالفعل».

قالت أوبارا ضاحكةً: «أجل، عزيزتنا آريان حرصت على هذا». احتقنَ وجه الأميرة، ورأى هوتا وجه أبيها يتقلص حنقًا لحظةً قبل أن يقول: «آريان فعلت ما فعلته من أجلكن كما من أجل نفسها. لو كنتُ في مكانك لما أسرعتُ بالسُّخرية منها».

ردَّت أوبارا بإصرار: «كان هذا ثناءً. سوف وتكتم وراوغ وتصنع وأجل كما تشاء يا عمّاه، لكن في النهاية سيواجه السير بالون مارسلا في (الحدائق المائية)، وحين يفعل فسيري أن أذنًا تنقصها، ولما تحكي له الفتاة كيف شقَّ قائدك آريس أو كهارت من العنق إلى الخصر بزوجته الفولاذية هذه...».

- «لا»، قالت الأميرة آريان ناهضةً من على الوسادة التي جلست عليها، ووضعت يدها على ذراع هوتا مضيفةً: «ليس ذلك ما حدث يا ابنة العم. السير آريس قتله چيرولد داين».

تبادلت أفاعي الرّمال النظرات، وتساءلن: «النجم المظلم؟». قالت الأميرة الصّغيرة: «النجم المظلم فعلها، وحاوَل أن يقتل الأميرة مارسلا، كما ستُخبر السير بالون».

ابتسمت نيم قائلةً: «هذا الجزء صحيح على الأقل». قال الأمير بجفلة ألم: «كلُّ ما قيل صحيح». هل يؤلمه النقرس أم الكذبة؟ «والآن فرّ السير چيرولد إلى (الصّومعة العالية) بعيدًا عن متناولنا».

غمغمت تايين بضحكة مكتومة: «النجم المظلم، ولم لا؟ هو من ارتكب كلَّ شيء. لكن هل سيُصدّق السير بالون هذا؟». أجابت آريان: «سيُصدّقه إذا سمعه من مارسلا».

نحرت أوبارا غير مصدّقة، وقالت: «قد تكذب اليوم وغداً، لكنها ستقول الحقيقة عاجلاً أو آجلاً. إذا سُمِحَ للسير بالون بحمل الكلام إلى (كينجز لاندنج) فستدقُّ طبول الحرب وتسيل الدماء. يجب ألا نسمح له بالرحيل». قالت تايين: «يمكننا أن نقتله بالتأكيد، ولكن سيكون علينا أن نقتل بقیة وفده أيضًا، بما فيها المرافقون اليافعون الجذّابون. سيكون ذلك... أوه، فوضويًا جدًّا».

أغلقَ الأمير دوران عينيه وعادَ يفتحهما، ورأى هوتا ساقيه ترتجفان تحت الدُّثار إذ قال: «لو لم تكن بنات أخي لأعدت ثلاثنكن إلى الزنازين واحتفظت بكن هناك حتى تشتعل رؤوسكن شيبًا، لكن بدلًا من ذلك أنوي أن أخذكن معنا إلى (الحدائق المائيّة). ثمة دروس تتعلّمنها هناك إذا تمتعتن بالعقل لرؤيتها».

قالت أوبارا: «دروس؟ لم أر هناك إلاّ الأطفال العُرا».

قال الأمير: «أجل. لقد حكيتُ القصّة للسير بالون، ولكن ليس بأكملها. بينما لعبَ الأطفال في المسابح شاهدتهم دنيرس من بين أشجار البُرتقال وأدركتُ شيبًا، أنها لا تستطيع التمييز بين أولاد الأعيان وأولاد العوام. وهُم عُرا كلهم أطفال فقط، كلهم بريء، كلهم هش، كلهم يستحقُّ الحياة الطويلة والحُبِّ والحماية. ثم إنها قالت لابنها ووريثها: هؤلاء بلدك. تذكّرهم في كلِّ ما تفعله. الكلام نفسه قالته لي أمِّي حين كبرتُ وتركتُ المسابح. ما أسهل أن يستدعي الأمير حِرابه، لكن في النهاية يدفع الأطفال الثمن. لأجلهم لا يشنُّ الأمير الحكيم حربًا دون سبب وجيه، ولا حربًا لا يأمل في الانتصار فيها. لستُ أعمى ولا أصمّ. أعرفُ أنكن جميعًا تعتقدنني ضعيفًا خائفًا عاجزًا، لكن أبأكن عرفني أفضل. لطالما كان أوبرين أفعوانًا، مميّتًا خطرًا، لا يستطيع أحد التكهّن بأفعاله ولا يجرؤ أحد على أن يدوسه. أمّا أنا فكنتُ العُشب، سارًا لينًا طيب الرائحة، أنمايل في النسيم. من يخشى المشي على العُشب؟ لكن العُشب هو ما يخفي الأفعوان عن أعدائه ويؤويه حتى يضرب ضربته. أنا وأبوكن عملنا معًا عن كثب أكثر مما تُدركن... لكنه رحل، والسؤال الآن، هل أستطيعُ أن أثق ببناته ليخدمنني بدلًا منه؟».

أمعن هوتا النّظر إلى كلِّ منهن بدورها، إلى أوبارا بأظفارها الصّدئة وجِلدها المقوّى وعينيها المتقاربتين الغاضبتين وشعرها البني كالجرذان، ونايميريا برقتها وأناقها وبشرتها الزّيّتونيّة وضميرتها السّوداء الطويلة المربوطة بسلكٍ من الذهب الأحمر، وتايين بعينيها الزّرقاوين وشعرها الأشقر، امرأة طفلة بيديها النّاعمتين وضحكاتها.

أجابت تايين نيابةً عن ثلاثتهن: «العسير ألاّ نفعل شيئًا يا عمّاه. كلّفنا بمهمّة، بأيّ مهمّة، وستجدنا بالإخلاص والامثال اللذين يمتنّاهما أيُّ أمير».

قال الأمير: «يسّرني أن أسمع هذا، لكن الكلام هواء. أنتن بنات أخي

وأحبُّكن، لكنني تعلَّمتُ أنني لا أستطيعُ الثقةُ بكن. أريدُ منكن قَسَمًا. هل تُقسِمن على خدمتي وفعل ما أمركن به؟».

قالت الليدي نيم: «إذا دعتُ الحاجة».

- «أقسِمن على هذا الآن إذن بقبر أبيكن».

اربد وجه أوبارا، وقالت: «لو لم تكن عمِّي...».

- «أنا عمُّك، وأميرك. أقسِمن أو ارحلن».

قالت تايين: «أقسِمن بقبر أبي».

ثم الليدي نيم: «أقسِمن بأوبرين مارتل، أفعوان (دورن) الأحمر ورجل أفضل منك».

ثم أوبارا: «أجل، وأنا أيضًا، بأبي، أقسِمن».

تسرَّب شيء من التوتُّر من الأمير، ورآه هوتا يرتخي في مقعده ويمدُّ يده، فتقدَّمت الأميرة أريان تقف إلى جانبه لتمسكها، وقالت: «أخبرهن يا أبي».

أخذ الأمير دوران نفسًا متهدِّجًا، وقال: «لم يزل لـ(دورن) أصدقاء في

البلاط، أصدقاء يُخبروننا بأشياء لم يكن يجب أن نعرفها. الدَّعوة التي بعثت

بها سرسي إلينا حيلة. المفترض ألا يصل تريستان إلى (كينجز لاندنج) أبدًا. في

طريق العودة، في مكان ما في (غابة الملوك)، سيهاجم الخارجون عن القانون

وفد السير بالون ويموت ابني، وقد طُلِب مني الذهاب إلى البلاط فقط كي

أشهد الهجوم بعيني ومن ثم أبرأ الملكة من أيِّ لوم. أوه، وهؤلاء الخارجون

عن القانون سيهتفون: النصف رجل، النصف رجل في أثناء هجومهم، وقد

يرى السير بالون لمحةً عابرةً من العفريت، ولو أن أحدًا آخر لن يفعل».

ما كان آريو هوتا ليتصوَّر أن شيئًا في العالم من شأنه أن يصدِّم أفاعي

الرَّمال، ولكان مخطئًا.

همست تايين: «لُينقدنا (السبعة). تريستان؟! لماذا؟».

وقالت أوبارا: «مؤكِّد أن تلك المرأة مخبولة. إنه مجرد صبي».

وقالت الليدي نيم: «إنها وحشيَّة. لم أكن لأصدِّق أن فارسًا في الحرس

الملكي يُمكنه أن يفعل هذا».

قال الأمير: «إنهم مقسمون على الطاعة، تمامًا كقائدي. كانت الشُّكوك

تُساورني، لكنكم رأيتم جميعًا كيف اضطرب السير بالون حين اقترحتُ

السَّفَر بحرًا. كان ركوب السَّفينة لُيفسد ترتيبات الملكة كلها».

بوجهٍ محتقن قالت أوبارا: «أعد لي حربتي يا عمّاه. سرسي أرسلت إلينا رأسًا، ويجدر بنا أن نُرسل إليها جوالاً من الرُّؤوس».

رفع الأمير دوران يدًا مفاصلها قاتمة كالكرز وتكاد تُماثلُه حجمًا، وقال: «السير بالون ضيف تحت سقفي وأكل عيشي وملحي. لن أمسّه بسوء، لا. سنُسافر إلى (الحدائق المائية) حيث سيسمع قصّة مارسلا ويُرسَل إلى ملكته عُذافًا. ستطلبُ منه الفتاة أن يُطارِد الرّجل الذي آذاها، وإذا كان كما قدّرتَه فلن يتمكّن سوان من الرّفْض. أوبارا، ستقودينه إلى (الصّومعة العالية) لمواجهة النّجم المظلم في وكره. لم يحن الوقت بعدُ لأن تتحدّى (دورن) العرش الحديدي علانيةً، ولذا فلا مفرّ من أن نُعيد مارسلا إلى أمّها، لكني لن أصحبها. تلك مهمّتك يا نايميريا. لن يروق هذا آل لانستر مثلما لم يرقهم إرسالنا أوبرين إليهم، لكنهم لا يجروّون على الرّفْض. إننا في حاجةٍ إلى صوتٍ في المجلس وأذنٍ في البلاط. لكن عليك بتوخّي الحذر. (كينجز لاندينج) جُحر ثعابين».

ابتسمت الليدي نيم قائلةً: «وأنا أحبُّ الثّعابين يا عمّاه».
سألته تايين: «وماذا عني؟».

- «كانت أمك سيّئة. ذات مرّة أخبرني أوبرين بأنها اعتادت القراءة لك في المهد من (النّجمة السّباعيّة). أريدك في (كينجز لاندينج) أيضًا، ولكن على التّل الآخر. جماعتنا السّيوف والنّجوم شكّلتنا ثانيةً، والسّبتون الأعلى الجديد ليس الدّمية التي كانها سابقوه. حاولي أن تتقرّبي إليه».

- «ولمّ لا؟ الأبيض يُناسب لوني، أبدو فيه... نقيّة».
قال الأمير: «جيدٌ، جيدٌ»، وتردّد لحظةً ثم أضاف: «إذا... إذا حدثت أشياء معيّنة فسأرسَل إلى كلِّ منكن خبرًا. الطّروف تتبدّل بسرعةٍ في لعبة العروش». قالت آريان: «أعلمُ أنكن لن تخذلننا يا بنات عمّي»، وذهبت إلى كلِّ منهن بدورها وأمسكت يديها وطبعت قُبلةً صغيرةً على شفّتها، ثم قالت لهن: «أوبارا العتيّدة، ونايميرا أختي، وتايين العذبة، أحبّكن جميعًا. صحبّكن شمس (دورن)».

معًا قالت ثلاثة أفاعي الرّمال: «لا ننحنّي، لا نخضع، لا ننكسر».

مكثت الأميرة آريان بعد ذهاب بنات عمّها، وكذا آريا هوتا، فمكانه مع أميره.
قال الأمير: «إنهن بنات أبيهن».

ابتسمت الأميرة الصّغيرة، وقالت: «ثلاثة من أوبرين بأثناء».
ضحك الأمير دوران، وكان زمن طويل للغاية قد انقضى منذ سمع هوتا
ضحكته حتى إنه كاد ينسى صوتها.

قالت آريان: «ما زال رأيي أن عليّ أنا الذهاب إلى (كينجز لاندنج) وليس
الليدي نيم».

- «خطر جدًا. أنت ورِيثي، مستقبل (دورن)، ومكانك إلى جانبي. قريبًا
ستكلفين أيضًا بمهمة».

- «الجزء الأخير، بخصوص الرّسائل. هل بلغتك أنباء؟».
منحها الأمير دوران ابتسامته السريّة، وأجاب: «من (ليس)، حيث رسا
أسطول عظيم يتزوّد بالماء، أغلبه سفن فولانتينية تحمل جيشًا. لا خبر عن
هُويته أو وجهته، لكن هناك كلامًا عن وجود أفيال».
- «لا تنانين؟».

- «أفيال، لكن من السهل أن يُخبئ المرء تينًا صغيرًا في مخزن كوج كبير.
دنيرس في أو هن حالاتها في البحر. لو كنت في مكانها لأخفيت نفسي وتباتي
أطول مُدّة ممكنة حتى أباغت (كينجز لاندنج) بالهجوم».
- «هل تظنّ أن كويتن سيكون معهم؟».

- «ربما، وربما لا. سنعرف حين يرسون إذا كانت (وستروس) وجهتهم
بالفعل. سيأتي بها كويتن عبر (الدّم الأخضر) إذا استطاع. لكن لا فائدة من الكلام
عن هذا الآن. قبلي. سنرحل إلى (الحدائق المائية) مع أول خيوط الفجر».
فكر هوتا: قد نرحل مع انتصاف النهار إذن.

لاحقًا، بعد خروج الأميرة آريان، وضع فأسه وحمل الأمير دوران إلى
فراشه، وغمغم الأمير فيما سحب هوتا الغطاء عليه: «حتى حطّم الجبل
جمجمة أخي لم يمّت دورني واحد في حرب الملوك الخمسة هذه. أخبرني
أيها القائد، أهذا عاري أم مجدي؟».

أجاب هوتا: «ليس لي أن أقول يا أميري». اخدم، احم، أطع. نذر بسيط
لرجل بسيط. هذا هو كل ما يعرفه.



چون

انتظرتَه فإل عند البوابة في برد ما قبل الفجر متدثرة بمعطفٍ ضخم من فرو
الدببة كان ليناسب سام، إلى جوارها حصان مجهز بالسرج واللجام، رمادي
صغير إحدى عينيه بيضاء، وقد وقفَ معها حارسان متنافران هما مولي وإد
الكثير، وخرجت أنفاس ثلاثتهم تتجلد في الهواء الأسود البارد.

سأل چون الرجلين مندهشاً: «أعطيتماها حصاناً أعمى؟»
أجاب مولي: «نصف أعمى فقط يا سيدي، لكنه سليم كفاية باستثناء هذا»،
وربتت على عنق الحصان.

قالت فإل: «الحصان نصف أعمى، أمّا أنا فلا، وأعرف أين عليّ أن
أذهب».

- «سيدي، لست مضطرة إلى أن تفعلني هذا. المخاطرة...»
- «... مخاطرتي أيها اللورد سنو. ولست واحدة من سيّدات الجنوب
وإنما امرأة من شعب الأحرار. إنني أعرف الغابة أفضل من جميع جوارتك
ذوي المعاطف السوداء، ولا أرى فيها أشباحاً».

أمل هذا. وهذا ما يعتمد عليه چون، ويثق بنجاح فإل في ما فشل فيه جاك
بولوار الأسود ورفاقه. يأمل ألا تجد داعياً للخوف من أن يمسها الأحرار
بأذى... إلا أن كليهما يعلم تمام العلم أن الهمج ليسوا الوحيدين المنتظرين
في الغابة. سألتها: «هل معك طعام كافٍ؟».

- «خبز جامد وجبنة جامدة وكعكات شوفان وقد مملح ولحم بقري
مملح وضأن مملح، وقربة من النبيذ المحلى لأغسل فمي من كل هذا الملح.
لن أموت جوعاً».

- «حانَ وقتَ ذهابِكِ إذنَ».

قالت قال: «لكِ كلمتي يا لوردِ سنو، سأعودُ بتورموند أو بدونَه»، ورفعتَ عينيها إلى الهلالِ في السَّماءِ مضيئةً: «ترقَّبِ عودتي في اليومِ الأولِ من البدرِ التَّام».

- «سأفعلُ». لا تخذليني وإلَّا قطعَ ستانيس رأسي. كان الملكُ قد سأله: «هل تُعطيني كلمتكِ بأن تُحافظِ على أميرتنا؟»، ووعدهُ چون بأن يفعل. لكن قال ليستِ أميرةً. أخبرته بهذا عشرات المرَّات. إنه نوعٌ واهٍ من المواربة، خرقةٌ بائسةٌ يلفُّ بها كلمته الجريحة. لم يكن أبوه ليُجيز هذا إطلاقًا. قال چون لنفسه مذكرًا: أنا السَّيفُ الذي يحرسُ بلدانَ البشر، وفي النهاية لا بُدَّ من أن تكونَ لهذا قيمةٌ أئمن من شرفِ رجلٍ واحد.

الطَّرِيقُ تحتَ (الجِدَارِ) قاتمٌ باردٌ كبطنِ تيننِ الجليدِ وملتو كالأفعى. قاذهمٌ إد الكئيبِ عبره حاملًا مشعلًا، وحملَ مولي مفاتيحَ البواباتِ الثلاثِ، حيثُ تُغلقُ النَّفقُ قُضبانٌ من الحديدِ الأسودِ غليظةٌ كذراعِ رجل. مسَّ حاملو الحِرَابِ عندَ كلِّ بوابةٍ جباههم تحيةً لچون سنو، لكنهم حملقوا جهراً إلى قال وحصانها.

حين خرجوا شمالَ (الجِدَارِ) من بابِ سميكَ مصنوعٍ من الخشبِ الأخضرِ المقطعِ حديثاً توقفتِ الأميرةُ الهمجيَّةُ لحظةً تتطلعُ عبر الأرضِ المغطَّاةَ بالثلوجِ حيثُ انتصرَ الملكُ ستانيس في معركة، وبعدها تنتظرُ (الغابةُ المسكونةُ) المظلمة الصَّامتة، وقد صيغَ ضوءُ الهلالِ شعراً قال الأشقر العسلي بالفصِّي الشَّاحبِ ووجنتيها بنصوعِ الثلجِ. أخذتِ نفساً عميقاً، وقالت: «مذاقُ الهواءِ حُلُو».

- «الخدري لسانِي يمنعني من إدراكِ ذلك. لستُ أدوقُ إلَّا البردَ». أطلقتِ ضحكةً قصيرةً قائلةً: «البردُ؟ لا. عندما يكون الطَّقْسُ بارداً سيؤلمكِ التَّنَفُّسُ، عندما يأتي (الآخرون)».

فكرةٌ مزعجة. ما زالَ سنَّةٌ من الجِوالةِ الذين أرسلهم چون مفقودين. قال لنفسه: الوقتُ مبكرٌ للغاية. قد يرجعون، لكن جزءاً آخر منه ردَّ بتصميم: لقد ماتوا جميعاً. أرسلتهم ليموتوا، والآن تُكرِّرُ الشَّيءَ نفسه مع قال. «أخبري تورموند بما قلته».

قالت قال: «قد لا يُصغي إلى كلامك، لكنه سيسمعه»، وطبعت قُبلةً خفيفةً عليّ خدّه، وأردفت: «أشكرك أيها اللورد سنو، على الحصانِ نصف الأعمى والقُد المملح والهواء الطلق، على الأمل».

امتزجت أنفاسهما مكونةً سديمًا أبيض في الهواء، ثم تراجعَ چون سنو قائلاً: «الشكر الوحيد الذي أريده هو...».

- «... تورموند بليّة العماليق، أجل»، ورفعتُ قال قلنسوة معطف فرو الدببة الذي يمتزج فيه البني بالرمادي، وقالت: «سؤال واحد قبل أن أذهب. هل قتلت چارل يا سيدي؟».

- «(الجدار) قتلَ چارل».

- «هذا ما سمعته، إلّا أنني أردتُ أن أتأكد».

- «لكِ كلمتي، لم أقتله». ولكن ربما كنتُ لأقتله لو اختلفت الأمور.

قالت بلهجة أقرب إلى العبث: «إنه الوداع إذن».

غير أن چون سنو لم يكن في مزاج يسمح بهذا. البرد أشدُّ والظلام أحلك من أن نلعب، والساعة متأخرة جدًا. «لفترة من الوقت فقط. سوف تعودين، من أجل الصّبي إن لم يكن لسبب آخر».

هزّت قال كتفيها قائلةً: «ابن كراستر؟ إنه ليس من أهلي».

- «سمعتك تُغنين له».

ردّت: «كنتُ أعنيّ لنفسي. أأنا الملامة إذا سمعني؟»، وداعبت ابتسامه وانية شفيتها إذ أضافت: «الغناء يُضحكُه. أوه، حسن، إنه وحش صغير جميل».

- «وحش؟».

- «اسم الرّضاعة⁽¹⁾! كان يجب أن أدعوه بشيء ما. احرص على أن يبقى آمنًا ودافئًا لأجل خاطر أمّه وخاطري، وأبعده عن المرأة الحمراء. إنها تعرف من هو. إنها ترى أشياء في نارها».

(1) اسم الرّضاعة تقليد استمدّه المؤلف من الثقافة الصّينيّة على الأرجح، حيث كان الآباء ينتظرون مئة يوم قبل أن يُطلقوا اسمًا فعليًا على المواليد، مثلما ينتظر الهمج عامين قبل إطلاق اسم فعلي على مواليدهم. (المترجم).

فَكَرَّ مَتَمِنًا أَنْ يَكُونَ هَذَا صَحِيحًا: أَرِيَا، وَأَجَابَ قَالَ: «تَرَى رَمَادًا وَجَذَوَاتٍ».

- «بل ترى ملوكًا وتنانين».

التَّانِينَ مَرَّةً أُخْرَى. لِلْحِظَّةِ كَادَ چُون يَرَاهَا أَيضًا، تَلْتَفُّ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي اللَّيْلِ وَيُحَدِّدُ أَجْنَحَتَهَا بَحْرَ مِنْ لَهَبٍ. «لَوْ كَانَتْ تَعْرِفُ لِأَخَذَتْ الصَّبِيَّ مِنَّا، ابْنِ دَالَا لَا وَحَشِكِ. كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ فِي أُذُنِ الْمَلِكِ كَانَتْ كَفِيلَةً بِإِنْهَاءِ الْأَمْرِ». وَإِنْهَائِي. كَانَ سَتَانِسُ لِيَعِدُّهَا خِيَانَةً. «لِمَاذَا تَتْرُكُ مَا حَدَثَ يَحْدُثُ لَوْ كَانَتْ تَعْرِفُ؟».

أَجَابَتْ قَالَ: «لَأَنَّهُ يُنَاسِبُهَا. النَّارُ خَدَاعَةٌ، لَا أَحَدٌ يَدْرِي فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ يَتِمَّائِلُ اللَّهَبُ»، وَوَضَعَتْ قَدَمَهَا فِي الرَّكَابِ وَاعْتَلَّتْ ظَهَرَ الْحِصَانِ، ثُمَّ نَظَرَتْ مِنْ فَوْقِ السَّرَجِ مَتَسَائِلَةً: «هَلْ تَذْكُرُ مَا أَخْبَرْتَكِ بِهِ أُخْتِي؟».

- «نَعَمْ». سَيْفٌ بِلَا مَقْبِضٍ، لَيْسَتْ هُنَاكَ وَسِيلَةٌ أَمِنَةٌ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ. لَكِنْ مَلِيسَانْدَرَا مُحَقَّةٌ. حَتَّى سَيْفٌ بِلَا مَقْبِضٍ أَفْضَلُ مِنْ يَدٍ خَالِيَةٍ حِينَ يُحِيطُ بِكَ الْأَعْدَاءُ.

دَارَتْ فَثَالَ بِالْحِصَانِ نَحْوَ الشَّمَالِ قَائِلَةً: «عَظِيمٌ. اللَّيْلَةُ الْأُولَى مِنَ الْبَدْرِ التَّامِ إِذْنٌ».

شَاهَدَهَا چُون سَنُو تَتَبَعُدُ مَتَسَائِلًا إِنْ كَانَ سِيرَى وَجْهَهَا ثَانِيَةً، وَسَمِعَهَا بِأُذُنِ الْخِيَالِ تَقُولُ: لَسْتُ وَاحِدَةً مِنْ سَيِّدَاتِ الْجَنُوبِ وَإِنَّمَا امْرَأَةٌ مِنْ شَعْبِ الْأَحْرَارِ.

مَغْمَمَ إِدِ الْكَيْبِ فِيمَا اخْتَفَتْ فَثَالَ وَرَاءَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ شَجَرِ الصَّنُوبِ الْجُنْدِيِّ: «لَا أَبَالِي بِمَا قَالَتْهُ. الْهَوَاءُ بَارِدٌ لِدَرَجَةٍ أَنْ أَنْفَاسِي تُؤَلِّمْنِي. كُنْتُ لِأَكْفَ عَنْ التَّنْفُسِ لَوْ لَا أَنْ ذَلِكَ يُؤَلِّمُ أَكْثَرَ»، وَفَرَكَ يَدَيْهِ مَعًا مُضِيْفًا: «لَنْ يَنْتَهِيَ هَذَا عَلَى خَيْرٍ».

- «هَذَا مَا تَقُولُهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ».

- «أَجَلْ يَا سَيِّدِي، وَعَادَةً مَا أَكُونُ مُحَقَّةً».

تَنْحَنخَ مَوْلِي، وَقَالَ: «سَيِّدِي، الْأَمِيرَةُ الْهَمْجِيَّةُ، تَرَكَهَا تَرْحَلُ هَكَذَا. قَدْ يَقُولُ الرَّجَالُ...».

- «... إِنِّي نِصْفُ هَمْجِي عَنْ نَفْسِي، مَارِقٌ يُرِيدُ أَنْ يَبِيعَ الْبِلَادَ لِلْهَجَّانَةِ

والعمالقة وأكلة البشر». لا يحتاج چون إلى النظر في النار ليعرف ما يُقال عنه. أسوأ ما في الأمر أنهم ليسوا مخطئين بالكامل. «الكلام هواء، والهواء شديد دوماً على (الجدار). هيا بنا».

كانت السماء لا تزال مظلمة عندما عادَ چون إلى مسكنه وراء مستودع السلاح ورأى أن جوست لم يرجع بعد. ما زال يصطاد. في الفترة الأخيرة يغيب الذئب الرهيب الأبيض أكثر مما يحضر، إذ يقطع مسافات أبعد وأبعد بحثاً عن الفرائس. بين رجال حرس الليل والهَمْج في (بلدة المناجذ) صيد كل ما في التلال والحقول القريبة من (القلعة السوداء) من الحيوانات التي كانت قليلة من البداية. الشتاء قادم قريباً، قريباً جداً. تساءل إن كانوا سيشهدون مجيء الربيع.

ذهب إد الكئيب إلى المطابخ وسرعان ما عادَ بدورقٍ من المِزر البني وصحفة مغطاة. تحت الغطاء وجدَ چون ثلاث بيضات بط مقلية في بقايا دهن الشواء، وشريحة من اللحم المقدد، وإصبعين من الشجق التقليدي وواحدًا من الشجق الدموي، ونصف رغيفٍ من الخبز الطازج الدافئ. أكل الخبز ونصف بيضة، وكان ليأكل اللحم المقدد أيضًا لولا أن الغداف اختطفه قبل أن ينال الفرصة. قال چون فيما حلَّق الطائر إلى عتبة الباب العلوية ليلتهم غنيمة: «لِص».

ردَّ الغداف مؤيدًا: «لِص!».

أخذَ چون قضمةً من الشجق، وكان يغسل فمه من الطعم برشفة مِزر حين عادَ إذ بُخِره بأن باون مارش في الخارج، وأضاف: «أوثيل والسِّبتون سلا دور معه».

كان هذا سريعاً. تساءل من يحكي الحكايات بين الرجال، وإن كان هناك أكثر من حكاية. «أدخلهم».

- «حاضر يا سيدي، لكن عليك أن تتبه إلى سجقك مع هؤلاء. الجوع يبدو عليهم».

ليست «الجوع» الكلمة التي كان چون ليستخدمها. بدا السِّبتون سلا دور مرتبكاً مهزوزاً وفي حاجة ماسة إلى ما يُخفف عنه مصابه، في حين بدا البتاء الأول أوثيل يارويك كأنه ابتلع شيئاً لم يستطع أن يهضمه تماماً، أمّا باون

مارش فبدا غاضبًا، وقد رأى چون هذا في نظرة عينيه وتوتر فمه واحتقان وجتيه المستديرتين. ليس هذا الاحمرار من البرد. قال: «تفضّلوا بالجلوس. هل أقدم لكم طعامًا أو شرابًا؟».

أجاب مارش: «تناولنا فطورنا في القاعة العامّة». وقال يارويك: «يُمكنني أن أكل المزيد»، وأتخذ مقعدًا بهدوءٍ مضيّفًا: «لطف منك أن تعرض».

وقال السّبتون سلا دور: «القليل من النّبذ ربما؟». وصرخ الغداف من فوق عتبة الباب: «ذرة، ذرة، ذرة!». خاطب چون إد قائلاً: «نبيذ للسّبتون وطبق لبنائنا الأول. لا شيء للطائر»، وعاد يلتفت إلى زائريه قائلاً: «أنتم هنا بشأن فآل».

قال باون مارش: «وشؤون أخرى. الرّجال قلقون يا سيّدي». ومن كلفك بالكلام نيابة عنهم؟ «وأنا أيضًا. أوثيل، ما أخبار العمل في (قلعة الليل)؟ جاءني رسالة من السير آكسل فلورنت الذي يُلقب نفسه بيد الملكة. يُخبرني بأن الملكة سيليس ليست مسرورةً بمسكنها في (القلعة الشّرقية) وترغب في الانتقال إلى مقرّ زوجها الجديد في الحال. هل سيكون هذا ممكنًا؟».

هزّ يارويك كتفيه مجيبًا: «لقد رمّمنا معظم الحصن ووضعنا سقفًا فوق المطبخ. ستحتاج إلى طعام وأثاثٍ وحطبٍ بالطبع، ولكن قد يصلح المكان للسكنى. إنه لا يضمُّ سبل الرّاحة المتوفرة في (القلعة الشّرقية) بالتأكيد، كما أنه بعيد عن السّفن في حال أردت جلالتها أن تتركنا، ولكن... أجل، يُمكنها أن تسكن هناك، ولو أن المكان لن يبدو كقلعةٍ حقيقةً قبل أعوام. إذا حظيت بالمزيد من البنائين فقد يحدث ذلك في وقتٍ أقرب».

- «يُمكنني أن أعرض عليك عملاقًا».

أفزع هذا أوثيل الذي قال: «الوحش الذي في السّاحة؟».

- «اسمه ونّ وج ونّ دار ونّ كما أخبرني ليدرز. اسم ثقيل جدًّا على اللسان، أعرف. ليدرز يدعوّه بونّ ونّ، ويبدو أن هذا يكفي». يمتّ ونّ ونّ بصلّة بعيدة للغاية إلى العمالقة في حكايات العجوز نان، تلك المخلوقات الضخمة المتوحّشة التي تخلط الدّم بثريد الصّباح وتلتهم ثيرانًا بأكملها

بشعرها وجِلدها وقرونها. هذا العملاق لا يأكل اللَّحْم على الإطلاق، وإن كان رُعباً رهيباً حين تُقدَّم إليه سلَّة من الجذور، فيسحق البصل والفجل وحتى اللَّفَّت النَّيِّء بين أسنانه المربَّعة الكبيرة. «إنه مستعدُّ للعمل، ولو أن إفهامه ما تُريده منه ليس سهلاً دائماً، إنه يتحدَّث اللغة القديمة إلى حدِّ ما ولا يعرف شيئاً من العامية، لكنه لا يكل، وقوَّته مذهلة. يُمكنه أن يُؤدِّي عمل دسِّته من الرِّجال وحده».

- «إنني... سيدي، الرِّجال لن... العمالقة يأكلون لحم البشَّر على ما أظنُّ... لا يا سيدي، أشكرك، لكن ليس عندي ما يكفي من رجالٍ لمراقبة مخلوق كهذا. إنه...».

لم يندهِش چون سنو، وقال: «كما تشاء. سنحتفظ بالعملاق هنا». الحقيقة أنه يكره الاستغناء عن وَن وَن. كانت إيجريت لتقول: لست تعلم شيئاً يا چون سنو، غير أن چون يتكلَّم مع العملاق متى استطاع من خلال ليدرز أو أحد الأحرار الذين أتوا بهم من البُستان، ويتعلَّم أشياء كثيرة عن قومه وتاريخهم. ليت سام كان هنا ليدوَّن هذه القصص. لكن هذا لا يعني أنه معميٌّ عن الخطر الذي يمثله وَن وَن، فالعملاق يُهاجم بعُنفٍ إذا هُدِّد، وهاتان اليدان الضَّخمتان قويتان بما فيه الكفاية لتمزيق رجل إرباً إرباً. إنه يُذكِّر چون بهودور. هو دور بضعف الحجم وِضعف القوَّة ونصف العقل. فكرة من شأنها أن تجعل السِّبتون سلا دور نفسه يستفيق. لكن إذا كان مع تور موند عمالقة فقد يُساعدنا وَن وَن دار وَن على التَّعامل معهم.

تمتَّ عُذاف مورمونت بضيقٍ إذ انفتح الباب من تحته معلناً عن عودة إد الكتيب بإبريق من النَّبيد وطبقٍ من البيض والسُّجق. انتظر باون مارش بنفاد صبرٍ بينَ فيما صبَّ إد الشَّراب، ولم يستأنف الحديث إلَّا بعد خروجه قائلاً: «توليت رجل صالح ومحبوب، وإميت الحديدي قيِّم سلاحٍ بارع، لكن هناك كلاماً عن نيتك صرفهما».

- «نحتاج إلى رجالٍ صالحين في (الرَّابية الطَّويلة)».

قال مارش: «بدأ الرِّجال يُسمُّونها (رابية العاهرات)، لكن على كلِّ حال، أصبحُ أنك تنوي استبدال إميت بذلك الوحشي ليدرز كقيِّم السِّلَاح؟ هذا المنصب يُحفظ غالباً للفرسان، أو الجوالَّة على الأقل».

أجابَ چون بكياسة: «ليدرز وحشي حقًا، أشهدُ على هذا، فقد جرّته في ساحة التّدريب. إنه خطير بفأس حجريّة كأكثر الفُرسان بالفولاذ المطرّق في قلعة. أعتزُّ بأنه ليس بالصّبر الذي أفضّله، وبعض الصّبية مرعوب منه... لكن هذا ليس سيئًا بالضرورة. يومًا ما سيجدون أنفسهم في قتالٍ حقيقي، وسيُفيدهم أن يكون الرُّعب مألوفًا لديهم نوعًا حينئذٍ.»

- «إنه همجي!».

- «كان كذلك حتى حلفَ اليمين، والآن هو أخونا، أخ يستطيع أن يُعلم الصّبية ما هو أكثر من المبارزة. لن يضرّهم أن يتعلّموا بضع كلماتٍ من اللّغة القديمة وشيئًا عن عادات شعب الأحرار.»

تمتمَ الغداف: «أحرار، ذرّة، ملك!».

- «الرّجال لا يثقون به.»

كان چون ليسأله: أيُّ الرّجال؟ كم عددهم؟ لكن ذلك كان ليقوده إلى طريق لا يُريد أن يسلكه، فقال: «يُوسفني أن أسمع هذا. هناك المزيد؟»

تكلمَ السّبتون سلا دور قائلًا: «هذا الفتى ساتان، يُقال إنك تنوي أن تجعله وكيلك ومُرافقتك بدلًا من توليت. سيّدي، إنه بائع هوى... إنه... غلام مأبون من مواخير (البلدة القديمة)».

وأنت سكران. «لا شأن لنا بما كانه في (البلدة القديمة). إنه سريع التّعلّم والبديةة. المجنّدون الآخرون بدأوا باحتقاره، لكنه كسبهم وصادقهم جميعًا. إنه لا يعرف الخوف في القتال، كما يُجيد القراءة والكتابة إلى حدّ ما، والمفترض أن يكون قادرًا على إحضار وجباتي ووضع السّرج على حصاني، أليس كذلك؟».

قال باون مارش بوجهٍ من حجر: «على الأرجح، لكن الأمر لا يُعجب الرّجال. لقد جرى التّقليد على أن يكون مُرافقو القائد فتيةً من عليّة القوم يُمرّنون على القيادة. هل يعتقد سيّدي أن رجال حرس اللّيل سيتبعون بائع هوى في المعركة؟».

ردّ چون وقد اشتعلت غضبته: «لقد تبعوا من هُم أسوأ. الدّب العجوز تركَ بضع ملاحظاتٍ تحذيريّة لخليفته عن رجالٍ بعينهم. في (بُرج الظلال) طبّاخ كان يهوى اغتصاب السّبتوات، وكلّما اغتصبَ واحدةً وسَم جسده بنجمةٍ

سُبَاعِيَّة. على ذراعهِ اليُسرى نجوم من المعصم إلى المرفق، وعلى رِبتَي ساقيه أيضًا. وفي (القلعة الشَّرقيَّة) رجل أضرمَ النَّارَ في منزل أبيه وأوصدَ الباب، واحترقتْ أسرته كلها حتى الموت، أفرادها التسعة جميعًا. أيًا كان ما فعَله ساتان في (البلدة القديمة) فهو أخونا الآن، وسيُصبحُ مُرافقي».

شربَ السِّبْتون سلا دور قليلًا من النَّبيذ، وطعنَ أوْثيل يارويك إصبعًا من السُّجق بخنجره، وجلسَ باون مارش محتقن الوجه، وخبقَ الغُداف بجناحيه قائلاً: «ذُرَّة، ذُرَّة، اقْتُل!».

وأخيرًا تنحَّحَ قِيَم الوُكلاء، وقال: «حضرة اللورد يعرف الأصلح، إنني واثق. هل لي أن أسأل عن الجثتين في زنازين الجليد؟ إنهما تُوتِران الرِّجال. وتضعهما تحت الحراسة؟ مؤكَّد أن هذا تبيد لرجلين صالحين، ما لم تكن تخشى أن...».

- «... تنهضاً؟ أتمنى هذا».

امتقعَ وجه السِّبْتون سلا دور، وسأل النَّبيذ على ذقنه في خطِّ أحمر إذ قال: «لِيُقِذنا (السَّبعة). حضرة القائد، الجثت الحية كائنات متوحَّشة غير طبيعيَّة، مسوخ في أعين الآلهة. لا... لا يُمكن أنك تنوي أن تُحاول الكلام معها، أليس كذلك؟».

قال چون سنو: «هل يُمكنها الكلام؟ لا أظنُّ، لكنني لا أدَّعي المعرفة. ربما تكون كائناتٍ وحشيَّة، لكنها كانت بشرًا قبل أن تموت. كم يتبقى من بشريَّتها؟ الجثة التي قتلتها كانت مصمَّمة على الفتك بحضرة القائد مورمونت، ومن الجليِّ أنها تذكَّرت مَنْ هو وأين تجده». لا يشكُّ چون في أن المايستر إيمون كان ليُدرك ضالَّته، وكان سام تارلي ليرتجف فرحًا لكنه كان ليفهم أيضًا. «السيد والدي اعتاد أن يقول لي إن على الرَّجل أن يعرف أعداءه، ونحن نفهم القليل عن الجثت الحية وأقل عن (الآخرين). إننا في حاجة إلى أن نعرف».

لم يُرضهم جوابه. داعبَ السِّبْتون سلا دور البلورة المتدلِّية من رقبتة، وقال: «أظنه تصرُّفًا تعوزه الحكمة تمامًا أيها اللورد سنو. سأدعو (العجوز) أن ترفع مصباحها المنير وتهديك إلى سبيل الحكمة».

كان صبر چون سنو قد نفذ. «إنني واثق بأننا جميعًا في حاجة إلى المزيد من الحكمة». لستَ تعلم شيئًا يا چون سنو. «والآن، هل نتكلَّم عن قال؟».

قال مارش: «أهذا صحيح إذن؟ أنك أطلقت سراحها؟».

- «وراء (الجدار)».

شهق السبّتون سلا دور، وقال: «غنيمة الملك. سيغضب جلالته للغاية عندما يجدها رحلت».

- «قال ستعود». قبل ستانيس بمشيئة الآلهة.

سأله باون مارش: «وكيف تعلم هذا؟».

- «هي قالت إنها ستعود».

- «وإذا كذبت؟ إذا وقع لها مكروه؟».

أجاب چون: «إذن فستالون فرصة اختيار قائدٍ يُعجبكم أكثر، لكن حتى ذلك الحين أخشى أن عليكم احتمالي»، ورشف من مزره قبل أن يُضيف: «لقد أرسلتها لتجد تورموند بليّة العماليق وتطرح عليه عرضي».

- «وما هذا العرض إن كان لنا أن نعرف؟».

- «العرض نفسه الذي قدّمته في (بلدة المناجد)، الطّعام والمأوى والسّلام إذا ضمّ قوّته إلى قوّتنا لقتال عدوّنا المشترك ومساعدتنا على الدّفاع عن (الجدار)».

لم يبدُ على باون مارش الاندهاش، وقال بنبرة تشي بأنه كان يعلم طوال الوقت: «تنوي أن تتركه يمرّ، أن تفتح بواباتنا له ولأتباعه، مئات، آلاف».

- «إن كان هذا العدد قد تبقى معه».

رسم السبّتون سلا دور علامة النّجمة، وأطلق أوثيل يارويك أنيناً، وقال باون مارش: «قد يُسمّي بعضهم هذا خيانةً. إنهم همج، برابرة، هجّانة، مغتصبون، ووحوش أكثر من بشر».

قال چون: «تورموند ليس شيئاً من هذا، تماماً كمانس رايدر، لكن حتى لو كانت كل كلمة قتلها صحيحة فإنهم ما زالوا بشرًا، بشرًا أحياء، أناسًا مثلي ومثلكم. الشّقاء قادم أيها السّادة، وحين يأتي علينا نحن الأحياء أن نتأزّر معاً ضد الموتى».

صرخ غُذاف چيور مورمونت: «سنو، سنو، سنو!».

تجاهله چون متابعًا: «لقد استجبونا الهمج الذين جلبناهم من البُستان، وقد حكى كثيرون منهم حكايةً مثيرةً للاهتمام عن ساحرة غابات اسمها الأم خلد».

قال باون مارش: «الأم خُلد؟ اسم عجيب!».

- «يُقال إنها اتَّخذت لنفسها جُحرًا تحت شجرة جوفاء، لكن سواء أصحَّ هذا أم لم يصحَّ فقد رأت في رؤيا أسطولًا من السُّفن يصل ليحمل شعب الأحرار إلى الأمان عبر (البحر الضيِّق). آلاف من الذين فرُّوا من المعركة كانوا باليأس الكافي لتصديقها، وقادتهم الأم خُلد جميعًا إلى (هاردهوم) للصَّلاة وانتظار الخلاص الآتي عبر البحر».

قَطَّب أوثيل يارويك جبينه قائلاً: «لستُ جَوًّا، ولكن... يُقال إن (هاردهوم) مكان دِنس ملعون. عمُّك نفسه كان يقول هذا أيها اللورد سنو. لماذا يذهبون إلى هناك؟».

كانت أمام جون على المنضدة خارطة، فأدارها ليريهم، وقال: «(هاردهوم) تطلُّ على خليج محمي وتضمُّ ميناءً طبيعيًّا عميقًا بما فيه الكفاية لأكبر السُّفن، والأخشاب والأحجار وفيرة قُربها، والمياه تعجُّ بالأسماك، وثمَّة مستعمرات من الفقمة وأبقار البحر على مقربة».

ردَّ يارويك: «لا أشكُّ في صحَّة كلِّ هذا، لكنه ليس بالمكان الذي أرغبُ أن أقضي فيه الليل. إنك تعرف الحكاية».

يعرف جون الحكاية بالفعل. كانت (هاردهوم) في منتصف الطَّريق إلى أن تُصبح بلدة، البلدة الحقيقيَّة الوحيدة وراء (الجدار)، حتى تلك اللَّيلة قبل ستمئة عام عندما ابتلعها الجحيم. حسب النُّسخة التي تُصدِّقها من القصَّة فقد اختُطِف أهلها إلى العبوديَّة أو قُتلوا لأكل لحمهم، وأتى على بيوتهم وقاعاتهم حريق هائل تآجج لدرجة أن الحرس على (الجدار) بعيدًا في الجنوب حسبوا أن الشَّمس تُشرق من الشَّمال، وبعدها انهمرت أمطار الرَّماد على (الغابة المسكونة) و(البحر الرَّاجف) طيلة نصف عام. روى التُّجَّار أنهم وجدوا دمارًا كابوسياً حيث كانت (هاردهوم) من قبل، صفحة الأرض مأساة من الأشجار المتفحَّمة والعظام المحترقة، والمياه مخنوقة بالجُثث المتفخخة، ومن مداخل الكهوف المنتشرة في الجُرف العظيم المرتفع فوق المستوطنة يتردَّد صرير يجمد الدَّماء في العروق.

ستة قرون كاملة مرَّت منذ تلك اللَّيلة، لكن (هاردهوم) لا تزال منبوذة.

قيلَ لچون إن البراري استردَّت المكان، لكن الجوّالة يدَّعون أن الأطلال مسكونة بالغيلان والشياطين والأشباح المشتعلة المولعة بمذاق الدَّماء. قال چون: «إنه ليس المأوى الذي كنتُ لأختاره أيضًا، لكن الأمُّ خُلد سُمِعَت تقول إن الأحرار سيجدون الخلاص حيث لا قوا من قبل الهلاك». زَمَّ السِّبتون سلا دور شفّتيه قائلاً: «الخلاص لا يُوجد إلا عن طريق (السَّبعة). تلك السَّاحرة حكمت عليهم جميعًا بالفناء».

قال باون مارش: «وأنقذت (الجِدَار) ربما. إننا نتكلَّم عن أعداء. فليصلُّوا بين الأطلال، وإذا أرسلت إليهم آلهتهم سُنفاً تحملهم إلى عالمٍ أفضل فلا بأس، ففي هذا العالم ليس عندي طعام لهم».

قال چون وهو يبسط أصابع يده سيفه ويشيها: «قوادس كوتر پايك تمُرُّ بـ(هاردهوم) بين الحين والآخر، وقد أخبرني بأن لا مأوى هنالك إلا الكهوف التي يدعوها رجاله بـ«الكهوف الصَّارخة». الأمُّ خُلد ومن تبعوها سيموتون هناك من البرد والجوع، مئات منهم، آلاف».

- «آلاف من الأعداء، آلاف من الهمج».

آلاف من البشُر، رجال ونساء وأطفال. تصاعد الغضب من أعماق چون، لكن حين تكلم خرج صوته هادئاً بارداً: «أأنت أعمى أم أنك لا تُريد أن ترى؟ ما الذي تحسبه سيحدث حين يُدرك هؤلاء الأعداء الموت؟». ردَّد الغُدا ف من فوق الباب: «الموت، الموت، الموت!».

واصلَ چون: «دعني أخبرك بما سيحدث. سينهض الموتى من جديد بالمئات والآلاف، سينهضون كجُثثٍ حيَّة بأيدٍ سوداء وأعْيُن زرقاء شاحبة، وسيهاجمونا!»، ونهض وأصابع يده تنفتح وتنغلق، وأردف: «لكم إذني في الانصراف».

نهض السِّبتون سلا دور بوجهٍ مربد وجبين متعرق، وأوثيل يارويك بجمود، وباون مارش بشفتين مزمويتين ووجهٍ شاحب، وقال الأخير: «نشكرك على وقتك أيها اللورد سنو»، وغادروا دون كلمةٍ أخرى.